الشيخ الإمام داعية الإسلام

محمد متولي الشعراوي

الفتاوى الكبرى

دراسة وتحقيق

مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة



١٤٢٣هـ - 2003 م

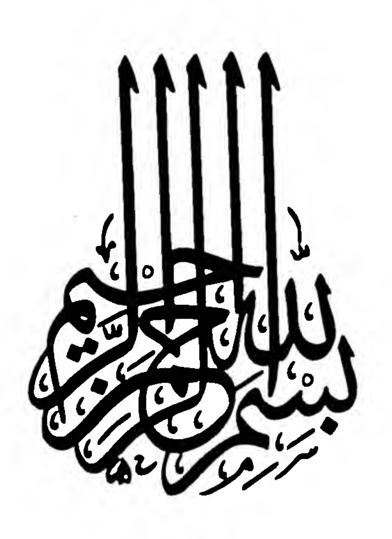


المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ ١١ - تلفاكس ٦٥٥٠١٥ ٠٠٩٦١١
صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلفاكس ٧٢٠٣١٧ ٠٠٩٦١٧
e-mail: alassrya@terra.net.lb

IBSN 9953 - 400 - 98 - 9





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد للّه، والصلاة والسلام على رسول اللّه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد. . . فمن الحقائق الثابتة التي لا يختلف فيها اثنان ولا ينتطح فيها عنزان أن شيخنا الراحل الجليل الإمام المجدد شيخ الدعاة، وإمام العارفين، وحيد عصره وفريد دهره، فخر الإسلام، وسلطان العلماء، وأمير الأولياء، الإمام الأعظم داعية الإسلام سماحة الشيخ، **محمد متولي الشعراوي** قد حظى بالقبول لدى كل الناس، وتغلغل حبه في كل القلوب. في قلوب أعدائه، كما هو في قلوب أتباعه، وقد كانت جنازته خير شاهد على ذلك، فقد عبر كل واحد منهم عن حبه بشتى الصور، فرأينا من خالفوه في حياته هم أشد الناس حزناً عليه بعد انتقاله إلى جوار ربه، وقرأنا وقرأ معنا كل الناس هذه المقالات الملتهبة التي تتدفق منها المشاعر الفياضة بطلب الرحمة والرضوان من ربنا الرحمن لشيخ الزمان. والمجال لا يتسع لأكثر من ذلك فموعدنا إن شاء اللّه تعالى في كتاب، «**عالم عصره في عيون مشيعيه**» وفيه اللحظات الأخيرة في حياة الشيخ الشعراوي، ونبذة عن حياته الحافلة بالدعوة والجهاد، وشيء من مآثره ومناقبه، رضي اللّه تعالى عنه وأسكنه منازل الأبرار في مقعد صدق عند مليك مقتدر مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو درة من درر شيخنا الإمام؛ طُبع في حياته طبعتين وأشاد به ورضيه، وكان يوصي بإعادة طباعته والحث على إيجاده في كل بيت لما له من عظيم الفائدة في تبصير المسلمين بأمور دينهم.

ولما انتقل رحمة اللّه تعالى عليه كان خبر هذا الكتاب يذاع من كل القنوات المحلية والعالمية، المسموعة والمرئية كأهم كتاب صدر للشيخ الإمام بل تم نقل التعريف الذي صدرنا به طبعتنا الأولى في كل الأخبار التي أذيعت في الأيام الأولى للوفاة، الأمر الذي حدا بعض قراصنة النشر ومحترفي السطو والتزوير أن يستغلوا اسم الكتاب ويخرجوا عناوين مشابهة له. ولكننا استشعرنا الخطر ورفضنا المتاجرة بوفاة الشيخ وامتنعنا عن إصدار الكتاب إلا بعد أن تتم إعادة النظر فيه وتحقيقه

وشرحه والتعليق عليه وترتيبه بمعرفة مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة الذي رضيه الشيخ رحمة اللَّه تعالى عليه لمراجعة وشرح كتبه وصياغة أفكاره وخواطره(١).

وهذا بحمد اللَّه دأبنا في كل إصداراتنا فلا يعاد إصدار كتاب إلا بعد النظر والتدقيق في كل كلمة فيه طلباً لرضي اللَّه تعالى أولًا ثم لنفع القراء ثانياً.

وها نحن بحمد اللَّه قد انتهينا من تحقيقه وإعادة مراجعته وهو الآن بين يديك عزيزي القارئ فاحتفِ به وادرسه وتعلمه واهده لغيرك أو انصح باقتنائه. ولا تنسَ الدعاء لشيخنا، ولنا معه، ولسائر أمة الحبيب محمد ﷺ وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين.

ليلة النصف من شعبان ١٤١٨هـ

نوفمبر ١٩٩٨م **عبد اللَّه حجاج**

---

(١) في حديثه لمجلة أكتوبر [العدد ١٠٧٦ - الأحد ٨ يونيو ١٩٩٧] للأستاذ رجب البنا رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير قال فضيلة الإمام: **إن الكتب التي تصدر باسم فضيلته لا يعلم عنها شيئاً إلا ما يصدر عن الأخبار ومكتبة التراث الإسلامي.**

ولما قامت إحدى دور النشر بطبع كتاب في « الفتاوى » منسوب لفضيلته سبق وأن اعترض عليه وتبرأ منه قام فضيلته بإصدار بيان نشرته الصحف والمجلات في حينه يقول فيه: « **محمد متولي الشعراوي لا يُقر أي كتاب ينشر عنه لغير دار الأخبار ومكتبة التراث الإسلامي وكل ما عدا ذلك لا يمثل رأيه** فإنهم إن أصابوا في شيء فقد أخطأوا في أشياء ليخدموا أهواءهم ولو أنهم أصابوا في الجميع لكنا قد تسامحنا معهم معاونة على لقمة العيش، ومن عجب أنه كتاب اسمه الفتاوى ظهر منسوب إليّ بعد قضية طال أمدها بيني - الشيخ - وبين من يدّعي نسبة الكتاب إليَّ، وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل وقد خاب من افترى.

وحسبي بلاءاً حتى من أحبابي أن ينشر سعيد أبو العينين كتاباً وعلى غلافه صورة مُزورة لي، فوالذي نفسي بيده ما لبست مثل هذه العمامة أبداً، وحسبي اللَّه فيه وفي كل من يدّعي عليَّ ما ليس فيَّ، أولم يكفه أنه نشر على الملأ كلاماً في مجلس خاص ولا يصح أن يطلع عليه كل العالم.

وأخيراً فحسبي اللَّه ونعم الوكيل وأفوض أمري إلى اللَّه، وليس لها من دون اللَّه كاشفة، اللَّهُمَّ إن كنت صادقاً فيما قلت فخذ لي حقي من كل هؤلاء.

محمد متولي الشعراوي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كلمة الناشر للطبعة الأولى:

إن الحمد للَّه نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد اللَّه فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وبعد،

كما يتدفق النمير الصافي من نبع فوار لا يأسن ماؤه ولا تنضب روافده، فيسقي الهيم الظماء، ويخرج النبات المثمر الزاكي من الأرض الطيبة، كذلك يفعل إمام العصر، فضيلة العارف باللَّه الشيخ، **محمد متولي الشعراوي** في عقول وقلوب الملايين، بما آتاه اللَّه من فهم، وما وهبه من حكمة، وما منحه من علم.

ولقد كان من حسن طالع هذا الجيل، والأجيال القادمة أن تتعلم وتتلمذ على يدي هذا الإمام الجليل، الذي يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، وتتلألأ مجالس علمه بنور اللَّه تعالى، وشفافية الحق، ونصاعة الحجة، وطلاقة البيان، وطهارة المنطق، وعفة العبارة، وجلال المعاني، وسمو المفاهيم، فهو يستلهم كتاب اللَّه، فتُفتح له أبواب الإلهام رحبة مضيئة تتهادي منها المعاني موشاة بالرواء والبهاء، ومن فضل اللَّه تعالى ورحمته سبحانه بهذه الأمة أن جعل وسائل الإعلام ميسرة في كل بيت؛ فعاش المسلمون عقولًا وقلوباً مع إلهامات شيخهم، ولمحات إمامهم، وخواطر معلمهم؛ فأصبح مجلس علمه ممتداً على الساحة الإسلامية كلها.

والداعية الإمام العارف باللَّه الشيخ: **محمد متولي الشعراوي** شاء اللَّه تعالى له أن يكون متعدد المواهب، متنوع الطاقات، إذا تكلم في اللغة حسبته متخصصاً فيها وحدها؛ لعلمه الواسع الغزير بحقائقها، وإذا تحدث في الفقه بهرك بما تضمه حافظته الواعية في شتى المسائل والأحكام، وكأنه عاكف في محراب الشريعة لا يبرحه، وإذا تناول كتاب اللَّه بالشرح والتفسيرخشع قلبك، وتعلقت أنفاسك بكلماته،حتى لا تفوتك خاطرة من خواطره الإيمانية الفياضة.

وهكذا في كل علم من علوم الدين، ترى أن إمامنا، قد تبوأ مكانة تتضاءل حيالها مكانة كل عالم أو فقيه أو محدث أو مفكر أو أديب من جيله، ورغم ذلك فهو متواضع كأشد ما يكون التواضع، يحاور الناس وكأنه لا يزيد عليهم علماً، ولا معرفة، ولا يفوقهم فهماً، وقد اجتمع له من الخصال ما جعله نسيج وحده.

وهو رضي اللّه تعالى عنه قد وضع الدنيا بكل ما فيها من زينة ومتاع تحت قدميه، أقبلت عليه فأعرض عنها، ولم يأخذ منها إلا ما يقيم صلة بينه وبين السماء.

ورحمة من اللّه بهذه الأمة أن قيض لها هذا الإمام العظيم في عصر تضافر فيه الملحدون والضالون وأرباب البدع، وسماسرة السياسة، على محاربة الإسلام - تارة بسلاح الفكر، وطورا بسلاح الجبروت والبطش - فكان فضيلته درع هذه الأمة وحصنها الحصين، بل لا أغالي إن قلت إنه رضي اللّه تعالى عنه أمة وحده، يجاهد الكفار والمنافقين، ويدمغ دعاواهم الزائفة الباطلة بحقائق الإسلام الناصعة. حتى جعلهم بحول اللّه فُلولًا لا تقوى على شيء.

إننا إذا كنا فخورين بأسلافنا العظام الذين ملأوا الدنيا علماً وحكمة أمثال، المحاسبي والغزالي، وابن تيمية، وابن القيم وغيرهم وغيرهم، فإننا نفخر بملهم عصرنا داعية الإسلام الشيخ الإمام: **محمد متولي الشعراوي** الذي أضاف إلى تراثهم ما يزهي به التراث، وأزال عن وجه العصر كل ما انساح عليه من ريب وشبهات، فباتت كل كلمة تصدر منه بمثابة مشعل ذاتي النور يضيء طريق السالكين ويهدي الحائرين، فطوبى لعصر بورك بالشيخ الإمام: **محمد متولي الشعراوي**، وطوبى للسائرين على نهجه تحت راية الحق مستلهمين كتاب اللّه تعالى وهدى رسوله ﷺ؛ متبعين لسلف الأمة رضي اللّه تعالى عنهم.

وإنه لشرف لا يدانيه شرف أن أكون خادماً أميناً في نشر القليل من علم فضيلته الغزير، الذي أسأل اللّه تعالى أن ينفع به الناس أجمعين، ودعوانا إلى اللّه تعالى أن يبارك في عمره وأن يمده بمدده، حتى يأخذ بأيدي الناس إلى رب الناس.

فعلى طريق العلم والمعرفة نعرض لقضايا العصر ومشكلات المجتمع الإسلامي مشفوعة برأي واجتهاد فضيلة العارف باللّه داعية الإسلام الشيخ الإمام:

محمد متولي الشعراوي وردوده المفحمة على المشككين في دين اللّه، والمجترئين على شريعته، والمجاهرين بعداوة الدين الحنيف، والمتسترين وراء أسماء إسلامية، وليس لهم من الإسلام حظ أو نصيب، بل إنهم أشد عداوة للإسلام من أعدائه الذين ينقمون عليه في كل مكان وفي كل مجال.

ومن نافلة القول أن نقول: إن كل فكرة وامضة يبديها فضيلة الشيخ الإمام: **محمد متولي الشعراوي** تبسط أشعتها الهادية على طريق الحياة، فمن كان مؤمناً زادته إيمانا، ومن كان جاحداً يتحاشى هذا النور خوفاً من أن يحدث زلزالًا يهز نفسه، ويقوض أوهامه.

وهذا الكتاب في الأصل هو حصيلة جهد طويل مبارك عاشه الأستاذ أحمد زين في رحاب فضيلة الشيخ الإمام سائلًا ومستمعاً يدون ما يصدر عن فضيلة الشيخ الإمام: **محمد متولي الشعراوي** من خواطر وأحاديث، وقد تم صياغتها على هيئة سؤال وجواب بحيث يكون شاملًا لكل ما يشغل بال المسلم، سواء كان شيخاً أو شاباً أو طفلًا أو امرأةً، وسواء كان من ذوي النفوذ والسلطان، أو من عامة الناس.

فكل خاطرة أو تساؤل يدور في ذهن المسلم أو على لسانه فسوف يجد في هذا السفر الجامع الجليل بغيته، ويستغني بهذا الفكر الوهاج عن اللجوء إلى عشرات كتب الكلام والقيل والقال.

ولا شك أن القارئ سيحس بهذا الفيض الغامر من النور، وهو يطالع تحليل إمامنا الجليل لكل مشكلة، وتصويره الدقيق لكل قضية، واستنباط الأحكام الفقهية من الكتاب والسنة، وإقامة الحجة والبرهان على كل رأي يبديه،كما سيلحظ القارئ الكريم بأنه أمام موسوعة علمية لا حدود لآفاقها.

فالشيخ بارك اللّه في عمره عندما يتحدث عن قضية من القضايا، تجده يدلل على صحة اجتهاده من كتاب اللّه تعالى، ومن سنة رسوله ﷺ ثم ما يفتح اللّه تعالى عليه به؛ حتى يقر في الأذهان أن المعرفة كالبحر اللجي يحتاج إلى غواص ماهر؛ لاستخراج الدرر من أعماقه البعيدة وأغواره السحيقة.

وأمام هذا القصف الإعلامي الشرس على الإسلام من أعدائه حيناً، ومن المسلمين المفتونين بالغرب حيناً آخر، كان لا بد أن يتصدى لهذا الغزو العلماء العاملون وكان في الصدارة فضيلة الشيخ الإمام: **محمد متولي الشعراوي**، الذي سلحه اللّه تعالى بالعلم والحكمة وقوة الإيمان وسلامة العقيدة؛ وأمكنه من

التصدي لهذا الزحف الغاشم، ومجابهة هذه الأقلام المسمومة [١].

كما يتناول هذا الكتاب قضية العقيدة وما حاول أن يلصق بها الملحدون من شبهات، والضالون من مزاعم، والجاهلون من خرافات، والمتعالمون من تعقيدات، ويبسط الأشعة الهادية الصافية التي بدد بها الشيخ الإمام: **محمد متولي الشعراوي** كل ما نُسج حول العقيدة من أوهام وظنون، مجلياً لحقيقة العقيدة الإسلامية، كما أرادها اللّه تعالى لعباده المؤمنين، وجعلها طريقهم إلى رحمته ورضوانه، ومبرزاً لجوهر الإسلام ولبابه في كلمات ينحدر أمامها الباطل خاسئاً حسيراً، كلمات امتزج فيها الفكر المؤمن بالعقيدة الصادقة بالعلم الغدق، بالحكمة الناطقة، بالأدب المبين، باللغة العذبة، بالأداء السهل الممتنع، ولذلك وجدت طريقها إلى القلوب، فأزالت ما ران عليها من فتن، وإلى العقول فكشفت ما تلبس بها من ضلال، وإلى النفوس فحسرت ما غشاها من ريب.

وإذا كان هذا شأن العقيدة في فكر إمامنا المجدد، فإن شئون الدين الأخرى وجدت في ذهنه الزاخر بالمعرفة، وقلبه المطمئن بذكر اللّه تعالى، وصدره الوضاء بالحجج البالغة، ما يجعل من روابط المسلم بأخيه المسلم عقدة وجدانية لا تحل، وعروة روحية لا تنفصم. فقد أبان فضيلة الشيخ الإمام: **محمد متولي الشعراوي** طريق المحبة والمودة والإيثار والتكافل الذي رسمه الإسلام لأتباعه، حتى يكونوا على هدى من اللّه وبصيرة، وحتى لا يضل أحدهم أو يشقى، إذا ما وجد نفسه أمام تيار وافد من تيارات الأخلاق الغريبة على مجتمعنا وبيئتنا، ويقف صلباً أمام تلك الموجات المتلاحقة من الغزو الفكري العارم الذي يزين الباطل، ويجمل السوء، ويغري باقتراف المعصية، ويوسوس بالسقوط في حمأة الإثم، وما أكثر ما يواجه المسلمون اليوم من مفاسد تأتيهم في ثوب حضاري، فتهلكهم وهم لا يشعرون.

كل هذه المفاسد حذر منها الشيخ الإمام: **محمد متولي الشعراوي** حتى لا يقع تحت إغرائها مسلم، وقد اختيرت إجاباته التي زينا بها هذا الكتاب واضحة

---

(١) تشرفت مكتبة التراث الإسلامي أن نشرت لفضيلته في هذا المجال:

○ **الأنوار الكاشفة** لما في كتاب العشماوى من الخطأ والتضليل والمجازفة.
وهو رد شامل على كتاب الخلافة الإسلامية للمستشار محمد سعيد العشماوى.

○ **الغارة على الحجاب**.
وفيه البيان لما في مقالات العشماوى وعبد العظيم رمضان من أباطيل وبهتان.

○ **شبهات وأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها**.

صريحة مبسطة عميقة موثقة هادية لا يحتاج معها القارئ إلى دليل أو برهان أو حجة أو سند؛ لأنها تحمل في طياتها كل أسباب قوتها ورسوخها، فما أحوج المسلمين إلى دراسة هذا الكتاب دراسة واعية متأنية؛ حتى يتزودوا بما يقيهم مزالق الشيطان، ومحاور الإلحاد، ومتاهة اللادينيين، وأن يجعلوا منه الأساس المتين الذي يقيمون عليه بناء حياتهم الفكرية، فهو نبراس من العلم الملهم يهديهم إلى سواء السبيل.

وفي هذا الكتاب - على سبيل المثال لا الحصر - يحلل فضيلة الشيخ الأسباب التي تجعل الأبوين أكثر حنانا وحبا للطفل الصغير من إخوته الكبار، كما يكشف بمنظاره الفكري الصافي عن بُؤَر العفن التي تعيشها الشيوعية، والسموم التي تحاول دسها على مائدة الفكر الإسلامي، ويبين لماذا تُقدم المجتمعات الإلحادية على الانتحار ؟ بينما المسلمون يجدون في التخلص من الحياة انحداراً إلى الكفر، كما علمهم دينهم الحنيف.

هذا ما أردت أن أتقدم به بين يدي هذه الفيوضات والفتوحات والإلهامات التي أفاض اللّه بها على شيخنا، فإن وجد القارئ الكريم ضالته فليدعُ لنا ولشيخنا، وإن كانت الأخرى فكل بني آدم خطاء، ويكفينا شرف محاولة تقريب فقه إمامنا وتيسيره لكل الناس.

بقي عزيزي القارئ أن أقدم لك لمحة موجزة عن حياة شيخنا المباركة وإن كان رضي اللّه تعالى عنه غَنِيًّا عن التعريف فقد سبق علمه شهرته ولكن جرت عادة الوراقين أن يترجموا لعلمائهم، ليكونوا أسوة لقرائهم في جهدهم وجهادهم، فنقول: هو بقية السلف الصالح، عالم عصره، وفريد دهره.

الشيخ الإمام
داعية الإسلام: محمد متولي الشعراوي

- ولد رضي اللّه تعالى عنه في ١٦ إبريل سنة ١٩١١م. بقرية دقادوس مركز ميت غمر محافظة الدقهلية.
- حفظ - بارك اللّه فيه - القرآن الكريم في قريته وتلقى التعليم في معهد الزقازيق الديني الابتدائي، والثانوي، ثم التحق بكلية اللغة العربية.
- حصل على الشهادة العالمية سنة ١٩٤١ م.
- حصل على شهادة العالمية الدكتوراة مع إجازة التدريس سنة ١٩٤٣م.

○ عُين مدرساً بمعهد طنطا الأزهري وعمل به، ثم نقل إلى معهد الإسكندرية، ثم معهد الزقازيق.

○ أعير فضيلته للعمل بالمملكة العربية السعودية سنة ١٩٥٠ م. وعمل مدرساً بكلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة.

○ عُين وكيلا لمعهد طنطا سنة ١٩٦٠ م.

○ عُين مديراً للدعوة الإسلامية بوزارة الأوقاف المصرية سنة ١٩٦١م.

○ عُين مفتشاً للعلوم العربية بالأزهر الشريف سنة ١٩٦٢ م.

○ عُين مديراً لمكتب الإمام الأكبر الشيخ حسن مأمون سنة ١٩٦٤ م.

○ عُين رئيساً لبعثة الأزهر الشريف في دولة الجزائر سنة ١٩٦٦ م.

○ عُين أستاذاً زائراً بجامعة الملك عبدالعزيز - كلية الشريعة - بمكة المكرمة سنة ١٩٧٠م، ثم رئيساً لقسم الدراسات العليا بجامعة الملك عبد العزيز ١٩٧٢م.

○ عُين وزيراً للأوقاف وشئون الأزهر بمصر سنة ١٩٧٦ م.

○ عُين عضواً بمجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٨٠ م.

○ اختير عضواً بمجلس الشورى سنة ١٩٨٠ م.

○ يقوم فضيلته الآن بمهمة الدعوة الإسلامية على أوسع نطاق بارك اللَّه لنا في عمره.

واللَّه يقول الحق ويهدي إلى سواء السبيل، وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد اللَّه رب العالمين.

عبد اللَّه حجاج

افتتاحية الكتاب

في كثيرٍ من الأحيان تحدثُ في حياة الإنسان أشياء لا يستطيع أن يفهمها أو يعرف مدلولها إلا بعد أن تحدث بفترة طويلة، حينئذٍ يحس أو يعرف لماذا وقع هذا الحدث بالذات ؟، أو ما الذي جعل ما أسماه صدفة، يتم بالصورة التي تمت عليها ؟، ومنذ عدة سنوات، عندما بدأت أكتب في اليوميات عن الناحية الدينية اصطدمت بمئات الخطابات التي أوضحت لي ما يعانيه الشباب في مصر، وخصوصاً شباب الجامعة من تمزق وحيرة، بسبب عدم الفهم الحقيقي لبعض الأمور الدينية التي صُور لهم خطأً أنه يوجد تناقض بين الدين والعلم، وبين الدين والتقدم، وبين الدين والحضارة، واستغل بعض الناس الذين يهمهم هدم كل القيم في المجتمع هذه المفاهيم الخاطئة؛ ليلصقوا تهمة التخلف بالدين، ويضخموا التناقض الذي يدعونه، ويأتوا بنظريات علمية خاطئة وغير ثابتة، وغير يقينية؛ ليواجهوا بها القرآن، ولقد أدى ذلك إلى عكس ما كانوا يريدونه، فبدلاً من أن تنهار القيم وينصرف الشباب عن الدين، ازداد الوعي الديني اتقاداً عند الشباب، وأصبح هناك ما أسميه « بالجوع » إلى التفسير الديني السليم الذي يُشبع الشباب، ويزيل التناقضات من نفوسهم؛ لذلك كان هذا الكتاب المستوحى من خلاصة آراء وفكر الشيخ الإمام: **محمد متولي الشعراوي** الذي أحسست أنه يحمل حلاً حقيقياً لمشكلة الشباب الحائر فمنهجه القرآن، وتفسيره عصري، وحجته قوية، ولا يهاب المناقشات.

وقد اشتمل هذا الكتاب على إجابة كثير من التساؤلات التي تدور في أذهان الشباب وغير الشباب في شتى مجالات الحياة.

وهي إجابات تشفي الصدور، وتزيح ما ران على القلوب من وهم أو شك، وكلها مستنبطة من الكتاب والسنة والفهم الدقيق لدين اللّٰه تعالى.

ولعل شبابنا يجدون في هذا الكتاب ما تعوزهم معرفته من أحكام الدين،

سواء في مجال العقيدة، أو المجالات الأخرى التي تهم كل مسلم، ويتطلع إلى الإلمام بها من منظور إسلامي.

وعسانا بهذا الكتاب أن نكون قد أضفنا لبنة إلى صرح علوم الدين، وزودنا قراءنا بما هم بحاجة إليه من ثقافة ومعرفة.

والله ولي التوفيق

أحمد زين

رئيس تحرير جريدة اللواء الإسلامي

ومدير تحرير الأخبار

الكل يؤمن بوجود اللَّه . . . ولكن !

السؤال: اليقين بوجود اللَّه تعالى كامن في النفس البشرية، فلماذا يحاول البعض إنكار وجوده سبحانه ؟

الجواب: إن الإنسان حين يصل إلى مرحلة التفكير في الآيات الدالة على وجود اللَّه، باستخدام العقل البشري، لا بد أن تكون قد مرت فترة من عمره حتى ينضج ويكون قد تجاوز سن العشرين أو الثلاثين، ولكننا نجد الطفل الصغير يعبد اللَّه، والعقل البسيط الذي لم يقرأ كتاباً واحداً يعرف أن اللَّه تعالى موجود، والإنسان الدارس والفيلسوف يؤمن بوجود اللَّه تعالى.

كل العقول تتفاوت في الفهم، وربما تتفاوت في المنطق، وفي أشياء كثيرة، ولكنها بكل ثقافتها وفهمها سواء كان بسيطاً أو عميقاً تعبد اللَّه دون أن تحس أن هناك تناقضاً بين وجود الخالق سبحانه وتعالى والكون الذي تعيش فيه، بل إن أكثر الناس يحسون بانسجام فطري غريب، بأن وجود اللَّه سبحانه وتعالى ووجود الكون حقيقتان داخل النفس، وليس بينهما أي تناقض.

وإذا كان يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد وجود اللَّه سبحانه وتعالى، وإذا كان كل من يحاول أن يحجب وجود اللَّه تعالى يفهم هو معنى هذه الكلمة التي يحاول أن ينكرها ليكون إلهه هواه، فيصنع ما يريد دون قيد أو تكليف. فإن وجود اللَّه تعالى في نفوسنا بالفطرة، وفهمنا جميعاً لمعنى اسم « اللَّه » تعالى لهو فوق ذلك كله، كما أن المناقشات التي تتم كلها إنما هي تأكيد بأن اللَّه سبحانه وتعالى موجود، وأنه الخالق القادر على كل شيء، وهو سبحانه على كل شيء وكيل[١].

❁ ❁ ❁

(١) لمزيد من المعرفة راجع كتاب: « الأدلة المادية على وجود اللَّه تعالى »، وكتاب: « إثبات وجود اللَّه ووحدانيته » كلاهما لفضيلة الشيخ الإمام، ومن منشورات مكتبة التراث الإسلامي.

معنى الإيمان بالله

السؤال: ما معنى الإيمان بالله وما ثمرته ؟

الجواب: الإيمان بالله معناه أنك قد آمنت وصدَّقت بأنه سبحانه الذي خلق الخلق، وهو سبحانه منزه عن كل هوى وغرض، وأنه سبحانه ليس كمثله شيء، في العلم، والخلق، والرحمة، والانتقام، إلى آخر صفات الله سبحانه وتعالى، ومن هنا فإذا دخل الإيمان القلب؛ فلا يجب أن نقيس علمنا بعلم الله سبحانه وتعالى، ولا قدرتنا بقدرة الله سبحانه وتعالى، فإذا قال الله افعل، فأنت لست مؤهلًا لأن تقول لماذا؟ لأن النقاش لا يكون إلا بين عقلين متساويين، وشتان بين قدرة الله وقدرة البشر، وإذا قال لا تفعل فأنت لست مؤهلًا لأن تقول لماذا ؟ لأن علم الله لا يمكن أن يقاس بعلمك.

الإيمان بالله سبحانه وتعالى هو تسليم لقدرة الله التي ليست فوقها قدرة، ولعلم الله الذي ليس فوقه علم، فالله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء وهذا هو مدخل الإيمان إلى النفس البشرية، وهو مدخل لا يأتي إلا بعد تفكر وتدبر في الكون وآياته، على أن بعض الناس يسمي ذلك عبودية، ويقول إن الدين عبودية، ونحن نقول نعم الدين عبودية لله سبحانه وتعالى، وفرق كبير بين العبودية لله والعبودية لبشر، فالمخلوق عندما يستعبدك يريد أن يأخذ منك أو من قدرتك؛ ليضمها إلى قدراته ويجردك من الخير الذي تستطيع أن تحققه؛ ليضمه إلى الخير الذي يملكه فإذا استعبد إنسان مجموعة من البشر؛ فإنه يجعلهم يعملون من أجله؛ فيزرعون الأرض ويأخذ هو المحصول ويقيمون العمارات ويأخذها هو، أي: أن عبودية البشر هي تجريد للعبد من كل خير يستطيع أن يحققه لصالحه، وهذه العبودية يرفضها الإسلام.

أما عبوديتك لله سبحانه وتعالى فهي تزيد من قدراتك وتمنحك الخير والبركة. وتزيد من عطاء الله لك فهي عبودية لصالحك.

❁ ❁ ❁

الأمانة التي حملها الإنسان

السؤال: ما هي الأمانة التي جاءت في قول اللّه تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢] ؟

الجواب: الأمانة هنا معناها حرية اختيار الحق دون أي ضغط خارجي، فالإنسان الأمين هو الذي يحصل على مال من إنسان آخر، ولا يوجد بينهما أي ضمانات، كورقة مكتوبة أو رهان مقبوضة، كنوع من الإثبات، فإذا جاء الرجل ليطالب بدينه، لم يكن الحكم هنا إلا ضمير الإنسان الذي أخذ المال، فإذا أدى الأمانة، أي أعطى الرجل حقه كان أميناً، وإذا أنكر الأمانة فإنه قد خانها، وفي الحالتين هو يتصرف بمحض إرادته، ودون حدوث أي ضغط عليه.

والأمانة التي حملها الإنسان أساسها الاختيار الحر، والإنسان عندما حمل الأمانة أخذ حرية الاختيار في « افعل ولا تفعل »، ومن هنا كانت الرسالات السماوية التي نزلت تقول للإنسان: افعل كذا ولا تفعل كذا، فماذا حدث ؟ صور له جهله أشياء كثيرة، فعبد كل شيء في الدنيا، عبد الأحجار والأصنام، وعبد النار والشمس، وعبد الحيوانات المفترسة، والحيوانات الأليفة، وانطلق في جهل بعيد عن اللّه سبحانه وتعالى الخالق لكل هذا الكون، المدبر له، انطلق الإنسان جاحداً لنعمة اللّه تعالى عليه، ترك الرسالات التي أنزلها اللّه سبحانه وتعالى له، والتي ترسم له طريق الحياة الطيبة الآمنة المؤدي إلى رضى اللّه تعالى، وأخذ يشرع لنفسه حسب أهوائه، فأصابه الشقاء وحلت به الكوارث في الدنيا، وما ينتظره في الآخرة أشد وأعظم[1].

---

(١) قال أبو حيان في تأويل ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ [الأحزاب: ٧٢] رشد من ترك الأذى واتقاء اللّه تعالى وسداد القول، ورتب على الطاعة ما رتب، بيّن أن ما كلفه الإنسان أمر عظيم، فقال، ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾، تعظيماً لأمر التكليف، والأمانة الظاهر أنها كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهي وشأن دين ودنيا. والشرع كله أمانة، وهذا قول الجمهور، =

....

= ولذلك قال أبي بن كعب، من الأمانة أن اؤتمنت المرأة على فرجها. وقال أبو الدرداء، غسل الجنابة أمانة، والظاهر عرض الأمانة على هذه المخلوقات العظام، وهي الأوامر والنواهي، فتثاب إن أحسنت، وتعاقب إن أساءت، فأبت وأشفقت، ويكون ذلك بإدراك خلق اللّٰه فيها، وهذا غير مستحيل، إذ قد سبح الحصى في كفه عليه الصلاة والسلام، وحن الجذع إليه، وكلمته الذراع، فيكون هذا العرض والإباء حقيقة.
قال ابن عباس: أعطيت الجمادات فهماً وتمييزاً، فخيرت في الحمل، وذكر الجبال، مع أنها من الأرض، لزيادة قوتها وصلابتها، تعظيماً للأمر.
وقال ابن الأنباري: عرضت بمسمع من آدم عليه الصلاة والسلام، وأُسمع من الجمادات الإباء ليتحقق العرض عليه، فيتجاسر على الحمل غيره، ويظهر فضله على الخلائق، حرصاً على العبودية، وتشريفاً على البرية بعلو الهمة.
وقيل: هو مجاز، فقيل: من مجاز الحذف، أي على من فيها من الملائكة، وقيل: هكذا في الأصل، وأظن واللّٰه أعلم أنها: « من » باب التمثيل.
قال الزمخشري: إن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمة وثقل محمله أنه عرض على أعظم ما خلق اللّٰه من الأجرام وأقواه وأشده أن يتحمله ويستقل به، فأبى حمله والاستقلال به، وحملها الإنسان على ضعفه ورخاوة قوته. ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾. حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها. ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب، وما جاء به القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم. من ذلك قول العرب: لو قيل للشحم أين تذهب لقيل: أسوي العوج. وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات وتصور مقالة الشحم محال، ولكن الغرض أن السمن في الحيوان مما يحسن قبحه، كما أن العجف مما يقبح حسنه؛ فصور أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع في نفس السامع، وهي به آنس، وله أقبل، وعلى حقيقته أوقف، وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها وثقل محملها والوفاء بها.
فإن قلت: قد علم وجه التمثيل في قولهم للذي لا يثبت على رأي واحد، أراك تقدم رجلًا وتؤخر أخرى، لأنه مثلت حال تميله وترجحه بين الرأيين، وتركه المضي على إحداهما بحال من يتردى في ذهابه، فلا يجمع رجليه للمضي في وجهه، وكل واحد من الممثل والممثل به شيء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة، فليس كذلك ما في الآية فإن عرض الأمانة على الجماد، وإباءه وإشفاقه محال في نفسه غير مستقيم، فكيف صح بها التمثيل على المحال؟ وما مثال هذا إلا إن تشبه شيئاً، والمشبه به غير معقول. قلت: الممثل به في الآية، وفي قولهم: لو قيل للشحم أين تذهب؟ وفي نظائره مفروض، والمفروض أن يتخيل في الذهن. كما أن المحققات مثلت حال التكليف في صعوبته وثقل محمله بحال المفروض، لو عرضت على السموات والأرض والجبال ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. =

....

۞ ۞ ۞

= وقال أيضاً: إن هذه الأجرام العظام قد انقادت لأمر اللّه انقياد مثلها، وهو ما تأتي من الجمادات، حيث لم يمتنع على مشيئته إيجاداً وتكويناً وتسوية على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة. كما قال: ﴿ أَتَيْنَا طَآيِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١]. وأما الإنسان، فلم يكن حاله فيما يصح منه من الانقياد لأوامر اللّه ونواهيه، وهو حيوان صالح للتكليف، مثل حال تلك الجمادات فيما يصح منها ويليق بها من الانقياد، والمراد بالأمانة، الطاعة، لأنها لازمة للوجود، كما أن الأمانة لازمة للأداء، وعرضها على الجمادات وإباؤها وإشفاقها مجاز. وحمل الأمانة من قولك: فلان حامل للأمانة ومحتمل لها، يريد أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته ويخرج عن عهدتها، لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها، وهو حامل لها. ألا تراهم يقولون، ركبته الديون؟ ولي عليه حق؟ فأبين أن لا يؤدونها، وأبى الإنسان أن لا يكون محتملاً لها لا يؤديها. ثم وصفه بالظلم لكونه تاركاً لأداء الأمانة، وبالجهل لخطئه ما يسعده مع تمكنه منه وهو أداؤها. انتهى، وفيه بعض حذف.

وقال قوم: الآية من المجاز، أي إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال، رأيتهما أنهما لا تطيقانها، وأنهما لو تكلمتا لأبتاها وأشفقتا منها؛ فعبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ﴾ وهذا كما تقول، عرضت الحمل على البعير فأباه، وأنت تريد بذلك مقارنة قوته بثقل الحمل، فرأيتها تقصر عنه؛ ونحوه « قول ابن بحر » معنى عرضنا، عارضناها وقابلناها بها. ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾،

البحر المحيط [٨/ ٥٠٨، ٥١٠].

وقال القاسمي: ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ عرضها عليه. إما باعتبارها بالإضافة إلى استعداده، أو بتكليفه إياها يوم الميثاق – أي، تكلفها والتزامها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة - وهو إما عبارة عن قبولها لها بموجب استعداده الفطري، أو عن اعترافه بقوله: «بلى». وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ وسط بين الحمل وغايته، للإيذان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله، أي: أنه كان مفرطاً في الظلم، مبالغاً في الجهل، أي: بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة. أو اعترافهم السابق دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة اللّه تبديلا.

محاسن التأويل [١٣/ ٤٩٢٤].

إيمان المؤمن متى يكون وجداناً وعقيدة ؟

السؤال: متى يصير الإيمان وجداناً وعقيدة ؟ وما ثمرة ذلك في جوارح المؤمن وكيانه ؟

الجواب: إننا نحمد اللَّه تعالى لأننا ننفعل بما خلقه فينا ولنا، ومعنى هذا الانفعال أننا امتلكنا القدرة على استقبال الإيمان بالفكر، واستقر هذا الفكر الإيماني في الوجدان، فصار الإيمان وجداناً وعقيدة، ومعنى الوجدان، اتصال الموجود بالموجد على محبة، ومعنى « العقائد » ارتباط المخلوق بالخالق برباط لا يمكن أن يحله أحد، بحيث لا تطفو في الذهن أشياء أو أفكار تبعدنا عن الإيمان؛ لأن رباط العقيدة ورباط الوجدان يشعان على كل جوارح وملكات المؤمن بإشعاع اليقين؛ لأن المؤمن يحمد اللَّه على النعمة، والحمد على النعمة ليس مقصوراً على العقل فقط ولا على القلب فقط، إنما الحمد على النعمة يشع من جوارح المؤمن وكل كيانه.

لذلك فكل ما في كيان المؤمن يتمتع بنعمة اللَّه تعالى عليه وينفعل بالحمد له والثناء عليه، وهذا المعنى يؤكده الحق تبارك وتعالى في قوله، ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [1] [الزمر: ٢٣].

---

(١) قال العلامة ابن كثير: هذا مدح من اللَّه عز وجل لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم. قال اللَّه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾

وقال قتادة: الآية تشبه الآية والحرف يشبه الحرف.

وقال الضحاك: مثاني ترديد القول ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى.

وقال عكرمة والحسن: ثني اللَّه فيه القضاء زاد الحسن تكون السورة فيها آية وفي السورة الأخرى آية تشبهها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مثاني مردد، ردد موسى في القرآن وصالح وهود والأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أمكنة كثيرة. =

وفي هذا تأكيد على أن هداية اللّه للمؤمن هداية شاملة للجوارح، أما من

= وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي اللّه عنهما: ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ القرآن يشبه بعضه بعضاً ويرد بعضه على بعض.

وقال بعض العلماء ويروى عن سفيان بن عيينة معنى قوله تعالى: ﴿مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ إن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد فهذان من المتشابه، وتارة تكون بذكر الشيء وضده؛ كذكر المؤمنين ثم الكافرين وكصفة الجنة ثم صفة النار وما أشبه هذا فهذا من المثاني، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار] وكقوله عز وجل: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ [المطففين: ٧: ١٨] ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ ونحو هذا من السياقات فهذا كله من المثاني أي: في معنيين اثنين، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضاً وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله تعالى: ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ ذاك معنى آخر، وقوله تعالى: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣] أي: هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر ٢٦] لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القينات.

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم كما قال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال] وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها بل مصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها فلهذا إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة - رضي اللّه تعالى عنهم - عند سماعهم كلام اللّه تعالى من تلاوة رسول اللّه ﷺ تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر اللّه، لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فيهم بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة. قال عبد الرزاق: حدثنا معمر قال: تلا قتادة رحمه =

يضل عن ذلك فلا منقذ له إلا إذا شاء اللّه، إن قلب المؤمن يصبح مركزاً للإشعاع لكل الجوارح والذات.

وينتشر شعاع الإيمان فيمتد إلى خارج المؤمن لينسجم مع حركة الحياة كلها، فعندما يستقر الإيمان في القلب، ويتركز في العقل كعقيدة، يصبح كل سلوك إنساني يصدر بعد ذلك هو في نور منهج اللّه فلا يصدر شيء أبداً من انفعال المؤمن إلا على ضوء منهج اللّه؛ لأن الانفعال الإيماني هو مركز دائرة الانسجام من الكون الذي خلقه اللّه تعالى.

۞ ۞ ۞

= اللّه: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ قال: هذا نعت أولياء اللّه، نعتهم اللّه عز وجل بأن تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر اللّه ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان.

وقال السدي: ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣] أي: إلى وعد اللّه، وقوله: ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [الأنعام: ٨٨] أي: هذه صفة من هداه اللّه ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله اللّه: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣]. ص ٢٦

تفسير ابن كثير [٤/ ٥٢].

خطاب اللّه للبشر

السؤال: إن اللّه يخاطبنا مرة بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾.

ومرة بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾.

فما الحكمة في كل من الخطابين ؟

الجواب: لا بد لنا من أن نفهم أن الحق تبارك وتعالى عندما يقول:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، فإن ذلك يعني أنه يخاطب كل البشر؛ ليعرض أمر العقيدة أولًا.

ولا بد لنا أن نفرق بين ذلك وبين قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾.

إن الخطاب عندما يوجهه الخالق للمؤمنين يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾، معنى ذلك أن خطاب اللّه لعباده قد تجاوز منطقة عرض العقيدة إلى منطقة التكليف بأحكام الإسلام.

أما قضية العقيدة فيخاطب بها الناس بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١].

إن الخالق الأعظم يعرض على الناس أولًا قضية الإيمان بالعقيدة، ويخبرهم أنه الخالق لهم وللذين من قبلهم.

إن الخالق سبحانه يعطي للبشر أولًا قضية الإيمان، فإن آمنوا بأنه لا إلـٰه إلا هو خالق كل شيء؛ هذا الإيمان يلزمهم أن يأخذوا عن رسوله التشريع الإلهي والتكليف الإيماني.

هكذا نفهم أنه قبل أن يكلفنا الخالق بالعبادة، يوجد في قلوبنا نوافذ إدراك الإيمان[١].

---

(١) **قال الشيخ الإمام**: لنا أن نلحظ أن الحق حين ينادي المؤمنين يقول دائما: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ أي: يا أيها الذين انعقدت في قلوبهم رابطة اليقين كقضية مسلم بها لا تقبل =

....

۞ ۞ ۞

= النقاش ولا تطفو إلى الذهن ليعود أمر مناقشتها، يا أهل اليقين الإيماني الذين قبلتم التكليف الصادر من ربكم بأن تسيروا على منهجه، اسمعوا لهذا الأمر وأطيعوا؛ والله تبارك وتعالى لا يكلف بمنهجه إلا من آمن به؛ لذلك وقبل أي تكليف تجد النداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ لماذا؟ لأن غير المؤمن مطالب أولاً بالإيمان.

إن الحق سبحانه لا يقهر أحداً على الإيمان به، فمن اختار الإيمان فله كرامة التكليف، ومن لم يختر الإيمان فله مرارة الحياة بدون منهج، إن التكليف تكريم من إله حكيم قادر، ومن آمن بالله يصبح التكليف مسئولية عليه في الحركة.

منهاج الصالحين [١/ ١٧٠].

الفطرة السليمة تهدي إلى اللّٰه تعالى

السؤال: علماء النفس بذلوا جهوداً كثيرة لمعرفة أسرارها، ولكنهم ما زالوا عاجزين عن فهمها، فما رأي فضيلتكم في النفس البشرية وفي الفطرة ؟ وكيف يهتدي الإنسان بفطرته إلى اللّٰه تعالى ؟

الجواب: إن النفس البشرية في أعماقها لغز حتى على صاحبها، فيها ملكات لم يكشف عنها اللّٰه سبحانه وتعالى للإنسان حتى الآن، فالإنسان في كثير من الأحيان لا يفهم نفسه، ولا يصل إلى أعماقها وأسرارها، والسلوك البشري لا يزال لغزاً أمام معظم الباحثين، وإذا كانت هناك قوانين تحكمنا ونعرفها، فهناك قوانين كثيرة لا نعلم عنها شيئاً تحكم معظم تصرفاتنا، فالإنسان عندما يحب مثلاً، لا يعرف لماذا يحب ؟ فقد يكون الشخص الذي تحبه لا يستحق هذه العاطفة، وقد يكون إنساناً بالغ السوء، وفيه من الصفات ما تكره، ومع ذلك تحبه، فالحب والكره عاطفتان لا يعرف العقل البشري قوانين لهما، بل إن فيهما ما هو ضد المنطق والعقل في كثير من الأحيان، فالنفس البشرية في عواطفها مزيج غريب من المنطق واللامنطق، والعقل واللاعقل، والتضحية والأنانية، وهي لغز وستظل لغزاً.

وإذا كانت النفس البشرية لغزاً لا نستطيع أن نفهمه، فإن فيها فطرة نشعر بها جميعا، تلك الفطرة هي صلة هذه النفس باللّٰه، فنحن جميعاً نعرف اللّٰه بالفطرة، يعرفه الطفل، والشاب والكهل، والمثقف والجاهل، وهؤلاء جميعاً قد لا يستطيعون أن يشتركوا في استيعاب شيء واحد، ولكنهم جميعاً يفهمون كلمة اللّٰه تعالى، وتهتز نفوسهم عند سماع كلام اللّٰه رغم الفوارق بين العقول [(١)] .

---

(١) قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠].
قال ابن كثير: يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه اللّٰه لك من الحنيفية ملة إبراهيم الذي هداك اللّٰه لها وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر اللّٰه الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره.
وفي الحديث: « إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم.
تفسير ابن كثير [٣/ ٤١٦].

الملحدون وقضية الإيمان بالغيب

السؤال: الملحدون يشككون في الغيبيات؛ ليتسللوا بسمومهم إلى النفس الضعيفة. نريد من فضيلتكم إعطاءنا تفسيراً لقضية الإيمان بالغيب !

الجواب: إن أمور الغيب دائماً هي الباب الذي يدخل منه كل ملحد إلى النفوس الضعيفة، لماذا ؟ لأننا لا نرى الغيب، لأننا إذا رأينا شيئاً فلا نقول إننا نؤمن به؛ لأننا نراه عين اليقين، ولأن الإيمان ليس مطلوباً في الحسيات والمشاهدات، ولكنه مطلوبٌ في الغيبيات، فيما هو غيب عنا، وقد جعل اللّه سبحانه وتعالى الإيمان بالغيب أولى مراتب الإيمان، فقال في سورة البقرة: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾ [البقرة].

إذن . . جعل اللّه سبحانه وتعالى أول شروط التقوى: الإيمان بالغيب، باعتباره قضية هامة جداً، تحكم السلوك الإنساني، فأنت ما دمت تؤمن بالغيب، وباليوم الآخر وبالحساب؛ فأنت تخشى اللّه سبحانه وتعالى في كل عمل تعمله فإذا مددت يدك لتسرق، تتذكر أنك ملاقِ اللّه، وأنه سيحاسبك على ذلك؛ فتتراجع عن هذه السرقة. وإذا أردت أن ترتكب ما حرم اللّه، وتذكرت الآخرة والحساب، خشيت اللّه وتراجعت.

إذن . . أساس السلوك البشري في الدنيا، هو الإيمان بالغيب، والإيمان بالغيب يدخل فيه أساساً الإيمان باليوم الآخر، فإذا لم يكن إيمانك بكل هذا، إيمان يقين، بمعنى أن ذلك كائن وكأنك تراه أمامك، يقيناً لا يتطرق إليه الشك أبداً، وإلا تكون قد اهتززت في هذه الحياة، ويستطيع هذا الملحد أو غيره أن يدخل إليك ليضع الشك في نفسك، ويحاول أن يوهمك أن كل حديث عن الغيب هو غير صحيح، أو غير واقع، وإذا حدث ذلك لا قدر اللّه، فإن السلوك الإيماني كله يتغير[١].

---

(١) قال الشيخ الإمام: بعد أن بين اللّه سبحانه وتعالى لنا أن القرآن الكريم =

والإيمان باليوم الآخر وهو من الإيمان بالغيب، هو أساس الإيمان كله، فما

= ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي: إنَّ فيه المنهج والطريق لكل من يريد أن يجعل بينه وبين غضب اللَّه وقاية، أخبرنا سبحانه: صفات هؤلاء المتقين ومن هم.

وأول صفة هي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾.

ما هو الغيب الذي جعله اللَّه أول مرتبة في الهدى، وفي الوقاية من النار ومن غضب الجبار؟

الغيب: هو كل ما غاب عن مدركات الحس، فالأشياء المحسة التي نراها ونلمسها لا يختلف فيها أحد، ولذلك يقال: ليس مع العين أين؛ لأن ما تراه لا تريد عليه دليلًا، ولكن الغيب لا تدركه الحواس، إنما يدرك بغيرها.

ومن الدلالة على دقة التعريف أنهم قالوا إن هناك خمس حواس ظاهرة هي: السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس؛ ولكن هناك أشياء تدرك بغير هذه الحواس.

لنفرض أن أمامنا حقيبتين. الشكل: هو هو، والحجم: هو هو، هل تستطيع بحواسك الظاهرة أن تدرك أيهما أثقل من الأخرى؟ هل تستطيع الحواس الخمس أن تقول لك أي الحقيبتين أثقل؟ لا؛ لا بد أن تحمل واحدة منهما، ثم تحمل الأخرى لتعرف أيهما أثقل.

بأي شيء أدركت هذا الثقل؟ بحاسة العضل؛ لأن عضلاتك أُجهدت عندما حملت إحدى الحقيبتين، ولم تجهد عندما حملت الثانية، فعرفت بالدقة أيهما أثقل، لا تقل باللمس؛ لأنك لو لمست إحداهما ثم لمست الأخرى لا تعرف أيهما أثقل، إذن.. فهناك حاسة العضل التي تقيس بها ثقل الأشياء. ولنفرض أنك دخلت محلًا لبيع القماش، وأمامك نوعان من قماش واحد، ولكن أحدهما أرق من الآخر، بمجرد أن تضع القماشين بين أنامِلك تدرك أن أحدهما رقيق والآخر أكثر سمكاً، بأية حاسة أدركت هذا؟ ليس بحاسة اللمس ولكن بحاسة البين وحكمها لا يخطئ.

وعندما تشعر بالجوع، بأية حاسة أدركت أنك جوعان؟ ليس بالحواس الظاهرة، وكذلك عندما تظمأ، ما هي الحاسة التي أدركت بها أنك محتاج إلى الماء؟ وعندما تكون نائما؛ أي حاسة تلك التي توقظك من النوم؟ لا أحد يعرف.

إذن.. هناك ملكات في النفس وهي الحواس الظاهرة. وهناك إدراكات في النفس، وهي حواس لا يعلمها إلا خالقها، لذلك عندما يأتي العلماء ليضعوا تعريفاً للنفس البشرية نقول لهم: ماذا تعرفون عن هذه النفس؟! إنكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، ولكن هناك أشياء داخل النفس لا تعرفونها، هناك إدراكات لا يعلم عنها الإنسان شيئاً، وهي إدراكات كثيرة ومتعددة؛ لذلك يخطئ من يقول: إن ما لا يدرك بالحواس البشرية الظاهرة هو غيب؛ لأن هناك ملكات وإدراكات متعددة تعمل بغير علم منا.

لو أعطي لطالب تمرين هندسي فأجاب عليه؛ هل نقول أنه عَلِمَ غيباً؟ لأن حل التمرين كان غيباً عنه ثم وصل إليه، لا؛ لأن هناك مقدمات وقوانين أوصلته إلى هذا الحل.

والغيب: بلا مقدمات ولا قوانين تؤدي إليه، وهل عندما تعلن الأرصاد الجوية أن غدا =

دام ليس هناك حساب، فمن تخشى ؟ وممن تخاف ؟ لماذا ترتدع ؟ من الذي يرفع

= يوم مطير شديد الرياح . . أتكون قد عَلمتْ غيبا ؟ لا؛ لأنها أخذت المقدمات ووصلت بها إلى نتائج، وهذا ليس غيباً؛ بل كثير من حساباتها تخطئ أحياناً.

وإذا جاء أحد من الدجالين وقال لك: إن ما سرق منك عند فلان، أيكون قد علم الغيب ؟ لا؛ لأنه يشترط في الغيب ألا يكون معلوماً لمثلك، وما سرق منك معلوم لمثلك، فالسارق والذي بيعت له المسروقات يعرفان من الذي سرق، وما الذي حدث . . والشرطة تستطيع بالمقدمات والبصمات والبحث أن تصل إلى السارق ومن اشترى المسروقات؛ وإذا جاءك دجال من الذين يُسَخّرون الجن، من المعلوم أن الجن مستور عنا يمتاز بخفة الحركة وسرعتها . . واللّه سبحانه وتعالى يقول عنه: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

فقد يكون هذا المستعان به من الجن قد رأي شيئاً، أو انتقل من مكان إلى آخر فيعرف شيئاً لا تعرفه أنت، هذا لا يكون غيباً لأنك جهلته، ولكن غيرك يعلمه بقوانينه التي خلقها اللّه له، والعلماء الذين يكتشفون أسرار الكون، أيقال إنهم اطلعوا على الغيب ؟ لا؛ لأن هؤلاء العلماء اكتشفوا موجوداً له مقدمات فوصلوا بها إلى النتائج. إذن . . فهو ليس غيباً.

فالغيب: هو الشيء الذي ليس له مقدمات ولا يمكن أن يصل إليه علم خَلْق من خلق اللّه، حتى الملائكة. حينما عَلَّمَ اللّه آدمَ الأسماء كلها، وطلب من الملائكة أن يخبروا بها فعجزوا واعتذروا؛ لأن اللّه لم يعرفها لهم، وذلك قول اللّه تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة].

والجن أيضاً لا يعلم الغيب، فعندما مات سليمان عليه السلام، لم تعلم الجن بموته وهي المسخرة لخدمته بأمر اللّه إلا عندما أكلت دابة الأرض عصاه.

يقول تبارك وتعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ . [سبأ: ١٤].

إذن . . فالغيب هو ما لا يعلمه إلا اللّه سبحانه وتعالى، واقرأ قول الحق جل جلاله:

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن].

وهكذا فإن الرسل لا يعلمون الغيب . . ولكن اللّه سبحانه وتعالى يعلمهم بما يشاء من الغيب ويكون هذا معجزة لهم من اللّه تعالى، ولخدمة دعوتهم وقضيتهم الإيمانية.

ولا بد أن نعرف أن وجود الشيء مختلف تماما عن إدراك هذا الشيء؛ فأنت لك روح في جسدك تهبك الحياة، أرأيتها ؟ أسمعتها ؟ أذقتها ؟ أشممتها ؟ ألمستها ؟ الجواب بالطبع لا . . فبأية وسيلة من وسائل الإدراك تدرك أن لك روحاً في جسدك. بالطبع بأثرها في إحياء الجسد. =

يدك عن ضعيف تغتصب حقه، إلا إيمانك بالآخرة والحساب ؟ من الذي يمنعك أن تأكل أموال الناس بالباطل ؟ أو أن تظلم وتبغي في الأرض، وتغرك قوتك فتفعل ما تشاء وتتسلط على حقوق الناس وأعراضهم كما تريد ؟ إن الوازع الذي يقول لك: قف مكانك، هو الإيمان باليوم الآخر؛ لأنك في هذه الحالة ستحس بأن كل عمل تعمله يُسجل عليك، وأنك إذا كنت قوياً جباراً في هذه الأرض، فإنك ستلقي اللّه ضعيفاً ذليلًا في الآخرة، لا ناصر لك ولا معين، وستقف أمامه خاشعاً؛ ليسألك عما فعلت، وعما جنته يداك.

إذن.. لولا الإيمان بالآخرة؛ لتحولت الدنيا كلها إلى غابة، والناس إلى مجموعة من الوحوش، يقتل القوي الضعيف، ويعتدي القادر على غير القادر، ويضيع الحق، وتستباح الحرمات، ولكن أخشى ما يخشاه المؤمن هو حساب اللّه في الآخرة، لماذا ؟ لأنه يؤمن أنه ملاقِ اللّه سبحانه وتعالى، وأن حساب الآخرة سيكون على حسب عمله في الدنيا.

وأخشى ما يخشاه الكافر هو الحساب في الآخرة، قد يبدو هذا الكلام عجيباً، كيف لإنسان لا يؤمن بالآخرة ومع ذلك يخشاها ؟! حقيقة الكافر أنه لا يؤمن بالآخرة، ولكنْ في داخله شيء يؤرقه، والموت الذي يراه كل يوم في قريب له، أو صديق.. يملأ حياته بالرعب والفزع، وينغص عليه معيشته، إنه يعرف يقيناً أنه سيخرج يوماً ما من هذه الحياة، فهو يرى ذلك كل يوم في حياة ألوف غيره بل في حياة أقرب الناس إليه، وهم أسرته وأقاربه؛ ولذلك فهو لا يستطيع أن يلغي هذه الحقيقة من عقله، ويلح عليه السؤال، إلى أين ؟ إلى أين ؟ فيحاول أن يأتي بالدليل تلو الدليل، ولو زيفاً، ولو تضليلًا، محاولًا أن يقنع نفسه أنه لا شيء بعد الموت، وأنه لا آخرة ولا حساب؛ عله يهون على نفسه التي ترى العذاب في داخله، يهون عليها ارتكاب المعاصي، ولكنه مهما فعل أو تجاهل يظل في قلق

= إذن.. فقد عرفت الروح بأثرها، والروح مخلوق لله، فكيف تريد وأنت العاجز عن أن تدرك مخلوقاً في جسدك وذاتك وهو الروح، أن تدرك اللّه سبحانه وتعالى بحواسك !!
إن عدم قدرتنا على رؤية أي شيء لا يعني أنه غير موجود.. ولكن آلة الإدراك التي هي البصر عند الإنسان عاجزة عن أن تراه؛ لأنه ربما كان غاية في الصغر، فإذا جئت بالمجهركبر لك هذا الشيء ليدخل في نطاق وسيلة رؤيتك وهي العين؛ ورؤيتنا للجراثيم والميكروبات مثلًا ليست دليلًا على أنها خلقت ساعة رأيناها، بل هي موجودة تؤدي مهمتها، سواء رأيناها أو لم نرها.

منهاج الصالحين [١١١-١١٧].

وخوف، ويؤرقه الغد ويزعجه المستقبل، ويحس أن حياته بكل ما فيها من مظاهر الدنيا هي لا شيء ومهما حاول أن يقنع نفسه، فإنه يعيش في فراغ قاتل، ولنا في قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً عظة وعبرة (١).

(١) أخرج البخاري [٣٤٧٠] ومسلم [٢٧٦٦] من حديث أبي سعيد الخدري رضي اللّٰه تعالى عنه أن نبي اللّٰه ﷺ قال: « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُل على راهب، فأتاه فقال: إنه قَتَلَ تسعة وتسعين نفسا، فهل له من توبة ؟ فقال: لا، فقتله فكمل به قَتْل مائة نفس، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له مِن توبة ؟ فقال: نعم، ومن يَحُولُ بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أُناسًا يعبدون اللّٰه تعالى فاعبد اللّٰه معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سُوءٍ، فانطلق حتى إذا نَصَفَ الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبا مُقبلًا بقلبه إلى اللّٰه تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهُم ملك في صورة آدمي فجعلُوه بينهم - أي حكما - فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة » متفق عليه.

وفي رواية في الصحيح: « فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبرٍ فجُعل من أهلها »، وفي رواية في الصحيح: « فَأوحى اللّٰه تعالى إلى هذه أن تَبَاعدي، وإلى هذه أن تقربي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له ».

وفي رواية: « فنأى بصدره نحوها ».

وعن فقه الحديث.. قال الشيخ سليم الهلالي:

○ حكمة النبي ﷺ في التوجيه والموعظة بضرب الأمثال؛ لأن النفوس تميل إلى الاقتداء بجنسها لتخرج من رجسها.

○ جواز التحدث عن بني إسرائيل فإن فيهم كانت الأعاجيب، ولكن إذا حدثنا أهل الكتاب بشيء فلا نصدقهم ولا نكذبهم.

○ النفس البشرية فيها خير أصيل والشر والسوء دخليل؛ فإذا صادفت من يذكرها فإن فيها استعداداً للإستقامة على طريق الهدى.

○ فضل العلم مع قلة العبادة على كثرة العبادة مع الجهل؛ لأن العابد الجاهل ربما أساء من حيث أراد أن يحسن صنعاً فهلك وأهلك وضل وأضل، وفي هذا بيان أن من يتصدى لهداية الناس ودعوتهم للإسلام والحق ينبغي أن يطلب العلم الشرعي وإلا فيكون ضرره أكثر من نفعه.

○ الجاهل عدو نفسه، فقلة فطنة الراهب صرعته، لأنه كان من حقه التحرز ممن اجترأ على القتل حتى صار ديدنه بأن لا يواجهه بخلاف مراده، وأن يستعمل معه المعاريض مداراة عن نفسه. =

....

= ○ العالم يهتدي بنور الحق والعلم فيوفق للهدى فينتفع وينفع.
○ ينبغي على العالم والداعي إلى اللَّه أن يبشرا ولا ينفرا ولا يجعلا الناس يقنطون من رحمة اللَّه التي وسعت كل شيء.
○ باب التوبة مفتوح من جميع الذنوب والخطايا كبيرها وصغيرها والتائب بصدق مقبول عند اللَّه مهما عظم ذنبه وكثرت خطاياه ما لم يشرك باللَّه شيئاً.
○ الملائكة الموكلون ببني آدم يختلف اجتهادهم في حقهم بالنسبة إلى من يكتبونه مطيعا أو عاصيا، ويختصمون في ذلك حتى يقضي اللَّه بينهم.
○ قدرة الملائكة على التشكل في صورة الإنسان.
○ مشروعية التحول من الأرض التي يعصى اللَّه فيها إلى أرض لا يعصى اللَّه فيها أو إن أهلها أقل سوءاً من الأولى.
○ ينبغي على التائب مفارقة الأحوال التي اعتادها زمن المعصية، والتحول فيها كلها والاشتغال بغيرها.
○ مصاحبة أهل العلم والتقوى والصلاح تعين على طاعة اللَّه وتقمع الشيطان.
○ تحمل المشقة من أجل اللحاق بالصالحين دليل على صدق الرغبة في التوبة إلى اللَّه عز وجل.
○ من خرج مهاجراً إلى اللَّه فقد وقع أجره على اللَّه، ولن يلته من عمله شيئاً.
○ جواز التحكيم حيث أرسل إليه ملكاً بصورة آدمي يحكم بين الملائكة المتخاصمين.
○ إذا تعارضت الأدلة والأحوال وتعددت البينات عند الحاكم فله أن يستدل بالقرائن على الترجيح.
○ أفضلية صالحي البشر على الملائكة حيث جعل المَلَك الحكم على صورة آدمي؛ ليحكم بين الملائكة فيما اختلفوا فيه.

فائدة: اختلف في صحة توبة القاتل عمداً، والصواب صحتها، والحديث شاهد لذلك وظاهر فيه، وهو وإن كان شرعاً لمن قبلنا وفي الاحتجاج فيه خلاف، وإن كنا لا نحتج به لكن هذا ليس موضع الخلاف؛ لأن موضع الخلاف إذا لم يرد شرعنا بموافقته وتقريره فإن ورد كان شرعاً لنا بلا شك، وهذا قد ورد شرعنا بموافقته وهو قول اللَّه ص٤١ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الفرقان].
ويستدل به أيضاً على المسألة من جهة تخفيف الآصار والأغلال التي كانت على الأمم السابقة عن هذه الأمة، فإذا شرع لهم قبول توبة القاتل العمد فمشروعيتها لنا من باب أولى. واللَّه أعلى وأعلم.

بهجة الناظرين شرح رياض الصالحين [١/ ٦١ : ٦٣].

اللّٰه لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم

السؤال: لقد وصف اللّٰه سبحانه وتعالى نفسه في القرآن الكريم بأنه: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾؛ ومن ثم يكون المؤمن مطمئناً إلى أن اللّٰه يحرسه ويرعاه ليلاً ونهاراً، فما تفسير فضيلتكم لهذه العبارة القرآنية ؟

الجواب: إن اللّٰه سبحانه وتعالى لا ينام أبداً، ولا يغفل أبداً، ولا ينبغي له ذلك، في هذه الآية اللّٰه سبحانه يطمئن أصحاب النفوس التي يصيبها الهلع والفزع من هموم الدنيا، فيذكرها بأنه سبحانه ﴿ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: لا يغفل عن شيء أبداً، ولا يخرج عن علمه شيء في الكون.

فإذا لم ير الناس جميعاً؛ فاللّٰه يرى، وإذا لم يسمع الناس جميعاً؛ فاللّٰه يسمع، وإذا لم تستطع عدالة الأرض القصاص من الظالم، فإن عدل الحق سبحانه سيوفي المظلوم حقه ويقتص له من ظالمه، ومن هنا فإن النفس المؤمنة مطمئنة إلى أن اللّٰه سبحانه وتعالى ليس غافلًا عما يعمل الظالمون.

وقوله: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾، أي: لحظة يغفل فيها، فتكون هذه النفس المؤمنة مطمئنة إلى أن اللّٰه يحرسها ويدافع عنها؛ فتنام ليلها ملء جفونها، لماذا ؟ لأن اللّٰه سبحانه وتعالى لا ينام، واللّٰه سبحانه وتعالى هنا يريد أن يقول لكل مؤمن: نم أنت ولا تخش شيئاً؛ فإنني أحرسك وأرعاك، وأنت نائم وأنت مستيقظ، فلا تدع القلق يدخل نفسك، ولا تخش أنك إن نمت نال منك عدوك، أو أصابك أذى، تذكر دائماً وأنت تذهب لفراشك لتنام، والقلق يملأ قلبك، أن اللّٰه سبحانه وتعالى لا ينام، وأنه يحميك، فكن مطمئناً فأنت في حماية اللّٰه، وإذا كان الإنسان ينام مطمئناً إذا وضع على منزله حارساً أو خفيراً ساهراً لا ينام الليل، فكيف بمن يحرسه اللّٰه ؟ وكيف يكون الأمن الذي يحس به، وهو يعلم أن اللّٰه الذي خلق هذا الكون كله وأوجده هو الذي يرعاه ويحرسه ؟!

ومن هنا فإن المؤمن يحس دائماً أنه في أمن وأمان؛ لأن اللّٰه هو الذي يرعاه، في أحلك الأوقات، وفي أشد اللحظات.

فمن أي شيء تخاف ؟ من رزق لن تحصل عليه غداً، أو من عمل لن تنجزه غداً، وسيحصل عليه غيرك، تذكر أن كل ما في السموات وما في الأرض هو ملك للّه سبحانه وتعالى، يعطي منه من يشاء، ويمنع من يشاء، ففيم القلق، واللّه هو الذي يملك ويعطي؟ وفيمَ الإسراف في التفكير، واللّه قادر على أن يعطي كلا منا ما يكفيه وزيادة دون أن يتأثر ملكه أو ينقص ؟ ولماذا تفزع من الغد، أو تحس أنك وحدك في الدنيا، ما دام اللّه معك، واللّه حي لا يموت، دائم الوجود، لا ينام ولا يغفل ؟!!

والعجيب أنك ترى إنساناً يحتمي بصاحب سلطان أو جاه، ويعيش آمناً مطمئناً يحسده الناس على ما هو فيه، ويحاولون أن يأخذوا منه الأمان، ونسوا أن العطاء هنا بقدرة هذا الإنسان المحدودة، والبقاء هنا بعمر الإنسان القصير، وجهل هؤلاء الناس أن اللّه سبحانه وتعالى هو الذي يعطي الأمان والطمأنينة بلا قيود ولا حدود.

إن الغفلة ونقص الإيمان يصور لهم أن المخلوق أقدر على حمايتهم من الخالق، وأقوى وأكثر نفوذاً، هذه هي الغفلة التي تدخل القلب، والإنسان حين يؤمن باللّه؛ يكون في أمان مطلق، لماذا ؟ لأنه مع الأول الذي لا يحيط به أحدٌ من خلقه، ومع اللّه الذي خلق كل شيء، وأوجد كل شيء، لا يكون شيء إلا بأمره سبحانه، ولذلك وصف اللّه سبحانه وتعالى النفس المؤمنة، بأنها نفس مطمئنة، مطمئنة لماذا ؟ لأنها أسلمت قيادها للحي الذي لا يموت، والقيوم الذي لا ينام، والعليم الذي لا تغيب عنه كبيرة ولا صغيرة في الأرض، مطمئنة لذلك كله؛ فلا يشغل بالها الغد، مهما كانت أحداثه، ولا يقلقها أن يؤخذ منها شيء، ولأنها تؤمن بأن كل شيء في السموات والأرض هو ملك للّه سبحانه وتعالى[(١)].

---

(١) قال العلامة ابن كثير في تأويل قول اللّه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

هذه آية الكرسي، ولها شأن عظيم. قد صح الحديث عن رسول اللّه ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب اللّه.

روى الإمام أحمد عن أُبيّ بن كعب: « أن النبي ﷺ سأله: أيُّ آية في كتاب اللّه أعظم ؟ قال: اللّه ورسوله أعلم، فرددها مراراً، ثم قال أُبيّ: آية الكرسي، قال: « ليَهْنِكَ العلمُ أبا المنذر، والذي نفسي بيده، إن لها لساناً وشفتين، تقدس الملك عند ساق العرش ».

=

....

= وقد رواه مسلم، وليس عنده زيادة « والذي نفسي بيده » إلى آخره[١]. وروى أبو يعلى عن أبي بن كعب: « أنه كان له جرن فيه تمر، فكان يتعاهده، فوجده ينقص، قال: فحرسَه ذات ليلة، فإذا هو بدابّة شبيه الغلام المحتلم، قال: فسلمت عليه، فرد السلام، قال: فقلت: ما أنت ؟ جني أم إنسي ؟

قال: جني، قال: قلت: ناولني يدك، قال: فناولني فإذا يد كلب وشعر كلب، فقلت: هكذا خَلْقُ الجنّ ؟

قال: لقد علمت الجنُّ ما فيهم أشدّ مني.

قلت: فما حملك على ما صنعتَ ؟

قال: بلغني أنك رجل تحب الصدقة فأحببنا أن نصيب من طعامك.

فقال له: فما الذي يجيرنا منكم ؟

قال: هذه الآيةُ، « آية الكرسي ».

ثم غدا إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال النبي ﷺ: صدق الخبيث ».

وهكذا رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[٢].

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك: « أن رسول اللّه ﷺ سأل رجلًا من صحابته، فقال: أي فلان، هل تزوجت ؟ قال: لا، وليس عندي ما أتزوج به، قال: أو ليس معك: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ؟

قال: بلى.

قال: ربع القرآن ، قال أليس معك ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ ؟

قال: بلى.

قال: ربع القرآن، قال: أليس معك ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ ؟

قال: بلى.

قال: ربع القرآن.

قال: أليس معك: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ ؟

قال: بلى.

قال: « ربع القرآن ».

قال: أليس معك آية الكرسي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾؟ =

---

(١) قال الشيخ شاكر: هو في المسند [٥/ ١٤١-١٤٢]، ومسلم [١/ ٢٢٣]. ورواه أيضاً أبو داود، وابن الضريس والحاكم والهروي في الفضائل، كما في الدر المنثور [١/ ٣٢٢].

(٢) قال الشيخ شاكر: زاد السيوطي في الدر المنثور [١/ ٣٢٢] نسبته للنسائي وابن حبان والطبراني، وأبي نعيم، والبيهقي - معاً - في الدلائل، وأفاد الحافظ المزي أن النسائي رواه في كتاب اليوم والليلة.

....

= قال: بلى، قال: « ربع القرآن »[(١)].

وروى الإمام أحمد عن أبي ذرّ، قال: « أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد، فجلست، فقال: يا أبا ذر، هل صليت ؟ قلت: لا، قال: قم فصل، قال: فقمت فصليت ثم جلست.

فقال: يا أبا ذرّ، تعوَّذْ باللَّه من شرّ شياطين الإنس والجن.

قال: قلت: يا رسول اللَّه، أوَ للإنس شياطين ؟

قال: نعم.

قلت: يا رسول اللَّه، الصلاة ؟

قال: خيرٌ موضوعٌ، من شاء أقلَّ ومن شاء أكثر.

قال: قلت: يا رسول اللَّه، فالصوم ؟

قال: فرضٌ مجزيٌ، وعند اللَّه مزيد.

قلت: يا رسول اللَّه، فالصدقة ؟

قال: أضعافٌ مضاعفة.

قلت: يا رسول اللَّه فأيُّها أفضل ؟

قال: جهدٌ من مُقِلّ، أو سِرٌّ إلى فقير.

قلت: يا رسول اللَّه، أي الأنبياء كان أول ؟

قال: آدم، قلت: يا رسول اللَّه، ونبيٌّ كان ؟

قال: نعم، نبي مكلَّم، قلت: يا رسول اللَّه، كم المرسلون ؟

قال: ثلثمائة وبضعة عشر، جمًّا غفيراً، وقال مرةً: وخمسةَ عشر.

قلت: يا رسول اللَّه، أيُّ ما أنزل عليك أعظم ؟ قال: آية الكرسي ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾. ورواه النسائي[(٢)]. =

---

(١) قال الشيخ شاكر: هو في المسند [١٣٣٤٢]. وفي آخره: « قال: تزوج، تزوج، تزوج، ثلاث مرات ». وزاد السيوطي [١/ ٣٢٣] نسبته لابن الضريس والهروي في فضائله. وذكره الهيثمي في الزوائد [٧/ ١٤٧] وقال: «رواه أحمد، وسلمة ضعيف ». يعني التابعي راويه عن أنس، وهو «سلمة بن وردان »، وقد ضعفه أحمد وغيره، ولكن قال أحمد بن صالح: «هو عندي ثقة حسن الحديث ». ثم قد ترجمه البخاري في الكبير [٢/ ٢/ ٧٨-٧٩]، وذكر أنه «سمع أنس بن مالك»، ولم يذكر فيه جرحاً، فهو - عنده - ثقة.

(٢) قال الشيخ شاكر: هو في المسند [٥/ ١٧٨] عن وكيع. ثم [ص: ١٧٩]، عن يزيد بن هرون ـ كلاهما عن المسعودي، وقد مضت أجزاء منه [١/ ٦٤، ١٠٩، ١٣٤و٢/ ١٥٤]، وبينا تخريجه في [١/ ١٣٤]. ونزيد هنا أن الحاكم روى قطعة منه [٢/ ٢٨٢]، وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه »، ووافقه الذهبي، ورواية النسائي [٢/ ٣١٩] مختصرة، كما بينا في [١/ ١٠٩]. =

....

= وروى الإمام أحمد عن أبي أيوب: «أنه كان في سَهْوة له، وكانت الغول تجيء فتأخذ، فشكاها إلى النبي ﷺ، فقال: إذا رأيتها فقل: بسم اللّه أجيبي رسول اللّه، قال: فجاءت، فقال لها، فأخذها، فقالت: إني لا أعود، فأرسلها، فجاءت، فقال له النبي ﷺ: ما فعل أسيرُك؟ قال: أخذتها، فقالت: إني لا أعود فأرسلتُها، فقال: إنها عائدة، فأخذتُها مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك تقول: لا أعود، وأجيء إلى النبي ﷺ فيقول: ما فعل أسيرك؟ فأقول: أخذتها، فتقول: لا أعود، فيقول: إنها عائدة، فأخذها، فقالت: أرسلني وأعلّمك شيئاً تقوله فلا يقربُك شيء: «آية الكرسي»، فأتي النبي ﷺ فأخبره، فقال: صدقت وهي كذوب». ورواه الترمذي وقال: حسن غريب. والغول في لغة العرب: الجان إذا تبدّى في الليل(١).

وقد ذكر البخاري هذه القصة عن أبي هريرة، قال: «وكلني رسول اللّه ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذتُه، وقلت: لأرفعنّك إلى رسول اللّه ﷺ، قال: إني محتاج وعليّ عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي ﷺ: يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟ قال: قلت: يا رسول اللّه، شكا حاجةً شديدة وعيالاً، فرحمته وخليتُ سبيله، قال: أما إنه قد كذَبك وسيعود، فعرفت أنه سيعود لقول رسول اللّه ﷺ إنه سيعود، فرصدتُه، فجاء يحثو من الطعام؛ فأخذته، فقلت: لأرفعنّك إلى رسول اللّه ﷺ، قال: دعني فإني محتاج وعلي عيال، لا أعود، فرحمتُه وخليتُ سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول اللّه ﷺ: يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت: يا رسول اللّه، شكا حاجةً وعيالاً فرحمتُه فخليتُ سبيله، قال: أما إنه قد كذَبك وسيعود، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام؛ فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول اللّه ﷺ، وهذا آخرُ ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود، فقال: دعني أعلّمك كلماتٍ ينفعُك اللّه بها، قلت: ما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك =

= ونقل أستاذنا السيد رشيد رضا - بهامش ابن كثير - أن ابن الجوزي عده في الموضوعات، وأن السيوطي حقق أنه ضعيف، وأنهم انتقدوا على ابن حبان إخراجه في صحيحه !! أقول: وقد أخطأ ابن الجوزي، وأخطأ السيوطي، وأخطأ ناقدو ابن حبان.

(١) قال الشيخ شاكر: هو في المسند [٥/ ٤٢٣]، والترمذي [٤/ ٤٣]، ورواه الحاكم [٣/ ٤٥٩] - بعد روايتين عن ابن عباس وأبي أيوب، ولم يذكر لفظه كاملاً - ثم قال: «هذه الأسانيد إذا جمع بينها صارت حديثاً مشهوراً»

وقال الذهبي عن الرواية الأخيرة هذه: «هذا أجود طرق الحديث». وذكره المنذري في الترغيب [٢/ ٢٢٠] من رواية الترمذي. وزاد السيوطي [١/ ٣٢٣] نسبته لابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا وأبي الشيخ والطبراني وأبي نعيم. و «السهوة» بفتح السين المهملة وسكون الهاء: هي الطاق في الحائط يوضع فيها الشيء.

....

= فاقرأ آية الكرسي ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من اللّه حافظ ولا يقربُك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول اللّه ﷺ: ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت: يا رسول اللّه، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني اللّه بها فخليتُ سبيله، قال: ما هي؟ قال: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ وقال لي: لن يزال عليك من اللّه حافظ ولا يقربُك شيطان حتى تصبح - وكانوا أحرصَ شيء على الخير - فقال النبي ﷺ: « أمَا إنه صدقك وهو كذوب، تعلمُ من تخاطبُ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟ قلت: لا، قال: ذاك شيطان ».

كذا رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم. وقد رواه النسائي في اليوم والليلة، ورواه ابن مردويه من وجه آخر بسياق آخر قريب من هذا [1].

وقد تقدم لأبي بن كعب كائنةٌ مثل هذه أيضاً، فهذه ثلاث وقائع.

وروى أبو عبيد في كتاب الغريب عن الشعبي، عن عبد اللّه بن مسعود، قال: « خرج رجل من الإنس فلقيه رجل من الجن، فقال: هل لك أن تصارعني، فإن صرعتني علمتك آية إذا قرأتَها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان؟ فصارعه، فصرعه، فقال: إني أراك ضئيلًا شخيتاً كأن ذراعيك ذراعا كلب، أفهكذا أنتم أيها الجن كلكم، أم أنت من بينهم؟ فقال: إني بينهم لضليع، فعاودني، فصارعه، فصرعه الإنسي، فقال: تقرأ آية الكرسي، فإنه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان وله خِيخٌ كخيخ الحمار، فقيل لابن مسعود: أهو عمر؟ فقال: من عسى أن يكون إلا عمر؟ ».

قال أبو عبيد: الضئيل: النحيف الجسم، والخيخ - بالخاء المعجمة ويقال بالحاء المهملة -: الضراط [2].

=

---

(١) قال الشيخ شاكر: رواه البخاري [٤/ ٣٩٦-٣٩٨]. وقال ابن حجر: «وصله النسائي والإسماعيلي وأبو نعيم». وزاد السيوطي [١/ ٣٢٦] نسبته لابن الضريس. وذكر المنذري في الترغيب [١/ ٢١٢] أنه «رواه البخاري وابن خزيمة وغيرهما».

(٢) قال الشيخ شاكر: إسناده عند أبي عبيد، صحيح. وكذلك رواه الدارمي [٢/ ٤٤٧-٤٤٨]، بإسناد صحيح، وزاد السيوطي [١/ ٣٢٣] نسبته للطبراني وأبي نعيم في الدلائل والبيهقي. وذكره الهيثمي في الزوائد [٩/ ٧٠-٧١] بروايتين للطبراني، أولاهما عن أبي وائل عن ابن مسعود. وقال: «ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح، إلا أن الشعبي لم يسمع من ابن مسعود. ورواه الطريق الأولى فيهم المسعودي، وهو ثقة ولكنه اختلط، فبان لنا صحة رواية المسعودي برواية الشعبي».

أقول: والشعبي عاصر ابن مسعود، والمعاصرة كافية في الاتصال لغير المدلس. والشعبي هو الشعبي. و «الشخيت»: النحيف الجسم الدقيق.

....

= وروى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد بن السكن، قالت: « سمعت رسول اللّه ﷺ يقول في هاتين الآيتين ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ و ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ ﴾ [آل عمران]: إن فيهما اسم اللّه الأعظم ».

وكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه. وقال الترمذي: حسن صحيح (١) .

وروى ابن مردويه عن أبي أُمامة، قال: قال رسول اللّه ﷺ: « من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت ». وهكذا رواه النسائي في اليوم والليلة. وأخرجه ابن حبان في صحيحه. وإسناده على شرط البخاري. وقد زعم أبو الفرج بن الجوزي أنه حديث موضوع. واللّه أعلم.

وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة

فقوله: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إخبار بأنه المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق ﴿ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ أي: الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً، القيم لغيره. وكان عمر يقرأ « القَيَّام » فجميع الموجودات مفتقرة إليه وهو غني عنها، ولا قوام لها بدون أمره. كقوله: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ﴾ [الروم: ٢٥]. وقوله: ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ ﴾ أي: لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه خافية. ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم. فقوله: ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ ﴾ أي: لا تغلبه ﴿ سِنَةٞ ﴾ وهي الوَسَن والنعاس. ولهذا قال: ﴿ وَلَا نَوۡمٞۚ ﴾ لأنه أقوى من السِّنَة.

وفي الصحيح عن أبي موسى، قال: « قام فينا رسول اللّه ﷺ بأربع كلمات، فقال: «إن اللّه لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سُبُحَات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (٢) .

وقوله: ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ إخبارٌ بأن الجميع عبيده وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه. كقوله: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۝٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ۝٩٥ ﴾ [مريم].

وقوله: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾ كقوله: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي =

(١) رواه أحمد في المسند [٦/ ٤٦١]. وا [٤/ ٢٥٣]، وابن ماجه [٣٨٥٥].

(٢) قال الشيخ شاكر: رواه أحمد في المسند [٤/ ٤٠٥]، ومسلم [١/ ٦٤]، وابن ماجه [١٩٥]. وفي روايتهم: «بخمس كلمات». وأما لفظ «بأربع» ففي روايتين أخريين في مسلم. ورواه أحمد قبل ذلك، [ص: ٤٠١] دون ذكرالعدد.

قال القاضي عياض في المشارق [٢/ ٢٠٣] في معنى «سبحات وجهه»: قيل: نور وجهه، وقيل: جمال وجهه. ومعناه: جلاله وعظمته.

....

= شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦]. وكقوله: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز. كما في حديث الشفاعة: « آتي تحت العرش فأخرّ ساجداً، فيدعني ما شاء اللّه أن يدعني، ثم يقال: ارفع رأسك، وقل تُسمع، واشفع تُشفَّع، قال: فيَحُدُّ لي حَدًّا فأدخلهم الجنة»(١).

وقوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع ات، ماضيها وحاضرها ومستقبلها. كقوله إخباراً عن الملائكة: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤].

وقوله: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ أي: لا يطلع أحد من علم اللّه على شيء إلا بما أعلمه اللّه عز وجل وأطلعه عليه. ويحتمل أن يكون المراد: لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم اللّه عليه. كقوله: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠].

وقوله: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ روى ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن عباس، قال: ﴿ كُرْسِيُّهُ ﴾ علمه (٢).

قال ابن أبي حاتم: وروي عن سعيد بن جبير مثلُه. قال ابن جرير: وقال آخرون: الكرسي موضع القدمين. ثم رواه عن أبي موسى والسدي والضحاك ومسلم البَطِين. وروى شجاع بن مَخْلد في تفسيره عن ابن عباس، قال: « سئل النبي ﷺ عن قول اللّه عز وجل: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ؟ قال: كرسيه موضع قدميه، والعرش لا يقدر قدره إلا اللّه عز وجل ». كذا أورد هذا الحديث الحافظ أبو بكر بن مردويه، وهو غلط، وقد رواه وكيع في تفسيره عن ابن عباس، قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قَدْره. وقد رواه الحاكم عن ابن عباس موقوفاً مثله. وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٣). =

---

(١) قال الشيخ شاكر: اقتباس من حديث طويل، رواه مسلم [١/ ٧١]، من حديث أنس بن مالك.

(٢) قال الشيخ شاكر: رواه الطبري [٥٧٨٧، ٥٧٨٨] وإسناده جيد. ولكنه شاذ بمرة، مخالف للثابت الصحيح عن ابن عباس، كما سيأتي.

(٣) قال الشيخ شاكر: رواه الحاكم [٢/ ٢٨٢]. ووافقه الذهبي على شرط الشيخين. وذكر قاضي القضاة ابن أبي العز في شرح الطحاوية [ص: ٢١٧ بتحقيقنا] أنه رواه أيضاً ابن أبي شيبة في كتاب صفة العرش. وزاد السيوطي [١/ ٣٢٧] أنه رواه الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ والخطيب والبيهقي. ورواية الطبراني في مجمع الزوائد [٦/ ٣٢٣]، وقال: «ورجاله رجال الصحيح».

وهذا هو الصحيح الثابت عن ابن عباس. وأما الرواية السابقة عنه، بتأويل الكرسي بالعلم، فهي رواية شاذة، لا يقوم عليها دليل من كلام العرب. ولذلك رجح أبو منصور الأزهري الرواية =

....

❁ ❁ ❁

= وقد زعم بعض المتكلمين على علم الهيئة من الإسلاميين: أن الكرسي عندهم هو الفلك الثامن، وهو فلك الثوابت، الذي فوقه الفلك التاسع، وهو الفلك الأثير، ويقال له: الأطلس. وقد رد ذلك عليهم آخرون.

وروى ابن جرير من طريق جُوَبير عن الضحاك عن الحسن البصري، أنه كان يقول: الكرسي هو العرش[١]. والصحيح: أن الكرسي غير العرش، والعرش أكبر منه، كما دلت على ذلك الآثار والأخبار.

وقوله: ﴿ وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ أي: لا يُثقله ولا يَكْرُثُهُ حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما[٢]، بل ذلك سهل عليه يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء. والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة. وهو الغني الحميد، الفعال لما يريد، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون. وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم، لا إله غيره، ولا ربّ سواه. فقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ كقوله: ﴿ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد: ٩].

وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح: أمِرُّوها كما جاءت، من غير تكييف ولا تشبيه.

= الصحيحة عن ابن عباس، وقال: «وهذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها. ومن روى عنه في الكرسي أنه العلم، فقد أبطل».

وقد اختار الطبري القول الباطل ورجحه دون حجة قائمة. ورد عليه أخي السيد محمود محمد شاكر رداً قوياً نفسياً. انظره في الطبري [٥/ ٤٠١].

(١) قال الشيخ شاكر: رواه الطبري [٥٧٩٥]. والزيادة منه، وهي ضرورية في الإسناد. و «جويبر بن سعيد الأزدي»: ضعيف جداً، فهذا القول - إذن - غير ثابت عن الحسن.

(٢) قال الشيخ شاكر: «كرثه الأمر، يكرثه - بضم الراء وكسرها - كرثاً» و «أكرثه»: ساءه واشتد عليه وبلغ منه المشقة، ثلاثي ورباعي، وفي المطبوعة «يكترثه»! وهو تخليط، صححته في المخطوطة.

اللَّه حي لا يموت

السؤال: ما معنى قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨].

الجواب: الأصل في الحياة أن يخضع الأدنى للأعلى، ولو كان هذا هو المطلوب في العبادة، لتكرر خضوع بعضنا لبعض، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى، حررنا من هذه العبودية بأن جعلنا لا نخضع إلا له سبحانه، ولو درسنا العقل البشري عبر التاريخ، وبعيداً عن منهج اللَّه لوجدناه قد خضع، وعبد الشمس، وعبد الريح، وعبد الحيوانات المفترسة، وعبد الأحجار والأصنام، أشياء كان يخشاها، وأخرى كان يعتقد أنها تحميه من الأذى وتنصره على أعدائه، وأخرى ظن أنها تقربه من اللَّه سبحانه وتعالى، وكان في كل خضوعه يخرج من عبودية إلى عبودية، فهو مرة يعبد إلهاً، فيجد أنه لا ينصره، فيتجه إلى إله آخر، فلا يجد له حولًا ولا قوة، فيمضي إلى ثالث ورابع، ويظل حائراً ينتقل من عبودية إلى أخرى، يصور له جهله أشياء، ويصور له خوفه أشياء، فخضع الإنسان للإنسان، وخضع للحيوان، وخضع للجماد، وفي كل ذلك كان يعطي ولا يأخذ، يعطي القرابين، ويعطي الذهب والفضة للمعابد، ولا يأخذ شيئاً.

فأنت قد تخضع لحاكم ثم يذهب هذا الحاكم ويضيع خضوعك، وتجد نفسك بلا نصير. وقد تخضع لرجل ذي مال، ثم يفلس، وتجد نفسك لا شيء.

وقد تخضع لإنسان يظهر أنه يملك شيئاً، ولكنه يتخلى عنك، وبدلًا من أن يعطيك ما تريد، يعطيك الخوف والفقر.

وقد تعبد ما لًا اقتنيته أو ذهباً أخذته، أو قوة جعلتك تتفوق على غيرك، أو سلاحاً تملكه ولا يملكه آخر، ثم يذهب هذا المال، أو تضيع هذه القوة، أو يأتي إنسان بسلاح جديد يهزمك.

ولكن إفرادك للَّه سبحانه وتعالى بالعبادة ينجيك من كل هذا العنت ويقول لك: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فهو سبحانه القوي الذي لا تزول قوته، العزيز الذي لا يغلبه أحد، الآمر المطاع إذا شاء فلا رادَّ

لمشيئته، هو الباقي والكل إلى زوال، هو القادر سبحانه، المعطي المانع، فلا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، العزيز من أعزه، والذليل من أذله، بيده ملكوت كل شيء، يحكم فلا معقب لحكمه، يكرم فلا مكرم لمن أهان، كل شيء منه بدأ وإليه يعود، لا إله إلا هو سبحانه فاعبده وتوكل عليه، فهو الحي الذي لا يفنى، فاعلم أنه لن يفوتك خير أبداً، فهو دائم بدوامه سبحانه القيوم على كل شيء ولا يعجزه شيء فأسلم زمام نفسك إليه، واتبع ما أوحى إلى رسوله ﷺ ففي ذلك سعادة الدارين.



مدلول كلمة « لا إله إلا اللَّه »

السؤال: في الحديث الشريف، من قال لا إله إلا اللَّه دخل الجنة، فماذا يعني مدلول هذه الكلمة ؟

الجواب: أريد أن يتنبه الناس هنا إلى شيء مهم. عندما جاء الإسلام قال رسول اللَّه ﷺ للمشركين وهو يدعوهم إلى دين اللَّه، قولوا: لا إله إلا اللَّه تفلحوا[1]، ولو أنهم تنبهوا إلى مدلول هذه الكلمة لقالوها، ولو أنهم أخذوا الأمور بالسطحية لما كلفهم شيئاً أن ينطقوا بهذه الكلمة، ولكن عدم نطقهم بالشهادة دليل على أنهم تفهموا مدلول لا إله إلا اللَّه، وعرفوا متطلباتها، وعلموا أن الإنسان في كل ثانية من حياته، في اختبار عملي مع كلمة لا إله إلا اللَّه، إن كل لحظة يعيشها البشر هي اختبار من الخالق لمعنى تصديقهم لكلمة، لا إله إلا اللَّه، فمعنى لا إله إلا اللَّه، أنه لا معبود ولا مطاع بحق، إلا اللَّه سبحانه وتعالى، ولنأخذ مثلًا إذا أُذن للصلاة، وسمعت المنادي ينادي حي على الصلاة، وأنت في ذلك الوقت تبحث في صفقة، أو مشغول بأمر من أمور الدنيا تظن أنه سيعود عليك بنفع مادي، وأنت تعلم أن اللَّه سبحانه وتعالى يأمرك أن تؤدي الصلاة لوقتها، وأن تدع مؤقتاً أمر الصفقة التي تتشاور فيها، حينئذ من يكون إلهك ؟ أليس هو الذي يجب أن تطيعه وتنفذ تعاليمه، إذا لم تقم من فورك وتلبي داعي اللَّه، تكون قد أعطيت المال حقًّا يعلو على حق اللَّه تعالى، وكأنك تقول لا إله إلا اللَّه بلسانك دون أن تعطيها حقها، فلو أنك أعطيتها حقها، لكان اللَّه أولى وأعلى بالطاعة من أي شيء آخر في الدنيا.

وحين تجد أمامك ما لًا حراماً، اللَّه سبحانه وتعالى يأمرك ألا تمد يدك إليه، ولكنك تمد اليد وتأخذه؛ في هذه اللحظة التي مددت يدك فيها، وأطعت شهوة نفسك في أخذ المال المحرم عليك، ولم تطع اللَّه سبحانه، أي: أنك في تلك اللحظة كان المال في نفسك هو صاحب الكلمة العليا، ونسيت اللَّه الذي أمرك ألا

---

(١) رواه أحمد في المسند [٤/ ٦٤] وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [٦/ ٢٢] وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

تمد يدك إلى المال الحرام، فتكون أطعت من ؟ وقدمت مَنْ على مَنْ، وهكذا في كل أمور الدنيا، إذا آذيت جارك، إذا اعتديت على عرض أحد، إذا ظلمت إنساناً، إذا جُرْتَ على ضعيف، إذا شهدت زوراً، تكون قد قدمت طاعة المخلوق على طاعة الخالق سبحانه، وهذا يتنافى مع الإيمان بكلمة لا إله إلا اللَّه.

إن كلمة: لا إله إلا اللَّه هي منهاج حياة المسلم فلا يفعل إلا ما يحبه اللَّه ولا يقدم إلا على ما أمر به اللَّه، ولا يختار على اختيار اللَّه فما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن، وبالإجمال يسلم زمام نفسه بالكلية إلى ربه وخالقه فيفعل ما أمر وينتهي عما نهى(١).

---

(١) قال العلامة ابن رجب الحنبلي: في الصحيحين عن أنس بن مالك، قال: كان النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل، فقال: « يا معاذ ! » قال: لبيك رسول اللَّه وسعديك، قال: « يا معاذ ! » قال: لبيك رسول اللَّه وسعديك ! قال: « يا معاذ ! » قال لبيك رسول اللَّه وسعديك. قال: « ما من عبد يشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرمه اللَّه على النار ».

قال: يا رسول اللَّه، ألا أخبر بها الناس فيستبشروا ؟ قال: « إذاً يتكلوا ».

فأخبر بها معاذ عند موته تأثماً(١).

وفي الصحيحين عن عِتبان بن مالك عن النبي ﷺ قال: « إن اللَّه حرّم على النار من قال: لا إله إلا اللَّه يبتغي بها وجه اللَّه »(٢).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أو أبي سعيد بالشك أنهم كانوا مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فأصابتهم مجاعة، فدعا النبي ﷺ بنطع فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، وجعل الآخر بكف تمرٍ، وجعل الآخر يجيء بكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول اللَّه ﷺ بالبركة، ثم قال: « خذوا في أوعيتكم »، فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاءً إلا ملؤوه. قال: فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول اللَّه ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأني رسول اللَّه، لا يلقى اللَّه بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما فيحجب عن الجنة »(٣).

وفي الصحيحين عن أبي ذرٍّ، عن النبي ﷺ قال: « ما من عبد قال: لا إله إلا اللَّه، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة » قلت: وإن زنى، وإن سرق ؟! قال: « وإن زنى، وإن =

---

(١) أخرجه البخاري [١٢٨]، ومسلم [٣٢/ ٥٣].
(٢) أخرجه البخاري [١١٨٦]، ومسلم [٣٣/ ٢٦٣].
(٣) أخرجه مسلم [٢٧/ ٤٥]، وأحمد في المسند [٣/ ١١].

....

= سرق ». قالها ثلاثاً، ثم قال في الرابعة: « على رغم أنف أبي ذر » فخرج أبو ذر، وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذر[١] .

وفي صحيح مسلم عن عبادة، أنه قال عند موته: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « من شهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه حرم اللّه عليه النار »[٢] .

وفي الصحيحين عن عبادة عن النبي ﷺ قال: « من شهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد اللّه ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق، أدخله اللّه الجنة، على ما كان من عمل»[٣] . وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة جدًا يطول ذكرها.

وأحاديث هذا الباب نوعان:

أحدهما: ما فيه: أن من أتي بالشهادتين دخل الجنة، أو لم يحجب عنها؛ وهذا ظاهر؛ فإن النار لا يخلد فيها أحد من أهل التوحيد الخالص، وقد يدخل الجنة ولا يحجب عنها إذا طُهر من ذنوبه بالنار.

وحديث أبي ذر معناه: أن الزنا والسرقة لا يمنعان دخول الجنة مع التوحيد، وهذا حق لا مرية فيه، ليس فيه: أنه لا يعذب يوماً عليهما مع التوحيد.

وفي مسند البزار عن أبي هريرة مرفوعاً: « من قال: لا إله إلا اللّه نفعته يوماً من دهره، يُصيبه قبل ذلك ما أصابه »[٤] .

والثاني: ما فيه أنه يحرم على النار، وهذا قد حمله بعضهم على الخلود فيها، أو على نار يخلَّد فيها أهلُها، وهي ما عدا الدرك الأعلى، فإن الدرك الأعلى يدخله خلق كثير من عصاة الموحدين بذنوبهم، ثم يخرجون بشفاعة الشافعين، وبرحمة أرحم الراحمين.

وفي الصحيحين: « إن اللّه تعالى يقول: وعزتي وجلالي لأُخرجن من النار من قال: لا إله إلا اللّه »[٥] .

وقالت طائفة من العلماء: المراد من هذه الأحاديث: أنَّ لا إله إلا اللّه سببٌ لدخول الجنة والنجاة من النار، ومقتضٍ لذلك، ولكن المقتضى لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع؛ وهذا قول الحسن ووهب ابن منبه وهو الأظهر. =

---

(١) أخرج البخاري [٧٤٨٧]، ومسلم [٩٤/ ١٥٤]، وأحمد في المسند [٥/ ١٦٦].

(٢) أخرجه مسلم [٢٩/ ٤٧].

(٣) أخرجه البخاري [٣٤٣٥]، ومسلم [٢٨/ ٤٦].

(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [١/ ٢٢] وقال: رواه البزار والطبراني في الأوسط، والصغير ورجاله رجال الصحيح.

(٥) أخرجه البخاري [٦٥٦٥]، ومسلم [١٩٣/ ٣٢٦].

....

= وقال الحسن للفرزدق وهو يدفن امرأته: ما أعددت لهذا اليوم ؟
قال: شهادة أن لا إلٰه إلا اللّه منذ سبعين سنة.
قال الحسن: نعم، إنّ لـ « لا إلٰه إلا اللّه » شروطاً، فإياك وقذفَ المحصنة !.
وروي عنه أنه قال للفرزدق: هذا العمود. فأين الطنب ؟.
وقيل للحسن: إن ناساً يقولون: من قال: لا إلٰه إلا اللّه دخل الجنة ؟
فقال: من قال: لا إلٰه إلا اللّه، فأدّى حقها وفرضها دخل الجنة.
وقال وهب بن منبه لمن سأله: أَلَيْسَ لا إلٰه إلا اللّه مفتاح الجنة ؟
قال: بلى، ولكن ما من مِفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاحٍ له أسنان فُتح لك، وإلا لم يُفْتَحْ لك[١].
وهذا الحديث: « إن مفتاح الجنة لا إلٰه إلا اللّه »، أخرجه الإمام أحمد بإسناد منقطع[٢].
عن معاذ قال: قال لي رسول اللّه ﷺ: « إذا سألك أهلُ اليمن عن مفتاح الجنة ؟ فقل: شهادة أن لا إلٰه إلا اللّه ».
ويدل على صحة هذ القول، أن النبي ﷺ رتَّب دخول الجنة على الأعمال الصالحة في كثير من النصوص، كما في الصحيحين عن أبي أيوب أن رجلًا قال:
يا رسول اللّه ! أخبرني بعمل يدخلني الجنة، فقال: « تعبد اللّه، لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم »[٣].
وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رجلًا قال: يا رسول اللّه ! دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة. قال: « تعبد اللّه لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان ».
فقال الرجل: والذي نفسي بيده، لا أزيد على هذا شيئاً، ولا أنقص منه.
فقال النبي ﷺ: « من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا »[٤].
وفي المسند عن بشير بن الخصاصية قال: أتيت النبي ﷺ لأبايعه فاشترط عليّ: شهادة أن لا إلٰه إلا اللّه، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أوتي الزكاة، وأنْ أُحج حجة الإسلام، وأن أصوم رمضان، وأن أجاهد في سبيل اللّه، فقلت: يا رسول =

---

(١) أخرجه البخاري تعليقاً [٣/١٠٩]، فتح الباري، وقد وصله في تاريخه [١/ ٩٥].
(٢) رواه أحمد في المسند [٥/ ٢٤٢]، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [١/ ٢١] وقال: رواه أحمد والبزار، وفيه إنقطاع بين شهر ومعاذ، وإسماعيل بن عياش روايته عن أهل الحجاز ضعيفة. وهذا منها.
(٣) أخرجه البخاري [٥٩٨٣]، ومسلم [١٣/١٢].
(٤) أخرجه البخاري [١٣٩٧]، ومسلم [١٤/ ١٥].

....

= الله أما اثنتين فوالله لا أطيقهما: الجهاد والصدقة فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حركها، وقال: «لا جهاد ولا صدقة، فبم تدخل الجنة إذاً؟»، قلت: يا رسول الله! أنا أبايعك، فبايعته عليهن كلهن[1].

ففي هذا الحديث أن الجهاد والصدقة شرط في دخول الجنة، مع حصول التوحيد والصلاة والصيام والحج.

ونظير هذا أن النبي ﷺ قال: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله» ففهم عمر، وجماعة من الصحابة أن من أتي بالشهادتين امتنع من عقوبة الدنيا بمجرد ذلك، فتوقفوا في قتال مانعي الزكاة، وفهم الصِّدّيق أنه لا يمتنع قتالُه إلا بأداء حقوقها، لقوله ﷺ: «فإذا فعلوا ذلك منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها». وقال: الزكاة حق المال.

وهذا الذي فهمه الصديق قد رواه عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة منهم ابن عمر وأنس وغيرهما، وأنه قال: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة»[2].

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، كما دل قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١] على أن الأخوة في الدين لا تثبت إلا بأداء الفرائض مع التوحيد، فإن التوبة من الشرك لا تحصل إلا بالتوحيد.

ولما قرر أبو بكر هذا للصحابة رجعوا إلى قوله، ورأوه صواباً.

فإذا عُلم أن عقوبة الدنيا لا ترتفع عمن أدّى الشهادتين مطلقاً، بل قد يعاقب بإخلاله بحق من حقوق الإسلام، فكذلك عقوبة الآخرة.

وقد ذهب طائفة: إلى أن هذه الأحاديث المذكورة أولّا وما في معناها، كانت قبل نزول الفرائض والحدود، منهم الزهري والثوري وغيرهما، وهذا بعيد جدًّا، فإن كثيراً منها كان بالمدينة بعد نزول الفرائض والحدود، وفي بعضها أنه كان في غزوة تبوك، وهي في آخر حياة النبي ﷺ.

وهؤلاء منهم من يقول في هذه الأحاديث: إنها منسوخة. ومنهم من يقول: هي محكمة، ولكن ضم إليها شرائط، ويلتفت هذا إلى أن الزيادة على النص: هل هي نسخ أم لا؟ والخلاف في ذلك بين الأصوليين مشهور. وقد صرَّح الثوري وغيره بأنها =

---

(١) أخرجه أحمد في المسند [٥/ ٢٢٤]، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [١/ ٤٧] وقال: رواه أحمد، والطبراني في الكبير والأوسط، واللفظ للطبراني. ورجال أحمد موثقون.

(٢) أخرجه البخاري [٢٥] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، و [٧٢٨٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

. . . .

= منسوخة، وأن نسخها الفرائض والحدود، وقد يكون مرادهم بالنسخ البيان والإيضاح، فإن السلف كانوا يطلقون النسخ على مثل ذلك كثيراً، ويكون مقصودهم أن آيات الفرائض والحدود تبين بها توقفُ دخول الجنة والنجاة من النار على فعل الفرائض واجتناب المحارم، فصارت تلك النصوص منسوخة، أي: مبيَّنة مفسَّرة، ونصوص الفرائض والحدود ناسخة أي: مفسِّرة لمعنى تلك، موضحة لها.

وقالت طائفة: تلك النصوص المطلقة قد جاءت مقيدة في أحاديث أُخر، ففي بعضها: «من قال لا إله إلا اللّه مُخلصاً»[١].

وفي بعضها: «مُستيقناً»[٢].

وفي بعضها: «يصدق قلبه لسانه»[٣].

وفي بعضها: «يقولها حقًّا من قلبه»[٤].

وفي بعضها: «قد ذل بها لسانه، واطمأن بها قلبه»[٥]. =

---

(١) رواه أحمد في المسند [٥/٢٣٦] عن معاذ رضي اللّه تعالى عنه أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول: «من شهد أن لا إله إلا اللّه مخلصاً من قلبه أو يقينا من قلبه، لم يدخل النار»، أو «دخل الجنة»؟ وقال مرة: «دخل الجنة ولم تمسه النار». والحديث ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [١/٢٢].

(٢) أخرجه مسلم [٥٢/٣١] عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يا أبا هريرة وأعطاني نعليه. قال: اذهب بنعليّ هاتين. فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا اللّه مستيقناً به قلبه فبشره بالجنة».

(٣) رواه أحمد في المسند [٢/٣٠٧] عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى أنه سأل رسول اللّه ﷺ ماذا ردَّ إليك ربك في الشفاعة؟
فقال: «والذي نفس محمد بيده! لقد ظننت أنك أول من يسألني عن ذلك من أمتي، لما رأيت من حرصك على العلم، والذي نفس محمد بيده! ما يهمني من انقصافهم على أبواب الجنة أهم عندي من تمام شفاعتي. وشفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا اللّه مخلصاً يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه».
وقال الشيخ أحمد شاكر [٨٠٥٦]: إسناده صحيح.

(٤) رواه أحمد في المسند [١/٦٣] عن عثمان بن عفان رضي اللّه تعالى عنه قال سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقاً من قلبه إلا حُرِّم على النار». فقال عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه: أنا أحدثك ما هي؟ هي كلمة الإخلاص التي أعز اللّه تبارك وتعالى بها محمداً ﷺ وأصحابه وهي كلمة التقوى التي ألاص عليها نبي اللّه ﷺ عمه أبا طالب عند الموت: شهادة أن لا إله إلا اللّه. وقال الشيخ شاكر [٤٤٧] إسناده صحيح.

(٥) روى البيهقي في الشعب [٩] عن قتادة رضي اللّه تعالى عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمد رسول اللّه، فذل بها لسانه وأطمأن بها قلبه لم تطعمه النار».
وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد [١/٢٦] عن سعد بن عبادة رضي اللّه تعالى عنه قال: سمعت =

....

= وهذا كله إشارة إلى عمل القلب، وتحققه بمعنى الشهادتين، فتحققه بقول: لا إله إلا اللّه أن لا يؤلّه القلب غير اللّه حبًا ورجاءً، وخوفاً، وتوكلًا واستعانة، وخضوعاً وإنابة، وطلباً. وتحققه بأن محمداً رسول اللّه ألا يعبد اللّه بغير ما شرعه اللّه على لسان محمد ﷺ.

وقد جاء هذا المعنى مرفوعاً إلى النبي ﷺ صريحا أنه قال: « من قال: لا إله إلا اللّه مخلصاً دخل الجنة ».

قيل: ما إخلاصها يا رسول اللّه ؟!

قال: « أن تحجزك عن كل ما حرم اللّه عليك »[(١)] .

وهذا يُروى من حديث أنس بن مالك، وزيد بن أرقم، ولكن إسنادهما لا يصح. وجاء أيضاً من مراسيل الحسن نحوه.

وتحقيق هذا المعنى وإيضاحه أن قول العبد: لا إله إلا اللّه يقتضي أن لا إله له غير اللّه، والإله الذي يطاع فلا يعصى هيبة له وإجلالًا، ومحبة وخوفاً ورجاءً، وتوكلًا عليه، وسؤالًا منه، ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلا للّه عزّ وجل، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول: لا إله إلا اللّه، ونقصاً في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك.

وهذا كله من فروع الشرك، ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك على كثير من المعاصي التي منشؤها من طاعة غير اللّه أو خوفه أو رجائه، أو التوكل عليه والعمل لأجله، كما ورد في إطلاق الشرك على الرياء[(٢)] ، وعلى الحلف بغير =

= رسول اللّه ﷺ يقول: «من قال لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له أطاع بها قلبه وذل بها لسانه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله حرمه اللّه عز وجل على النار». وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. والأكثر على تضعيفه.

(١) ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد [١/٢٣] عن زيد بن أرقم رضي اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من قال لا إله إلا اللّه مخلصاً دخل الجنة»، قيل: وما إخلاصها ؟ قال: «أن تحجزه عن محارم اللّه» وقال: رواه الطبراني في الأوسط والكبير إلا أنه قال في الكبير: قال رسول اللّه ﷺ: «إخلاصه أن تحجزه عما حرم اللّه عليه» وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن غزوان وهو وضاع.

وفي تاريخ بغداد [١٢/ ٦٤] روى الخطيب البغدادي عن أنس رضي اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من قال لا إله إلا اللّه مخلصاً دخل الجنة»، قالوا يا رسول اللّه فما إخلاصها ؟ قال: «تحجزكم عن كل ما حُرِّم عليكم».

(٢) روى أحمد في المسند [٥/٤٢٨] عن محمود بن لبيد أن رسول اللّه ﷺ قال: « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول اللّه ؟ قال: «الرياء، يقول اللّه عز وجل يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا =

....

= اللَّه [(١)] ، وعلى التوكل على غير اللَّه والاعتماد عليه، وعلى من سوَّى بين اللَّه وبين المخلوق في المشيئة، مثل أن يقول: ما شاء اللَّه وشاء فلان [(٢)] ، وكذا قوله: مالي إلا اللَّه وأنت؛ وكذلك ما يقدح في التوكل وتفرد اللَّه بالنفع والضر: كالطيرة، والرُّقَى المكروهة [(٣)] ، وإتيان الكهان وتصديقهم بما يقولون [(٤)] ، وكذلك اتباع هوى النفس فيما نهى اللَّه عنه، قادحٌ في تمام التوحيد وكماله.

ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التي منشؤها من اتباع هوى النفس بما هو كفر وشرك؛ كقتال المسلم [(٥)] ، ومن أتى حائضاً، أو امرأة في دبرها [(٦)] ، ومن شرب =

= هل تجدون عندهم جزاء» وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [١٠/ ٢٢٥] وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير عبد اللَّه بن شبيب بن خالد وهو ثقة.

(١) روى أحمد في المسند [٢/ ١٢٥]، وأبو داود [٣٢٥١]، والترمذي [١٥٣٥] أن عمر بن الخطاب رضي اللَّه تعالى عنه كان يحلف بأبيه، فقال له النبي ﷺ: «لا تحلف بأبيك فإنه من حلف بغير اللَّه فقد أشرك».
وقال الشيخ شاكر [٦٠٧٣] وقال الألباني في صحيح أبي داود [٢٧٨٧]: صحيح.

(٢) روى أحمد في المسند [٥/ ٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٨]، وأبو داود [٤٩٨٠] عن حذيفة بن اليمان رضي اللَّه تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا ما شاء اللَّه وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء اللَّه ثم ما شاء فلان» وقال الألباني في صحيح أبي داود [٤١٦٦]: صحيح.

(٣) روى أبو داود [٣٨٨٣]، وابن ماجه [٣٥٣٠] عن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه تعالى عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك». قالت زينب زوجة عبد اللَّه: لم تقول هذا؟ واللَّه لقد كانت عيني تقذف، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيني. فإذا رقاني سكنت.
فقال عبد اللَّه: إنما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقاها كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان رسول اللَّه ﷺ يقول: «أذهب البأس رب الناس، اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك. شفاء لا يغادر سقماً».
وقال الألباني في صحيح أبي داود [٣٢٨٨]: صحيح.

(٤) روى أحمد في المسند [٢/٤٢٩] عن أبي هريرة والحسن رضي اللَّه تعالى عنهما، عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ» وإسناده ضعيف، جلاس بن عمرو لم يسمع من أبي هريرة، وإرساله بين الحسن البصري والنبي ﷺ.
والحديث صحيح أخرجه أبو داود [٣٩٠٤]، والترمذي [١٣٥]، وابن ماجه [٦٣٩] كلهم بنحوه من طرق أخرى عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود [٣٣٠٤]، وصحيح الجامع [٥٩٣٩] والإرواء [٢٠٠٦].

(٥) أخرج البخاري [٤٨]، ومسلم [٦٤/ ١١٦] عن عبد اللَّه قال: قال رسول اللَّه ﷺ «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر».

(٦) روى الترمذي [١٣٥] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد»، وصححه الشيخ شاكر [١/ ٢٤٣، ٢٤٤].

....

= الخمر في المرة الرابعة [1] ، وإن كان ذلك لا يخرجه عن الملة بالكلية . ولهذا قال السلف : كُفر دون كفر، وشرك دون شرك .

وقد ورد إطلاق الإله على الهوى المتبع، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ وقال الحسن: هو الذي لا يهوى شيئاً إلا ركبه.

وقال قتادة: هو الذي كلما هوى شيئاً ركبه.

وكلما اشتهى شيئاً أتاهُ. لا يحجُزه عن ذلك ورعٌ ولا تقوى.

ورُوي من حديث أبي أمامة مرفوعاً بإسناد ضعيف: « ما تحت ظل السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى مُتَّبَعٌ »[2] .

وفي حديث آخر: « لا تزال لا إله إلا الله تدفع عن أصحابها حتى يؤثروا دنياهم على دينهم، فإذا فعلوا ذلك رُدَّت عليهم، وقيل لهم: كذبتم »[3] .

ويشهد لذلك الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: « تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش[4] ، فدل هذا على أن كل من أحب شيئاً وأطاعه، وكان غاية قصده ومطلوبه، ووالى لأجله، وعادي لأجله، فهو عبده، وذلك الشيء معبوده وإلهه.

ويدل عليه أيضاً أن الله تعالى سمّى طاعة الشيطان في معصيةٍ عبادةً للشيطان، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ وقال حاكياً عن خليله إبراهيم أنه قال لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ [مريم: ٤٤] فمن لم يحقق عبودية الرحمن وطاعته فإنه يعبد الشيطان بطاعته له، ولم يخلُص من عبادة الشيطان إلا من أخلص عبودية الرحمن، وهم الذين قال فيهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢] ص ٧٠ الذين حققوا قول: « لا إله إلا الله »، وأخلصوا في قولها، وصدقوا قولهم بفعلهم، فلم يلتفتوا إلى غير الله، محبةً ورجاءً وخشية وطاعة وتوكلًا، وهم الذين صدقوا في قول: « لا إله إلا الله » وهم عباد الله حقًّا. =

---

(١) روى الترمذي [١٤٤٤]، وأبو داود [٤٤٨٤]، وابن ماجه [٢٥٧٢، ٢٥٧٣] عن معاوية رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شرب الخمر فاجلدوه فإن عاد في الرابعة فاقتلوه» وقال الألباني في صحيح أبي داود [٣٧٦٤]: صحيح.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [١/ ١٩٣] وقال رواه الطبراني في الكبير، وفيه الحسن بن دينار وهو متروك الحديث.

(٣) بنحوه روى أبو يعلى في مسنده [٤٠٣٤] وابن حجر في المطالب العالية [٣٢٧٤] وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [٧/ ٢٨٠] وقال: رواه البزار وفيه عبد الله بن محمد بن عجلان وهو ضعيف جداً.

(٤) أخرجه البخاري [٢٨٨٦، ٦٤٣٥] وابن ماجه [٤١٣٦].

....

❁ ❁ ❁

= فأما من قال: « لا إله إلا اللَّه » بلسانه، ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية اللَّه ومخالفته فقد كذّب فعله قوله، ونقص من كمال توحيده بقدر معصية اللَّه في طاعة الشيطان والهوى، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦].

فيا هذا كن عبد اللَّه لا عبد الهوى، فإن الهوى يهوي بصاحبه في النار: ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩]. « تعس عبد الدرهم ! تعس عبد الدينار» ! واللَّه ما ينجو غداً من عذاب اللَّه إلا من حقق عبودية اللَّه وحده، ولم يلتفت معه إلى شيء من الأغيار.

من علم أن إلهه ومعبوده فرد، فليُفرده بالعبودية ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ .

كان بعض العارفين يتكلم على أصحابه، على رأس جبل ، فقال في كلامه: لا ينال أحد مراده حتى ينفرد فرداً بفرد، فانزعج واضطرب، حتى رأى أصحابه أن الصخور قد تدكدكت، وبقي على ذلك ساعات، فلما أفاق فكأنه نُشر من قبره.

قوله: « لا إله إلا اللَّه » تقتضي أن لا يحب سواه، فإن الإله هو الذي يطاع، محبة وخوفاً ورجاءً. ومن تمام محبتة محبةُ ما يحبه، وكراهة ما يكرهه، فمن أحب شيئاً مما يكره اللَّه، أو كره شيئاً مما يحبه اللَّه لم يكمل توحيده ولا صدقه في قول: لا إله إلا اللَّه، وكان فيه من الشرك الخفي بحسب ما كرهه مما يحبه اللَّه، وما أحبه مما يكرهه. قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَآ أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٨].

كتاب التوحيد [٣٣-٥٩].

التكليف للمؤمن فقط

السؤال: من الذي ألزمه اللّه بالتكليف وأمره به ؟

الجواب: إذا تأملنا القرآن الكريم، نجد أن اللّه سبحانه وتعالى في التكليف لا يخاطب الناس جميعاً، وإنما يسبق أحكام التكليف دائماً بكلمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ ص ٧١ هم المكلفون بالفعل فمثلًا تجد:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم ﴾ [النساء: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾.

أي أن اللّه سبحانه وتعالى، لا يكلف إلا المؤمن، الذي يدخل في عقد إيماني مع اللّه سبحانه وتعالى، بمعنى أنه لما سمع داعي اللّه أجاب، آمن به وصدقه وسار على نهجه واقتفى أثره واتبع هداه، هذا الإنسان الذي اختار بمحض إرادته الإيمان باللّه تعالى ورسوله ﷺ، الذي يخاطبه اللّه بالمنهج ويبلغه بالتكليف، أما غير المؤمن فهو غير داخل في هذا العقد الإيماني، ولذا فهو غير مخاطب بالتكليف.



مفهوم العبادة

السؤال: إذا كان اللَّه قد خلقنا لعبادته، كما نصت على ذلك الآية الكريمة: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] فما هو مفهوم العبادة الحقيقي؟ هل العبادة أن يجلس الإنسان في المسجد ويترك العمل ؟ بعض الناس يجادلون ليحاولوا أن يثبتوا أن العبادة صلاة وذكر داخل جدران المسجد فقط، ما رأي فضيلتكم ؟

الجواب: في كثير من الأحيان نجد الجدل يخرج أشياء كثيرة عن معانيها، ويدخلها فيما ينفع وما لا ينفع، اللَّه سبحانه وتعالى خلقنا في الحياة لنعبده، هذه حقيقة لا يستطيع أحد أن ينكرها، واللَّه سبحانه وتعالى جعل علة الخلق هي العبادة، وتم الخلق لتتحقق العبادة، وتصبح واقعاً، ولكن هل العبادة هي مجرد الجلوس في المساجد والتسبيح، أم لها منهج عمل بينه القرآن الكريم، منه الصلاة والذكر، ومنه العمل، ومنه السعي في الأرض، ومنه مقاومة الفتن والإغراءات، ومنه الدعوة إلى سبيل اللَّه تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، ومنها رعاية الزوجة والأبناء، وحقوق الوالدين والجار، وحقوق المجتمع وأمنه، وأشياء أخرى كثيرة، بيَّنها اللَّه سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، ووضحها في منهج متكامل للحياة.

لو أن اللَّه سبحانه وتعالى، أراد منا التسبيح والصلاة، وحدهما دون شيء آخر؛ ما خَلَقَنا مختارين، واللَّه سبحانه وتعالى غنى عنا جميعاً، ويستطيع أن يخلق ما يشاء، كما يشاء، فمن خلقه سبحانه وتعالى من يُسبحون بحمده ولا يعصون له أمراً كالملائكة، وإنّ من خَلق اللَّه سبحانه وتعالى من أتاه طائعاً مختاراً كالسموات والأرض، ولو شاء اللَّه تعالى لكل خلقه الطاعة والعبادة لقهرهم على ذلك وما استطاع خلقه أن يشذ أو يعصى.

واللَّه سبحانه وتعالى هو القهار فوق عباده، ومن هنا فهو يستطيع أن يجعل من يشاء مقهوراً على عبادته، فلا يستطيع أحد المعصية أو الإفلات، واقرأ قوله

سبحانه وتعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤].

إن اللَّه سبحانه وتعالى ليس في حاجة إلى خلقه، فهو غني عن الجميع، وعبادة الخلق للَّه سبحانه وتعالى، لن تزيد في ملكه شيئاً، وعصيان الخلق جميعاً لن ينقص من ملكه شيئاً.

ولكن اللَّه سبحانه خلقنا لنعبده اختياراً، بمعنى أن نفرده سبحانه بالعبادة ونحن نملك الحرية في أن نتبع المنهج أو ألا نتبعه، يريدنا اللَّه سبحانه وتعالى أن نأتي طواعية من أنفسنا، ونختار أن نكون في طاعته، يدفعنا حبنا للَّه سبحانه أن نقيد إرادتنا التي شاء اللَّه سبحانه وتعالى أن يجعلنا مخيرين فيها بأمر اللَّه سبحانه وتعالى، فإن قال: افعل كذا ولا تفعل كذا؛ قلنا: سمعنا وأطعنا؛ حباً للَّه وطاعة له سبحانه وتعالى، وجهداً مخلصاً في الوصول إلى رضاه سبحانه، هذه هي أعلى المنازل عند اللَّه سبحانه وتعالى، التي منحها لآدم ولذريته من بعده.

فالذي يأتي اللَّه سبحانه وتعالى مقهوراً، إنما يأتيه وهو غير مختار، فهو لا يستطيع أن يفعل إلا ذلك، ولكن الذي يأتي اللَّه سبحانه وتعالى اختياراً، فهو أعلى منزلة؛ لأنه يستطيع أن يفعل غير ذلك، فقد زُينت له الشهوات، وزُينت له المعاصي، الشيطان يغريه، والدنيا تجذبه، وبريق كل شيء يحيط به، ومع ذلك فهو يترك هذا كله بإرادته رغبة فيما عند اللَّه وطلباً لرضاه سبحانه، يدفعه حبه للَّه سبحانه وتعالى أن يأتيه طائعاً مختاراً، ويتمسك بما أمره اللَّه به، تلك عبادة عن محبوبيَّة، أي: عن حب وإخلاص للَّه تعالى.

نأتي اللَّه سبحانه وتعالى؛ لنقول له: يا رب، خلقتنا، وأعطيتنا الحرية في أن نفعل، أو لا نفعل، وزيَّن لنا الشيطان الدنيا ونعيمها، وحفت الطاعة بالمكاره، ولكننا تركنا الدنيا كلها وما فيها وجئنا إليك مؤمنين، أتينا إليك طائعين مختارين، ملتزمين بعبادتك، هذا الالتزام هو حب لما تحب، وكره لما تكره.

❁ ❁ ❁

العبودية للَّه تعالى . . والعبودية للإنسان

السؤال: العبودية لها معنى واحد، هو الخضوع والاستسلام، فما أثر عبودية الإنسان للَّه؛ وعبوديته لإنسانٍ مثله ؟

الجواب: عبودية الإنسان للإنسان هي أسوأ أنواع العبودية، بينما عبودية الإنسان للَّه هي أرقى أنواع العبودية، لماذا ؟ لأن الإنسان إذا استعبدك أخذ منك ولم يعطك شيئاً. أنت تزرع الأرض، وهو يأخذ المحصول، ولا يمنحك أي مقابل، أنت تعمل وهو يأخذ ناتج عملك، وإذا كان عندك شيء جميل في البيت دخل فأخذه منك، وإذا كانت عندك امرأة جميلة، أو ابنة جميلة ضمها إلى قصره، وإذا كان لديك ولد تستعين به على الحياة في كبرك، أخذه منك ليعمل عنده، وتركك تواجه الحياة في هذه السن المتقدمة بلا معين.

هذه هي عبودية الإنسان لإنسان مثله يأخذ منك ولا يعطيك، يمد يده حتى إلى ثوبك الجميل الذي قد لا تملك غيره، وهكذا تعيش مُعْدَماً يائسا، ولتتصور حالك إذا كان لديك ثوب جميل أخذوه منك، وإذا كان لديك ولد أخذوه منك، وإذا كان لديك مال أخذوه منك، وإذا كان لديك أثاث أخذوه منك، وإذا كان لديك طعام أخذوه منك، فأي حياة تلك التي تعيشها ؟!

وهكذا يدفعك الهلع والخوف الذي يضعه في نفسك عبوديتك لغير اللَّه تعالى هذا إلى أن تعيش حياة البؤس والشقاء، يستعبدك من هو أقوى منك، ويأخذ منك كل ما تملك، وإذا اختلفت معه قتلك وسلبك الحياة.

ولكن عبوديتك للَّه سبحانه وتعالى هي عطاء بلا أَخْذ، فاللَّه يعطيك الحياة، ويعطيك المال، ويعطيك الولد، ويعطيك الصحة، ويعطيك الطمأنينة، ويعطيك الشجاعة والقوة والقدرة، ويعطيك الأمن، ويعطيك المنهج الذي يكفل لك كل حقوقك، فلا يضيع لك حق، مهما كانت قوة ذلك الذي يظلمك؛ لأن اللَّه أقوى منه، ولا يأخذ أحد منك شيئاً، فمنهج اللَّه مع الضعيف ضد القوي، ومع المظلوم ضد الظالم.

❁ ❁ ❁

عبادة الأسباب وخطورتها

السؤال: بعض الناس يعبدون الأسباب وحدها، دون تفكير في المُسَبِّب، فما هو الخطر الذي تجره عبادة الأسباب على الناس ؟

الجواب: هَبْ أن أحداً طلب مني أن أفعل ما يغضب اللّه من أجل مال، أو جاه، أو سلطان، لو كنت أعبد الأسباب وحدها؛ لفعلت له ما يريد؛ لأصل إلى ما أريد، فلو قال: اقتل، لقتلت، ولو قال: اظلم؛ لظلمت، ولو قال: افعل كذا وكذا، مما يغضب اللّه، لفعلت إحساساً مني في أن عطاء الأسباب في يده وحده، وأن مخالفته ستؤدي بي إلى الحرمان من مقومات الحياة، وأن طاعته ستعطيني الحياة الرغدة التي أتمناها، وهكذا وبغير نظر إلى ما قال اللّه تعالى، افعل، ولا تفعل. أنطلق لأحقق شهوات للبشر، ولو كانت تغضب اللّه وهكذا يصبح الهوى الشخصي والغرض البشري هما أساس الحياة، فيفسد الكون كله، ويصبح الحَكَم على الأشياء هو الشهوة، وليس دين اللّه !

هذه هي خطورة الأخذ بالأسباب وحدها، وهي خطورة تعرض الكون كله للاختلال، وتضيع موازين العدل، وتكثر من البغي والفساد في الأرض، وما من أمة عبدت الأسباب، إلا انتشر فيها الظلم، ونما فيها الإرهاب وضاع فيها الحق، واستعبد الإنسان.

فإطلاق الأسباب وحدها في الكون يؤدي إلى عبادة الفرد، وإلى ظلم عظيم، ولذلك كان لا بد من طلاقة القدرة لتصحيح المسيرة وإفاقة الناس وجعلهم يعلمون أن اللّه هو الذي أعطى الأسباب، ويستطيع كما أعطاها أن يأخذها، وأن العبادة للّه وحده، فمن ترك المُسَبِّبَ وعبد الأسباب؛ فقد ضل ضلالاً بعيداً؛ ولذلك فنحن نتعجب من ضعيف لا حول له ولا قوة، يمكّنه اللّه من قوى !! ومن كان يملك الجاه والسلطان أصبح ضعيفاً يبحث عن إنسان، فلا يجد حتى من يصافحه !! ومن ينتقل من كرسي الحكم إلى السجن، إن ذلك يحدث أمامنا ليذكرنا بقدرة اللّه سبحانه وتعالى، وقهره لخلقه، وأنه سبحانه هو الذي يعطي الملك والجاه والسلطان.

فإذا عبد الناس هذه الأسباب وانطلقوا يسجدون لها؛ أزالها اللَّه، لماذا ؟ حتى يفيق الناس، ويعلموا أن اللَّه سبحانه وتعالى هو الذي أعطى الأسباب، وأن هذه الأسباب ليست ذاتية للحاكم أو صاحب السلطان، ولو كانت ذاتية لما زالت عنه، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى - لأنه هو الذي أعطى الأسباب - يستطيع أن يزيلها.

أمام هذه الحكمة التي تحدث في عالمنا كل يوم، يسجد الناس للَّه بدلاً من السجود لغير اللَّه سواء أكانت أسباباً، أم بشراً، ويعلمون أن القوة والمنعة هما من اللَّه، وليست من أي إنسان.

ولا تقتصر طلاقة القدرة على قمة الأمور في الدنيا، بل في أكبر الأشياء. وفي أبسط الأشياء، طلاقة القدرة تتدخل لتنصر مظلوماً ضعيفاً على ظالم قوي، وتقتص من إنسان ارتكب جريمة، وتخيَّل أنه نجا من العقاب، أو لتعيد حقاً حسب صاحبه أنه ضاع، أو لتذل جباراً يؤذي الناس، وتجعله عاجزاً عن دفع الأذى عن نفسه.

تلك كلها من طلاقة القدرة، وكلمة «يا رب» تخرج من القلب المظلوم، فلا تجد بينها وبين السماء حجاباً، وتتدخل السماء لتزيل ظلماً، وتعيد حقاً، وتصحح الموازين في الأرض، ولذلك فإن المؤمن لا يعمل بنفس مفهوم الكافر، فأساس عمل الكافر ينتج من العمل بصرف النظر عما يقوم به، ولكن المؤمن يجعل دائماً اسم اللَّه يسبق كل عمل.



عبادة المقلِّد . . . وعبادة العارف

السؤال: هناك من يذهب إلى المسجد ويؤدي الصلاة بحركات تقليدية دون أن يستشعر عظمة الصلاة، ودون أن يحس بلذة العبادة، فما رأي فضيلتكم في هذه العبادة التقليدية ؟

الجواب: لا بد أن يكون لديك الدافع القلبي لعبادة اللّه، وسأضرب لك مثلًا، إنك عندما تريد أن تصنع شيئاً، فإن أمامك طرقاً كثيرة، قد تصنعه مثلًا عن طريق ما يسمونه طريق الهواة، أي بلا دراسة ولا دراية، وإنما بشيء تحاول تقليده، ولكنك إذا أردت أن تصنع شيئاً بإتقان، فلا بد أن يكون هناك منهج تدرسه يحوي أصول هذه الصناعة؛ حتى تستطيع أن تنفذها بإتقان.

إذا قال لك ابنك إنه يريد أن ينجح في الامتحان، ويحقق أملًا عنده في كذا . . . أو كذا . . . تقول له لا بد أن تذاكر.

إذن . . المذاكرة شرط من شروط النجاح، والكل متفق على أن الشرط سبب وجود الجواب، فالمذاكرة سبب وجود النجاح، هذا هو ظاهر العلم، ولكن باطن العلم غير ذلك، ذلك أن ظاهر العلم يهمل شيئاً مهماً من عناصر حركة الإنسان، وهو الدافع قبل الواقع، أنت تقول: إنك تذاكر لتنجح، فكأن النجاح وُجد في ذهني أولًا، بكل ما يحققه لي من مميزات، ثم بعد ذلك ذاكرت؛ ليصبح هذا النجاح حقيقة واقعة، ومعروف أن الشرط سبب وجود الجواب.

إذن . . فالدافع موجود قبل المذاكرة، وبعد المذاكرة جاء الواقع؛ فتحقق ما أردت، فالسيارة سبب، وقطع الطريق سبب، ولكن الدافع أن أصل إلى مكان أحب أن أصل إليه كالإسكندرية مثلًا، فأنا عندما أذهب، أركب أولًا، ولكن الدافع يكون في ذهني قبل أن أركب.

إذن . . فالغاية وجدت أولًا ثم بعد ذلك جاء الشرط لتحقيق الغاية، فبعد أن كانت دافعاً في عقلي فقط، صارت واقعاً.

وكذلك عبادة المقلد إنما هي حركات ظاهرة بغير وعي وعلى غير علم،

أما عبادة العارف فهو واع لما يفعل، عارف بحق ربه، عالم بما يريده منه. قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[١] [الكهف: ١١٠].

⁂

(١) قال العلامة القاسمي في تأويل قول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾.
أي: يخاف المصير إليه، أو يأمل لقاءه ورؤيته، أو جزاءه الصالح وثوابه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أي: في نفسه، لائقاً بذلك المرجو، وهو ما كان موافقاً لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾، أي: من خلقه إشراكاً جليًّا. كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، ولا إشراكاً خفيًّا. كما يفعله أهل الرياء، ومن يطلب به أجراً من المدح وتحصيل المال والجاه.
قال أبو السعود: وإيثار وضع المظهر موضع المضمر في الموضعين، مع التعرض لعنوان الربوبية، لزيادة التقرير، وللإشعار بعلية العنوان للأمر والنهي، ووجوب الامتثال فعلًا وتركاً.
ودلت الآية - كما قال ابن كثير - على أن للعمل المتقبَّل ركنين: كونه موافقاً شرع الله المنزل، ومخلصاً أريد به وجهه تعالى، لا يخلط به غيره، وتسمية الرياء شركا أصغر، ثبت في السنة، وصح فيها حبوط العمل بالرياء. ودخول الرياء في الآية، باعتبار عموم معناها، وإن كان السياق في الشرك الجليّ، للخطاب مع الجاحدين. والله تعالى هو الموفق والمعين. تفسير القاسمي [١١/ ٤١٢٢، ٤١٢٣].

الجلوس في المساجد للعبادة

السؤال: هل معنى أن اللّه خلقنا لعبادته أن نجلس في المساجد لنصلي، ولا نفعل شيئاً، هناك أناس يرون ذلك. فماذا ترى فضيلتكم ؟

الجواب: في كثير من الأحيان نجد الجدل يُخرج أشياء كثيرة عن معانيها، ويدخلنا في أمور ما كان أغنانا عنها، فاللّه سبحانه وتعالى، خلقنا في هذه الحياة لنعبده، هذه حقيقة لا يستطيع أحد أن ينكرها.

إذن.. اللّه سبحانه وتعالى جعل علة الخلق العبادة[1]، ولكن هل العبادة هي مجرد الجلوس في المساجد والتسبيح ؟ أم أن لها منهجَ عمل بينه القرآن ؟

لقد بين لنا اللّه تعالى في القرآن الكريم منهج العبادة فمنها تقوى اللّه وإفراده سبحانه بالعبادة والإخلاص في ذلك، ومنها العمل، ومنها السعي في الأرض، ومنها مقاومة الفتن والإغراءات، ومنها الدعوة إلى سبيل اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة، ومنها أشياء كثيرة، بيَّنها اللّه سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، ووضحها في منهج متكامل للحياة.

لو أن اللّه سبحانه وتعالى، أراد منا التسبيح والصلاة فقط دون شيء آخر، ما خَلَقنا مختارين، واللّه سبحانه وتعالى غني عنا جميعاً، ويستطيع أن يخلق ما يشاء، كما يشاء، من يسبحون بحمده، ولا يعصون له أمراً، وأن مِنْ خَلْقِ اللّه سبحانه وتعالى، كالملائكة وغيرهم، من يسبح بحمده، ولا يعصى له أمراً.

ولو أن هدف الخلق، هو العبادة بمفهومها الذي يحاول بعض الناس أن يفسره، ما استطاع خلق من خلق اللّه أن يشذ عن طاعته، واللّه سبحانه وتعالى من صفات جلاله القهار، فإذا شاء سبحانه أن يجعل من يشاء مقهوراً على عبادته، فلا يستطيع أحد المعصية أو الإفلات[2].

---

(١) إشارة لقول اللّه تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

(٢) ورد أن رسول اللّه ﷺ زار الصحابيّ الجليل عبد اللّه بن عمرو بن العاص فلم يجده في بيته فسأل امرأته عن حالها، فقال: « كيف أنتِ يا أم عبد الله ؟ » قالت: كيف =

....

۞ ۞ ۞

= أكون؟ وعبد اللّه رجل قد تخلّى عن الدنيا. قال لها الرسول ﷺ: « وكيف ذلك ؟ » فأخبرته أن زوجها عبد اللّه، يقوم الليل فلا ينام، ويصوم النهار فلا يفطر، ولا يَطْعَم اللحم ولا يؤدي إلى أهله حقوقهم.

سمع الرسول الكريم شكوى أم عبد اللّه، فلما لقي عبد اللّه بن عمرو سأله: « ما هذا الذي بلغني عنك ؟ إنك لا تنام » !

قال: أردتُ بذلك الأمن من الفزع الأكبر.

قال الرسول ﷺ: « وبلغني أنك تصوم ولا تفطر ».

قال: أردت بذلك ما هو خير منه في الجنة.

قال الرسول ﷺ: «وبلغني أنك لا تؤدي إلى أهلك حقهم».

قال عبد اللّه: أردت بذلك نساء خيراً منهن.

فقال رسول اللّه ﷺ: « يا عبد اللّه بن عمرو، إن لك في رسول اللّه أسوةً حسنةً، فرسولُ اللّه يصوم ويُفطر، ويأكل اللحْمَ، ويؤدّي إلى أهله حقوقهم، يا عبد اللّه ابن عمرو. إن للّه عليك حقاً، وإن لبدنك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً ».

الإسلام والعمل [ص: ١٣].

الإسلام عبادة وعمل

السؤال: هل الإسلام يأمرنا بالعبادة فقط، دون أن نعمل ونسعى من أجل عمارة الأرض ؟ أو يأمرنا بأن نجمع بين العبادة والعمل ؟

الجواب: الإسلام منهج حياة كامل فيه كل ما يحتاج إليه الفرد والمجتمع فلا هو عبادة فقط بالمعنى المتعارف عليه التي هي الأركان، ولا هو سعي حثيث من أجل متطلبات الحياة، الإسلام جمع بين الأمرين والإسلام عبادة بالمعنى الشامل للعبادة والتي هي كل عمل أمر اللَّه تعالى به أو نهى سبحانه عنه سواء في الأركان كالصلاة والزكاة. . . . الخ. أو في المعاملات.

إذن. . الإسلام دين يجمع بين الدنيا والآخرة، فلا هو معزول عن ماديات الدنيا، ولا هو معزول عن الروحانيات، بل هو دين ودنيا، يأخذ من كل بقدر صلاح المؤمن وعمله، وبقدر ارتباطه بالمنهج الذي أنزله اللَّه تعالى له، ولما كان اليهود يقدسون المادة وحدها، ويكنزون المال، ولا يعطون اهتماماً إلا لماديات الحياة، فقد جاء اللَّه لهم بمثل للعبادة فقال سبحانه: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ [الفتح: ٢٩]، ليقول لأهل التوراة إن الإيمان في الإسلام لا يعتمد على الماديات وحدها، ولكنه يعطي العبادة حقها، فترى المؤمنين في المساجد يعبدون اللَّه ركوعاً وسجوداً، حتى أنهم من كثرة السجود يظهر على وجوههم علامة بارزة يعرفهم الناس بها عندما يشاهدونهم، أي أن لا ينطلق إلى ماديات الدنيا وينسى اللَّه سبحانه وتعالى، بل هو ملتزم بمنهج اللَّه تعالى في كل حياته.

أما في الإنجيل فحيث تأخذ الروحانية نصيباً كبيراً، يعطي اللَّه مثلا مادياً للمؤمن كزرع اعتنى به حق عناية فكبر واشتد عوده وغلظ، كلما رآه الكفار ورأوا ما هو فيه من حسن وعناية، وإثمار دب في قلوبهم الغيظ، وذلك ليؤكد اللَّه سبحانه وتعالى أن الإيمان في الإسلام لا يهمل أمور الدنيا ويتركها، بل هو يأخذ بأسباب الدنيا والآخرة، وأن منهج الإيمان فيه هو الذي يؤدي إلى صلاح

العبد المؤمن في دنياه وفي آخرته إن التزمه[١].

---

(١) قال اللّه تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح: ٢٩].
قال ابن كثير: يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب فقال: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ وهذا مبتدأ وخبر وهو مشتمل على كل وصف جميل ثم ثني بالثناء على أصحابه رضي اللّه عنهم فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ كما قال عز وجل: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار رحيماً براً بالأخيار، غضوباً عبوساً في وجه الكافر ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة: ١٢٣].
وقال النبي ﷺ: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »[٢].
وقال ﷺ: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً. وشبك ﷺ بين أصابعه »[٣]، كلا الحديثين في الصحيح.
وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال ووصفهم بالإخلاص فيها للّه عز وجل والاحتساب عند اللّه تعالى جزيل الثواب وهو الجنة المشتملة على فضل اللّه عز وجل وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول كما قال جل وعلا: ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢] وقوله جل جلاله: ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي اللّه عنهما سيماهم في وجوههم يعني: السمت الحسن.
وقال مجاهد وغير واحد يعني الخشوع والتواضع. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عليّ بن محمد الطنافسي حدثنا حسين الجعفي عن زائدة عن منصور عن مجاهد ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ قال الخشوع. قلت: ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه. فقال: ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون.
وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم.
وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، وقد أسنده ابن ماجه في سننه عن إسماعيل بن محمد الصالحي عن ثابت بن موسى عن شريك عن الأعمش =

---

(١) أخرجه مسلم [٢٥٨٦]. (٢) أخرجه البخاري [٢٤٤٦]

....

= عن أبي سفيان عن جابر رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» والصحيح أنه موقوف[١] .
وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً في القلب وضياءً في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس. وقال أمير المؤمنين عثمان رضي اللّه عنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها اللّه تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه.
والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع اللّه تعالى أصلح اللّه عز وجل ظاهره للناس كما روي عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه أنه قال: من أصلح سريرته أصلح اللّه تعالى علانيته.
وقال أبو القاسم الطبراني حدثنا محمود بن محمد المروزي حدثنا حامد بن آدم المروزي حدثنا الفضل بن موسى عن محمد بن عبد اللّه العزرمي عن سلمة بن كهيل عن جندب ابن سفيان البجلي رضي اللّه عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه اللّه تعالى رداءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر»[٢] العزرمي متروك.
وقال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رضي اللّه عنه عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان»[٣].
وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا زهير حدثنا قابوس بن أبي ظبيان أن أباه حدثه عن ابن عباس رضي اللّه عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة»[٤] ورواه أبو داود عن عبد اللّه بن محمد النفيلي عن زهير به.
فالصحابة رضي اللّه عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم. وقال مالك رضي اللّه عنه بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي اللّه عنهم الذين فتحوا الشام يقولون واللّه لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا، وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول اللّه قد نوّه اللّه تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة .
ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ ثم قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي فراخه ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي شده ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي: شب وطال =

(١) رواه ابن ماجه [١٣٣٣] وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه [٢٨٠].
(٢) رواه الطبراني في الكبير [٢/ ١٧١] وذكره الهيثمي في المجمع وقال: رواه الطبراني في الكبير، وفيه حامد بن آدم وهو كذاب.
(٣) رواه أحمد في المسند [٣/ ٢٨].
(٤) رواه أحمد في المسند [١/ ٢٩٦] وقال الشيخ شاكر [٢٦٩٨]: إسناده صحيح.

....

❁ ❁ ❁

= ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ﴾ أي: فكذلك أصحاب رسول اللَّه ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمة اللَّه عليه في رواية عنه بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي اللَّه عنهم قال: لأنهم يغيظونهم ومن غاظ الصحابة رضي اللَّه عنهم فهو كافر لهذه الآية ووافقه طائفة من العلماء رضي اللَّه عنهم على ذلك والأحاديث في فضل الصحابة رضي اللَّه عنهم والنهي عن التعرض بمساويهم كثيرة ويكفيهم ثناء اللَّه عليهم ورضاه عنهم.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ من هذه لبيان الجنس ﴿مَّغْفِرَةً﴾ أي: لذنوبهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً ووعد اللَّه حق وصدق لا يخلف ولا يبدل وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي اللَّه عنهم فهو في حكمهم ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة رضي اللَّه عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم وقد فعل.

قال مسلم في صحيحه: حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»[(١)].

تفسير ابن كثير [٤/ ٢٠٥: ٢٠٧].

---

(١) أخرجه مسلم [٢٥٤٠/ ٢٢١].

اللَّه

الاسم الجامع لصفات اللَّه تعالى وأسمائه

السؤال: لماذا كانت ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ تجمع كل صفات أسماء اللَّه الحسنى ؟

الجواب: إننا حين نقول باسم اللَّه، فإننا نبدأ العمل مستعينين بقدرة اللَّه سبحانه وتعالى على الفعل، والفعل عادة يحتاج إلى أكثر من صفة، فإن كنت تريد عملًا يحتاج إلى قوة، تقول: باسم القوي؛ حتى يمدك اللَّه سبحانه وتعالى بالقوة، وإذا أردت علماً فإنك تبدأ في الاستعانة باسم العليم؛ ليمدك اللَّه من لدنه بالعلم، وإذا كانت الحكمة هي مطلبك؛ تقول: باسم الحكيم، وإذا كان ما تريد أن تستعين به هو القهر، استعنت باسم القاهر.

إذن . . فأنت في كل مرة تستعين بصفة من صفاته سبحانه وتعالى تعينك على العمل الذي تنوي القيام به، ولكن نحن نعرف أن الأعمال والأفعال في حياتنا الدنيا لا تحتاج إلى صفة واحدة، بل تحتاج إلى صفات كثيرة، بل أقل الأعمال يحتاج إلى أكثر من صفة، بل إلى صفات متعددة، ولا تعتقد أن هناك عملًا يحتاج للقدرة وحدها، إنما يحتاج للعلم مع القدرة، ويحتاج للحكمة، ويحتاج للحلم، ويحتاج إلى أشياء أخرى كثيرة.

ولذلك فإن اللَّه سبحانه وتعالى من تمام نعمته وكمال رحمته، بدلًا من أن يثقل عليك في التفكر في صفات المجالات للفعل لاختبار ما ترجوه وتدعو به، قال لك قل: باسم اللَّه؛ لأن هذا الاسم يجمع كل الصفات، ويعينك على كل الأمور، فإذا قلت: بسم اللَّه، فكأنك قلت: باسم القوي، وباسم القادر، وباسم الحكيم، وباسم المهيمن، وباسم الرحمن، وباسم الرحيم، وبكل الأسماء الحسنى، لماذا ؟ لأنك أتيت باسم الذات الموصوفة بصفات الكمال.

❁ ❁ ❁

جامع الثناء على اللَّه تعالى

السؤال: إن اللَّه تعالى يطلب منا الشكر البسيط على النعم الكثيرة، فهل من إيضاح لهذا القول عند الشيخ الإمام ؟

الجواب: إن نعم اللَّه سبحانه وتعالى لا تعد ولا تحصى، فهو سبحانه يعطي ويعطي، ويفتح الأبواب المغلقة، وييسر السبل في الدنيا، ويعطي المال، ويوفق في العمل، ويصيب بخيره من يشاء، عطاء بلا حدود، وبلا قيود، وهو في كل ذلك معط لا يأخذ شيئاً، ومانح للخير لا يمتن على عبيده، وواهب لكل شيء بلا حساب، واللَّه سبحانه وتعالى لا يحتاج إلينا في شيء، فنحن جميعاً لا نزيد في ملك اللَّه شيئاً لو أطعناه، كما أننا لا ننقص من ملك اللَّه شيئا إن عصيناه، ولو سألناه وأعطى كل واحد منا مسألته لاينفد ما عنده .

واللَّه تعالى خزائنه لا تفرغ أبداً، إنه دائم العطاء، عطاء لا ينقطع، ولا ينقص، بل يزيد، واللَّه سبحانه وتعالى يملك خزائن الأرض، ويملك الخير كله، وهو سبحانه لا تنفعه عبادتنا، ولا تضره معصيتنا، وهو سبحانه وتعالى النافع الضار .

واللَّه سبحانه وتعالى رحمة منه بخلقه جعل الشكر له في كلمتين اثنتين، هما « الحمد للَّه »، والعجيب في هذا أنك إذا أتيت لتشكر إنساناً على نعمة واحدة أسداها لك، فتظل ساعات وساعات تلهج بالشكر والثناء. وربما بقيت أياماً وليالي قبل لقائك لهذا الشخص، وأنت تعد الكلمات وتختار، وتضيف وتحذف، وتأخذ رأي الناس وتسأل الخلق، لعلك تصل إلى صيغة قصيدة، أو خطاب مدبج بالثناء والشكر في ألفاظ كثيرة، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى، جلت قدرته وعظمته، جعل شكره بكلمتين اثنتين هما، الحمد للَّه .

كلمتان في ظاهرهما شكر بسيط في مقابل نعم لا تعد ولا تحصى ولكنهما ثقيلتان في الميزان، جمعتا كل الحمد والشكر والثناء .

اللَّه سبحانه هو الذي علم العبد أن يقولهما، وذلك رحمة منه سبحانه

وإلا لشقي الخلق وما استطاعوا أن يجدوا الكلمة المناسبة لشكره وحمده سبحانه[١].



(١) روى ابن ماجه [٣٨٥٠] عن عائشة رضي اللّه تعالى عنها أن رسول اللّه ﷺ قال: « ما أنعم اللّه على عبد بنعمة، فقال: الحمد للّه، إلا كان ما أعطي أفضل مما أخذ ». وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [٣١٠٥].

العبودية

السؤال: الدين يطلب من الإنسان أن يكون عبداً للّه وحده، في الوقت الذي يطلب إليه فيه ألا يستعبده إنسان مثله، فما الفرق في الحالتين ؟

الجواب: إن عبودية الإنسان للإنسان هي أسوأ ما في الحياة ! بينما عبودية الإنسان للّه سبحانه وتعالى هي أجل نعم اللّه تعالى على الإنسان في هذه الحياة، لماذا ؟ لأن الإنسان إذا استعبدك أخذ منك ولم يعطك شيئاً، أنت تزرع الأرض، وهو يأخذ المحصول، ولا يمنحك أي مقابل، أنت تعمل وهو يأخذ ناتج عملك، وإذا كان عندك شيءٌ جميل تملكه نهبه منك، وإذا كانت عندك امرأةٌ جميلةٌ، أو ابنةٌ جميلةٌ ضمها إلى قصره، وإذا كان لديك ولدٌ تستعين به على الحياة في كبرك، أخذه منك ليعمل عنده، وتركك تواجه الحياة في هذه السن المتقدمة بلا معين.

هذه هي من ثمار عبودية الإنسان لإنسان مثله يأخذ منه ولا يعطيه، يمد يده حتى إلى ثوبك الجميل الذي قد لا تمتلك غيره، وهكذا تعيش معدماً بائساً، ولتتصور حالك، إذا كان لديك ثوب جميل أخذوه منك، وإذا كان لديك ولدٌ أخذوه منك، وإذا كان لديك مالٌ أخذوه منك، وإذا كان لديك أثاث أخذوه منك، إذا كان لديك طعام أخذوه منك، بل إن حياتك ذاتها ملك لهم يسيرونها كيف شاؤوا فأي حياة تلك التي تعيشها ؟!

وهكذا يدفعك الهلع والخوف، الذي يصنعه في نفسك عدم الإيمان، إلى أن تعيش حياة البؤس والشقاء، يستعبدك من هو أقوى منك، يأخذ منك كل ما تملك، وإذا اختلفت معه قتلك وسلبك الحياة.

ولكن عبوديتك للّه سبحانه وتعالى، هي نعمة كبرى، فاللّه يعطيك الحياة، والصحة، والمال، والولد، والعافية، والطمأنية، والشجاعة والقوة والقدرة، والأمن، والمنهج الذي يكفل لك كل حقوقك؛ فلا يضيع لك حق، مهما كانت قوة خصمك وجبروته؛ لأن اللّه أقوى منه.

وفوق ذلك كله ثواب من اللّه أكبر في دار الآخرة حيث لا أذن سمعت ولا عين رأت ولا خطر على قلب بشر مع النبيين والصديقين والشهداء.

التكاسل عن العمل بحجة التفرغ للعبادة

السؤال: ما حكم الإسلام فيمن يتكاسل عن العمل بحجة التفرغ للعبادة ؟

الجواب: إن الذين يتكاسلون في الحياة الدنيا، ولا يعبئون بها، ويضعون كل اهتماماتهم في الحياة الأخرى الموعودة نقول لهم:

إن الحياة الأخرى الموعودة، السعادة فيها على قدر توفيقك وإخلاصك في حركة حياتك الأولى، والآخرة ليست موضوع الدين، ولكنها جزاء على موضوع الدين، والجزاء على الشيء غير موضوعه، فيجب أن نقول لهم: إن الدنيا والحركة فيها هي موضوع ذلك الدين؛ لذلك يجب أن تكون الدنيا كما أرادها اللَّه؛ سعي وحركة واجتهاد وأخذ بالأسباب، فهي مزرعة الآخرة، ومن حسن التوكل على اللَّه الأخذ بالأسباب التي أمر اللَّه بها، وعلى اللَّه التوفيق، ومن أُلهم الأخذ بالأسباب أعطي التوفيق، ومن أَجلِّ الطاعات السعي في قضاء حوائج الناس والقيام على معيشتهم بما يرضي اللَّه سبحانه وتعالى، والمؤمن لم يؤمر بالجلوس في المساجد أو الطرقات بحجة الانقطاع للعبادة، بل أمر بأن يأكل من كسب يده، واليد العليا خير من السفلى[١].

❁ ❁ ❁

(١) عن ابن عمر رضي اللَّه تعالى عنهما قال: يقول رسول اللَّه ﷺ: « اليد العليا خير من اليد السفلى فاليد العليا هي المنفقة والسفلى هي السائلة » أخرجه البخاري [١٤٢٩] ومسلم [١٠٣٣]، وأبو داود [١٦٤٨] والترمذي [٢٣٤٣، ٢٤٦٣]، والنسائي [٥/ ٦١، ٦٩].

الشريعة وقوانين البشر

السؤال: ما الفرق بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية ؟

الجواب: إن اللّه سبحانه وتعالى حين يشرع، فهو غني عن العالمين، لا يريد منا شيئاً، ونحن أمامه متساوون، فكلنا خلقه، وهو سبحانه غير محتاج لما في أيدينا، ونحن محتاجون إليه، ولذلك فشرعه سبحانه هو العدل، وهو الرحمة، وهو الخير، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

أما قوانين الناس فيقوم عليها مجموعة محدودة من البشر، كل حسب مذهبه السياسي، فتجد الحزب الشيوعي عندما يشرع مثلًا؛ يضع اللجنة المركزية للحزب فوق كل تشريع، وفوق كل قانون، هي وحدها التي تأخذ كل شيء، وباقي الشعب يأخذ الفتات، هي وحدها التي تدبر شئون الدولة، وباقي الشعب لا يعلم شيئاً، هي وحدها التي تستفيد، وغيرها لا يستفيد شيئاً؛ ولذلك تجد في الدول الشيوعية أعضاء اللجنة المركزية، لهم وحدهم الحياة الناعمة، المؤمنة، المليئة بالترف، وللشعب كله الشقاء، لماذا ؟ لأن هؤلاء هم الذين شرعوا؛ وفق أهوائهم، ووضعوا مصلحتهم فوق كل مصلحة.

وإذا شرع ديكتاتور فكل الأمور في يده، وكل مقاليد السلطة له، لا يجرؤ أحد أن يتصرف إلا بإذنه، ولا أن يخطو خطوة إلا بأمره، كلمته هي القانون، وكل شيء في الدولة موجه لخدمته، لماذا ؟ لأنه هو الذي شرع؛ فوضع مصلحته فوق الجميع.

وليست الرأسمالية بأسعد حال من الشيوعية فالكل يضع القوانين التي تخدم مصلحته هو أولًا، ويتفاوت الناس تبعاً لقربهم أو بعدهم من أصحاب القرار وهذا عكس شرع اللّه تعالى تماماً، حيث الأفضلية للأتقى، وصدق اللّه العظيم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولقد وضع اللّه للحياة الدنيا هذه القوانين وهذا الدستور لأن فيه صلاحاً

للبشر، ولا يوجد من هو أعلم من اللَّه بالحياة الآمنة الطيبة الكريمة للإنسان، فاللَّه هو خالقنا، وصانع الشيء هو الأدرى والأعلم بما يفسده ويصلحه [(١)].

---

(١) قال اللَّه تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾، قال ابن كثير: ينكر تعالى على من خرج عن حكم اللَّه المحكم، المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة اللَّه، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية، المأخوذة عن ملكهم جنكيزخان، الذي وضع لهم الياسق، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ. فمن فعل ذلك فهو كافر، يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم اللَّه ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير.

قال اللَّه تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ أي: يبتغون ويريدون، وعن حكم اللَّه يعدلون ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]، أي: ومن أعدل من اللَّه في حكمه، لمن عقل عن اللَّه شرعه وآمن به وأيقن، وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء [(١)].

عمدة التفسير [٤/ ١٧٤].

---

(١) وقد نقل الحافظ ابن كثير في تاريخه [البداية والنهاية] أشياء من سخافات هذا «الياسق» [١٣/ ١١٨-١١٩]، ثم قال: «فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد اللَّه خاتم الأنبياء، وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة، كفر. فكيف بمن تحاكم إلى الياسق وقدمها عليه ؟! من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين».

وقال الشيخ شاكر معلقاً على كلام ابن كثير في عمدة التفسير: أفيجوز - مع هذا - في شرع اللَّه أن يُحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربة الوثنية الملحدة ؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة ، يغيرونه ويبدلونه كما يشاؤون، لا يبالي واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها.

إن المسلمين لم يُبْلَوْا بهذا قط - فيما نعلم من تاريخهم - إلا في ذلك العهد، عهد التتار، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام، ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له، بل غلب الإسلامُ التتارَ، ثم مزجهم فأدخلهم في شرعته، وزال أثر ما صنعوا بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم، وبأن هذا الحكم السيئ الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة، ولم يتعلموه ولم يعلموه أبناءهم. فما أسرع ما زال أثره.

=

....

❁ ❁ ❁

= أفرأيتم هذا الوصف القوي من الحافظ ابن كثير - في القرن الثامن - لذاك القانون الوضعي، الذي صنعه عدوّ الإسلام جنكيزخان ؟ ألستم ترونه يصف حال المسلمين في هذا العصر، في القرن الرابع عشر ؟ إلا في فرق واحد، أشرنا إليه آنفاً: أن ذلك كان في طبقة خاصة من الحكام. أتي عليها الزمن سريعاً، فاندمجتْ في الأمة الإسلامية، وزال أثرُ ما صنعت.
ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالاً وأشدّ ظلماً وظلاماً منهم؛ لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تكاد تندمج في هذه القوانين المخالفة للشريعة، والتي هي أشبه شيء بذاك «الياسق» الذي اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر. هذه القوانين التي يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام، ثم يتعلمها أبناء المسلمين، ويفخرون بذلك آباءً وأبناء، ثم يجعلون مردَّ أمرهم إلى معتنقي هذا «الياسق العصري» ! ويحقرون من يخالفهم في ذلك، ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم وشريعتهم «رجعيًا» و «جامداً» إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة.
بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقي في الحكم من التشريع الإسلامي، يريدون تحويله إلى « ياسقهم الجديد»، بالهوينا واللين تارة، وبالمكر والخديعة تارة، وبما ملكت أيديهم من السلطان تارات، ويصرحون - ولا يستحيون - بأنهم يعملون على فصل الدولة عن الدين !!
أفيجوز إذن - مع هذا - لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد، أعني التشريع الجديد! أو يجوز لأب أن يرسل أبناءه لتعلم هذا واعتناقه واعتقاده والعمل به، عالماً كان الأب أو جاهلاً ؟!
أو يجوز لرجل مسلم أن يلي القضاء في ظل هذا «الياسق العصري»، وأن يعمل به ويعرض عن شريعته البينة ؟! ما أظن أن رجلاً مسلماً يعرف دينه ويؤمن به جملة وتفصيلاً، ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله اللّه على رسوله كتاباً محكماً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبأن طاعته وطاعة الرسول الذي جاء به واجبة قطعية الوجوب في كل حال - ما أظنه يستطيع إلا أن يجزم غير متردد ولا متأول بأن ولاية القضاء في هذه الحال باطلة بطلاناً أصليًا، لا يلحقه التصحيح ولا الإجازة !
إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هي كفر بواح، لا خفاء فيه ولا مداورة. ولا عذر لأحد ممن ينتسب للإسلام - كائناً من كان - في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها. فليحذر امرؤ لنفسه. و «كل امرئ حسيب نفسه».
ألا فليصدع العلماء بالحق غير هيابين، وليبلغوا ما أمروا بتبليغه، غير موانين ولا مقصرين.
سيقول عني عبيد هذا «الياسق العصري» وناصروه، أني جامد، وأني رجعي، وما إلى ذلك من الأقاويل. ألا فليقولوا ما شاؤوا، فما عبأت يوماً ما بما يقال عني. ولكني قلت ما يجب أن أقول.

المنهج قبل الخلق

السؤال: لقد ذكر اللَّه في القرآن الكريم أنه لم يخلق الإنسان سدىً، وإنما خلقه لمهمة في الكون، فما هي مهمة هذا الإنسان ؟

الجواب: إن خَلق الإنسان، آية من آيات اللَّه سبحانه وتعالى، فالإنسان خُلق من تراب، وهذه الحفنة من تراب، خلق اللَّه منها آدمَ ونفخ فيه الروح، فصار بشراً سويًا، وآدم هو أبو البشر، وقبل أن يُهْبِطه اللَّه إلى الأرض علّمه المنهج الذي يسير عليه، وإلا فكيف سيباشر الإنسان مهمته في الكون دون أن يكون له منهج يهتدي به.

وهذه هي سنة الحياة وقوانينها، فأنت قبل أن تنشئ مدرسة مثلًا، لا بد أن تضع المنهج وتحدد الهدف والغاية من إنشاء تلك المدرسة، ثم بعد ذلك تنشئ المدرسة، وتطلب من التلاميذ أن يلتحقوا بها، ولكن تصور معي كيف يمكن أن يكون الحال، إذا أنشأ الإنسان مدرسة بدون منهج ؟! وماذا سيفعل التلاميذ، وماذا سيَدْرُسون ؟ وأنت مثلًا حين تنشئ مدينة جديدة لا بد أن تضع المنهج والهدف الذي ستنشئ المدينة من أجله، هل هي سكنية ؟ هل هي صناعية ؟ هل هي . . . إلخ.

وهذا المنهج يحتوي على الرسومات والتخطيط الذي تضعه للمدينة، ثم بعد أن يكتمل التخطيط وتكتمل الصورة عندك، تأتي بالمهندسين وتعطيهم هذه الرسومات ليبنوا لك المدينة، وأنت لو جمعت مجموعة من المهندسين وطلبت منهم أن ينشئوا مدينة دون تخطيط سابق، وانطَلَقُوا، هذا يعمل يمينا، وهذا يعمل يساراً، لكانت فوضى ما بعدها فوضى، ولنشأت المدينة غاية في السوء، وربما لم يستطع أحد أن ينتفع بها، وهكذا كل شيء تريد أن تعمله، لا بد أولًا من خطة للعمل، لا بد من تحديد المنهج الذي سيتم على أساسه العمل والهدف منه، وبدون تحديد لهذا المنهج والهدف لا يتم العمل أبداً، ولا يصح، ومن هنا

نعلم أن اللَّه لم يخلق الإنسان بدون منهج أبداً، وإلا كان الخلق عبثاً وعم الفساد في الأرض[١].

❁ ❁ ❁

(١) اعلم رحمك اللَّه أن اللَّه تعالى خلق الخلق ليعبدوه وبالإلهية يفردوه، وتلك هي الغاية من الخلق.

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

الإسلام منهج حياة

السؤال: ظهر على الساحة الإسلامية من ينادي بجعل الإسلام أركاناً تعبدية فقط فهل الإسلام كذلك ؟

الجواب: إن الذين يحاولون تفسير الإسلام على أنه أركان تعبدية فقط، إنما يريدون أن يجمدوا الإسلام، وأن يجعلوا أركانه هي كل الإسلام، لكن الإسلام قبل كل شيء عقيدة ومنهج يرتفع فوق هذه الأركان ليعمر حركة الحياة وينتظمها، إن خصوم الإسلام تتركز أمانيهم في أن يقتنع المسلمون بأن الإسلام أركان تعبدية فقط، ويحاولون أن يعزلوا أركان التعبد عن صناعة حركة الحياة؛ ليزيفوا هذه الحركة على أهوائهم.

لكن المسلم هو الذي يبني على أركان الإسلام حركة الحياة كلها: عدلًا وسيادة لمنهج اللّه [1].

---

(١) أركان الإسلام هي كما ورد في الحديث: « بني الإسلام على خمس. . . . »[1].
ولكن هل الأركان هي كل الإسلام، إن الله تعالى خلق الخلق لعبادته سبحانه وحده ومقتضى العبادة أن يسمعوا ويطيعوا، وما من شيء إلا ولله تعالى فيه أمر أو نهي، فيجب على كل مدع للإسلام أن يأتي بالبينة على صحة كلامه
ورحم الله القائل:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيعُ

واسمع لقول ربنا عز وجل: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] قال العلامة ابن كثير في تفسير هذه الآية: يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له ظاهراً وباطنا. ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ =

---

(١) أخرجه مسلم [١٦].

إن الإسلام الحق هو أركان تعبدية وسلوك يومي يعرف فيه الإنسان أن

= ﴿ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت له، وينقادون له في الظاهر والباطن ويسلموا لذلك تسليما كلياً، من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة. كما ورد في الحديث: « والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدُكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »(١)

وروى البخاري عن عروة، قال: خاصم الزبير رجلا في شريج من الحرة، فقال النبي ﷺ اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك، فقال الأنصاري: يا رسول اللّه، أن كان ابن عمتك ؟! فتلون وجه رسول اللّه ﷺ، ثم قال: اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع الى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك.

واستوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري، وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة، قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ وصورته صورة الإرسال، وهو متصل في المعنى. وقد رواه الإمام أحمد من هذا الوجه فصرح بالإرسال فروى عن عروة بن الزبير أن الزبير كان يحدث: أنه كان يخاصم رجلاً من الأنصار - قد شهد بدر - إلى النبي ﷺ في شراج الحرة، كانا يسقيان بها كلاهما، فقال النبي ﷺ للزبير: «اسق ثم أرسل إلى جارك»، فغضب الأنصاري، وقال يا رسول اللّه، أن كان ابن عمتك؟! فتلون وجه رسول اللّه ﷺ، ثم قال: « اسق يا زبير ثم أحبس الماء حتى يرجع الى الجدر »، فاستوعى النبي ﷺ للزبير حقه، وكان النبي ﷺ قبل ذلك أشارعلى الزبير برأي أراد فيه سعة له وللأنصاري، فلما أحفظ الأنصاري رسول اللّه ﷺ استوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم، ثم قال عروة: فقال الزبير: واللّه ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾، هكذا رواه الإمام أحمد، وهو منقطع بين عروة وبين أبيه الزبير، فأنه لم يسمع منه والذي يقطع به أنه سمعه من أخيه عبد اللّه، فإن ابن أبي حاتم رواه كذلك: عن عروة ابن الزبير، أن عبد اللّه بن الزبير حدثه، عن الزبير بن العوام - فذكر الحديث بنحوه. وهكذا رواه النسائي، ورواه أحمد والجماعة كلهم. وجعله =

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر: هو الحديث الحادي والأربعون من «الأربعين» النووية، لكن ليس في أوله «والذي نفسي بيده»، من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص، قال النووي: حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح. يريد «كتاب الحجة» لأبي الفتح المقدسى، وذكر ابن رجب، [ص ٢٨١-٢٨٢] أنه رواه أيضًا الحافظ أبو النعيم في « كتاب الأربعين» التي شرط فيها الصحة. وأنه رواه أيضاً للطبراني. ثم أطال القول في تعليله، وعندي أن تعليله غير جيد، وأن الحديث صحيح.

الحساب دقيق، وأن كل سلوك محسوب، وأن أي خداع لمجتمع المسلمين هو نقض للعهده مع اللَّه، وهو قطع لما أمر اللَّه بوصله وذلك فساد كبير في الأرض.

هذا هو الإسلام الذي يقيم الحياة على قيم معنوية تسود القيم المادية وتسيطر عليها، فلا يكون الحكم تسلطاً، ولا اكتناز المال هدفاً، إنما تصبح إقامة العدل شريعة وإيتاء الزكاة حقا، وصلة الرحم هي صلة بالخالق سبحانه، وإتقان العمل فريضة.

❁ ❁ ❁

= في مسند عبد اللَّه بن الزبير. وهكذا ساقه الإمام أحمد في مسند عبد اللَّه بن الزبير. واللَّه أعلم [1].

عمدة التفسير [٣/ ٢١١-٢١٣].

---

(١) قال الشيخ شاكر: حديث البخاري عن عروة بن الزبير هو في الصحيح [٨/ ١٩١] «فتح». وحديث الإمام أحمد، هو في المسند [١٤١٩] في مسند الزبير بن العوام، وحديث ابن أبي حاتم - الذي ذكر الحافظ ابن كثير إنه رواه الإمام أحمد أيضاً في مسند عبد اللَّه بن الزبير - هو في المسند [١٦١٨٥]. وكذلك رواه ابن حيان في صحيحه، رقم [٢٣] بتحقيقنا. كذلك رواه الطبري [٩٩١٢]، من رواية عروة، عن أخيه عبد اللَّه بن الزبير. ثم رواه [٩٩١٣]، كرواية البخاري الأولى. وظاهر رواية البخاري الأولى أنها صورتها صورة الإرسال، كما قال ابن كثير. وأما رواية الإمام أحمد [١٤١٩] التي حكم ابن كثير بانقطاعها، فإنها عندنا متصلة، لأن عروة بن الزبير سمع من أبيه بن العوام، كما قال مسلم بن الحجاج: «حج عروة مع عثمان، وحفظ عن دونه من الصحابة». وقد ثبت في حديث آخر في المسند [١٤١٨] أنه صرح بالسماع من أبيه. فجزم ابن كثير بأنه لم يسمع منه غير سديد. والحديث حديث الزبير، وقد أفاض الحافظ ابن حجر في فتح في بيان صحة الحديث واتصاله [٥: ٢٦-٢٧]. وبينا ذلك أيضاً مفصلا في تعليقاتنا على الخراج ليحيى بن آدم [٣٣٧]، وعلى المسند، وعلى ابن حبان، وعلى الطبري - بما أغنى عن إعادته ههنا.

الحياة بدون منهج

السؤال: ماذا يحدث إذا عاش الإنسان بدون منهج ؟

الجواب: الإنسان بدون منهج، لا يأتي منه إلا الشر، واقرأ قول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ [التين].

إذن.. فالإنسان شوَّه خلق اللَّه له، فاللَّه خلقه على أحسن صورة وأرشده إلى الطريق المستقيم، ولكنه أبى واتبع هواه لذلك كان في أسفل سافلين، وما الذي ينجي الإنسان من أن يكون أسفل سافلين، هو أن يكون من الذين آمنوا باللَّه تعالى ورسله واتبع أمره فى: افعل ولا تفعل.

وكأن اللَّه سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا: إن حياة الإنسان بدون منهج اللَّه خالقه وموجده، هو شر للبشرية كلها؛ فالإنسان من غير منهج، أي: باتباعه هواه وحده؛ إنما يقلب هذا الكون إلى كون يملؤه الشر والألم والبؤس والشقاء، ولما كان اللَّه سبحانه وتعالى يريد للإنسان الخير أرسل له الرسل، وأنزل عليه الكتب، فعلمه المنهج، وعلمه القرآن، وعلمه أن يستعين به، فقال له: لا تبدأ عملًا إلا وأنت تستعين باللَّه.



منهج اللَّه . . هل هو قيد على حرية الإنسان ؟!

السؤال: هل الحدود التي تضمنتها الشريعة الإسلامية تعتبر قيداً على حرية الإنسان، كما يدَّعي خصوم الدين ؟

الجواب: بعض الناس يعتقد أن كلمة: « لا تفعل » في منهج اللَّه هي تقييد لحرية الإنسان، ولكن هذا غير صحيح على الإطلاق، فاللَّه سبحانه وتعالى حين قال: « لا تفعل » حجب عن النفس البشرية الشقاء، هذا الحجب أو المنع هو عين العطاء، فإذا منعك اللَّه سبحانه وتعالى من أن تعتدي على مال أحد، يكون قد قيد قدرتك كبشر أمام ما يملكه بشر آخر تريد أنت أن تسلبه ماله، وفي المقابل قُيِّد هذا الإنسان وغيره من الاعتداء على مالك، ولو أن اللَّه سبحانه وتعالى أباح لك الاعتداء لكان أباح للمجتمع كله أن يعتدي عليك، وهو في هذه الحالة لم يقيد حريتك، ولكنه سبحانه منع عنك شراً كبيراً، بأن قيد حرية الآخرين في الاعتداء عليك.

وإذا قال لك اللَّه: لا تعتد على عرض أحد، فهو قد قيد حريتك في الاعتداء على عرض شخص آخر، ولكنه سبحانه في نفس الوقت لو أباح الاعتداء على العرض لأباح للمجتمع كله أن يعتدي على عرضك، وأنت فرد لا تستطيع أن تواجه مجتمعاً بأكمله.

إذن . . فاللَّه سبحانه وتعالى لم يقيدك ولكنه قيد المجتمع من الاعتداء على عرضك.

وكذلك كل الحدود هي رحمة من اللَّه سبحانه وتعالى؛ ليحميك من المجتمع، ولتعيش آمناً مطمئناً في بيتك ومالك وأسرتك، تصور الحياة في بلد يبيح فيه القانون الاعتداء على العرض والمال والنفس، كيف يمكن أن تكون ؟

إذن . . فحدود اللَّه سبحانه تعالى هي عطاء ورحمة لكل الناس، ولمصلحتهم جميعاً، وليست قيداً على أحد.

❁ ❁ ❁

في القرآن الكريم منهج للحياة

السؤال: كيف نوضح للناس أن القرآن الكريم عالج جميع قضايا البشر على مدار القرون والأجيال ؟

الجواب : القرآن الكريم تعرض لقضايا الكون جميعاً وأوجد لها العلاج، وأوجد لها الشفاء، والذي يدعيه البعض أن منهج اللّه لا يعالج قضايا العصر، دليل على أنهم لم يدرسوا هذا المنهج، ولم يتعمقوا فيه، فما من قضية أساسية في المجتمع إلا ويعالجها القرآن الكريم ، ولكن هنا يقع بعض اللبس، فقد يقول بعض الناس: إن القرآن مثلًا لا يعالج قضايا زيادة إنتاج الأرض أو الاختراعات الحديثة الى آخر هذا الكلام، والذي يجب أن يعرفه الناس جميعاً أن القرآن لا يعالج الخصوصيات، وإنما يضع المبدأ، فهو حين يطلب منا أن نسير في الأرض ونتدبر آيات اللّه، وأن نتعلم أمور الدنيا، وأن نعمل وننتج ونعمر الأرض، إنما هو يطلب منا أن نصل بجدنا واجتهادنا وطلبنا للعلم إلى أكبر تقدم يمكن أن يحققه بشر.

إذن.. المبدأ موجود في ضرورة البحث في الكون ومواصلة البحث والدراسة ومن يبحث ويدرس وفي قلبه إيمان باللّه، وشعور بعظمة اللّه وقدرته يستطيع أن يحقق الكثير، والكثير جداً، المبدأ هو أن نزرع ونعمر ونكشف عن الرزق المطمور فيها، فإذا تقاعسنا عن هذا كله، فلا يمكن أن نستغرب، أو أن نتعجب، أن غيرنا من الأمم قد تقدم علينا؛ فنحن تركنا منهج اللّه في العمل، فلا بد أن يتركنا قانون اللّه في النتيجة وهذا هو الجمال في الحياة، فلا يمكن أبداً أن يكون هناك جمال في الحياة إلا إذا كان الطالب المجد والطالب الذي لا يقرأ كتاباً في حياته كلاهما ينجح، ولا يمكن أن يكون هناك جمال في الحياة إذا كان الإنسان الذي يحرث الأرض ويعتني بها ويسقيها ويعالجها من الآفات، والإنسان الذي يترك الأرض ولا يعمل فيها شيئاً بل يهملها تماماً، كلاهما يجني نفس المحصول ، إذا حدث هذا فإن الجمال في الحياة يختفي، ويصبح كل شيء قبيحاً، فلا تجد طالباً

ينبغ، ولا عالما يخترع، ولا إنساناً يضيف إلى الحياة شيئاً، ولا مدينة تبني ما دام من يعمل ومن لا يعمل سيحصلان على نفس النتيجة، ويحققان نفس الشيء، ولكن الجمال في الحياة في تناسب النتيجة مع العمل، وعن هذا يتحدث القرآن في الدنيا والآخرة.

لقد أذهلت بلاغة القرآن عند نزوله العرب وهم أساتذة البلاغة في ذلك الوقت، وبهتوا لما فيه من إعجاز، ومن بلاغة، وقال بعض العرب في ذلك الوقت إنهم قادرون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ولكنهم عجزوا أن يأتوا به أو بسورة منه، وهذا يدل على أن القرآن هو كلام اللَّه سبحانه وتعالى، فلو أنه ليس كلام اللَّه لما صرف اللَّه العرب عن أن يأتوا بمثله، وأثبتوا أن إعجاز القرآن الكريم موجود، ولكنهم جعلوا هذا الإعجاز بالقدرة، أي أن قدرة اللَّه سبحانه وتعالى قد صرفتهم عن أن يأتوا بمثله، وكان هدفهم أن ينفوا الإعجاز عن ذاتية القرآن، في أن بشراً لا يستطيع أن يأتي بمثله، وبهذا النفي الذي أرادوه أعطوا القرآن معجزة أخرى وهي معجزة القدرة.



خوف المُتْرَفِين من منهج اللّه تعالى

السؤال: لماذا يخاف السَّادةُ والمترفون من منهج اللّه تعالى، ويصدّون من آمن ؟

الجواب: الرسل حين أرسلها اللّه قالت: ما علينا إلا البلاغ المبين[١]، أي: أن اللّه سبحانه وتعالى كلفنا بأن نبلغكم منهجه، فمتى أبلغناكم هذا المنهج، نكون قد أدينا رسالة اللّه تعالى، فاللّه سبحانه وتعالى هو الذي يحاسبكم، ولكن هذا الكلام لا يعجب السادة والمترفين الذين يريدون أن تكون العزة في الدنيا لهم قهراً، بل إن هذا يؤرقهم، لماذا ؟ لأنهم يحسون في داخلهم أن الرسل سيُدخلون الناس في منهج اللّه وأن الإيمان الفطري للنفس البشرية يدفع هذه النفس إلى منهج اللّه، ويشعرها بانسجام مع الكون، وبالراحة والطمأنينة والسلام، كما أن هناك داخل نفس كل كافر ما يجعله يحس أن المؤمن أفضل منه، فهو يحاول أن يؤذيه، ويتعمد أن يسخر منه، وكلما رآه يحاول أن يهينه، وما هذه المحاولات كلها إلا لأن شيئاً داخله يجعله غير منسجم مع هذا الكون، وهو يريد أن يُخرج المؤمنَ من إيمانه ليصبح الاثنان سواء.

وكان المفروض عندما أسندت الرسل الأمر للّه وقالوا: ما علينا إلا البلاغ المبين، أي البلاغ الظاهر، المؤيَّد بالحجة، كان المفروض أن يتركوهم وشأنهم، ولكنهم أبوا عليهم ذلك، وصدوهم عن سبيل الدعوة إلى اللّه، وفتنوا الذين آمنوا بهم وعذبوهم وآذوهم إيذاءً شديداً، وبذلك يكون العداء قد بدأ من الكفار، ويكونون بذلك هم الذين اتخذوا الخطوة الأولى في العداوة للّه؛ وهم الذين بدأوا في محاربة دين اللّه الذي لم يحاول أحد أن يفرضه عليهم، ويكونون بذلك قد استحقوا عدلاً عقاب اللّه، لأنهم هم الذين بدأوا العداوة، وأرادوا من الرسل أن يتركوا الدعوة لدين اللّه، وينضموا إليهم، كما عرضوا على رسول اللّه ﷺ وعرضوا على عمه أبي طالب إن أراد ما لاً جمعنا له المال، وإن أراد ملكا ملكناه

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥] وغيرها من الآيات.

علينا، محاولين بذلك أن يغروه بترك رسالة السماء[١]، ومحاربو الرسل، هم أصحاب النفوذ والسلطان الذين أترفوا في الحياة الدنيا، وأعطاهم اللّه تعالى الجاه

---

(١) قال ابن هشام، قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي، قال حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيداً قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول اللّه ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبلُ بعضَها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزةُ، ورأَوْا أصحاب رسول اللّه ﷺ يزيدون ويكثُرون؛ فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمْه؛ فقام إليه عُتبة حتى جلس إلى رسول اللّه ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك أتيت قومَك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم وسفهت به أحلامَهم وعِبتَ به آلهتهم ودينهم وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.
قال: فقال له رسول اللّه ﷺ: قُلْ يا أبا الوليد، أسمعْ، قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر ما لًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا ما لًا، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِياً تراه لا تستطيع ردّه عن نفسِك، طلبنا لك الطبَّ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئَك منه، فإنه ربما غلب التابعُ على الرجل حتى يُدَاوَى منه أو كما قال له؛ حتى إذا فرغ عتبة، ورسول اللّه ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال: نعم؛ قال: فاسمع مني؛ قال: أفعل.
فقال: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ . . . ۝٥ ﴾ [فصلت]. ثم مضى رسول اللّه ﷺ فيها يقرؤها عليه فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلفَ ظهره معتمداً عليهما يسمع منه؛ ثم انتهى رسول اللّه ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ، فأنت وذاك.
فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضُهم لبعض: نحلف باللّه لقد جاءكم أبو الوليد بغيرِ الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءَك يا أبا الوليد ؟
قال: ورائي أني قد سمعتُ قولًا واللّه ما سمعت مثلَه قط، واللّه ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فواللّه ليكونن لقوله الذي سمعتُ منه نبأٌ عظيم، فإن تصبْه العرب فقد كُفيتموه بغيرِكم، وإن يظهر على العرب فملكُه ملكُكم، وعزُّه عزكم، وكنتم أسْعَدَ الناس به؛ قالوا: سحرك واللّه يا أبا الوليد بلسانه؛ قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.
سيرة ابن هشام [٢/ ١٣٠-١٣٢].

والملك، وفي غالب الأمر يكون باقي الناس تبعا لهؤلاء، إما خشية نفوذهم وسلطانهم وإيذائهم، أو محاولة للتقرب منهم باعتبارهم الوسيلة المتاحة أو الظاهرة للحصول على نعم الدنيا، ولو علم هؤلاء الناس الحقيقة وآمنوا بأن الرزق بيد اللَّه، وأن أصحاب النفوذ لا يملكون نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء اللَّه؛ لتغيرت الصورة تماماً، ولكن الناس تأخذ بظاهر الأشياء، وتعتقد أن صاحب النفوذ يستطيع أن يمنح ويمنع، ويمكن أن يعطي ويأخذ، اللَّه سبحانه وتعالى يضرب الأمثال في الحياة، فيصبح صاحب النفوذ والسلطان بين يوم وليلة، وقد زال عنه كل شيء، يهرب من مكان إلى آخر، محاولًا إنقاذ حياته، لو تأمل الناس هذا لعرفوا أن الذي لا يستطيع أن يحمي نفسه ويبقي النعم التي يتمتع بها؛ لا يستطيع أن يحمي أحداً أو يهبه شيئاً، وإلا لكان من الأوْلَى أن يهب لنفسه ملكاً لا يزول ونفوذاً لا ينمحي.

ومن هنا فإن أول من يقاوم رسالات السماء ويحاول أن يكذبها هم أصحاب الجاه والنفوذ والمال والسلطان؛ لأنها ستجرد هؤلاء من ميزات حصلوا عليها بالباطل وفرضوها، وستجعلهم مساوين للضعفاء في الحقوق والواجبات، وستأخذ حق الضعيف من القوي، فإذا رأوا أن في ذلك زوالًا لنفوذهم وذهاباً لسلطانهم؛ لكانوا أول مكذب للمحافظة على جاه الدنيا وزخرفها.

❁ ❁ ❁

أثر القرآن في النفوس

السؤال: الملاحظ أن القرآن الكريم يؤثر في نفوس قارئيه وسامعيه جميعاً على اختلاف ثقافتهم وفي مختلف أحوالهم، فما السر في ذلك كما ترى فضيلتكم ؟

الجواب: من إعجاز القرآن أنه يحيط بالحالات النفسية للمخاطبين جميعاً، الغني منهم والفقير، التعيس منهم والسعيد، الخادم منهم والسيد، يخاطبهم جميعاً، ويخاطبهم في حالاتهم النفسية كلها، فالإنسان الغاضب إذا سمع القرآن هدأت نفسه، والإنسان السعيد إذا سمع القرآن اعتز في داخل نفسه، وزادت سعادته، والأمير، والخادم، والمثقف، وغير المتعلم، هؤلاء جميعاً الذين لا يمكن أن يجتمعوا على أي مستوى، ولا أن تتوحد عقلياتهم، بحيث يكلمهم متحدث واحد في نفس الموضوع؛ فيفهمونه، تراهم في الصلاة، وقد اجتمعوا في المسجد، وجلسوا معاً، ويُتلى القرآن فيهز قلوبهم جميعاً، رغم اختلاف الثقافة والبيئة والحالة النفسية، والحالة الإجتماعية، اختلافاً بيناً، ومن هنا كان الإعجاز الأول في بلاغة القرآن، أنه يخاطب أفراداً متعددين من أجناس مختلفة، وشعوب مختلفة، فيفهمونه، ويهز وجدانهم ومشاعرهم، ويؤثر في عواطفهم.

فإذا سألت أحدهم: ما الذي أعجبك في القرآن ؟ فإنه غالباً لا يستطيع أن يعطيك جواباً شافياً، وإنما سيعطي كل واحد منهم جواباً مختلفاً، وذلك يدل على أن الإعجاز واصل إلى قلبه، متغلغل في نفسه، بما لا يستطيع أن يصفه الوصف الكامل، أي أن القرآن يخاطب في النفس البشرية أحاسيس وملكات لا يعلمها إلا خالقه، وهذه الملكات لو عرفناها لعرفنا لماذا نتأثر بأسلوب القرآن ؟ ولكننا نظل نبحث ونحوم حول الآيات التي أعطت القرآن هذه البلاغة، ثم بعد ذلك لا نجد جواباً شافياً إذ أن اللّه سبحانه وتعالى يخاطب في النفس البشرية ملكات هو خالقها، وأن هذه الملكات تتأثر بكلام اللّه سبحانه وتعالى، وتهتز له دون فارق من

فوارق الدنيا، أو من الفوارق التي وضعتها الحياة الدنيا بين الناس؛ ولذلك كان أخشى ما يخشاه الكفار أن يستمع الناس إلى القرآن، ولو كانوا غير مؤمنين؛ فقد كان القرآن بمخاطبته لملكات كل نفس يهزها هزا عنيفا، ويجعلها تتأثر به، حتى أن الوليد بن المغيرة حين استمع إلى القرآن قال: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه. وهكذا تأثر به دون إيمان(١).

---

(١) عن ابن عباس قال: إن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقال اقرأ عليَّ. فقرأ عليه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل: ٩٠]. فقال: أعد، فأعاد. فقال: واللّه إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليتحطم ما تحته. وما هو بقول بشر. مختصر سيرة الرسول [٧٦].

وقال ابن هشام، قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث: أن أبا سُفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شَريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زُهرة خرجوا ليلةً ليستمعوا من رسول اللّه ﷺ، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كلُّ رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجرُ تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا. وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعضُ سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلةُ الثانية، عاد كلُّ رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجرُ تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضُهم لبعض مثلَ ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كلُّ رجل منهم مجلسَه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود على ذلك ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنسُ بن شَرِيق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتي أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال: يا أبا ثعلبة واللّه لقد سمعتُ أشياءَ أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياءَ ما عرفت معناها ولا ما يُراد بها؛ قال الأخنسُ: وأنا والذي حلفتَ به.

قال: ثم خرج من عنده حتى أتي أبا جهل، فدخل عليه بيتَه، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سَمِعْتَ من محمد ؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحازينا على الرُّكب، وكنا كفرسَيْ رهان، قالوا: منا نبيٌّ يأتيه الوحي من السماء؛ فمتى ندرك مثل هذه، واللّه لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنسُ وتركه. السيرة النبوية لابن هشام [٢/ ١٥٧، ١٥٦].

وعمر بن الخطاب رضي اللّه عنه حين دخل بيت صهره بعد أن علم بإسلام أخته وزوجها وكان ناوياً الشر، وما أن استمع إلى آيات من القرآن حتى هدأت نفسه، وانشرح صدره للإسلام، لماذا ؟ لأن كلام اللّه سبحانه وتعالى قد خاطب ملكة في نفسه، وهو في غاية الضيق والحمق، وينوي الشر، وخاطب هذه النفس، نفس عمر بن الخطاب، وهي في هذه الحالة من الغضب الشديد بنفس الكلام الذي يخاطب به المؤمنين، وهم في حالة انسجام وسعادة شديدة لقربهم إلى اللّه سبحانه وتعالى، وإذا بالآيات، نفس الآيات التي تدخل السعادة على نفس قريبة من اللّه، قد أدخلت الهدوء والانسجام على نفس لم تكن قد آمنت، وأصابت في نفس الوقت نفوساً سعيدة وهي نفوس المؤمنين، فجعلتها تزداد سعادة، وتنشرح للإسلام، أصابت أيضاً نفساً غاضبة تنوي الشر لم تصل إلى الإيمان بعد؛ فهدأتها وجعلتها سعيدة بعد أن انشرح الصدر للإيمان، مع أن الكلام واحد، وفرق كبير بين حالة المخاطب في الحالتين، ولأن القائل هو اللّه سبحانه وتعالى، وهو العالم بالنفس البشرية التي خلقها، فكلامه سبحانه وتعالى مناسباً لكل حالات المخاطب مهما اختلفت هذه الحالات[١].

---

(١) ذكر ابن هشام في سبب إسلام عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه، قال: قال ابن إسحاق: وكان إسلام عمر فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب وكانت عند سعيد بن زَيْد بن عَمرو بن نُفَيل، وكانت قد أسلمت وأسلم بَعْلُها سعيد بن زيد، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان نُعَيم بن عبد اللّه النحام من مكة، رجل من قومه، من بني عَدِي بن كعب قد أسلم، وكان أيضاً يستخفي بإسلامه فَرَقا من قومه، وكان خَبَّابُ بن الأرَتِّ يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرئها القرآن، فخرج عمر يوماً متوشحا سيفه يريد رسول اللّه ﷺ ورهطا من أصحابه قد ذُكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفاء، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول اللّه ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق، وعليّ بن أبي طالب، في رجال من المسلمين رضي اللّه عنهم، ممن كان أقام من رسول اللّه ﷺ بمكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة.

فلقيه نُعَيم بن عبد اللّه، فقال له: أين تريد يا عمر ؟ فقال: أُريد محمداً هذا الصابئ، والذي فرّق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله؛ فقال له نعيم: واللّه لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرَهم ؟ قال: وأي أهل بيتي ؟ قال: خَتَنُك وابن عمك سعيد بن زيد بن عَمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب: فقد واللّه أسلما، وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما. =

فالقرآن في هذه الناحية قد علا كل صنوف البلاغة في أنه مطابق لكل أحوال

= قال: فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وعندهما خبابُ بن الأرَتِّ معه صحيفة، فيها: ﴿ طه ﴾ يُقرئهما إياها، فلما سمعوا حس عمر، تغيب خَبَّاب في مخدع لهم، أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فَخذِها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خَبَّاب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهَيْنَمَة التي سمعتُ؟ قالا له: ما سمعت شيئاً، قال: بلى واللّه لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بِخَتْنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وخَتْنه: نعم قد أسلمنا وآمنا باللّه ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتبا، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافى، وحلف لها بآلهته ليردَّنَّها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس، على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها: ﴿ طه ﴾ فقرأها، فلما قرأ منها صدراً، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له: يا عمر، واللّه إني لأرجو أن يكون اللّه قد خصَّك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: «اللّهُمَّ أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب»، فاللّه اللّه يا عمر. فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خبَّاب على محمد حتى آتيَه فأسلم، فقال له خَبَّاب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه.

فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول اللّه ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول اللّه ﷺ، فنظر من خَلَلِ الباب فرآه متوشّحا السيف، فرجع إلى رسول اللّه ﷺ وهو فَزِعٌ، فقال: يا رسول اللّه هذا عمر بن الخطاب متوشّحاً السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذنْ له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول اللّه ﷺ: ائذن له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول اللّه ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ حُجْزَته، أو بمجمع ردائه، ثم جَبَذه به جَبْذةً شديدة، وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فواللّه ما أرى أن تنتهي حتى يُنزلَ اللّه بك قارعة، فقال عمر: يا رسول اللّه، جئتك لأومن باللّه وبرسوله، وبما جاء من عند اللّه؛ قال: فكبَّر رسول اللّه ﷺ تكبيرةً عَرَف أهلُ البيت من أصحاب رسول اللّه ﷺ أن عمر قد أسلم.

فتفرق أصحابُ رسول اللّه ﷺ من مكانهم، وقد عَزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سَيَمْنعان رسول اللّه ﷺ، وينتصفون بهما من عدوِّهم. فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد اللّه بن أبي نَجِيح المكي عن أصحابه: عطاء، ومجاهد، =

البشر على اختلاف ظروفهم؛ ولذلك تحير الكفار في هذا الإعجاز الذي تهتز له قلوب كل من يسمعه ويفهمه، فقالوا ساحر، سحر الناس بكلامه؛ لأنه لا يمكن لبشر عادي أياً كان أن يأتي بكلام يطابق كل الأحوال، ولو أخذنا أبلغ بلغاء العصر، وقلت له انظم قصيدة، أو أعد كلاماً لتلقيه أمام الناس، فهو لا يستطيع أن يعد كلاماً يقوله أمام مجموعة من المتبحرين في العلم، وفي نفس الوقت يقوله أمام مجموعة من غير المتعلمين، ويكون الكلام مطابقاً لمقتضى الحال، ولا أن يعد قصيدة يمدح بها أميراً، ثم يقول نفس القصيدة في خادم الأمير، ويكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال، ولكنهم وجدوا أن القرآن يخاطب المتعلم وغير المتعلم، والعبد والسيد،

= أو عمن روى ذلك: أن إسلام عمر فيما تحدثوا به عنه، أنه كان يقول: كنت للإسلام مباعداً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأُسَر بها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجالٌ من قريش بالحَزْوَرَة، عند دُور آل عمر بن عبد بن عمران المخزومي. قال: فخرجت ليلة أريد جلسائي أولئك في مجلسهم ذلك، قال: فجئتهم فلم أجد فيه منهم أحداً فقلت: لو أني جئت فلانا الخمار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلي أجد عنده خمراً فأشرب منها. قال: فخرجت فجئته فلم أجده. قال: فقلت: فلو أني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين قال: فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول اللّه ﷺ قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين: الركن الأسود، والركن اليماني. قال: فقلت حين أتيته: واللّه لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمعَ ما يقول فقلت: لئن دنوت منه أستمع منه لأرَوِّعنَّه؛ فجئت من قِبل الحِجْر، فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشي رُوَيْدا ورسول اللّه ﷺ قائم يصلي يقرأ القرآن، حتى قمت في قبلته مُسْتقبلَه، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة. قال: فلما سمعت القرآن رقَّ له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام فلم أزل قائماً في مكاني ذلك، حتى قضى رسول اللّه ﷺ صلاته، ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبي حُسَين، وكانت طريقَه، حتى يَجزع المسْعَى، ثم يسلك بين دار عباس ابن عبد المطلب، وبين دار ابن أزهر بن عبد عَوْف الزهري، ثم على دار الأخنس بن شَرِيق، حتى يدخل بيته. وكان مسكنُه ﷺ في الدار الرَّقْطاء، التي كانت بيدي معاوية ابن أبي سفيان. قال عمر رضي اللّه تعالى عنه: فتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس، ودار ابن أزهر أدركتُه، فلما سمع رسول اللّه ﷺ حسي عَرَفني، فظن رسول اللّه ﷺ أني إنما تبعته لأوذيه فنهمني ثم قال: ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة؟ قال: قلت: لأومن باللّه وبرسوله، وبما جاء به من عند اللّه قال: فحمد اللّه رسول اللّه ﷺ، ثم قال: قد هداك اللّه يا عمر، ثم مسح صدري، ودعا لي بالثبات، ثم انصرفتُ عن رسول اللّه ﷺ، ودخل رسول اللّه ﷺ بيته.

السيرة النبوية لابن هشام [٢/ ١٨٧-١٩٢].

والرجل العادي والحاكم، ومن هنا كانت المطابقة معجزة، فقالوا ساحر !! فليأتوا بسحر مثله، ثم هل للمسحور خيار أو إرادة مع الساحر ؟ إذا كان محمد عليه السلام قد سحر من آمن به، فلماذا لم يسحركم أنتم ؟ إن بقاءكم على الكفر ومحاربتكم للدين دليل على أنه ليس ساحراً، وإلا لو كان ساحراً لكان قد سحركم جميعاً، ولم يسلب بعض الناس إرادتهم ويترك البعض الآخر على إرادته.



النفس المطمئنة

السؤال: ما أسعد النفوس في رأي فضيلتكم ؟ وما تعليلكم لهذه السعادة ؟

الجواب : أسعد النفوس هي النفس المطمئنة، تلك التي أعطاها اللّه تعالى سعادة الدنيا والآخرة، اطمأنت إلى قوله وعدله، وقوته وقدرته، وعلمه ووجوده، اطمأنت إلى أن اللّه حق، وأن الآخرة حق، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، فعملت بمنهجه، وائتمرت بأمره وانتهيت عن نهيه، وشكرت اللّه على قضائه في الخير، وحمدته سبحانه وتعالى على قضائه في المنع، فالمنع منه سبحانه رحمة لأنه بُعد عن الشر أو حفظ منه.

إذن . . قضاء اللّه بالنسبة لهذه النفس هو خير في المنع وخير في العطاء، وهي تؤمن أن اللّه تعالى يدافع عن الذين آمنوا، وأن اللّه تعالى يحب عباده المؤمنين، وأنه رحيم في قضائه مع النفس المؤمنة، وأنه لا يوجد ظالم أقوى من عدل اللّه تعالى، ولا جبار يعلو على قدرة اللّه تعالى، ولا مُفسد يفلت من عقاب اللّه تعالى.

من هنا كانت النفس المؤمنة هي النفس المطمئنة التي هي أسعد النفوس في الدنيا (١) والآخرة (٢).

* * *

(١) عن صهيب رضي اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: « عجباً لأمر المؤمن. إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سرَّاءُ شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له ». رواه مسلم [٢٩٩٩].

(٢) يقول ربنا سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر].

القرآن رحمة للمؤمنين

السؤال: نريد من فضيلتكم توضيح أن القرآن نزل رحمة للعالمين.

الجواب: القرآن نزل رحمة للعالمين، وهذه إحدى معجزاته، فقد كان اللَّه سبحانه وتعالى يرسل الرسل المتعددة إلى المجتمعات المختلفة لتعالج الداءات وتهدي الناس إلى سبيل اللَّه، وكان لكل مجتمع داء يختص به دون سائر المجتمعات البشرية؛ لذلك اقتضت كلمته أن يأتي رسول ليعالج داءات هذا المجتمع، بل إن اللَّه سبحانه وتعالى أرسل أكثر من رسول في وقت واحد لمعالجة داءات مختلفة، فإبراهيم، ولوط عليهما السلام أرسلا في وقت واحد، لماذا ؟ لأن المجتمعات في ذلك الوقت كانت مجتمعات منعزلة لا يعرف بعضها عن بعض شيئاً، وذلك بسبب عدم وجود وسيلة المواصلات أو صعوبتها وعدم وجود التقدم العلمي الذي يتيح سرعة الاتصال بين هذه المجتمعات، إن هذه المجتمعات كانت تعيش وتفنى دون أن يدري مجتمع منها عن الآخر شيئاً، كما أن الداءات في هذه المجتمعات كانت مختلفة، فمنهم من كان لا يوفي الكيل والميزان، ومنهم من كان يعبد الأصنام، ومنهم من كان يفسد في الأرض، ولكن بعد أن تقدم العلم أصبح العالم كله مجتمعاً واحداً، يحدث شيء في أمريكا، وبعد دقائق تجده في مصر، ويحدث شيء في اليابان، وبعد ساعات تجده في أوربا، إذن الاتصالات أصبحت سهلة وميسرة والعالم كله اقترب من أن يصبح وحدة واحدة، ومع تعدد الاتصالات وسهولتها توحدت الداءات، فأصبح ما يشكو منه بلد تشكو منه معظم البلاد الأخرى، فكان لا بد من وحدة العلاج.

فمثلًا الشيوعية داء استشري في كل انحاء العالم، ولم يترك دولة دون أخرى، والنظام الرأسمالي وعموده الربا تجده في الدنيا كلها، أكل المال بالباطل، والسرقة داء استشري في معظم دول العالم.

إذن. . الداءات أصبحت واحدة، وهذا يقتضي وحدة العلاج ومن هنا جاء الدين الإسلامي للعالمين، أي الإنس والجن؛ لأن وحدة الداء تقضي وحدة

العلاج، وهذا من معجزات القرآن الكريم، فإن الله قد وضع وحدة العلاج قبل أن تتحقق وحدة الداء وهذه معجزة لو تأملها كثير من المشركين لآمنوا [١].

❁ ❁ ❁

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.
وقوله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].
وقوله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢].
وقوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَبَ تِبْيَنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].
وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

عجز المجتمعات المادية عن الحصول على السعادة !

السؤال: لماذا عجزت المجتمعات المادية رغم توافر كل عناصر التقدم العلمي عندها، أن تعيش في راحة نفسية وسعادة حقيقية ؟

الجواب: إن المجتمعات غير المؤمنة تعاني من الإحساس بالخوف، واليأس من الحياة، ورغم كل ما في تلك المجتمعات من تقدم مادي، وأمن وأمان ظاهري، فإن كل فرد فيها يعيش في قلق يمزقه ويكاد يقتله، لماذا ؟ لأن كل إنسان مادي يعبد الأسباب وينسى خالق الأسباب سبحانه، ويعتقد في قدرات البشر المحدودة وينسى قدرة اللَّه سبحانه وتعالى، فإذا طرد من وظيفته لا يقول إذا أغلق اللَّه باباً للرزق أمامي فسيفتح لي عدة أبواب، ولا يقول إن هذا ابتلاء من اللَّه ليمتحنني، وإن بعد العسر يسراً، ولا يقول إن الذي آمنت به وعبدته، لن يتخلى عني أبداً، فذلك منطق الإيمان، ولكن منطق المادية يجعله يرى المستقبل أسود، ويحس أن أبواب الدنيا أُغلقت في وجهه، وأنه لن يجد باباً للرزق، وأنه قد انتهى تماماً، فلذلك ييأس من رحمة اللَّه، ويصاب بالجنون ويلجأ في كثير من الأحيان للانتحار، لماذا ؟ لأنه يعتقد أن البشر الذي منعه هو الذي يملك كل الأسباب، وينسى ذلك الظالم لنفسه أن اللَّه سبحانه وتعالى رب كل شيء ومليكه والقائم عليه، وأنه لو لجأ إليه لأجابه ولكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

وكذلك إذا مرض الإنسان المادي، بمرض وظن أنه ميئوس من شفائه، فقد الأمل في المستقبل، ولم يقل إذا عجزت الأسباب فإن اللَّه تعالى بواسع رحمته سيفتح لي باباً للشفاء، أو يقول: إن اللَّه سبحانه وتعالى قادر على أن يشفيني حتى لو انقطعت بي الأسباب، إيماناً بقوله تعالى على لسان أبي الأنبياء وخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠]، ولكن الإنسان المادي يتخذ من الأسباب إلـٰهاً من دون اللَّه تعالى، فإذا عجز عن إدراك وسيلة الشفاء فهذا يعني أن إلـٰهه قد تخلى عنه، ولم يعد أمامه إلا مصير أسود ينتظره وذلك يؤدي به إلى الانتحار.

❁ ❁ ❁

لماذا ينتحر الإنسان غير المؤمن ؟

السؤال: إننا نلاحظ أن الذين يقْدمون على الانتحار هم أولئك الذين لا يؤمنون باللَّه، فلماذا يتخلصون من الحياة ؟

الجواب: إن الإنسان الكافر أو المشرك غير آمن في حياته، قلق من كل شيء، من الغد وما فيه، من المستقبل وما يخبئه القدر، من ذهاب المال، من وهن الصحة، من بطش ظالم جبار، من كل شيء حوله، فإذا صادفته أزمة؛ انقلب هذا الخوف إلى رعب، يؤدي في كثير من الأحيان إلى الجنون، أو الانتحار، أو ارتكاب جريمة.

أما الإنسان المؤمن إذا صادفته أية أزمة في الدنيا؛ فإن قلبه مطمئن إلى أن اللَّه لن ينساه، إذا لم يكن لديه طعام الغد فرزق الغد سيأتي بإذن اللَّه، وإذا حدثت له أزمة فاللَّه مفرج الكروب والأزمات، وإذا اعتدى عليه جبار، فقلبه يطمئن إلى أن اللَّه سبحانه وتعالى سيحميه، ويقتص له من ظالمه، وهو في حياته كلها مطمئن إلى قضاء اللَّه، فإذا أصابته شدة ذكر اللَّه فاطمأن قلبه، وإذا زالت عنه نعمة تذكر أن اللَّه سبحانه وتعالى مُخلِفٌ، وأنه سيعوضه عما فقد؛ فاطمأن قلبه، فهو كلما ذكر اللَّه سبحانه وتعالى علم أن اللَّه معه، وما دام اللَّه معه فمن ذا الذي سيغلبه ؟ ومن ذا الذي سيصيبه بالسوء ؟ ومم يخاف ؟

ولذلك فإن الإنسان المؤمن، يتصرف في حياته كلها من منطلق واقع بيقين الإيمان، وهو يعلم يقيناً أنه سيلاقي اللَّه سبحانه وتعالى، وهو يعلم يقيناً أنه سيحاسب، وهو يعلم يقينا أن هناك الآخرة، وهو يعلم يقيناً أن اللَّه يجزي الحسنة بعشرة أمثالها، ويضاعف لمن يشاء، وهو في علمه هذا يرجو رحمة اللَّه في الآخرة، وكأنه يراها ويعيشها ويحسها فإذا نسي لحظة أو سهى فترة، ثم تذكر، أو ذكَّره إنسان باللَّه، ظهرت أمامه الصورة التي يعرفها عن الآخرة؛ فترتعد فرائصه خوفاً من اللَّه، ووجل قلبه طمعاً في رحمة اللَّه.

❁ ❁ ❁

المجتمعات الغربية
لماذا زادت نسبة التشرد فيها ؟

السؤال: الملاحظ في المجتمعات الغربية أن نسبة التشرد فيها تزيد بإطراد، بالرغم من التقدم العلمي والصناعي بها ووفرة ما يحتاج إليه الناس، فما أسباب ذلك ؟

الجواب: إن صرخات تلك المجتمعات وفسادها، إنما يرجع إلى أنهم حملوا أنفسهم على الخروج عن منهج اللَّه؛ فتحملوا أوزار ذلك الخروج.

إن نسبة جنوح الأبناء وتشردهم تقلق العلماء في الخارج، لا لشيء إلا لأنهم عرفوا قيمة أن تكون المرأة أماً، وأن يكون الزوج أباً، وأن الأبوة والأمومة مسئولية لا يقوم بها الرجل والمرأة في تلك المجتمعات بدعوى الحياة العصرية.

إن المصحات النفسية هناك تشهد صرخات الرجال بالشك في رجولتهم، وفي أبنائهم، لأن الزوجة تجرح ستر الأسرة بالخيانة.

إن المصحات النفسية هناك تشهد صرخات الكبار والصغار لأن الأم خرجت عما قدره اللَّه تعالى لها بأن تكون أُماً وخرجت من بيتها لساعات طوال بل لأيام وألقت بفلذات كبدها إما إلى خادمة غير أمينة أو دار تربية مهما بلغت للعناية فيها فلن تعوض الحنان الذي زرعه اللَّه في قلب الأم لأبنائها.

إن أجهزة الأمن في تلك الدول تعلن كل يوم عن زيادة نسبة التشرد، وانتشار المخدرات، وزيادة عدد اللقطاء.

لماذا ؟ لأن تلك المجتمعات فقدت قدرتها على تحقيق قواعد الأسرة الصحيحة.

ضاعت من تلك المجتمعات عاطفة إحساس الأب بابنه، والأم بوليدها، والأبناء بوالديهم.

إذن.. فعندما نقول إن المرأة يجب أن تكون مسئوليتها الأولى هي بيتها وألا

تخرج للعمل إلا لظروف طارئة أو قهرية وبضوابط خاصة شرعها الخلاق العليم بخلقه. ليس هذا فقط بل علينا أن نحث الرجل على أن يلتفت إلى بيته وزوجته، وأن يمارس الرجل والمرأة معاً المسئولية المشتركة نحو البيت والأولاد.

عندما نقول ذلك فنحن نطلب لمجتمعاتنا السلامة.

إننا عندما نطلب ذلك لمجتمعاتنا، فإننا نطبق منهج اللّه الذي جعل كل إنسان مسئولاً عن من هو تحت يده أو في رعايته وولايته.

عندئذ لن نجد متشردين في مجتمعاتنا. وستتضاعف طاقة المرأة على رعاية بيتها. ولن نرى هروب الرجل من رعاية أسرته.



أسباب القلق والجنون في الدول المتقدمة

السؤال: إننا نسمع كثيراً عن القلق والجنون وحالات الانتحار التي تستشري بهما الأمم المتقدمة رغم أنها تملك كل أسباب الرفاهية والرغد، فما السبب وراء إصابة هذه الأمم بالقلق والجنون بهذه الصورة الرهيبة ؟

[illegible] إذا كان القلق والجنون سمة من سمات الدول المتقدمة في هذا العصر؛ فلأن الناس في هذه الدول نسوا اللّه، وكل إنسان منهم يعتمد على ذاته في كون لا يخضع للإنسان، والشعور الداخلي في كل واحد منهم هو أن هذا الكون لا يخضع له، وهو شعور فطري حقيقي، وتأتي المأساة عندما يريد إنسان أن يُخضع الكون لذاته؛ فيصطدم بالحقيقة، ويتحطم، ولم يكن آباؤنا يعرفون مرض القلق، لأن الإيمان كان قوياً في حياتهم، فكلما قَلَّ الإيمان زاد القلق.

إذا كان الإنسان قد بَعُدَ عن اللّه تعالى، متخذاً الأسباب وسيلة، فإن ذلك قد عاد بالضرر على الإنسان نفسه، ذلك أنه أُخِذَ منه الطمأنينة، والاعتماد على اللّه، والتوكل عليه، ووُضع بدلًا منه الخوف والرعب من الغد المجهول، والإحساس بعظم الكوارث، والبعد عن رحمة اللّه تعالى، حتى إنه إذا حدثت له أية مصيبة لم يجد له معيناً، ولا ناصراً، ويجد نفسه أمام طريق مسدود في الحياة، لأنه اعتمد على أسباب مخلوقة له بأمر اللّه، ونسي اللّه الخالق فلم يذكره، ولم يَدْعه ولم يتوكل عليه.

وهكذا تختلف الحياة بين المؤمن والكافر، فالمؤمن مطمئن إلى قضاء اللّه، وإنه فيه الخير، أعطي أو مُنِعَ، ولذلك فهو يعيش حياة طيبة، لا انفعال فيها، ولا انتحار، والكافر يَنسب الفعل لذاته؛ ولذلك فهو يعيش حياة تعيسة، قدرات الكون التي هي أكبر من قدراته تخيفه، يجتاحه إحساس رهيب بعدم الأمن والأمان، ولو أنه دخل على العمل باسم من سَخَّرَ له الكون، لا بِاسْم قوته هو؛ لكان ذلك طريقاً إلى سكينة النفس، وطيب العيش، والحياة الطيبة المطمئنة، ذلك أن اللّه سبحانه وتعالى يطلق أشياء في الكون؛ حتى لا تعتقد أنت أن ما ملكته في الظاهر هو ملك

لك في الحقيقة، لا يستطيع اللّه سبحانه وتعالى أن يذهبه عنك، فاللّه سبحانه وتعالى يستطيع أن يعطي، وأن يأخذ، وأن يجعل الكون ينفعل، أو لا ينفعل، ولكنك أنت لا تستطيع إلا إذا أذن اللّه، وهذا هو الفرق بين الحق وبين الخلق .

❁ ❁ ❁

وبالجملة فإن البعد عن اللّه تعالى ومنهجه سبب شقاء النفس، والمجتمعات التي لا تلقي بالًا لما أحل اللّه أو حرم، وتتعدى حدود اللّه وتتبع خطوات الشيطان هذه المجتمعات تكون حياتها كلها ضيق وهم وغم ولا يغرنكم ما هم فيه من تقدم صناعي أو علمي؛ فهذه بأسباب وضعها رب العالمين من أخذ بها دانت له، أما السعادة والرضي والقناعة والطمأنينة كل هذا مصدره القلب، والقلب لا يطمئن إلا باللّه تعالى وذكره.

وفي سؤال وجه لفضيلة الشيخ الإمام عن التقدميين نشر في مجلة المجلة التي تصدر في لندن ونشر في ١٧ يناير ١٩٩٨ وأعادت نشره مجلة أكتوبر في عددها [١١٤٠] بتاريخ الأحد ٣٠ أغسطس ١٩٩٨، قال فضيلته:

التقدمية شيء لا يحمد لذاته ولكن يجب أن يعلم ماذا يتقدم ؟! لأن التقدمي يقابله الرجعي، فلا رجعية تذم، ولا تقدمية تمدح إلا إذا عرفنا الرجعي يرجع إلى ماذا، والتقدمي يتقدم إلى ماذا ؟! فإذا كانت التقدمية أن يتقدم الإنسان ليعلو على ربه في أن يشرع لنفسه، وأن يعمل، وأن يقنن لنفسه، فهذا شيء مرفوض من جهتي على الأقل !

والرجعية التي تقابلها، رجعية لأي شيء ؟! فإن كانت رجعية جاهلية فهي مذمومة وإن هي رجعية إلى ما هو نام في نفوسنا من الإسلام ومن قضاياه فتلك رجعية محمودة.

الإنسان حين يأخذ آلة من الآلات ينظر، أهذه الآلة صنعها صانع وقال ابحثوا أنتم فيم تفيدكم فيه ؟! أم أعدها لشيء هو قاصد له قبل أن يوجدها، وبعد ذلك يصاب بعطب !

ألا يصح للإنسان أن يتساءل: أن الذي صنع هذه الصنعة أعد لها قانون صيانتها ؟!

فقولوا لي أولا: من خلق ذلك الإنسان ؟

الإنسان صنعة ؟ لم يدَّع أي أحد من الخلق أنه خلق نفسه، ولا خلق غيرها بل كل ذلك مردود إلى خالق. . ولذا فإن الإنسان مخدوم من الكون الذي خلقه له اللّه، مخدوم من جماد هذا الكون وحيوانه ونباته، وعلى الإنسان أن يسأل نفسه: أنت صنعة من ؟!

فإذا استقر أنه مصنوع لقوة أعلى منه، فيجب أن يأخذ الغاية من وجوده ممن صنعه، ويجب أن يأخذ قانون حياته ممن صنعه.

الأمم الكافرة . . وكيف يخيم عليها الشقاء ؟

السؤال: ما رأي فضيلتكم في مستقبل الأمم الكافرة ؟

الجواب: إذا جئنا لأمة كافرة، كالاتحاد السوفيتي مثلًا، نجد أن اللّه سبحانه وتعالى يسلط عليها ما يهلكها، أحياناً بين يوم وليلة، وأحياناً على فترة من الزمن، فإذا نظرنا إلى الاتحاد السوفيتي نجد أنه بعد أن كان هو مخزن الحبوب في العالم، وبعد أن كانت إحدى دوله « أوكرانيا » تنتج من القمح ما يزيد عن حاجة الاتحاد السوفيتي بكميات هائلة، نجد أن البركة قد رفعت منها، وأصبح الاتحاد السوفيتي يستورد كميات كبيرة من القمح من الخارج، وأصبح يجد صعوبة في الحصول على رغيف الخبز الذي يقيت به شعبه، وكذلك نجد في كل الدول التي تحارب الدين، تعصف بها الكوارث، ويذهب عنها الأمن والأمان، ويصبح رزقها ضيقاً، وأمنها معدوماً، والشقاء يخيم على كل من يعيش فيها [(١)].

❁ ❁ ❁

(١) كان ذلك قبل أن ينهار الاتحاد السوفيتي ويعود إلى ما كان عليه قبل الفكر الإلحادي والثورة الشيوعية.
وقد أرسل فضيلة الشيخ الشعراوي برقية إلى جورباتشوف آخر رؤساء ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي حذره فيها من غضب الجبار وانتقامه وطالبه بالإسلام، وإلا فالدمار قادم، وقد كان ما كان، ولم ينتصح الرجل وغربت الشمس على إمبراطورية الإلحاد.
واللّه تعالى يقول في كتابه العزيز، ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه].
فلهؤلاء وأمثالهم، الضنك في الدنيا، والنار وغضب الجبار في الآخرة.

الشعوب الغنية تكثر بها نسبة الجنون والانتحار... لماذا ؟

السؤال: لماذا تكثر نسبة الجنون والانتحار في الشعوب الغنية رغم ما فيها من رفاهية ورغد ؟

الجواب: يكفي أن ننظر إلى الحياة الأسرية للغرب الكافر بنعم اللّه: إنهم مترفون بالمادة وفاقدون للإستقرار العائلي والحب المتبادل !

ويكفي أن ننظر إلى السويد التي يقال عنها من ناحية الإحصاء الإقتصادي: إنها مجتمع الوفرة، فقد وصلوا إلى أرقى مستويات الحياة، ولكن علينا أن ننظر ماذا عندهم من جنون وانتحار وتشتت للأسرة ؟

لماذا ينتحر الواحد منهم ؟

ولماذا تزيد فيهم نسبة الجنون ؟

ولماذا يعيشون حياة الضنك ؟

لأن كلاً منهم ليس له رصيد إيماني، بمعنى أنهم لا يؤمنون باللّه ويعتمدون كلية على الأسباب ظانين بزعمهم أنها هي المانحة.

إن من ينطق لسانه باسم « اللّه » يرتاح، وتسكن نفسه ويشعر بالرضا؛ لذلك فنحن يجب ألا ننظر إلى ظاهر الحياة، ولكن يجب أن ننظر إلى ظاهرها وباطنها معاً ، ذلك أن ظاهر الحياة قد يزين لنا حياتهم، أو يبعدنا عن الأخذ بأسباب اللّه؛ فنركن إلى الكسل ونظن أن الرفاهية دمار، لا.. إن الرفاهية التي يمكن أن نصل إليها نحن المسلمين لها ظاهر ولها باطن، وكلاهما يكون المؤمن فيهما سعيد؛ لأننا نعرف أن كل عمل هو بتوفيق من اللّه وبفضله.

ولا أنسى يوم أن ذهبت إلى نيويورك، وكنت أسمع عنها أنها قلعة من قلاع الحضارة المعاصرة، ونزلت في فندق فخم، وسألت الطبيب الذي معي أن يترجم لي التعليمات المكتوبة على باب غرفة الفندق ووجدت عجباً.

وجدت التلخيص الواقعي لكلمة ﴿ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤].

إن الورقة مكتوب فيها عدد من التنبيهات أهمها يقول :

○ « إن حياتك أثمن من أن تتركها للص؛ لذلك إذا هاجمك لص في غرفتك فأعطه ما معك ».

○ « أغلق غرفتك بثلاثة مزاليج حماية لك ».

○ « استدع الحرس فور إحساسك بالهجوم عليك، ولكن احذر استدعاء الحرس إن دخل اللص الحجرة؛ حتى تأمن على حياتك ».

وقبل أن تخرج من الفندق يقول لك موظف الإستعلامات :

○ « لا تخرج بمال كثير، أو احمل معك أقل النقود، واستخدم الشيكات الصغيرة ».

وأحسست أن اللّه قد أعطاهم التقدم مصحوباً بالرعب؛ لأنهم لا يعرفون الإيمان الحق.

وعندما خرجت إلى الشارع وجدت الوجوه مكفهرة بالجري والسعي، إنهم يلهثون وراء حياتهم ولا يسعدون بها، ذلك أن كلًّا منهم لا يملك حدود الرضا، انفتحت عليهم الدنيا بكل ما فيها وانشغلوا عن خالقهم بهذه الدنيا؛ فلم يصلوا إلى الغني الحقيقي وإن بدا مظهرهم مظهر الأثرياء.

۞ ۞ ۞

الخوف من المجهول

السؤال: ثمة أناس يعيشون في قمة الترف والرفاهية، ولكنهم مضطربون نفسياً، ويلازمهم الخوف، والهم، فما أسباب ذلك ؟

الجواب: إن الإنسان حين يدخل الوهم إلى قلبه، يصيبه الهم، والهم جند من جنود اللّه يسلطه على الكفار، فالإنسان قد يعطيه اللّه كل النعم في الكون؛ يعطيه المال والولد، الجاه والسلطان ولكنه بدلًا من أن يشكر اللّه يتجه إلى غير اللّه؛ فيصيبه الخوف، ويصبح فريسة للوهم، تخرج من قلبه طمأنينة الإيمان، ويدخل إليه القلق والرعب، والخوف من المستقبل، فإذا هو شقي، وحوله كل مظاهر السعادة، فإذا هو تعيس وحوله كل مظاهر الجاه والسلطان، ينظر إليه الناس فيحسبون أنه في قمة السعادة والمجد، ولو كشف لهم عن سريرته لعلموا أنه أتعس الناس، القلق يقتله، والخوف من الغد يمزقه، والدنيا تفزعه، وراحة البال بعدت عنه، وأصبح لا يعرفها، وإذا أردت أن تعرف هذه الحقيقة وتراها، فاذهب إلى أي بلد لا يؤمن باللّه وانظر إلى وجوه الناس، انظر إليها جيداً، تعرف معنى الهم حين يلازم إنساناً [١].

---

(١) وصدق اللّه العظيم إذ يقول: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه].

قال القاسمي: اعلم أنه لما أخبر سبحانه عن حال من اتبع هداه في معاشه ومعاده، أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه، من شقائه في الدنيا والآخرة، وهذا الشقاء بقسميه، هو نوع من أفانين العذاب اللاحقة لمن تولى عن هدى اللّه بعث به خاتم أنبيائه، ولم يقبله ولم يستجب له، ولم يتعظ به فينزجر عما هو عليه مقيم من خلافه أمر ربه. وفي الآية مسائل:

الأولى : قال الرازيّ في قوله تعالى ﴿ عَن ذِكْرِي ﴾: الذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب اللّه تعالى. ويحتمل أن يراد به الأدلة. =

....

= وقال ابن القيم في « مفتاح دار السعادة »: أي عن الذكر الذي أنزلته.
و « الذكر » هنا مصدر مضاف إلى الفاعل. كـ « قيامي وقراءتي » لا إلى المفعول.
وليس المعنى: ومن أعرض عن أن يذكرني. بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر. وأحسن من هذا الوجه أن يقال: الذكر هنا مضاف إضافة الأسماء، لا إضافة المصادر إلى معمولاتها.
والمعنى: ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه، فإن القرآن يسمى ذكراً. قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨] وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [فصلت: ٤١] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: ١١]، وعلى هذا فإضافته كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل إلى معموله. ونظيره في إضافة اسم الفاعل ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣] فإن هذه الإضافات لم يقصد بها قصد المتجدد، وإنما قصد الوصف الثابت اللازم. ولذلك جرت أوصافاً على أعرف المعارف، وهو اسم الله تعالى في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ... ﴿٣﴾﴾ [غافر] الآية.
الثانية: قرئ « ضنكاً » بالتنوين على أنه مصدر وصف به، ولذا لم يؤنث لاستوائه في القبيلين. كما قال ابن مالك:

ونَعَتُوا بمصدرٍ كثيراً فالتزموا الإفرادَ والتذكيرَا

وفي القاموس: الضنك الضيق في كل شيء للذكر والأنثى. يقال: ضنك ككرم، ضنكاً وضناكة وضنوكة، ضاق. وقال السمين: « ضنكاً » صفة معيشة. وأصله المصدر فلذلك لم يؤنث. ويقع للمفرد والمثني والمجموع بلفظ واحد. وقرأ الجمهور « ضنكاً » بالتنوين وصلاً، وإبداله ألفاً وقفاً، كسائر المعربات، وقرأت فرقة « ضنكي » بألف كسكري. وفي هذه الألف احتما لان: فإما أن تكون بدلاً من التنوين، وإنما أجري الوصل مجرى الوقف ، وإما أن تكون ألف التأنيث بني المصدر على « فعلى » نحو دعوى.
الثالثة: ذكروا في هذه المعيشة الضنك التي للكافر أقوالاً: إنها في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة أو في الدين. والأظهر الأول لمقابلته بالوعيد الأخروي.
قال ابن كثير: أي ضنكاً في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره. بل صدره ضيّق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء . فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى ، فهو في قلق وحيرة وشك. فلا يزال في ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة. انتهى.
وذلك لأن الاعتقاد بالدين الحق واليقين الصحيح لراحة الضمائر والأنفس ، فوق كل =

....

= الأهواء واللذات والمآرب. فالضنك المعنيّ به، إذن هو الضنك الحيويّ القلق الدنيويّ، من اضطراب القلب وعدم سكون النفس إلى الاعتقاد الحق والإيمان بالدين القيم الذي هو دين الإسلام. فكل من لم يؤمن به فهو في ضيق صدر وهموم ومحابس، لا يجد منها مخارج إلا به ولا يرتاب في ذلك إلا من كابر حسه وناقض وجدانه . فإن دين الإسلام هو دين الفطرة. ودين اليسر. ودين العقل. دين النور الذي تنشرح به الصدور وتطمئن به القلوب وتشفي به الأنفس من أدوائها ، وتهتدي به من ضلالها وحيرتها ، وتستنير به من ظلماتها . ولذلك سمّي هدًى ونوراً وشفاءً ورحمةً . الق نظرك على الأديان كلها ، وقابل بينها وبينه لتدرك ذلك.

هذه اليهودية، يرى في اشتراعها من الآصار والأغلال والتكاليف الشاقة في المعيشة الحيوية ما لا يطاق. قيود في المأكل والمشرب. وحجر في المنكح والمبيت والمعاشرة . وضغط على الأنفس بتقسيمها إلى طاهرين يحضرون الاحتفالات، ونجسين مبعدين لا يلمسون ولا يُلْمسون. دع عنك خرافات الاعتقادات والافتراء بالأهواء في التشريعات وتشعبها في الأهواء إلى شعب تتباين في العبادات.

وهذه النصرانية، التي أساسها تعديل الشرعة الموسوية قام رهبانها بعد رفع المسيح ، ومضى عصر الحواريين . فأطلقوا لأتباعهم كل قيد في اليهودية . وأمروهم بنبذ أحكام التوراة نكاية لليهود . وأخذوا يشرعون للناس ما لا ينطبق على أصل التوراة ولا بعثة عيسى. فإنه عليه السلام قال: « ما جئت لأهدم الناموس - التوراة - بل لأتممه ». فترى ما أحدث من طقوس الكنيسة وتعاليمها ، اعتقاداً وعبادة وسلطة وسيطرة جائرة على العقل والفكر، وربط الأمور بأيدي الكهنة حلّا وإبراماً، تبعاً لرغائب الأنفس والشهوات، مما يتضجر منه كل مسيحي ذاق جوهر الدين المسيحي حقاً. إذ جوهره مع ابتداعهم على طرفي نقيض، فأنّى لا يضيق ذرعه ولا تضنك معيشته ! لذلك لما استقر سلطان الإسلام بالأندلس، واحتك النصاري بالمسلمين في الحروب الصليبية ، واستمدوا من معارف الإسلام وعلومه ما قلد جيدهم مِنناً لا تنكر، أخذوا يقاومون الكنيسة في حظرها على المعارف والفنون، ومعاداتها للعلوم، وجرى بإغراء الكهنة، من الدماء المسفوكة ما اسودت به صحف التاريخ. ثم كان الفوز لدعاة الإصلاح، وتفرقوا أحزاباً. ولا يزالون يتقربون إلى الإسلام ، بنبذهم سخائف ما ورثوه، ولذا تراهم في عيشة ضنك يسعون لأرقى مما هم عليه، علماً بأن الدخائل والبدع في دينهم، أفسدت عليهم ما أفسدت، ولن يتسنى لهم الرقيّ إلا بالرجوع إلى دين الفطرة، وهم يسعون إليه، وإن كانوا لا يشعرون ، أو يشعرون ويتجاهلون، هذه رشحات من المعيشة الضنك لأمتين عظيمتين، وهما تنتميان إلى كتابين منزلين. . فما ظنك بالمجوس والوثنيين وفرقهم التي لا تحصى. ولا يزال عقلاؤهم يطلبون التملص منها ، لكثرة خرافاتها وضررها، نفساً وما لَا وعرضاً . فأهلها في شقاء وعذاب لا يشاكله عذاب، =

....

= ومن نجا من ويلاتها بالإسلام ، لا يعد ولا يحصى. وقس على هؤلاء الطائفة المسماة بالماديين، وهم الدهريون والطبيعيون، فإنهم بلا ريب أضيق صدراً وأضنك معيشة وأشد اضطراباً، وأعظم فرقة فلا يمكن أن يوجد اثنان على رأي واحد؛ بل يتصور كل منهم إلٰهه كما يهوى وكما تخيله له رغائبه وشهواته. قال بعضهم: هؤلاء الذين يحصرون دينهم في أن يعرف الإنسان اللّٰه ، ويكون مستقيماً في أعماله، إذا سئلوا: ما هو الدين الطبيعي الذي تعترفون به ؟ فيجيبون إنما هو الذي يرشد إليه العقل عريًا عن الوحي. فيقال لهم: العقل، من حيث هو، ضعيف متغير قاصر. يرى اليوم صوباً ما يراه في الغد خطأً. ويحكم اليوم على أمر أنه حلال مباح، ويرى غداً أنه حرام لا يجوز إتيانه. تحمله أغراضه على استحلال ما يلذّ له وتجعله مستنفراً مما يضاد أهواءه، فكيف يكون صاحبه مستقيماً في أعماله ؟ وما هي القاعدة المطردة الثابتة للاستقامة عند هؤلاء ؟ وكلٌّ يرى نفسه ويخيّل له أنه مستقيم !! فالصينيّ مثلًا يرى نفسه مستقيماً ولو باع أو قتل أولاده. والهنديّ يرى هذه الاستقامة في نفسه، ولو أحرق المرأة على جثة رجلها، والوثنيّ يرى نفسه مستقيماً، ولو ارتكب الفحشاء تكرمة للزهرة.

هذا، وإن أكبر الفلاسفة ضلّوا في مواد ما يشرعون، ولم يهتدوا لجادة الاستقامة الحقة. فأنّى يمكن لعامة الناس أن يكون لكل منهم دين طبيعي يقلبه كيف شاء، ويجعله كشيء مرن، يمده إلى ما طاب له، ويقصره عن كل ما عاقه؛ فيختلف هذا الدين باختلاف العقول والأهواء فيهم، وكيف نسمي شريعة ثابتة عامة، ما كان وقفاً على إرادة كل فرد وأهوائه ؟ وإذا سلمنا، مجاراة ، أنه يوجد من كان ميّالًا طبعاً إلى الاستقامة والعدل والعفة، فيحمله طبعه على ذلك، فماذا نقول فيمن كان بالطبع محبًّا للانتقام والاعتداء والشهوات، لا سيما والعقل ضعيف والنفس أمارة بالسوء، فأنّى يكون العقل وحده وازعاً عن ارتكاب المعاصي والجرائم، فما قضى سبحانه بشريعته لمخلوقاته رحمة منه بهم، إلا لضعفهم وميلهم إلى الشر، وضعف الإنسان وانحرافه يقضي بإلزامه شريعة يخضع لها، فهي ضرورية له ضرورة نظام الأجرام الفلكية لها. وملازمة له ملازمة النطق والإدراك والحرية، ولزوم الامتداد والثقل والجذب والدفع للأجرام الجامدة، وأول بينة على ملازمة الشريعة طبعَ الإنسان، ما يجده في نفسه ووجدانه من انغراسها فيه انغراساً نظرياً. حتى لا يمكنه أن يجرد نفسه، مثلًا كيف يمكن للإنسان، ولو مهما تعامى في الشر، أن يجرّد نفسه عن تصور أنه خاضع لشريعة تنهاه عن القتل واختلاس مال غيره والاعتداء عليه بأيّ نوع كان ؟ فالشريعة مكتوبة على قلوبنا في ألواح لحمية، ومن بحث عن عموم سكان البسيطة، وجد إجماع القبائل والشعوب قاطبة على شرائع، وإن اختلفت في بعض موادها، والحرية التي منحت للإنسان إنما قيدت محاسنها بالشرائع والخضوع لها، وإلا فهي دمار لنظام العالم، وجائحة للأدب، وآفة لما غرس البارئ في عقول الناس أجمعين، من عهد آدم إلى يومنا هذا، وذلك لاستلزامها إفساد الطبع =

....

= الإنسانيّ، والإجحاف بالشرائع الأدبية؛ لأن الإنسان متى علم أن ليس له إله يثيب على الخير ويعاقب على الشر، أطلق لنفسه عنان الفساد، واطرح العذار في مضمار الشهوات وإحراز الرغائب، قضاءً لم يحسبه من سعادته، واعتقاد أن نفسه ليست خالدة. وليس لسعادته موضوع خارج عن هذه العاجلة، ولاستلزامها أيضاً هدم الاجتماع الإنسانيّ والذهاب بشأفته، إذ لا ترعى بعد اللّه ذمة بين الملأ، ولا حرمة للسنن والشرائع، ولا برٌّ بالملوك، ولا عدل بالرعية، ولا محبة ولا صدق ولا وفاء ولا نحو ذلك مما هو ضروري بالذات لقيام الألفة البشرية ونظام العمران. وبالجملة، فلا يظنن أحد أن العالم يدوم أو يبقى فيه شيء من النظام أو الهيئة الاجتماعية، إذا لم يكن الناس مقيّدين بشريعة إلهية، تصدّ الفاجر عن الفجور،

فكما أن الهواء ضروري للحياة الطبيعية، فكذا الشريعة ضرورية للحياة الأدبية، فلا حياة للموجودات الحية دون هواء، فكذا لا انتظام ولا هيئة في العالم دون الشريعة. انتهى.

وقال إمام مدقق، في بحث تصحيح الاعتقاد وضرورته لطمأنينة النفس وسعادتها ، ما مثاله: إنا نرى أمام أعيننا بعضاً من الناس قد رزقوا صحة عظيمة وثروة جسيمة وتهذبوا بأنواع العلوم والمعارف، ولكنهم كثيرو الضجر شديدو الحيرة، لا يكادون يشعرون بالراحة ولا يلتذون بملذة، كأن لهم في لذة ألماً، وبإزاء كل فرح ترحاً، يحسّون بكآبة قد رانت على صدورهم، فلا يعلمون سببها ولا يعرفون موجبها، كآبة لا تزايلهم إلا بزوال عقولهم عنهم، بكأس من الرحيق، فلذلك تراهم شديدي الكلف به كثيري التحرق لفقدانه، لأنه دواؤهم الوحيد. ما سر هذا الأرق والضجر، مع هذه الصحة الجسمية وتلك الثروة المالية، وهما الأمران اللذان عليهما، كما يزعمون، مدار السعادة الإنسانية ؟ ما هذه الحيرة الوجدانية والوحشة الضميرية، مع تهذبهم بأنواع العلم، وهو كما يزعمون، الشافي للناس من نزغات الوسواس ؟

أما يدلنا هذا الضجر السري على أن النفس تائقة لأمر ما إذا غاب على الإنسان علمه، فقد دله عليه أثره، وإن ذلك الأمر ليس هو صحة البدن ولا وفرة المال ولا كثرة البنين، ولا سكنى القصور، ولا أكل الصنوف، ولا سماع العيدان، ولا مغازلة الغيد. بل هو أمر آخر لا تعد هذه الملاذ بالنسبة له إلا هباءً ، ولا الأكوان بجانبه إلا فناءً. . ما هو هذا الأمر السامي الذي لو حصلت عليه النفس اطمأنت وسكنت، وهامت به وسكرت، ورضيت به وقنعت ؟ هو لا شك صحة المعتقد، وإليك الدليل: ليست النفس من طبيعة هذه الأجسام الصماء، ولا من طينة هذه المادة العمياء، حتى تأنس إلى شيء من أشياء هذه الأرض الحقيرة، أو تهتم بملاذها مهما كانت كبيرة؛ بل هي من طبيعة نورانية محضة، فلا تأنس إلا لنور يجلي عنها ظلمات الأشياء الأرضية الكثيفة، لتشرف على حضرة القدس المنيفة، وتطل على حظائرها الشريفة، النفس أجلّ من أن تقنع بالمشتهيات الجسمانية، وأكبر من أن ترضي بملاذها المموهة الفانية، فمهما غالط =

....

= الإنسان نفسه، بجمع المال ورفاهة الحال ، ليرتاح سره ويسكن اضطرابه، فإن النفس لا تفتأ تقيم عليه الحجة بعد الحجة، ليهتدي إلى وَضَحِ المحجة، فإن تبصر في أمره، واكتنه حقيقة سره، وأنال نفسه بغيتها من إبلاغها نورها المرجوّ لها، سكن فؤاده وآب إليه رشاده، ولو كان جسمه بين القنا والقنابل، وحاله من الفقر في أخس المنازل، فما هو السبيل إلى إبلاغ هذه النفس الهائمة أمنيتها، وإمتاعها بطلبتها، من صحة العقيدة ؟ السبيل لذلك هو العقل السليم، العقل في النوع الإنساني خصيصة من أجلّ خصائصه، ومنحة من أفضل منح اللّه عليه، لو استعمل فيما وضع له، واعتنى بصحته واعتداله، بالعقل يسبر الإنسان غور هذا الوجود العظيم، على ضخامة أجزائه وعظم أبعاده، ويستكنه سير النواميس السائدة عليه ، فيستدل بها على وجود الخالق عز وجل، وعلى تنزه أفعاله عن العبث، وصنائعه عن اللهو، كما يستدل به على علمه وتدبيره ورحمته وحكمته، استدلالاً محسوساً لا يقبل شبهة ولا يداخله ريبة. بالعقل يدرس الإنسان أحوال الجمعيات البشرية، فيرى نواميس رقيها وهبوطها، وأسباب رفعتها وضعتها، ويتبصر في أحوال الأنبياء الذين أرسلهم اللّه إلى خلقه هادين مرشدين، فيستدل بالتدقيق فيما جاؤوا به، وفي الآثار التي تركوها، على معنى النبوّة وضرورتها للبشر، وحكمة الله تعالى في اختلاف المدارك والإحساسات، وفي تباين الملل والديانات. بالعقل يميز الإنسان بين أحوال الماضي والحال، فيفرق تبعًا لذلك بين الديانات الخاصة وبين الديانات العامة، ويعثر بتعضيد العلم والبدائه، على الديانة التي يجب أن تكون خاتمة الأديان كلها، وباقية ببقاء النوع الإنسانيّ، وهي شريعة خاتم النبيين صلوات اللّه عليه وسلامه.

الرابعة: رأيت للإمام ابن القيم، رحمه الله، كلاماً على هذه الآية في كتابيه: « الجواب الكافي » و « مفتاح دار السعادة » فأحببت نقله هنا لفوائده وللعناية بهذه الآية، فإنها جديرة بذلك. قال في « الجواب الكافي » في فصل أبان فيه العقوبات المترتبة على المعاصي: ومنها المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة، قال: وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعمّ منه، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات، فإن عمومها من حيث المعنى، فإنه سبحانه رتَّب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأوصاف النعم، ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب، والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنما تواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة، إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر، فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر، فإنه يفيق صاحبه ويصحو، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا سكر في عسكر الأموات، فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله ﷺ في الدنيا وفي البرزخ ويوم المعاد، ولا تقرّ العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بإلٰهها ومعبودها الذي هو =

....

= حق، وكل معبود سواه باطل، فمن قرت عينه بالله، قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحاً، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح، الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة، والحسني يوم القيامة. فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء في الدارين، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠] ونظيرها قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود: ٣] ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحته ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته، من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة ، هو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه، فقد كان بعض من ذاق هذه اللذة يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه، لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال آخر: إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر: إن في الدنيا جنة، هي في الدنيا كالجنة في الآخرة. من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الجنة بقوله: « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا »(١). قالوا: وما رياض الجنة ؟ قال: « حلق الذكر ». وقال: « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة »(٢) ولا تظن أن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار] يختص بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة. وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة. وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل على موافقته ؟ وهل عيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم ؟ وقد أثني الله تعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الصافات] وقال حاكياً عنه أنه قال: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء] والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة. فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة =

---

(١) رواه الترمذي [٣٥٠٩] وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي [٦٩٧].

(٢) أخرجه البخاري [٦٥٨٨].

....

= تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطعه عن اللّه، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا ، وفي جنة في البرزخ وفي جنة يوم المعاد. انتهى ملخصاً.

وقال رحمه اللّه في « مفتاح دار السعادة »: فَسَّرَ غير واحد من السلف قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ بعذاب القبر، وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر. ولهذا قال: ﴿ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ ﴾ [طه] أي: تترك في العذاب كما تركت العمل بآيتنا، فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار، ونظير قوله تعالى في حق آل فرعون: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ فهذا في البرزخ ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] فهذا في القيامة الكبرى، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣] فقول الملائكة: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ المراد به عذاب البرزخ الذي أوله يوم القبض والموت، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال: ٥٠] فهذه الإذاقة في البرزخ، وأولها حين الوفاة ، فإنه معطوف على قوله: ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ وهو من القول المحذوف لدلالة الكلام عليه كنظائره، وكلاهما واقع وقت الوفاة.

وفي الصحيح[١] عن البراء بن عازب في قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] قال: نزلت في عذاب القبر. والأحاديث في عذاب القبر تكاد تبلغ حد التواتر. والمقصود أن اللّه سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره وهو الهدى الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى، بأن له معيشة ضنكاً، وتكفل لمن حفظ عهده أن يحييه حياة طيبة ويجزيه أجره في الآخرة فقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعهده علماً وعملاً في العاجلة بالحياة الطيبة، وفي الآخرة بأحسن الجزاء، وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ ، ونسيانه في العذاب في الآخرة. وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧ ﴾ [الزخرف] فأخبر سبحانه أن ابتلاءه بقرينة من الشياطين وضلاله به، إنما كان لسبب إعراضه وعشوّه عن ذكره الذي أنزله على رسوله. وهو =

---

(١) أخرجه البخاري [٤٦٩٩].

....

= يحسب أنه مهتد. حتى إذا وافى ربه يوم القيامة من قرينه، وعاين هلاكه وإفلاسه قال: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨] وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله، فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة.

فإن قيل: فهل لهذا عذر في ضلاله، إذا كان يحسب أنه على هدى كما قال تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾؟ قيل: لا عذر لهذا وأمثاله في الضلال، الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحي الذي جاء به الرسول. ولو ظن أنه مهتد، فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعي الهدى، فإذا ضل فإنما أتي من تفريطه وإعراضه. وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة، وعجزه عن الوصول إليها، فذاك له حكم آخر.

والوعيد في القرآن إنما يتناول الأول. وأما الثاني فإن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه كما قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥] وقال تعالى في أهل النار: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] وقال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٩﴾ [الزمر] وهذا كثير في القرآن.

الخامسة: قال ابن القيم: اختلف في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾ هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر؟ والذين قالوا هو من عمى البصيرة، إنما حملهم على ذلك قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨] وقوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢] وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر] ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة لقوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥] قوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥﴾ [الطور] وقوله: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣].

والذين رجحوا أنه من عمى البصر، قالوا: السياق يدل عليه لقوله: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ وهو لم يكن بصيراً في كفره قط، بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق. فكيف يقول: ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ وكيف يجاب بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾؟ بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر =

....

= وأنه جوزي من جنس عمله. فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث اللّه به رسوله وعميت عنه بصيرته، أعمى الله به بصره يوم القيامة ، وتركه في العذاب، كما ترك الذكر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة . وعلى تركه ذكره ، تركه في العذاب . وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء: ٩٧] وقد قيل في هذه الآية أيضاً: إنهم عمي وبكم وصم عن الهدى. كما قيل في هذه الآية قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون.

ومن نَصَرَ أنه العمى والبكم والصمم، المضاد للبصر والسمع والنطق، قال: هو عمى وصم وبكم مقيد لا مطلق. فهو عمى عن رؤية ما يسرهم وسماعه. وهذا قد روي عن ابن عباس قال: لا يرون شيئاً يسرهم. وقال آخرون: هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة، يخرجون من الدنيا كذلك. فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك. ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد. وهذا مرويّ عن الحسن.

وقال آخرون: هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها، سلبوا الأسماع والأبصار والنطق، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم فَيُبصَرون بأجمعهم ، عمياً بكماً صماً، لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون. ولا يسمع فيها بعدها إلا الزفير والشهيق، وهذا منقول عن مقاتل .

والذين قالوا: المراد به العمى عن الحجة، إنما مرادهم أنهم لا حجة لهم، ولم يريدوا أن لهم حُجَّةً، هم عُمْيٌ عنها، بل هم عُمْيٌ عن الهدى كما كانوا في الدنيا، فإن العبد يموت على ما عاش عليه . ويبعث على ما مات عليه. وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر، وأنه عمى البصر. وأن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عياناً، ويقرّ بما كان يجحد في الدنيا. فليس هو أعمى عن الحق يومئذ.

وفصل الخطاب؛ أن الحشر هو الضم والجمع. ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة، لقول النبي ﷺ: « إنكم محشورون إلى حفاة عراة »[1] وكقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [التكوير: ٥] وكقوله تعالى: ﴿ وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧] ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر، فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة . وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار؛ لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الصافات] ثم قال تعالى: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ . . . ﴾ [الصافات: ٢٢] الآية وهذا الحشر الثاني، وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف والحشر الثاني، =

(١) أخرجه البخاري [٣٣٤٩].

....

❁ ❁ ❁

= يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون، وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصماً. ولكل موقفٍ حال يليق به، ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته. فالقرآن يصدق بعضه بعضاً: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] انتهى.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ أي لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك، تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها. كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ [الأعراف: ٥١] فإن الجزاء من جنس العمل. فالنسيان مجاز عن الترك.

قال ابن كثير: فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه، والقيام بمقتضاه، فليس داخلًا في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى، فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكيد والوعيد الشديد في ذلك.

روى الإمام أحمد عن سعد بن عبادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « ما من رجل قرأ القرآن فنسيه، إلا لقي الله يوم يلقاه، وهو أجذم »[١].

السابعة: قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ ﴾ الآية [طه: ١٢٧]، أي وهكذا نجزي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة، وعذاب الآخرة أشد وأبقى، من ضنك العيش في الدنيا، لكونه دائماً.

تفسير القاسمي [١١/٤٢١٧ - ٤٢٣٤].

(١) رواه أحمد في المسند [٥/ ٢٨٤].

اليأس لا يتطرق إلى قلب المؤمن

السؤال: إننا نحس دائماً - كمؤمنين - أن لطف اللَّه ينزل مقترناً بالبلية؛ لذلك لا يتطرق اليأس إلى قلوبنا، لماذا ؟

الجواب: لو استعرض كل منا شريط حياته لوجد فيه أثراً من آثار طلاقة القدرة، كم منا واجه مشاكل بلا حل، وربما ظل ساهراً لياليَ طوالًا، يقلب عقله، ويعمل فكره، ولا يستطيع أن يصل إلى الحل، ثم فجأة يتغير كل ما حوله ليجد الباب مفتوحاً من حيث لا يدري ولا يحتسب، ويأتي الحل ميسراً سهلًا من أشياء لم نكن نتوقعها، ولا نظن أنها ستحدث، كل منا مر بذلك، وكل منا رأي في حياته مرة أو مرات أثر قدرة اللَّه سبحانه وتعالى وهو يرفع عنه ظلماً ما كان يحسب أن يزول، أو يحل له مشكلة لم يكن يعتقد أن لها حلًا، أو يأتي بشيء لم يكن يتصور أن يأتيه، كل هذا حدث لنا جميعاً.

اللَّه سبحانه وتعالى يريد أن يملأ نفس المؤمن برحمته، بحيث يواجه مصاعب الحياة، وفي قلبه جذوة إيمان لا تنطفئ أبداً، حينئذ يحس الإنسان المؤمن بأن كل الصعاب التي يواجهها لن تقضي عليه، ولا تمس أمنه وأمانه، لماذا ؟ لأنه يتذكر قول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم: ٢١]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٥] فالصعاب مهما بلغت فهي عَلى اللَّه شيء هين، وهي أمام عظمة اللَّه القدير القادر سبحانه وتعالى لا شيء، فلا يدخل اليأس إلى قلبه أبداً.

أبواب الحظ في الصحف
أو محاولة معرفة الغيب

السؤال: تنشر كل الصحف والمجلات أبواباً تتنبأ بالغيب، وكثير من الناس يحاولون معرفة حظوظهم؛ فيتابعون ما ينشر باهتمام، وكأنه حقيقة لا ينسحب عليها الشك. فما حكم ذلك ؟

الجواب: إنني أتعجب من أمر القوم المنتسبين للإسلام، ويحاولون قراءة أبواب الحظ في الصحف؛ أو استطلاع النجوم، أو معرفة الغيب بأي وسيلة من الوسائل.

إن الإيمان باللَّه يجعل الإنسان قوياً ومتقبلًا لكل ما يأتي به اللَّه، راضياً بقضاء اللَّه وقدره

إن من نعم اللَّه العظيمة علينا نعمة ستر الغيب.

فالإنسان إذا ما اطلع على مستقبله ووجد فيه شيئاً غير سار حتى ولو كان هيناً سيعيش حياته في جزع وخوف حتى يأتي أمر اللَّه له وينسى الإنسان أن اللَّه الذي قدر ذلك قادر على أن يعوضه خيراً منه ، أو يلطف به في مصيبته.

فإن عاش الإنسان كارثة علمها مقدماً قبل أن تحدث؛ فإنه يتألم أضعاف أضعاف وقت حدوثها؛ لأنه يعيشها معزولة عن اللطف الذي نزل معها.

مثال ذلك المرأة التي لها ابن وحيد، ويقول لها هذا الرجل الذي يزعم قراءة الغيب: إن ابنك سوف تفقدينه في كذا وكذا.

ماذا تفعل هذه المرأة ؟ إنها ستحيا في عذاب ولا تعرف طعم النوم والراحة من الهلع والخوف على وحيدها.

ولنفترض جدلًا أن امرأة أخرى لها ابن وحيد وفقدته دون أن تعلم مقدماً كيفية أو ميعاد ذلك الأمر، من المؤكد أن لطف اللَّه بها سوف يجعلها تصبر، ويعوضها اللَّه خيراً منه وعوضاً عنه.

لذلك فإنني أقول للباحثين عن معرفة الغيب بالوسائل التي يلجأ إليها الدجالون: ليتأدب الواحد منكم وألا يزج بنفسه في رياح الشياطين.

إن الإنسان لو علم ألف حدث سارٌ وحدثاً واحداً مؤلماً، فإن الغم سيتغلب عليه، إن اللَّه لا يبعث الأمر المؤلم إلا ومعه اللطف.

ثم الأهم من ذلك كله أن الإيمان بالغيب هو الركيزة الأولى في الإيمان باللَّه تعالى، قال ربنا سبحانه: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [البقرة].

❁ ❁ ❁

حفظ القرآن الكريم

السؤال: لماذا تولى اللَّه سبحانه وتعالى حفظ القرآن الكريم ؟

الجواب: بعد أن نسي الناس منهج اللَّه، وحرفوا بعضه، وأخفوه، وأضافوا له أشياء هي من عندهم ونسبوها إلى اللَّه سبحانه وتعالى ظلماً وعدواناً؛ لذلك عندما أنزل اللَّه المنهج كاملًا متكاملًا، وهو القرآن الكريم، جامعاً لكل رسالات الأنبياء، ومزيداً عليها، ومصححاً لما حُرِّف، وجعله خاتم الرسالات إلى الأرض، شاء اللَّه سبحانه وتعالى أن يتولى هو حفظه حتى لا يدخله تحريف بشري، وظل القرآن طوال أربعة عشر قرناً، وسيظل إلى قيام الساعة، محفوظاً بأمر اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [١] [الحجر: ٩].

❁ ❁ ❁

---

(١) قال ابن كثير: يخبر اللَّه تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ [الحجر: ٦] أي: الذي تدّعي ذلك ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ أي: في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا.
﴿ لَّوْ مَا ﴾ أي هلا ﴿ تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ أي: يشهدون لك بصحة ما جئت به كما قال فرعون: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٣]، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الفرقان] وكذا قال في هذه الآية: ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الحجر: ٧]. وقال مجاهد في قوله: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحجر: ٨] بالرسالة والعذاب ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن وهو الحافظ له من التغيير والتبديل، ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ على النبي ﷺ كقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧] والمعنى الأول أولى وهو ظاهر السياق.

تفسير ابن كثير [٢/ ٥٢٧، ٥٢٨].

تحقيق وعد اللّه بحفظ القرآن

السؤال: لقد وعد اللّه بحفظ القرآن الذي أنزله، كيف تم تحقيق هذا الوعد ؟

الجواب: إن غفلتنا عن تعاليم القرآن كسلوك في الحياة لا تتمشى مع ازدياد الحفاظ على القرآن الكريم، أحياناً تجد غير المسلم يقتني أكبر عدد من المصاحف، ومن هنا فإن اللّه سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أن الذي يحفظ القرآن هو اللّه، وأنه كلما نقص خط العمل بالقرآن ازداد خط الحفاظ عليه؛ لأن العباد هم المكلفون بالعمل، ولكن اللّه سبحانه وتعالى هو الذي يحفظه [١].

---

(١) قال اللّه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من أن يزاد فيه أو ينقص منه.

قال قتادة وثابت البُنَانيّ: حفظه اللّه من أن تزيد فيه الشياطين باطلًا أو تنقص منه حقاً؛ فتولى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظاً، وقال في غيره: « بما استحفِظوا »، فوكل حفظه إليهم فبدّلوا وغيروا.

وذكر القرطبي بسنده إلى يحيى بن أكثم قال: كان للمأمون - وهو أمير إذ ذاك - مجلس نظر، فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة، قال: فتكلم فأحسن الكلام والعبارة، قال: فلما أن تقوّض المجلس دعاه المأمون فقال له: إسرائيلي؟ قال نعم. قال له: أسلِم حتى أفعل بك وأصنع، ووعده. فقال: ديني ودين آبائي ! وانصرف. قال: فلما كان بعد سنة جاءنا مسلماً، قال: فتكلم على الفقه فأحسن الكلام؛ فلما تقوّض المجلس دعاه المأمون وقال: ألست صاحبنا بالأمس ؟ قال له: بلى. قال: فما كان سبب إسلامك ؟ قال: انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت مع ما تراني حسن الخط، فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الكنيسة فاشترِيت مني.

وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها البِيعة فاشترِيت مني.

وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الورّاقين فتصفحوها، فلما أن أوجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها؛ فعلمت أن هذا كتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي. =

....

۞ ۞ ۞

= قال يحيى بن أكثم: فحججت تلك السنة فلقِيت سفيان بن عيينة فذكرت له الخبر فقال لي: مصداق هذا في كتاب اللّه عز وجل. قال: قلت: في أي موضع؟ قال: في قول اللّه تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل: « بما استُحْفِظُوا مِنْ كتاب اللّهِ »، فجعل حفظه إليهم فضاع، وقال عز وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فحفظه اللّه عز وجل علينا فلم يضِع.

وقيل: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ أي: لمحمد ﷺ من أن يتقوّل علينا أو نتقول عليه.

أو ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ من أن يكاد أول يقتل.

نظيره ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧].

و ﴿ نَحْنُ ﴾ يجوز أن يكون موضعه رفعاً بالابتداء.

و ﴿ نَزَّلْنَا ﴾ الخبر. والجملة خبر « إنّ ». ويجوز أن يكون « نحن » تأكيدا لاسم « إن » في موضع نصب، ولا تكون فاصلة لأن الذي بعدها ليس بمعرفة وإنما هو جملة، والجمل تكون نعوتا للنكرات فحكمها حكم النكرات.

تفسير القرطبي [١٠/ ٥: ٦].

لا تناقض في القرآن كما زعموا

السؤال: الملحدون في دين اللّٰه يحاولون أن يتهجموا على القرآن الكريم، فيقولون: كيف يكون من عند اللّٰه وفيه تناقض؟ ولو فهموا القرآن الكريم حق فهمه لعرفوا لأول وهلة أنه لا تناقض فيه. نريد من فضيلتكم أن تقدموا دليلًا على خطأ زعمهم!

الجواب: يزعم بعض الناس من الكافرين والذين في قلوبهم مرض: أن بعض آيات القرآن الكريم فيها نوع من التناقض، ونحن نقول: حاشا وكلا، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] والقرآن العظيم هو كلام اللّٰه سبحانه وتعالى، ومن هنا فلا اختلاف فيه أبداً. ولنضرب مثلًا من زعم هؤلاء الناس الذين أعمى اللّٰه بصرهم وبصيرتهم؛ إنهم يقولون: إن اللّٰه سبحانه وتعالى يقول: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٣٥]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، فكيف يمكن أن تخاف القلوب وتطمئن إلى شيء واحد، وهو ذكر اللّٰه؟

معلوم أن الخوف عكس الطمأنينة، الخوف فزع وشعور بالخطر.. والطمأنينة راحة، وشعور بالأمان، فكيف يمكن أن يجتمعا في وصف شيء واحد؟ وإذا بحثنا في قاموس الحياة، وتنقلنا بين معاني الدنيا؛ وجدنا أن الشيء الذي يخيف عكس الشيء الذي يطمئن، وأنهما لا يجتمعان.

نقول لمن يزعم ذلك: إن اللّٰه سبحانه وتعالى حين يقول شيئاً في القرآن الكريم يكون غاية في الدقة، فهو ليس كقول البشر، إنه كلام اللّٰه سبحانه وتعالى، واللّٰه تعالى حين يقول فلا شيء اسمه تجاوز المعنى، بل إن المعنى في القرآن الكريم، مطابق ومساوٍ للفظ تماماً، فحين يقول اللّٰه سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فهو يعني بذلك المؤمن، أو ذلك الإنسان الذي في قلبه إيمان، ثم نسي اللّٰه لحظة، فارتكب ما يغضبه سبحانه وتعالى، وكلنا يخطئ، وكلنا ينسى، وكلنا قد تستهويه الدنيا لحظة، أو لحظات، فإذا تذكر اللّٰه في هذه اللحظة، تذكر

معه الحساب، وتذكر معه أنه سيلاقيه، حينئذ يدخل الوجل إلى قلبه، لماذا ؟ لأنه في هذه اللحظة يحس بعظم ما ارتكبه، وهو يعرف اللَّه ويؤمن به، ويعرف ويؤمن كما أنه الغفور الرحيم، فهو سبحانه شديد العقاب، لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد؛ ولذلك فالإنسان المؤمن حين يقترف ما يغضب اللَّه سبحانه، ثم يتذكر خطأَه وشدة عقاب اللَّه تعالى يرتعد قلبه من الوجل والخوف لأنه لا طاقة لأحد باللَّه سبحانه وتعالى ولا بعذابه.



هل هي جاهلية أخرى ؟

السؤال: خصوم الإسلام يرددون الآن أقوالًا كان يقولها أهل الجاهلية عن القرآن الكريم، فما هو وجه الشبه بين جاهلية الملحدين في عصرنا، وجاهلية أهل مكة في عصر الرسول ؟

عندما حاول الكفار الافتراء على القرآن الكريم، اتخذوا عدة طرق، منها ما زعموه أنه: « قول شاعر »، أو « قول كاهن »، والافتراء على القرآن الكريم الذي حدث أيام الجاهلية الأولى تجد صوراً منه الآن تتكرر.

فمن بين ما يقدمونه الآن على القرآن، مجرد نظريات لم تثبُت صحتها يعارضون بها كلام اللَّه تعالى ويؤثرونها على القرآن، وكذلك محاولة حصر الإسلام وأركانه داخل جدران المسجد وعزله عن كل مناحي الحياة، ومنهم من طغى وتجبر وزعم أن الإله الواحد الذي نعبده هو الفرعون آمون، ومنهم من سوى بين عبادة الخالق سبحانه وعبادة بعض المخلوقات، فسمى عبادة البقر والوثنية ديناً؛ ودعا لاحترامه، ومنهم من زعم أن القرآن أساطير شعبية قديمة قبل الإسلام ورسالة النبي ﷺ . . إلخ.

ولقد قال أهل الجاهلية عن القرآن، إنه مفتري، وكان الرد عليهم من اللَّه سبحانه وتعالى، إذا كان هذا القرآن مفتري فافتروا مثله ؛ فإن لكم دراية بفن الكلام والخطب والشعر والأدب، ورسول اللَّه ﷺ لم يكن يعرف القراءة والكتابة، فأنتم الذين تملكون وسائل الافتراء، فافتروا مثله، وكان العجز جوابهم.

ولقد أبان اللَّه وجه الحقيقة في معرض تفنيد مزاعمهم، فقال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحاقة].

ولنتأمل . . حتى الرد فيه إعجاز، فالشعر مفهوم أنه كلام موزون مقفى، يعرفه الناس جميعاً، وهذا ليس شعراً بأوزانه وقوافيه، ولذلك فإنكم عندما تقولون إنه قول شاعر، ليس هذا عن جهل، لكنه عن عدم إيمان، ومحاربة لهذا الدين؛

لأنكم تعرفون الشعر جيداً، ولا يمكن أن يغيب عليكم أن ما تقولونه هو افتراء لعلمكم بقواعد اللغة⁽¹⁾ .

---

(١) قال ابن هشام: ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سِنٍّ فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قُرَيْش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدَمُ عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذِّب بعضُكم بعضاً، ويردّ قولُكم بعضَه بعضاً؛ قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأيا نقول به؛ قال: بل أنتم فقولوا أسمع؛ قالوا: نقول كاهن، قال: لا واللّه ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزَمْزَمة الكاهن ولا سَجْعه؛ قالوا: فنقول: مجنون؛ قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخَنْقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته؛ قالوا: فنقول: شاعر؛ قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجَزَه، وهَزَجه وقرضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر؛ قالوا: فنقول ساحر؛ قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحَّار وسحرَهم، فما هو بنَفْثِهم ولا عَقْدِهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال: واللّه إن لقوله لحلاوة وإن أصلَه لعَذِق، وإن فرعه لجَناة. - قال ابن هشام: ويقال لغَدْق - وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يفرّق به بين المرءِ وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسُبُل الناس حين قدموا الموسم، ولا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره. فأنزل اللّه تعالى في الوليد بن المغيرة في ذلك من قوله: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ ﴾ [المدثر]. أي: خصيما.

قال ابن هشام: عنيد: معاند مخالف. قال رؤبة بن الحجاج:

ونحن ضرّابون رأسَ العُنَّد

وهذا البيت في أرجوزة له.

﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المدثر].

قال ابن هشام: بسر: كرّه وجهه. قال العَجّاج:

مُضبَّر اللَّحْيين بَسْراً مِنْهَسا

يصف كراهية وجهه. وهذا البيت في أرجوزة له.

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

رد القرآن على صحب الوليد: قال ابن إسحاق: وأنزل اللّه تعالى في رسوله ﷺ وفيما جاء به من اللّه تعالى وفي النفر الذين كانوا معه يصنِّفون القول في رسول اللّه ﷺ، وفيما جاء به من اللّه تعالى: ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ =

....

۞ ۞ ۞

= ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر].

قال ابن هشام: واحدة العِضين: عِضَة، يقول: عَضَّوْه: فرقوه. قال رُؤْبة بن العُجاج:
وليس دينُ اللَّه بالمعضَّى

وهذا البيت في أرجوزة له. قال ابن إسحاق: فجعل أولئك النفر يقولون ذلك في رسول اللَّه ﷺ لمن لقوا من الناس، وصدرت العربُ من ذلك الموسم بأمر رسول اللَّه ﷺ؛ فانتشر ذكرُه في بلاد العرب كلِّها.

السيرة النبوية لابن هشام [٢/ ١٠٥: ١٠٨].

جهل المستشرقين بالقرآن

السؤال: من مزاعم المستشرقين أنهم يقولون إن في القرآن آيتين متناقضتين، كيف يقول: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩] ويقول في آية أخرى: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ في الآية الأولى هناك نفي للسؤال، وفي الآية الثانية إثبات للسؤال ما قول فضيلتكم ؟

الجواب: للرد على هذه المزاعم نقول لهؤلاء المستشرقين إنكم تقولون ذلك، لأنكم جهلتم ماذا يكون السؤال، والسؤال نوعان: نوع تسأله لتعلم، ونوع تسأله ليكون المسئول شاهداً على نفسه، التلميذ حين يسأل أستاذه، يسأله ليتعلم، ولكن حين يسأل الأستاذ تلميذه، هل يسأله ليتعلم أو ليعلم ؟ بالطبع لا، فالأستاذ يعرف أضعاف أضعاف ما يعرفه تلميذه، ولكنه يسأله ليكون التلميذ شهيداً على نفسه، لا يستطيع أن يجادل، أو يقول: لقد ذاكرت وهو لم يقرأ حرفاً.

الأسئلة في الامتحانات مثلًا لا تقوم وزارة التعليم بوضعها؛ لأنها تجهل ما يعرفه الطلبة، فتريد أن تستزيد منهم علماً، ولكن ليكون الطالب شاهداً على نفسه فلا يستطيع أن يجادل، ورقة الإجابة موجودة وهي شاهد على درجة الطالب، إن كان ممتازاً أو ضعيفاً، أو لا يعرف شيئاً على الإطلاق.

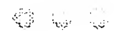
فالآية الكريمة: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩]، لم تكن سؤالًا للمعرفة، فاللَّه تعالى أعلم بذنوبهم، اللَّه سبحانه وتعالى يعلم، وبالتالي فهو غير محتاج لأن يسأل للعلم، وغير محتاج لأن يعرف منهم؛ لأنه أعلم منهم، ومن هنا لا سؤال لأن السائل أعلم من المسئول، فلا يكون السؤال للعلم، ولذلك يقول اللَّه تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾.

أما في الآية الثانية: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾، أي أنكم ستسألون؛ لتقرروا الحقيقة والواقع في الحساب، لا لتقولوا شيئا لا يعلمه اللَّه؛ لتكونوا شهداء على أنفسكم، وهذا ما تفسره الآيات التي قبلها، والتي بعدها

إذن.. فأين التعارض، وأي تناقض هذا الذي زعمه المستشرقون في القرآن؟

فاللّه سبحانه وتعالى يتحدث عن الكافرين والمكذبين؛ لذلك تقول السورة: ﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢١) ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات].

السؤال هنا ليس للعلم، ولكن لأنهم مسئولون ليكونوا شهداء على أنفسهم، هذا الذي كنتم به تكذبون، هذا جزاء ما عبدتم من دون اللّه، الآن جاء وقت الحساب؛ لتكونوا شهداء على أنفسكم يوم القيامة، أين ما كنتم تعبدون من دون اللّه ؟ يسألهم عما كانوا يعبدون من دون اللّه، ثم يقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ [الصافات: ٢٥]، لماذا لا ينصركم أحد ؟ لماذا لا تنصركم آلهتكم ؟ السؤال هنا ليس للعلم، ولكن للتقريع، وليكونوا شهداء على أنفسهم.



معجزة القرآن

السؤال: إن العرب حين ضاقوا ببلاغة القرآن قالوا عنه إنه كلام شاعر أو كاهن فما رأي فضيلتكم ؟

الجواب: لقد رد اللّه عليهم رداً فيه إعجاز، فالشعر مفهوم أنه من كلام موزون مقفّى يعرفه الناس جميعاً، ومن هنا فكونكم تقولون إن هذا شعر، فهذا دليل على أنكم تكفرون به، لماذا ؟ لأنكم تعرفون الشعر معرفة جيدة، وهذا ليس شعراً بأوزانه وقوافيه، ولذلك عندما تقولون أيها الكفار إنه قول شاعر، وما تقولونه ليس عن جهل، ولكن عن كفر باللّه سبحانه وتعالى؛ لأنكم تعرفون الشعر جيداً، وقول الكاهن كلام فيه سجع، ويمكن أن يختلط، ولكن قول الكاهن لا يمكن أن يخاطب كل الملكات، ولا يمكن أن يكون فيه كل هذا الإعجاز، كما أن الكاهن يفضحه طول الوقت والزمان.

ومن هنا فإنه كبشر ينسى، ويأتي بعكس ما قاله نتيجة لمرور الوقت والزمن، ولذلك عندما رد اللّه سبحانه وتعالى على قولهم إنه كاهن، كان الرد بكلمة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾؛ لأنه من الواضح أن هذا ليس شعراً، والشعر في هذه الحالة هو أولاً الإعجاز في مخاطبة ملكات النفس البشرية.

وثانياً طول الزمن الذي يجعل الكاهن ينسى ما قال، ومن هنا قال اللّه سبحانه وتعالى ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠] لأن البشر معرضون أن ينسوا ما يقولون، فاستخدم كلمة تتذكرون، ولم يستخدم كلمة يكفرون، أو الكفر، التي استخدمها في الحالة الأولى عندما قالوا قول شاعر، لأن الشعر له قواعد معروفة [١].

---

(١) قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور في تأول قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الحاقة].

« الفاء » هنا لتفريع إثبات أن القرآن منزل من عند اللّه ونفي ما نسبه المشركون إليه. تفريعاً على ما اقتضاه تكذيبهم بالبعث من التعريض بتكذيب القرآن الذي أخبرَ بوقوعه، =

....

= وتكذيبهم الرسول ﷺ القائل إنه موحى به إليه من اللّه تعالى.
وابتدئ الكلام بالقسم تحقيقاً لمضمونه على طريقة الأقسام الواردة في القرآن ، وقد تقدم الكلام عليها عند قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴾ [الصافات: ١].
وضمير ﴿ أُقۡسِمُ ﴾ عائد إلى اللّه تعالى.
جمع الله في هذا القسم كل ما الشأن أن يقسم به الأمور العظيمة من صفات اللّه تعالى ومن مخلوقاته الدالة على عظيم قدرته إذ يجمع ذلك كله الصِلتان ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الحاقة] فما يبصرون: الأرض والجبال والبحار والنفوس البشرية والسماوات والكواكب، وما لا يبصرون: الأرواح والملائكة وأمور الآخرة.
و ﴿ لَآ أُقۡسِمُ ﴾ صيغة تحقيق قسم ، وأصلها أنها امتناع من القسم امتناع تحرج من أن يحلف بالمُقسم به خشية الحنث ، فشاع استعمال ذلك في كل قسم يراد تحقيقه، واعتبر حرف ﴿ لَآ ﴾ كالمزيد كما تقدم عند قوله: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الواقعة: ٧٥] في سورة الواقعة. ومن المفسرين من جعل حرف ﴿ لَآ ﴾ في هذا القسم إبطالاً لكلام سابق وأن فعل ﴿ أُقۡسِمُ ﴾ بعدها مستأنف، ونقض هذا بوقوع مثله في أوائل السور مثل: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [القيامة: ٥] و ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴾ [البلد: ١].
وضمير ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ عائد إلى القرآن المفهوم من ذكر الحشر والبعث، فإن ذلك مما جاء به القرآن ومجيئه بذلك من أكبر أسباب تكذيبهم به، على أن إرادة القرآن من ضمائر الغيبة التي لا معاد لها قد تكرر غير مرة فيه.
وتأكيد الخبر بحرف « إن » واللام للرد على الذين كذبوا أن يكون القرآن من كلام الله ونسبوه إلى غير ذلك.
والمراد بالرسول الكريم محمد ﷺ كما يقتضيه عطف قوله: ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴾ [الحاقة: ٤٤]. وهذا كما وصف موسى بـ ﴿ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ﴾ [الدخان: ١٧].
وإضافة « قول » إلى « رسول » لأنه الذي بلغه فهو قائله، والإضافة لأدنى ملابسة وإلا فالقرآن جعله الله تعالى وأجراه على لسان النبي ﷺ، كما صدر من جبريل بإيحائه بواسطته قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾ [مريم: ٩٧].
روى مقاتل أن سبب نزولها: أن أبا جهل قال: إن محمداً شاعر، وأن عقبة بن أبي مُعيط قال: هو كاهن، فقال اللّه تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ الآية.
ويجوز أن يراد بـ ﴿ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴾ [الحاقة: ٤٠] جبريل عليه السلام كما أريد به في سورة التكوير إذ الظاهر أن المراد به هنالك جبريل كما يأتي.
وفي لفظ ﴿ رَسُولٖ ﴾ إيذان بأن القول قول مرسله، أي الله تعالى. وقد أكد هذا المعنى بقوله عقبة ﴿ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٨٠].
ووصف الرسول بـ ﴿ كَرِيمٖ ﴾ لأنه الكريم في صنفه ، أي النفيس الأفضل مثل قوله: =

....

= ﴿إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩].
وقد أثبت للرسول ﷺ الفضل على غيره من الرسل بوصف ﴿ كَرِيمٍ ﴾ ونفي أن يكون شاعراً أو كاهناً بطريق الكناية عند قصد رد أقوالهم.
وعطف ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ﴾ [الحاقة: ٤٢] على جملة الخبر في قوله: ﴿ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ ، و « لا » النافية تأكيد لنفي « ما ».
وكنى بنفي أن يكون قول شاعر، أو قول كاهن عن تنزيه النبي ﷺ عن أن يكون شاعراً أو كاهناً، رد لقولهم: هو شاعر أو هو كاهن. وإنما خص هذان بالذكر دون قولهم: افتراه، أو هو مجنون، لأن الوصف بكريم كاف في نفي أن يكون مجنوناً أو كاذباً إذ ليس المجنون ولا الكاذب بكريم ، فأما الشاعر والكاهن فقد كانا معدودين عندهم من أهل الشرف، والمعنى: ما هو قول شاعر ولا قول كاهن تلقاه من أحدهما ونسبه إلى الله تعالى.
و ﴿ قَلِيلًا ﴾ في قوله: ﴿ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ مراد به انتفاء ذلك من أصله على طريقة التلميح القريب من التهكم كقوله: ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وهو أسلوب عربي، قال ذو الرمة:

أنيحت القت بلدة فوق بلدةٍ قليل بها الأصوات إلا بُغامُها

فإن استثناء بغام راحلته دل على أنه أراد من « قليل » عدم الأصوات.
والمعنى: لا تؤمنون ولا تذكرون، أي عندما تقولون هو شاعر وهو مجنون ، ولا نظر إلي إيمان من آمن منهم من بعد. وقد تقدم في سورة البقرة قوله: ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٨٨].
وانتصب ﴿ قَلِيلًا ﴾ في الموضعين على الصفة لمصدر محذوف يدل عليه ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ و ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ أي تؤمنون إيماناً قليلاً، وتذكرون تذكراً قليلاً.
و ﴿ مَّا ﴾ مزيدة للتأكيد كقول حاتم الطائي:

قليلًا به ما يحمدنك وارث إذا نال مما كنت تجمع مغنماً

وجملتا ﴿ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ معترضتان، أي انتفي أن يكون قول شاعر، وانتفي أن يكون قول كاهن ، وهذا الانتفاء لا يحصل إيمانكم ولا تذكركم لأنكم أهل عناد.
وقرأ الجمهور ﴿ مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ و ﴿ مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ كليهما بالمثناة الفوقية، وقرأهما ابن كثير وهشام عن ابن عامر « واختلف الرواة عن ابن ذكوان عن ابن عامر » ويعقوب بالياء التحتية على الالتفاف من الخطاب إلى الغيبة، وحسن ذلك كونهما معترضتين.
وأوثر نفي الإيمان عنهم في جانب انتفاء أن يكون قول شاعر ، ونفي التذكر في جانب انتفاء أن يكون قول كاهن ، لأن نفي كون القرآن قول شاعر بديهي إذ ليس فيه ما يشبه الشعر من اتزان أجزائه في المتحرك والساكن والتقفية المتماثلة في جميع أواخر =

....

۞ ۞ ۞

= الأجزاء، فادعاؤهم أنه قول شاعر بهتان متعمد ينادي على أنهم لا يرجى إيمانهم ، وأما انتفاء كون القرآن قول كاهن فمحتاج إلى أدنى تأمل إذ قد يشبه في بادئ الرأي على السامع من حيث إنه كلام منثور مؤلف على فواصل ويؤلف كلام الكهان على أسجاع مثناة متماثلة زوجين زوجين، فإذا تأمل السامع فيه بأدنى تفكر في نظمه ومعانيه علم أنه ليس بقول كاهن، فنظمه مخالف لنظم كلام الكهان إذ ليست فقراته قصيرة ولا فواصله مزدوجة ملتزم فيها السجع، ومعانيه ليست من معاني الكهانة الرامية إلى الإخبار عما يحدث لبعض الناس من أحداث ، أو ما يلم بقوم من مصائب متوقعة ليحذروها، فلذلك كان المخاطبون بالآية منتفياً عنهم التذكر والتدبر، وإذا بطل هذا وذاك بطل مدعاهم فحق أنه تنزيل من رب العالمين كما ادعاه الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم.

وقوله: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٣] خبر ثان عن اسم ﴿ إِنَّ ﴾ وهو تصريح بعد الكناية.

ولك أن تجعل ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ خبر مبتدأ محذوف جرى حذفه على النوع الذي سماه السكاكي بمتابعة الاستعمال في أمثاله وهو كثير في الكلام البليغ ، وتجعل الجملة استئنافاً بيانياً لأن القرآن لما وصف بأنه: « قول رسول كريم » ونفي عنه أن يكون قول شاعر أو قول كاهن ، ترقَّب السامع معرفة كنهه ، فبين بأنه منزل من رب العالمين على الرسول الكريم ليقوله للناس ويتلوه عليهم.

و ﴿ تَنزِيلٌ ﴾ وصف بالمصدر للمبالغة.

والمعنى: إنه منزل من رب العالمين على الرسول الكريم.

وعبر عن الجلالة بوصف ﴿ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ دون اسمه العلم للتنبيه على أنه رب المخاطبين ورب الشعراء والكهان الذين كانوا بمحل التعظيم والإعجاب عندهم نظير قول موسى لفرعون ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾. التحرير والتنوير [١٤/ ١٤٠-١٤٤].

إعجاز القرآن لا يتوقف

السؤال: كيف نتوصل إلى فهم أن إعجاز القرآن لا يتوقف في أي عصر، وكما تحدى السابقين، فهو يتحدى اللاحقين ؟

الجواب: إذا كان القرآن قد تحدى الكفار في عصر نزوله بأن أنبأهم بما يدور داخل صدورهم، وأنبأهم بمصائرهم، فإن التحدي قائم حتى قيام الساعة، بل ويستخدمهم في إثبات قضية الإيمان، تماماً كما استخدمهم وقت نزوله في إثبات قضية الإيمان، إن هدف الكفار والمضلين عن سبيل اللَّه هو إنكار هذا الدين وإنكار لرسالة الرسول ﷺ، ولكن القرآن الكريم استخدم الكفار في إثبات أن دين اللَّه حق، وأن رسول اللَّه حق وأن هذا الكتاب هو كلام اللَّه المنزل على رسوله محمد ﷺ، يقول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم].

أي: إن الإنسان يعلم ظاهراً من الحياة الدنيا، ولكنه غافل عن أمر الآخرة، أي أن مدى علم الإنسان هو الحياة الدنيا، وأن العلم نوعان:

نوع متروك لك، نشاطك فيه كما تريد، وبلا قيود، ولا حدود، ونوع ليس لك الحرية في البحث فيه لأنك لا تعلمه، وهذا النوع افعل كذا، ولا تفعل كذا، تقرب إليَّ بكذا، واترك كذا، هذه ليست اجتهاداتك أنت؛ لأن المعبود هو الذي يشرع للعابد ما يعبده به، والنقاش في شيء يجب أن يتم بين عقول متساوية أو متقاربة في القدرة، ومن منا يملك عقلًا أو قدرة كقدرة اللَّه تعالى؟! لا أحد.

إذن.. فنحن نأخذ افعل ولا تفعل عن اللَّه تعالى، وما بلغه لنا رسول اللَّه ﷺ شرحته لنا السنة.

إذن.. هذا النوع من العلم ليس لأحد اجتهاد فيه، ما علينا إلا اتباع ما أنزل اللَّه تعالى على رسوله، ولا نملك إلا السمع والطاعة والإذعان والتسليم لأمر اللَّه تعالى ومتابعة النبي ﷺ في هديه.

أما نشاطات الحياة الأخرى، وآيات اللّه في الكون فالمطلوب أن أبحث فيها وأتأمل، وأصل إلى حقائق أنتفع بها، يقول تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ . . . ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر]، اللّه سبحانه وتعالى ذكر الجماد وذكر النبات، وذكر الحيوان والإنسان، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨]، العلماء في ماذا ؟ فيما يتعلق بخلق اللّه من الجماد والحيوان والنبات والإنسان؛ ولذلك جاء اللّه سبحانه وتعالى بالمتناقضات الموجودة في النوع الواحد، لو أنه جنس واحد لما وجد فيه متناقضات، إنما قال سبحانه وتعالى: ﴿ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ﴾، كان يجب أن نلتفت إليها، ولماذا اختلفت ألوانها ؟ وما هي العلاقة بين الألوان والطبيعة ؟ وقد عرفنا من العلم الحديث حينما يتغذى النبات أنه يتغذى بواسطة خاصية الأنابيب الشعرية، وهنا نقف قليلًا للتأمل، هل هذه الأنابيب الشعرية تستطيع التمييز ؟ إذا جئنا بالأنابيب الشعرية نجد أن الماء قد صعد في مستوى أعلى من مستوى الإناء، ولكن هل كل أنبوبة ميزت عنصراً أخذته؟ أم أن كل أنبوبة أخذت من جميع العناصر وهي مذابة ؟!

النبات ليس هكذا !! إنني أزرع الحنظل بجانب القصب، فيخرج هذا حلواً وهذا مراً، هذا يأخذ عناصره، وهذا يأخذ عناصره من نفس التربة.

قال اللّه سبحانه تعالى: ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ ﴾ [الرعد: ٤].

إذن . . هناك اختيار، ومن هنا ظهر ما سمّي بخاصية الانتخاب، الانتخاب معناه: الاختيار بين بديلات، أي: أنك تترك هذا وتأخذ هذا؛ لكن خاصية الأنابيب الشعرية تتعامل مع السائل كله، بلا تمييز ومن هنا نعرف أن الخاصية شيء، واختيار النبات للعناصر الغذائية التي يريدها أو يحتاج إليها شيء آخر.

من الذي علمه وهداه قولوا: لا إله إلا اللّه تفلحوا.

❁ ❁ ❁

تحدِّي القرآن للمشركين

السؤال: هل تتفضل فضيلتكم ببيان معنى أن القرآن تحدى العرب وغير العرب وقهرهم ؟

الجواب: في زمن نزول القرآن كانت هناك إمبراطوريتان كبيرتان، هما الروم والفرس، الروم أمة أهل كتاب، ولكنهم لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ، والفرس كانوا أهل كفر وإلحاد في ذلك الوقت، لا يؤمنون بدين، وليس عندهم كتاب.

إذن.. فأيهما أقرب إلى قلب المؤمنين، بالطبع الروم باعتبارهم أهل كتاب. وكان بالتالي كفرة العرب ومشركيهم أقرب للفرس ولا عجب فالكفر كله ملة واحدة. ولما نشبت الحرب بين الدولتين، هُزِم الروم وانتصر الفرس، وهنا فرح المشركون لأن الكفر قد انتصر، وحزن المؤمنون، لأن أهل كتاب قد هزموا، وكان حزنهم للّه تعالى، فأنزل اللّه قوله الكريم: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ ﴾ [الروم].

وكان هذا عجيباً، أيستطيع محمد ﷺ أن يتنبأ بنتيجة معركة ستحدث بين الروم والفرس بعد بضع سنين، هل يستطيع قائد أن يتنبأ بمصير معركة عسكرية بعد ساعة واحدة من قيامها ؟ فما بالك بنتيجة معركة تحدث بعد بضع سنين، وكان جدلًا بين المؤمنين والكافرين، ووصل الأمر بأبي بكر رضي اللّه تعالى عنه، أنه راهن على صحة ما جاء به القرآن.

إذن.. فقد أصبحت قضية إيمانية كبرى، هذا هو القرآن، كلام اللّه، وأساس الإيمان كله، يخبر بحقيقة أرضية قريبة ستحدث لغير العرب، ويقول الكفار: إن القرآن كاذب، ويقول المؤمنون: إن هذا صدق، ويحدث رهان بين الاثنين.

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنه لم تحدث معركة بين الروم والفرس، أو لو أنه حدثت معركة وهُزم فيها الروم أكان بعد ذلك يصدق أي إنسان القرآن أو يؤمن

بالدين الجديد، ثم إذا كان القرآن من عند محمد فما الذي يجعله يدخل في قضية غيبية كهذه، لم يطلب منه أحد الدخول فيها، أيجازف بكل ما صنعه من أجل مخاطرة لم يطلبها أحد، ولم يتحداه فيها إنسان ؟

ولكن القائل هو اللَّه، وليس محمد، والفاعل هو اللَّه، وليس محمد. ومن هنا كان هذا الأمر الذي نزل في القرآن يقيناً سيحدث، لأن قائله ليس عنده حجاب الزمان وحجاب المكان، ولا أي حجاب وهو الذي يقول ما يفعل، حدثت الحرب، وانتصر الروم على الفرس، وصدق اللَّه العظيم، وصدق رسوله الكريم ﷺ.

وهكذا تحدى القرآن الكفار وقت نزوله، أي أنه لم يتحد العرب وحدهم، بل تحدى الكفار من غير العرب، بأن أنبأهم بما سيحدث لهم قبل أن يحدث بسبع أو ثماني سنوات، تحداهم بهذا علهم يؤمنون حال حدوث ما تنبأ به؛ ولكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

إذا انتبهنا إلى هذا نكون قد أثبتنا أن القرآن تحدى العرب وغير العرب في وقت نزوله، ولكننا قلنا إن القرآن ليس له زمان، وليس له مكان، وأنه سيظل ما شاء اللَّه أن يظل.



بلاغة القرآن

السؤال: من أُسُس البلاغة أن يكون الكلام مطابقاً لمقتضى الحال ، فما هي بلاغة القرآن ؟

الجواب: إذا كان أول شروط البلاغة هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فإننا نجد أن القرآن في هذه الناحية قد فاق كل شروط البلاغة في أنه مطابق لكل أحوال البشر على اختلاف ظروفهم؛ ولذلك تحير الكفار في هذا الإعجاز في مخاطبة البشر جميعاً، وفي هذا الإعجاز الذي تهتز له قلوب كل من يسمعه ويفهمه، فقالوا: ساحر، سحر الناس بكلامه؛ لأنه لا يمكن لبشر عادي أياً كان أن يأتي بكلام يطابق كل الأحوال، ولو أخذنا أبلغ بلغاء العصر، وقلت له: انظم قصيدة، أو أعد كلاماً لتلقيه أمام الناس، فهو لا يستطيع أن يعد كلاماً يقوله أمام مجموعة من غير المتعلمين، ويكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال، ولا أن يعد قصيدة يمدح بها أميراً، ثم يقول نفس القصيدة في خادم الأمير، ويكون الكلام مطابقاً لمقتضى الحال، ولكنهم وجدوا أن القرآن يخاطب المتعلم وغيره، والعبد والسيد، والرجل العادي والحاكم، ومن هنا كانت المطابقة معجزة، فقالوا: ساحر، فليأتوا بسحر مثله، ثم هل للمسحور خيار أو إرادة مع الساحر؟ إذا كان محمد ﷺ قد سحر من آمن به، فلماذا لم يسحركم أنتم؟ إن بقاءكم على الكفر ومحاربة الدين دليل على أنه ليس ساحراً، وإلا لو كان ساحراً لكان قد سحركم جميعاً، وَلِمَ يسلب بعض الناس إرادتهم ويترك البعض الآخر على إرادتهم ؟

إن إعجاز القرآن يأتي في أنه يحيط بالحالات النفسية للمخاطبين جميعاً، الغني منهم والفقير، التعيس منهم والسعيد، الخادم منهم والسيد، إنه يخاطبهم جميعاً، ويخاطبهم في حالاتهم النفسيه كلها، فالإنسان الغاضب إذا سمع القرآن هدأت نفسه، والإنسان السعيد إذا سمع القرآن اهتز في داخل نفسه وزادت سعادته، والأمير، والخادم، والمثقف، وغير المتعلم، وهؤلاء جميعاً الذين لا يمكن أن يجتمعوا على أي مستوى، ولا تتوحد عقلياتهم، بحيث يكلمهم متحدث واحد،

وفي نفس الموضوع فيفهمونه، تراهم في الصلاة، وقد اجتمعوا في المسجد، وجلسوا معاً، ويتلى القرآن فيهز قلوبهم جميعا، رغم اختلاف الثقافة والبيئة والحالة النفسية، والحالة الاجتماعية، وكل شيء اختلافاً بيناً، ومن هنا كان الإعجاز الأول في بلاغة القرآن، أنه يحيط بعلم حالات أفراد متعددين من أجناس مختلفة، وشعوب مختلفة، ثم يخاطبهم بما يهز وجدانهم ومشاعرهم، ويؤثر في عواطفهم، فإذا سألت أحدهم ما الذي أعجبك في القرآن ؟ فإنه غالباً لا يستطيع أن يعطيك جواباً شافياً، وإنما سيعطيك كل واحد منهم جواباً مختلفاً، وذلك يدل على أن الإعجاز وصل إلى قلبه، متغلغلاً في نفسه؛ بما لا يستطيع هو أن يصفه الوصف الكامل.

القرآن نظم فريد، لا تستطيع أن تقول إنه نثر ولا شعر ولا سجع، وإنما هو كلام فريد عظمته من عظمة من هو كلامه سبحانه وتعالى.

إذن . . فبلاغة القرآن في مطابقته للحال، حال جميع المخاطبين، وبلاغته في الانتقال من الشعر إلى النثر، ومن النثر إلى الشعر دون أن تحس، وبلاغته في تحريك النفس البشرية، وبلاغته في أن اللّه تحدى بسطوره البلاغة، بل تحدى الإنس والجن في أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا وأمام هذا العجز لم يستطيعوا المواجهة التي يريدون أن يقوموا بها ضد الدين الجديد، لم يستطيعوا أن يحولوا هذه المواجهة، لأن التحدي كان أقوى منهم جميعا، فإذا بهم ينزلون ذلك على من جاءت على يديه المعجزة وهو محمد ﷺ قالوا: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١].

وهنا مربط الفرس، الحقد والغيرة والحسد لم يستطيعوا أن يواجهوا القرآن، فقالوا لماذا اختار اللّه محمداً لينزل عليه القرآن ؟ كأنما آفة القرآن أنه نزل على محمد عليه الصلاة والسلام، وليست آفته صراع بين حق ينادي به القرآن، وباطل هم مقيمون عليه.

❁ ❁ ❁

سر إعجاز القرآن

السؤال: هل القرآن تضمن حروفاً وألفاظاً غير التي يستخدمها العرب، وما هو سر إعجازه ؟

الجواب : من معجزات القرآن أنه نزل بلغة العرب مكوّناً من نفس الحروف والألفاظ التي يستخدمها العرب، ولكن بأسلوب وبيان يعجز عنها البشر، وهذا إعجاز وتحد؛ لأنك إذا أردت أن تدلل على مهارة الصانع في أي شيء، فأنت لا تأتي بمادة مختلفة، ثم تقارن بين صانع وآخر.

فإذا أردت مثلًا أن تعرف من هو أمهر الناس في صناعة النسيج، لا تأتي بخامة من حرير وخامة من قطن، وخامة من صوف، ثم تعطيها لثلاثة صناع وتقارن بين إنتاجهم، لأنك في هذه الحالة لا تستطيع أبداً أن تقول إن هذا أحسن من هذا؛ لأن المادة الخام غير واحدة.

ولكن المهارة تكون في استخدام مادة واحدة، نعطي الكل قطناً أو حريراً أو صوفاً، ولذلك تكون العناصر المكونة للشيء واحدة، أو متساوية، فلا يكون لها دخل في الجودة، وتكون الجودة أو المهارة للصانع نفسه، فأراد اللّه سبحانه وتعالى، أن يثبت أن القرآن الذي نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين، إنما نزل بلسان عربي مبين، بمعنى: أنه مكون من الحروف والكلمات التي يستخدمها العرب في خطابهم، ولكن قائله هو اللّه سبحانه وتعالى، وهذا سر إعجازه أنه كلام اللّه تعالى، والفرق بين كلام اللّه تعالى، وكلام البشر هو الفرق بين اللّه تعالى وبين البشر.

* * *

من نبوءات القرآن في عصر الرسول

السؤال: هل تنبأ القرآن بأحداث معاصرة للرسول، كما تنبأ بأحداث جاءت بعد ذلك بقرون ؟

الجواب: تروي لنا كتب التفسير أن الوليد بن المغيرة وهو العدو الألد للإسلام، والمشهور بكبريائه ومكابرته وعناده، أنزل اللَّه في حقه قوله تعالى: ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾[1] [القلم: ١٦] أي سيقتل بضربة على أنفه، ثم بعد ذلك يأتي في بدر فتراه قد وسم على خرطومه ، أي ضرب على أنفه، من الذي يستطيع أن يحدد موقع الضربة ومكانها؟، من الذي يستطيع أن يجزم ماذا سيحدث بعد ساعة واحدة ؟ ولكن لأن اللَّه هو القائل فكان ولا بد أن يصدق وعيده.

وفي آية أخرى، يقول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ

---

(١) قال ابن كثير في تأويل قوله تعالى: ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾: قال ابن جرير سنبين أمره بياناً واضحاً حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم كما لا تخفى عليهم السمة على الخراطيم، وهكذا قال قتادة: ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ شين لا يفارقه آخر ما عليه، وفي رواية عنه سنسمه سيماً على أنفه، وكذا قال السدي وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ يقاتل يوم بدر فيخطم بالسيف في القتال، وقال آخرون ﴿ سَنَسِمُهُۥ ﴾ سمة أهل النار يعني نسود وجهه يوم القيامة، وعبر عن الوجه بالخرطوم، وحكى ذلك كله أبو جعفر بن جرير ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه في الدنيا والآخرة وهو متجه.

وقد قال ابن أبي حاتم في سورة: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، حدثني الليث، حدثني خالد بن سعيد عن عبد المالك بن عبد اللَّه، عن عيسى ابن هلال الصدفي عن عبد اللَّه بن عمرو، عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: « إن العبد يكتب مؤمناً أحقاباً ثم أحقاباً ثم يموت واللَّه عليه ساخط، وإن العبد يكتب كافراً أحقاباً ثم أحقاباً ثم يموت واللَّه عليه راض، ومن مات همازاً لمازاً ملقباً للناس كان علامته يوم القيامة أن يسمه اللَّه على الخرطوم من كلا الشفتين ».

تفسير ابن كثير [٤/ ٤٠٥-٤٠٦].

أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾ ﴾(١) [المسد].

---

(١) قال ابن كثير: قال البخاري(١): حدثنا محمد بن سلام حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي اللّه عنهما، أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش فقال: « أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني ؟ » قالوا: نعم، قال: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦]، فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا. تباً لك. فأنزل اللّه: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ إلى آخرها.

وفي رواية فقام ينفض يديه وهو يقول تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا. فأنزل اللّه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١] الأول دعاء عليه، والثاني خبر عنه، فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول اللّه ﷺ واسمه عبد العزى بن عبد المطلب وكنيته أبو عتبة، وإنما سمّي أبا لهب لإشراق وجهه، وكان كثير الأذية لرسول اللّه ﷺ، والبغضة له والإزدراء به والتنقص له ولدينه.

قال الإمام أحمد حدثنا إبراهيم بن أبي العباس، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال أخبرني رجل يقال له ربيعة بن عباد من بني الديل، وكان جاهلياً فأسلم قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا اللّه تفلحوا » والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب فسألت عنه فقالوا هذا عمه أبو لهب.

ثم رواه عن شريح عن ابن أبي الزناد عن أبيه فذكره قال أبو الزناد: قلت لربيعة: كنت يومئذ صغيراً ؟ قال لا واللّه إني يومئذ لأعقل أني أزفر القربة، تفرد به أحمد.

وقال محمد بن إسحاق حدثني حسين بن عبد اللّه بن عبيد اللّه بن عباس قال: سمعت ربيعة بن عباد الديلي يقول: إني لمع أبي رجل شاب أنظر إلى رسول اللّه ﷺ يتبع القبائل ووراءه رجل أحول، وضيء الوجه ذو جمة يقف رسول اللّه ﷺ على القبيلة فيقول: « يا بني فلان إني رسول اللّه إليكم آمركم أن تعبدوا اللّه لا تشركوا به شيئاً وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن اللّه ما بعثني به »، وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه يا بني فلان هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تسمعوا له ولا تتبعوه فقلت لأبي من هذا ؟ قال عمه أبو لهب. رواه أحمد أيضاً والطبراني بهذا اللفظ.

فقوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١] أي: خسر وخاب وضل عمله وسعيه، ﴿ وَتَبَّ ﴾ أي وقد تب تحقق خسارته وهلاكه. =

---

(١) أخرجه البخاري [٤٩٧١].

هذه الآيات نزلت في أبي لهب، وكان أبو لهب يستطيع أن يحارب الإسلام

= وقوله تعالى: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ قال ابن عباس وغيره: ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ يعني ولده.

وروي عن عائشة ومجاهد وعطاء والحسن وابن سيرين مثله، وذكر عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان قال أبو لهب إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي، فأنزل الله تعالى: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أي: ذات شرر ولهب وإحراق شديد.

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴾ وكانت زوجته من سادات نساء قريش وهي أم جميل واسمها أروى بنت حرب بن أُمية وهي أخت أبي سفيان، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم، ولهذا قال تعالى: ﴿ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ، فِي جِيدِهَا حَبۡلٌ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ يعني تحمل الحطب فتلقي على زوجها ليزداد على ما هو فيه وهي مهيأة لذلك مستعدة له.

﴿ فِي جِيدِهَا حَبۡلٌ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ قال مجاهد وعروة عن مسد النار، وعن مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والثوري والسدي ﴿ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴾كانت تمشي بالنميمة، واختاره ابن جرير.

وقال العوفي عن ابن عباس وعطية الجدلي والضحاك وابن زيد: كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ.

قال ابن جرير: كانت تعير النبي ﷺ بالفقر، وكانت تحتطب فعيرت بذلك، كذا حكاه ولم يعزه إلى أحد، والصحيح الأول والله أعلم.

قال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة فقالت لأنفقنها في عداوة محمد يعني فأعقبها الله منها حبلًا في جيدها من مسد النار.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن سليم مولى الشعبي عن الشعبي قال: المسد الليف، وقال عروة بن الزبير: المسد سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً، وعن الثوري: هو قلادة من نار طولها سبعون ذراعاً. وقال الجوهري المسد الليف، والمسد أيضاً حبل من ليف أو خوص، وقد يكون من جلود الإبل أو أوبارها، ومسدت الحبل أمسده مسداً إذا أجدت فتله.

وقال مجاهد: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبۡلٌ مِّن مَّسَدِۭ ﴾ أي طوق من حديد ألا ترى أن العرب يسمون البكرة مسداً ؟

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي وأبو زرعة قالا حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدي حدثنا سفيان حدثنا الوليد بن كثير عن أبي بدرس عن أسماء بنت أبي بكر قالت لما نزلت: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي =

بهذه الآية ؟ ويستطيع أن يستخدمها كسلاح ضد المسلمين، بل ضد هذا الدين،

= يدها فهر وهي تقول:

مذمماً أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا.

ورسول اللّه ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول اللّه قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك. فقال رسول اللّه ﷺ: « إنها لن تراني » وقرأ قرآناً اعتصم به كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥] فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول اللّه ﷺ فقالت يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني، قال: لا ورب هذا البيت ما هجاك. فولت وهي تقول قد علمت قريش أني ابنة سيدها. قال: وقال الوليد في حديثه أو غيره: فعثرت أم جميل في مرطها وهي تطوف بالبيت فقالت تعس مذمم، فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب إني لحصان فما أكلم، وثقاف فما أعلم، وكلتانا من بني العم، وقريش بعد أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا إبراهيم بن سعيد وأحمد بن إسحاق قالا حدثنا أبو أحمد حدثنا عبد السلام بن حرب عن عذاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ جاءت امرأة أبي لهب ورسول اللّه ﷺ جالس ومعه أبو بكر فقال له أبو بكر: لو تنحيت لا تؤذيك بشيء، فقال رسول اللّه ﷺ: « إنه سيحال بيني وبينها » فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر فقالت يا أبا بكر هجانا صاحبك. فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به، فقالت: إنك لمصدق، فلما ولت قال أبو بكر: ما رأتك ؟ قال: « لا ما زال ملك يسترني حتى ولت »، ثم قال البزار لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد عن أبي بكر رضي اللّه تعالى عنه.

وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أي في عنقها حبل في نار جهنم ترفع به إلى شفيرها ثم ترمى إلى أسفلها ثم كذلك دائماً، قال أبو الخطاب بن دحية في كتابه التنوير، وقد روى ذلك وعبر بالمسد عن حبل الدلو كما قال أبو حنيفة الدينوري في كتاب النبات كل مسد رشاء وأنشد في ذلك:

وبكرة ومحوراً صراراً ومسداً من أبق مغاراً

قال والأبق القنب. وقال آخر:

يا مسد الخوص تعوذ مني إن تك لدنا لينا فإني

ما شئت من أشمط مقسئن

قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة، ودليل واضح على النبوة فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المسد] فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لم يقيض لهما أن يؤمنا ولا واحد منهما لا باطناً ولا ظاهراً، لا مسراً ولا معلناً فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة الباطنة على النبوة الظاهرة.

تفسير ابن كثير [٤/ ٥٦٨-٥٧٠].

فالمعنى: أن أبا لهب سيموت كافراً، سيموت مشركاً، وسيعذب في النار، وكان يكفي أن يذهب أبو لهب إلى أي جماعة من المسلمين ويقول: أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمداً رسول اللّه، يقولها ولو نفاقاً ورياء، يقولها ليهدم بها الإسلام، لا ليدخل في الإسلام، يقولها ثم يقف وسط القوم يقول: إن محمداً قد أنبأكم أنني سأموت كافراً، وقال: إن هذا كلام مبلغ له من اللّه، وأنا أعلن إسلامي لأثبت لكم أن محمداً كاذب، لو كان أبو لهب يملك ذرة واحدة من الذكاء لفعل هذا، ولكن حتى التفكير لم يجرؤ عقل أبي لهب على الوصول إليه، بل بقي مشركا، مات وهو كافر، ولم يكن التنبؤ بأن أبا لهب سيموت كافراً أمراً ممكناً، لأن كثيراً من المشركين اهتدوا إلى الإسلام كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعمر بن الخطاب وغيرهم، كانوا مشركين وأسلموا، فكيف أمكن التنبؤ بأن أبا لهب بالذات لن يسلم ولو نفاقاً، وسيموت وهو كافر، المعجزة هنا أن القرآن قد أخبر بما سيقع من عدو وتحداه في أمر اختياري كان من الممكن أن يقوله، ولكن الذي قال هذا القرآن يعلم أنه لن يأتي إلى عقل أبي لهب تفكير يكذب به القرآن، هل هناك إعجاز أكثر من هذا؟



ومِنْ نبوءات القرآن
انتصار الروم على الفرس

السؤال: لقد جاء القرآن بحقائق كانت وقت نزوله غيباً ثم عرفت من بعد، نود من فضيلتكم أن تذكر لنا بعض هذه الحقائق !

الجواب: الأمثلة على هذا كثيرة، والمجال لا يتسع لها كلها؛ ولكني سأحاول أن أضرب مثلًا واحداً فيما يختص بالإعجاز في عصر القرآن لغير العرب، فقد كانت هناك أمتان كبيرتان، إمبراطوريتان بجانب الجزيرة العربية، هما: الروم والفرس.

الروم: أهل كتاب، لا يصدقون برسالة محمد ﷺ إلا أن عندهم إيماناً بوجود اللّه، والقيم السماوية.

والفرس: كانوا أهل كفر وإلحاد في ذلك الوقت، لا يؤمنون بأي دين من الأديان.

إذن.. فأيهما أقرب إلى قلوب المؤمنين؟ بالطبع الروم، باعتبارهم أهل كتاب، وأيهما أبعد عن قلوب المؤمنين؟ بالقطع الفرس، باعتبارهم مشركين وكفرة، ولما قامت الحرب بين الدولتين، وهُزم الروم وانتصر الفرس، فرح المشركون؛ لأن الكفر قد انتصر، وحزن المؤمنون؛ لأن أصحاب كتاب سماوي قد هزموا.

هنا.. أزال اللّه سبحانه وتعالى عن أنفس المؤمنين هذا الحزن، فقال سبحانه: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾[1] [الروم].

❁ ❁ ❁

---

(١) قال المهيمي: سميت بها لاشتمال قصتها على معجزة تفيد للمؤمنين فرحاً عظيماً، بعد ترح يسير، فتبطل شماتة أعدائهم، وتدل على أن عاقبة الأمر لهم، وهذا من أعظم مقاصد القرآن.

تفسير القاسمي: [١٣/ ٤٧٦٤].

الحقائق الكونية في القرآن الكريم

السؤال: لقد جاء القرآن بحقائق كونية لم يعرفها العلماء إلا في العصر الحديث، نود من فضيلتكم أن تذكر لنا بعض هذه الحقائق !

الجواب: من بين هذه الحقائق ما ذكره القرآن عن مواضع الحس، فهو يشرحها على أحسن ما يكون، فعندما يتحدث مثلًا عن الكفار الذين يُعذَّبون في النار، يقول اللّه سبحانه في سورة النساء: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦].

أي: أن اللّه سبحانه وتعالى قد أخبرنا عن الحكمة من تبديل الجلد أو تغييره أثناء العذاب في النار وهي: ﴿ لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾.

إذن.. فالإذاقة حسب ما ورد في الآية محلها الجلد.

ثم تأتي الحقيقة العلمية التي تؤكد لنا أن كل أعصاب الإحساس موجودة تحت الجلد مباشرة، وأن هذه الأعصاب التي تشعر بالألم، وتجعل الإنسان يحس به وتنقله إلى المخ؛ مكانها تحت الجلد مباشرة.

إذن.. قول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ إعلان لحقيقة كونية كانت غير معروفة عند الناس، وأكدها العلم الحديث وهي: أن الإحساس يتم بأعصاب موجودة تحت الجلد مباشرة، وأن اللّه كلما أراد أن يذيق الكفار العذاب بدل جلودهم التي احترقت وماتت فيها أعصاب الإحساس بجلود سليمة لم تحترق؛ والعلة: ﴿ لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾[1] مرات ومرات متصلة ومتواصلة.

---

(١) قال ابن كثير: قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٥٦].
يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته، وصد عن رسله، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ الآية، أي: ندخلهم فيها دخولًا يحيط بجميع أجرامهم وأجزائهم. ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم فقال: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾.
قال الأعمش عن ابن عمر: إذا أحرقت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها بيضاء أمثال القراطيس. رواه ابن أبي حاتم.
=

فحينما يأتي علماء الطب ليقولوا لنا: إن أعصاب الجسم تحت الجلد مباشرة، نقول: إن اللّه سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهذه الحقيقة في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً، وآمنا بها وصدقناها من قبل أن تكتشفوها.

= وقال يحيى بن يزيد الحضرمي أنه بلغه في الآية: قال يجعل للكافر مائة جلد بين كل جلدين لون من العذاب. رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي، حدثنا عليّ بن محمد الطنافسي، حدثنا حسين الجعفي عن زائدة عن هشام عن الحسن قوله: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم ﴾ قيل لهم: عودوا فعادوا.

وقال أيضاً ذكر عن هشام بن عمار حدثنا سعيد بن يحيى - يعني سعدان - حدثنا نافع مولى يوسف السلمي البصري عن نافع عن ابن عمر قال: قرأ رجل عند عمر هذه الآية: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ فقال عمر: أعدها عليّ، فأعادها، فقال معاذ ابن جبل: عندي تفسيرها تبدل في ساعة مائة مرة. فقال عمر: هكذا سمعت رسول اللّه ﷺ. وقد رواه ابن مرويه عن محمد بن أحمد بن إبراهيم عن عبدان بن محمد المروزي عن هشام بن عمار به، ورواه من وجه آخر بلفظ آخر فقال: حدثنا محمد بن إسحاق عن عمران حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحرث حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا نافع أبو هرمز حدثنا نافع عن ابن عمر قال: تلا رجل عند عُمَر هذه الآية: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم ﴾ الآية قال: فقال عمر: أعدها عليّ وثَمّ كعب فقال يا أمير المؤمنين أنا عندي تفسير هذه الآية قرأتها قبل الإسلام قال: فقال: هاتها يا كعب فإن جئت بها كما سمعت من رسول اللّه ﷺ صدقناك وإلا لم ننظر إليها.

فقال: إني قرأتها قبل الإسلام « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها في الساعة الواحدة عشرين ومائة مرة ».

فقال عمر: هكذا سمعت من رسول اللّه ﷺ.

وقال الربيع بن أنس: مكتوب في الكتاب الأول أن جلد أحدهم أربعون ذراعاً وسنه سبعون ذراعاً وبطنه لو وضع فيه جبل لوسعه، فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلوداً غيرها.

وقد ورد في الحديث ما هو أبلغ من هذا، فقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا أبو يحيى الطويل عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «يعظم أهل النار في النار حتى أن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً، وإن ضرسه مثل أُحد» تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقيل: المراد بقوله: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم ﴾ أي سرابيلهم. حكاه ابن جرير وهو ضعيف لأنه خلاف الظاهر.

تفسير ابن كثير [١/ ٤٨٧].

قلت: وانظر فتوى: « جلد الإنسان وإذاقته للعذاب » بعد صفحات ففيها كلام نفيس للشيخ الإمام، وشرح لطيف للإمام المفسر أبي حيان والعلامة القرطبي.

قدرة اللّه تعالى . . والمخترعات الحديثة

السؤال: يقولون: الإنسان استطاع بعقله أن يخترع العلوم الحديثة، فهل هذا صحيح؟ أم أن خصائص هذه المخترعات كانت موجودة واكتشفها الإنسان فقط ؟

الجواب: إذا جلست أنا وأنت في حجرة، سألتك هل ترى شيئاً ؟ قلت: لا، ثم قمت وأدرت جهاز التليفاز وجدت صورة أمامك، من أين جاءت هذه الصورة ؟ من محطة الإرسال. وهل أصل هذه الصورة موجود في الحجرة ؟ نعم موجود ولكن على شيء لا تدركه عيني، فإذا جئت بجهاز يحول الصورة إلى قدرة العين رأيتها، والدليل على ذلك أنني كلما أدرت التليفاز فالصورة موجودة، وإذا أقفلته تختفي، والإرسال مستمر.

إذن. . فالصورة موجودة طيلة فترة الإرسال، ولكنني لا أراها إلا إذا أدرت التليفاز، والتليفاز يعتمد على خصائص في الكون خلقها اللّه سبحانه وتعالى، عندما خلق هذا الكون، لكنها كانت فوق قدرة إدراك الإنسان، فلما جاء موعد ميلاد هذا العلم للبشر، سخر اللّه وهو القادر سبحانه من الإمكانيات ما يجعل الإنسان قادراً على اكتشافه، وهكذا استطاع الإنسان أن يرى بأجهزة وسيطة ما يجري في الكون، بعيداً عنه عشرات الألوف من الأميال، ولو أنك تحدثت عن هذا في الماضي لاتهمك الناس بالجنون، ولكن الناس الآن يستطيعون رؤية ما يحدث فوق سطح القمر، وهم جالسون في منازلهم، ويعتبرون هذا شيئاً عادياً، لماذا ؟ لأنه بعد أن كان فوق قدرة البصر، دخل في هذه القدرة، بعلم كشفه اللّه سبحانه للناس. ولكل علم في الأرض ميلاد، أو موعد يولد فيه، فالإنسان لم يخترع الخصائص التي مكنته من أن يرى ما يحدث على بعد ألوف الأميال من مكانه، وأن يراه رؤية عين.

وعلينا أن نعلم أن هذه الخصائص كانت موجودة ولكن فوق قدرة البصر، ولعل أبسط دليل على ذلك، هو نقطة الدم، أو نقطة الماء، إذا نظرت إليها بعينك المجردة، قلت: لا شيء فيها، فإذا وضعتها تحت الميكرسكوب، ظهرت لك فيها أشياء وأشياء.

* * *

محاولات ربط القرآن بالنظريات العلمية

السؤال: بعض العلماء يحاولون في تحمسهم الديني أن يربطوا بين الآيات العلمية في القرآن وبين النظريات العلمية الحديثة، فما مدى صحة أو خطأ هذا الربط به؟

الجواب: إن محاولة ربط القرآن بالنظريات العلمية أخطر ما نواجهه، ذلك أن بعض العلماء في اندفاعهم في التفسير، وفي محاولاتهم ربط القرآن بالتقدم العلمي، يندفعون في محاولة ربط كلام اللّٰه بنظريات علمية مكتشفة، قد يَثْبُتُ بعد ذلك أنها غير صحيحة، وهم في اندفاعهم هذا يتخذون خطوات متسرعة، ويحاولون إثبات القرآن بالعلم، والقرآن ليس في حاجة إلى العلم ليثبت؛ فالقرآن ليس كتاب عِلْم بالمعنى الدارج الآن، ولكنه كتاب عبادة ومنهج، واللّٰه سبحانه وتعالى يعلم أنه بعدَ عدة قرون من نزول هذا الكتاب الكريم، سيأتي عدد من الناس ويقولون: انتهى عصر الإيمان، وبدأ عصر العلم، ولذلك وضع في قرآنه ما يُعْجِز هؤلاء الناس، ويثبت أن عصر العلم الذي يتحدثون عنه قد بينه القرآن في صورة حقائق الكون، بينه كحقائق كونية منذ أربعة عشر قرناً، ولم يكتشف العقل البشري معناها إلا في السنوات الماضية، وليس معنى هذا أن نحمل القرآن أكثر مما يحتمل، وأن نتعامل معه على أساس أنه كتاب جاء ينبئنا بنظريات وعلوم، فالقرآن لم يأت ليعطينا أسرار علم الهندسة أو علم الفلك أو علم الفضاء، إلى آخر هذا، ولكن اللّٰه سبحانه وتعالى وضع في كتابه الكريم ما يمكن أن نرد به على الذين يحاربون هذا الدين حتى يوم القيامة، ومن هنا فإن آيات الكون الكبرى التي أنبأنا اللّٰه بها في القرآن الكريم، والتي نعرف بعضها، وبعضها لم يكشف النقاب عنه بعد، إنما جاءت للتحدي ولإثبات أن خالق الكون هو منزل الكتاب،

وصدق اللّٰه العظيم: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1] [فصلت: ٥٣]. أرادنا اللّٰه

---

(١) قال ابن كثير في تأويل قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي سنظهر لهم دلالتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند اللّٰه على رسول اللّٰه =

سبحانه وتعالى أن نُفْحِمَ بها أولئك الذين يقولون: انتهى عصر الإيمان، وبدأ عصر العلم، وأن يلفتنا سبحانه إلى أن العلم الذي يحاول بعض المضللين أن يتخذوه إلٰها جديداً هو من علمه ومن خلقه، فلا تعبدوا المخلوق، وتتركوا الخالق.

إذن.. لا يجب أن نتخذ العلم دليلًا على صحة القرآن، بل إن القرآن هو الدليل الحقيقي على صحة أو عدم صحة العلم، فالعلم الذي يتناقض مع القرآن الكريم هو علم كاذب وغير صحيح.

❁ ❁ ❁

= صلى اللّٰه عليه وآله وسلم بدلائل خارجية.

﴿ فِي ٱلْآفَاقِ ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان قال مجاهد والحسن والسدي: دلائل في أنفسهم، قالوا: وقعة بدر، وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم، نصر اللّٰه فيها محمداً ﷺ وصحبه وخذل فيها الباطل وحزبه.

ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة من حسن وقبح وغير ذلك وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله وحذره أن يجوزها ولا يتعداها كما أنشده ابن أبي الدنيا في كتابه التفكر والاعتبار عن شيخه أبي جعفر القرشي حيث قال وأحسن المقال:

وإذا نظرت تريد معتبراً ... فانظر إليك فقيك معتبر
أنت الذي تمسي وتصبح في ... الدنيا وكل أموره عبر
أنت المصرف كان في صغر ... ثم استقل بشخصك الكبر
أنت الذي تنعاه خلقته ... ينعاه منه الشعر والبشر
أنت الذي تعطي وتسلب لا ... ينجيه من أن يسلب الحذر
أنت الذي لا شيء منه له ... وأحق منه بما له القدر

وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي: كفى باللّٰه شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم وهو يشهد أن محمداً ﷺ صادق فيما أخبر به عنه كما قال ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٦] الآية.

ابن كثير [٤/١٠٦، ١٠٧].

القرآن ونظريات العلم الحديث

السؤال: هل يجوز الربط بين حقائق القرآن الكريم ونظريات العلم الحديث ؟

الجواب: عندما نتحدث عن معاني القرآن الكريم؛ فإننا في كثير من الأحيان يجب أن نتنبه إلى الحكمة من بعض الآيات التي نقرأها، ذلك أننا نمر أحياناً على أشياء دون أن نتنبه إلى المعنى الذي وضعه اللّه سبحانه وتعالى فيها، وأمرنا بأن نتدبره ونتأمله.

على أن ذلك لا يعني أن نحاول تحميل القرآن أكثر من معانيه، وبعض العلماء، اندفاعاً مع العصر، أو محاولة في إثبات إعجاز القرآن، يقومون بربط بعض النظريات العلمية التي تذاع أو التي تبهر الناس، ببعض آيات القرآن الكريم.

والخطورة هنا أن النظرية العلمية تحتمل الخطأ والصواب، فماذا يمكن أن يحدث إذا حملنا آيات القرآن ببعض النظريات، ثم تبين بعد ذلك أن هذه النظريات غير صحيحة ؟ ماذا يكون الموقف ؟ إن الحماس لا يجب أن يأخذنا إلى الحد الذي نحاول فيه أن نجد في القرآن الكريم ما يتوافق مع نظريات العلم الحديث.

والذي أحب أن أبينه أن القرآن الكريم كتاب دين وليس كتاب نظريات، بمعنى أنه لا يشرح لنا نظريات الهندسة، أو قوانين الطب أو غير ذلك، بل إن اللّه سبحانه وتعالى في أول كتابه العزيز قد حدد الهدف من إنزال القرآن الكريم، وهو أنه منهاج حياة لمن آمن باللّه تعالى يبصر بصراط اللّه المستقيم ويرشد إلى ما يجب على المؤمن اتباعه أمراً ونهياً، ويفتح أمامه الباب إلى الاجتهاد في الحياة الدنيا وتعلم ما به، يُعمر كون اللّه تعالى، وييسر حركة الحياة فيه وصولًا إلى الغاية التي من أجلها خلق اللّه تعالى الإنسان؛ وهي إفراده سبحانه وتعالى بالعبادة وحده وفق ماجاء به رسوله ﷺ، وقال في أول سورة البقرة: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [البقرة].

إذن.. في أول آيات سورة البقرة، حدد اللّه سبحانه وتعالى هدف هذا الكتاب وأنه هداية ومنهج حياة لمن آمن به سبحانه وتعالى.

عجز العقل أمام قدرة اللّٰه

السؤال: المكتشفات العلمية التي يصل إليها العلم الآن كانت تعتبر خيالًا بالنسبة للأجيال الماضية، ولكنها أصبحت حقائق ملموسة، ولعل فيها رداً على الذين كانوا يقيسون الأمور بالعقل، ولا يضعون في اعتبارهم أن قدرة اللّٰه لا تقاس بالعقل، ما رأي فضيلتكم في هذه القضية الخطيرة ؟

الجواب: إن اللّٰه سبحانه وتعالى قد خلق في الكون ما هو فوق قدرة العقل، وما هو فوق قدرة البصر، وما هو فوق قدرة السمع، منذ خلق الأرض ومن عليها، وهذا العلم الموجود في الأرض كان محجوباً عنا وخرج بالتدريج وفق مشيئة اللّٰه سبحانه وقدره ليدل على عظمة اللّٰه وقدرته؛ وليؤكد للناس، أن ما هو فوق قدرة العقل، وما هو فوق قدرة البصر، وما هو فوق قدرة السمع موجود، ولكننا لا نراه إلا بإذن اللّٰه وإرادته ولنناقش هذه المسائل الثلاث:

ما هو فوق قدرة العقل موجود منذ الأزل، فأن يطير الإنسان مثلًا في الهواء بطائرة، كان فوق قدرة العقل البشري، ولو أنك قلت منذ مائة سنة أو تزيد: إنك ستركب طائرة وتطير في الهواء، لاتهمك الناس بالجنون، وما صدقك أحد، ذلك أن هذا الحديث بالذات، كان فوق قدرة العقل البشري في تلك الفترة، ثم تقدم الزمن، وجاء موعد ميلاد هذا العلم للبشر فأذن اللّٰه بخروجه إلى علم الناس ودلهم عليه.

وتم اكتشاف الطيران، وأصبح بمقدور أي إنسان أن يذهب إلى المطار، ويركب الطائرة ويسافر إلى الجهة التي يريدها في العالم.

ولا تصادم بين العقل البشري، وبين العلم ولكن علينا أن نعلم أن لكل شيء ساعة ميلاد، فالغلاف الجوي المحيط بالكرة الأرضية لم يتغير، ولم يُدخل عليه الإنسان تعديلًا أو تبديلًا، وهو عاجز عن أن يفعل ذلك، وقوانين الريح هي الأخرى موجودة في الكون منذ الأزل لم تتغير، ولم تتبدل، ولا يستطيع بشر أن يغيرها، أو يبدلها، فالإنسان لم يضف شيئاً إلى الغلاف الجوي للأرض؛ بحيث نستطيع أن نقول إن العقل البشري غير غلاف الأرض، فجعل الطيران ممكناً، ذلك

أن هذا الغلاف كما هو، فلا إضافة للبشر هنا، ولكن ما الذي حدث ؟

الذي حدث أن اللَّه سبحانه وتعالى. كشف للإنسان من أسرار أو قوانين الغلاف الجوي والريح ومعادن الأرض، ما جعله يستطيع أن يصنع طائرة ويطير في الهواء.

إذن.. فإمكانية الطيران كانت موجودة في الكون منذ خلقه اللَّه تعالى، ولكنها كانت فوق قدرة العقل البشري؛ لذلك كانت مستحيلة، فلما كشفها اللَّه سبحانه وتعالى لعقل الإنسان أصبحت ممكنة.

وإذا جئنا إلى ما هو فوق قدرة البصر. فإن جلست أنا وأنت في حجرة، وسألتك: هل ترى شيئاً ؟ قلت: لا. ثم قمت بفتح جهاز التليفاز وجدت صورة أمامك، من أين جاءت هذه الصورة ؟ من محطة الإرسال، وهل هي موجودة في الحجرة ؟ نعم. على شيء لا تدركه العين، فإذا جئت بجهاز يحول هذا الإرسال إلى صورة في استطاعة العين البشرية رؤيتها رأيتها، والدليل على ذلك أنني كلما أدرت التليفاز فالصورة موجودة، وإذا أغلقته تختفي، والإرسال مستمر، إذن.. فالصورة موجودة طول فترة الإرسال، ولكني لا أراها إلا إذا قمت بفتح جهاز التليفاز.

والتليفاز يعتمد على خصائص في الكون خلقها اللَّه سبحانه وتعالى، عندما خلق هذا الكون، ولكنها كانت فوق قدرة عقل الإنسان، فلما جاء موعد ميلاد هذا العلم للبشر، أَذِنَ اللَّه له بالخروج وقال له: ﴿ كُن ﴾ فكان بمشيئة اللَّه تعالى وقدره، فاستطاع الإنسان أن يعرف أن عينه تستطيع بأجهزة وسيطة أن ترى ما هو في الكون، وإن كان بعيداً عنه عشرات الألوف من الأميال.

ولو أنك تحدثت عن هذا في الماضي لاتهمك الناس بالجنون، ولكن الناس الآن يستطيعون أن يروا ما يحدث فوق القمر، وهم جالسون في حجراتهم في منازلهم، ويعتبرون هذا شيئاً عادياً، لماذا ؟! لأنه بعد أن كان فوق قدرة البصر، دخل في هذه القدرة، بعلم كشفه اللَّه تعالى للناس.

ولكل علم في الأرض - كما قلنا - ميلاد، أو موعد يولد فيه، فالإنسان لم يخترع الخصائص التي مكنته من أن يرى ما يحدث على بُعْد ألوف الأميال من مكانه رؤية العين، هذه الخصائص كانت موجودة لكنها فوق قدرة البصر، ولعل أبسط دليل على ذلك هو نقطة الدم، أو نقطة الماء، فإذا نظرت إليها بعينك المجردة، قلت: لا شيء فيها، فإذا وضعتها تحت الميكرسكوب؛ ظهرت لك فيها أشياء وأشياء.

إذن . . ما هو فوق قدرة البصر موجود، وإن لم تكن تراه، واللَّه أعطاك الدليل بأشياء لا يمكن أن تراها بالعين المجردة، ولكنها تصبح في قدرة بصرك، بالاستعانة بعوامل مساعدة كشفها اللَّه لخلقه.

وما هو فوق قدرة السمع موجود، فأنت تجلس في الحجرة والسكون يخيم عليك، فلا تسمع شيئاً، فإذا أدرت جهاز المذياع، استطعت أن تسمع أصواتاً من كل أنحاء العالم، ولو قلت لأي إنسان في الماضي: إنك ستتحدث فيسمعك العالم كله لاتهمك الناس بالجنون المطبق، ولكنك الآن حينما تتكلم في أية محطة إذاعية يسمعك العالم كله بسهولة، وكما قلنا في الحالتين السابقتين. فإن الإنسان لم يخترع موجات الأثير التي تحمل الصوت إلى الدنيا كلها، ولكن كل هذه الخصائص كانت موجودة في الكون منذ أن خلقه اللَّه تعالى، ولكنها كانت تفوق قدرة العقل البشري، وكانت خافية عنه، فلما كشفها اللَّه سبحانه وتعالى وسخرها للإنسان، دخلت في قدرة هذا العقل، واستطاع أن يستخدمها.

إذن . . قدرة السمع على أن تستمع إلى صوت يأتي من آخر الدنيا كانت موجودة منذ الأزل، ولكنها كانت غيباً عن الإنسان، ثم كُشفت له؛ فاستطاعت الآذان أن تسمع، وسبحان من بيده الأمر كله، خالق كل شيء، وهو على كل شيء قدير.



عطاء القرآن المتجدّد

السؤال: بعض الناس يتساءل عن معنى العطاء المتجدد للقرآن الكريم، وهل اللّه سبحانه وتعالى عنده زمن، بحيث يقسم الأشياء حسب الزمن ؟ أم أنه سبحانه وتعالى لا زمن عنده، وبالتالي فما معنى عطاء لكل جيل ؟

الجواب: إننا نقول لهؤلاء جميعاً: إن اللّه سبحانه وتعالى لا زمن عنده ولا تحده حدود ولا قيود، ولكن القرآن الكريم وهو كلام اللّه تعالى المنزل على رسوله ﷺ يخاطب الناس على قدر عقولهم، ويعطيهم بالقدر الذي يفهمونه ببشريتهم، والقوانين التي وضعها اللّه سبحانه وتعالى والأسباب في الأرض.

والقرآن الكريم له عطاء متجدد، وهذا العطاء المتجدد هو استمرار لمعنى إعجاز القرآن، ولو فرغ القرآن عطاءه كله أو إعجازه كله في عدد من السنوات، أو في قرن من الزمان؛ لاستقبل القرون الأخرى دون إعجاز أو عطاء، وبذلك يكون قد جمد، والقرآن لا يجمد أبداً، وإنما يعطي لكل جيل بقدر طاقته، ولكل فرد بقدر فهمه، ويعطي للجيل القادم شيئاً جديداً لم يعطه للجيل الذي سبقه، وهكذا.



كل جيل يأخذ من القرآن حسب عقله

السؤال: لماذا لم يُفَسِّر القرآن الكريم الآيات العلمية لأولئك الذين عاصروا نزول القرآن، وربما للأجيال التي بعدهم ؟

الجواب: المعروف أن حقائق الكون التي ذكرها اللّٰه في القرآن الكريم تمس قوانين كونية كبرى ينتفع بها الإنسان سواء علمها أو لم يعلمها، فالشمس، ودوران الأرض، والجاذبية الأرضية، والليل والنهار، وكل ما يتعلق بهذا الكون، وعلم الأجنَّة وما يدور في الأرحام، وكل ما يتعلق باستمرار النوع البشري، كل ذلك من قوانين الكون، وقوانين الخلق ينتفع بها الناس سواء علموا بها أو لم يعلموا، الملايين لا يعرفون شيئاً عن جاذبية الأرض، ومع ذلك ينتفعون بكل قوانينها، والملايين لا يعرفون شيئاً عن النظام الكوني والتوازن الدقيق الموجود فيه، ومع ذلك ينتفعون به والملايين لا يعرفون شيئاً عن حياة الطفل في رحم أمه، ومع ذلك فإن عدم العلم لم يمنعهم من إنجاب الأطفال.

ومن هنا لم يكن تفسير هذه القضايا العلمية المتقدمة التي ذكرها القرآن ضرورة بالنسبة للذين عاصروا نزوله؛ لأنهم لا ينتفعون بها، سواء علموها أو جهلوها؛ ولذلك أعطاهم اللّٰه على قدر عقولهم، ثم كشف سبحانه بعد ذلك للأجيال، كلّ جيل على حسب عقله وحاجته في عصره.

❁ ❁ ❁

كيف مَزَّق القرآن حُجُبَ الغيب ؟

السؤال: قلتم فضيلتكم: إن القرآن استطاع أن يمزق حجب الغيب كلها، مزق حجاب الماضي، وحجاب الحاضر، ومزق حجاب المستقبل، ومزق حجاب النفس البشرية، ومزق حجاب كل الأشياء التي لا يمكن أن يصل إليها علم إلى الآن، نود إلقاء الضوء على هذه النقاط ؟

الجواب: مزق القرآن حاجز الزمن الماضي، بما قَصَّه علينا من قصص الرسل السابقين، فلم يكن أحد يعرفها، وعلى لسان مَن؟ على لسان نبي أمّي لا يقرأ ولا يكتب، ويحكي أسرار الماضي، ويتحدى الذين يكذبونه.

إذن.. مزق اللّه حجاب وحاجز الزمن الماضي، ويكفي أن تقرأ في القرآن: وما كنت، وما كنت، وما كنت؛ لتعرف كم أخبر اللّه رسوله بأنباء من غيب الماضي، يقول:

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: ٤٤].

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ [القصص: ٤٤].

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ [القصص: ٤٥].

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٤٦].

أي أنك لم تكن هناك يا محمد، ولكن اللّه هو الذي أخبرك ومزق لك حجاب الزمن الماضي.

وهكذا نرى أن القرآن مزق حجاب الزمن الماضي في أكثر من مناسبة ليخبر محمداً عليه الصلاة والسلام بالأخبار الصحيحة عمن سبقوه من الرسل والأنبياء، ويصحح ما حُرّف من الكتب السماوية التي أنزلها اللّه وحَرَّفها الرهبان والأحبار.

بل إن الإعجاز هنا جاء في تصحيح ما حدث من تحريف الكتب السماوية التي سبقت القرآن، وكان محمد ﷺ يتحدى بالقرآن أحبار اليهود ورهبان النصاري، ويقول لهم: هذا من عند اللّه في التوراة أو الإنجيل، وهذا حرفتموه في

التوراة أو الإنجيل، ولم يكونوا يستطيعون أن يواجهوا هذا التحدي أو يردوا عليه، ذلك أن التحدي للقرآن في تمزيق حجاب الزمن الماضي، وصل إلى أدق أسرار الرسالات السماوية الماضية، فصححها لهم، وبين ما حرفوه منها وما أخفوه، وتحداهم أن يكذبوا ما جاء في القرآن فلم يستطيعوا، ومن ذلك قوله في سورة مريم: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم: ٣٤].

ثم جاء الأمر الثاني، فمزق اللّه حجاب المكان لمحمد، وجاء في أمر من أدق الأمور وهو حديث النفس.

اللّه تبارك وتعالى أطلع رسوله وأوحى إليه بما يدور في صدورهم ويخفوه، وأمره سبحانه أن يقول لهم سأخبركم بما في أنفسكم، بما في داخل صدوركم، بما لم تهمس به شفاهكم، وكان يكفي لكي يكذبوا محمداً أن يقولوا: لم تحدثنا أنفسنا بهذا، لو لم يكن ما أخبر به محمد في نفوسهم بالفعل لكان ذلك أكبر دليل لكي يكذبوا محمداً؛ ولأعلنوا على الناس أنه يقول كلاماً غير صحيح.

إذن.. فالقرآن في هتكه لحجاب المكان، دخل إلى داخل النفس البشرية، وإلى داخل نفوس مَنْ؟ إلى داخل نفوس غير المؤمنين الذين يعملون لهدم الإسلام. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المجادلة: ٨].

هذا ما يدور في أنفس غير المؤمنين، فهل هناك أكثر من هذا تحد لحجاب المكان؟ إنه تحد فوق قدرة كل الاختراعات البشرية التي وصل إليها العلم الآن لاختراق حجاب المكان.



عندما يغتر الإنسان وينسى قدرة اللَّه

السؤال: كلما اكتشف الإنسان جديداً في الكون ظن أنه اكتشفه بقدرته وعلمه، ونسي أن ذلك كله من صنع اللَّه، وأن اللَّه هو الذي وفقه إلى ذلك ؟

الجواب: الإنسان وبعد تقدم الاكتشافات العلمية قد استطاع أن يحقق أشياء لم يكن يحلم بتحقيقها، هذه الأشياء منحته ظاهراً ما يريد، فإذا أراد السفر، نقلته الطائرة في ساعات من أقصى الدنيا إلى أقصاها، وإذا أراد أن يشاهد ما يجري في العالم، فأمامه التليفاز الذي يعمل بالأقمار الصناعية، يستطيع أن ينقل له صور ما يحدث في الدنيا كلها وهو جالس في حجرته، وإذا أراد أن يتحدث إلى شخص فى آخر بلاد الأرض، فما عليه إلا أن يدير قرصاً صغيراً، فيتحدث معه وكأنه جالس الى جواره.

تلك الأشياء بهرت العقل البشري، وجعلته ينسى أن كل ما وصل إليه هو باستخدام خصائص الكون الذي خلقه اللَّه سبحانه وتعالى، وأن كل اختراع بشري هو مبني على قوانين وضعها اللَّه في الكون، فالإنسان لم يخلق الغلاف الجوي الذي يحمل الطائرة، ولا يستطيع أن يخلقه، ولكنه اكتشف خصائصه فقط؛ فاستخدمها، والإنسان لم يخترع الموجات التي تحمل الصورة عبر أجواء الأرض، ولكنه فقط اكتشف خصائصها، والإنسان لم يخلق الموجات التي تحمل الصوت ولكنه اكتشفها، وهكذا فإن ما وصل إليه العلم هو اكتشافات يسَّرها اللَّه للعقل البشري، في المادة المخلوقة من اللَّه.

لكن الإنسان ينسى، ولا يدقق فيما حوله، متخذاً من هذه المظاهر قدرات له هو وحده، ناسيا قدرات اللَّه سبحانه وتعالى.

۞ ۞ ۞

اغترار الإنسان بقوته دليل على جهله

السؤال: في كثير من الأحيان يغتر الإنسان بقوته، ويحاول أن يجعل من هذه القوة ميزاناً للكون كله، فبماذا نكبح جماح الغرور البشري ؟

الجواب: إن اللَّه سبحانه وتعالى قد جعل القوة البشرية محدودة، والقدرة البشرية على الاختيار مركزة في نطاق محدود، فالجسد الإنساني مثلًا خارج قدرة الاختيار. كيف أنت ؟ ما هو شكلك ؟ طويل أو قصير ؟ كيف تنمو؟ كل هذا خارج عن نطاق الاختيار. أعضاؤك تعمل خارج الاختيار. قلبك ينبض سواء أردت أم لم ترد.

ومعدتك لا تنتظر أمرا منك حتى تقوم بهضم الطعام، ورئتاك لا تأخذان إذنا منك حين تستنشقان الهواء، تبقى بعد ذلك الحركة الاختيارية وهي تسير مع جزء محدود من حركة الحياة.

هناك أشياء تركك اللَّه سبحانه وتعالى تختارها دون أن يقيدك، فأنت حر مثلًا بين أصناف متعددة من الطعام تختار منها ما تشاء دون أن يكون هناك عقاب عليك، وأنت تستطيع أن تذهب لتعيش في أي بقعة من بقاع الأرض، دون أن يحاسبك اللَّه لماذا تركت هذا البلد؟ وعشت في غيره ؟

ولكن الأمر الاختياري الذي عليه الحساب هو في التكليف، فقد أعطاك اللَّه القدرة أن تفعل أو لا تفعل؛ فعرض عليك الصلاة، وأنت تستطيع أن تصلي أو أن تترك الصلاة، وكذلك الصوم وكذلك الزكاة.

لماذا هذه التكليفات ولماذا أعطى لك فيها حرية أن تختار، بمعنى: أن تفعل، ولا تفعل ؟ لأن اللَّه سبحانه وتعالى يريدنا أن نأتيه طواعية منا، عن حبٍ، لا عن قهر.

ولو أراد سبحانه وتعالى أن يخلقنا مسخرين لعبادته كالملائكة مثلًا الذين لا يعصون اللَّه ويفعلون ما يؤمرون، لكان ذلك سهلًا ميسوراً فهو سبحانه الفعال لما يريد، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى أراد أن يأتيه الخلق اختياراً منهم، وهم القادرون على المعصية وهذه صفة العبودية عن محبوبية واختيار للمعبود سبحانه.

❁ ❁ ❁

المكتشفات العلمية الحديثة

السؤال: هل هناك إشارة في القرآن إلى المكتشفات العلمية الحديثة ؟

الجواب: أريد أن أنبه إلى أمر هام قد ورد في الآية الكريمة، ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[1] [فصلت: ٥٣]، لماذا لم

---

(١) قال القرطبي في تأويل قول اللّه تعالى، ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي علامات وحدانيتنا وقدرتنا ﴿ فِى ٱلْآفَاقِ ﴾ يعني خراب منازل الأمم الخالية ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ بالبلايا والأمراض. وقال ابن زيد: ﴿ فِى ٱلْآفَاقِ ﴾ آيات السماء ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ حوادث الأرض.

وقال مجاهد: ﴿ فِى ٱلْآفَاقِ ﴾ فتح القرى؛ فيسر اللّه عز وجل لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده وأنصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموماً، وفي ناحية المغرب خصوصاً من الفتوحات التي لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم، وتسليط ضعفائهم على أقويائهم، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجة عن المعهود خارقة للعادات ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ فتح مكة، وهذا اختيار الطبري، وقاله المنهال بن عمرو والسدي.

وقال قتادة والضحاك، ﴿ فِى ٱلْآفَاقِ ﴾ يعني أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرها. وفي الصحاح، ﴿ ٱلْآفَاقِ ﴾ النواحي، واحدها أُفْقٌ، وَأُفُقٌ مثل عُسْر وعُسُر، ورجل أَفَقي بفتح الهمزة والفاء، إذا كان من آفاق الأرض. حكاه أبو نصر.

وبعضهم يقول، أُفُقي بضمهما وهو القياس. وأنشد غير الجوهري:

أَخَذْنَا بِآفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ ... لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِعُ

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول؛ فإن الرجل يشرب ويأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين، وبديع صنعة اللّه وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما من السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة، وغير ذلك من بديع حكمة اللّه فيه.

وقيل: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ من كونهم نطفا إلى غير ذلك من انتقال أحوالهم. =

يقل اللّه سبحانه وتعالى سنريهم آياتنا في الأرض واستخدم بدلًا منها لفظ الآفاق ؟ ونحن نعلم أن القرآن، وهو كلام اللّه سبحانه وتعالى غاية في الدقة وفي اختيار اللفظ الذي يطابق المعنى تماماً.

إن اللّه سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى أنه سيكشف لنا في المستقبل آياته في الآفاق التي لا نعرفها حتى الآن، أي أن اللّه سبحانه وتعالى سيكشف لنا أكثر من آية ليست في الأرض فقط، بل في الآفاق المحيطة بالأرض، ولعل وصول الإنسان للقمر ومحاولة الوصول للمريخ، وكل ما يحدث من محاولات الكشف عن أسرار الكون في الآفاق المحيطة بالأرض، يأتي مصداقا لهذه الآية الكريمة، ولكن بعض الناس يغتر بالعلم، ناسياً أو متناسياً أن هذا العلم ما خرج إلى البشر إلا بقدرة اللّه القدير سبحانه وتعالى.

* * *

= وقيل: المعنى سيرَوْن ما أخبرهم به النبي ﷺ من الفتن وأخبار الغيوب.
﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ فيه أربعة أوجه:
أحدها: أنه القرآن.
والثاني: الإسلام جاءهم به الرسول ﷺ ودعاهم إليه.
والثالث: أن ما يريهم اللّه ويفعل من ذلك هو الحق.
والرابع: أن محمداً ﷺ هو الرسول الحق. تفسير القرطبي [١٥/ ٣٧٤/ ٣٧٥].

اللّه حدد لكل علم موعد اكتشافه !

السؤال: بعض الناس يتساءلون: لماذا لم يمنح اللّه تعالى العقل كل العلوم مرة واحدة ؟ وما الحكمة من جعله يكتشفها جيلًا من بعد جيل ؟

الجواب: إذا تكلم اللّه تعالى عن قضية غيبية، هي فوق قدرة العقل والسمع والبصر، علينا جميعاً أن نسلم ونؤمن ونذعن بأن ما يقوله اللّه سبحانه وتعالى حق، وموجود، وأن الفرق بين قدرة المخلوق وعلمه، وقدرة الخالق وعلمه، هو فرق هائل لا يجوز القياس معه ولا المقارنة به، ولقد أراد اللّه سبحانه وتعالى ألا تكون عقيدة الإيمان بالغيب، والملائكة، والآخرة، مادة للمضللين؛ ليضلوا بها الناس، ويبعدوهم عن طريق اللّه، فشاء اللّه سبحانه لهذا العلم ألا يكتشف مرة واحدة وإنما جعله على مراحل، من جيل إلى جيل، فيصبح ما هو مستحيل عقلياً بالأمس القريب ممكن اليوم؛ ليعرف الإنسان يقيناً أن ما هو فوق قدرة عقله وحواسه، موجود في الكون، وإن كان لا يعلمه، وعليه إذا قال الرسول ﷺ بلاغاً عن اللّه تعالى يوجد كذا وكذا. فلا يُنازع اللّه في علمه ولا في ملكه، ولا بد من الإذعان والتسليم ولذلك شاء اللّه تعالى أن يكون لكل جيل عطاء من اللّه تعالى.

عطاء فيه إثبات لقدرة اللّه، وفيه إثبات لوجود الغيب، وفيه إثبات لما فوق القدرات البشرية، وإذا كان اللّه سبحانه وتعالى قد كشف لنا عن أشياء كانت غيباً عنا لا نعلمها فأصبحنا نراها عيانا، فكم من الأشياء التي احتفظ بها سبحانه في علم الغيب عنده ولم يكشفها لنا، فإذا قال لك إنسان مثلًا: يد اللّه كيف ؟ قل، سبحان اللّه ليس كمثله شيء، أنا أؤمن بما جاء عن اللّه تعالى وعن رسوله ﷺ في أن للّه تعالى يداً. لكن لا أعرف كيفيتها فاللّه تعالى لم يوضحها، ورسوله ﷺ لم يفسرها فأنا أؤمن بها على مراد اللّه تعالى وعلى مراد رسول اللّه ﷺ.

❁ ❁ ❁

الحقيقة العلمية لا تتصادمُ بنصٍ قرآني

السؤال: بعض المستشرقين يقولون: إن قوانين الكون تتصادم مع القرآن الكريم فبماذا ترد فضيلتكم على هذا القول ؟

الجواب: نحن نؤكد لهم إن العلم سواء القديم أو الحديث لم يثبت أن حقيقة كونية واحدة اصطدمت بما جاء في القرآن الكريم، إن القرآن لا يتصادم مع قوانين الكون، ولكن هذا التصادم المزعوم يأتي أحياناً عن حقيقة قرآنية أُسيء تفسيرها؛ لتبدو في غير معناها الحقيقي، أو نظرية علمية كاذبة يحاول الكارهون لدين اللّه إثبات أنها حقيقة ليستغلوها ضد القرآن، وكما قلت فأعود وأكرر، إننا لا نريد أن نثبت القرآن بالعلم، بل إن العلم هو الذي يجب أن يلتمس الدليل من آيات القرآن الكريم، ذلك أن القرآن أصدق من كل علوم الدنيا؛ لأن مكتشف هذا العلم أو مخرجه بشر ممن خلق اللّه. والقرآن الكريم هو كلام اللّه سبحانه وتعالى، وصدق اللّه العظيم إذ يقول: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢] ومن هنا فإن الذي يزعم هذا الكلام إما أنه يشك في كلام اللّه تعالى، أو أن القرآن ليس من عنده سبحانه، أو يشك في أن اللّه تعالى هو خالق السموات والأرض، وصدق اللّه العظيم: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١]، فإذا كان القرآن كتاب اللّه تعالى المقروء فالكون كتاب اللّه تعالى المفتوح ولا ولن يكون هناك تصادم بينهما أبداً.

ومن حقائق القرآن التي أُسيء تأويلها قول اللّه تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ [ق: ٧].

ومعنى المد، البسط، أي معنى قوله تعالى: ﴿ مَدَدْنَٰهَا ﴾ بسطناها، ونحن نرى الأرض مبسوطة أمامنا، فلا تناقض بين القرآن الكريم، وبين الظاهر الموجود.

ولكن عندما اكُتشفت كروية الأرض، ثار بعض علماء الدين واتهموا كل من يقول إن الأرض كروية بالكفر؛ لأنه يخالف بزعمهم القرآن الكريم.

هؤلاء العلماء أخطأوا عن غير قصد في تفسير حقيقة قرآنية، فاللّه سبحانه

وتعالى قد أعطانا الدليل على أن الأرض كروية في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾، أي بسطناها، ولكنه لم يقل سبحانه وتعالى أي أرض مبسوطة، ومعنى ذلك أنك أينما تنظر إلى الأرض تراها مبسوطة، إذا كنت في خط الاستواء، فالأرض أمامك مبسوطة، فإذا انتقلت إلى القطب الجنوبي، فالأرض أمامك مبسوطة، وإذا كنت في القطب الشمالي فالأرض أمامك مبسوطة، وإذا كنت في أوربا أو أمريكا، أو آسيا، أو أي قارة من قارات الأرض، فالأرض أمامك مبسوطة، وهذا لا يمكن أن يتأتي إلا إذا كانت الأرض كروية، فلو أن الأرض مسطحة، أو مربعة أو مثلثة، أو مسدسة، أو فى أي شكل من الأشكال لوصلنا فيها إلى حافة، وحيث إنه لا يمكن أن تصل في الأرض إلى حافة فالشكل الوحيد الذي تراه مبسوطا أمامك ولا يمكن أن تصل فيه إلى حافة لا بد وأن يكون كروياً.

وهكذا في كلمتين اثنتين، ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾، أزال اللّٰه تعالى اللبس من عقول من عاصروا التنزيل وأثبت حقيقة أتي بها العلم في وقت لاحق.

* * *

أطوار خلق الإنسان

السؤال: لقد ذكر القرآن أن اللَّه تعالى خلقنا من تراب، من طين، من حمأ مسنون، من صلصال كالفخار، ثم نفخ فينا من روحه، نرجو إلقاء الضوء على هذا الأمر.

الجواب: إذا أخذنا التراب، ثم أضفنا إليه الماء يصبح طيناً، ثم يترك لتتفاعل عناصره فيصبح حمأً مسنوناً، كالذي يستخدمه البشر في صناعاتهم، ثم يجفف فيصبح صلصالاً، هذه أطوار خلق الجسد البشري، والخلق من الطين، والطين من الأرض.

فإذا جئنا للواقع، فلنسأل أنفسنا، الإنسان مقومات حياته من أين ؟ من الأرض، فقد حلل العلماء جسد الإنسان فوجدوه مكوناً من عدة عناصر، أولها الأكسجين، وآخرها المنجنيز، والقشرة الأرضية الخصبة مكونة من نفس العناصر.

إذن. . فعناصر الطين الخصب هي نفس عناصر الجسم البشري الذي خُلق منه، هذا أول إعجاز، وهذه تجربة معملية لم يكن هدفها إثبات صحة القرآن أو عدم صحته، ولكنها كانت بحثاً من أجل العلم الأرضي، ولقد جعل اللَّه سبحانه وتعالى من الموت دليلاً على قضية الخلق، فالموت نقض الحياة، أي أن الحياة موجودة، وأنا أنقضها بالموت، ونقض كل شيء يأتي على عكس بنائه، فإذا أردنا أن نبني عمارة تبدأ بالدور الأول، وإذا أردنا أن نهدمها نبدأ بالدور الأخير، إذا وصلت إلى مكان وأردت أن أعود، أبدأ من آخر نقطة وصلت إليها إنها تمثل أول خطوة في العودة، ونحن لم نعلم عن خلق اللَّه شيئاً؛ لأننا لم نكن موجودين ساعة الخلق؛ ولكننا نشهد الموت كل يوم، والموت نقض الحياة، إذن. . هو يحدث على عكسها، فأول شيء خروج الروح، وهي آخر ما دخل فيه، ثم تبدأ مراحل عكس عملية الخلق، يتصلب الجسد، هذا هو الصلصال، ثم يتعفن فيصبح رمة، هذا هو الحمأ المسنون، ثم يتبخر الماء من الجسم ويصبح الطين تراباً، ويعود للأرض.

إذن.. مراحل الإفناء التي أراها وأشهدها كل يوم عكس مراحل الخلق، وهي شاهد صدق على ما نزل على رسول اللَّه وآمن به المؤمنون قبل اكتشاف العلم، وصدق اللَّه العظيم إذ يقول: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١].



القرآن . . . ومراحل خلق الجنين !

السؤال: هل مراحل خلق الجنين التي وردت في سورة « المؤمنون » تتطابق تماماً مع العلم الحديث ؟

الجواب : الحديث عن الأجنة جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون].

كان على المشركين والكافرين أن يسألوا أنفسهم ما الذي جعل محمداً ﷺ يقتحم قضية غيبية كهذه، وهي قضية يمكن أن تهدم الإيمان من أساسه ؟ فمن المعلوم أن القرآن كلام اللّه تعالى المتعبد بتلاوته، لا تغيير فيه ولا تبديل فماذا يمكن أن يحدث مع هذا التقدم العلمي المذهل لو ظهر أن هذا الكلام غير صحيح؟ وكيف يمكن لقضية الإيمان أن تستمر ؟ ولماذا يخاطر محمد ﷺ في شيء غيبي كهذا ؟ لم يطلب أحد منه أن يتحدث عنه، أو أن يتحداه فيه !!

ولكن لم يسأل أحد منهم نفسه هذا السؤال، وأظن واللّه أعلم أنهم لعلمهم بهذا الدين وصدقه، وأنه من عند اللّه سبحانه، استكبروا وجحدوا ظلماً وعدواناً لأن الخالق هو اللّه سبحانه وتعالى والقائل هو اللّه عز وجل لقد جاء الحديث عن الأجنة في القرآن الكريم، لا أقول قبل أن يصل إليه العلم ولكن قبل أن يكتشف العلم الذي يوصل إليه، وآمنا به وصدقناه، ثم لما عُرف، واكتشفت مراحل خلق الجنين وجاء ذلك كله موافقا لما جاء في القرآن الكريم، فكان حجة على الذين لا يؤمنون.

عن عبد اللّه بن مسعود قال، حدثنا رسول اللّه ﷺ - وهو الصادق المصدوق -: « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلماتٍ: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد،

فوالذي لا إله إلا غيره: إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »(١).

---

(١) أخرجه البخاري [٣٢٠٨/ ٣٣٣٢/ ٦٥٩٤/ ٧٤٥٤]، ومسلم [٢٦٤٣].

وقال النووي، قوله: « حدثنا رسول اللّه ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد ».

أما قوله: « الصادق المصدوق » فمعناه الصادق في قوله، والمصدوق فيما يأتي به من الوحي الكريم.

وأما قوله: « إن أحدكم » فبكسر الهمزة على حكاية لفظه ﷺ.

وقوله: « بكتب رزقه » هو بالباء الموحدة في أوله على البدل من أربع.

وقوله: « شقي أو سعيد » مرفوع خبر مبتدأ محذوف، أي، وهو شقي أو سعيد.

قوله ﷺ في هذا الحديث: « ثم يرسل الملك » ظاهره أن إرساله يكون بعد مائة وعشرين يوماً وفي الرواية التي بعد هذه: « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسٍ وأربعين ليلة فيقول: « يا رب أشقي أم سعيد » وفي الرواية الثالثة: « إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث اللّه إليها ملكاً فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ».

وفي رواية حذيفة بن أسيد: « إن النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة، ثم يتسور عليها الملك».

وفي رواية: « إن ملكاً موكلًا بالرحم إذا أراد أن يخلق شيئاً بإذن اللّه لبضع وأربعين ليلة» وذكر الحديث. وفي رواية أنس: « إن اللّه قد وكل بالرحم ملكاً فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة ».

قال العلماء: طريق الجمع بين هذه الروايات أن للملك ملازمة ومراعاة لحال النطفة، وأنه يقول: يا رب هذه علقة هذه مضغة في أوقاتها، فكل وقت يقول: فيه ما صارت إليه بأمر اللّه تعالى وهو أعلم سبحانه.

ولكلام الملك وتصرفه أوقات، أحدها، حين يخلقها اللّه تعالى نطفة، ثم ينقلها علقة، وهو أول علم الملك بأنه ولد، لأنه ليس كل نطفة تصير ولداً، وذلك عقب الأربعين الأولى، وحينئذ يكتب رزقه وأجله وشقاوته أو سعادته، ثم للملك فيه تصرف آخر في وقت آخر، وهو تصويره وخلق سمعه وبصره وجلده ولحمه وعظمه، وكونه ذكراً أم أنثى؟ وذلك إنما يكون في الأربعين الثالثة، وهي مدة المضغة، وقبل انقضاء هذه =

....

= الأربعين وقبل نفخ الروح فيه؛ لأن نفخ الروح لا يكون إلا بعد تمام صورته.
وأما قوله في إحدى الروايات: « فإذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث اللّه إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك ثم يقول: يارب أجله، فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك وذكر رزقه ». فقال القاضي وغيره: ليس هو على ظاهره، ولا يصح حمله على ظاهره، بل المراد بتصويرها وخلق سمعها إلى آخره، أنه يكتب ذلك ثم يفعله في وقت آخر؛ لأن التصوير عقب الأربعين الأولى غير موجود في العادة، وإنما يقع في الأربعين الثالثة، وهي مدة المضغة، كما قال اللّه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا . . . ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون] ثم يكون للملك فيه تصوير آخر، وهو وقت نفخ الروح عقب الأربعين الثالثة حين يكمل له أربعة أشهر.
واتفق العلماء على أن نفخ الروح لا يكون إلا بعد أربعة أشهر، ووقع في رواية للبخاري « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين، ثم يكون علقة مثله، ثم يكون مضغة مثله، ثم يبعث إليه الملك فيؤذن بأربع كلمات، فيكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه ثم يبعث » فحرف « ثم » يقتضي تأخير كتب الملك هذه الأمور إلى بعد الأربعين الثالثة، والأحاديث الباقية تقتضي الكتب بعد الأربعين الأولى، وجوابه: أن قوله: « يبعث إليه الملك فيؤذن فيكتب » معطوف على قوله: « يجمع في بطن أمه »، ومتعلق به لا بما قبله، وهو قوله: « ثم يكون مضغة مثله » ويكون قوله: « ثم يكون علقة مثله ثم يكون مضغة مثله » معترضاً بين المعطوف والمعطوف عليه، وذلك جائز موجود في القرآن والحديث الصحيح وغيره من كلام العرب، قال القاضي وغيره: والمراد بإرسال الملك في هذه الأشياء أمره بها، وبالتصرف فيها بهذه الأفعال، وإلا فقد صرح في الحديث بأنه موكل بالرحم، وأنه يقول، يارب نطفة يا رب علقة.
قال القاضي: وقوله في حديث أنس: « وإذا أراد اللّه أن يقضي خلقاً قال: يا رب أذكر أم أنثى ؟ شقي أم سعيد ؟ » لا يخالف ما قدمناه، ولا يلزم منه أن يقوم ذلك بعد المضغة بل ابتداء للكلام، وإخبار عن حالة أخرى، فأخبر أولًا بحال الملك مع النطفة، ثم أخبر أن اللّه تعالى إذا أراد إظهار خلق النطفة علقة كان كذا وكذا، ثم المراد بجميع ما ذكر من الرزق والأجل والشقاوة والسعادة والعمل والذكورة والأنوثة أنه يظهر ذلك للملك، ويأمره بإنفاذه وكتابته، وإلا فقضاء اللّه تعالى سابق على ذلك، وعلمه وإرادته لكل ذلك موجود في الأزل. واللّه أعلم.
قوله ﷺ: « فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار.. إلخ » المراد بالذراع التمثيل للقرب من موته ودخوله عقبه. =

....

= وأن تلك الدار ما بقي بينه وبين أن يصلها إلا كمن بقي بينه وبين موضع الأرض ذراع، والمراد بهذا الحديث، أن هذا قد يقع في نادر من الناس، لا أنه غالب فيهم، ثم إنه من لطف الله تعالى وسعة رحمته انقلاب الناس من الشر إلى الخير في كثرة، وأما انقلابهم من الخير إلى الشر ففي غاية الندور، ونهاية القلة، وهو نحو قوله تعالى: « إن رحمتي سبقت غضبي، وغلبت غضبي »[(١)] ، ويدخل في هذا من انقلب إلى عمل النار بكفر أو معصية، لكن يختلفان في التخليد وعدمه، فالكافر يخلد في النار، والعاصي الذي مات موحداً لا يخلد فيها كما سبق تقريره.

وفي هذا الحديث: تصريح بإثبات القدر، وأن التوبة تهدم الذنوب قبلها، وأن من مات على شيء حكم له به من خير أو شر، إلا أن أصحاب المعاصي غير الكفر في المشيئة. والله أعلم.

قوله: « عن حذيفة بن أسيد » هو بفتح الهمزة.

وقوله ﷺ: « فيقول، يا رب أشقي أو سعيد فيكتبان فيقول: أي رب أذكر أو أنثى فيكتبان » يكتبان في الموضعين بضم أوله ومعناه: يكتب أحدهما.

قوله ﷺ: « إن النطفة تقع في الرحم أربعين ليلة ثم يتصور عليها الملك » هكذا هو في جميع نسخ بلادنا « يتصور » بالصاد، وذكر القاضي « يتسور » بالسين، قال: والمراد بـ « يتسور » ينزل، وهو استعارة من تسورت الدار إذا نزلت فيها من أعلاها، ولا يكون التسور إلا من فوق، فيحتمل أن تكون الصاد الواقعة في نسخ بلادنا مبدلة من السين. والله أعلم.

قوله: « فنكس فجعل ينكت بمخصرته » أما « نكس » فبتخفيف الكاف وتشديدها لغتان فصيحتان، يقال، نكسه فهو ناكس كقتله يقتله فهو قاتل، ونكسه تنكيساً فهو منكس، أي: خفض رأسه وطأطأ إلى الأرض على هيئة المهموم، وقوله: « ينكت » بفتح الياء وضم الكاف وآخره وتاء مثناة فوق، أي: يخط بها خطاً يسيراً مرة بعد مرة، وهذا فعل المفكر المهموم، و « المخصرة » بكسر الميم، ما أخذه الإنسان بيده واختصره من عصا لطيفة وعكاز لطيف وغيرهما.

وفي هذه الأحاديث كلها، دلالات ظاهرة لمذهب أهل السنة في إثبات القدر، وأن جميع الواقعات بقضاء الله تعالى وقدره، خيرها وشرها نفعها وضرها، وقد سبق في أول كتاب الإيمان قطعة صالحة من هذا قال الله تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ =

---

(١) أخرج البخاري [٣١٩٤]، ومسلم [٢٧٥١/ ١٤]، وابن ماجه [٤٢٩٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي».

وفي رواية عند مسلم [٢٧٥١/ ١٥] : « سبقت رحمتي غضبي » .

....

۞ ۞ ۞

= [الأنبياء: ٢٣] فهو ملك للّه تعالى، يفعل ما يشاء، ولا اعتراض على المالك في ملكه، ولأن اللّه تعالى لا علة لأفعاله، قال الإمام أبو المظفر السمعاني: سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس ومجرد العقول، فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء النفس، ولا يصل إلى ما يطمئن به القلب؛ لأن القدر سر من أسرار اللّه تعالى التي ضربت من دونها الأستار، واختص اللّه به وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم، لما علمه من الحكمة، وواجبنا أن نقف حيث حد لنا، ولا نتجاوزه، وقد طوى اللّه تعالى علم القدر على العالم، فلم يعلمه نبي مرسل، ولا ملك مقرب، وقيل، إن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة، ولا ينكشف قبل دخولها. واللّه أعلم.

وفي هذه الأحاديث: النهي عن ترك العمل والاتكال على ما سبق به القدر، بل تجب الأعمال، والتكاليف التي ورد الشرع بها، وكل ميسر لما خُلق له، لا يقدر على يسره إلا اللّه تعالى لعملهم كما قال: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ و ﴿ لِلْعُسْرَىٰ ﴾، وكما صرحت به هذه الأحاديث.

مسلم بشرح النووي [٨/ ٤٤٦-٤٥٠].

طفل الأنابيب

السؤال: زعم بعض العلماء أنهم توصلوا إلى خلق طفل صناعي وذلك بأنهم أخذوا مَنِيَّ رجل وبويضة امرأة، ووُضعا في أنبوب، بعد إجراء عملية تلقيح لهما، فما رأي فضيلتكم ؟

الجواب : الطفل الصناعي، أمر يثور حوله الجدل في هذه الأيام، وأنت إذا أردت أن تصنع بشراً، فالمفروض أن تأتي بالمادة الحية تصنعها أولًا، ولكنك حينما تأخذ ما خلق اللّه وتُيسِّر عملية الخلق بما كشف اللّه لك من علم؛ لا يكون هذا أبدا فيه صناعة أو طفل صناعي، أنت أخذت ما خلقه اللّه تعالى من الرجل وما خلقه اللّه تعالى للأنثى.

إذن . . أنت لم تفعل شيئاً سوى أنه كان هناك سبب مانع للحمل، واستطعت أن تتغلب عليه بما كشفه اللّه تعالى لك من علم، ولكن المادة الحية والرحم الذي نما فيه الطفل هما من خلق اللّه سبحانه وتعالى، فأين ما خلقت أنت من طفل صناعي، أو طفل الأنابيب ؟ إنك لم تخلق شيئاً، وإذا كان اللّه قد يسر لك سبيلًا؛ لتعالج عقماً باستخدام ما خلقه اللّه استمرار حياة البشر في الأرض؛ فأنت لم تخلق شيئاً، ولو أردت فعلًا أن ترينا أنك تستطيع أن تخلق طفلًا صناعياً؛ فابدأ أولًا بخلق المادة الحية، والعلم كله عاجز أن يخلق خلية حية واحدة [١].

---

(١) هذه مسألة علاجية ولا يجب أن تعطي أكثر من حجمها، فهي تتم وفق ما كشفه اللّه تعالى من علم للأطباء المعالجين، فإذا قدر اللّه الإنجاب لمن أصابهم العقم يسر اللّه الأمر ونجحت العملية، وإن كان غير ذلك فشلت العملية ولم تنجح؛ إذن . . الأمر كله بيد اللّه الخلاق العظيم، والأطباء سبب من أسباب كثيرة جعلها اللّه لتخفيف آلام البشرية وسعادتها، والعقم مرض من أمراض كثيرة ابتليت بها البشرية للاختبار، فالحمد للّه على كل قضائه.

وعن الاستنساخ سأله الأستاذ رجب البنا رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير أكتوبر الاستنساخ يا مولانا . . أنا شخصياً لا أحب الاستعجال في الحكم الشرعي عليه إلى أن نفهم كل أبعاده العلمية . . ولكن المفتي تعجل وأصدر فتوى. =

....

۞ ۞ ۞

= فأجاب الشيخ رحمة اللّه تعالى عليه: أنا أفهم المسألة هكذا، هناك شيء اسمه.. طلاقة القدرة في الخلق، الخلق ليس عملية ميكانيكية، الخلق مراد إلٰهي، مشيئة اللّه هي التي تفعل.. شاء اللّه أن يخلق آدم من لا رجل ولا أنثى، وخلق حواء من رجل دون أنثى، وخلق عيسى من أنثى دون رجل، وخلقنا من رجل وأنثى، وقد يوجد الرجل والأنثى ولا يريد اللّه لهما أبناء.. ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ ﴾ [الشورى: ٥٠] هذه هي طلاقة القدرة، الاستنساخ هو أخذ خلية من إنسان للحصول على طفل. نقول: كيف خلق اللّه حواء؟ أخذ جزءاً من آدم وعمل منه حواء ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١] فماذا يمنع أن نأخذ جزءا من إنسان ليكون طفلًا، هذا مانفعله في النبات منذ آلاف السنين بدون مشكلة، القصب نأخذ عقلة ونزرعها فتنمو، وهكذا في نباتات أخرى.
إذن.. فالاستنساخ ورد في الإنسان وفي النبات، واللّه يقول: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦]. إذن.. فهناك خلق لا نعلم من أين يأتي.. ثم الذي يستنسخ يأخذ خلية ممن؟ يأخذها من الأصل.. إذن فالأصل المخلوق للّه فيه صلاحية أن يحدث منه هذا.. في الاستنساخ ليس هناك عملية خلق، ولكن هناك عملية استفادة من الإمكانية التي خلقها اللّه، ولا تخرج عن طلاقة القدرة. [مجلة أكتوبر العدد ١١٤٠].

هل استطاع الإنسان أن يعلم ما في الأرحام ؟

السؤال: بعض الناس يقول: إن العلم قد استطاع أن يصل إلى نوع الجنين، هل هو ذكر أو أنثى ؟ ويزيدون على ذلك أن العلم استطاع أن يخلق ما يطلقون عليه طفلًا صناعيًا، وأن هذا يتناقض مع أحد المغيبات الخمسة وهي، ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ [لقمان: ٣٤] فما رأي فضيلتكم ؟

الجواب: نحن نقول لمن يدعي هذا الكلام، من الذي قال لك إن كلمة: ﴿ مَا ﴾، معناها ذكر أم أنثى، إن كلمة ﴿ مَا ﴾ معناها شقي أم سعيد، طويل أم قصير، أبيض أم أسود، عمره، رزقه، أجله، اسمه، كل شيء عن المخلوق الذي سيأتي إلى الدنيا، بل إن اللّه سبحانه وتعالى أخبر نبي اللّه زكريا عليه السلام بابنه قبل أن يولد، وأخبره باسم هذا الابن، وهو اسم لم يكن البشر يتسمون به، وقال له عن مستقبله عندما يكبر، إنه سيكون سيداً، ورسولاً ونبياً من الصالحين، كل ذلك تم قبل أن يوجد هذا الطفل في رحم زوجة زكريا بل قبل أن يتم الخلق تماماً، فهذا البلاغ كان في المحراب، وزكريا يصلي ويطلب ولداً.

إذن . . فعلم اللّه سبحانه وتعالى في كلمة: ﴿ مَا ﴾ علم مطلق، فكيف تأتي أنت وتحدده بذكر أم أنثى ؟ مع أن اللّه سبحانه وتعالى لم يحدده، بل قال: ﴿ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ ﴾ [لقمان: ٣٤]، ثم إن حقيقة الذكر والأنثى ليست حقيقة علمية، ذلك أن الزوجة إما أن تلد ذكرا أو أنثى، وفي بعض الأحيان تقول أنا سأرزق بولد، وترزق بولد، وفي بعض الأحيان تقول أنا سأرزق ببنت، وترزق ببنت، وليس معنى ذلك أنك تعلم الغيب، ولكن هناك ٥٠٪ من الحقيقة في كل افتراض، هناك ٥٠٪ ولد، و٥٠٪ بنت. وأنت إن جاء تخمينك صحيحاً فلأن معك ٥٠٪ منه، ولو كانت أجناس البشر متعددة غير ذكر أو أنثى، لكان الاستناد إلى العلم هنا فيه شيء من الدقة؛ لأن التمييز بين أجناس متعددة، والتنبؤ بما هو قادم منا يحتاج فعلًا إلى طريقة علمية دقيقة، ولكن التمييز بين ذكر أو أنثى يمارسه بعض الناس الذين لم يقرأوا في حياتهم كتاباً، يقولون لامرأة حامل يظهر عليك أنك سترزقين بولد، ويأتي

المولود ولداً فعلًا، فهل معنى ذلك أنهم يعلمون ما في الأرحام ؟ إنها مسألة يصدق فيها التخمين كثيراً، ولكن بعض الناس يأتي ويهلل ويقول إن أحد المغيبات الخمسة قد انتفى، وهذا غير صحيح على الإطلاق، إن ما في الأرحام يشمل أكثر كثيراً من علم البشر من الآن، وحتى يوم الدين.

❀ ❀ ❀

هل وصول الإنسان إلى القمر يعني أنه نفذ من أقطار السماوات والأرض ؟

السؤال: هل اخترق الإنسان أقطار السمٰوات ووصل إلى القمر ؟ أم ظل دون السماء الدنيا ؟ ما الرأي في هذه المسألة الشائكة التي ثار حولها جدل كبير ؟!

الجواب: الشمس والقمر، وكل الكواكب التي نراها هي في السماء الدنيا، واقرأوا إن شئتم قول اللّه سبحانه وتعالى، ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾.

إذن.. ما نراه نحن هو دون السماء الأولى، فإذا رأينا كوكبا بيننا وبينه مليون سنة ضوئية، كم من الوقت يلزم للإنسان حتى يصل إلى هذا الكوكب ؟

وكم فرداً من أفراد تلك الرحلة التي تبدأ من الأرض إلى كوكب على بعد مليون سنة ضوئية يظل على قيد الحياة ؟

وكم جيلًا من الممكن أن يولد في الفضاء أو يموت، ويتعلم ويُعلم؛ حتى تستطيع أن تصل الرحلة إلى هذا الكوكب ؟!

وهل هذا ممكن علمياً ؟

بالطبع هذا مستحيل، فإذا كنا لا نستطيع أن نصل إلى كواكب هي في السماء الدنيا ودون السماء الأولى، فهل نستطيع أن نخترق أقطار السماوات كلها ؟! إذا كنا بعلمنا الآن عاجزين أن نصل إلى آخر حدود السماء الدنيا، ذلك أننا محتاجون إلى مليون سنة ضوئية، أي، أن نسافر مليون سنة بسرعة الضوء. حتى نستطيع أن نصل إلى ما نشاهده الآن في حدود السماء الدنيا، فكيف بما لم نكتشفه بعد ؟ وكيف بالسماوات السبع ؟!

أما ما يقال عن الوصول إلى القمر، أو المريخ، فهذه كلها كواكب قريبة من الأرض، تبعد عنا ثوان أو دقائق ضوئية، أي أنها في البعد اللانهائي للكواكب البعيدة لا شيء، مجرد ثوان ضوئية بيننا وبين القمر، ودقائق ضوئية بيننا وبين الشمس، فإذا كان الإنسان قد استطاع أن يصل لهذا، فهو لازال في ضواحي

الأرض التي يعيش عليها، وبينه وبين السماء الأولى أكثر من مليون سنة ضوئية.

إذن.. الخروج من أقطار السموات والأرض مستحيل بالنسبة للإنسان إلا بإذن اللَّه تعالى.

وقول اللَّه تعالى: ﴿ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾[1] [الرحمن: ٣٣]، بعض الناس يقول، إن معنى ذلك سلطان العلم، هذا تفسير خاطئ، ولكن المعنى الحقيقي هو: أمر اللَّه سبحانه وتعالى، فرسول اللَّه ﷺ، أُسْرِيَ به وصعد إلى السماء السابعة، ثم إلى سدرة المنتهى بسلطان اللَّه سبحانه وتعالى، ونحن يوم القيامة، سنكون في أي مكان خاضعين لسلطان اللَّه سبحانه وتعالى، والملائكة التي تنزل إلى الأرض وتصعد إلى السماوات بسلطان اللَّه سبحانه، ولو أن اللَّه سبحانه وتعالى لم ينزل قوله تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾، لكان بعض الناس قد جادل في معجزة الإسراء والمعراج، ولكن كونها وردت في القرآن الكريم؛ فمعنى ذلك، أن الأمر تم بقدرة اللَّه تعالى وسلطانه العظيم؛ إذ هو القادر سبحانه على إنفاذ ذلك الأمر.

فإذا سمعنا أحداً يقول، إن الإنسان قد نفذ من أقطار السموات والأرض، وذلك لأنه وصل إلى القمر، نقول له: إن الإنسان قد استطاع أن يقتحم ثواني ضوئية من ملايين السنين الضوئية التي هي جزء من اتساع السماء الدنيا، وأنه محتاج إلى مليون سنة ضوئية محذوفاً منها ثانيتان؛ ليصل إلى العمق الذي يراه الآن من السماء الدنيا، وهو في كل هذا دون السماء الأولى.

❁ ❁ ❁

---

(١) قال العلامة ابن كثير في تأويل قول اللَّه تعالى: ﴿ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ أي، لا تستطيعون هرباً من أمر اللَّه وقدره، بل هو محيط بكم لا تقدرون على التخلص من حكمه ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام الحشر، الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ أي: إلا بأمر اللَّه.

تفسير ابن كثير [٤/ ٢٧٦].

قضية دوران الأرض حول نفسها في القرآن

السؤال: أشرتم فضيلتكم إلى أن القرآن أورد بعض الحقائق الكونية مثل قضية دوران الأرض حول نفسها، وهي قضية كونية لم تعرف إلا في العصور الحديثة، فماذا جاء في هذه القضية ؟

الجواب: قضية دوران الأرض حول نفسها، ذكرها اللَّه سبحانه وتعالى في القرآن، يقول سبحانه وتعالى في سورة النمل: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ ﴾ [النمل: ٨٨]، يعني أن الجبال رواس للأرض، مفروض أن تثبتها وتمنعها من الحركة، ومن أن يحدث بها أي خلخلة أو اهتزاز، هذه الجبال هي الرواسي التي تجعل الأرض لا تميل بالإنسان وهي مركز الثبات، إذا نظرت إليها وإلى ضخامتها تعتقد أن الأرض ثابتة في مكانها لا تتحرك خطوة واحدة، ثابتة جامدة، يقول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ ﴾.

لماذا قال اللَّه سبحانه وتعالى ﴿ تَحْسَبُهَا ﴾ ؟ قالها: رحمةً بالعقل البشري، فالإنسان يظن أن الجبال جامدة، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أن هذه الجبال التي نراها أمامنا، ونحسبها جامدة، تتحرك من مكان إلى آخر، ولكنها ﴿ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ ﴾ لماذا ؟ لأن السحاب لا يملك ذاتية الحركة، لا يتحرك بنفسه، إنما تحركه الرياح، فالسحاب بدون الرياح يبقى في مكانه، ولكن الرياح هي التي تدفعه من مكان إلى آخر، ومن هنا فإن قول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ ﴾، يريد أن ينبئنا أن الجبال التي تحسبها جامدة تتحرك ولكنها لا تتحرك بنفسها، بل هي تابعة لحركة أخرى تدفعها، تماماً كما تدفع الرياح السحاب، وإذا كانت الجبال وهي أوتاد الأرض ولا تتحرك ذاتية من نفسها، فما الذي يدفعها ؟ محرك آخر، وما هو المحرك الآخر ؟ إنه الأرض، وكأن الجبال تتحرك بحركة الأرض، فلا بد أن الأرض نفسها تتحرك وتدور، وإلا فكيف تقوم بتحريك الجبال وهي ثابتة ؟ إن الجبال في حركتها تابعة لشيء آخر يتحرك، تماماً كالسحاب الذي يتبع في حركته الرياح والجبال ثابتة فوق الأرض، فلا يوجد محرك آخر إلا الأرض، وهكذا ذكر اللَّه سبحانه وتعالى دوران الأرض بشكل بديع يبين لنا أن الأرض تتحرك وتدور حول نفسها، وأن الجبال التي هي أوتاد الأرض

تتحرك تابعة للأرض في حركتها، وإننا نحسب هذه الجبال جامدة، ولكن قول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ [النمل: ٨٨] محتاج إلى وقفة، ذلك أنه يقدم لنا حقيقة علمية أخرى.

إنك حين تكون فوق جسم متحرك حركة رتيبة، لا اهتزاز فيها، فإنك لا تحس بهذه الحركة إلا إذا قست هذا الجسم إلى جسم ثابت، الطائرة حين تطير بنا، إذا نظرنا من النافذة، فإني أحس بحركة الطائرة وطيرانها، ولكن إذا أغلقنا النوافذ، وكان الجو مستقراً ليس فيه أي اضطراب بحيث لم يصاحب هذا الطيران أي اهتزاز فإنني لا أشعر إطلاقاً بحركة الطائرة، لماذا ؟ لأن كل شيء داخل جسم الطائرة هو ثابت بالنسبة لي، فالمقاعد ثابتة وموقع من يجلسون حولي ثابت، ولا أحس في هذا بأية حركة، وكذلك بالنسبة للقطار والسيارة، أنت حين تغلق النوافذ، وتكون الحركة ذاتية متزنة هادئة لا اهتزاز فيها، فإنك لا تحس بالحركة، ولكن إذا فتحت النافذة وقست الحركة إلى شيء ثابت؛ فإنك تحس بالحركة.

إذن.. فاللّه سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا: أنتم لا يمكنكم أن تدركوا حركة الجبال هذه بحسكم؛ لأن وضعها بالنسبة للأرض ثابت، ووضعها بالنسبة لكم ثابت، ووضعها بالنسبة لكل شيء حولها ثابت، ومن هنا فإنك تحسبها جامدة، ولا تفطن إلى حركتها أبدا؛ لأنه ليس هناك شيء أمامك تقيس الحركة به، ولكني أقول لك إن هذه الجبال تتحرك، وهي في حركتها ليس لها حركة ذاتية؛ أي أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان فوق الأرض، بل تتبع الأرض في دورانها، ثم تتعجب أنت لذلك، فيقول لك اللّه سبحانه وتعالى: لا تتعجب إنه: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾، حينئذ يكون هناك يقين.

بعض الناس يقولون: إن هذا الوصف ينطبق على يوم القيامة، ولكننا نقول لهم: إنه في يوم القيامة لا يكون هناك حسبان، ولكن يكون يقين: يقول: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق: ٢٢].

ويقول اللّه سبحانه وتعالى عن الجبال يوم القيامة: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ [طه: ١٠٥].

ويقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾.

إذن.. في يوم القيامة، ينسف اللّه الجبال، وكل شيء أمامك يكون يقيناً، فأنت ترى الجنة، وترى النار، بل إن كنت من أهل اليقين سترى اللّه في الجنة. فالحسبان في الدنيا، واليقين في الآخرة.

نظرية دارون خرافة

السؤال: ما رأي فضيلتكم في نظرية النشوء والارتقاء لدارون، وقوله: إن الإنسان أصله قرد. هل لهذه النظرية سند من الصحة، أم أن دارون بناها على الظن والتخمين ؟

الجواب: الذي زعم أن أصل الإنسان قرد هل شهد قرداً تحول إلى إنسان ؟! أو هل يستطيع أن يحول قرداً إلى إنسان ؟! ويجب حين نبدأ المناقشة معه، أن نقول له: تعال: هل شاهدت خلق إنسان ؟ سيقول: لا. هل شاهدت خلق القرد ؟ سيقول: لا. هل تستطيع أن تحول قرداً إلى إنسان ؟ سيقول: لا.

إذن.. على أي أساس بنيت نظريتك ؟ سيقول: بالملاحظة والتخمين.

حينئذ نناقشه بالملاحظة والتخمين، نظرية الارتقاء التي يدَّعونها مبنية على التخمين والباطل، وإلا فليقولوا لنا، هل يستطيع إنسان أن يميز بين عصفور وعصفور آخر ؟ أو بين حصان وحصان آخر من نفس الجنس ؟ أو بين قرد وقرد ؟ الجواب بالطبع: لا؛ ولكنك تستطيع أن تميز بين إنسان وملايين البشر رغم أننا مخلوقون بنفس الشكل، فكل منا له عينان وأذنان وأنف وفم ويدان وقدمان إلى آخر ذلك، أي أن الشكل واحد مثل الأمم الأخرى من الناحية الحيوانية، ولكن كل إنسان له صورة تميزه عن ملايين البشر، فأنت حين ترى إنساناً بين الملايين التي تسكن الكرة الأرضية تقول: هذا علي، وهذا إسماعيل، وهذه فاطمة، وهذا أبي، وهذه أختي إلى آخر ذلك، من الذي ميز إنسانا عن إنسان آخر ؟ إذا كان الخلق قد تم بالارتقاء من الناحية الحيوانية، من الذي وضع هذا التمييز ؟ إن الذي ميَّزه هو اللّه سبحانه وتعالى؛ ليستقيم ذلك مع الحياة التي رسمها اللّه له، وهو مميز في الدنيا؛ ليحاسب في الآخرة، فلو أن الإنسان غير مميز لكانت حياته على الأرض مستحيلة التنظيم، ولكان من غير الممكن أن يكون شهيداً على نفسه في الآخرة، ولقد وضع اللّه التميز في الإنسان بإعجاز شديد، حتى إن بصمة الإصبع لا تتشابه بين ملايين الخلق، منذ بداية الدنيا إلى نهايتها، والإنسان صورة لا تتكرر، ولعل أصدق دليل على ذلك صور وتماثيل الملوك التي تركوها في الأرض وماتوا منذ

مئات السنين، فأنت تستطيع أن تميز صورة رمسيس، وكليوباترا، ونابليون وغيرهم عن بقية الأحياء، رغم أنهم ماتوا ورحلوا عن هذا العالم، فالإنسان قائم بذاته لا يتكرر رغم تكرار الخلق؛ ليكون الحساب في الآخرة، هذا التمييز الدقيق المعجز لا يمكن أن يأتي من خلق نشأ بالارتقاء أو الصدفة [١]، ولكنه إعجاز اللّه وقدرته وآياته التي وضعها في الإنسان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

❁ ❁ ❁

---

(١) هذه القضية تعتبر منتهية عند المسلمين؛ وذلك لأن اللّه فَصَّلَ القول فيها في كتابه العظيم؛ حيث قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

كما أن اللّه سبحانه وتعالى فصل مراحل خلق الإنسان في رحم الأم فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون].

سر الروح

السؤال: لقد استطاع العلماء أن يصلوا إلى كثير من أسرار الكون، ولكن الروح ما زالت سرًّا دون العلم، فما سبب ذلك ؟

الجواب: إن الإنسان في علاقته باللَّه سبحانه وتعالى يدخل في حالات متعددة، تتغير فيها طبيعة اتصاله بما هو غيب عنه، حتى بالنسبة للشخص الواحد، فأنا مثلًا في اليقظة أرى أشياء بقدر ما تعطيني هذه اليقظة من وعي دنيوي، أو بقدر ما يحجبه عني جسدي المادي من أشياء لا أستطيع أن أراها، ولا أن أدركها، فإذا ما غلبني النوم مثلًا، تغير الحال، وتغير قانوني مع الكون، وأصبحت أرى أشياء لا أرها في يقظتي، ولا تدخل في نطاق العقل البشري، كأن أرى نفسي أطير في الهواء بدون طائرة، أو أرى نفسي في أماكن لم أرها في حياتي، أو أتحدث مع أشخاص انتقلوا إلى رحمة اللَّه تعالى منذ مدة طويلة، وفارقوا هذه الدنيا، أراهم رؤية العين، وأتحدث إليهم حديث البشر للبشر، أو أرى أشياء عجيبة تحدث لا تتفق مع العقل والمنطق، كأن أسقط من فوق قمة جبل عالٍ جداً ولا يصيبني سوء، أو يضربني إنسان بآلة مميتة، ولا أموت، والعجب أن الرؤيا تتم والعين مغلقة تماماً، أي أن كل ما أراه لا يتعلق ببصري الدنيوي الذي يحتم وجود شيئين:

أولهما: أن تكون العين مفتوحة.

وثانيهما: أن يكون هناك ضوء أو بصيص من الضوء.

فإذا أغمضت عيني في الحياة الدنيا فإنني لا أرى، وإذا كان الظلام حالكاً فإنني لا أرى، ولكن كلا الشيئين يكون موجوداً وأنا نائم، فالعين مغلقة والظلام حالك، ومع ذلك أرى بوضوح شديد.

إذن . . فالروح لها قوانين مختلفة عن قوانين الجسد، وهي يمكن أن تلتقي مع الذين فارقوا الحياة الدنيا، وتتحدث معهم، والإنسان حين يكون نائماً ينتقل إلى عالم آخر غير عالم اليقظة؛ فتلتقي روحه مع أمه وأبيه، فإذا استيقظ ضاع كل هذا، وانتقل من قانون إلى قانون، حيث يخضع للقانون الظاهر، ويختفي عنه كل ما هو

مخالف لذلك؛ لأنه في الحياة ينتقل بين قانونين من قوانين الكون مختلفين تماماً، فهو حين اليقظة يتبع قانوناً، وخلال النوم يخضع لقانون آخر.

والعلم في هذه الحالة عاجز عن أن يفسر لنا هذه الظاهرة، فإذا سألت أحذق العلماء: كيف يفسر لنا الظواهر التي تحدث لنفس الإنسان في اليقظة والنوم؟ حدثك بكلام لا دليل عليه من العلم، فإذا سألته أن يشرح لك القانون الذي يخضع له الإنسان حين ينام، وكيف يمكن أن يرى وعيناه مغمضتان؟ وأن يتكلم ولسانه لا يتحرك؟ وأن يسير ويجري وقدماه راقدتان فوق السرير؟ وقف عاجزاً عن أن يقدم لك هذا القانون، وحين تصل إلى هذه النقطة التي تتجاوز فيها الأشياء حدود العقل، وتخالف ما نعتاد، نضعها تحت: « سبحان اللّه »، فنحن لا نعرف قوانين الروح، والجسد قائم، ولا نعرف قوانين الروح بعد أن تفارق الجسد، وكل حديث عن ذلك لا يدخل في نطاق العلم، وإنما يدخل في نطاق الظن والتخمين؛ ولذلك فاللّه الذي خلق بقدرته هذه القوانين كلها، أطلعنا على ما شاء منها، واختص نفسه بما شاء ولذلك فإن كل هذه القوانين هي من صنع اللّه الذي ليس كمثله شيء، وبما أننا لا نستطيع أن نصل إلى علم اللّه سبحانه وتعالى؛ فعلينا أن نُسلِّم بقول اللّه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(١) [الإسراء: ٨٥].

---

(١) قال العلامة ابن كثير في تفسيره للآية: وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا على أقوال:

أحدها: أن المراد أرواح بني آدم. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ الآية، وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ أخبرنا عن الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد وإنما الروح من اللّه ولم يكن نزل عليه شيء فيه فلم يجر إليهم شيئاً فأتاه جبريل فقال له: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فأخبرهم النبي ﷺ بذلك.

فقالوا من جاءك بهذا؟

قال: « جاءني به جبريل من عند اللّه ».

فقالوا له: واللّه ما قاله لك إلا عدونا. فأنزل اللّه: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ وقيل: المراد بالروح ههنا جبريل، قاله قتادة، قال: وكان ابن عباس يكتمه.

وقيل: المراد به ههنا ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها، قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ يقول: الروح ملك.

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد اللّه بن عرس المصري حدثنا وهب بن روق بن =

....

= هبيرة حدثنا بشر بن بكر حدثنا الأوزاعي، حدثنا عطاء عن عبد اللّه بن عباس قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « إن للّه ملكاً لو قيل له التقم السموات السبع والأرضين بلقمة واحدة لفعل، تسبيحه: سبحانك حيث كنت »، وهذا حديث غريب بل منكر.
وقال أبو جعفر بن جرير رحمه اللّه: حدثني عليّ، حدثني عبد اللّه حدثني أبو مروان يزيد بن سمرة صاحب قيسارية عمن حدثه عن عليّ بن أبي طالب رضي اللّه تعالى عنه أنه قال في قوله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ قال: هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه لكل وجه منها سبعون ألف لسان لكل لسان منها سبعون ألف لغة؛ يسبح اللّه تعالى بتلك اللغات كلها يخلق اللّه من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة. وهذا أثر غريب عجيب واللّه أعلم.
وقال السهيلي روي عن علي أنه قال: هو ملك له مائة ألف رأس لكل رأس مائة ألف وجه في كل وجه مائة ألف فم في كل فم مائة ألف لسان يسبح اللّه تعالى بلغات مختلفة.
قال السهيلي: وقيل المراد بذلك طائفة من الملائكة على صور بني آدم.
وقيل طائفة يرون الملائكة ولا تراهم فهم للملائكة كالملائكة لبني آدم.
وقوله: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ أي من شأنه ومما استأثر بعلمه دونكم، ولهذا قال: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أي: وما أطلعكم من علمه إلا على القليل فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى.
والمعنى: أن علمكم في علم اللّه قليل وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى ولم يطلعكم عليه كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى، وسيأتي إن شاء اللّه في قصة موسى والخضر أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة فنقر في البحر نقرة، أي شرب منه بمنقاره. فقال يا موسى ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم اللّه إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر، أو كما قال صلوات اللّه وسلامه عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.
وقال السهيلي: قال بعض الناس لم يجبهم عما سألوا لأنهم سألوا على وجه التعنت وقيل أجابهم، وعول السهيلي على أن المراد بقوله: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ أي من شرعه أي فادخلوا فيه وقد علمتم ذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة وإنما ينال من جهة الشرع وفي هذا المسلك الذي طرقه وسلكه نظر. واللّه تعالى أعلم.
ثم ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر وقرر أن الروح التي ينفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم فهي إما نفس مطمئنة؛ أو أمارة بالسوء. قال: كما أن الماء هو حياة الشجر ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار ماء مصطاراً =

....

۞ ۞ ۞

= أو خمراً ولا يقال له ماء حينئذ إلا على سبيل المجاز، وكذا لا يقال للنفس روح إلا على هذا النحو وكذا لا يقال للروح نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه، فحاصل ما تقول إن الروح هي أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن فهي هي من وجه لا من كل وجه، وهذا معنى حسن واللّه أعلم.

قلت: وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامها وصنفوا في ذلك كتباً ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ بن منده في كتاب سمعناه في الروح.

تفسير ابن كثير [٣/ ٥٩ : ٦١].

حكمة تقديم السَّمْع على البصر في القرآن

السؤال: لماذا قدم اللّه تعالى السمع على البصر في آيات القرآن الكريم ؟ وما الحكمة في ذلك ؟

الجواب: الإنسان حين يفقد بصره، يفقد كل شيء، يعيش في ظلام دائم، لا يرى شيئاً على وجه الإطلاق، يصطدم بكل شيء، ولكن حين يفقد سمعه فإنه يرى، وحينئذ تكون المصيبة أهون، ولكن اللّه سبحانه وتعالى حين يذكر السمع يقدمه دائماً على البصر.

إن هذا من إعجاز القرآن الكريم، لقد فضل اللّه سبحانه وتعالى السمع على البصر؛ لأنه أول ما يؤدي وظيفته في الدنيا، لأنه أداة الاستدعاء في الآخرة؛ فالأذن لا تنام أبداً.

إن السمع أول عضو يؤدي وظيفته في الدنيا، فالطفل ساعة الولادة يسمع عكس العين فإنها لا تؤدي مهمتها لحظة مجيء الطفل إلى الدنيا، فكأن اللّه سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا: إن السمع هو الذي يؤدي مهمته أولًا، فإذا جئت بجوار طفل ولد منذ ساعات، وأحدثت صوتاً مزعجاً فإنه ينزعج ويبكي، ولكنك إذا قربت يدك من عين الطفل بعد الميلاد مباشرة فإنه لا يتحرك، ولا يحس بالخطر، هذه واحدة، وإذا نام الإنسان، فإن كل شيء يسكن فيه إلا سمعه، إنك إذا أردت أن توقظ النائم ووضعت يدك قرب عينيه فإنه لا يحس، ولكنك إذا أحدثت ضجيجاً بجانب أذنه فإنه يقوم من نومه فزعاً، هذه الثانية. أما الثالثة فهي أن الأذن هي الصلة بين الإنسان والدنيا، فاللّه سبحانه وتعالى حين أراد أن يجعل أهل الكهف ينامون مئات السنين قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١]

ومن هنا عندما تعطل السمع استطاعوا النوم مئات السنين دون أي إزعاج، ذلك أن ضجيج الحركة في النهار يمنع الإنسان النوم العميق، وسكونها بالليل يجعله ينام نوماً عميقاً، وهي لا تنام ولا تغفل أبداً.

على أن هناك شيئاً آخر نلاحظه، هو أن اللّه سبحانه وتعالى يأتي بكلمة السمع مفردة دائماً، وكلمة الأبصار مجموعة، يقول اللّه سبحانه وتعالى في سورة فصلت: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ﴾.

لماذا تأتي كلمة السمع مفردة، وكلمة البصر مجموعة ؟ مع أنه كان يمكن أن يقول: أسماعكم وأبصاركم، وكان من المنطقي أن يكون هناك سمع وبصر، أو أسماع وأبصار، ولكن اللّٰه سبحانه وتعالى بهذا التعبير الدقيق أراد أن يكشف لنا دقة القرآن الكريم، فالبصر حاسة يتحكم فيها الإنسان بإرادته، فأنا أستطيع أن أبصر ولا أبصر، وأستطيع أن أغمض عيني عما لا أريد أن أراه، أو أدير وجهي أو أدير عيني بعيداً عن الشيء الذي أريد أن أتجاهله، ولكن الأذن ليس لها اختيار في أن تسمع أو لا تسمع، فأنت في حجرة يتكلم فيها عشرة أشخاص تصل أصواتهم جميعاً إلى أذنيك، سواء أردت أو لم ترد، أنت تستطيع أن تدير بصرك فترى منهم من تريد أن تراه ولا ترى من لا تريد رؤيته، ولكنك لا تستطيع أن تسمع ما تريد أن تسمعه، ولا تسمع ما لا تريده، قد تتجاهله وتحاول أن تبدو وكأنك لم تسمعه، ولكنه يصل إلى أذنيك سواء أردت أو لم ترد، إذن.. فالأبصار تتعدد، أنا أرى هذا، وأنت ترى هذا، وثالث يرى هذا، إلى آخر تعدد الأبصار، وإنسان يغمض عينيه فلا يرى شيئاً، ولكن بالنسبة للسمع فنحن جميعاً ما دمنا جالسين في مكان واحد، فكلنا نسمع نفس الشيء، ومن هنا اختلف البصر، ولكن توحّد السمع، كل واحد له بصر، ينظر به إلى المكان الذي يريده، ولكننا كلنا نتوحد في السمع فيما نريد، وما لا نريد أن نسمع، ومن هنا جاءت كلمة الأبصار، بينما توحدت كلمة السمع، ولم تأت كلمة الأسماع، على أن الأذن مفضلة على العين، لأنها لا تنام، والشيء الذي لا ينام أرقى في الخلق من الشيء الذي ينام، فالأذن لا تنام أبداً منذ ساعة الخلق، إنها تعمل منذ الدقيقة الأولى للحياة، بينما باقي أعضاء الجسم بعضها ينتظر أياما وبعضها ينتظر سنوات.

والأذن لا تنام، فأنت حين تكون نائماً تنام كل أعضاء جسمك، ولكن الأذن تبقى متيقظة، فإذا أحدث أحد صوتاً بجانبك وأنت نائم؛ قمت من النوم على الفور، ولكن إذا توقفت الأذن عن العمل؛ فإن ضجيج النهار وأصوات الناس، وكل ما يحدث في هذه الدنيا من ضجيج لا يوقظ النائم؛ لأن آلة الاستدعاء وهي الأذن معطلة، كما أن الأذن هي آلة الاستدعاء يوم القيامة حين يُنْفخ في الصور.

والعين تحتاج إلى نور حتى ترى، تنعكس الأشعة على الأشياء، ثم تدخل إلى العين فترى، فإذا كانت الدنيا ظلاما فإن العين لا ترى، ولكن الأذن تؤدي مهمتها في الليل والنهار، في الضوء والظلام، والإنسان متيقظ، والإنسان نائم، فهي لا تنام أبداً، ولا تتوقف أبداً.

أسرار جسم الإنسان

السؤال: اللّه تعالى أخبرنا في القرآن الكريم بأنه خلقنا من تراب، فما هي حكاية العقل الذي يفكر ويتأمل ويبدع، مع أنه في الأصل حفنة من تراب خلقها اللّه تعالى ؟

الجواب: إن العقل البشري الذي وضعه اللّه سبحانه وتعالى في مساحة صغيرة جداً مكون من ألف مليون خلية عصبية، هذه الألف مليون خلية تعمل وتترجم وتهاجم وتدافع وتعطي الإشارات، هناك ثلاثة آلاف شُعَيْرة تتذوق الطعام لتعطيك طعم الحلو والمر، وكل الألوان المختلفة لتذوق الطعام، وإذا اقترب شيء محرق من جسدك صَرخت الثلاثين ألف خلية في مخك: « احترس » وأشعرتك بالنار التي تقترب منها، هذا الإعجاز لا يمكن أن يتم بالصدفة أو الارتقاء كما يزعمون أبداً. والطفرة رهيبة بين الإنسان وغيره من المخلوقات، لا يمكن أن تكون إلا من صنع اللّه سبحانه وتعالى. ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة: ٧] بأن قال له: ﴿ كُن ﴾ فكان، هذا الإنسان الذي يعيش في الأرض، ويبني ويُعمِّر، ويصعد إلى القمر، انظر إلى كل ما يستطيع أن يفعله البشر، وما سيستطيعون أن يفعلوه في المستقبل؛ تعرف ماذا يحدث إذا أراد اللّه تعالى شيئاً.

❁ ❁ ❁

جلد الإنسان وإذاقته للعذاب !

السؤال: قال اللّه تعالى عن الكفار الذين يعذبون في النار: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦] لماذا خصّ اللّه الجلد بالذات في هذه الآية بإذاقة العذاب ؟

الجواب: هناك حقيقة علمية تؤكد أن كل أعصاب الإحساس موجودة تحت الجلد مباشرة، وأن هذه الأعصاب التي تشعر بالألم وتجعل الإنسان يحس به وتنقله إلى المخ، مكانها تحت الجلد مباشرة.

هذا إعلان لحقيقة كونية يقررها اللّه في القرآن، وهي أن الإحساس يتم بأعصاب موجودة تحت الجلد مباشرة، وأن اللّه سبحانه كلما أراد أن يذيق الكفار العذاب بدل جلودهم التي احترقت وماتت فيها أعصاب الإحساس بجلود سليمة لم تحترق ليذوقوا العذاب مرة أخرى.

فحينما يأتي الطب ليقول لنا: إن أعصاب الإحساس في الجسم تحت الجلد مباشرة، نقول: إن اللّه سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهذه الحقيقة في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً، وآمنا بها، وليت الذين اكتشفوها ويعلمونها ويدرسونها يؤمنون بها، ويشهدون بأنه لا إله إلا اللّه الخلاق، العليم بخلقه[1] .

---

(١) قال أبو حيان في تأويل قوله اللّه تعالى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ انتصاب كل على الظرف لأنه مضاف إلى ما المصدرية الظرفية، والعامل فيه بدلناهم، وهي جملة فيها معنى الشرط، وهي في موضع الحال، والعامل فيها نصليهم. والتبديل على معنيين، تبديل في الصفات مع بقاء العين، وتبديل في الذوات بأن تذهب العين وتجيء مكانها عين أخرى، يقال: هذا بدل هذا. والظاهر في الآية هذا المعنى الثاني. وأنه إذا نضج ذلك الجلد وتهري وتلاشى؛ جيء بجلد آخر مكانه، ولهذا قال: ﴿ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾ .

قال السدي: إن الجلود تُخلق من اللحم، فإذا أحرق جلد بدله اللّه من لحم الكافر جلداً آخر. وقيل: هي بعينها تعاد بعد إحراقها، كما تعاد الأجساد بعد البلى في القبور، فيكون ذلك عائداً إلى الصفة، لا إلى الذات.

=

....

= وقال الفضيل: يجعل النضيج غير نضيج. وقيل: تبدل كل يوم سبع مرات. وقال الحسن: سبعين. وأبعد من ذهب إلى أن الجلود هي سرابيل من قطران تخالط جلودهم مخالطة لا يمكن إزالتها. فيبدل اللَّه تلك السرابيل كل يوم مائة مرة. أو كما قيل: مائة ألف مرة. وسميت جلوداً لملابستها الجلود. وأبعد أيضاً من ذهب إلى أن هذا استعارة عن الدوام، كلما انتهى فقد ابتدأ من أوله، يعني، كلما ظنوا أنهم نضجوا واحترقوا وانتهوا إلى الهلاك أعطيناهم قوة جديدة من الحياة، بحيث ظنوا أنهم الآن حدثوا وجددوا، فيكون المقصود بيان دوام العذاب وعدم انقطاعه، وقال ابن عباس: يلبسهم اللَّه جلوداً بيضاء كأنها قراطيس.

وقال عبد العزيز بن يحيى: يلبس أهل النار جلوداً تؤلمهم ولا تؤلم هي.

﴿ لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [الأنبياء: ٥٦] أي ذلك التبديل كلما نضجت الجلود، هو ليذوقوا ألم العذاب. وأتيَ بلفظ الذوق المشعر بالإحساس الأول وهو آلم، فجعل كلما وقع التبديل كان لذوق العذاب، بخلاف من تمرن على العذاب.

وقال الزمخشري: ليذوقوا العذاب ليدوم لهم دونه ولا ينقطع، كقولك للعزيز: أعزك اللَّه أي أدامك على عزك، وزادك فيه. البحر المحيط [٣/ ٧٥].

وقال القرطبي: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم ﴾ يقال: نضج الشيء نُضْجاً ونَضْجاً، وفلان نضيج الرأي مُحكمهُ. والمعنى في الآية، تبدل الجلود جلوداً أخرى. فإن قال من يطعن في القرآن من الزنادقة: كيف جاز أن يعذب جلداً لم يَعصِه ؟ قيل له: ليس الجِلد بمعذب ولا معاقب، وإنما الألم واقع على النفوس؛ لأنها هي التي تُحس وتعرف فتبديل الجلود زيادة في عذاب النفوس. يدل عليه قوله تعالى: ﴿ لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧]. فالمقصود تعذيب الأبدان وإيلام الأرواح، ولو أراد الجلود لقال، ليذقن العذاب. مقاتل: تأكله النار كل يوم سبع مرات. الحسن: سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا فعادوا كما كانوا. ابن عمر: إذا احترقوا بدلت لهم جلود بيض كالقراطيس. وقيل عني بالجلود السرابيل، كما قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ . . . ﴿٥٠﴾ ﴾ [إبراهيم] سميت جلوداً للزومها جلودهم على المجاورة، كما يقال للشيء الخاص بالإنسان، هو جِلدة ما بين عينيه. وأنشد ابن عمر رضي اللَّه عنه،

يلومونني في سالِم وألومهم ... وجِلدةُ بَينَ العينِ والأنفِ سالمُ

فكلما احترقت السرابيل أُعيدت. قال الشاعر:

كسا اللؤمُ تَيماً خضرةً في جلودها ... فويلٌ لتَيم مِن سرابِيلها الخُضرِ

فكنى عن الجلود بالسرابيل. وقيل: المعنى أعدنا الجلد الأول جديداً، كما تقول للصائغ: صُغ لي من هذا الخاتم خاتماً غيره؛ فيكسره ويصوغ لك منه خاتماً. فالخاتم المصوغ هو الأول إلا أن الصياغة تغيرت والفضة واحدة. وهذا كالنفس إذا صارت تراباً =

....

۞ ۞ ۞

= وصارت لا شيء ثم أحياها اللَّه تعالى؛ وكعهدك بأخ لك صحيح، ثم تراه بعد ذلك سقيماً مُدْنِفا فتقول له، كيف أنت ؟ فيقول: أنا غير الذي عهدت. فهو هو، ولكن حاله تغيرت. فقول القائل: أنا غير الذي عهدت، وقوله تعالى: ﴿ غَيْرَهَا ﴾ مجاز، ونظيره قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وهي تلك الأرض بعينها إلا أنها تغير آكامها وجبالها وأنهارها وأشجارها، ويزاد في سعتها وَيُسَوَّى ذلك منها.
تفسير القرطبي [٥/ ٢٥٣، ٢٥٤].

حكمة الأمثال في القرآن

السؤال: لماذا ضرب اللَّه الأمثال ؟

الجواب: اللَّه سبحانه وتعالى حين ضرب الأمثال ربطها بموكب الإيمان، وربطها بالهدى والضلال، فكأنما كل هذه الأمثال إنما ترتبط بقضايا إيمانية أراد اللَّه سبحانه وتعالى أن يضعها أمام المؤمن ليزداد إيماناً، وأراد اللَّه أن يرد بها على الكافرين.

إذا أخذنا الأمثال في حياتنا، وجدنا أنها تقرب المعاني، فمثلًا حينما تواجه إنساناً يتحداك أو يحاول أن ينال منك مغتراً بقوته، مزهواً بقدرته، تقول له: إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً، ولا يوجد ريح هنا ولا إعصار؛ حتى تضرب مثل هذا المثل، ولكنك تريد أن تقول له: إذا كنت قوياً فأنا أقوى منك، فاستخدمت في هذا كلاماً يعطي المعنى دون أن تتقيد بالأشخاص.

وهناك مثل آخر يقول: « قبل الرماية تُملأ الكنائن ». معنى ذلك: أنك قبل أن تصل إلى ميدان الحرب وتقاتل، وتبدأ الرمي بالسهام وتحملها وراء ظهرك، لا بد أن تكون قد ملأتها، وإلا لو ذهبت إلى الحرب وكنانتك خالية؛ فلن تستطيع أن تقاتل.

تأتي إلى ابنك مثلًا وتجده طوال السنة يلعب ولا يذاكر، ثم في ليلة الامتحان يجلس طوال الليل محاولًا أن يستوعب، فتقول له: قبل الرماية تُملأ الكنائن، أي أنك لم تستعد طوال العام ولم تذاكر. والمعنى: إن كنانتك خالية، فكيف تستطيع أن تذهب إلى الامتحان غداً، وكان عليك أن تستعد قبل دخول الامتحان.

والمثال هنا لا يرتبط بواقع الشيء، فلا ابنك ذاهب للقتال، ولا توجد سهام ولا كنائن، بحيث يكون التشبيه مطابقاً للأحداث، ولكنك لا تريد ذلك، بل تريد أن تقرب المعنى أو أن تعبر عن المعنى، بصرف النظر عن الواقع الحادث، فبالتالي فإنك في هذه الحالة تجعل السامع يفهم ما تريد.

وهكذا باقي الأمثال، كلها لا تشبه بشيء بعينه، بل إن الذي تقوله من واقع أحداثه قد يكون مختلفاً عن الذي يحدث فعلًا، ولكنه يعطيك نفس المعنى ويقربه إلى عقلك، ويجعلك تفهم وتعرف المراد منه.

البعوضة وإعجاز خلق اللَّه

السؤال: لماذا ضرب اللَّه مثلًا بالبعوضة مع أنها من أقل المخلوقات حجماً ؟ ولماذا تحدى اللَّه بها العلماء، مع أنه خلق أشياء كبيرة لوتحداهم بها لاعترفوا بعجزهم عن خلقها ؟

الجواب: إذا أخذنا البعوضة على أنها قليلة الحجم بالنسبة للإنسان، فإن في هذا إظهار عظمة الخالق، وإذا أخذناها على أساس ضعف قوتها بالنسبة لقوة الإنسان؛ فإن في هذا إظهار قوة الخالق سبحانه.

وإذا تأملنا التقدم العلمي الذي تم في العالم، نجد أن هذا التقدم والرقي يسير نحو الدقة، ففي أول الأمر مثلًا كانت الساعة تصنع كبيرة ضخمة تحتاج إلى مساحة، الآن هناك ساعة توضع مكان فص الخاتم بل وأقل من ذلك، وقديماً كان المذياع مثلًا يحتاج مساحة كبيرة، أما الآن فقد أصبح حجمه أقل من حجم الكف، والسيارة مثلًا كانت كبيرة الحجم قليلة السعة، وهي الآن تتطور، والآلات الحاسبة كانت في الماضي لا يستطيع أحد أن يحملها من مكان إلى آخر لكبر حجمها، فأصبحت الآن توضع في « الجيب » وتقوم بعمليات متعددة، وهكذا كلما ارتقى العلم وتقدمت البشرية، مالت الأشياء إلى الدقة وصغر الحجم.

بل إنه في الماضي مثلًا كان لا بد للطائرات أن تحمل أطنانا من القنابل؛ حتى تستطيع أن تدمر حياً من الأحياء، وكان لا بد أن تشترك عشرون أو ثلاثون طائرة؛ لأن حجم القنابل الذي يحمل كان كبيراً جداً، أما الآن فإن طائرة واحدة تحمل قنبلة واحدة، تستطيع أن تدمر مدينة بأكملها.

إذن.. الدقة وصغر الحجم هو من علامات التقدم العلمي، أو الرقي في العلم.

واللَّه سبحانه وتعالى يريد أن يلفت الكفار: أنتم نظرتم إلى صغر حجم البعوضة بالنسبة لحجم الإنسان فاحتقرتموها، ولكنكم لم تلتفتوا إلى دقة الخلق، فإن هذه البعوضة بحجمها المتناهي في الصغر تحمل معها كل أجهزة الحياة: من

عيون ترى، وأجنحة تطير، وأجهزة جنسية لحفظ النوع، وجهاز هضمي للطعام وإخراج الفضلات وكل مقومات الحياة.

لم تنظروا إلى دقة الصنع وعظمة الخالق الذي وضع كل سبل الحياة في هذه المخلوقة ذات الحجم الصغير، ولو أنكم التفتم إلى هذا لعرفتم الحكمة من المثل، ولأدركتم أن هذه البعوضة التي تستهينون بها هي مثل حي وضعه اللَّه أمامكم على دقة الخلق وقدرة الخالق، في أن يجمع كل تلك الأجهزة اللازمة لحياة هذا الكائن الحي في هذا الحجم الصغير.

واللَّه سبحانه وتعالى لم تقف قدرته عند خلق البعوضة في هذا الحجم الصغير، بل هناك ما هو أصغر من ذلك بكثير خلَقَه اللَّه؛ ولذلك فليس هنا نهاية قدرته، بل له سبحانه القدرة المطلقة، وقد تقدم بنا العلم، فاستطعنا أن نرى أشياء لم نكن نراها لدقة حجمها، ووجدنا أن هذه الأشياء كلما صغر حجمها؛ زادت قوتها وقدرتها، فالجراثيم مثلًا على دقة حجمها تستطيع أن تقتل أقوى الكائنات الحية وتهلكه، دون أن يستطيع النجاة منها، بل إن أخطر الجراثيم خطراً على الحياة البشرية، هو الذي لا نستطيع أن نراه حتى الآن لدقة حجمه؛ فلا يظهر تحت الميكروسكوب الإلكتروني، وهذا لا يستطيع العلماء أن يقاوموه، أو أن يجدوا له علاجاً؛ لأنهم لا يرونه، ومن ثم لا يستطيعون إجراء التجارب العلمية عليه لدرء خطره؛ ولذلك يصبح هذا المخلوق المتناهي في صغر الحجم هو أكثر خطرا على الإنسان من الجراثيم التي تُرى، ولا يستطيع أحد أن يعرف الداء ليجد له الدواء، ولذلك فإن المشكلة التي تحير العلماء في كثير من الأمراض هي التي لا يستطيعون معها عزل الميكروب المسبب للمرض، الأمر الذي لم يمكنهم من دراسته وإجراء التجارب والفحوصات عليه.

بل إن من أكثر الأشياء دقة، وربما فتكاً، هي الأسلحة التي لا ترى، كاستخدام أشعة الليزر مثلًا، وهذه وحدها هي القادرة على تدمير الأقمار الصناعية، أو إصابتها في الفضاء؛ للدقة المتناهية، وكذلك الأسلحة الكيماوية التي تنتشر في الجو، فتقتل عشرات الألوف في لحظات، مع أن أحداً لا يراها، وربما لا يميز الإنسان رائحتها [١].

---

(١) قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

=

....

۞ ۞ ۞

= قال ابن كثير: يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ أي: لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به ﴿ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ﴾ أي: أنصتوا وتفهموا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ﴾ أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك كما قال الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا شريك عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة مرفوعاً قال: « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا مثل خلقي ذرة أو ذبابة أو حبة » وأخرج صاحبا الصحيح من طريق عمارة عن أبي زرعة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل: « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة ».

ثم قال تعالى أيضاً: ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ أي: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال: ﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ قال ابن عباس: الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب، واختاره ابن جرير وهو ظاهر السياق، وقال السدي وغيره ﴿ ٱلطَّالِبُ ﴾ العابد ﴿ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ الصنم.

ثم قال: ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ أي: ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ أي: هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ ﴾ [البروج] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨] وقوله: ﴿ عَزِيزٌ ﴾ أي: قد عز كل شيء فقهره وغلبه فلا يمانع ولا يغالب لعظمته وسلطانه؛ وهو الواحد.

ابن كثير [٣/ ٢٢٨].

اللّٰه تعالى يتحدى الناس أن يخلقوا ذبابة

السؤال: لقد تحدى اللّٰه الناس أن يخلقوا ذبابة، وهي أضعف المخلوقات فقال سبحانه في كتابه العزيز: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحج] نريد إلقاء الضوء على هذا المثل !!

الجواب: في هذا المثل تحدٍّ للبشرية كلها، ذلك أن اللّٰه سبحانه وتعالى يقول لهم: إنكم وما تدعون من دون اللّٰه من آلهة بزعمكم أو من علم أرضي؛ لن تخلقوا الذباب الذي تظنونه مخلوقاً تافهاً، ولو اجتمعتم جميعاً، ولقد كان هذا المثل تحدياً للناس وما يعبدون من أصنام وآلهة مزيفة عاجزة عن أن تعطي الحياة لأحد حتى ولو كان للذبابة؛ ذلك المخلوق الضعيف، ثم يتقدم الزمن وتتقدم الحضارات والعلوم والاختراعات، ويصل الإنسان إلى القمر، وقد يصل إلى المريخ والزهرة في المستقبل، فالعلم يأتي كل يوم باختراع مذهل لا تصدقه العقول، وهنا تسمع من المفتونين بالعلم، الخالية قلوبهم من دين اللّٰه تعالى يقول لك: لقد انتهى عصر الإيمان، وبدأ عصر العلم، وترد أنت عليهم بهذا المثل، إن اللّٰه قد تحداكم أن تهبوا الحياة لمخلوق ضعيف.

ولم يتحداكم بأن تخلقوا كونا مثل الكون الذي خلقه اللّٰه سبحانه وتعالى، ولا شمساً تضيء ملايين السنين، ولا نجوماً ولا قمراً، وكلها معلقة بالفضاء لا يمسكها أن تقع على الأرض إلا قدرة اللّٰه سبحانه وتعالى، ولا تحداكم بأن تخلقوا أرضاً مثل الكرة الأرضية التي تعيشون عليها، ولا نِعماً مثل النِّعم التي استودعها اللّٰه تعالى باطن الأرض وظهرها من ماء وهواء، وتربة خصبة تنبت الزرع ومعادن وبترول وخلافه. ولا تحداكم أن تخلقوا إنساناً مثل ملايين البشر الذين خلقهم اللّٰه سبحانه وتعالى، ولكنه تحداكم أن تخلقوا ذبابة، وتحداكم أن تجتمعوا من أجل ذلك، وقال: إنكم حتى لو اجتمعتم فلن

تفلحوا، وكان التحدي للناس جميعاً على إطلاقهم.

ولكي يبين اللَّه سبحانه وتعالى أنه هو الذي يعطي العلم للإنسان، وهو الذي يكشف له عن أسرار وضعها في كونه منذ خلقه؛ فقد كشف لكم اللَّه عن أسرار جعلتكم قادرين على غزو الفضاء، وعلى السير فوق القمر، وعلى اكتشاف خصائص مذهلة في الكون، ولكنه حجب عنكم العلم الذي تحداكم فيه، وهو خلق الخلية الحية.

وقول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ﴾ وكلام اللَّه لا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة، وهذا معناه أنه لا بد أن نستمع لهذا المثل في كل عصر، وحتى قيام الساعة، وهو مثل حقيقي في كل العصور، أي: أنه يقيناً لن يأتي عصر يستطيع أن يُخلق فيه ذبابة مهما تقدم به العلم ومهما ارتقى، ومن هنا فإن اللَّه سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى ذلك، فيقول: ﴿ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ﴾، ثم يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

وهكذا كان التحدي من اللَّه سبحانه و على إطلاقه، أي الذين تدعون من دون اللَّه من آلهة، وعلم، وعلماء، وأصحاب قدرة، وأصحاب نفوذ، وشياطين، وجان، وكل من تستطيعون أن تدعوا من دون اللَّه، قوموا بدعوتهم، واجمعوهم جميعاً، وقولوا لهم: تعالوا واخلقوا لنا ذبابة واحدة، فإن استطاعوا يكن لكم العذر في دعوتهم، ولكن اللَّه يقول لنا: إنهم غير مستطيعين، وحتى الآن، وحتى هذه اللحظة لم يستطع علماء الدنيا كلها، ولا معامل الدنيا كلها ولا أبحاث الدنيا كلها، أن تخلق جناح ذبابة، أو حتى خلق الخلية الحية للمادة، بحيث يستطيع أي مكابر أو جاحد أن يقول هذا من خلق الإنسان ولن يستطيعوا.

وفي هذه الآية إعجاز كبير؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى يعلم أنه سيأتي بعض الناس بعد ألوف السنين ليقولوا: انتهى عصر الإيمان، وبدأ عصر العلم؛ فرد اللَّه سبحانه وتعالى عليهم قبل أن يقولوها وقال لهم: إذا كان عصر الإيمان قد انتهى وعصر العلم قد بدأ، فاللَّه سبحانه وهو الذي خلق هذا الكون بما فيه، ومن فيه، ولايريد منكم إلا أن تخلقوا ذبابة واحدة؛ لتثبتوا دعواكم، وحتى تقدموها حيثية لهذا الادعاء، واللَّه يقول لكم قبل أن تقدموا على ذلك: إنكم لن تقدروا، أي: إنه يبلغكم بالنتيجة قبل أن تبدأوا؛ لتعلموا أن اللَّه بكل شيء عليم.

واللَّه سبحانه وتعالى؛ يزيد في تحقير الكافرين والمنافقين، ويقول لهم: ربما

كانتَ مسألة الذبابة هذه صعبة عليكم، ولذلك سأيسر لكم الأمر: إذا أخذ الذباب منكم شيئاً هل باستطاعتكم أن تستعيدوه ؟! ثم يزيد اللَّه في التحدي فيقول: وحتى هذا لن تستطيعوه، ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ ﴾ [الحج: ٧٣] أي أن اللَّه سبحانه وتعالى يسَّر لهم الأمر، فبعد أن كان التحدي بالخلق، أصبح باستعادة ما يسلبه هذا المخلوق الضعيف من الإنسان، الذي يظن بزعمه أنه أقوى المخلوقات، ولكن حتى هذه قال اللَّه فيها لن تستطيعوا.



قصص القرآن . . . لماذا أغفل اللّٰه أسماء أبطالها ؟

السؤال: هناك من يسأل أن في القصص القرآني، ما أغفل اللّٰه تعالى ذكر أسماء أبطالها في البعض، وذكره في البعض الآخر، ما الحكمة في ذلك ؟

الجواب: إن القصص في القرآن لا يتناول أشخاصاً بذواتهم، أي : أن القصة إنما هي عبرة عامة، وموعظة قد تتكرر في كل عصر، ما عدا قصة مريم عليها السلام؛ ولذلك فإن اللّٰه سبحانه وتعالى لم يذكر أبطال هذه القصص بأسمائهم الكاملة؛ لنعرف أشخاصهم، بل اكتفي باسم واحد عام.

ففرعون مثلًا هو كل شخص يريد أن يجعل من نفسه إلٰهاً يعبد في الأرض من دون اللّٰه تعالى.

وأما ذو القرنين فهو من يريد إصلاحاً في الأرض.

وصاحب الجنة في صورة الكهف، هو كل من ينسى اللّٰه وينسب الفضل إلى نفسه.

ولذلك فإننا لا ننصح بالبحث عمن هو فرعون موسى، أو من هو ذو القرنين، فذاك علم . . علمه لا ينفع وجهله لا يضر !

نحن نقول: إن الهدف ليس الشخص، ولكنها العبرة والعظة؛ لذلك لما ذكر اللّٰه سبحانه وتعالى السيدة مريم عليها السلام: قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ﴾، ولم يقل مريم فقط، لماذا ؟ لأنه في هذه الحالة المقصود هو: مريم ابنة عمران بالذات، وأن هذه القصة لم تحدث، ولن تحدث لغيرها، كذلك المقصود بقصة عيسى عليه السلام، هو عيسى ابن مريم بالذات، وليس أي إنسان آخر، فمن اختصه القرآن بقصة تتعلق بذاته هو ﴿ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [مريم : ٣٤، الصف : ٦ وغيرها]، ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ﴾ [التحريم : ١٢]، أما باقي قصص القرآن فالذي يجب أن نستخلصه منه هو العبرة والعظة، دون أن نجهد أنفسنا في البحث عن علم لا ينفع، أو جهل لا يضر، فما الذي يتغير في قصة موسى عليه السلام، إذا عرفنا أن فرعون موسى هو : رمسيس الأول، أو رمسيس الثاني، أو رمسيس الثالث، ليس هذا هو المهم.

ولكن المهم أن نعرف العظة، مما يتعرض له أي إنسان ينصب نفسه إلٰهاً من دون اللَّه في الأرض، وما يتعرض له الذين يتبعونه بغير علم؛ ولذلك فإننا يجب أن نستخلص العبرة من قصص القرآن الكريم، ولا نضيع الوقت في معرفة أصحاب هذه القصص من التاريخ(١).

❁ ❁ ❁

---

(١) وقد لخص الشيخ جمال الدين القاسمي كل ذلك فقال: اعلم أن قصص القرآن لا يراد بها سرد تاريخ الأمم أو الأشخاص، وإنما هي عبرة للناس. كما قال تعالى في سورة هود، بعدما ذكر موجزاً من سيرة الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ١٢٠] إلخ، ولذلك لا تذكر الوقائع والحوادث بالترتيب، ولا تستقصى فيذكر منها الطمّ والرمّ، ويؤتي فيها بالجرة وأذن الجرة، كما في بعض الكتب، التي تسميها الملل الأخرى مقدسة. وللعبرة وجوه كثيرة. وفي تلك القصص فوائد عظيمة، وأفضل الفوائد وأهم العبر فيها التنبيه على سنن اللَّه تعالى في الاجتماع البشريّ، وتأثير أعمال الخير والشر في الحياة الإنسانية.

وقد نبه اللَّه تعالى على ذلك في موضع من كتابه كقوله: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الحجر: ١٣].

وقوله: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٥].

يذكر أمثال هذا بعد بيان أحوال الأمم في غمط الحق والإعراض عنه، والغرور بما أتوا، ونحو ذلك.

فالآية الأولى: جاءت في سياق الكلام عن المعرضين عن الحق لا يلوون عليه ولا ينظرون في أدلته لانهماكهم في ترفهم وسرفهم، وجمودهم على عاداتهم وتقاليدهم.

والآية الثانية: جاءت في سياق محاجة الكافرين والتذكير بما كان من شأنهم مع الأنبياء، وبعد الأمر في السير في الأرض والنظر في عاقبة الأمم القوية ذات القوة والآثار في الأرض، وكيف هلكوا بعدما دعوا إلى الحق والهدى فلم يستجيبوا، فما صرفهم من الغرور بما كانوا فيه، ولم ينفعهم إيمانهم عندما نزل بهم بأس اللَّه وحلَّ بهم عذاب التفريط والاسترسال في الكفر وآثاره السُوأى. وليس المراد بنفي كون قصص القرآن تاريخاً، أنَّ التاريخ شيء باطل ضار ينزه القرآن عنه، كلا، إن قصصه شذور من التاريخ تعلم الناس كيف ينتفعون بالتاريخ. اهـ.

تفسير القاسمي [١/ ١١٤].

أسباب تخلّي اللّه تعالى عن صاحب إحدى الجنتين

السؤال: القرآن الكريم تضمن قصصاً فيها العظة، وفيها العبرة، وفيها الحكمة، فهل تقدم لنا فضيلتكم إحدى هذه القصص والعبرة المستنبطة منها ؟

الجواب: إنك إذا نسبت الفضل لنفسك؛ تركك اللّه لقدراتك الذاتية؛ فتضل وتشقى في الحياة، ولعل في قصة صاحب إحدى الجنتين التي ذكرها اللّه سبحانه وتعالى في سورة الكهف إجما لا لهذا المعنى، وتوضيحا له إن صاحب الجنتين نسب الفضل إلى نفسه، والثاني نسبه إلى اللّه.

الذي نسب الفضل إلى نفسه، نسي أن الأرض خلقها اللّه، وأن الماء أنزله اللّه، وأن الحب والبذر هو من عند اللّه، لم يخلقه بشر، فعندما وكَّل اللّه سبحانه وتعالى هذه الأرض لقدرة صاحبها، غار الماء واختفى؛ لأن اللّه هو الذي سخره ويسره، وسقط الثمر وهلك لأن اللّه هو الذي أعطى للبذرة خاصية النمو لتصبح شجرة، ثم خاصية إيجاد الثمر، وليس هذا من قدرة الإنسان ولا من عطائه، وهكذا عندما وكَّل اللّه سبحانه هذه الجنة، لقدرات الإنسان؛ هلك الثمر والزرع، وذهب الماء، وأصبحت خربة لا زرع فيها ولا ماء، ولا يستطيع الإنسان بقدراته أن يُوجِدَ فيها الزرع والماء؛ فكل ما يهلك الزرع من أمطار وعواصف وصواعق، ليس في قدرة البشر.

أي: أن اللّه سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا إلى حقيقتين مستورتين عنا في هذه النعمة، وهاتان الحقيقتان هما الأساس.

الحقيقة الأولى: أن اللّه سبحانه وتعالى قد أمد هذه الجنة بالماء أساس الحياة والزرع فيها.

والحقيقة الثانية: أنه قد حفظها وبارك فيها، وكلا الأمرين ليس للبشر فيهما مشاركة، بحيث يستطيع أن يجادل ويقول: أنا فعلت وفعلت، فالإنسان مثلًا حين يزرع يضع الحَبَّ في الأرض ويرعاه، ولكن قدرة اللّه سبحانه وتعالى هي التي تجعل هذا الحب في الأرض ينمو ويثمر، ولكن هنا مشاركة بشرية ظاهرية قد

تجعل البشر يقول: أنا الذي زرعت، ولكن اللّه سبحانه وتعالى أتي بحقيقتين لا يستطيع أي إنسان فيهما أن يقول أنا شاركت. الحقيقة الأولى: توفير الماء الذي يكفي لإعطاء الحياة لهذه الأرض، وجعلها صالحة للزرع، وبدون هذا الماء لا يمكن أن توجد مثل هذه الجنة.

والحقيقة الثانية: أنه حفظها وبارك فيها.

وكلتا الحقيقتين كما قلت: لا يستطيع الإنسان أن يشارك فيهما أو يدعي أنه هو الذي أوجدهما.

وتأمل قول اللّه تعالى: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [الكهف: ٤٢].

لماذا أحيط بثمره ؟ حتى يعرف أنه لا حول له ولا قوة، وأن المال والنفر اللَذيْن اعتز بهما من دون اللّه لا يملكان له نفعاً ولا ضراً؛ ومن هنا فإنه وجد الجنة خاوية على عروشها، وأراد اللّه سبحانه وتعالى أن يبين له أن اللذيْن اعتز بهما من دون اللّه لن يستطيعا أن يوقفا قضاء اللّه، وأن اللّه سبحانه وتعالى وهبه هذه الجنة بقدرته هو، فلما كفر بالنعمة واغتر بالمال والولد، زالت عنه وذهبت، ولم يجد له نصيراً يمنع ذهاب جنته وخرابها، وذلك قول اللّه تعالى: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ [الكهف: ٤٣].

أي: أنه بحث عن أولئك الذين كان يعتز بهما فلم يجد أحداً يستطيع أن ينصره أمام قدرة اللّه: ﴿ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾، أي: أنه حتى لو حاول ذلك بما له من مال أو نفر؛ فلن يُكتب له النصر، وهنا تأتي لحظة الندم، فيقول: ﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٢].

فقد أحس عندما ذهبت النعمة أن الوهّاب هو اللّه وحده، وهو الذي أخذها، ولكنه كان قبل ذلك يقول: إن المال والنفر اللذين عنده، هما اللذان يحفظان هذه النعمة من الزوال، ويرعانها. وتمضي هذه الآية الكريمة بعد أن ضرب اللّه هذا المثل للرجل الذي أنعم عليه، فأشرك غير اللّه في هذه النعمة؛ فأخذ اللّه منه ذلك، إن اللّه سبحانه وتعالى هو أغنى الشركاء عن الشرك؛ فالعمل الذي يقصد به وجه اللّه سبحانه وتعالى، يتقبله اللّه، والذي يقصد به إرضاء بشر ما، ويفسره صاحبه على أنه تقرب إلى اللّه سبحانه وتعالى، فاللّه غني عنه، وكذلك النعم.

واللّه يضرب لنا هذا المثل حتى نتخذ الطريق السليم في الحياة، فلا أدفع

مبلغاً من المال مثلًا لعمل خير، ويكون القصد الحقيقي من ذلك هو إرضاء شخص ما، أو قضاء مصلحة دنيوية، أو الحصول على سمعة أو شهرة، أو أي غرض دنيوي آخر، فإذا أتيت إلى حفل ما أُعلن تبرعي بمبلغ من المال؛ حتى يقال عني: إنني رجل خير، ورجل برٍ وإحسان؛ فإني هنا لا أفعل ذلك لوجه اللَّه، وإنما أشرك في ذلك ما أبتغيه من سمعة الدنيا، واللَّه سبحانه وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك.

ومن هنا فإن الذي فعله صاحب الجنة في أنه نسب الفضل إلى نفسه، وأنكر نعمة اللَّه، أو الذي يفعله بعض الناس في أنه يريد أنْ يحقق مصلحة دنيوية بعملٍ ظاهره الخير؛ كل هذا يخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى أنه لا يقبله. العمل الصالح لا بد وأن يكون للَّه وحده، أما إذا كان عملًا صالحاً نقصد به مصلحة دنيوية وفي نفس الوقت يقال: إنه للَّه، فاعلم أن اللَّه غني عنه.



الرد على المشككين في الإسراء والمعراج

السؤال: معجزة الإسراء كان لها رد فعل عند العرب، وبخاصة الذين لم يدخلوا الإسلام، وقد حاولوا التشكيك في هذه المعجزة، فما هو رأي فضيلة الشيخ في هذه المسألة ؟

الجواب: إن الذي أسرى بمحمد ﷺ هو اللَّه تعالى، ولذلك حينما قال أهل مكة: أيستطيع محمد أن يذهب إلى بيت المقدس، ثم يعرج إلى السماء، وحتى سدرة المنتهى، ثم يعود في ليلة واحدة ؟!

نقول: إن محمداً ﷺ لم يَدَّعِ ذلك، ولم يقل: إنه قام بهذا. وإنما هو أُسري به، والذي أَسرَى به هو اللَّه سبحانه وتعالى، واللَّه ليس كمثله شيء، ومن هنا فإن كل قول لمحمد ﷺ عن الإسراء هو قولٌ مُصدَّق تماماً؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى قال: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١]، ولم يقل لنا: إن محمداً ﷺ هو الذي قام بهذه المعجزة بذاتيته؛ بل اللَّه هو الذي أسرى به، واللَّه سبحانه وتعالى لا تقيده قوانين الكون، وليس كمثله شيء.

فإذا نسبت الفعل وهو - الإسراء - إلى الفاعل وهو الذي ليس كمثله شيء؛ أصبح كل ما حدث يقيناً؛ لأنه تم بقدرة اللَّه تعالى [١].

❁ ❁ ❁

---

(١) لمزيد من المعرفة راجع كتاب: شرح حديث الإسراء والمعراج لفضيلة الشيخ الإمام محمد متولي الشعراوي، وهو من منشورات مكتبة التراث الإسلامي.

العبرة المستفادة من قصة أهل سبأ

السؤال: ما العبرة المستفادة من قصة أهل سبأ الواردة في القرآن ؟

الجواب : كان لأهل سبأ في إقامتهم باليمن آيات واضحات على قدرة الحق جل وعلا، كانت هناك حديقتان ببلدهم عن يمين وعن شمال، وتذكرهم آيات الحق بأن لهم أن يأكلوا من رزق ربهم، وأن يشكروا له النعمة.

لكنهم غرقوا في بحار الغرور وظنوا أن ما أصابهم من نعمة هو نتيجة أسباب صنعوها هم، لقد بنوا سد مأرب، وخزنوا وراءه كميات من الماء، وظنوا أنهم صنعوا بهذا الماء وتلك الأرض جنتين زاهرتين، أكلوا وشربوا واستسلموا للغرور البشري الذي قد يجعل الضلال طريقاً للإنسان، ظنوا أنهم امتلكوا كل الأسباب، ولم يعترفوا أن كل شيء خاضع لمشيئة الحق، وأعرض أهل سبأ عن ذكر اللّه وأصابهم الغرور بالتعالي والفخر بالنعمة.

فما الذي حدث ؟

انقلب عليهم عملهم من عمل صالح إلى عمل مدمر.

كيف ؟

أصاب التشقق سد مأرب، فاندفع الماء سيولًا تهلك الزرع وتدمر الأرض، وأصبحت الجنتان خاويتين على عروشهما، وأصبحت الأرض لا تعطي إلا الثمر المر والشجر الذي لا يثمر. وهكذا يجزي اللّه من يكفر بالنعمة ولا يشكر الخالق الوهاب.

إذن.. على الإنسان المؤمن أن يلتزم بالشكر لمن وهبه النعمة وذلك حتى لا يتساوى مع غير المؤمن[١].

---

(١) قال اللّه تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [سبأ: ١٥].
قال القرطبي في تأويل قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾ قرأ نافع وغيره بالصرف والتنوين على أنه اسم حي، وهو في الأصل اسم رجل؛ جاء بذلك التوقيف عن =

....

= النبي ﷺ، روى الترمذي قال: حدثنا أبو كريب وعبد بن حميد قالا حدثنا أبو أسامة عن الحسن بن الحكم النّخعي قال حدثنا أبو سبرة النخعي عن فروة بن مسيك المرادي قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول اللّه، ألا أقاتل من أدبر من قومي بمن أقبل منهم؛ فأذن لي في قتالهم وأمرني؛ فلما خرجت من عنده سأل عني: « ما فعل الغطيفي » فأخبر: أني قد سرت، قال: فأرسل في أثري فردّني فأتيته وهو في نفر من أصحابه فقال: « ادع القوم فمن أسلم منهم فاقبل منه ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك»، قال: وأنزل في سبأ ما أنزل؛ فقال رجل: يا رسول اللّه، وما سبأ ؟ أرض أو امرأة ؟ قال: ليس بأرض ولا بامرأة ولكنه رجل ولد عشرة من العرب فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة. فأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وغسان وعاملة. وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار، فقال رجل: يا رسول اللّه وما أنمار ؟ قال: « الذين منهم خثعم وبجيلة ».

وروي هذا عن ابن عباس عن النبي ﷺ. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب[١]، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ لِسَبَإٍ ﴾ بغير صرف، جعله اسماً للقبيلة، وهو اختيار أبي عبيد، واستدل على أنه اسم قبيلة بأن بعده ﴿ فِي مَسْكَنِهِمْ ﴾. النحاس: ولو كان كما قال لكان في مساكنها. وقد مضى في النمل لإزيادة بيان لهذا المعنى.

وقال الشاعر في الصرف:

الواردون وتيم في ذري سبأ قد عض أعناقهم جلد الجواميس

وقال آخر في غير الصرف:

من سبأ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سيلها العرما

وقرأ قنبل وأبو حيوة والجحدري «لسبأ» بإسكان الهمزة.

« في مساكنهم » قراءة العامة على الجمع، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم، لأن لهم مساكن كثيرة وليس بمسكن واحد. وقرأ إبراهيم وحمزة وحفص: ﴿ مَسْكَنِهِمْ ﴾ موحداً، إلا أنهم فتحوا الكاف. وقرأ يحيى الأعمش والكسائي موحداً كذلك، إلا أنهم كسروا الكاف. قال النحاس: والساكن في هذا أبين؛ لأنه يجمع اللفظ والمعنى، فإذا قلت: « مسكنهم » كان فيه تقديران: أحدهما - أن يكون واحداً يؤدي عن الجمع. والآخر - أن يكون مصدراً لا يثني ولا يجمع؛ كما قال اللّه تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾[البقرة: ٧] فجاء بالسمع موحداً. وكذا: ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ « ومسكن » مثل مسجد، خارج عن القياس، ولا يوجد مثله إلا سماعاً.

﴿ءَايَةٌ﴾ اسم كان، أي علامة دالة على قدرة اللّه تعالى على أن لهم خالقاً خلقهم، وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يخرجوا من الخشبة ثمرة لم يمكنهم ذلك، ولم يهتدوا =

---

(١) رواه الترمذي [٣٢٢٢] وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٢٥٧٤].

....

= إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها، وفي ذلك ما يدل على أنها لا تكون إلا من عالم قادر. ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ يجوز أن يكون بدلاً من « آية »، ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف، فيوقف على هذا الوجه على « آية » وليس بتمام، قال الزجاج: أي الآية جنتان، فجنتان رفع لأنه خبر ابتداء محذوف. وقال الفراء: رفع تفسيراً الآية، ويجوز أن تنصب « آية » على أنها خبر كان، ويجوز أن تنصب الجنتين على الخبر أيضاً في غير القرآن. وقال عبد الرحمن بن زيد: إن الآية التي كانت لأهل سبأ في مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة قط، ولا ذباباً، ولا برغوثاً، ولا قملة، ولا عقرباً، ولا حية، ولا غيرها من الهوام، وإذا جاءهم الركب في ثيابهم القمل والدواب فإذا نظروا إلى بيوتهم ماتت الدواب. وقيل: إن الآية هي الجنتان، كانت المرأة تمشي فيهما وعلى رأسها مكتل فيمتلئ من أنواع الفواكه من غير أن تمسها بيدها؛ قاله قتادة. وروي أن الجنتين كانتا بين جبلين باليمن.
قال سفيان: وجد فيهما قصران مكتوب على أحدهما: نحن بنينا سلحين في سبعين خريفاً دائبين، وعلى الآخر مكتوب: نحن بنينا صرواح، مقيل ومراح؛ فكانت إحدى الجنتين عن يمين الوادي والأخرى عن شماله. قال القشيري: ولم يرد جنتين اثنتين بل أراد من الجنتين يمنة ويسرة؛ أي كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار؛ تستر الناس بظلالها. ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ [سبأ: ١٥] أي: قيل لهم كلوا، ولم يكن ثم أمر، ولكنهم تمكنوا من تلك النعم.
وقيل: أي: قالت الرسل لهم: قد أباح الله تعالى لكم ذلك؛ أي أباح لكم هذه النعم فاشكروه بالطاعة.
﴿ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ ﴾ أي: من ثمار الجنتين.
﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ يعني على ما رزقكم.
﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ هذا كلام مستأنف؛ أي هذه بلدة طيبة أي كثيرة الثمار، وقيل: غير مسبخة. وقيل: طيبة ليس فيها هوام لطيب هوائها. قال مجاهد: هي صنعاء.
﴿ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ أي والمنعم بها عليكم رب غفور يستر ذنوبكم، فجمع لهم بين مغفرة ذنوبهم وطيب بلدهم ولم يجمع ذلك لجميع خلقه. وقيل: إنما ذكر المغفرة مشيراً إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام. وقد مضى القول في هذا في أول « البقرة ». وقيل: إنما امتن عليهم بعفوه عن عذاب الاستئصال بتكذيب من كذبوه من سالف الأنبياء إلى أن استداموا الإصرار فاستؤصلوا. قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ: ١٦].
قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ يعني عن أمره واتباع أمره واتباع رسله بعد أن كانوا مسلمين.
قال السدي ووهب: بعث إلى أهل سبأ ثلاثة عشر نبياً فكذبوهم.
قال القشيري: وكان لهم رئيس يلقب بالحمار، وكانوا في زمن الفترة بين عيسى ومحمد =

....

= صلى الله عليهما وسلم. وقيل: كان له ولد فمات فرفع رأسه إلى السماء فبزق وكفر؛ ولهذا يقال: أكفر من حمار.
وقال الجوهري: وقولهم «أكفر من حمار» هو رجل من عادٍ، مات له أولاد، فكفر كفراً عظيماً، فلا يمر بأرضه أحد إلا دعاه إلى الكفر، فإن أجابه وإلا قتله، ثم لما سال السيل بجنتيهم تفرقوا في البلاد؛ على ما يأتي بيانه. ولهذا قيل في المثل: «تفرقوا أيادي سبأ». وقيل: الأوس والخزرج منهم.
﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ [سبأ: ١٦] والعرم فيما روي عن ابن عباس: السد؛ فالتقدير: سيل السد العرم. وقال عطاء: العرم اسم الوادي. قتادة: العرم وادي سبأ؛ كانت تجتمع إليه مسايل من الأودية، قيل من البحر وأودية اليمن؛ فردموا ردماً بين جبلين وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، فكانوا يسقون من الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث على قدر حاجاتهم؛ فأخصبوا وكثرت أموالهم، فلما كذبوا الرسل سلط الله عليهم الفأر فنقب الردم.
قال وهب: كانوا يزعمون أنهم يجدون في علمهم وكهانتهم أنه يخرب سدهم فأرة فلم يتركوا فرجة بين صخرتين إلا ربطوا إلى جانبها هرة؛ فلما جاء ما أراد الله تعالى بهم، أقبلت فأرة حمراء إلى بعض تلك الهرر فساورتها حتى استأخرت عن الصخرة ثم وثبت، ودخلت في الفرجة التي كانت عندها، ونقبت السد حتى أوهنته للسيل وهم لا يدرون؛ فلما جاء السيل دخل تلك الخلل حتى بلغ السد وفاض الماء على أموالهم فغرقها ودفن بيوتهم. وقال الزجاج: العرم اسم الجُرذ الذي نقب السكر عليهم، وهو الذي يقال له الخلد - وقاله قتادة أيضاً - فنسب السيل إليه لأنه بسببه. وقد قال ابن الأعرابي أيضاً: العرم من أسماء الفأر. وقال مجاهد وابن أبي نجيح: العرم ماء أحمر أرسله الله تعالى في السد فشقه وهدمه. وعن ابن عباس أيضاً أن العرم المطر الشديد. وقيل العرم بسكون الراء. وعن الضحاك كانوا في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام.
وقال عمرو بن شرحبيل: العرم المسناة؛ وقاله الجوهري، قال: ولا واحد لها من لفظها، ويقال واحدها عرمة. وقال محمد بن يزيد: العرم كل شيء حاجز بين شيئين، وهو الذي يسمى السكر، وهو جمع عرمة.
النحاس: وما يجتمع من مطر بين جبلين وفي وجهه مسناة فهو العرم، والمسناة هي التي يسميها أهل مصر الجسر؛ فكانوا يفتحونها إذا شاؤوا، فإذا رويت جناتهم سدوها.
قال الهروي: المسناة الضفيرة تبني للسيل ترده، سميت مسناة لأن فيها مفاتح الماء.
وروي أن العرم سد بنته بلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام، وهو المسناة بلغة حمير، بنته بالصخر والقار، وجعلت له أبواباً ثلاثة بعضها فوق بعض، وهو مشتق من العرامة وهي الشدة، ومنه: رجل عارم، أي شديد، وعرمت العظم أعرمه وأعرمه عرماً إذا عَرَقْته، وكذلك عرمت الإبل الشجر أي نالت منه. =

....

= والعرام بالضم: العراق من العظم والشجر. وتعرم العظم تعرقته. وصبي عارم بين العرام « بالضم » أي شرس وقد عرم يعرم ويعرم عرامة « بالفتح». والعرم العارم؛ عن الجوهري.
قوله تعالى: ﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ [سبأ: ١٦] وقرأ أبو عمرو: « أكل خمط » بغير تنوين مضافاً. قال أهل التفسير والخليل: الخمط الأراك. الجوهري: الخمط ضرب من الأراك له حمل يؤكل. وقال أبو عبيدة: هو كل شجر ذي شوك فيه مرارة. الزجاج: كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله. المبرد: الخمط كل ما تغير إلى ما لا يشتهى. واللبن خمط إذا حمض. والأولى عنده في القراءة ذواتي ﴿ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ بالتنوين على أنه نعت لـ « أكل » أو بدل منه؛ لأن الأكل هو الخمط بعينه عنده، فأما الإضافة فباب جوازها أن يكون تقديرها ذواتي أكل حموضة أو أكل مرارة. وقال الأخفش: والإضافة أحسن من كلام العرب؛ نحو قولهم: ثوب خز. والخمط: اللبن الحامض. وذكر أبو عبيد أن اللبن إذا ذهب عنه حلاوة الحلب ولم يتغير طعمه فهو سامط، وإن أخذ شيئاً من الريح فهو خامط وخميط، فإن أخذ شيئاً من طعم فهو ممحل، فإذا كان فيه طعم الحلاوة فهو فوهة. وتخمط الفحل: هدر. وتخمط فلان أي غضب وتكبر. وتخمط البحر أي التطم. وخمطت الشاة أخمطها خمطاً: إذا نزعت جلدها وشويتها فهي خميط، فإن نزعت شعرها وشويتها فهي: سميط. والحمطة: الخمر التي قد أخذت ريح الأراك كريح التفاح ولم تدرك بعد. ويقال هي الحامضة؛ قاله الجوهري: وقال القتبي في أدب الكاتب. يقال للحامضة خمطة، ويقال: الخمطة التي قد أخذت شيئاً من الريح؛ وأنشد:

عقار كماء النيء ليست بخمطة ولا خلةٍ يكوي الشروب شهابها

﴿ وَأَثْلٍ ﴾ قال الفرّاء: هو شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولًا؛ ومنه اتخذ منبر النبي ﷺ، وللأثل أصول غليظة يتخذ منه الأبواب، ورقه كورق الطرفاء، الواحدة أثلة والجمع أثلات. وقال الحسن: الأثل الخشب. قتادة: هو ضرب من الخشب يشبه الطرفاء رأيته بفيد. وقيل هو السمر. وقال أبو عبيدة: هو شجر النضار. [النضار: الذهب، والنضار: خشب يعمل منه قصاع، ومنه: قدح نضار]. ﴿ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [سبأ: ١٦] قال الفرّاء: هو السمر؛ ذكره النحاس. وقال الأزهري: السدر من الشجر سدران: بري لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسول وله ثمر عفص لا يؤكل، وهو الذي يسمى الضال. والثاني: سدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول يشبه شجرة العناب. قال قتادة: بينما شجر القوم من خير شجر إذا صيره اللّه تعالى من شر الشجر بأعمالهم، فأهلك أشجارهم المثمرة وأنبت بدلها الأراك والطرفاء والسدر.
القشيري: وأشجار البوادي لا تسمى جنة وبستاناً ولكن لما وقعت الثانية في مقابلة الأولى أطلق لفظ الجنة، وهو كقوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ ويحتمل أن =

....

= يرجع قوله: ﴿ قَلِيلٍ ﴾ إلى جملة ما ذكر من الخمط والأثل والسدر.
قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٧].
قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ﴾ أي هذا التبديل جزاء كفرهم، وموضع ﴿ذَٰلِكَ﴾ نصب؛ أي جزيناهم ذلك بكفرهم. ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ قراءة العامة « يجازى » بياء مضمومة وزاي مفتوحة، « الكفور » رفعاً على ما لم يسم فاعله. وقرأ يعقوب وحفص وحمزة والكسائي: « نجازى » بالنون وكسر الزاي.
« الكفور» بالنصب، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، قالا: لأن قبلهم ﴿ جَزَيْنَٰهُم ﴾ ولم يقل: جوزوا.
النحاس: والأمر في هذا واسع، والمعنى فيه بين، ولو قال قائل: خلق اللّه تعالى آدم ﷺ من طين، وقال آخر: خلق آدم من طين، لكان المعنى واحداً.
مسألة: في هذه الآية سؤال ليس في هذه السورة أشد منه، وهو أن يقال: لم خص اللّه تعالى المجازاة بالكفور ولم يذكر أصحاب المعاصي ؟ فتكلم العلماء في هذا؛ فقال قوم: ليس يجازى بهذا الجزاء الذي هو الاصطلام والإهلاك إلا من كفر. وقال مجاهد: يجازى بمعنى يعاقب؛ وذلك أن المؤمن يكفر اللّه تعالى عنه سيئاته، والكافر يجازى بكل سوءِ عمله؛ فالمؤمن يجزى ولا يجازى؛ لأنه يثاب.
وقال طاووس: هو المناقشة في الحساب، وأما المؤمن فلا يناقش الحساب.
وقال قطرب خلاف هذا، فجعلها في أهل المعاصي غير الكفار، وقال: المعنى على من كفر بالنعم وعمل بالكبائر. النحاس: وأولى ما قيل في هذه الآية وأجلّ ما روي فيها: أن الحسن قال مثلاً بمثل.
وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « من حوسب هلك » فقلت: يا نبي اللّه، فأين قوله جلّ وعزّ: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ قال: « إنما ذلك العرض ومن نوقش الحساب هلك ». وهذا إسناد صحيح، وشرحه: أن الكافر يكافأ على أعماله ويحاسب عليها ويحبط ما عمل من خير؛ ويبين هذا قوله تعالى في الأول: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ﴾ وفي الثاني: «وهل يجازى إلا الكفور» ومعنى «يجازى»: يكافأ بكل عمل عمله، ومعنى: ﴿ جَزَيْنَٰهُم ﴾ وفيناهم؛ فهذا حقيقة اللغة، وإن كان «جازى » يقع بمعنى « جزى » مجازاً.
قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ [سبأ: ١٨].
قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾ قال الحسن: يعني بين اليمن والشام. والقرى التي بورك فيها: الشام والأردن وفلسطين. والبركة: قيل إنها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية بورك فيها بالشجر والثمر والماء. ويحتمل أن يكون «باركنا فيها » بكثرة العدد. =

....

= ﴿ قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾ قال ابن عباس: يريد بين المدينة والشام. وقال قتادة: معنى ﴿ ظَٰهِرَةً ﴾: متصلة على طريق، يغدون فيقيلون في قرية ويروحون فيبيتون في قرية. وقيل: كان على كل ميل قريةُ بسوق، وهو سبب أمن الطريق.
وقال الحسن: كانت المرأة تخرج معها مغزلها وعلى رأسها مكتلها ثم تنتهي بمغزلها فلا تأتي بيتها حتى يمتلئ مكتلها من كل الثمار، فكان ما بين الشام واليمن كذلك. وقيل: ﴿ ظَٰهِرَةً ﴾ أي مرتفعة، قاله المبرد: وقيل: إنما قيل لها: ﴿ ظَٰهِرَةً ﴾ لظهورها، أي إذا خرجت عن هذه ظهرت لك الأخرى، فكانت قرى ظاهرة أي معروفة، يقال: هذا أمر ظاهر أي معروف ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾ أي: جعلنا السير بين قراهم وبين القرى التي باركنا فيها سيراً مقدّراً من منزل إلى منزل، ومن قرية إلى قرية، أي: جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتى يكون المقيل في قرية والمبيت في قرية أخرى، وإنما يبالغ الإنسان في السير لعدم الزاد والماء وخوف الطريق، فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل على نفسه المشقة ونزل أينما أراد. ﴿ سِيرُواْ فِيهَا ﴾ أي: وقلنا لهم سيروا فيها، أي: في هذه المسافة فهو أمر تمكين، أي كانوا يسيرون فيها إلى مقاصدهم إذا أرادوا آمنين، فهو أمر بمعنى الخير، وفيه إضمار القول. ﴿ لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ﴾ ظرفان، ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ نصب على الحال. وقال: ﴿ لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ﴾ بلفظ النكرة تنبيهاً على قصر أسفارهم؛ أي كانوا لا يحتاجون إلى طول السفر لوجود ما يحتاجون إليه. قال قتادة: كانوا يسيرون غير خائفين ولا جياع ولا ظماء، وكانوا يسيرون مسيرة أربعة أشهر في أمان لا يحرك بعضهم بعضاً، ولو لقي الرجل قاتل أبيه لا يحركه.
قوله تعالى: ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [سبأ: ١٩].
قوله تعالى: ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾ لما بطروا وطغوا وسئموا الراحة ولم يصبروا على العافية تمنوا طول الأسفار والكدح في المعيشة؛ كقول بني إسرائيل: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا... ﴾ الآية [البقرة: ٦١]. وكالنضر ابن الحارث حين قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢] فأجابه الله تبارك وتعالى، وقتل يوم بدر بالسيف صبراً؛ فكذلك هؤلاء تبددوا في الدنيا ومزقوا كل ممزق، وجعل بينهم وبين الشام فلوات ومفاوز يركبون فيها الرواحل ويتزودون الأزواد. وقراءة العامة « ربنا » بالنصب على أنه نداء مضاف، وهو منصوب لأنه مفعول به، لأن معناه: ناديت ودعوت. ﴿ بَٰعِدْ ﴾ سألوا المباعدة في أسفارهم.
وقرأ ابن كثير وأبو عمر وابن محيصن وهشام عن ابن عامر: ﴿ رَبَّنَا ﴾ كذلك على الدعاء ﴿ بَعِّدْ ﴾ من التبعيد.
النحاس: وباعد وبعد: واحد في المعنى، كما تقول: قارب وقرب. وقرأ أبو صالح =

....

❁ ❁ ❁

= ومحمد بن الحنفية وأبو العالية ونصر بن عاصم ويعقوب، ويروى عن ابن عباس: «ربنا» رفعاً « باعد » بفتح العين والدال على الخبر، وتقديره: لقد باعد ربنا بين أسفارنا، كأن اللّه تعالى يقول: قربنا لهم أسفارهم فقالوا أشراً وبطراً: لقد بوعدت علينا أسفارنا. واختار هذه القراءة أبو حاتم قال: لأنهم ما طلبوا التبعيد إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب بطراً وعجباً مع كفرهم. وقراءة يحيى بن يعمر وعيسى بن عمر وتروى عن ابن عباس « ربنا بعّد بين أسفارنا » بشد العين من غير ألف، وفسرها ابن عباس قال: شكوا أن ربهم باعد بين أسفارهم. وقراءة سعيد بن أبي الحسن أخي الحسن البصري: «ربنا بعُد بين أسفارنا ». « ربنا » نداء مضاف، ثم أخبروا بعد ذلك فقالوا: « بعد بين أسفارنا» ورفع « بين » بالفعل، أي بعدما يتصل بأسفارنا. وروى الفراء وأبو إسحاق قراءة سادسة مثل التي قبلها في ضم العين إلا أنك تنصب « بين » على ظرف، وتقديره في العربية: بعد سيرنا بين أسفارنا. النحاس: وهذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يجز أن يقال إحداها أجود من الأخرى، كما لا يقال ذلك في أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها، ولكن خبَّر عنهم أنهم دعوا ربهم أن يبعد بين أسفارهم بطراً وأشراً، وخبَّر عنهم أنهم لما فعل ذلك بهم خبروا به وشكوا، كما قال عباس: ﴿ وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾ أي بكفرهم ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ ﴾ أي يتحدث بأخبارهم، وتقديره في العربية: ذوي أحاديث. ﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ ﴾ [سبأ: ١٩] أي: لما لحقهم ما لحقهم تفرقوا وتمزقوا.

قال الشعبي: فلحقت الأنصار بيثرب، وغسان بالشام، والأسد بعمان، وخُزاعة بتهامة، وكانت العرب تضرب بهم المثل فتقول: تفرقوا أيدي سبأ وأيادي سبأ، أي: مذاهب سبأ وطرقها. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾ [سبأ: ١٩] الصبار الذي يصبر عن المعاصي، وهو تكثير صابر يمدح بهذا الاسم. فإن أردت أنه صبر عن المعاصي لم يستعمل فيه إلا صبار عن كذا. ﴿ شَكُورٖ ﴾ لنعمه.

تفسير القرطبي [١٤/ ٢٨٢-٢٩١].

قصة البقرة والعبرة منها

السؤال: نود من فضيلتكم إلقاء الضوء على قصة البقرة التي أمر اللّه بني إسرائيل بذبحها، فظلوا يراوغون كعادة اليهود، ثم ذبحوها، وما العبرة المستفادة من ذلك ؟

الجواب: هذه القصة تبين جانباً من أخلاق اليهود، وكيف يتلكأون في تنفيذ أوامر اللّه، وتلفتهم إلى قضية أساسية يشكون فيها، وهي الإيمان باليوم الآخر وقدرة الحق سبحانه على البعث والنشور.

أما عن موضوع البقرة فقد كان هناك رجل صالح من بني إسرائيل يتحرى الدقة في كسبه، فلا يرضي إلا بالحلال من الكسب ولا يفعل إلا الحلال من السلوك، كان رجلًا يبتغي وجه اللّه في كل ما يفعل، وكانت كل ثروته بقرة صغيرة، وله ابن وزوجة.

فلما أدركت الرجل الوفاة دعا ربه قائلًا: اللهم إني أستودعك هذه البقرة.

إذن.. أراد الرجل أن تكون البقرة الصغيرة، وديعة عند الحق سبحانه وتعالى، وأن يكون عائدها كفيلًا برعاية الزوجة والابن.

إن الرجل المؤمن لم يأتمن أحداً من قومه لذلك استودع ربه ما يملك، وأخبر زوجته بذلك.

ثم خلى سبيل البقرة فهامت في أرض اللّه ترعى من خشاش الأرض ما يرزقها اللّه تعالى به.

فلما كبر ابن الرجل؛ قالت له أمه: لقد ترك لك أبوك بقرة واستودعها عند رب الأرض والسموات.

فقال الابن لأمه:

وأين أجد البقرة لأستردها ؟

قالت الأم:

ألا تقول كما قال أبيك، لقد قال والدك، لقد استودعت البقرة عند اللّه، فقل أنت: إني أتوكل على اللّه وأبحث عنها، وسمع الابن كلام أمه وذهب إلى المراعي، وسجد لله داعياً قائلاً:

« اللّهُمَّ رب إبراهيم ويعقوب، رد عليَّ ما استودعك أبي ». فإذا بالبقرة تأتي إليه طائعة، ويروى أن هذه البقرة كانت تثير العجب، فمن أمرها، أنها كانت قادرة على أن ترد يد كل إنسان يقترب منها.

ورأى نفر من بني إسرائيل الابن وهو يقود البقرة بعد أن سمعوا المواصفات التي أرادها اللّه في البقرة المراد ذبحها.

وأراد هؤلاء القوم شراء البقرة من الابن.

قدموا له الدراهم والدنانير، فرفض.

سألوه عن الثمن الذي يطلب،

فأجابهم: لن أبيعها قبل أن أستشير أمي، فقد كان ذلك الابن باراً بأمه.

ويروى أنه كان يقضي نهاره في الاحتطاب، وكان يقسم ثمن ما يجمعه من الحطب إلى ثلاثة أقسام:

قسم: يأكل منه.

وقسم: يعطيه لأمه لترعى أمورها به.

وقسم: ثالث يتصدق به.

وكان هذا الفتى يقسم ليله إلى ثلاثة أقسام:

ثلث: يكون فيه مطيعاً لأوامر أمه وراعياً لها ومنفذاً لرغباتها.

وثلث: يكون فيه عابداً اللّه متبتلاً إلى خالقه.

وثلث: ينامه.

وذهب الابن البار إلى أمه يستشيرها في بيع البقرة وقال لها:

لقد عرضوا ثمنا لها ثلاثة دنانير.

فقالت الأم:

هذا المبلغ لا يساويها، إنها تساوي أكثر.

وعاد القوم يعرضون على الابن البار ستة دنانير ثمناً لها،

وعاد الابن البار يستشير أمه.

قالت الأم:

ما زال ذلك الثمن أقل من قيمة البقرة.

وعاد القوم يطالبون شراء البقرة باثني عشر ديناراً.

لكن الابن رفض أن يبيع دون استشارة أمه، وقال لهم:

واللَّه لا أبيعها حتى لو كان وزنها ذهباً إلا بعد مشورة أمي.

وأخيراً رضيت الأم أن يأخذوا البقرة بملء جلدها ذهبا.

هكذا بارك اللَّه فيما استودعه العبد المؤمن، وبارك اللَّه في الابن؛ فكان باراً بأمه، وبارك اللَّه في الزوجة؛ فطلبت من الابن أن يتوكل على اللَّه وهو يبحث عن البقرة.

بارك في البقرة ذاتها؛ فجعلها قادرة أن ترد أي يد إلا يد صاحبها.

وجعل تلكؤ بني إسرائيل فرصة لتحديد تلك البقرة بذاتها.

وجعل من إيمان العبد الصالح ووديعته فرصة ليلقن قوم موسى درساً إيمانياً في العقيدة بعد أن دفعوا ثمن البقرة ملء جلدها ذهباً وكانوا يملكون من الذهب الكثير، بعضه ضاع في صناعة العجل الذي عبدوه بعد أن صنعه لهم السامري، وبعضه ضاع في ثمن البقرة التي حددها لهم الحق.

وكأن الحق يريد أن يهزهم؛ ليتعرفوا على صحة التيقن من الإيمان.

وجاء الأمر بأن يأخذوا جزءاً من البقرة ليضربوا به القتيل الذي لم يتعرفوا على قاتله؛ فتعود الحياة إلى القتيل لينطق باسم قاتله.

وكان القتيل رجلًا له بعض مال وغير متزوج ولا وريث له إلا ابن عمه.

وحرك الطمع ابن العم، وتحركت شهوة الإرث عنده.

فاستدرج ابن العم القتيل بعيداً عن تجمع بني إسرائيل، إلى محلة بعيدة تضم عدداً قليلًا منهم.

وكان ابن العم القاتل يريد أن يلصق الجريمة بأهل تلك المحلة؛ ليرث القتيل ويأخذ الدية من أهل المحلة.

ازدوج الطمع فعماه.

وبالفعل قتله وطالب بالإرث والدية.

لكن أهل المحلة نفوا أنهم قتلوا الرجل.

أخذ كل واحد منهم ينفي عن نفسه الاتهام بأنه القاتل، ولم يكن أحد منهم يعرف القاتل.

ولم يكن التشريع الذي نزل على موسى يتضمن الحكم في حالة مثل التي حدثت.

ذلك أن التشريع لو كان يضم حالة من هذا اللون، لَسَهُل على مُوسى أن يحكم فيها.

وكانت العادة في مثل هذه الحالة أن يجمع كبير القوم خمسين رجلًا من وجهاء المكان الذي وقعت به الحادثة، ويقسمون بالله أنهم لا يعرفون مَن القاتل وأنهم لم يقتلوا الرجل.

وكان أهل المحلة التي عثر على جثة القتيل بها يقلون عن الخمسين.

وصار القرار أن يحلف أهل المحلة خمسين مرة، على أنهم لم يقتلوا الرجل ولا يعرفون قاتله؛ وذلك حتى يتحمل بيت المال الدية.

لكن اللَّه يريد بكل تلك التفاصيل أن يثبت شيئاً آخر.

إنه يرد على جحود بني إسرائيل باليوم الآخر فيأمر الحق بني إسرائيل بأن يذبحوا بقرة وهم الذين قد عبدوا من قبل العجل؛ الذي هو نوع من الأبقار.

ويتلكأون.

ويهتدي واحد منهم إلى الاستقامة، ويستودع اللَّه ما يملك؛ فيخرج ابنه باراً. وتحدث واقعة القتل.

وينفذ بني إسرائيل ما أمر اللَّه به فيبحثوا عن البقرة، فيرد اللَّه الوديعة لأصحابها.

ويأمر اللَّه تعالى أن يضربوا القتيل ببعض منها.

فتعود إلى القتيل الحياة؛ ويرشد عن قاتله.

ذلك هو القصص القرآني.

إن القصص القرآني لا يأتي ذكره لمجرد التسلية، ولكن تنبع منه العظات والعبر.

إن جزءاً من بقرة مذبوحة يأمر الحق أن يضرب به رجل قتيل؛ فتدب فيه

الحياة لهو دليل على قدرة الخالق واهب الحياة، وعلى قدرة الخالق بإعادة الحياة.

إن المسألة ليست أسباب حياة.

ولكنها قدرة قادر يقول للشيء كن فيكون[١].

---

(١) قال الشيخ الإمام تعليقاً على قصة بقرة بني إسرائيل: إن الإنسان عليه أن يسأل عن طبيعة الأمر وعلته، عندما يصدر الأمر من مساوٍ له لكن عندما يصدر الأمر من الخالق سبحانه، فلا يليق أن يسأل الإنسان عن علة الأمر؛ لأن العلة في مثل هذا الأمر لا بد أن تكون في صالح الإنسان. ولقد ذهب البعض إلى القول بأن ذبح البقرة بالنسبة لقوم موسى إنما كان من أجل هز هيبة الحيوان أمام قدرة الإنسان؛ وكان قوم موسى قد صنعوا تمثالاً للعجل وعبدوه وعاشوا مع المصريين في ذلك الزمن الذي قدسوا فيه البقر، وكان لا بد من اقتلاع هذه البقية من التقديس للعجل والأبقار من نفوسهم، لذلك كان الجدل والتلكؤ في ذبح البقرة، والسؤال عن نوع البقرة، لقد أراد الحق أن يكشف أمامهم قدرتهم على البقرة وفوق كل ذلك قدرته سبحانه على الإحياء، والإماتة؛ وذلك من خلال الجريمة التي وقعت بينهم. فقد قُتِل أحدهم ولم يتعرفوا على القاتل فجاء الأمر بذبح البقرة وضرب القتيل ببعضها، ليَرَوْا كيف يعود القتيل إلى الحياة ليخبرهم عن قاتله.

لقد جاء الأمر أولًا، ثم جاءت العلة بعد ذلك. إن التكليف من اللّه تعالى يجب أن يطبق على الفور؛ لأن تطبيق التكليف هو معيار الإيمان، والإيمان باللّه تعالى يقتضي أن نسلم بكل أمر؛ ولذلك يأتي الأمر بالصيام على سبيل المثال مسبوقاً بهذا القول: «كُتِبَ» وذلك قول اللّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٨٣] ، إننا لا نسأل الحق سبحانه عن علة الصيام؛ لأن الإيمان باللّه تعالى يعني: أن المؤمن قد أسلم حركة حياته كلها للّه، ويفعل ما يأمر به الحق سبحانه.

إن علة الأحكام التكليفية من الحق جل وعلا لا تظهر إلا بعد مزاولتها؛ فالمؤمن لا يعرف علة الصلاة إلا إذا باشر الصلاة، ورأى فيها قرة عين، وراحة نفس، ووجوداً في حضرة اللّه عز وجل، والصوم لا يَعرف المؤمن له حكمة إلا بعد أن يمارسه فيتعرف إلى فوائده بالنسبة للجسم، وكيفية الأمانة مع النفس ورقابتها، والسيطرة عليها. إن المؤمن هو من يُقبل على أوامر اللّه تعالى؛ طاعة للّه سبحانه، وفي قصة البقرة ينبهنا الحق إلى هذه اللفتة؛ فلا تأتي العلة التي من أجلها صدر الأمر بذبح البقرة إلا في آخر القصة؛ كأن الحق قد أراد أن يختبر قوة إيمانهم دون لجاجة أو تلكؤ، وقصة البقرة تبين أنهم استقبلوا أمر ذبح البقرة باللجاجة والتلكؤ.

إن موسى عليه السلام يبلغهم بقول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ ﴾ فيتقبلون هذا الأمر بلجاجةٍ من يظن أن في مثل هذا الأمر استهزاء بهم. إلى هذا الحد بلغت بهم اللجاجة !!

=

....

= وقد قلنا من قبل: إن الأمر طلب فعل . وطلب الفعل يأخذ صوراً ثلاثاً :

الصورة الأولى : إذا كان الأمر صادراً ممن هو أعلى من المأمور فإننا نسمي ذلك أمراً.

والصورة الثانية: إذا كان الأمر صادراً ممن هو مساوٍ لك كأن يطلب الإنسان أمراً من زميل له فذلك نسميه التماساً.

والصورة الثالثة: إذا كان الأمر صادراً ممن هو أقل لمن هو أعلى؛ فذلك نسميه رجاء، وعلينا أن نعلم أن ما يصدر عن الحق سبحانه للخلق هو أوامر من الصورة الأولى؛ لأنه سبحانه الخالق والكل مخلوق له، هو سبحانه الملك، والكل عبيد له.

والمخلوقون يطلبون من الحق تعالى الأمور التي يحتاجون إليها بالدعاء، والرجاء.

إذن. . المؤمن لا يستقبل أوامر اللّه سبحانه بانتظار تعليل لها؛ إنما المؤمن هو الذي يجب أن يستقبل أوامر اللّه سبحانه بدون تعليل.

فلو أن اللّه تعالى قد طلب ذبح بقرة بدون العلة التي ذكرها بعد ذلك؛ لكان مِن الواجب على قوم موسى أن يطيعوا اللّه سبحانه، وإن لم يعلموا العلة، ويعطينا هذا الدرس تلك الحقيقة الإيمانية الناصعة، تلك الحقيقة التي تقول: إن الإيمان باللّه تعالى هو أصل لتعليل أي حكم من أحكام اللّه سبحانه، فإذا قيل للمؤمن: لِمَ تصلي؟ فعلى المؤمن ألا يدخل في متاهات تعليل الصلاة، ولا أن يقول: إن الصلاة رياضة للبدن، وتحريك لسائر الأجهزة. لا؛ ذلك أن غير المؤمن قد يرد على المؤمن قائلًا: تعال أعلمك رياضة تفيد البدن، وتدير كل أجهزة الجسم أفضل من ذلك.

ورغم أن أحداً من المؤمنين لا ينكر حلاوة الصلاة، وفائدتها، فإن هذا الجمال الخفي المشع من أداء الصلاة لا تحدُّه الكلمات، ولا تحيط به المعاني، إنه لقاء بين الخالق والمخلوق، وعلة الصلاة الوحيدة والأولى هي تنفيذ لأوامر الحق جل وعلا. وإذا قيل للمؤمن: لِمَ تتوضأ قبل الصلاة ؟ فعلى المؤمن أن يقول: لقد أمرني اللّه تعالى بذلك، والمقصود بالعبادة هو طاعة الأمر؛ ذلك أن الأمر لا يتوقف عند النظافة بالوضوء فقط، فهناك التيمم إن تعذر وجود الماء.

إن المسألة في الوضوء: أن اللّه سبحانه قد اختار أن نتقرب إليه على هذا النحو، وكذلك في الصوم لا يقول المؤمن: أنا أصوم من أجل أن أشعر بمتاعب الفقراء، والجوعى، أو غير ذلك من الأسباب، إنما المؤمن يؤدي عبادة الصوم؛ طاعة لأمر اللّه تعالى.

هكذا نفهم الدرس الواضح من العبادات، إن كل عبادة لها حلاوة طاعة، طاعة الأمر التي تشع بجمالها في أداء العبادة لا تحدها الكلمات، ولا تحيطها المعاني؛ ولهذا يجب على المؤمنين أن يستخلصوا الحكمة من حال قوم موسى عندما طلبوا علة الذبح قبل الذبح، لكن العلة جاءتهم بعد طاعة أمر الحق سبحانه. وقد قص اللّه تعالى علينا في القرآن الكريم تلك القصة؛ ليبين لنا كيف كان تلكؤ قوم موسى وكيف سردوا الأعذار؛ =

....

= ليُسوّفوا ويماطلوا في تنفيذ أمر الله. لقد قال موسى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾، ومعنى الأمر كما قلنا: هو طلب شيء، والنهي أيضاً طلب شيء، والاستفهام أيضا طلب شيء، والتمني طلب لشيء مستحيل، فإذا كان الطلب قادماً ممن هو أعلى فذلك نسميه أمراً، وإذا طلب أحد شيئا من مساوٍ له فذلك نسميه التماساً، وإذا طلب أحد شيئاً في القدرة أن يحدث فلنا أن نسأل هل ذلك الطلب هو طلب لصورة الشيء أم طلب لحقيقة الشيء؟ إن طلب الصورة يختلف عن طلب الحقيقة، ومعلوم أن طلب الصورة هو طلب للمعلومات كأن يسأل سائل هل زارك محمد أمس ؟! أو يقول قائل هل تذهب إلى المكان الفلاني؟! هذا هو طلب الصورة.

أما طلب الحقيقة فمعناه أنك تريد أو لا تريد، فإن طلبت من صديقٍ لك أموالًا محددة فهذا معناه أنك تطلب حقيقة، وإذا طلبت من صديقٍ أن يمتنع عن فعل ما ؛ فذلك طلب للنهي، وهو طلب لحقيقة تستدعي الامتناع عن سلوك لا تحبه، وهكذا كان الأمر من الحق سبحانه أنه طلب لحقيقة يستطيعها قوم موسى وكان التلكؤ في السؤال عن اللون؛ استبطاء في التنفيذ والطاعة لقد سمعوا أمر الله تعالى ولم يسارعوا إلى التنفيذ وبعد ذلك وجهوا سؤالًا فيه من العنت الكثير، قالوا لموسى: ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ هكذا، وكأنهم لم يعترفوا بالله ربًا لهم، إنهم قصروا ربوبية الحق على موسى وحده، ولو كانوا حقاً مؤمنين بالله تعالى راغبين في تنفيذ أمره سبحانه لقالوا: ادع لنا ربنا يبين لنا ما هي، لكن تلك المسألة - أي مسألة تنفيذ الأمر - كانت بعيدة عن تفكيرهم ولذلك كان الرد جازماً قاطعاً، قال لهم موسى: ﴿ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ [البقرة: ٦٨] ،كأن الحق يريد لهم الامتناع عن سبل التلكؤ، لكنهم يتمادون في التلكؤ وتنبههم إجابة الحق سبحانه إلى خطأ السؤال فكان المفروض أن يسألوا عن عمر البقرة؛ فحتى هؤلاء القوم لا يحسنون السؤال. لقد صحح لهم الحق سبحانه ما كان يجب أن يسألوا عنه فقال تعالى: ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾، والفارض في اللغة معناها الواسع، والمراد هنا ألا تكون بقرة مسنة، والذي يدل على ذلك أن وصف البقرة لم يتحدد فقط بأنها ﴿ لَّا فَارِضٌ ﴾ ولكن يتحدد أيضا ببقية الوصف، ﴿ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾، أي وسط بين هذا الأمر وذاك الأمر.

ويأتي بعد ذلك التحديد في قوله تعالى: ﴿ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ ، وذلك حتى لا يتمادوا في التلكؤ وكان تحديد الحق سبحانه للبقرة بذلك يعني ألا تكون مسنة، والبقرة المسنة كما نعرف هي التي تعرضت للحمل كثيراً؛ لذلك يكون بطنها متسعا ويحدد الحق سبحانه أن تكون البقرة ﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ أي أنها تكون قد ولدت عدة مرات لكن لم تصبها الشيخوخة وذلك هو المقصود بكلمة ﴿ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾. ويأتي بعد ذلك الأمر بضرورة تنفذه، أمر الحق لكنهم يتمادون في التلكؤ فيتساءلون عن لونها =

....

= ويأتي الأمر من الحق سبحانه على لسان موسى: ﴿ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ [البقرة: ٦٩] ، والمقصود بذلك أنها تُدخل السرور على من ينظر إليها إعجاباً بها، وبجمال لونها وصفائه، أن تكون بقرة تنالُ من رعاية صاحبها وكرمه، والعناية اللازمة منه فيبدو جلدها لامعاً فيه نضارة تسر من ينظر إليها.

ويحدد الخالق سبحانه لونها بأنها: ﴿ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا ﴾ ولنا أن نعرف أن الألوان لا يمكن تحديدها إلا برؤيتها. فإذا قلنا الليل أسود؛ فذلك يعني أننا نعرف الفرق بين الأسود، والأبيض بالرؤية وذلك لا يتأتي تعريفه إلا بأن نعلمه ونتعلمه من استقراء الحس؛ لذلك نحن نُعلم الأبناء الألوان من التدريب لهم على رؤية الألوان المختلفة، أي أننا لا بد أن ندربهم على استخدام الحواس في معرفة الألوان.

ولأن تحديد الألوان يستدعي المشاهدة والرؤية، وقد كان الناس قديماً لا يعرفون الأصباغ، والكيمياء، والألوان المتشابكة، كانوا يعرفون فقط ألوان الطيف، فالأبيض مثلًا يقال له: يققٌ، والأسود يقال له: حالك، والأحمر يقال له: قانٍ، والأخضر يقال له: ناصع. هكذا نعلم أن لكل لون في اللغة وصفاً مناسباً له.

إن اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم تتمتع بدقة بالغة فعلى سبيل المثال، نحن لا نقول عن الإنسان الواقف عندما يقعد إلا كلمة واحدة اقعد، فالقعود لا بد أن قياماً قد سبقه ولا نقول: فلان قد جلس إلا إذا كان مضطجعاً مثلًا ثم جلس أي أن الجلوس مسألة تأتي بعد القعود، وتختلف كلمة رأي، عن لمح، عن رمق، عن لحظ، إن الكلمات تتحدث عن وظيفة العين وهي الإبصار ولكن لكل كلمة معنى خاصاً يحدد الطريقة التي رأى بها الإنسان، والشوق لإرواء الحاجات الحسية عند الإنسان تختلف كلماته، فالشوق إلى الماء يقال له: عطش، والشوق إلى اللبن يقال له: عيمان[١]، والمشتاق إلى اللحم يقال له: قرم[٢].

إذن. . فكل شوق إلى حاجة له لفظ، ولقد عرفنا من قبل وصف الألوان فلكل لون - كما قلنا - لفظ يصفه بدقة فائقة، وقد وصف الحق تبارك وتعالى البقرة المراد ذبحها بوصف دقيق. وصف عمرها بقوله: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، =

(١) العَيْمَة: شهوة اللبن. . عام الرجل إلى اللبن: يَعَام، ويعيم، عَيماً، وَعَيمة: اشتهاه. ومعنى آم الرجل: هلكت امرأته، وعام الرجل ماتت ماشيته فاشتاق إلى اللبن.
لسان العرب [١٢/ ٤٣٢] بتصرف.

(٢) قَرَم: بالتحريك: شدة الشهوة إلى اللحم. وقرم إلى اللحم يَقرَم قَرَماً فهو قَرم أي: اشتهاه: وفي الحديث: «كان يتعوذ من القَرَم» وهو شدة شهوة اللحم، وفي حديث الضحية: «هذا يومٌ اللحم فيه مقرومٌ».
لسان العرب [١٢/ ٤٧٣] بتصرف.

. . . .

= ووصف الحق سبحانه لونها بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾، ورغم ذلك الوصف الدقيق؛ فقد عاد قوم موسى يسألون مرة ثالثة لمزيد من التلكؤ: ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾، كأنهم يربطون الهداية إلى أمر اللّه بحجة أخرى. فيرد الحق تبارك وتعالى بوصف ثالث: ﴿ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾، والذلول هو المروض الذي يتوافق مع مهمته.

فالحصان على سبيل المثال لا يركبه أحد إلا بعد أن يتم تدريبه بواسطة مدرب يسمى: «سايس» ومهمة ذلك « السايس » هي أن يأخذ الحصان باللين ثم يركبه بعد ذلك إلى المرعى؛ فيفهم الحصان أن ركوب الإنسان له إنما هو لفائدته وهي الذهاب إلى المرعى، وبعد ذلك يطمئن الحصان إلى مهمة الركوب ويتقبل أن يمتطيه الإنسان، ولولا ذلك التدريب لتمرد الحصان وشرد ولأصبح شرساً شموساً لا يقبل ركوب الإنسان له.

ويقال: إن نبي اللّه إسماعيل عليه السلام هو أول من استأنس الخيل، وقبل ذلك كانت الخيل وحشية، تسير جماعات في البراري؛ لكن نبي اللّه إسماعيل عليه السلام اهتدي بالوعي الإيماني إلى كيفية استئناس الخيل، ويقال: إنه أول من ساسها ومن كلمة سياسة الخيل جاءت كلمة السياسة. وهي فن ترويض الناس على الاتساق في نظام واحد ليرتضوا حكم واحد منهم لهم.

هكذا عَلِم قوم موسى وصفاً جديداً للبقرة المراد ذبحها: إنها بقرة غير منهكة بالعمل، فيجب ألا تكون من البقر المذلل للركوب، أو لحرث الأرض، أو الدوران في السواقي، إنها بقرة ﴿ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾، أي إنها تكون سليمة لا شرخ في أذنها ولا إصابة في جسدها، ذلك هو المقصود بكلمة ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ أي لا عيب فيها، والمقصود بكلمة ﴿ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ أي إن لونها خالٍ من اختلاط لون آخر به. أي أنها خالية من البقع؛ سواء أكانت سوداء أم بيضاء، وكلمة ﴿ لَّا شِيَةَ ﴾ تأتي أيضاً من الوشي المنمنم أي الزينة المليئة بالزخارف و ﴿ لَّا شِيَةَ ﴾ تعني أيضاً أنه لا تغيير يطرأ على الأصل. ولقد شَدَّد قوم موسى على أنفسهم فشدد الحق سبحانه عليهم. لقد كان الأمر الصادر إليهم من الحق هو ﴿ تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ لكنهم تلكأوا وكان التلكؤ يتضمن أسئلة للتسويف، وانقلب تسويفهم عليهم. لقد أصبح التسويف تشديداً في تعيين البقرة ورغم أن غرضهم من التلكؤ هو التسويف، ورغم أن تلكؤهم كان فارغ المعنى سألوا سؤالاً في الأمر الذي صدر إليهم وظنوا أن النبي المرسل إليهم وهو موسى عليه السلام يَسْخَر منهم بأمر ذبح البقرة، وذلك لقلة الإيمان في قلوبهم رغم آيات الحق سبحانه التي سبق أن تجلت لهم واضحة في فلق البحر، وإنقاذهم من ظلم فرعون، ورزقهم بالمن والسلوى، وتفجر الماء لهم بعدد الأسباط، ومغفرة اللّه سبحانه وتعالى لهم بعد عبادتهم العجل، المصنوع من الحُلى المأخوذة من آل فرعون، كل ذلك شاهدوه وعاشوه؛ ومع ذلك يظنون أن أمر =

....

= الذبح للبقرة سخرية بهم من النبي المرسل لهم، وذلك الظن بالسخرية فسره بعض العلماء بأن سببه أنهم رأوا من قبل قوماً يعبدون العجل، وأن بعضهم قد عبد العجل بالفعل؛ ولذلك يوضح موسى عليه السلام أن الأمر صادر من الحق سبحانه، وأن السخرية أو الاستهزاء هو نوع من الجهل؛ لذلك يستعيذ باللَّه أن يكون من الجاهلين ثم شدَّدُوا على أنفسهم بسؤالهم عن البقرة.

فيأتي الإيضاح من الحق سبحانه، عن عمر البقرة والأمر باتباع ما أمر به الحق سبحانه، ثم شَدَّدُوا على أنفسهم بسؤال آخر عن لون البقرة فيأتي أمر الحق سبحانه بوصف لونها، ويتمادون في التلكؤ والتشديد على أنفسهم في آن واحد فيتساءلون عن تحديد أكثر لصفات البقرة، ويربطون بين ذلك التحديد وبين هدايتهم لأمر الحق سبحانه، وتأتي إجابة الحق جل وعلا بوصفٍ واضح للون البقرة وعمرها وكل ما يَخُصّها ويُقر قوم موسى أخيراً بأمر اللَّه، ويخضعون على مضض وعلى غير كرم وعلى غير إقبال: فقالوا: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ هذا القول منهم يؤكد أنهم لم يفعلوا أمر الحق إلا على مضض، إن اعترافهم بعد كل هذا التلكؤ الذي انقلب إلى تشديد[1] عليهم هذا الاعتراف المتأخر إنما هو دليل على عدم الإذعان الفوري لأمر اللَّه تعالى.

وقول الحق سبحانه: ﴿ وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾، لقد ذبحوا البقرة فعلًا، لكن ذبحوها على كره منهم إن كلمة ﴿ وَمَا كَادُوا۟ ﴾ توضيح النفي وتوضيح عدم السرعة في إنجاز الأمر فعندما يقول واحد: لم يكن فلان كريماً؛ فمعنى ذلك أنه ينفي عن فلان هذا صفة الكرم، وقول الحق سبحانه: ﴿ وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ معناها أنهم كانوا حريصين على عدم ذبح البقرة، وأنهم قوم يتلكأون في تنفيذ أوامر الحق جل وعلا. غلبتهم المادية فلم يحرصوا على تنفيذ منهج الحق سبحانه وتعالى وعدم الحرص على تنفيذ المنهج هو الدافع وراء التسويف والمماطلة.

إن الحق سبحانه يأمرهم بالمسارعة في تنفيذ الأمر الصادر منه، لكن هناك بعضٌ ممن تغرهم المادة، يرغبون في الهرب من طاعة صاحب الأمر المطلق رب كل شيء ومليكه، إن الحق سبحانه يختبرهم في الطاعة لأوامره، وهم لا يقبلون الإقبال على طاعة اللَّه سبحانه، وهي متمثلة في اتباع أمره واجتناب نهيه. إن السرعة في تنفيذ أمر =

---

(١) قال ابن جريج: قال رسول اللَّه ﷺ: إنما أمروا بأدنى بقرة، ولكنهم لما شددوا على أنفسهم شدد اللَّه عليهم. وايم اللَّه: لو أنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد. وقد ذُكر هذا الحديث من طرق مختلفة كلها في تفسير الطبري عن الربيع عن أبي العالية، وعن قتادة، وعن السدي عن ابن عباس، عن أبي بكر بن عياش.

تفسير الطبري [١/ ٣٤٧-٣٤٨] بتصرف.

....

= اللَّه تعالى هي دليل على إقبال صادق من العبد على أوامر سيده ومولاه جل وعلا . ونحن نرى مثل تلك الأمور في حياتنا العادية، نجد المطيع لأي أمر رباني يسرع إلى تنفيذه، فالذي يحب تطهير ماله من أي شائبة يسرع إلى الصدقة، وإلى الزكاة، وإلى استكشاف أحوال المحتاجين دون أن يطلبوا سد حاجتهم، إنه شغوف بطاعة اللَّه فيما استخلفه فيه، ونجد العبد الطائع للَّه تعالى يقوم مبكراً في الفجر ليسمع آذان الفجر ويؤدي الفريضة محباً لطاعة اللَّه سبحانه وتعالى .

لقد كان يكفي أن يسمع قوم موسى الأمر بذبح البقرة لكي ينفذوا الأمر لكنهم لم يُقْبلوا على الأمر .

وكانت تلك المسألة - العنت، والتلكؤ، والتسويف في تنفيذ أمر اللَّه سبحانه وتعالى لخدمة قضية إيمانية أخرى، فقد كان هناك رجل صالح من بني إسرائيل يتحرى الدقة في كسبه فلا يرضي إلا بالحلال من الكسب، ولا يفعل إلا الحلال من السلوك، كان رجلًا يبتغي وجه اللَّه في كل ما يفعل، وعندما حضرته الوفاة كانت ثروته هي بقرة صغيرة وله ابن وزوجة، فما كان من الرجل إلا أن دعا اللَّه قائلًا : اللهم إني أستودعك هذه. وكان دعاء الرجل يبغي به أن تكون البقرة الصغيرة وديعة عند الحق سبحانه، وأن يكون عائدها لرعاية الزوجة والابن، إن الرجل المؤمن لم يأتمن أحداً من قومه؛ لذلك استودع ربه ما يملك، فلم يجد أميناً إلا اللَّه سبحانه. وأطلق الرجل بقرته ترعى في المراعي وقبل أن يموت قال لزوجته أني لم أجد غير ربي استودعه بقرتي .

وعندما سألته زوجته : أين البقرة ؟ قال لها : لقد أطلقتها في المراعي. مات الرجل وكبر ابنه؛ فقالت له الأم : لقد ترك لك أبوك بقرة واستودعها عند خالق الكون سبحانه الذي لا تضيع ودائعه، فقال الابن لأمه : وأين أجد البقرة لأستردها ؟ قالت الأم : ألا تقول كأبيك؛ لقد قال والدك : لقد استودعت البقرة عند اللَّه فلتقل أنت : إني أتوكل على اللَّه تعالى وابحث عنها، وسمع الابن كلام أمه وذهب إلى المراعي وسجد للَّه داعياً : اللهم رب إبراهيم، ويعقوب رُدَّ عليَّ ما استودعك أبي. وإذا بالبقرة تأتي إليه طائعة وكانت هذه البقرة تثير العجب من أمرها، كانت قادرة على أن ترد يد كل إنسان يقترب منها .

وهكذا أراد اللَّه سبحانه أن يوضح - من خلال قصة البقرة - يقيناً إيمانياً جديداً لقد استودع الرجل المؤمن ثروته اللَّه سبحانه قبل أن يموت، وتوكل الابن على اللَّه سبحانه وتعالى واسترد البقرة، ورأى نفر من بني إسرائيل الابن وهو يقود البقرة بعد أن عرفوا الصفات التي أرادها اللَّه في البقرة المراد ذبحها، وأراد هؤلاء القوم شراء البقرة من الابن، فقدموا له الدراهم فرفض، فقدموا له الدنانير فرفض، فسألوه عن الثمن الذي يطلبه فأجاب الابن : لن أبيعها قبل أن أستشير أمي، وكان ذلك الابن بارًا بأمه، كان يقضي نهاره في الاحتطاب - أي جمع الحطب - وكان يقسم ثمن ما يجمعه من الحطب إلى ثلاثة أقسام : قسم يأكل منه، وقسم يعطيه لأمه لترعى أمورها به، وقسم ثالث =

....

= يتصدق به. كما كان هذا الفتى يقسم ليله إلى ثلاثة أقسام: ثلث يكون فيه خاضعاً لأوامر أمه، وراعياً لها ومنفذاً لرغباتها، وثلث يكون فيه عابداً للَّه متبتلاً إلى خالقه عز وجل، والثلث الأخير من الليل ينامه. وذهب الابن البار إلى أمه يستشيرها في أمر بيع البقرة وقال لها: عرضوا عليَّ ثمناً لها ثلاثة دنانير، فقالت الأم: وهذا المبلغ لا يساويها إنها تساوي أكثر.

ثم عاد النفر من بني إسرائيل يعرضون على الابن البار ستة دنانير ثمناً لها، وعاد الابن البار يستشير أمه قالت الأم: ما زال ذلك الثمن أقل من قيمة البقرة، وعاد قوم من بني إسرائيل يطلبون شراء البقرة باثني عشر ديناراً لكن الابن رفض أن يبيع دون استشارة أمه وقال لهم: واللَّه لا أبيعها حتى لو كان وزنها ذهباً إلا بعد مشورة أمي، وأخيراً رضيت الأم أن يأخذوا البقرة بملء جلدها ذهباً، وهكذا بارك اللَّه فيما استودعه العبد المؤمن؛ وبارك اللَّه في الابن فكان بارًّا بأمه، وبارك اللَّه في الزوجة فطلبت من الابن أن يتوكل على اللَّه تعالى وهو يبحث عن البقرة، وبارك اللَّه في البقرة ذاتها فجعلها قادرة أن ترد أي يد إلا يد صاحبها، وأخيراً بارك سبحانه للابن في عمله الذي يرعى فيه حق اللَّه سبحانه، وحق أمه، وحق نفسه، وبارك له في ليله الذي قسمه بين رعاية الأم، وعبادة الحق، ورعاية جسده. لقد بارك اللَّه في كل ما ترك الرجل الصالح من بني إسرائيل.
فخلق تعالى الظرف المناسب من جميع نواحيه، جعل تلكؤ بني إسرائيل لتحديد تلك البقرة بذاتها، وجعل إيمان العبد الصالح ووديعته ليلقن قوم موسى درساً إيمانياً في العقيدة، ودفع بنو إسرائيل ثمن البقرة ملء جلدها ذهباً وكانوا يملكون من الذهب الكثير، وكان قد ضاع بعضه في صناعة العجل الذي عبدوه بعد أن صنعه لهم السامري، وبعضه ضاع في ثمن البقرة.
وجاء الأمر بأن يأخذوا جزءاً من البقرة ليضربوا به القتيل الذي لم يتعرفوا على قاتله حتى تعود الحياة إلى القتيل؛ لينطق باسم قاتله وذلك قول اللَّه تعالى: ﴿ ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾، وكان القتيل رجلاً له بعض من مال ولا وريث له إلا أبناء أخيه، وحرك الطمع أحدهم، فتحركت شهوة الإرث عنده فاستدرج القتيل بعيداً عن تجمع بني إسرائيل إلى محلة بعيدة تضم عدداً قليلاً منهم، وكان ابن العم القاتل يريد أن يلصق الجريمة بأهل المحلة ليرث القتيل ويأخذ الدية أيضاً من أهل المحلة، فقد ازدوج الطمع عند هذا الرجل، وبالفعل قتل ابن عمه في تلك المحلة، وطالب بالإرث والدِّية، لكن أهل المحلة نفوا أنهم قتلوا الرجل. وذلك قول الحق سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَءْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾، الدرء هو أن يدفع الإنسان الشيء أو الاتهام بعيداً عنه. والمعنى أن كل واحد منهم أخذ ينفي عن نفسه الاتهام بأنه القاتل، ولم يكن أحد منهم يعرف القاتل، ولم يكن التشريع الذي نزل على موسى يتضمن الحكم في حالة مثل تلك الحادثة. =

....

۞ ۞ ۞

= إن التشريع لو كان يضم حالة من هذا اللون لكان سهلًا على موسى أن يحكم فيها، وكانت العادة في مثل هذه الحالة أن يَجْمع كبير القوم خمسين رجلًا من وجهاء المكان الذي وقعت به الحادثة، ويُقسمون باللّه أنهم لا يعرفون مَنْ القاتل وأنهم لم يقتلوا الرجل، وكان أهل المحلة التي عُثر على جثة القتيل بها يقلون عن الخمسين، وصار القرار أن يحلف أهل المحلة خمسين مرة على أنهم لم يقتلوا الرجل ولا يعرفون قاتله، وذلك حتى يتحمل بيت المال الديَّة.

لكن اللّه سبحانه يريد بكل تلك التفاصيل شيئاً آخر؛ ألا وهو الرد على جحود بني إسرائيل باليوم الآخر.

أمر الحق سبحانه بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، وهم الذين عبدوا من قبل نوعاً من الأبقار، ويتلكأون ثم يهتدي واحد منهم إلى الاستقامة ويستودع اللّه ما يملك - وهو البقرة - فيخرج ابنه البار ليجدها، وتحدث واقعة القتل وينفذ بعض قوم موسى ما أمر اللّه تعالى به وهو ذبح البقرة، ويجازي اللّه سبحانه الابن البار ثمنها ذهباً، ويأمرهم سبحانه أن يضربوا القتيل ببعض من البقرة المذبوحة فتعود إلى القتيل الحياة ليرشد عن قاتله.

إن القصص القرآني لا يأتي ذكره لمجرد التسلية؛ ولكن تنبع منه العظات والعبر، تنبع منه القوانين التي تحكم كل قضايا الحياة، إن الحق سبحانه يأمرهم أن يذبحوا البقرة، وأن يأخذوا جزءاً منها بعد ذبحها، ليضرب به ذلك القتيل الذي لا يعرفون قاتله وتدب الحياة في القتيل ويرشد عن قاتله.

هكذا يلفت الحق سبحانه بني إسرائيل إلى القضية الأساسية التي يشكون فيها وهي اليوم الآخر، وقدرة الحق سبحانه على البعث، إن جزءاً من بقرة مذبوحة يأمر الحق سبحانه أن يُضْرب به رجل قتيل فتدب فيه الحياة.

قصص الحيوان [٩٣-١٠٦].

معجزة انفلاق البحر لموسى

السؤال: تحدث القرآن الكريم عن معجزة انفلاق البحر لموسى حين ضربه بعصاه، نريد بعض التفاصيل عن هذه المعجزة الرائعة.

الجواب: لقد تجلت معجزة اللّه لموسى عندما تبعه فرعون وجنوده بغياً وعدواً فأصبحوا خلفه والبحر أمامه؛ فأوحى اللّه له أن يضرب بعصاه البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم.

إذن.. انتقل الماء من قانون السيولة المسخر به إلى قانون التجمد الذي أراده اللّه سبحانه وتعالى فأصبحت حتى طرق البحر التي انفلقت بعصا موسى جافة يابسة تصلح للمرور وللسير عليها!

وبينما هم سائرون مع موسى؛ لينجوا جميعهم من أن يلحق بهم فرعون وجنوده، قال بعضهم: أين إخواننا الذين كانوا معنا؟

أجابهم موسى عليه السلام: إنهم يسيرون في الطرق الأخرى التي انشقت بالعصا كما أراد الحق أن ينجيكم.

لكنهم شكوا في ذلك، ورفع موسى يده إلى السماء يدعو الخالق الأكرم أن يعينه على سوء خلقهم وعدم إيمانهم بقدرة الحق[1].

---

(١) قال الشيخ الإمام: قال اللّه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٧٧]، بعد أن انتهت المعركة بانتصار الحق وآمن السحرة بموسى، انهدم بذلك جزء من سطوة فرعون وجبروته، فجمع موسى بني إسرائيل، وهم بقايا ذرية يعقوب عليه السلام وسار بهم شرقا إلى الأرض المقدسة في فلسطين، فتبعهم فرعون وجنوده، فأصبحوا في خوف شديد؛ لأن البحر أمامهم وفرعون من خلفهم، فلا مفر من القتل على يد فرعون وجنوده أو الموت غرقاً في البحر.
وهذا حكم القضايا البشرية المعزولة عن منهج اللّه، لكن القضايا البشرية عند المؤمن قائمة على الإيمان بمنهج اللّه؛ ولذلك فالمؤمن حين تصيبه مصيبة في الدنيا يذكر اللّه ويقول: « لا كرب وأنت رب »، فما دام اللّه ربنا فإنه يهوّن كل كرب يقع لنا في الدنيا؛ =

وعندما جاء الغرق إلى فرعون أعلن إيمانه، ولكن لا قبول للإيمان في

= لأنه سبحانه لن يتركنا أبداً. ونحن ضربنا مثلًا - ولله المثل الأعلى - قلنا: هب أن إنساناً معه جنيه ثم فقده، في هذه الحالة يغضب هذا الإنسان إذا لم يكن معه غيره، لكن إن كان معه غيره أو له رصيد في البنك أو في الخزانة، فإنه لا يغضب ولا يحزن، فكذلك المؤمن إذا ضاع منه شيء لا يحزن؛ لأن عنده رصيداً، ورصيد المؤمن هو إيمانه بربه الذي لا تنفد عطاياه، ولا يتخلى عن عباده أبداً.

الله سبحانه وتعالى أمر موسى أن يضرب لقومه طريقاً في البحر، و « الضرب » هو: إيقاع شيء من ضارب بآلة على مضروب؛ ليصبح صالحاً للاستعمال؛ ولذلك كانوا يكتبون على النقود الفضة أو الذهب « ضُرب في مصر »، فمعنى ضرب النقد: أي أنه تم سكه وختمه وصار عُمْلَة، فبعد أن كان معدنا أصبح عملة نقدية متداولة. ولكن أن يضرب موسى لقومه طريقاً يبساً في البحر، فهذه مسألة غريبة في قوانين البشر؛ لأن «اليبس» أرض صلبة يا بسة، والبحر ماء.. فكيف يحدث ذلك في عرف البشر؟ ربنا سبحانه أوحى إلى موسى وقومه بأنه هو المتكفل بهذا الأمر، وقال له: اضرب البحر بعصاك ولا تخشَ أن يدركك فرعون أو أن يغرقك البحر، أي لا تخف دركاً من فرعون ولا تخش غرقا من البحر؛ لأن الطريق مضروب، ولذلك تجد المعجزة مع موسى غريبة جداً: عصا يضرب بها ماء فيصير ما تحت العصا يَبَساً وما حولها جبالًا، ويضرب بها الحجر فيتفجر منه الماء، ويلقيها على الأرض فتصير حية تسعى.

ومعنى ﴿ أَسْرِ ﴾ أي: امش بالليل؛ لأنه أستر عليك من عيون فرعون، ثم يقول تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه]، هنا الحق سبحانه في هذه اللقطة لم يذكر لنا ماذا قال قوم موسى له، ولكنه ذكر ما قالوه في لقطة أخرى، فقال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١]. إذا تكررت القصة فافهم أن في كل تكرير لقطة جديدة، فإذا جمعت كل اللقطات تعطيك القصة كاملة، فلما قالوا ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ طمأنهم موسى بقوله: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢]، قال لهم: ﴿ كَلَّآ ﴾، وهذه ليست من عندي ولكنها من عند الله؛ لأنه ربي الذي سيهديني إلى طريق النجاة، فالقرآن يعطينا لقطات متعددة تخرج القصة كاملة. ونحن قلنا في كلمة «عبادي» إنها جمع عبد، وكلمة « عبد » تجمع على عبيد وعباد.. فما الفرق بين الكلمتين؟

كل من في الكون عبيد لله؛ لأنهم وإن كانوا مختارين في أشياء، فهم مقهورون جميعاً على أشياء، فالذي تعوّد أن يكفر ويخالف منهج الله، هل إذا جاءه المرض يتمرد عليه ويرفض أن يمرض؟!

إذن.. هناك قهريات للمختار وإن كان كافراً، فبالنسبة للكل نحن عبيد، ولكن العباد هم الذين جاؤوا في الأمور التي خيرهم الله فيها: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]، فيختارون مراد الله على اختيار أنفسهم، فالذي يختار مراد الله على =

اللحظة الأخيرة، وإنما أبقى اللّه جسد فرعون آية لكل من يعتبر ويتعظ،

= مراد نفسه هو من العباد؛ ولذلك الحق سبحانه يقول: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢] ويقول: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]. فالناس قسمان: مؤمن وكافر. والكل - سواء كان مؤمناً أو كافراً - لهم قهريات في الوجود لا يستطيع أحد أن يتمرد عليها، فالكل عبيد في القهريات. وفي الاختيارات فالمؤمن يقول لربه: يا رب أنا سأختار ما تأمرني به أنت، وأنفذ ما تريده مني وسألغي اختياري، فهذا من العباد.

وكلمة: ﴿ غَشِيَهُمْ ﴾ معناها: غطّاهم من البحر ما غطاهم، وأنت حين تبالغ في شيء تقول: لقد حدث ما حدث، وحصل ما حصل. فأنت تبهم الشيء؛ لأنك لا تقدر على الإحاطة به بالتفصيل. كذلك قوله تعالى: ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾؛ أي: أنه أمر مهول لا يمكن حصره، وهذه لقطة غير موجودة في القصة هنا، فموسى حينما مشى في الطريق «اليبس» ونجا بقومه «بني إسرائيل» وتبعه فرعون بجنوده، أراد أن يضرب البحر بعصاه؛ ليعود كما كان حتى لا يسلكه فرعون وراءهم، وكان هذا اجتهادا منه، ولكن الوحي الإلـٰهي أمره أن يترك البحر كما هو، قال تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤]، وكانت الحكمة من ترك البحر على حاله إغراء فرعون وجنوده بالسير في الطريق اليبس، حتى إذا كان الجنود داخله أرجع اللّه الماء إلى استطراق سيولته؛ فيغرق فرعون وجنوده، فيكون اللّه تعالى قد أنجى وأهلك بالشيء الواحد.

ومعنى ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ [طه: ٧٩] أي أنه قادهم إلى طريق الضلال والهلاك؛ لأنه كان دائماً يدعي أنه يقود قومه ويهديهم إلى سبيل الرشاد، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩] ففرعون كذب في هذا الزعم؛ لأنه قادهم إلى الهلاك والغرق، ولم يهدهم إلى سبيل الرشاد.

وها هم قوم موسى أمام البحر يخشون الغرق، وتتجلى معجزة اللّه لموسى في أن قوم فرعون خلفه والبحر أمامه فيوحي اللّه له: أن يضرب بعصاه البحر؛ فينفلق البحر كل فرق كالطود العظيم. انتقل الماء من قانون السيولة المسخر به، إلى قانون التجمع الذي أراده اللّه، وصار البحر طريقاً؛ ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٧٧]، طُرق البحر التي تفرقت بعصا موسى صارت جافة يا بسة، تصلح للمرور والسير عليها، لقد أرسل اللّه الريح لتجفف أرض الطرق التي انشقت بعصا موسى، لقد أصبح البحر سراديب، فسارت فيه الاثنتا عشرة جماعة التي خرجت مع موسى عليه السلام، وبينما هم سائرون مع موسى؛ لينجوا جميعهم خوفاً من أن يلحق بهم فرعون وجنوده، قال بعضهم: أين إخواننا الذين كانوا معنا ؟ أجابهم موسى عليه السلام بما معناه: إنهم يسيرون في الطرق الأخرى التي انشقت بالعصا، كما أراد الحق أن ينجيكم، لكنهم شكّوا في ذلك، ورفع موسى يده إلى السماء يدعو الخالق الأكرم أن يعينه على سوء خلق من لم يؤمن بقدرة الحق. =

ولكل من يشك في قدرة اللّه سبحانه(١).

= وأوحى اللّه لموسى أن يضرب بالعصا على الفِرْق العظيم، فانشقت في كل فرق كوة يمكن لكل جماعة أن ترى الأخرى منها، ويقال: إن جبريل كان قد ركب فرسا أنثى آتاها الشبق، وهي تمخر في البحر. وكانت الفرس - التي لفرعون - قد شمّت ريحها فملأها الهياج، فاقتحمت البحر وراءها، فغرق فرعون ومن معه أجمعون، ونجا موسى ومن معه. هكذا شاءت إرادة الحق أن يهلك وأن ينجي بالسبب الواحد، انشقاق البحر ثم عودته مرة أخرى إلى حالته، وعندما جاء الغرق إلى فرعون أعلن الإيمان، لكن لا قبول للإيمان في اللحظة الأخيرة؛ وإنما بقي جسد فرعون آية لإثبات قدرة اللّه، وفي ذلك يقول الحق: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس]، لقد شاءت إرادة الحق أن يبقى جسد فرعون بعد الغرق محفوظاً؛ ليراه الناس من بعد ذلك؛ ليعتبروا بالعظة التي أرادها اللّه، لقد غرق آل فرعون ولم ينجُ فرعون من الغرق، إنما الذي نجا هو جسده، حدث ذلك أمام عيون من خرج مع موسى عليه السلام، هرباً من ظلم فرعون، وبعد أن تأكدوا من نجاتهم جميعاً.

لما بدأ موسى الفرار بقومه من بطش فرعون وجبروته، تبعه فرعون وقومه، وأصبحت كل فئة على مرمى البصر من الأخرى؛ أي أن قوم موسى يرون فرعون وجنوده مقبلين، وقوم فرعون يرون موسى وأتباعه وهم يفرون، فقال قوم موسى لنبيّهم: ﴿ . . . إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء]، كان كلام قوم موسى منطقياً مع الأحداث؛ لأن قوم فرعون وراءهم يسارعون إليهم، وأمامهم البحر لا يستطيعون أن يهربوا، فلا بد أن يدركهم قوم فرعون.

ولكن موسى قال: ﴿ كَلَّآ ﴾، لماذا ؟ لأنه رسول رب العالمين، وربه الذي أرسله لن يتركه، وإذا كانت الأسباب قد عجزت، فربُّ الأسباب سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء؛ ولذلك فعندما تخلت الأسباب عن موسى وقومه، التجأ إلى ربِّ الأسباب، ولم يلجأ إلى قدرات البشر، وقال: ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أي: إن اللّه معي وسيهديني إلى طريق النجاة؛ حينئذ جاءه المدد الإلهي من اللّه تبارك وتعالى، يقول رب العالمين: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣].

وهكذا أنجى اللّه جل جلاله موسى وقومه بأن خرق لهم قانون سيولة واستطراق الماء.

قصص الأنبياء [٣/ ١٨٢٥-١٨٣٩].

(١) قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ ﴾ [يونس: ٩٠]؛ ولم يقل: اجتاز بنو إسرائيل البحر؛ لأن الاجتياز لم يتم بأسباب بشرية، وإنما تم بقدرة اللّه سبحانه وتعالى التي هي فوق الأسباب، فلو كان بنو إسرائيل قد حفروا خندقاً، أو بنوا حائطاً، أو أعدّوا بعض السفن؛ ليعبروا بها البحر. لكانوا قد اجتازوا البحر بأسباب =

....

= البشر، ولكن قوله تعالى: ﴿ وَجَٰوَزْنَا ﴾ تدل على أن العملية تمت بقدرة اللَّه، وليس بأسباب البشر، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى أمر موسى أن يضرب البحر بعصاه، وكما نعرف فإن قانون الماء هو السيولة والاستطراق، واللَّه تبارك وتعالى طلب من موسى أن يضرب بعصاه البحر فانفلق وتجمد، ونحن نعرف أن الماء يملأ الأماكن المنخفضة قبل أن يصل إلى الأماكن العالية، وهذا هو الذي بُني عليه قانون صهريج الماء، فنملأ الماء في صهاريج عالية بالمضخات ثم نضع المواسير فيصل الماء إلى المساكن؛ ولذلك فعندما تكون هناك عمارة عالية فإن المياه لا تصل إلى الأدوار العليا؛ لأنها تعطي الأدوار المنخفضة أولًا.

موسى عليه السلام بمجرد أن ضرب بعصاه البحر، تحول الماء من السيولة إلى جبلين بينهما وادٍ، لماذا تمت المعجزة بهذه الكيفية ؟ لأنه لو انفلق البحر وأوجد لهم طريقاً يمرون فيه وحوله الماء من الناحيتين لخاف بنو إسرائيل أن يعبروا، وقالوا: ربما أغرقنا الماء ونحن لم نتم العبور، واللَّه سبحانه وتعالى يريدهم أن يطمئنوا ويعبروا بسرعة وبلا تردد، فجعل الماء على الناحيتين يجمد؛ حتى يطمئنوا إلى أن عبورهم سيتم بسلام.

بعد أن عبر موسى وقومه البحر، أراد أن يضرب البحر بعصاه؛ فيعود مرة أخرى إلى السيولة؛ حتى لا يمر جنود فرعون ويلحقوا بهم، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى طلب منه ألا يفعل ذلك، وقال له: ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾، أي: اترك البحر كما هو، وفيه الممر اليابس الذي مر فيه موسى وقومه؛ لأنهم سينخدعون وينزلون إلى الممر الموجود في البحر ليتبعوكم، وبمجرد أن يكون أولهم قد اقترب من الشاطئ الآخر من البحر، وآخرهم في أول البحر، فيعيد اللَّه سبحانه وتعالى للماء قانونه فيعود البحر مرة أخرى إلى السيولة؛ فيغرق كل من هو موجود في الممر، فينجو موسى وقومه، ويغرق فرعون وجنوده بنفس الشيء. قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾، في هذه الحالة الاتباع لا يتم بفكر بشري مرتب، بل يتم بانفعال الشر؛ لأن فرعون وجنوده حين رأوا موسى وأتباعه قد بعدوا عنهم، كان العقل يقول: لقد خلُصنا من موسى وأتباعه، وذهبوا بعيداً، ولكن نوازع الشر في نفس فرعون، وفي أنه يريد أن يقتل موسى وقومه هي التي جعلته يتبعهم؛ ذلك أن موسى ومن معه ماداموا قد بعدوا عن فرعون ومن معه، يكون خطرهم على ملكه قد زال، وانتهت المسألة هذا إذا كان فرعون يريد ذلك، ولكن فرعون يريد أن يثبت أنه إله، وأنه لا يفلت من قبضته عدو، وأنه لا بد أن يقتل موسى وقومه ليكونوا عبرة؛ حتى لا تقوم دعوة إصلاح بعد ذلك.

الشر داخل فرعون هو الذي دفعه أن يعبر بجيشه البحر، وإحساسه بقوة جيشه وضعف موسى وقومه، هو الذي جعله يصمّم على أن ينكّل بهم، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ ﴾؛ والبغي هو تجاوز الحد، والعدوان هو الإصرار على الباطل.

وحينما نقرأ قول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ =

....

= أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ ﴾، نعرف أن اللّه سبحانه وتعالى كان قد أعد لفرعون وجيشه هذه النهاية؛ ليكونوا عبرة لكل طاغية يدّعي الألوهية؛ ذلك لأن فرعون أخذ بأسباب الأرض، ونسي قدرة اللّه المسبب. ولو أن البغي والعدوان لم يكن بداخله، لعرف بمجرد أن رأى معجزة انشقاق البحر، أن إله موسى سينجيه ولن يتركه يهلك، ولوقف أمام هذه المعجزة ليفيق من كفره، بل إن انشقاق البحر كان معجزة مرئية، تكفي لكي يؤمن فرعون برسالة موسى؛ لأنه لا يقدر على هذه المعجزة إلا الخالق سبحانه وتعالى، فليس من قدرة البشر، ولا غير البشر، أن يشقوا البحر ويتحول الماء إلى جبلين بينهما ممر، ولكن غرور فرعون وعدوانه لم يجعله يلتفت إلى هذه المعجزة التي وضعها اللّه أمامه؛ علّه يفيق، لقد كان مشغولاً بألوهيته وجبروته، وكان الكفر يملأ قلبه، فلم تؤثر هذه المعجزة الكبرى فيه.

ولذلك يقول الحق جل جلاله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ ﴾، والإدراك: أن يقصد المدرك أن يلحق بالشيء الذي يريد أن يدركه، ويبذل كل جهده في ذلك، والغرق هو أن يغطي الماء الإنسان فلا يستطيع أن يتنفس، فيدخل إلى جسده بدلاً من الهواء.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ ﴾، كأن الغرق جندي من جنود اللّه وله عقل، وقد تلقى الأوامر من اللّه؛ ليحيط فرعون وجيشه ويغرقهم، ماذا قال فرعون عندما أدركه الغرق؟ قال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾، الإيمان إذا أطلق يكون دائماً إيماناً باللّه سبحانه وتعالى؛ ولذلك تقول: آمنت، فيعرف كل من يستمع إليك أنك آمنت باللّه، والدليل على ذلك قول اللّه في الآية الكريمة: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤]، لم يقل الحق: آمنا بكذا، إذن.. فالإيمان إذا أطلق نعرف أنه إيمان باللّه.

والإسلام إذا أطلق يعني إسلاماً للّه سبحانه وتعالى، وهكذا عندما تُطلق كلمة الإيمان تنصرف إلى الإيمان باللّه، فإذا أطلقت على غير الإيمان باللّه فلا بد أن تُعرَّف، فتقول: آمنت أنك رجل كريم، أو رجل وفيّ، أو رجل طيب، ولكن إذا لم تحدد، ينصرف إلى الإيمان باللّه، ولكن فرعون لم يقلّ: آمنت فقط، بل قال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾، كل هذا يأتي لتأكيد المعنى؛ لأن فرعون كافر ومدّع للألوهية، ولا يتوقع منه أن يعلن إيمانه باللّه، وخصوصاً أنه دُعِي أكثر من مرة إلى الإيمان، ورأى أكثر من معجزة ولم يؤمن، فلا بد هنا من تأكيد المعنى، واللّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾، أي: أتقول الآن: إنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، وقد كنت تملأ الدنيا كفراً؟! المردود هنا ليس الإيمان نفسه، ولكن زمن الإيمان؛ لأن هناك فرقاً بين إيمان الإجبار وإيمان الاختيار. فرعون وهو يغرق كان في إيمان الإجبار؛ لأنه يواجه الموت ويرى نهايته، وإيمان الإجبار لا ينفع، ولذلك يقول الحق سبحانه =

....

= وتعالى: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾، أي: أنك يا فرعون وأنت تواجه الموت تقول: آمنت، بينما كان عندك زمن طويل؛ لتعلن إيمانك بعد أن أراك اللّه معجزات كثيرة على يد رسوله موسى، ولكنك عصيت وأصررت على الكفر؛ ولذلك فإن الإيمان لا يتقبل إذا بلغت الروح الحلقوم، وعرف الإنسان أنه سيموت يقيناً؛ لأن هذا إيمان إجبار.

واللّه سبحانه وتعالى يريد إيمان الاختيار من البشر، ولو كان المطلوب إيمان الإجبار، لقهر اللّه سبحانه وتعالى عباده على الإيمان، وما استطاع واحد أن يكفر باللّه؛ لأن كل ما في الكون خاضع لأمر اللّه سبحانه وتعالى، يستطيع أن يقهرهم على ما يشاء، ولكن الحق جل جلاله يريد بإعطاء الإنسان الاختيار، أن يأتيه عن محبوبية، ولا يتم إيمان المحبوبية إلا إذا كان الإنسان مختاراً أن يؤمن أو لا يؤمن، فالذي يأتي عن طريق الاختيار، تكون له منزلة كبيرة عند اللّه.

إذن.. فالمردود ليس القول، ولكنه زمن القول، يقول بعض الناس: إن اللّه ردّ إيمان فرعون ولم يقبله مع أنه قالها ثلاث مرات؟

نقول: إن إيمان الإجبار لا يقبل ممن له اختيار، وفرعون حينما قال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾، كان بنو إسرائيل في ذلك الوقت يجسمون اللّه سبحانه وتعالى، أنه جالس على صخرة من المرمر وقدماه في الماء، وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى حتى ساعة إعلان إيمان فرعون، أن يكون هذا الإعلان باطلًا، الحق يقول: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس: ٩٢]، ونحن نعرف أن الإنسان مكون من بدن وروح، البدن أو الجسد هو الهيكل المادي، والروح هي التي تعطي هذا الهيكل الحياة والحركة، إذن.. فقوله تعالى: ﴿ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾، أي: بجسدك مجرّداً من الروح، وسليمان عليه السلام أُعطي ملكاً لم يُعط لأحد، وعندما فُتِن بما أعطي من الملك، جعله اللّه جسداً بلا روح: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص: ٣٤] وهكذا نجد سليمان عليه السلام - وهو الذي أُعطي ملكاً لم يُعْطَهُ أحد - جالساً على الكرسي جسداً بلا روح ولا حركة، وعندما عاد ورجع إلى صوابه، وعرف أن ملكه ليس من ذاته، ولكنه من نعم اللّه عليه، أعاد اللّه سبحانه وتعالى له روحه وملكه.

الحق سبحانه وتعالى يقول لفرعون ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ [يونس: ٩٢]، أي: بجسدك المجرد عن الروح، ولذلك جعل اللّه سبحانه وتعالى البحر يلقي بجسد فرعون قبل أن يصبح جيفة؛ حتى يراه الذين عبدوه جسداً بلا روح؛ ليعرفوا أنهم قد عبدوا إلٰهاً غير قادر على أن يعطي الحياة لنفسه، فكيف يعطي الآخرين الحياة؟! ولو أن فرعون غاص إلى أعماق البحر بعد غرقه، ربما قال أتباعه: إنه قد اختفى وسيعود، ولكن ظهوره كجسد بلا روح يجعلهم يرون نهايته؛ علّها تكون عبرة لهم حتى لا يعبدوا بشراً بعد ذلك. =

....

❁ ❁ ❁

= ولذلك يقال: إن سبب حفظ أبدان الفراعنة أن اللّه سبحانه وتعالى أعطاهم أسرار تحنيط الجسد البشري؛ لكي تكون أجسادهم عبرة لمن يجيء بعدهم، ويرى الناس أولئك الذين ادّعوا الألوهية وهم أجساد لا حركة فيها ولا قدرة، وأراد اللّه أن يرى قوم فرعون جسد فرعون، ذلك الطاغية الذي كان يدّعي الألوهية ويقول: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿ نُنَجِّيكَ ﴾؛ أي نجعلك بنجوى؛ أي: مكان عالٍ؛ حتى يراك الناس جميعاً وتكون ظاهراً لهم، لا يُخفي جسدَك رمالٌ أو تلٌ أو أية عوامل طبيعية، بل تكون عالياً أمامهم؛ ليروك جميعاً، لماذا ؟ لتكون لم خلفك آية، والآية هي الشيء العجيب الذي يلفتنا إلى طلاقة قدرة اللّه وعظمتها.

قصص الأنبياء [١٨٥٣-١٨٦٢].

ماذا تعني كلمة مصر في القرآن ؟

السؤال: هل اسم مصر الوارد في القرآن الكريم يعني مصر التي نعيش فيها، أو يعني بلداً آخر ؟

الجواب: ذكر اسم مصر أكثر من مرة في القرآن الكريم وهو ممنوع من الصرف أي غير منون.

ونحن نعرف أن الشيء الذي يكون ممنوعاً من الصرف مقصود به تحديد مكان يعرفه كل الناس.

وإذا تم صرف اسم ذلك المكان - أي أصبح منوناً - فقد يكون المقصود هو تحديد بقعة أخرى.

ونحن نعرف أن كلمة « مصر » تطلق على أي مكان له أمير وقاض، أي مدينة.

إن كلمة « مصر » مأخوذة من الاقتطاع، لأنها مكان من العمران يقطع الأرض الخلاء، وعادة ما يقع ذلك المكان بين فضاءين، فإذا كان المقصود من تلك الآية « مصر » البلد الذي نعيش فيه، فإن الحق تبارك وتعالى يعني أن يعود قوم موسى إلى مصر حيث سامهم آل فرعون سوء العذاب، ونحن نعرف أن مصر تقع بين الصحراء الشرقية والصحراء الغربية أي هي عمران بين فضاءين.

وإن كان المراد بها - أي: «مصر» - مدينة لها قاضٍ وأمير وبها عمران، فذلك مراد الله، ولذلك يكون رحيل قوم موسى إلى مدينة يجدون فيها ما سألوا عنه من طعام يختلف عن المن والسلوى[1].

---

(١) قال ابن جرير الطبري: القول في تأويل قوله تعالى ذكره: ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ ﴾ [البقرة: ٦١].
وتأويل ذلك: فدعا موسى ! فاستجبنا له، فقلنا لهم: اهبطوا مصراً، وهو من المحذوف الذي اجتزئ بدلالة ظاهره على ذكر ما حذف وترك منه. وقد دللنا فيما مضى على أن معنى الهبوط إلى المكان إنما هو النزول إليه والحلول به.
فتأويل الآية إذاً: ﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا =

....

= ﴿ تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ ﴾ [البقرة: ٦٧].
قال لهم موسى: أتستبدلون الذي هو أخس وأردأ من العيش بالذي هو خير منه ؟
فدعا لهم موسى ربه أن يعطيهم ما سألوه، فاستجاب اللّه له دعاءه، فأعطاهم ماطلبوا، وقال اللّه لهم: ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ ﴾.
ثم اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿ مِصۡرٗا ﴾ فقرأه عامة القراء مصراً بتنوين المصر وإجرائه؛ وقرأه بعضهم بترك التنوين وحذف الألف منه.
فأما الذين نوّنوه وأجروه، فإنهم عنوا به مصراً من الأمصار لا مصراً بعينه، فتأويله على قراءتهم: اهبطوا مصراً من الأمصار، لأنكم في البدو، والذي طلبتم لا يكون في البوادي والفيافي، وإنما يكون في القرى والأمصار، فإن لكم إذا هبطتموه ما سألتم من العيش.
وقد يجوز أن يكون بعض من قرأ ذلك بالإجراء والتنوين، كان تأويل الكلام عنده: اهبطوا مصراً البلدة التي تعرف بهذا الاسم وهي مصر التي خرجوا عنها، غير أنه أجراها ونوّنها اتباعا منه خط المصحف، لأن في المصحف ألفاً ثابتة في مصر، فيكون سبيل قراءته ذلك بالإجراء والتنوين سبيل من قرأ: ﴿ . . . قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٖ . . . ﴿١٦﴾ ﴾ [الإنسان] منونة اتباعا منه خط المصحف، وأما الذي لم ينوّن مصر فإنه لا شك أنه عني مصر التي تعرف بهذا الاسم بعينها دون سائر البلدان غيرها.
وقد اختلف أهل التأويل في ذلك نظير اختلاف القراء في قراءته:
فحدثنا بشر بن معاذ، قال: ثنا يزيد بن زريع عن سعيد، عن قتادة ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا ﴾ أي مصراً من الأمصار ﴿ فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ ﴾.
وحدثني موسى بن هرون، قال: ثنا عمرو بن حماد، قال: ثنا أسباط، عن السدي ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا ﴾ من الأمصار ﴿ فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ ﴾، فلما خرجوا من التيه رفع المنّ والسلوى وأكلوا البقول.
وحدثني المثني، قال: حدثني آدم، قال: ثنا أبو جعفر، عن قتادة في قوله: ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا ﴾ قال: يعني مصراً من الأمصار.
وحدثنا القاسم بن الحسن، قال: ثنا الحسين، قال: حدثني حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا ﴾ قال: مصراً من الأمصار، زعموا أنهم لم يرجعوا إلى مصر.
حدثني يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا ﴾ قال: مصراً من الأمصار، ومصر لا تجري في الكلام.
فقيل: أيّ مصر ؟ فقال: الأرض المقدسة التي كتب اللّه لهم، وقرأ قول اللّه جل ثناؤه: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ [المائدة: ٢١].
ذكر من قال ذلك: حدثني المثني، ثنا آدم، ثنا أبو جعفر، عن الربيع، عن أبي العالية في قوله: ﴿ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا ﴾ مصراً من الأمصار دون مصر فرعون بعينها، أن اللّه جعل أرض الشام لبني إسرائيل مساكن بعد أن أخرجهم من مصر، وإنما ابتلاهم بالتيه بامتناعهم على =

....

= موسى في حرب الجبابرة إذ قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ۝٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ ۝٢٢﴾ [المائدة] إلى قوله: ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ فحرم اللّه جل وعز على قائل ذلك فيما ذكر لنا دخولها حتى هلكوا في التيه وابتلاهم بالتيهان في الأرض أربعين سنة، ثم أهبط ذريتهم الشام، فأسكنهم الأرض المقدسة، وجعل هلاك الجبابرة على أيديهم مع يوشع بن نون بعد وفاة موسى بن عمران، فرأينا اللّه جل وعز قد أخبر عنهم أنه كتب لهم الأرض المقدسة، ولم يخبرنا عنهم أنه ردّهم إلى مصر بعد إخراجه إياهم منها، فيجوز لنا أن نقرأ ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾، ونتأوّله أنه ردّهم إليه

قالوا: فإن احتجّ محتجّ بقول اللّه جل ثناؤه ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾؟ قيل لهم: فإن اللّه جل ثناؤه إنما أورثهم ذلك فملكهم إياها ولم يردهم إليها، وجعل مساكنهم الشام.

وأما الذين قالوا: إن اللّه إنما عني بقوله جل وعزّ ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ مصر، فإن من حجتهم التي احتجوا بها الآية التي قال فيها: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾، وقوله: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨﴾ [الدخان] قالوا: فأخبر اللّه جل ثناؤه أنه قد ورثهم ذلك وجعلها لهم، فلم يكونوا يرثونها ثم لا ينتفعون بها، قالوا: ولا يكونون منتفعين بها إلا بمصير بعضهم إليها، وإلا فلا وجه للانتفاع بها إن لم يصيروا أو يصير بعضهم إليها.

قالوا: وأخرى أنها في قراءة أبيّ بن كعب وعبد اللّه بن مسعود «اهبِطُوا مِصْرَ» بغير ألف، قالوا: ففي ذلك الدلالة البينة أنها مصر بعينها.

والذي نقول به في ذلك: أنه لا دلالة في كتاب اللّه على الصواب من هذين التأويلين، ولا خبر به عن الرسول ﷺ يقطع مجيئه العذر، وأهل التأويل متنازعون تأويله.

فأولى الأقوال في ذلك عندنا، والصواب أن يقال: إن موسى سأل ربه أن يعطي قومه ما سألوه من نبات الأرض على ما بينه اللّه جل وعز في كتابه وهم في الأرض تائهون، فاستجاب اللّه لموسى دعاءه، وأمره أن يهبط بمن معه من قومه قرارا من الأرض التي تنبت لهم ما سأل لهم من ذلك، إذ كان الذي سألوه لا تنبته إلا القرى والأمصار وأنه قد أعطاهم ذلك إذ صاروا إليه، وجائز أن يكون ذلك القرار مصر، وجائز أن يكون الشام.

فأما القراءة فإنها بالألف والتنوين ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ وهي القراءة التي لا يجوز عندي غيرها لاجتماع خطوط مصاحف المسلمين، واتفاق قراءة القراء على ذلك، ولم يقرأ بترك التنوين فيه وإسقاط الألف منه إلا من لا يجوز الاعتراض به على الحجة فيما جاءت به من القراءة مستفيضاً بينها.

تفسير الطبري [١/ ٣١٣-٣١٥].

الجمعة والسبت . . . والحكمة من ذكرهما في القرآن

السؤال: ورد اسما يومي الجمعة والسبت في القرآن الكريم، فلماذا ذكرهما اللّه دون باقي أيام الأسبوع ؟

الجواب: نحن نعرف أن أيام الأسبوع سبعة، فيها الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس. ولنا أن نلحظ أن أسماء تلك الأيام الخمسة تبدأ من الأحد وتنتهي بالخميس وتلك الأيام أخذت أسماءها من الأعداد، وبقي يومان هما اللذان جاء ذكرهما في القرآن الكريم وهما: الجمعة والسبت.

إذن . . هذان اليومان أخذا اسميهما من تسمية الحق سبحانه وتعالى لهما.

فاسم الجمعة، جاء من اليوم الجامع، وهو اليوم الذي اجتمع فيه للكون نظام ووجود منسجم، لذا سماه الحق سبحانه وتعالى بالجمعة، ولذلك جعل الحق سبحانه وتعالى منه عيداً، والعيد هو اجتماع الناس في ذلك اليوم وما سمي العيد عيداً إلا لاجتماع الناس فيه.

ولنا أن نعرف أن يوم الجمعة فضله اللّه تعالى على سائر أيام الأسبوع الأخرى بفضائل ونعم، وهدى الأمة الإسلامية إليه بعد أن ضلت الأمم الأخرى عنه[1].

ولذلك شرع اللّه تعالى الاجتماع فيه والاستماع لخطبتي الجمعة ثم أداء الصلاة.

لكن ما السبت ؟، ولماذا سمي بيوم السبت ؟

إن الحروف المكونة لذلك اليوم هي الـ « سين » والـ « باء » والـ « تاء » ومادة

---

(١) قال رسول اللّه ﷺ: « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل اللّه تعالى شيئاً إلا أعطاه إياه » أخرجه البخاري [٩٣٥] من حديث أبو هريرة رضي اللّه تعالى عنه. وقال رسول اللّه ﷺ: « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا اللّه له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غدٍ » أخرجه البخاري [٨٧٦] من حديث أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه.

تلك الحروف بترتيبها « سبت » تعني لغوياً معنى القطع والفراغ من الشيء ويقال في اللغة « سبت - يسبت - سبتاً » وتفيد قطع عمله وسكن.

ونعرف أن الحق جل وعلا أكمل خلق الكون يوم الجمعة واستوى على العرش في يوم السبت.

ولنا أن نتفهم جيداً أن اكتمال خلق الكون لا يعني أن القوانين التي أرادها اللَّه لتسيير حركة الكون هي التي تسير الكون، فالحق خلق القوانين وظلت بيده أسباب تلك القوانين يلفتنا لها من حين إلى حين حتى لا تلهينا الغفلة عن ذكره سبحانه وتعالى.

أما سكون البشر، فيختلف، ولذلك فالنوم يأخذ اسما له من مادة « سبت » ونسميه « السبات » أي السكون عن الحركة.

ولقد أراد بنو إسرائيل يوماً للراحة، فأعطاهم اللَّه يوم السبت، وأي عطاء من الحق نعرف أنه ابتلاء، فالنعمة بزيادتها أو نقصانها امتحان من الحق سبحانه، وقد أراد اللَّه أن يختبر بني إسرائيل في يوم راحتهم الذي حدده لهم، فكانوا يسكنون في ثغر من الثغور المطلة على البحر اسمه « أيلة » وكان عملهم هو صيد السمك، وأراد الحق أن يختبر عطاءه لهم بأن يكون السبت هو يوم راحتهم الذي لا يعملون فيه، واختبر اللَّه إيمانهم بأن يأتي السمك على سطح الماء الساكن رافعاً زعانفه وكأنها أشرعة مراكب. ومعلوم أنهم قوم مفتونون بالمادة، فزاغت أبصارهم، وتحركت شهواتهم، ولكنهم يخشون من المخالفة في يوم الراحة فاحتالوا على الأمر وصنعوا حياضاً عميقة وأقاموا فيها وسائل تجذب السمك إلى هذه الحياض في يوم السبت وتمنعه من الخروج منها، وذلك حتى يصطادوه يوم الأحد، هكذا احتالوا، وهكذا فسقوا وخرجوا عن التكليف الذي جاء إليهم بناء على طلبهم، لقد طلبوا السبت كيوم للسكون، فإذا بهم يحتالون[١].

---

(١) قال ابن كثير: قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣].
هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ الآية. يقول تعالى لنبيه صلوات اللَّه وسلامه عليه ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ ﴾ أي واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم، الذين خالفوا أمر اللَّه ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في =

....

= كتبهم لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم، وسلفهم وهذه القرية هي « أيلة » وهي على شاطئ بحر القلزم.

قال محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ قال: هي قرية يقال لها: « أيلة » بين مدين والطور، وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة والسدّي. وقال عبد اللّه بن كثير القارئ: سمعنا أنها « أيلة ». وقيل: هي « مدين » وهو رواية عن ابن عباس، وقال ابن يزيد: هي قرية يقال لها « منتنا » بين مدين وعينونا.

وقوله: ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ أي يعتدون فيه ويخالفون أمر اللّه فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك.

﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: أي: ظاهرة على الماء، وقال العوفي عن ابن عباس: شرعاً من كل مكان قاله ابن جرير.

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم ﴾ أي نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده وإخفائها عنهم في اليوم الحلال لهم صيده.

﴿ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم ﴾ نختبرهم ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة اللّه وخروجهم عنها وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم اللّه بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحراء.

وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد اللّه بن بطة رحمه اللّه حدثنا أحمد بن محمد بن سلم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: « لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم اللّه بأدنى الحيل » وهذا إسناد جيد، فإن أحمد بن محمد بن سلم هذا ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه وباقي رجاله مشهورون ثقات ويصحح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيراً.

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الأعراف].

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت كما تقدم بيانه في « سورة البقرة »، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أي: لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من اللّه فلا فائدة في نهيكم إياهم؟ =

....

= قالت لهم المنكرة: ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ قرأ بعضهم بالرفع كأنه على تقدير هذا معذرة وقرأ آخرون بالنصب أي نفعل ذلك ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ أي: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ يقولون: ولعل لهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه ويرجعون إلى اللَّه تائبين فإذا تابوا تاب اللَّه عليهم ورحمهم، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أي: فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ﴿ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي ارتكبوا المعصية ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين لأن الجزاء من جنس العمل فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا. ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الهالكين أو من الناجين على قولين.

وقال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة يقال لها « أيلة » فحرم اللَّه عليهم الحيتان يوم سبتهم وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً في ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها فمضى على ذلك ما شاء اللَّه، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم فنهتهم طائفة وقالوا: تأخذونها وقد حرمها اللَّه عليكم يوم سبتكم ؟ فلم يزدادوا إلا غياً وعتواً وجعلت طائفة أخرى تنهاهم فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاة: تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ وكانوا أشد غضباً للَّه من الطائفة الأخرى فقالوا: ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وكل قد كانوا ينهون فلما وقع عليهم غضب اللَّه نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ والذين قالوا: ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ وأهلك اللَّه أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة.

وروى العوفي عن ابن عباس عنه قريباً من هذا.

وقال حماد بن زيد عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس في الآية قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ أم لا ؟ قال: فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا فكساني حلة، وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج حدثني رجل عن عكرمة قال جئت ابن عباس يوماً وهو يبكي وإذا المصحف في حجره فأعظمت أن أدنو منه ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست فقلت ما يبكيك يا ابن عباس جعلني اللَّه فداك ؟ قال: فقال: هؤلاء الورقات، قال: وإذا هو في سورة الأعراف قال تعرف «أيلة»؟ قلت: نعم. قال: فإنه كان بها حي من اليهود سيقت الحيتان إليهم يوم السبت ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤنة شديدة كانت تأتيهم يوم سبتهم شرعاً بيضاء سماناً كأنها الماخض تنتطح ظهورها لبطونها بأفنيتهم فكانوا كذلك برهة من الدهر ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت فخذوها فيه وكلوها في غيره من الأيام فقالت ذلك طائفة منهم وقالت طائفة بل نهيتم عن أكلها =

....

= وأخذها وصيدها يوم السبت فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها واعتزلت طائفة ذات اليمين ونتحت واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت وقال الأيمنون ويلكم اللّه، ننهاكم أن تتعرضوا لعقوبة اللّه وقال الأيسرون: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قال الأيمنون: ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي ينتهون، إن ينتهوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم فمضوا على الخطيئة وقال الأيمنون فعلتم يا أعداء اللّه واللّه لنأتينكم الليلة في مدينتكم واللّه ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم اللّه بخسف، أو قذف، أو بعض ما عنده من العذاب فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا فلم يجابوا، فوضعوا سلماً وأعلوا سور المدينة رجلًا، فالتفت إليهم فقال: أي عباد اللّه قردة واللّه تعادي تعادي لها أذناب.

قال: ففتحوا فدخلوا عليهم فعرفت القرود أنسابها من الإنس ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي، فيقول: ألم ننهكم عن كذا فتقول برأسها: أي نعم.

ثم قرأ ابن عباس: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ ﴾ [الأعراف: ١٦٥] قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا ولا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها، قال: قلت: جعلني اللّه فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ قال: فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين، وكذا روى مجاهد عنه.

وقال ابن جرير حدثنا يونس أخبرنا أشهب بن عبد العزيز عن مالك قال زعم ابن رومان أن قوله تعالى: ﴿ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٦٣] قال كانت تأتيهم يوم السبت فإذا كان المساء ذهبت فلا يرى منها شيء إلى يوم السبت الآخر فاتخذ لذلك رجل خيطاً ووتداً فربط حوتاً منها في الماء يوم السبت حتى إذا أمسوا ليلة الأحد أخذه فاشتواه فوجد الناس ريحه؛ فأتوه فسألوه عن ذلك؛ فجحدهم فلم يزالوا به؛ حتى قال لهم: فإنه جلد حوت وجدناه، فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك. ولا أدري لعله قال ربط حوتين، فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه فوجدوا رائحة فجاؤوا فسألوه فقال لهم: لو شئتم صنعتم كما أصنع، فقالوا له: وما صنعت؟ فأخبرهم ففعلوا مثل ما فعل حتى كثر ذلك وكانت لهم مدينة لها ربض يغلقونها عليهم فأصابهم من المسخ ما أصابهم؛ فغدوا عليهم جيرانهم ممن كانوا حولهم يطلبون منهم ما يطلب الناس، فوجدوا المدينة مغلقة عليهم فنادوا، فلم يجيبوهم؛ فتسوروا عليهم؛ فإذا هم قردة، فجعل القرد يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك ويدنو منه ويتمسح به، وقد قدمنا في سورة البقرة من الآثار في خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية وللّه الحمد والمنة.

القول الثاني: أن الساكتين كانوا من الهالكين. =

....

۞ ۞ ۞

= قال محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ابتدعوا السبت فابتلوا فيه فحرمت عليهم فيه الحيتان، فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر فإذا انقضى السبت ذهبت، فلم تر حتى السبت المقبل، فإذا جاء السبت جاءت شرعاً فمكثوا ما شاء اللّه أن يمكثوا كذلك، ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتاً فخزم أنفه ثم ضرب له وتداً في الساحل وربطه وتركه في الماء، فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله ففعل ذلك وهم ينظرون، ولا ينكرون، ولاينهاه منهم أحد إلاعصبة منهم نهوه حتى ظهر ذلك في الأسواق؛ ففعل علانية قال: فقالت طائفة للذين ينهونهم: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ فقالوا نسخط أعمالهم: ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ، فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ - إلى قوله: قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾.

قال ابن عباس: كانوا أثلاثاً، ثلث نهوا، وثلث قالوا: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾. وثلث أصحاب الخطيئة فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم، وهذا إسناد جيد عن ابن عباس ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا لأنه تبين حالهم بعد ذلك واللّه أعلم.

وقوله تعالى ﴿ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ ﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا، و ﴿ بَـِٔيسٍۭ ﴾ فيه قراءات كثيرة ومعناه في قول مجاهد الشديد، وفي رواية أليم وقال قتادة موجع والكل متقارب واللّه أعلم، وقوله: ﴿ خَٰسِـِٔينَ ﴾ أي: ذليلين حقيرين مهانين.

تفسير ابن كثير [٢/ ٢٤٧].

أكثر من حكمة وراء العثور على أهل الكهف

السؤال: نريد أن نتعرف من فضيلتكم عن الحكمة وراء العثور على أهل الكهف، بعد أن ناموا أكثر من ثلثمائة سنة ؟

الجواب: كان العثور عليهم له أكثر من حكمة، فأولًا تحولت البلدة الكافرة التي كانت تعبد الأوثان إلى بلدة مؤمنة تعبد اللّٰه سبحانه وتعالى، في هذه السنوات الطوال التي مرت، تغير الحال تماماً، وانتهى موكب الكفر، وزال من البلدة، وانتشر موكب الإيمان، وكان في ذلك حكمة في أن اللّٰه سبحانه وتعالى يريد أن يلمس هؤلاء الفتية كيف انتصر موكب الإيمان، وأن اللّٰه سبحانه وتعالى قادر على أن ينصر دينه، وأن هذا الذي تبدل وتغير، إنما تم وهم نائمون في الكهف، وذلك حتى يعلموا أن قدرة اللّٰه فوق كل قدرة، وأنه إذا كان بعض الناس قد وفقهم اللّٰه إلى اختيار طريق الإيمان، فلأنه سبحانه وتعالى يريد أن يجزيهم بالجنة، ويريد أن يمتعهم في الآخرة، وليس ذلك لأن اللّٰه محتاج إلى خلقه لينشر دينه، أو ليعلي كلمته، ولكنه غني عن ذلك كله، ولنعلم أننا إذا التزمنا الإيمان، فإن ذلك يكون رحمة من اللّٰه بنا، ورضيّ من اللّٰه عنا، ولا يكون حاجة سبحانه وتعالى إلينا.

وحكمة أخرى، أنهم شهدوا بأنفسهم البعث، ومع أنهم لبثوا في كهفهم سنوات طويلة إلا أنهم لم يشعروا بها، وظنوا أنهم لبثوا يوماً أو بعض يوم، وأن اللّٰه سبحانه وتعالى وهو الذي بعثهم من مرقدهم بعد مكثهم السنوات الطويلة في الدنيا، قادر سبحانه على أن يبعثهم في الآخرة.

والحكمة الثالثة: ليستيقن أهل القرية التي كانت على الكفر، ثم أبدلهم اللّٰه به الإيمان صحة ما هم عليه وتيقنوا بقدرة اللّٰه سبحانه وتعالى على بعثهم يوم القيامة، بعد أن تحول الإيمان بالغيب عندهم إلى رؤية يقينية شهدوها بأعينهم، وذلك تثبيتاً لإيمانهم وجزاءً لهم على أنهم استبدلوا الكفر بالإيمان وعبدوا اللّٰه وحده بعد أن كانوا يشركون به.

۞ ۞ ۞

العبرة من قصة قارون

السؤال: ما هي العبرة التي نستخلصها من قصة قارون ؟

الجواب: العبرة أن قارون نسب الفضل لنفسه، أو للأسباب التي أعطته غافلًا قدرة اللَّه سبحانه وتعالى، وفضله في الرزق، وفي فتح أبواب الرزق، وفي كل النعم، وما دام قد نسب الفضل إلى نفسه [١] . فإن اللَّه إما أن يبقى له النعمة ليزداد

(١) قال الحق سبحانه وتعالى ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةً وَأَكۡثَرُ جَمۡعًاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [القصص: ٧٨].

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ أي: أنا لا أفتقر إلى ما تقولون فإن اللَّه تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه ولمحبته لي؛ فتقديره: إنما أعطيته لعلم اللَّه في أني أهل له وهذه كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ ﴾ [الزمر: ٤٩]، أي: على علم من اللَّه بي، وكقوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾ أي هذا أستحقه.

وقد روي عن بعضهم أنه أراد ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ أي: أنه كان يعاني علم الكيمياء وهذا القول ضعيف لأن علم الكيمياء في نفسه علم باطل لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا اللَّه عز وجل قال اللَّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ ﴾ [الحج: ٧٣].

وفي الصحيح أن رسول اللَّه ﷺ قال: « يقول اللَّه ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة »[١] وهذا ورد في المصورين الذين يشبهون بخلق اللَّه في مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل فكيف بمن يدعي أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى هذا، هذا زور ومحال، وجهل وضلال، وإنما يقدرون على الصبغ في الصورة الظاهرة وهي كذب وزغل وتمويه وترويج أنه صحيح في نفس الأمر وليس كذلك قطعاً لا محالة ولم يثبت بطريق شرعي أنه صح مع أحد من الناس من هذه =

(١) أخرجه البخاري [٥٩٥٣].

كفراً، وأما أن يذهب بها ليريه أنه لا يقدر على شيء، وأن الفضل للّه سبحانه

= الطريقة التي يتعاطاها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون فأما ما يجريه اللّه سبحانه من خرق العوائد على يدي بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهباً أو فضة أو نحو ذلك فهذا أمر لا ينكره مسلم ولا يرده مؤمن ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسموات واختياره وفعله.

كما روي عن حيوة بن شريح المصري رحمه اللّه أنه سأله سائل فلم يكن عنده ما يعطيه ورأى ضرورته فأخذ حصاة من الأرض فأجالها في كفه ثم ألقاها إلى ذلك السائل فإذا هي ذهب أحمر. والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً يطول ذكرها.

وقال بعضهم إن قارون كان يعرف الاسم الأعظم فدعا اللّه به فتمول بسببه. والصحيح المعنى الأول. ولهذا قال اللّه تعالى راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء اللّه به فيما أعطاه من المال ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ أي: قد كان من هو أكثر منه ما لًا وما كان ذلك عن محبة منا له وقد أهلكهم اللّه مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم، ولهذا قال: ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أي: لكثرة ذنوبهم. قال قتادة: ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ على خير عندي، وقال السدي على علم أني أهل لذلك.

وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فإنه قال في قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ قال لولا رضا اللّه عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال وقرأ: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ الآية. وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع اللّه عليه لولا أن يستحق ذلك لما أعطي.

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص].

يقول تعالى مخبراً عن قارون إنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة وتجمل باهر من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي قالوا: ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي ذو حظ وافر من الدنيا، فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ أي: جزاء اللّه لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون. كما في الحديث الصحيح: «يقول اللّه تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرأوا إن شتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. =

وتعالى، وهكذا أراد اللَّه أن يعطينا بمثل محسوس، نحسه ونراه، جزاء إنكار فضل

= وقوله: ﴿ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾[1] [القصص: ٨٠] قال السدي: ولا يلقى الجنة إلا الصابرون كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم.

قال ابن جرير ولا يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا، الراغبون في الدار الآخرة وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك، وجعله من كلام اللَّه عز وجل وإخباره بذلك.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [القصص].

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض كما ثبت في الصحيح عند البخاري من حديث الزهري عن سالم أن أباه حدثه أن رسول اللَّه ﷺ قال: « بينما رجل يجر إزاره إذْ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة » ثم رواه من حديث جرير بن زيد عن سالم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه[2].

وقال الإمام أحمد حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاص حدثنا الأعمش عن عطية عن أبي سعيد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما أمر اللَّه الأرض فأخذته فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة »، تفرد به أحمد وإسناد حسن[3].

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا أبو خيثمة حدثنا يعليّ بن منصور أخبرني محمد ابن مسلم سمعت زياد النميري يحدث عن أنس بن مالك رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين فاختال فيهما فأمر اللَّه الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »[4].

وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر في كتاب العجائب الغريبة بسنده عن نوفل بن ماحق قال: رأيت شاباً في مسجد نجران فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله وتمامه وجماله فقال مالك تنظر إليّ ؟ فقلت: أعجب من جمالك وكمالك. فقال إن اللَّه ليعجب مني قال فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر فأخذه بعض قرابته في كمه وذهب به.

وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبي اللَّه عليه السلام واختلف في سببه فعن ابن عباس والسدي أن قارون أعطى امرأة بغياً ما لًا على أن تبهت موسى بحضرة الملإ من بني إسرائيل وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب اللَّه تعالى، فتقول: يا موسى إنك فعلت بي كذا وكذا فلما قالت ذلك في الملإ لموسى عليه السلام أرعد من الفرق =

---

(١) أخرجه البخاري [٤٧٧٩، ٤٧٨٠].
(٢) أخرجه البخاري [٥٧٧٩، ٥٧٨٠].
(٣) رواه أحمد في المسند [٣/ ٤٠].
(٤) رواه أبو يعلى في مسنده [٧/ رقم ٤٣٠٢].

لله في النعمة، وعدم نسبتها إلى المنعم وهو الله سبحانه وتعالى، والله أراد بذلك

= وأقبل عليها بعد ما صلى ركعتين ثم قال: أنشدك بالله الذي فرق البحر وأنجاكم من فرعون وفعل كذا وكذا لما أخبرتني بالذي حملك على ما قلت ؟ فقالت أما إذا نشدتني فإن قارون أعطاني كذا وكذا على أن أقول ذلك لك وأنا أستغفر الله وأتوب إليه؛ فعند ذلك خر موسى لله عز وجل ساجداً وسأل الله في قارون فأوحى الله إليه أن قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك.
وقيل: إن قارون لما خرج على قومه في زينته تلك وهو راكب على البغال الشهب وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة فمر في محفله ذلك على مجلس نبي الله موسى عليه السلام وهو يذكرهم بأيام الله فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوههم نحوه ينظرون إلى ما هو فيه فدعاه موسى عليه السلام وقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا موسى أما لئن كنت فضلت عليّ بالنبوة فلقد فضلت عليك بالدنيا، ولئن شئت لتخرجن فلتدعون عليّ وأدعو عليك؛ فخرج .وسى وخرج قارون في قومه فقال موسى عليه السلام: تدعو أو أدعو أنا ؟ فقال: بل أدعو أنا فدعا قارون فلم يجب له. ثم قال موسى أدعو ؟ قال: نعم. فقال موسى اللهم مر الأرض أن تطيعني اليوم؛ فأوحى الله إليه أني قد فعلت، فقال موسى: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى أقدامهم. ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم، ثم قال: أقبلي بكنوزهم وأموالهم. قال: فأقبلت بها حتى نظروا إليها، ثم أشار موسى بيده ثم قال: اذهبوا بني لاوي فاستوت بهم الأرض.
وعن ابن عباس قال: خسف بهم الأرض السابعة.
وقال قتادة: ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة، وقد ذكر ههنا إسرائيليات غريبة أضربنا عنها صفحاً.
وقوله تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ أي: ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله ولا كان هو في نفسه منتصراً لنفسه فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره.
وقوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ ﴾ أي: الذين لما رأوه في زينته قالوا: ﴿ يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ فلما خسف به أصبحوا يقولون: ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾، أي: ليس المال بدالّ على رضا الله عن صاحبه، فإن الله يُعطي ويمنع، ويضيق ويوسع، ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة، وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود: « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب ».
﴿ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ أي: لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به لأنّا وددنا أن نكون مثله. =

أن يحذر كل مؤمن من أن ينسب الفضل لغير اللّه، أو أن يشرك مع اللّه أحداً في

= ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ يعنون أنه كان كافراً ولا يفلح الكافر عند اللّه لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقد اختلف النحاة في معنى قوله ههنا ويكأن فقال بعضهم معناه ويلك أعلم أن، ولكن خفف فقيل ويك ودل فتح أن على حذف أعلم، وهذا القول ضعفه ابن جرير، والظاهر أنه قوى ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة ويكأن.

والكتابة أمر وضعى اصطلاحى والمرجع إلى اللفظ العربي واللّه أعلم.

وقيل: معناها ويكأن أي ألم تر أن قاله قتادة، وقيل: معناها وي كأن ففصلها وجعل حرف وي للتعجب أو للتنبيه وكأن بمعنى أظن وأحتسب.

قال ابن جرير: وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة أنها بمعنى ألم تر أن واستشهد بقول الشاعر:

سألتاني الطلاق إذ رأتاني قل مالي وقد جئتماني بنكر
ويكأن من يكن له نشب يحبب ومن يفتقر يعش عيش ضر

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [القصص].

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علواً في الأرض أي ترفعاً على خلق اللّه وتعاظماً عليهم وتجبراً بهم ولا فساداً فيهم كما قال عكرمة العلو التجبر.

وقال سعيد بن جبير العلو: البغي، وقال سفيان بن سعيد الثوري عن منصور عن مسلم البطين: العلو في الأرض التكبر بغير حق والفساد أخذ المال بغير حق.

وقال ابن جريج ﴿ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ تعظيماً وتجبراً ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ عملاً بالمعاصي.

وقال ابن جرير حدثنا وكيع حدثنا أبي عن أشعث السمان عن أبي سلام الأعرج عن علي قال: إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره، فإن ذلك مذموم كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه أوحي إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد»[١] وأما إذا أحب ذلك لمجرد التأمل فهذا لا بأس به فقد ثبت أن رجلاً قال: يا رسول اللّه إني أحب أن يكون ردائي حسناً ونعلي حسنة أفمن الكبر ذلك؟ فقال: «لا، إن اللّه جميل يحب الجمال». =

(١) أخرجه مسلم [٢٨٦٥/ ٦٤] من حديث عياض بن حمار رضي اللّه تعالى عنه.

نعمه، وإنما عليه دائماً أن يقول: باسم اللَّه ما شاء اللَّه ليبارك اللَّه فيها.

❁ ❁ ❁

= وقال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ﴾ [القصص: ٨٤] أي يوم القيامة ﴿ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ أي: ثواب اللَّه خير من حسنة العبد فكيف واللَّه يضاعفه أضعافاً كثيرة، وهذا مقام الفضل، ثم قال: ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [القصص: ٩٠].

وهذا مقام الفضل والعدل.

تفسير ابن كثير [٣/ ٣٨٥: ٣٣٨].

كيف استعد موسى لتلقّي منهج اللَّه

السؤال: كيف تلقى موسى عليه السلام المنهج من اللَّه ؟ وبماذا أعد نفسه لذلك ؟ وماذا فعل قومه حين ذهب لتلقّي منهج اللَّه ؟

الجواب: لقد صام موسى ثلاثين ليلة استعداداً لأن يتلقى من ربه المنهج الحق، ولكن موسى ببشريته اشتاق أن يلقى اللَّه ورائحة فمه طيبة، ذلك أن الصيام يجعل رائحة الفم من الناحية البشرية غير مقبولة.

ربما موسى ببشريته قد ظن أن الأحوال المتغيرة التي تأتي وتحدث من البشر وعلى البشر يتأثر بها الحق سبحانه وتعالى !

لم يكن موسى عليه السلام في حدود بشريته يعلم أن أغيار البشر لها مقاييس تختلف تماماً عن مقاييس الحق جل وعلا وإن تشابهت في المسمى.

إن الطعم المتغير في الفم بالصيام، قد يكون كريه الرائحة عندما يتكلم إنسان مع إنسان، أو عندما يقترب إنسان من إنسان.

ولكن موسى كأي صائم قد أمسك عن الطعام طاعة للَّه تعالى. فإذا ما ذهب لميقات ربه لتلقي المنهج سيكون خلوف فمه أطيب عند اللَّه من رائحة المسك(١).

وكأن الحق سبحانه وتعالى قد أراد لموسى أن يجمع بين الحسنيين:

الأولى: تلقي ما وعده اللَّه تعالى به، وهو التوراة.

والثانية: أن يلقى موسى ربه وفي فمه خلوف الصيام؛ فيكون عند ربه أطيب من ريح المسك وهو يكلمه.

ويمد موسى ميعاد الصيام عشرة أيام أخرى؛ ليستبقي خلوفها في فمه.

وفي الوقت الذي ذهب فيه موسى ليتلقى المنهج الحق من اللَّه سبحانه وتعالى اتخذ قومه إلٰهاً صنعه السامري لهم من الحلى التي اغتصبوها من آل فرعون.

---

(١) أخرج البخاري [١٨٩٤] من حديث أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: « لخلوف فم الصائم أطيب عند اللَّه من ريح المسك ».

إنهم لم ينتظروا عودة موسى من موعده، وإنما سارعوا إلى عبادة عجل صنعه لهم السامري.

وهكذا عادة بني إسرائيل، لا عهد لهم، ولا أمان لهم، وإذا كان هذا موقفهم من نبيهم عليه السلام؛ ومن بقية شعبهم، فما هو موقفهم من غير بني جنسهم؟ لعل في دراسة موقفهم من خلال تاريخهم الطويل يعطي فكرة عن تعنتهم ومراوغتهم وعنصريتهم، وعتوهم في الإجرام، وغرورهم ونقضهم للعهود، فهم لا يرتدعون إلا بالقوة، ورائحة الدم ولونه ترعبهم. واسألوهم عن سجودهم لماذا هو على ناحية واحدة من الجبهة فقط؟!

۞ ۞ ۞

الملائكة . . . ومهمتهم

السؤال: لقد خلق اللَّه الملائكة وجعل لكل منهم مهمة يؤديها، نريد من فضيلتكم إلقاء الضوء على مهام الملائكة.

الجواب: لقد خلق اللَّه الملائكة وأخبرنا بذلك ووصفهم في أكثر من موضع في القرآن الكريم، وأنهم ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

بل وحدد أنواعاً منهم:

فمنهم: الحفظة، الذين يحفظون الإنسان بأمر اللَّه تعالى.

ومنهم: الرقيب، وهو الذي يسجل كل ما يصدر من قول وفعل من الإنسان.

ومنهم: المدبرات، تلك الملائكة المسخرة لأقدار أرادها اللَّه تعالى.

ومنهم: العالون، ومنهم: المسبحون.

ومنهم: حملة العرش، إلى آخر ما شاء اللَّه لهم من مهام[١].

---

(١) قال الشيخ حافظ الحكمي في أقسام الملائكة وخصائصهم:
ثم هم بالنسبة إلى ما هيأهم اللَّه تعالى له ووكلهم به على أقسام:
فمنهم الموكل بالوحي من اللَّه تعالى إلى رسله عليهم الصلاة والسلام، وهو الروح الأمين جبريل عليه السلام، قال اللَّه تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩٧].
وقال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء]، وقال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [النجم]، وهذا في رؤية النبي ﷺ له في الأبطح حين تجلى له على صورته التي خلق عليها، له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق، ثم رآه ليلة المعراج أيضاً في السماء؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ ﴾ [النجم].
ولم يره ﷺ في صورته إلا هاتين المرتين، وبقية الأوقات في صورة رجل، وغالباً في =

والملائكة غيب لا نراه ولا بد أن نؤمن بوجودهم كما أمرنا اللّه، فإن الإيمان

= صورة دحية الكلبي رضي اللّه تعالى عنه(١).

وقال اللّه تعالى فيه: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [التكوير] الآيات.

وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣]. وفيه قال النبي ﷺ: « فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه اللّه تعالى من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل بأهل السموات، كلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل عليه السلام: قال الحق وهو العلي الكبير » فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل. ثم ينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره اللّه عز وجل وهو في الصحيحين(٢).

ومنهم الموكل بالقطْر وتصاريفه إلى حيث أمره اللّه عز وجل، وهو ميكائيل عليه السلام، وهو ذو مكانة علية ومنزلة رفيعة وشرف عند ربه عز وجل، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه، ويصرِّفون الرياح والسحاب كما يشاء اللّه عز وجل.

وقد جاء في بعض الآثار: ما من قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقررها في موضعها من الأرض. وفي حديث ابن عباس عند الطبراني أنه ﷺ قال لجبريل: « على أي شيء ميكائيل؟ قال: على النبات والقطر »(٣).

ومنهم الموكل بالصُّور: وهو إسرافيل عليه السلام، ينفخ فيه ثلاث نفخات بأمر ربه عز وجل:

الأولى: نفخة الفزع.

والثانية: نفخة الصعق.

والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين. كما سيأتي إن شاء اللّه تعالى بسطه في موضعه.

ولأحمد والترمذي من حديث عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له ». قالوا: كيف نقول يا رسول اللّه؟ قال: « قولوا: حسبنا اللّه ونعم الوكيل، على اللّه توكلنا »(٤). =

---

(١) رواه أحمد في المسند [٢/١٠٧] عن ابن عمر رضي اللّه عنهما: كان جبريل يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي، وصححه الشيخ شاكر [٥٨٥٧].

(٢) أخرجه البخاري [٤٧٠١، ٤٨٠٠] من حديث أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه، ومسلم [٢٢٢٩] من حديث ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما.

(٣) رواه الطبراني في الكبير [١١/١٢٠٦١] وذكره الهيثمي في المجمع [٩/٢٢] وقال: وفيه محمد ابن أبي ليلي وقد وثقه جماعة ولكنه سيئ الحفظ وبقية رجاله ثقات.

(٤) رواه أحمد [٣/٧]، والترمذي [٢٤٣١]، وصححه الألباني في صحيح الترمذي [١٩٨٠] وانظر السلسلة الصحيحة [١٠٧٩].

بالملائكة جزء من عقيدة المسلمين لا تصح العقيدة إلا به .

= وهؤلاء الملائكة هم الذين ذكرهم النبي ﷺ في دعائه من صلاة الليل : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم »(١) .

ومنهم الموكل بقبض الأرواح: وهو ملك الموت وأعوانه، وقد جاء في بعض الآثار تسميته عزرائيل(٢)، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة : ١١] .

وقد جاء في الأحاديث أن أعوانه يأتون العبد بحسب عمله، إن كان محسناً ففي أحسن هيئة وأجمل صورة بأعظم بشارة، وإن كان مسيئاً ففي أشنع هيئة وأفظع منظر بأغلظ وعيد، ثم يسوقون الروح حتى إذا بلغت الحلقوم قبضها ملك الموت فلا يجعلونها في يده بل يضعونها في أكفان وحنوط يليق بها كما قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة]. سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم .

ومنهم الموكل بحفظ العبد: في حِلّه وارتحاله وفي نومه ويقظته وفي كل حالاته، وهم المعقبات، قال الله تعالى : ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ . . . ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد] .

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في الآية : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ والمعقبات من الله هم الملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله تعالى خلوا عنه(٣) .

ومنهم الموكل بحفظ عمل العبد من خير وشر: وهم الكرام الكاتبون، وهؤلاء يشملهم مع ما قبلهم قوله عز وجل : ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ [الأنعام : ٦١] . وقال تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق] . فالذي عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار] . =

---

(١) أخرجه مسلم [٧٧٠] .

(٢) ليس في المرفوع ما يثبت هذا الاسم، بل ذكره من كلام التابعين .

(٣) تفسير ابن كثير [٢/ ٤٨٥] من رواية عكرمة وعلى عنه .

ومن الناس من يزعم إن الملائكة هم الأسباب أو المسميات.

= عن علقمة عن بلال بن الحارث المزني رضي اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: « إنَّ الرجلَ ليتكلم بالكلمة مِنْ رضوان اللّه تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب اللّه عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه. وإنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط اللّه تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب اللّه تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه ». فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث، ورواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه. وقال الترمذي: حسن صحيح [(١)].

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: « إن اللّه تعالى تجاوز لي عَنْ أمتي ما حدَّثتْ به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به »، وفي رواية: « ما لم تعمل أو تكلم به »[(٢)]. وفيه عنه رضي اللّه تعالى عنه قال رسول اللّه ﷺ: « قال اللّه عز وجل: إذا همَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا همَّ بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشراً »[(٣)].

وفي رواية: « قال اللّه عز وجل: إذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها كتبتها له حسنة، فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف. وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبتها سيئة واحدة »[(٤)].

وفي أخرى: « قال اللّه عز وجل: إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل، فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها. وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها »[(٥)].

وقال رسول اللّه ﷺ: « قالت الملائكة رَبِّ ذاك عبدُكَ يريد أن يعمل سيئة - وهو تعالى أبصر به - فقال ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جرّاي »[(٦)].

وقال رسول اللّه ﷺ: « إذا أحسن أحدُكُم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة يعملها تكتب بمثلها حتى يلقى اللّه عز وجل »[(٧)].

وفيه عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما عن رسول اللّه ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: « إن اللّه تبارك وتعالى كتب الحسنات والسيئات ثم بَيَّنَ ذلك، فمن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبها اللّه عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها اللّه عز وجل =

---

(١) رواه أحمد في المسند [٣/ ٤٦٩]، ومالك في الموطأ [٢/ ٩٨٥]، والترمذي [٢٣١٩] وابن ماجه [٣٩٦٩] وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [٣٢٠٥].

(٢) أخرجه البخاري [٦٦٦٤]، ومسلم [١٢٧].

(٣) أخرجه البخاري [٧٥٠١]، ومسلم [١٢٨].

(٤) أخرجه مسلم [١٢٩].

(٥) و(٦) و(٧) سبق تخريجهم.

لهؤلاء نقول:

أتظنون أنكم تسهلون الأمر على الخالق سبحانه وتعالى ؟

= عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها اللَّه عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها اللَّه سيئة واحدة - زاد في رواية - أو محاها اللَّه. ولا يهلك على اللَّه إلا هالك »(١).

قول اللَّه عز وجل: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤]. حدثنا إسماعيل حدثني مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون »(٢).

ورواه مسلم أيضاً. وفيهما عن أبي موسى رضي اللَّه عنه قال: قام فينا رسول اللَّه ﷺ بأربع كلمات فقال: « إن اللَّه لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يحفظ القسط ويرفعه، يُرْفَعُ إليه عَمَلِ الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل »(٣) الحديث تقدم في العلو. والأحاديث في ذكر الحفظة كثيرة.

ومنهم الموكلون بفتنة القبر: وهم منكر ونكير، وسيأتي إن شاء اللَّه تعالى ذكر النصوص في ذلك قريباً، نسأل اللَّه تعالى الثبات والتوفيق.

ومنهم خزنة الجنة: ومقدمهم رضوان عليهم السلام، قال اللَّه تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد].

ومنهم المبشرون للمؤمنين عند وفياتهم، وفي يوم القيامة: كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت].

وقال تعالى فيهم: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ١٠٣].

ومنهم خزنة جهنم: عياذا باللَّه منها، وهم الزبانية، ورؤساؤهم تسعة عشر، ومقدمهم مالك عليهم السلام. قال اللَّه تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا =

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري [٥٥٥]، ومسلم [٦٣٢]. (٣) أخرجه مسلم [١٧٩].

إن الخالق لم يطلب من أحد أن يسهل عليه أي شيء؛ لأنه القاهر فوق عباده

= جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الزمر: ٧١] الآيات.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [غافر].

وقال تعالى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾ [العلق].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا . . . ﴿٣١﴾ ﴾ [المدثر].

وقال تعالى: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وفي صحيح مسلم: « يُؤتَى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام، كل زمام في يد سبعين ألف مَلَكٍ يجرونَها »(١).

ومنهم الموكلون بالنطفة في الرحم: كما في حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: « حدثنا الرسول ﷺ وهو الصادق المصدوق أن أحدكم يجمع خلقُهُ في بطن أُمّهِ أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد»(٢). الحديث. وفي بابه من الأحاديث كثير، وفيها: « أن الملك يقول يا رب مخلّقة أو غير مخلقة؟ أو توأم؟ ذكر أم أنثى؟ شقي أو سعيد؟ ما الرزق وما الأجل؟ فيقضي الله تعالى ما يشاء. فيكتب الملك كما أمره الله عز وجل فلا يغير ولا يبدل»(٣).

ومنهم حملة العرش والكروبيون: وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [غافر: ٧] الآيات،

وقال تعالى: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٧].

ومفهوم هذه الآية من قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أن حملة العرش ليسوا اليوم ثمانية، ويؤيد ذلك ما روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال الرسول ﷺ: « صدق أمية بن الصلت في شيء من شعره » فقال: =

---

(١) أخرجه مسلم [٢٨٤٢].
(٢) أخرجه البخاري [٦٥٩٤]، ومسلم [٢٦٤٣].
(٣) أخرجه البخاري [٦٥٩٥] ومسلم [٢٦٤٦].

من الإنس والجن والملائكة والكل في قبضته.

= رَجُلٌ وَثَوْرٌ تحت رِجْلِ يمينه والنَّسر للأُخرى وَلَيثٌ مُرْصَدُ

فقال الرسول ﷺ: «صدق» فقال:

والشمس تطلع كل آخِر ليلةٍ حمراءَ يصبح لونُها يتورّدُ

تأبى فما تطلُعُ لنا في رِسْلِها إلّا معذّبةً وإلّا تُجْلَدُ

فقال الرسول ﷺ «صدق» وهذا إسناده جيد[1].

لكن قد ورد ما يدل على أنهم في الدنيا أيضاً ثمانية، وهو حديث العنان الذي رواه أبو داود وغيره وقد تقدم في العلو وفيه: «ثم فوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم اللّه تبارك وتعالى فوق ذلك».

وله عن جابر بن عبد اللّه رضي اللّه تعالى عنهما: «أنَّ الرسول ﷺ أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة اللّه تعالى من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»[2]، وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والشعبي وعكرمة والضحاك وابن جريج: ثمانية صفوف من الملائكة[3].

وقال الضحاك عن ابن عباس: الكروبيون ثمانية أجزاء، كل جزء منهم بعدة الإنس والجن والشياطين والملائكة[4].

وفي حديث الصور الطويل قال الرسول ﷺ: «فأرجعُ فأقف مع الناس، فبينما نحن وقوف إذ سمعنا من السماء حسًّا شديداً فهالنا، فينزل أهل السماء الدنيا بمثلَيْ من في الأرض من الجن والإنس، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مَصافَّهم وقلنا لهم: أفيكم ربنا؟ قالوا: لا، وهو آت. ثم ينزل أهل السماء الثانية بمثليْ من نزل من الملائكة وبمثليْ من فيها من الجن والإنس، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مَصافَّهم وقلنا لهم: أفيكم ربنا؟ فيقولون: لا، وهو آتٍ. ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف، حتى ينزل الجبارُ عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة، فيحمل عرشه يومئذٍ ثمانية، وهم اليوم أربعة، أقدامهم في تخوم الأرض السفلى والأرض والسموات إلى حجزهم والعرش على مناكبهم، لهم زجل في تسبيحهم، يقولون: سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان الحي الذي لا يموت، =

(١) رواه أحمد في المسند [١/ ٢٥٦]، والطبراني في الكبير [١١/ ١١٥٩١]، وصححه الشيخ شاكر [٢٣١٤].

(٢) رواه أبو داود [٤٧٢٧]، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٣٩٥٣].

(٣) و (٤) تفسير ابن كثير [٤/ ٤١٥].

علينا أن نؤمن بأنهم جنس يختلف تماماً عن البشر خلقهم اللَّه تعالى لمهمة

= سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت. سُبُوح قدوس قدوس قدوس. سبحان ربنا الأعلى رب الملائكة والروح. سبحان ربنا الأعلى الذي يميت الخلائق ولا يموت[(١)].
الحديث رواه ابن جرير والطبراني وغيرهما.

ومنهم ملائكة سياحون يتبعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون اللَّه عز وجل تنادوا: هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم بهم منهم: ما يقول عبادي؟ قالوا: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك »[(٢)]. الحديث تقدم في العلو وقال: « وما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت اللَّه يتلون كتاب اللَّه ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم اللَّه في من عنده »[(٣)]. الحديث بطوله في الصحيح عن أبي هريرة.

ومنهم الموكل بالجبال، وقد ثبت ذكره في حديث خروج النبي ﷺ إلى بني عبد يا ليل وعوده منهم، وفيه قول جبريل له ﷺ: « إن اللَّه قد سمع قول قومِك لك وما ردُّوه عليك ». وفيه قول ملك الجبال: « إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين » فقال ﷺ: « بل استأنِ بهم لعلَّ اللَّه أن يخرج من أصلابهم من يعبد اللَّه لا يشرك به شيئاً »[(٤)].

ومنهم زوار البيت المعمور الذي أقسم اللَّه تعالى به في كتابه، ثبت ذلك في حديث المعراج، وهو بيت في السماء السابعة بحيال الكعبة في الأرض لو سقط لوقع عليها، حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض، يدله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم »[(٥)]، يعني لا تحول نوبتهم لكثرتهم. والحديث بألفاظه في الصحيحين.

ومنهم ملائكة صفوف لا يفتون، وقيام لا يركعون، وركع وسجد لا يرفعون، ومنهم غير ذلك: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ٣١].

روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي ذر رضي اللَّه عنه قال: قال الرسول ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون. أطَّتِ السماء وحق لها أن تئطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتُم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى اللَّه تعالى».

فقال أبو ذر: واللَّه لوددت أني شجرة تعضد. وقال الترمذي: غريب. ويروى عن أبي =

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره [٢/ ١٩٢].
(٢) أخرجه البخاري [٦٤٠٨]، ومسلم [٢٦٨٩] من حديث أبي هريرة.
(٣) أخرجه مسلم [٢٦٩٩].
(٤) جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٢٣١]، ومسلم [١٧٩٥].
(٥) أخرجه مسلم [١٦٢].

غير مهمة البشر، وعلى الإنسان أن يؤمن بوجودهم إذا كان مؤمناً.

= ذر موقوفاً؛ قلت: وله حكم الرفع، ومن أين لأبي ذر رضي اللّه عنه مثل هذا إلا عن توقيف واللّه أعلم[١].

وعن حكيم بن حزام قال: بينما الرسول ﷺ مع أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء. فقال الرسول ﷺ: «أسمع أطيطَ السماء وما تلام أن تَئِطّ، ما فيها موضع شبر إلّا وعليه ملك راكع أو ساجد»[٢].

وعن عائشة رضي اللّه تعالى عنها قالت: قال رسول اللّه ﷺ عليه ملك ساجد أو قائم وذلك قول الملائكة: وما منّا إلا له مقام معلوم، وإنا لنحن الصّافون، وإنا لنحن المسبحون»[٣].

وعن العلاء بن سعد وقد شهد الفتح وما بعده أن النبي ﷺ قال يوماً لجلسائه: «هل تسمعون ما أسمع؟ قالوا: وما تسمع يا رسول اللّه؟ قال: «أطّت السماء وحُقَّ لها أن تئط، إنه ليس فيها موضع قدم إلّا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد. وقالت الملائكة: وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون»[٤].

وعن رجل صحب رسول اللّه ﷺ عن رسول اللّه ﷺ قال: «إن للّه تعالى ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته، ما منهم ملك تقطر منه دمعة من عينه إلّا وقعت على ملك يصلي، وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق اللّه السموات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، وإن منهم ملائكة ركوعاً لم يرفعوا رؤوسهم منذُ خلق اللّه السموات والأرض ولا يرفعونها إلى يوم القيامة، فإذا رفعوا رؤوسهم نظروا إلى وجه اللّه عز وجل فقالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»[٥]. وإسناده لا بأس به، وهو والذي قبله أخرجهما محمد بن نصر المروزي.

وفي الصحيح عن جابر بن سمرة رضي اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «ألا تَصفُّون كما تصف الملائكة عند ربِّها؟» فقلنا: يا رسول اللّه وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يتمون الصفوف الأول ويتراصُّون في الصف»[٦]. وفيه عن عائشة رضي اللّه تعالى عنها قالت: قال رسول اللّه ﷺ: «خُلقَت الملائكة من نور العرش، وخُلِقَ الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وُصفَ لكم»[٧].

معارج القبول [٦٥٨/٢-٦٧١] بتصرف.

---

(١) رواه أحمد في المسند [١٧٣/٥] والترمذي [٢٣١٢]، وابن ماجه [٤١٩٠]، والحاكم في المستدرك [٥١٠/٢] وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وسكت عليه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [٣٣٧٨].

(٢) رواه محمد بن نصرالمروزي في كتاب الصلاة، كما في السلسلة الصحيحة [١٠٦٠] بإسناد صحيح.

(٣) رواه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة كما في السلسلة الصحيحة [١٠٥٩].

(٤) رواه محمد بن نصر المروري في كتاب الصلاة كما في تفسير ابن كثير [٤/ ٤٧٥].

(٥) انظر ما قبله.

(٦) أخرجه مسلم [٤٣٠].

(٧) أخرجه مسلم [٢٩٩٦].

هل رأى رسول اللّه ﷺ جبريل على حقيقته ؟

السؤال: متى رأى النبي ﷺ جبريل على صورته الحقيقية ؟، وما معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [التكوير: ٢٣] ؟

الجواب: معنى هذه الآية أن محمداً ﷺ رأى جبريل في صور متعددة، رآه في صورة بشر، ورآه في صورة ملك، ثم رآه على صورته الحقيقة، عند سدرة المنتهى، في رحلة الإسراء والمعراج.

ولقد كان أول لقاء بين جبريل وبين رسول اللّه ﷺ في الغار، وكان هذا اللقاء هو أول تعرف لرسول اللّه ﷺ بالملك الذي جاء بوحي من اللّه تعالى، وكان في هذا التعارف معان كبيرة، أولها: أن اللّه سبحانه وتعالى هو صاحب المنهج الذي يجب أن يسير عليه البشر، وأن جبريل عليه السلام إنما يتنزل بأمر اللّه، وكان أول ما قال الملك لرسول اللّه ﷺ: اقرأ، وكان رد محمد ﷺ: ما أنا بقارئ.

وكلا القولين يتم بالأسباب التي يملكها كل منهما، فالملك يقول: اقرأ، أمر من اللّه سبحانه وتعالى، ومحمد ﷺ يرد: ما أنا بقارئ، بالأسباب البشرية، فهو لم يتعلم القراءة والكتابة؛ حتى يستطيع أن يقرأ. ويضمه الملك ضمة شديدة، ضمة تجهده وترهقه، حتى إنه كان يتصبب عرقاً، وعاد إلى زوجته خديجة وهو يرتجف (١).

---

(١) أخرج البخاري [٣] عن أم المؤمنين عائشة رضي اللّه تعالى عنها أَنَّها قالتْ، أَوَّلُ ما بُدِئَ به رسولُ اللّه ﷺ منَ الوَحْيِ الرُّؤيا الصالِحةُ في النَّوم، فكانَ لا يَرَى رُؤْيا إلَّا جاءتْ مِثلَ فَلَقِ الصُّبْح. ثُمَّ حُبِّبَ إليهِ الخَلاءُ، وكانَ يَخْلو بِغارِ حِراءٍ فَيَتَحَنَّثُ فيه - وهُوَ التَّعبُّدُ - اللَّيالِيَ ذَواتِ العَدَدِ، قَبلَ أَنْ يَنزِعَ إلى أَهلِهِ ويتزوَّدُ لِذلِكَ، ثم يَرْجِعُ إلى خَدِيجة فَيَتَزَوَّدُ لمثلِها، حتَّى جاءهُ الحَق وهُوَ في غارِ حِراءٍ، فجاءَهُ المَلَكُ فقال: اقْرَأْ.
قالَ: « ما أنا بقارئٍ ».
قال: « فأَخَذَني فغَطَّني حتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثمَّ أَرْسَلَني » فقال، اقْرَأْ.
قلت: « ما أَنا بقارئٍ ».
فأَخَذَني فغَطَّنِي الثانيةَ حتى بَلَغَ منِّي الْجَهْدُ، ثمَّ أَرسَلَنِي » فقال: اقْرأْ.
فقلت: « ما أنا بِقارئٍ ».

لقد كان اللقاء بين أمين الوحي، والرسول الكريم ﷺ معجزة، تعلن للناس، أن المعلم هنا ليس إنساناً، ولكن المعلم هنا هو اللَّه سبحانه وتعالى؛ بواسطة جبريل عليه السلام ولذلك قال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾، أي: أن اللَّه هو المعلم، إنك لم تقرأ يا محمد بالأسباب، ولن تقرأ بأن نرسلك إلى معلم يعلمك القراءة والكتابة، ولكنك ستقرأ باسم اللَّه، ستُعلم ما لم يتعلَّمْهُ بشر، وكان هذا الإعجاز كافياً ليؤمن الجميع بأن المنهج من اللَّه سبحانه وتعالى، ولكن الكبر والكفر والعناد البشري وقف حائلاً دون ذلك.

إذن.. فقول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [التكوير: ٢٣]، دليل على أن رسول اللَّه ﷺ يعرف المنهج، ويعرف المُبَلِّغ عن اللَّه وهو جبريل عليه السلام.

ومن هنا، فلا يقال ولا يقبل قول فيه أي اهتزاز عن الوحي؛ ذلك أن محمداً ﷺ قد رأى جبريل وعرفه على صورته الحقيقية.

= فأخَذَني فغطَّنِي الثالثة، ثمَّ أرسَلَني فقال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ﴾ [العلق]

فرجَعَ بها رَسولُ اللَّه ﷺ يَرْجُفُ فُؤادُهُ، فدَخَلَ على خَدِيجةَ بنتِ خُوَيلِدٍ رضِيَ اللَّه عنها فقال: « زَمِّلوني زمِّلوني » فَزَمَّلُوهُ حتيَّ ذَهبَ عنهُ الرَّوعُ، فقالَ لخديجةَ وأَخْبرَها الخَبَرَ: « لقد خَشِيتُ على نَفْسِي ». فقالَتْ خَدِيجةُ: كَلَّا واللَّه ما يُخْزِيكَ اللَّه أبداً، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ على نَوائبِ الحَقِّ فانطَلَقَتْ به خَدِيجةُ حتَّى أَتتْ به ورقةَ بنَ نَوْفلِ بنِ أَسَدِ بن عبدِ العُزَّى - ابنَ عَمِّ خَدِيجة - وكانَ امرءاً تَنَصَّرَ في الجَاهِلِيَّةِ، وكانَ يَكْتُبُ الكِتابَ العِبْرانيَّ، فيكتُبُ مِنَ الإنْجِيلِ بالعِبْرانيَّةِ ما شاءَ اللَّه أن يَكتُبَ، وكانَ شَيخاً كبيراً قد عَمِي.

فقالتْ له خَدِيجةُ، يا ابنَ عَمِّ اسمَعْ مِنِ ابنِ أَخِيكَ.

فقالَ لَهُ وَرَقَةُ: يا ابنَ أَخي ماذا تَرَى ؟

فأخبرَهُ رَسولُ اللَّه ﷺ خبرَ ما رَأَى ».

فقال له وَرَقَةُ: هذا النامُوسُ الذي نَزَّلَ اللهُ على مُوسى، يا لَيْتَني فيها جذَعا، لَيْتَنِي أكونُ حَيًّا إذْ يُخرِجُكَ قَوْمُك.

فقالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ، أَوَ مُخرِجِيَّ هُمْ ؟ »

قال: نَعم، لمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمثْلِ ما جِئْتَ بِهِ إلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً. ثمَّ لم يَنْشَبْ وَرقةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ.

الرسل من البشر . لماذا ؟

السؤال: لماذا بعث اللَّه تعالى الرسل والأنبياء من البشر، ولم يجعلهم من الملائكة؟

الجواب: بشرية الرسول في الرسالات حتمية، لأنه لو أنزل اللَّه سبحانه وتعالى رسولًا من الملائكة؛ لقال الناس هؤلاء ملائكة مخلوقون من نور، ولهم قوانين غير قوانينا، لا نستطيع أن نفعل ما يفعلونه، أو هؤلاء جان، مخلوقون من نار، وقوانينهم مختلفة عنَّا، ولا نستطيع أن نفعل ما يفعلونه، أو هؤلاء ليسوا بشراً، وقوانينهم تختلف عنَّا، وقدراتهم فوق قدراتنا؛ ولذلك فنحن لا نستطيع أن نقوم بما يقومون به؛ ولاحتجوا عند اللَّه سبحانه وتعالى، وقالوا: لو كنت قد أرسلت لنا بشراً رسولًا له نفس قدراتنا، ونفس قوانيننا لاتبعناه؛ ولذلك أرسل اللَّه سبحانه وتعالى رسلًا اصطفاهم من البشر حتى لا يكون للإنسان حجة يوم القيامة في عدم تطبيق منهج اللَّه؛ بزعم أنه فوق قدرة البشر، بل تكون بشرية الرسول حجة عليهم في أنه كان بشراً رسولًا، وكان المنهج في استطاعته، وقام به على خير وجه.

إذن . . لا عذر لأحد، ولا حجة لأحد[١].

---

(١) قال اللَّه تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا ﴾ [الأنعام: ٩].

قال القرطبي: أي: لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة؛ لأن كل جنس يأنس بجنسه وينفر من غير جنسه؛ فلو جعل اللَّه تعالى الرسول إلى البشر ملكاً لنفروا من مقاربته، ولما أنسوا به، ولداخلهم من الرعب من كلامه والإتقاء له ما يكفُّهم عن كلامه، ويمنعهم عن سؤاله، فلا تَعمّ المصلحة؛ ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به وليسكنوا إليه لقالوا: لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم.

وكانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة البشر فأتوا إبراهيم ولوطا في صورة الآدميين، وأتي جبريل النبيّ عليهما الصلاة والسلام في صورة دِحْية الكَلْبيّ.

أي: لو نزل ملك لَرأوه في صورة رجل كما جرت عادة الأنبياء، ولو نزل على عادته لم يروه؛ فإذا جعلناه رجلًا التبس عليهم فكانوا يقولون: هذا ساحر مثلك. =

....

۞ ۞ ۞

= وقال الزّجاج: المعنى ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم ﴾ أي على رؤسائهم كما يلبِسون على ضَعفتهم، وكانوا يقولون لهم: إنما محمد بشر وليس بينه وبينكم فرق، فيلبسون عليهم بهذا ويُشكِّكونهم؛ فأعلمهم اللَّه عز وجل أنه لو أنزل ملَكا في صورة رجل لوجدوا سبيلًا إلى اللَّبْس كما يفعلون.

تفسير القرطبي [٦/ ٣٩٣: ٣٩٤].

الحكمة من تعدد الرسل ؟

السؤال: يتساءل البعض: لماذا لم ينزل اللّٰه سبحانه وتعالى الذكر من عهد آدم مرة واحدة، ويحفظه اللّٰه من أول الخلق إلى يوم القيامة ؟

الجواب: إن الدنيا في أولها كانت مجتمعات صغيرة متباعدة، قد يعيش مجتمع منها ويفنى دون أن يعرف شيئاً عن المجتمع الآخر؛ لذلك كانت الداءات مختلفة، لذا اقتضت حكمة اللّٰه سبحانه وعدله تعالى أن يرسل رسولًا إلى كل أمة، ليعالج داءً انتشر فيها حتى إن الأمر اقتضى أن يكون هناك أكثر من رسول في وقت واحد، ثم تقدم العالم، وزالت بينه فوارق الزمان والمكان، بحيث أصبح ما يحدث في مكان يصل إلى المكان الآخر في أيام، ثم في ساعات، ثم تقدم الزمن وأصبح ما يحدث في أي مكان يصل إلى العالم كله في دقائق معدودة، ثم في ذات الوقت؛ وهكذا توحدت الداءات، وأصبحت وحدة المعالجة ضرورية.

فلما بلغت البشرية رشدها وتيسرت وسائل الانتقال من بلد إلى بلد، وبات من اليسير على أصحاب الدعوة التنقل من مكان إلى مكان أذن اللّٰه تعالى بظهور رسالة النبي محمد ﷺ كرسالة خاتمة للرسالات ومكملة لها ومهيمنة عليها، فنزل القرآن الكريم ليعالج قضية موحدة، هي قضية البشرية كلها، نزل للناس كافة؛ لأن الداءات قد توحدت، وأصبح لا بد من وحدة المعالجة.

على أن الرسالات السماوية في جوهرها ودعوتها للتوحيد واحدة، وإن اختلفت في أحكام أخرى بما يلائم تطور الزمن، فإنه يجمعها جميعاً، أنه لا إله إلا اللّٰه، وتعني أن المعبود الحق هو اللّٰه سبحانه وتعالى وحده لا شريك له.

ولكن يجب أن نسأل لماذا جاءت الرسل ؟ إن الرسل قد جاءت أساساً لتبلغ منهج اللّٰه في: افعل ولا تفعل، إن الإنسان يستطيع أن يهتدي بعقله إلى أن هناك خالقاً للكون كله هو اللّٰه سبحانه وتعالى، ولكنه لا يستطيع أن يعرف ما هي مرادات اللّٰه من خلقه ؟ ولا كيف يعبد اللّٰه ؟ وكيف يشكره على نعمه ؟

واللّٰه يبين ذلك في القرآن الكريم، فيقول: ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا

يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[1] [النساء: ١٦٥].

---

(١) قال العلامة جمال الدين القاسمي في تأويل قول اللّه تعالى: ﴿ رُّسُلًا ﴾ أي: كل هؤلاء النبيين أرسلناهم رسلًا ﴿ مُّبَشِّرِينَ ﴾ بالجنة لمن آمن ﴿ وَمُنذِرِينَ ﴾ من النار لمن كفر ﴿لِئَلَّا ﴾ لكيلا ﴿ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ ﴾ يوم القيامة أي: معذرة يعتذرون بها قائلين: لولا أرسلت إلينا رسولًا فيبين لنا شرائعك، ويعلمنا ما لم نكن نعلم من أحكامك، لقصور القوة البشرية عن إدراك جزيئات المصالح، وعجز أكثر الناس عن إدراك كلياتها. كما في قـولـه عـز وجـل: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ [طه: ١٣٤]، وإنما سميت حجة، مع استحالة أن يكون لأحد عليه، سبحانه، حجة في فعل من أفعاله، بل له أن يفعل ما يشاء كما يشاء - للتنبيه على أن المعذرة في القبول عنده تعالى، بمقتضى كرمه ورحمته لعباده، بمنزلة الحجة القاطعة التي لا مردّ لها. ولذلك قال تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] أفاده أبو السعود.

وفي الصحيحين عن المغيرة: لا أحد أحبُّ إليه العذر من اللّه. ومن أجل ذلك بعث المرسلين مبشرين ومنذرين. وقوله تعالى: ﴿ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ وإنزال الكتب متعلق ﴿ حُجَّةٌۢ ﴾ أو بمحذوف وقع صفة لها. وفيه دليل على أن اللّه تعالى لا يعذب الخلق قبل بعثة الرسل. كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾. وفيه دليل لمذهب أهل السنة على أن معرفة اللّه تعالى، لا تثبت إلا بالسمع ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا ﴾ يعني: في انتقامه ممن خالف أمره وعصى رسله ﴿ حَكِيمًا ﴾ في بعث الرسل للإنذار.

تنبيه: أشارت الآية إلى بيان حاجة البشر إلى إرسال الرسل، وإلى وظيفتهم عليهم السلام.

قال العلامة السيد محمد عبده، مفتي مصر في « رسالة التوحيد » في هذا المبحث: أفليس من حكمة الصانع الحكيم الذي أقام أمر الإنسان على قاعدة الإرشاد والتعليم، الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، علمه الكلام للتفاهم والكتاب للتراسل؛ أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يُعِدّ لها، بمحض فضله، بعض من يصطفيه من خلقه ؟ وهو أعلم حيث يجعل رسالته. يميزهم بالفطرة السليمة، ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه. والأمانة على مكنون سره. مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم، لفاضت له نفسه أو ذهبت بعقله جلالته وعظمه. فيشرفون على الغيب بإذنه، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العاملين. نهاية الشاهد وبداية الغائب. فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها. ثم يتلقون من أمره أن يحدّثوا عن جلاله، وما خفي على العقول من شؤون حضرته الرفيعة، بما يشاء أن يعتقده العباد فيه، وما قدّر أن يكون له مدخل في سعادتهم الأخروية، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد لهم من علمه. معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم، ولا يبعد عن متناول =

إذن.. فأساس الرسالات السماوية هي الرحمة والمغفرة من اللّه سبحانه

= أفهامهم. وأن يبلغوا عنه شرائع عامة. تحدد لهم سيرهم في تقويم نفوسهم، وكبح شهواتهم، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم، في ذلك الكون المغيّب عن مشاعرهم بتفصيله، اللاصق علمه بأعماق ضمائرهم في إجماله. ويدخل في ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الأعمال ظاهرة، وباطنة. ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات. حتى تقوم بهم الحجة ويتم الإقناع بصدق الرسالة. فيكونون بذلك رسلًا من لدنه إلى خلقه، مبشرين ومنذرين.

لا ريب أن الذي أحسن كل شيء خلقه، وأبدع في كل كائن صنعه، وجاد على كل حيّ بما إليه حاجته، ولم يحرم من رحمته حقيراً ولا جليلًا من خلقه - يكون من رأفته بالنوع الذي أجاد صنعه، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التي اختص بها غيره - أن ينقذه من حيرته، ويخلصه من التخبط في أهم حياتيه والضلال في أفضل حاليه.

يقول قائل: ولِمَ لَمْ يودع في الغرائز ما تحتاج إليه من العلم، ولم يضع فيه الانقياد إلى العمل، وسلوك الطريق المؤدية إلى الغاية في الحياة الآخرة ؟ وما هذا النحو من عجائب الرحمة في الهداية والتعليم ؟ وهو قول يصدر عن شطط العقل، والغفلة عن موضوع البحث. وهو النوع الإنساني. ذلك النوع، على ما به، وما دخل في تقويم جوهره من الروح المفكر، وما اقتضاه ذلك من الاختلاف في مراتب الاستعداد باختلاف أفراده، وأن لا يكون كل فرد منه مستعداً لكل حال بطبعه، وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال. فلو أُلهِمَ حاجاته كما تلهم الحيوانات، لم يكن هو ذلك النوع، بل كان إمَّا حيواناً آخر، كالنحل والنمل، أو مَلَكاً من الملائكة. ليس من سكان هذه الأرض.

ثم قال: إن كان الإنسان قد فطر على أن يعيش في جملةٍ، ولم يمنح مع تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض أفراد النمل مثلًا، من الإلهام الهادي إلى ما يلزم لذلك؛ وإنما ترك إلى فكره يتصرف فيه، كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها إلى معرفته، ولم يفض عليه، مع ذلك الشعور، عرفانه بذات ذلك القاهر ولا صفاته، وإنما ألقى به في مطارح النظر تحمله الأفكار في مجاريها. وترمي به إلى حيث يدري ولا يدري. وفي كل ذلك الويل على جامعته، والخطر على وجوده. أفهل مُنِيَ هذا النوع بالنقص، ورزيء بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها في منازل الوجود ؟ نعم. هو كذلك. لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه.

الإنسان عجيب في شأنه: يصعد بقوة عقله إلى أعلى مراتب الملكوت، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت، ويسامي بقوته ما يعظم عن أن يسامى من قوى الكون الأعظم، ثم يصغر ويتضاءل وينحط إلى أدنى درك من الاستكانة والخضوع، متى عرض له أمرٌ ما، لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه. ذلك لسرّ عرفه المستبصرون. واستشعرته نفوس الناس أجمعين. =

وتعالى، الرحمة بخلقه وبعباده الخطائين، فكل ابن آدم خطاء، والله سبحانه

= من ذلك الضعف قيد إلى هواه. ومن تلك الضعة أخذ بيده إلى شرف سعادته. أكمل الواهبُ الجوادُ لجملته، ما اقتضته حكمته من تخصيص نوعه، بما يميزه عن غيره، أو ينقص من أفراده. وكما جاد على كل شخص بالعقل المصرَف للحواس، لينظر في طلب اللقمة، وستر العورة والتوقي من الحر والبرد - جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة في البقاء، وآثر في الوقاية من غوائل الشقاء. وأحفظ لنظام الاجتماع الذي هو عماد كونه بالإجماع. منّ عليه بالنائب الحقيقي عن المحبة، بل الراجع بها إلى النفوس التي أقفرت منها. لم يخالف سنته فيه، من بناء كونه على قاعدة التعليم والإرشاد. غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه، وهي جهة الخضوع والاستكانة. فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين. وميزهم من بينها بخصائص من أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم. وأيد ذلك، زيادة في الإقناع، بآيات باهرات تملك النفوس، وتأخذ الطريق على سوابق العقول. فيستخذي الطامح. ويذل الجامح. ويصطدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده. وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه. يَطرقون القلوب بقوارع من أمر الله. ويدهشون المدارك ببواهر من آياته. فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الإذعان له. ويستوي في الركون لما يجيئون به المالك والمملوك، والسلطان والصعلوك، والعاقل والجاهل، والمفضول والفاضل. فيكون الإذعان لهم أشبه بالاضطراري منه بالاختياري النظري. يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم، وما أراد أن يعلموه من شؤون ذاته وكمال صفاته وأولئك هم الأنبياء والمرسلون. فبعثة الأنبياء، صلوات الله عليهم، من متممات كون الإنسان. ومن أهم حاجاته في بقائه. ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص. نعمة أتمها الله: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

ثم قال في الكلام على وظيفة الرسل عليهم السلام: تبين مما تقدم في حاجة العالم الإنساني إلى الرسل، أنهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص، وأن بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية، قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها، ونعمة من واهب الوجود ميز بها الإنسان عن بقية الكائنات من جنسه. ولكنها حاجة روحية؛ وكل ما لامس الحسّ منها، فالقصد فيه إلى الروح وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة وتقويم ملكاتها. أو إيداعها. ما فيه سعادتها في الحياتين.

أما تفصيل طرق المعيشة، والحذق في وجوه الكسب، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أُعِدّ للوصول إليه، من أسرار العلم، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه . إلا من وجه العظة العامة، والإرشاد إلى الاعتدال فيه، وتقرير أن شرط ذلك كله أن لا يُحدث ريباً في الاعتقاد بأن للكون إلهاً واحداً قادراً عالماً حكيماً متصفاً بما أوجب الدليل أن يتصف به، وباستواء نسبة الكائنات إليه في أنها مخلوقة له وصنع قدرته. وإنما تفاوتها في ما =

وتعالى خلقنا لعبادته، وكافأنا على ذلك بالجنة، وينعمنا نعيماً أبدياً وذلك من

= اختص به بعضها من الكمال. وشرطه أن لا ينال شيء من تلك الأعمال السابقة أحداً من الناس بشرٍّ في نفسه أو عرضه أو ماله، بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة، على ما حدد في شريعتها.

يرشدون العقل إلى معرفة اللّه وما يجب أن يعرف من صفاته، ويبيّنون الحد الذي يجب أن يقف عنده في طلب العرفان. على وجه لا يشق عليه الاطمئنان إليه، ولا يرفع ثقته بما آتاه اللّه من القوة. يجمعون كلمة الخلق على إله واحد لا فرقة معه، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده. ويُنهضون نفوسهم إلى التعلق به في جميع الأعمال والمعاملات؛ ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات، فيما اختلف من الأوقات. تذكرة لمن ينسى. وتزكية مستمرة لمن يخشى. تُقَوِّي ما ضعف منهم. وتزيد المستيقن يقيناً.

يبينون للناس ما اختلف عليه عقولهم وشهواتهم وتنازعته مصالحهم ولذاتهم. فيفصلون في تلك المخاصمات بأمر اللّه الصادع. ويؤيدون، بما يبلغون عنه، ما تقوم به المصالح العامة. ولا تفوت به المنافع الخاصة. يَعودون بالناس إلى الألفة. ويكشفون لهم سر المحبة. ويستلفتونهم إلى أن فيها انتظام شمل الجماعة. ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم، ليستوطنوها قلوبهم، ويشعروها أفئدتهم. يعلمونهم لذلك أن يرعى كلٌّ حق الآخر، وإن كان لا يغفل حقه. وأن لا يتجاوز في الطلب حدّه. وأن يعين قويُّهم ضعيفَهم. ويمد غنيُّهم فقيرهم. ويهدي راشدُهم ضالَّهم. ويعلم عالمُهم جاهلهم.

يضعون لهم بأمر اللّه حدوداً عامة. يسهل عليهم أن يردوا إليهم أعمالهم، كاحترام الدماء البشرية إلا بحق، مع بيان الحق الذي تهدر له، وحظر تناول شيء مما كسبه الغير إلا بحق. مع بيان الحق الذي يبيح تناوله، واحترام الأعراض، مع بيان ما يباح وما يحرم من الأبضاع. ويشعرون لهم مع ذلك أن يقوموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والأمانة والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود والرحمة بالضعفاء والإقدام على نصيحة الأقوياء والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء.

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية، إلى طلب الرغائب السامية، آخذين في ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب والإنذار والتبشير حسبما أمرهم اللّه جل شأنه، يفصّلون في جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا اللّه تعالى عنهم، وما يعرضهم لسخطه عليهم، ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة، وما أعَدَّ اللّه تعالى فيها من الثواب وحسن العقبي. لمن وقف عند حدوده، وأخذ بأوامره، وتجنب الوقوع في محظوراته.

يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن اللّه لعباده في العلم به؛ مما لو صعب على العقل اكتناهه، لم يشقّ عليه الاعتراف بوجوده.

بهذا تطمئن النفوس وتثلج الصدور، ويعتصم المرزوء بالصبر، انتظاراً لجزيل الأجر. أو إرضاء لمن بيده الأمر. وبهذا ينحل أعظم مشكل في الاجتماع الإنساني، لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم في حله إلى اليوم. =

رحمته هو سبحانه وتعالى بنا، وهذا تكريم لبني آدم، ولقد شاء اللَّه أن يجعل الدنيا اختباراً لحبه في قلوبنا، فمن أحب اللَّه وأخلص له فاز بالجنة، ومن عصى اللَّه وخالفه واستهان بأوامره، عاقبه اللَّه سبحانه بالنار.

ولقد وضع اللَّه للحياة الدنيا دستوراً فيه صلاح البشر، ولا يوجد من هو أعلم من اللَّه بالحياة الآمنة الطيبة الكريمة للإنسان، فاللَّه هو خالقنا، وصانع الشيء هو الأدرى والأعلم بما يفسده ويصلحه.

❁ ❁ ❁

= ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمي الصناعات، فليس مما جاؤوا له تعليم التاريخ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب، ولا بيان ما اختلف من حركاتها، ولا ما استكن من طبقات الأرض؛ ولا مقادير الطول فيها والعرض. ولا ما تحتاج إليه النباتات في نموها. ولا ما تفتقر إليه الحيوانات في إبقاء أشخاصها وأنواعها.. وغير ذلك مما وضعت له العلوم، وتسابقت في الوصول إلى دقائقه الفهوم فإن ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة. هَدَى اللَّه إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك. يزيد في سعادة المحصلين، ويقضي فيه بالنكد على المقصرين. ولكن كانت سنة اللَّه في ذلك، أن يتبع طريق التدرج في الكمال. وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الإجمال بالسعي فيه، وما يكفل التزامه بالوصول إلى ما أعد اللَّه له الفطر الإنسانية من مراتب الارتقاء.

أما ما ورد في كلام الأنبياء من الإشارة إلى شيء مما ذكرنا في أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض - فإنما يقصد منه، النظر إلى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه، أو توجيه الفكر إلى الغوص لإدراك أسراره وبدائعه. وحالهم، عليهم الصلاة والسلام، في مخاطبة أممهم، لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون. وإلا ضاعت الحكمة في إرسالهم. ولهذا قد يأتي التعبير الذي سيق إلى العامة، بما يحتاج إلى التأويل والتفسير عند الخاصة. وكذلك ما وجه إلى الخاصة، يحتاج إلى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة. وهذا القسم أقل ما ورد في كلامهم.

على كل حال، لا يجوز أن يقام الدين حاجزاً بين الأرواح، وبين ما ميزها اللَّه به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان. بل يجب أن يكون الدين باعثاً لها على طلب العرفان. مطالباً لها باحترام البرهان. فارضاً عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد في معرفة ما بين يديه من العوالم. ولكن مع التزام القصد، والوقوف في سلامة الاعتقاد عند الحد. ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين، وجني عليه جناية لا يغفرها له رب الدين. انتهى.

تفسير القاسمي [٥/ ١٧٥٢ - ١٧٦٠].

أهم صفات الرسل

السؤال: لا شك أن كل رسول له صفات تميزه عن البشر. فما أهم هذه الصفات ؟

الجواب: إن الحق لا يخاطب كل الناس إلا من خلال رسول، ولهذا اصطفى اللّه عبده محمداً ﷺ؛ ليكون خاتم أنبيائه ورسله، وصاحب الرسالة الخاتمة لمنهج السماء إلى الأرض، وقد جاء رسول اللّه محمد بكتاب من عند اللّه تحدى به أساطين البلاغة، واللغة، أن يأتوا بمثله، أو حتى سورة منه فعجزوا، فيه نبأهم ونبأ ما قبلهم وما بعدهم فكان شاهد صدق على صدق رسول اللّه ﷺ.

ولا بد أن يكون الرسول من نفس جنس البشر؛ لأنه سيحمل إلى البشر منهجاً نظرياً، ثم هو بعد ذلك أسوة في تطبيق المنهج المسلوك.

إن الأمر يحتاج إلى صفتين:

الأولى: أمانة في البلاغ.

الثانية: أسوة حسنة في التطبيق يتبعها الناس.

فإن لم تكن الأسوة من جنس الإنسان فلا يمكن الاقتداء بها.

وعلى سبيل المثال: إن الإنسان يرى الأسد في حديقة الحيوانات، أو في الغابة، ولكنه لا يقلد السبع أو الأسد.

بينما حين يرى هذا الإنسان فارساً يمتطي صهوة جواد؛ فيتمني أن يفعل مثله.

كذلك الأسوة في الأعمال الجمالية أو الكمالية.

ولهذا نجد أن اللّه لم يرسل إلى البشر إلا رسولًا من البشر.

وحكمة الخالق في اختيار الرسل بشراً؛ ليكونوا قدوة وأسوة لجنسهم؛

لذلك فالذين يحاولون أن يرفعوا أي رسول فوق مرتبة البشر إنما يهدمون من حيث لا يدرون مكانة هذا الرسول كرسول مبلغ عن اللّه.

لأن الإنسان قد يقول: إن الرسول مميز عني فلا أستطيع أن أفعل مثله.

ولكن عندما يرسل اللّه من البشر إنساناً ويصطفيه رسولًا فهو يختاره؛ ليكون قدوة وأسوة.

لذلك كان اختيار الرسول محمد ﷺ اصطفاء لرجل من فقراء مكة، اتصف بالصدق قبل الرسالة ولم يتصف بصفات قومه من بلاغة، أو فصاحة، وجاء بالقرآن معجزة فوق قدرة كل بيان أو بلاغة؛ ليكون القرآن منهجاً ومعجزة.

وليكون الرسول أيضاً أُسوة حسنة كما قال الحق تبارك وتعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

هكذا كان اختيار اللّه للرسول ﷺ طفلًا يتيماً أميناً فقيراً وإن انتمي لأعرق القبائل مكانة، يؤمن به المستضعفون أولًا ثم يتبعهم الأقوياء، ينشر دعوته بالأسوة الحسنة، والمنهج الحق، يحب المؤمنين فيدعو لهم، ويحبه المؤمنون؛ لأنه أسوة لهم.

بشر مثلهم، يستطيع الواحد منهم أن يتخذه قدوة، ومن اتخذ رسول اللّه ﷺ قدوة. فقد فاز؛ لأنه الرسول الأمين على رسالة اللّه، المبلغ عنها كمعجزة تستمر إلى أن تقوم الساعة بأمر اللّه.



الحكمة من اختيار الرسل لتبليغ المنهج

السؤال: لماذا اختار اللّه تعالى وسيلة إرسال الرسل إلى البشرية، ولم يجعل البشر تتلقى عنه مباشرة هذا المنهج الذي أراده لهم ؟

الجواب: الوجود الإنساني هو وجود حادث له ميلاد وموت، ثم ميلاد وموت، أما وجود الخالق الأكرم فهو وجود بلا بدء ولا انتهاء، هذا الإله العظيم له من القوة والمقدرة والعظمة ما إن تجلى على شيء؛ لاندك هذا الشيء، أو لو كشف عن وجهه سبحانه؛ لأحرقت أنوار وجهه كل شيء، فكيف للإنسان الضعيف أن يتحمل مباشرة التلقي عن اللّه تعالى.

ثم شيء آخر: أن هذا المنهج للبشر ولا بد أن يطبقه واحد منهم له صفاتهم ويجري عليه ما يجري عليهم؛ لئلا يكون لأحد حجة في عدم التطبيق.

لذلك كان لا بد أن يصطفي اللّه من البشر رسلًا يوضحون لهم منهج اللّه وينبهون البشر إلى الإجابات التي ظلت تلاحق العقل البشري، في فترات الغفلة عن هداية اللّه، فاللّه تعالى قد علم آدم لحظة خلقه ودربه على المهمة التي استخلفه فيها في الأرض، ولكن عصور الغفلة، هي التي جعلت الأسئلة تلوح في الأفق الإنساني تبحث لها عن إجابة.

ولذلك اختار اللّه الرسل كوسائط تحمل المنهج من القوي إلى الضعيف.

❁ ❁ ❁

أجر الرسل على اللَّه

السؤال: لو نظرنا إلى حال الرسل لوجدناهم يتحملون المشاق، ويكابدون ألوان الأذى، ولا يطلبون أجراً على عملهم، هل نطمع أن تبين لنا فضيلتكم هذه المسألة بوضوح ؟

الجواب: نعم. إن الرسل لا يطلبون من الناس ما لا، ولا يطلبون أن يعيشوا في قصور، ولا يطلبون أن يعيشوا في حياة الثراء والترف، بل هم لا يحصلون على مميزات كثيرة يتمتع بها عباد اللَّه غيرهم، فهم مثلًا لا يتركون ميراثاً لأهلهم، بل إن كل ما يتركونه يذهب للصدقة ولا يورث أهلهم شيئا، وهم في الزكاة أو أموال الصدقات التي يجمعونها لا يعطون منها أقاربهم ولو كانوا من مستحقي الصدقة، بل إنني أريد أن أُذكر بآية كريمة نزلت في المدينة المنورة عندما بدأت غزوات المسلمين، وبدأت معها الغنائم، ومع الغنائم التي حصل عليها المسلمون كانت هناك رغبة من زوجات الرسول في بعض الغنائم، وكان هذا منهن اتجاهاً إلى الدنيا، وإذا بالقرآن ينزل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأحزاب].

وهكذا حددت هذه الآية الكريمة أن متاع الدنيا من فاخر ثياب، ومال وغنائم، وكل ما تقدمه الدنيا من زينة هو ليس لزوجات رسول اللَّه، حتى لا يكون هناك مطمع دنيوي.

إذن.. فالرسول لا يطلب أجراً ممن آمن، وإنما أجره على اللَّه، وهو لم يطلب مالًا ليبني به قصوراً ويحيط نفسه بمباهج العظمة، وهو لا يعطي أهله ولا أقاربه مالًا أو فائدة باستغلال النفوذ، إلى آخر ما يحدث بالنسبة للمناهج الدنيوية، كل هذا لا يتم بالنسبة للرسل، ولو تم لانحرف المنهج، ولكان عند الناس عذر في عدم الإيمان؛ لأنه يحقق فائدة دنيوية يسعى إليها غير المؤمن، ولكن كون

الرسالات هي مشقة يتحملها الرسول دون أن يطلب أجراً من واحد من المؤمنين، أو يتميز عليهم، أو يطالبهم بما لا يفعل، وبما لا يلتزم هو به، ومادام هو ملتزماً التزاماً تاماً بالمنهج، وما دام لا يستفيد من هذا يكون ذلك أدعى لأن نتبعه.

ولنسأل أنفسنا: إذا كان الرجل لا يتلقى منهجا من السماء، فما هي الفائدة في كل هذه المشقات التي يتحملها، وفي كل الأذى الذي يقع عليه، فلو كان هناك عقل سليم؛ لكان هناك اتباع للرسول الذي جاء بمنهج السماء، لا يبغي علواً في الأرض ولا ثراءً ولا نفوذاً.



سجود الملائكة لآدم

السؤال: هل سجود الملائكة بأمر اللّه لآدم خاص به، أو هو ممتد لبني آدم ؟

الجواب: حين سجد الملائكة لآدم، سجدوا لكل ذرية آدم المطمورة فيه، والتي تظل متصلة، إلى أن تقوم الساعة، ولأقرب الصورة أكثر:

لنتخيل أن هناك سنتيمتراً مكعباً من مادة حمراء ملونة ووضعنا هذا السنتيمتر المكعب في لتر من الماء، وأذبناه جيداً في هذا اللتر، ثم وضعنا هذا اللتر في برميل ومزجناه جيداً، ثم ألقينا هذا الماء الذي في البرميل في البحر الذي استوعبه جيداً بحركة الموج والتيارات التي في البحر.

إذن . . كل سنتيمتر من ماء البحر، فيه جزء لا يراه أحد من أصل السنتيمتر المكعب الأول من المادة الحمراء الملونة.

وهكذا نحن، كل منا فيه جزء من آدم شهد الخلق الأول، وفي هذا الجزء صورة الإنسان وتكوينه.

وهذا ما يقال عنه الآن « علم الوراثة ».

وهكذا نرى أن الحديث عن آدم في سورة الأعراف تضمن خطاباً للبشر جميعاً حين قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ﴾[1] [الأعراف: ١١].

---

(١) قال القرطبي في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ﴾ لما ذكر نعمه ذكر ابتداء خلقه، وقد تقدم معنى الخلق في غير موضع.

﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ﴾ أي: خلقناكم نطفاً ثم صورناكم، ثم إنا نخبركم أنا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم.

وعن ابن عباس والضحاك وغيرهما: المعنى خلقنا آدم ثم صورناكم في ظهره.

وقال الأخفش: ﴿ ثُمَّ ﴾ بمعنى الواو.

وقيل: المعنى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ﴾ يعني آدم عليه السلام، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، ثم صورناكم؛ على التقديم والتأخير. =

....

۞ ۞ ۞

= وقيل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ يعني آدم؛ ذكر بلفظ الجمع؛ لأنه أبو البشر.
﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ راجع إليه أيضاً. كما يقال: نحن قتلناكم؛ أي: قتلنا سيدكم. ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ وعلى هذا لا تقديم ولا تأخير، عن ابن عباس أيضاً.
وقيل: المعنى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾، يريد آدم وحواء؛ فآدم من التراب، وحواء من ضلع من أضلاعه، ثم وقع التصوير بعد ذلك.
فالمعنى: ولقد خلقنا أبويكم ثم صورناهما؛ قاله الحسن.
وقيل: المعنى خلقناكم في ظهر آدم ثم صورناكم حين أخذنا عليكم الميثاق. هذا قول مجاهد، رواه عنه ابن جريج وابن أبي نجيح. قال النحاس: وهذا أحسن الأقوال، يذهب مجاهد إلى أنه خلقهم في ظهر آدم، ثم صورهم حين أخذ عليهم الميثاق، ثم كان السجود بعد. ويقوي هذا: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].
والحديث: « أنه أخرجهم أمثال الذر فأخذ عليهم الميثاق ».
وقيل: ﴿ ثُمَّ ﴾ للإخبار، أي: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ يعني في ظهر آدم عليه السلام، ثم صورناكم أي: في الأرحام.
قال النحاس: هذا صحيح عن ابن عباس.
قلت: كل هذه الأقوال محتمل، والصحيح منها ما يعضده التنزيل.
قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢] يعني آدم.
وقال: ﴿ جَعَلْنَٰهُ ﴾ أي: جعلنا نسله وذريته ﴿ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ الآية.
فآدم خلق من طين ثم صور وأكرم بالسجود، وذريته صوروا في أرحام الأمهات بعد أن خلقوا فيها وفي أصلاب الآباء. وقد تقدم في أول سورة « الأنعام » أن كل إنسان مخلوق من نطفة وتربة؛ فتأمله. وقال هنا: ﴿ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾، وقال في آخر الحشر: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٤]. فذكر التصوير بعد البرء.
تفسير القرطبي [٧/ ١٦٨-١٦٩].

الحكمة من تعليم آدم الأسماء

السؤال: ما معنى قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] ؟

الجواب: حين نريد أن نعلم طفلًا أن يتكلم فلا بد أن نبدأ بأن نعلمه الأسماء أولًا، ولا نبدأ بأن نعلمه الأحداث، بل نبدأ ونقول له: هذا قلم، وهذه كراسة، وهذا أسد، وهذا كوب، وهذا طعام، وهذا طريق، وهذا نور، وهذا ظلام.

إذن.. نحن نعلمه الأسماء أولًا، فإذا ما تعلم الأسماء أصبح يستطيع بعد ذلك أن يتعلم وأن يتكلم، ذلك أننا لا نعلم الطفل في المدرسة الأسماء، بل نحن نعلمه قبل سن المدرسة بالفطرة، الطفل يتعلم الأسماء، من خلال أمه وأبيه وإخوته.

إن الطفل الذي تنوي الذهاب به إلى المدرسة، أو الذي لا تنوي الذهاب به كلاهما لا بد أن يتعلما الأسماء ليستطيعا التفاهم في الحياة، فنجد أن كل طفل جاهل أو متعلم يُعلم الأسماء، فهو يُعلم معنى كلمة طريق أو كوب، أو أسد، أو نعامة.. إلى آخره؛ لأن هذا هو مدخل التفاهم بين البشر، وأساس هذا التفاهم كما وضعه اللَّه سبحانه وتعالى حين علم آدم الأسماء فأصبحت هي الأساس في العالم أجمع، والآن وبعد أربعة عشر قرناً منذ نزول القرآن ومعرفتنا لذلك نجد أن أساس العلم في الدول المتقدمة والدول غير المتقدمة هو الأسماء، بل إن بعض الدول لسرعة تعليم الأسماء باعتبارها أساس التفاهم في الحياة؛ تأتي بصور ليتعلم منها الأطفال الأسماء دون أن تضيع الوقت بتعليم الحروف الأبجدية، ويستطيع الطفل أن يتعلم أي شيء آخر بعد ذلك.

❁ ❁ ❁

الأسماء التي تعلمها آدم

السؤال: هل تعلم آدم الأسماء فقط أم تعلم الأفعال والحروف ؟

الجواب: إن تعلم الأسماء يعني تعلم الأسماء والأفعال والحروف.

إن كل تعلم يبدأ بالنسبة للإنسان عن طريق معرفة مطابقة الكلمات على الأشياء ، أي أن التعليم في كل اللغات يبدأ من تعلم الأسماء ، وهكذا كان تعليم أسماء المسميات من أولى نعم اللّه على خلقه. وهكذا كانت اللغة إعانة لآدم ولذريته من بعده؛ ليتفاهموا بها فيما بينهم ويتعرفوا على بديع صنع اللّه في الكون.

إن اللغة التي علمها اللّه للإنسان هي التي جعلته يتحرك ويتقدم ويكتشف. إن اللغة هي التي تجعل الوليد يحاكي أباه ويتعلم منه؛ ثم أستاذه ومعلمه.

وهكذا نعرف أن المعلم الأول لآدم هو الخالق الأكرم سبحانه وتعالى وذلك قول اللّه تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[1] [البقرة: ٣١].

---

(١) قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في الأسماء التي علمها آدم ثم عرضها على الملائكة.

قال: حدثنا أبو كريب ، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمارة، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس، قال: علم اللّه آدم الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان، ودابة ، وأرض، وسهل، وبحر، وجبل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها.

وحدثنا: محمد بن عمرو قال: حدثنا أبو عاصم، قال: حدثني عيسى عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد. وحدثني المثني ، قال: حدثنا أبو حذيفة ، قال: حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قول الله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ قال: علمه اسم كل شيء.

وحدثنا: ابن وكيع، قال: حدثنا أبي ، عن سفيان ، عن خصيف ، عن مجاهد ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ قال: علمه اسم كل شيء.

وحدثنا عليّ بن الحسن ، قال: حدثنا مسلم الحرمي ، عن محمد بن مصعب ، عن قيس بن الربيع ، عن خصيف ، عن مجاهد ، قال: علمه اسم الغراب، والحمامة، واسم كل شيء.

وحدثنا ابن وكيع ، قال: حدثنا أبي ، عن شريك ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير، قال: علمه اسم كل شيء ، حتى البعير والبقرة والشاة.

وحدثنا ابن وكيع ، قال: حدثنا أبي عن شريك ، عن عاصم بن كليب ، عن سعيد بن =

....

= معبد ، عن ابن عباس ، قال: علمه اسم القصعة والفسوة والفسية.

وحدثنا أحمد بن إسحاق ، قال: حدثنا أبو أحمد ، قال: حدثنا شريك ، عن عاصم ابن كليب ، عن الحسن بن سعد ، عن ابن عباس ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ قال: حتى الفسوة والفسية.

حدثنا عليّ بن الحسن ، قال: حدثنا مسلم ، قال: حدثنا محمد بن مصعب، عن قيس، عن عاصم بن كليب، عن سعيد بن معبد ، عن ابن عباس في قول الله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ قال: علمه اسم كل شيء حتى الهنة والهنية والفسوة والضرطة.

حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين، قال: حدثنا عليّ بن مسهر، عن عاصم ابن كليب، قال: قال ابن عباس: علمه القصعة من القصيعة، والفسوة من الفسية.

وحدثنا بشر بن معاذ ، قال: حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة قوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ حتى بلغ ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.
قال: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾، فأنبأ كل صنف من الخلق باسمه وألجأه إلى جنسه.

وحدثنا الحسن بن يحيى ، قال: حدثنا عبد الرزاق ، قال: حدثنا معمر ، عن قتادة في قوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ قال: علمه اسم كل شيء: هذا جبل، وهذا بحر، وهذا كذا وهذا كذا ، لكل شيء ، ثم عرض تلك الأشياء على الملائكة فقال: ﴿أنبئوني بأسماءِ هَؤُلاءِ إنْ كُنتُم صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١].

وحدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين ، قال: حدثني حجاج، عن جرير بن حازم ومبارك، عن الحسن ، وأبي بكر عن الحسن وقتادة قالا: علمه اسم كل شيء: هذه الخيل، وهذه البغال، والإبل، والجنّ ، والوحش ، وجعل يسمي كل شيء باسمه.

وحدثت عن عمار ، قال: حدثنا عبد الله بن أبي جعفر عن أبيه ، عن الربيع، قال: اسم كل شيء.

وقال آخرون: علم آدم الأسماء كلها: أسماء الملائكة.

ذكر من قال ذلك:

حُدثت عن عمار ، قال: حدثنا عبد الله بن أبي جعفر عن أبيه ، عن الربيع ، قوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ قال: أسماء الملائكة.

وقال آخرون: إنما علمه أسماء ذريته كلها.

ذكر من قال ذلك:

حدثني يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرني ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ قال: أسماء ذريته أجمعين.

وأولى هذه الأقوال بالصواب وأشبهها بما دل على صحته ظاهر التلاوة قول من قال في قوله. ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ إنها أسماء ذريته وأسماء الملائكة ، دون أسماء سائر أجناس الخلق. تفسير الطبري [١/ ٢١٥].

أوصاف الرسول ﷺ في التوراة

السؤال: لماذا لم يؤمن اليهود برسول اللّه مع أن أوصافه موجودة عندهم في التوراة ؟

الجواب: إن الحق جل وعلا أمر محمداً ﷺ أن يبلغ أهل الكتاب أنه النبي المنتظر الذي صفته في التوراة والإنجيل أنه يأمرهم بكل خير وينهاهم عن كل شر ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويرفع القيود التي ابتدعوها لأنفسهم وهي ليست من الإيمان في شيء.

والذين صدقوا رسول اللّه محمداً هم الذين فازوا باتباع النور الذي جاء به رسول اللّه، إنه نور القرآن الكريم.

إن محمداً ﷺ رسول اللّه إلى الناس كافة لا فرق بين أبيض وأسود، أو عربي، أو أعجمي، يهودي أو نصراني، مجوسي أو عابد وثن.

إن اللّه أرسل محمداً ﷺ هداية للكون كله؛ ليزيل عن الناس الغفلة ويهديهم إلى الفطرة الأولى وإلى الالتفات إلى أن اللّه هو واهب النعم وخالق الكون كله.

وقد اختار اللّه رسوله أميًا لا يقرأ ولا يكتب؛ ليحمل معجزة تحمل كل كلمة منها تحدياً للأنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بسورة أو بآية، ولن يستطيعوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. إنه كتاب اللّه الخالد القرآن الكريم.

وإن أي مستعرض أمين للتوراة والإنجيل قبل تحريفيهما يجد أن صفة الرسول محمداً ﷺ مذكورة في التوراة وفي الإنجيل.

ولنا أن نعرف أن البشارة برسالة رسول اللّه ﷺ فور أن نزل عليه الوحي الكريم كانت من ورقة بن نوفل الراهب الذي كان يتقن العبرية وقرأ التوراة والإنجيل.

وكذلك عبد اللّه بن سلام وهو الحبر اليهودي صاحب الحسب والنسب في اليهود يقول: لقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لابني ومعرفتي لمحمد أشد[١].

---

(١) قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ =

....

= ﴿فِي التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَٰلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال القرطبي فيه عشر مسائل:

الأولى: روى يحيى بن أبي كثير عن نوف البكالي الحميري: لما اختار موسى قومه سبعين رجلًا لميقات ربه قال الله تعالى لموسى: أن أجعل لكم الأرض مسجداً وطهوراً تصلون حيث أدركتكم الصلاة إلا عند مرحاض أو حمام أو قبر، وأجعل السكينة في قلوبكم، وأجعلكم تقرأون التوراة عن ظهر قلوبكم، يقرأها الرجل منكم، والمرأة، والحر، والعبد، والصغير، والكبير، فقال ذلك موسى لقومه؛ فقالوا: لا نريد أن نصلي إلا في الكنائس، ولا نستطيع حمل السكينة في قلوبنا، ونريد أن تكون كما كانت في التابوت، ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهر قلوبنا، ولا نريد أن نقرأها إلا نظراً، فقال الله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ - إلى قوله - ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧]. فجعلها لهذه الأمة. فقال موسى: يارب، اجعلني نبيهم. فقال: نبيهم منهم. قال: رب اجعلني منهم، قال: إنك لن تدركهم، فقال موسى: يارب، أتيتك بوفد بني إسرائيل، فجعلت وفادتنا لغيرنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]. فرضي موسى.

قال نوف: فاحمدوا الله الذي جعل وفادة بني إسرائيل لكم، وذكر أبو نعيم أيضاً هذه القصة من حديث الأوزاعي قال: حدثنا يحيى بن أبي عمرو الشيباني قال حدثني نوف البكائي إذا افتتح موعظة قال: ألا تحمدون ربكم الذي حفظ غيبتكم وأخذ لكم بعد سهمكم وجعل وفادة القوم لكم.

وذلك أن موسى عليه السلام وفد ببني إسرائيل فقال الله لهم: إني قد جعلت لكم الأرض مسجداً حيثما صليتم فيها تقبلت صلاتكم إلا في ثلاثة مواطن من صلى فيهن لم أقبل صلاته: المقبرة، والحمام، والمرحاض، قالوا: لا، إلا في الكنيسة.

قال: وجعلت لكم التراب طهوراً إذا لم تجدوا الماء. قالوا: لا، إلا بالماء.

قال: وجعلت لكم حيثما صلى الرجل فكان وحده تقبلت صلاته، قالوا: لا، إلا في جماعة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ هذه الألفاظ كما ذكرنا أخرجت اليهود والنصارى من الاشتراك الذي يظهر في قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وحصلت هذه العدة لأمة محمد ﷺ؛ قاله ابن عباس وابن جبير وغيرهما.

و ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ يعني في شرعه ودينه وما جاء به. والرسول والنبي اسمان لمعنيين؛ فإن الرسول أخص من النبي. وقدم الرسول اهتماماً لمعنى الرسالة، وإلا فمعنى النبوة هو المتقدم؛ ولذلك رد رسول الله ﷺ على البراء حين قال: وبرسولك الذي أرسلت. =

....

= فقال له: « قل بنبيك الذي أرسلت »[١] خرجه في الصحيح. وأيضاً فإن في قوله: « وبرسولك الذي أرسلت » تكرير الرسالة؛ وهو معنى واحد فيكون كالحشو الذي لا فائدة فيه. بخلاف قوله: « ونبيك الذي أرسلت » فإنهما لا تكرار فيهما ، وعلى هذا فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً؛ لأن الرسول والنبي قد اشتركا في أمر عام وهو النبأ، وافترقا في أمر وهي الرسالة ، فإذا قلت: محمد رسول من عند اللّه تضمن ذلك أنه نبي ورسول. وكذلك غيره من الأنبياء صلوات اللّه عليهم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ هو منسوب إلى الأمة الأمية ، التي هي على أصل ولادتها، لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها؛ قاله ابن العربي.

وقال ابن عباس رضي اللّه عنه: كان نبيكم، أمياً لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب؛ قال اللّه تعالى:

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. وروي في الصحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب »[٢] . الحديث.

وقيل: نسب النبي ﷺ إلى مكة أم القرى؛ ذكره النحاس.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ روى البخاري قال: حدثنا محمد بن سنان قال: حدثنا فُليح قال: حدثنا هلال عن عطاء بن يسار لقيت عبد اللّه بن عمرو بن العاص قلت: أخبرني عن صفة رسول اللّه ﷺ في التوراة. فقال: أجل ، واللّه إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً » للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه اللّه تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا اللّه، ويفتح بها أعيناً عمياً، وآذانا صمًا وقلوباً غُلفاً. قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك فما اختلفا حرفاً؛ إلا أن كعباً قال بلغته: قلوباً غلوفيا وآذاناً صمومياً وأعيناً عمومياً. قال ابن عطية: وأظن هذا وهما أو عجمة[٣] . وقد روي عن كعب أنه قال: قلوباً غلوفاً وآذاناً صموماً وأعيناً عموماً.

قال الطبري: هي لغة حميرية. وزاد كعب في صفة النبي ﷺ قال: مولده بمكة، وهجرته بطابة ، وملكه بالشام ، وأمته الحامدون ، يحمدون اللّه على كل حال في كل منزل، يومئون أطرافهم ويأتزرون إلى أنصاف ساقهم، رعاة الشمس، يصلون الصلوات حيثما =

---

(١) أخرجه البخاري [٦٣١١]، ومسلم [٢٧١٠/ ٥٦].

(٢) أخرجه مسلم [١٩١٣].

(٣) أخرجه البخاري [٤٨٣٨].

....

= أدركتهم ولو على ظهر الكناسة، صفهم في القتال مثل صفهم فِي الصلاة ، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ قال عطاء: ﴿ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ بخلع الأنداد، ومكارم الأخلاق، وصلة الأرحام ، ﴿ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ عبادة الأصنام، وقطع الأرحام.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ مذهب مالك: أن الطيبات هي المحللات؛ فكأنه وصفها بالطيب إذ هي لفظة تتضمن مدحاً وتشريفاً. وبحسب هذا نقول في الخبائث: إنها المحرمات؛ ولذلك قال ابن عباس: الخبائث هي لحم الخنزير والربا وغيره.

وعلى هذا حلل مالك المتقذرات كالحيات والعقارب والخنافس ونحوها. ومذهب الشافعي رحمه اللَّه: أن الطيبات هي من جهة الطعم؛ إلا أن اللفظة عنده ليست على عمومها؛ لأن عمومها بهذا الوجه من الطعم يقتضي تحليل الخمر والخنزير، بل يراها مختصة فيما حلله الشرع. ويرى الخبائث لفظاً عاماً في المحرمات بالشرع وفي المتقذرات؛ فيحرم العقارب والخنافس والوزغ وما جرى هذا المجرى. والناس على هذين القولين ، وقد تقدم في « البقرة » هذا المعنى.

السابعة: قوله تعالى: ﴿ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ ﴾ الإصر: الثقل؛ قاله مجاهد وقتادة وابن جبير. والإصر أيضاً: العهد؛ قاله ابن عباس والضحاك والحسن، وقد جمعت هذه الآية المعنيين، فإن بني إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال؛ فوضع عنهم بمحمد ﷺ ذلك العهد وثقل تلك الأعمال؛ كغسل البول، و تحليل الغنائم ، ومجالسة الحائض ومؤاكلتها ومضاجعتها؛ فإنهم كانوا إذا أصاب ثوب أحدهم بول قرضه.

وروي: جلد أحدهم ، وإذا جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها ، وإذا حاضت المرأة لم يقربوها ، إلى غير ذلك مما ثبت في الصحيح وغيره.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ فالأغلال عبارة مستعارة لتلك الأثقال. ومن الأثقال ترك الاشتغال يوم السبت؛ فإنه يروى أن موسى عليه السلام رأى يوم السبت رجلًا يحمل قصباً فضرب عنقه. هذا قول جمهور المفسرين. ولم يكن فيه الدية، وإنما كان القصاص. وأمروا بقتل أنفسهم علامةً لتوبتهم، إلى غير ذلك. فشبه ذلك بالأغلال؛ كما قال الشاعر:

فليس كعهد الدار يا أم مالك ... ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل ... سوى العدل شيئاً فاستراح العواذل

فشبه حدود الإسلام وموانعه عن التخطي إلى المحظورات بالسلاسل المحيطات بالرقاب. ومن هذا المعنى قول أبي أحمد بن جحش لأبي سفيان:

اذهب بها اذهب بها ... طوقتها طوق الحمامة =

....

۞ ۞ ۞

= أي لزمك عارها. يقال: طوق فلان كذا إذا لزمه.

التاسعة: إن قيل: كيف عطف الأغلال وهو جمع على الإصر وهو مفرد؛ فالجواب أن الإصر مصدر يقع على الكثرة. وقرأ ابن عامر: « آصارهم » بالجمع؛ مثل أعمالهم، فجمعه لاختلاف ضروب المآثم. والباقون بالتوحيد؛ لأنه مصدر يقع على القليل والكثير من جنسه مع إفراد لفظه. وقد أجمعوا على التوحيد في قوله: ﴿ وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وهكذا كلما يرد عليك من هذا المعنى؛ مثل: ﴿ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ [البقرة: ٧]. ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤٣]. و ﴿ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورى: ٤٥]. كله بمعنى الجمع.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي وقروه ونصروه. قال الأخفش: وقرأ الجحدري وعيسى « وعزروه » بالتخفيف. وكذا «وعزرتموهم ». يقال: عزره يعزره ويعزره. و ﴿ ٱلنُّورَ ﴾ القرآن والفلاح الظفر بالمطلوب.

تفسير القرطبي [٧/ ٢٩٧-٣٠١].

البشارة برسول اللّه محمد ﷺ

السؤال: هل كل الرسل كان عندهم علم بمجيء رسولنا ﷺ ؟ وإذا كانت الكتب السماوية ذكرت ذلك فلماذا أنكر المؤمنون بهذه الكتب نبوة الرسول ﷺ ؟

الجواب: إن كل رسول كان عنده العلم بمجيء محمد ﷺ رسولًا للّه وخاتماً للأنبياء والمرسلين، وأخبروا قومهم بذلك.

إذن . . علماء أهل الكتب السماوية التي سبقت مجئ رسول اللّه محمد ﷺ، كانوا على علم بمجيئه ﷺ. وكانت المهمة المسندة إليهم أن يبشروا بمقدم الرسول، وكان ذلك عهدا بينهم وبين اللّه.

ولذلك نجد أن القرآن الكريم يرد على الذين كفروا برسول اللّه ﷺ وقالوا لست نبياً مرسلًا، يقول القرآن الكريم:

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٤٣].

إن اللّه يخبر رسوله محمداً في معرض رده على غير المؤمنين به أن يقول لهم: حسبي أن يحكم اللّه بيني وبينكم فاللّه هو الشهيد على العهد الذي أخذه الذين عندهم علم بالكتب السابقة على مبعث رسول اللّه ﷺ.

ثم إن علماء أهل الكتب نقضوا العهد مع اللّه بعد أن تعهدوا بالتبشير برسوله محمد ﷺ، وهكذا أخبرنا القرآن الكريم:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1] [البقرة: ١٤٦].

---

(١) قال الشيخ الشعراوي في كتابه « السيرة النبوية » [١/ ٧٤]: الكتب السابقة على القرآن تنص على ضرورة الإيمان بالرسول النبي الأمي ﷺ، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى =

....

= كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .
إذن . . فطريق الفلاح كان مكتوباً في التوراة والإنجيل .
كان الأمر باتباع النبي الأمي ﷺ موجوداً في الكتب السابقة على القرآن .
وكانت البشارة بمحمد رسولًا من عند اللَّه يأمر بكل الخير وينهى عن كل الشر ويحل للناس كافة الأشياء التي تتلاءم والفطرة الإنسانية ويحرم عليهم الأشياء التي لا تتلاءم والفطرة البشرية [١] .
=

(١) عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد اللَّه بن عمرو بن العاص ، رضي اللَّه عنهما ، قلت : أخبرني عن صفة رسول اللَّه ﷺ ، في التوراة . قال : أجل ! واللَّه إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ، ولا غليظ ولا سخَّاب ، في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه اللَّه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا اللَّه ، ويفتح بها أعيناً عمياً وآذانا صمًّا وقلوباً غلفاً » .

أخرجه البخاري [٢١٢٥] .

حرزا : أي حافظاً ، وأصل الحرز الموضع الحصين ، وهو استعارة .
ليس بفظ : أي ليس بسيّئ الخلق . والفظ في الأصل : ماء الكرش .
السَّخَب : رفع الصوت ، وتكون بالسين والصاد .
الملة العوجاء : ملة إبراهيم عليه السلام الحنيفية ، وقد غيرتها العرب عن استقامتها . القلوب الغلف : يعني كأن القلوب مغلفة لا يصل إليها شيء .
وحدث ابن عباس عن سلمان الفارسي قال : كنت رجلًا فارسياً من أهل أصبهان من أهل قرية منها يقال لها جيّ ، وكان أبي دهقان قريته ، وكنت أحب خلق اللَّه إليه .
فلم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته - أي ملازم النار - كما تحبس الجارية .
وأجهدت في المجوسية ؛ حتى كنت قطن النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة .
قال : وكانت لأبي ضيعة عظيمة .
قال : فشغل في بنيان له يوماً .
فقال لي : يا بني إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتي ؛ فاذهب فاطلعها ، وأمرني فيها ببعض ما يريد ، فخرجت أريد ضيعته ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته ، فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون ، قال : فلما رأيتهم أعجبني صلاتهم ورغبت في أمرهم وقلت : هذا واللَّه خير من الدين الذي نحن عليه ، فواللَّه ما تركتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبي ولم آتها ، فقلت لهم : أين أصل هذا الدين ؟ قالوا : بالشام ، قال : ثم رجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله .
قال : فلما جئته ؛ قال : أي بني أين كنت ؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت !
=

....

= لقد كان عليهم أن يميزوا المنهج الذي جاء به رسول اللّه ﷺ وألا يستسلموا للعناد.
لقد جاء محمد ﷺ ليزيل عنهم عبء تزييف المنهج.
ولذلك فمن اتبع هدى رسول اللّه ﷺ فقد استمسك بالعروة الوثقى. ومن لم يتبع هذا الهدى، الخارج عن طاعة اللّه وذلك هو الخسران المبين. =

= قال: قلت: يا أبت مررت بناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم، فواللّه ما زلت عندهم حتى غربت الشمس.

قال: أي بني: ليس في ذلك الدين خير؛ دينك ودين آبائك خير منه.

قال: قلت: كلا واللّه؛ إنه خير من ديننا.

قال: فخافني فجعل في رجلي قيداً ثم حبسني في بيته.

قال: وبعثت لي النصارى؛ فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم.

قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى.

قال: فأخبروني بهم.

قال: فقلت لهم إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنوني بهم.

قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين ؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة،

قال: فجئته فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك وأتعلم منك وأصلي معك.

قال: فادخل، فدخلت معه.

قال: فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها؛ فإذا جمعوا إليه منها أشياء اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق.

قال: وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه.

فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها؛ فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً.

قالوا: وما علمك بذلك ؟

قال: قلت: أنا أدلكم على كنزه.

قالوا: فدلنا عليه. قال: فأريتهم موضعه.

قال: فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً.

قال: فلما رأوها قالوا: واللّه لا ندفنه أبداً، فصلبوه ثم رجموه بالحجارة، ثم جاؤوا برجل آخر فجعلوه بمكانه.

قال: يقول سلمان: فما رأيت رجلًا لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلًا ونهاراً منه. =

....

= إن محاولة إنكار رسالة رسول الله هي محاولة محكوم عليها بالفشل؛ فالعارفون بالتوراة والإنجيل يعرفون وصف رسول الله ﷺ من هذه الكتب.
قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ١٤٦]. =

= قال: فأحببته حباً لم أحبه من قبله وأقمت معه زماناً، ثم حضرته الوفاة.
فقلت له: يا فلان؛ إني كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه من قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله فإلى من توصي بي، وما تأمرني ؟ قال: أي بني؛ والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت عليه؛ لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل وهو فلان؛ فهو على ما كنت عليه؛ فالحق به.
قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل، فقلت له: يا فلان؛ إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره.
قال: فقال لي: أقم عندي؛ فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان؛ إن فلاناً أوصي بي إليك وأمرني باللحوق بك وقد حضرك من الله عز وجل ما ترى؛ فإلى من توصي بي، وما تأمرني ؟ قال: أي بني؛ والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحق به.
قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين، فجئته فأخبرته بخبري وما أمرني به صاحبي.
قال: فأقم عندي، فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر قلت له: يا فلان؛ إن فلاناً كان أوصي بي إلى فلان، ثم أوصي فلان إليك، فإلى من توصي بي، وما تأمرني ؟ قال: أي بني؛ والله ما نعلم أحداً بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية فإنه بمثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته، قال: فإنه على أمرنا، قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية وأخبرته خبري، فقال: أقم عندي، فأقمت مع رجل على هدى أصحابه وأمرهم، قال: واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة، قال: ثم نزل به أمر الله، فلما حضر قلت له: يا فلان؛ إني كنت مع فلان فأوصي بي فلان إلى فلان، وأوصي بي فلان إلى فلان، ثم أوصي بي فلان إليك، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني؛ والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجراً إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوّة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.
قال: ثم مات وغيب، فمكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بي نفر من كلب تجاراً، فقلت لهم: تحملوني إلى أرض العرب، وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه ؟
قالوا: نعم، فأعطيتهموها، وحملوني حتى إذا قدموا بي وادي القرى ظلموني، فباعوني من رجل من يهود عبداً، فكنت عنده ورأيت النخل، ورجوت أن تكون البلد الذي =

....

= ونعلم جميعاً ما فعله عبد اللّه بن سلام عندما جاء إلى رسول اللّه ﷺ ليعلن إسلامه.
قال عبد اللّه بن سلام: لأنا أشد معرفة برسول اللّه ﷺ مني بابني !!
فقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: وكيف ذاك يا ابن سلام ؟
فقال عبد اللّه بن سلام: لأنني أشهد أن محمداً رسول اللّه حقاً ويقيناً، وأنا لا أشهد =

= وصف لي صاحبي، ولم يحق لي في نفسي، فبينما أنا عنده قدم عليه ابن عم له من المدينة من بني قريظة، فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فواللّه ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها، وبعث اللّه رسوله، فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة، فواللّه إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، فقال فلان: قاتل اللّه بني قيلة؛ واللّه إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي.
قال: فلما سمعتها أخذتني العرواء [١] حتى ظننت سأسقط على سيدي.
قال: ونزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول ؟ ماذا تقول ؟ قال: فغضب سيدي، فلكمني لكمة شديدة، ثم قال: مالك ولهذا؛ أقبل على عملك.
قال: قلت: لا شيء إنما أردت أن أستثبت عما قال، وقد كان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول اللّه ﷺ وهو بقباء، فدخلت عليه، فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم، قال: فقربته إليه، فقال رسول اللّه ﷺ لأصحابه «كلوا» وأمسك يده فلم يأكل.
قال: فقلت في نفسي: هذه واحدة، ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً.
وتحوّل رسول اللّه ﷺ إلى المدينة، ثم جئت به.
فقلت: إني رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها.
قال: فأكل رسول اللّه ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه، قال: فقلت في نفسي: هاتان اثنتان، ثم جئت رسول اللّه ﷺ وهو ببقيع الغرقد، قال: وقد تبع جنازة من أصحابه عليه شملتان له، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي ! فلما رآني رسول اللّه ﷺ استدرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، قال: فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الختم فعرفته، فانكببت عليه أقبله وأبكي.
فقال لي رسول اللّه ﷺ «تحوّل» فتحوّلت، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس، قال: فأعجب رسول اللّه ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه، ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول اللّه بدر وأُحد.
قال: ثم قال لي رسول اللّه ﷺ «كاتب يا سلمان» فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أجيبها له =

---

(١) أي: القشعريرة.

....

= بذلك على ابني؛ لأني لا أدري ما أحدثت النساء.
ولكن بعضاً من علماء بني إسرائيل وأحبارهم كتموا البشارة برسول الله ﷺ [١]. فقد كانوا يرجون الرئاسة والطمع في الهدايا التي كان يقدمها الناس إليهم. لذلك عمدوا إلى صفة رسول الله محمد ﷺ وكتموها. إنهم قد فعلوا ذلك، وما داموا قد فعلوا ذلك فلنعلم أن الله يريد أن يصيبهم ببعض ذنوبهم.
ولنا أن نلحظ أنه لم يأت على لسان الرسول اتهام شامل لليهود، بل اتهام لبعضهم فقط، وإن كان هذا البعض كثيراً. فلنعلم أن ذلك هو أسلوب صيانة الاحتمال. لماذا ؟ لأن بعضهم يدير أمر الإيمان بقلبه. صحيح أن كثيراً منهم فاسقون ولكن القليل منهم غير ذلك.
وفي حديث أبي هريرة توضيح لذلك، قال رضي الله عنه: زنى رجل من اليهود وامرأة وقال بعضهم لبعضهم: اذهبوا بنا إلى هذا النبي فإنه نبي مبعوث للتخفيف فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها، واحتججنا بها عند الله، وقلنا: فتيا نبي من أنبيائك.
فأتوا رسول الله ﷺ، وهو جالس في المسجد مع أصحابه فقالوا: يا أبا القاسم ما ترى =

= بالفقير، وبأربعين أوقية، فقال رسول الله ﷺ: «لأصحابه أعينوا أخاكم» فأعانوني بالنخل الرجل بثلاثين ودية والرجل بعشرين والرجل بخمس عشرة، والرجل بعشر، يعني الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية، فقال لي رسول الله ﷺ: «اذهب يا سلمان ففقر لها، فإذا فرغت فائتني أكون أنا أضعها بيدي» ففقرت لها وأعانني أصحابي حتى إذا فرغت منها جئته، فأخبرته، فخرج رسول الله ﷺ معي إليها، فجعلنا نقرب له الودي ويضعه رسول الله ﷺ بيده، فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة، فأديت النخل وبقي عليّ المال، فأتي رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المغازي، فقال: «ما فعل الفارسي المكاتب» قال: فدعيت له، فقال: «خذ هذا فأد بها ما عليك يا سلمان» فقلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي، قال: «خذها؛ فإن الله عز وجل سيؤدي بها عنك» قال: فأخذتها، فوزنت لهم منها، - والذي نفس سلمان - بيده أربعين أوقية، فأوفيتهم حقهم وعتقت، فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق، ثم لم يفتني معه مشهد.
أخرجه أحمد [٥/ ٤٤١: ٤٤٤].

---

(١) عن العرباض بن سارية، أن رسول الله ﷺ أنه قال: « إني عند الله مكتوب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم بأول أمري دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني، وقد خرج لها نورٌ أضاءت لها منه قصور الشام». أخرجه البغوي في شرح السنة رقم [٣٦٢٦]، وأحمد في مسنده [٤/ ١٢٨] بلفظ: « إني خاتم النبيين ... ». والحاكم في المستدرك [٢/ ٦٠٠].

....

= في امرأة ورجل زنيا ؟ فلم يكلمهم حتى ذهبوا إلى مدراسهم[١] .
هنا قال ابن سلام : إنا نجد في التوراة الرجم . وحكم رسول اللَّه ﷺ بالرجم[٢] .
إذن . . فالكثير منهم فاسقون، والقليل منهم غير فاسق .
فلو أن الاتهام كان شاملًا للكل بأنهم فاسقون، فماذا يكون موقف الذين يفكرون في أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ؟ لو كان الأمر كذلك لما أبصروا النور الذي جاء به محمد. لكن عندما قال الحق إن كثيراً منهم فاسقون، فهذا يعني أن الذين يديرون في رؤوسهم فكرة الإيمان برسول اللَّه سيجدون النور واضحاً في كلماته .
إن هذا القول الحكيم دليل على أن اللَّه يعلم أزلًا أن هناك أناساً يفكرون في أن يهتدوا إلى منهج الحق .

أدلة البشارة بنبوّة الرسول ﷺ في الكتب السابقة :

○ قال داود في الزبور في قوله : « سبحوا اللَّه تسبيحاً جديداً، وليفرح بالخالق من اصطفى اللَّه له أمته وأعطاه النصر، وسدد الصالحين منهم بالكرامة، يسبحونه على مضاجعهم ويكبرون اللَّه بأصوات مرتفعة، بأيديهم سيوف ذات شفرتين[٣] ، لينتقم بهم من الأمم الذين لا يعبدونه »[٤] . =

---

(١) المدراس : معبد اليهود، كما أن الكنيسة معبد النصاري .

(٢) عن عبد اللَّه بن عمر رضي اللَّه عنهما، أن اليهود جاؤوا إلى رسول اللَّه ﷺ ، فذكروا له أن رجلًا منهم وامرأة زنيَا . فقال لهم رسول اللَّه ﷺ : «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟». فقالوا : نفضحهم ويجلدون .
فقال عبد اللَّه بن سلام : كذبتم إن فيها الرجم . فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها .
فقال له عبد اللَّه بن سلام : ارفع يدك . فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم .
فقالوا : صدق يا محمد ! فيها آية الرجم .
فأمر بهما رسول اللَّه ﷺ فرجما . قال عبد اللَّه بن عمر : فرأيت الرجل يجنأ على المرأة، يقيها الحجارة .
أخرجه البخاري واللفظ له [٣٦٣٥]. وأخرجه مسلم [١٦٩٩] .

(٣) مفرده شفرة : وهي حد السيف .

(٤) وهو في الترجمة الحالية من سفر المزامير، المزمور التاسع والأربعين بعد المائة، وهو تسع فقرات، ونصه : «هللويا. غنوا للرب ترنيمة جديدة، تسبيحته في جماعة الأتقياء، ليفرح إسرائيل بخالقه. ليبتهج بنو صهيون بملكهم، ليسبحوا اسمه برقص بدف وعود، ليرنموا له؛ لأن الرب راض عن شعبه، يُجَمِّل الودعاء بالخلاص، ليبتهج الأتقياء بمجد، ليرنموا على مضاجعهم تنويهات اللَّه في أفواههم وسيف ذو حدين في يدهم، ليصنعوا نقمة في الأمم، وتأديبات في الشعوب؛ لأسر ملوكهم بقيود، وشرفائهم بكبول من حديد، ليجروا بهم الحكم المكتوب، كرامة هذا الجميع أتقيائه، هللويا». العهد القديم [٧٣٦].

....

= وهذه الصفات إنما تنطبق على صفات محمد ﷺ وأمته، فهم الذين يكبرون اللَّه بأصوات مرتفعة في أذانهم للصلوات الخمس، وعلى الأماكن العالية.
كما قال جابر بن عبد اللَّه: كنا مع رسول اللَّه ﷺ إذا علونا كَبَّرنا، وإذا هبطنا سبحنا، فوضعت الصلاة على ذلك. رواه أبو داود وغيره [(١)].
وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا قفل من الجيوش، أو السرايا، أو الحج، أو العمرة. إذا أوفى على ثنية أو فدفد [(٢)]، كبر ثلاثاً، ثم قال: « لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون، تائبون، عابدون، ساجدون لربنا حامدون، صدق اللَّه وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده »[(٣)].
وفي صحيح البخاري عن أنس قال: صلى رسول اللَّه ﷺ ونحن معه بالمدينة الظهر أربعاً، والعصر بذي الحليفة ركعتين، ثم بات بها حتى أصبح، ثم ركب حتى استوت به راحلته على البيداء[(٤)]، حمد اللَّه وسبح وكبر، ثم أهل بعمرة وحج »[(٥)]، وذكر الحديث.
وعن أبي هريرة أن رجلًا قال: يا رسول اللَّه، إني أريد أن أسافر فأوصني. قال: « عليك بتقوى اللَّه، والتكبير على كل شرف »[(٦)]. فلما أن ولى الرجل قال: اللهم اطو له البعد[(٧)]، وهون عليه السفر ». رواه الإمام أحمد[(٨)] والترمذي والنسائي.
وروى ابن ماجه منه [(٩)]: « أوصيك بتقوى اللَّه، والتكبير على كل شرف »، وروى أبو =

---

(١) رواه أبو داود [٢٥٩٩]، وقال الألباني في صحيح أبي داود [٢٢٦٤]: صحيح دون قوله: «فوضعت...».
(٢) الفدفد: الفلاة التي لا شيء فيها، وقيل: هي الأرض الغليظة ذات الحصى، وقيل: المكان الصُلْب. والفدفد: المكان المرتفع فيه صلابة، وقيل: الفدفد: الأرض المستوية والفدفد: الموضع الذي فيه غلظ وارتفاع. وجمعه فدافد.
لسان العرب [٣/ ٣٣٠].
(٣) أخرجه البخاري [١٧٩٧]، ومسلم [١٣٤٤] واللفظ له.
(٤) البيداء: اسم لأرض ملساء، بين مكة والمدينة، وهي إلى مكة أقرب تُعَدُّ من الشرق أمام ذي الحليفة.
(٥) أخرجه البخاري بنحوه [١٥٥١].
(٦) الشرف: هو المكان العالي.
(٧) طوى اللَّه البعد لنا: قرَّبه.
(٨) أخرجه أحمد في المسند [٢/ ٣٣١-٣٣٢و٤٤٣]، والترمذي [٣٤٤٠]، وقال الألباني في صحيح الترمذي [٢٧٤٠]: حسن.
(٩) أخرجه ابن ماجه [٢٧٧١]، وقال الألباني في صحيح ابن ماجه [٢٢٣٥]: حسن.

....

= داود وغيره بإسناد صحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: « كان النبي ﷺ وجيوشه إذا علوا شرفاً كبروا، وإذا هبطوا سبحوا ».

وهم يكبرون اللَّه بأصوات عالية مرتفعة في أعيادهم، عيد الفطر، وعيد النحر، في الصلاة والخطبة، وفي ذهابهم إلى الصلاة، وفي أيام مني، الحجاج وسائر أهل الأمصار يكبرون عقيب الصلوات، فإمام الصلاة يسن له الجهر بالتكبير.

وذكر البخاري عن عمر بن الخطاب: أنه كان يكبر بمني، فيسمعه أهل المسجد فيكبرون بتكبيره، فيسمعهم أهل الأسواق فيكبرون، حتى ترتج مني تكبيراً [١].

وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق أيام العشر، فيكبران، ويكبر الناس بتكبيرهما. ويكبرون على قرابينهم وهديهم وضحاياهم [٢].

كما كان نبيهم يقول عند الذبح: « بسم اللَّه، واللَّه أكبر » [٣].

ويكبرون إذا رموا الجمار، ويكبرون على الصفا والمروة، ويكبرون في الطواف عند محاذاة الركن، وكل هذا يجهرون فيه بالتكبير غير ما يسرونه.

وكذلك قوله: « بأيديهم سيوف ذات شفرتين » وهي السيوف العربية التي بها فتح الصحابة وأتباعهم البلاد.

وقوله: « يسبحونه على مضاجعهم » بيان لنعت المؤمنين، الذين يذكرون اللَّه قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويصلي أحدهم قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنب، فلا يتركون ذكر اللَّه في حال، بل يذكرونه حتى في هذه الحال، ويصلون في البيوت على المضاجع. بخلاف أهل الكتاب. والصلاة أعظم التسبيح كما في قوله: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الروم].

وقوله: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠].

وفي الصحيحين عن جرير بن عبد اللَّه قال: كنا جلوساً عند رسول اللَّه ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا؛ ثم =

---

(١) أخرجه البخاري معلقا كتاب العيدين، باب التكبير أيام مني.
قال الحافظ في الفتح [٣/ ١٤٠]: وصله سعيد بن منصور من رواية عبيد بن عمير، ووصله أبو عبيد من وجه آخر بلفظ التعليق، ومن طريقه البيهقي.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً، كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، قال الحافظ في الفتح [٣/ ١٣٥، ١٣٦]: لم أره - أي هذا الأثر - موصولاً عنهما، وقد ذكره البيهقي أيضاً معلقاً عنهما، وكذا البغوي.

(٣) أخرجه البخاري [٥٥٦٥] بمعناه، ومسلم [١٩٦٦].

....

= قرأ قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِ الَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠].
وهذا معنى قول داود: سبحوا اللّه تسبيحاً جديداً، والتسابيح التي شرعها اللّه جديداً: كالصلوات الخمس التي شرعها للمسلمين جديداً.
ولما أقامها جبريل للنبي ﷺ قال: « هذا وقتك، ووقت الأنبياء قبلك »[١].
فكان الأنبياء يسبحون في هذه الأوقات، كما يدل التسبيح المقدم، والتسبيح الجديد كما يدل عليه سائر الكلام. ولا يمكن أن يكون ذلك للنصارى؛ لأنهم لا يكبرون اللّه بأصوات مرتفعة، ولا بأيديهم سيوف ذات شفرتين، لينتقم اللّه بهم من الأمم، بل أخبارهم تدل على أنهم كانوا مغلوبين مع الأمم، لم يكونوا يجاهدونهم بالسيف بل النصاري قد تعيب من يقاتل الكفار بالسيف.
ومنهم من يجعل هذا من معايب محمد ﷺ وأمته، ويغفلون ما عندهم من أن اللّه أمر موسى بقتال الكفار، فقاتلهم بنو إسرائيل بأمره، وقاتلهم يوشع، وداود وغيرهما من الأنبياء، وإبراهيم الخليل قاتل؛ لدفع الظلم عن أصحابه.
○ وقال داود: من أجل هذا بارك اللّه عليه إلى الأبد، فتقلد أيها الجبار بالسيف، لأن البهاء لوجهك، والحمد الغالب عليك، اركب كلمة الحق وسمة التأله، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونة، والأمم يخرون تحتك[٢].
قالوا: فليس متقلد السيف من الأنبياء بعد داود سوى محمد ﷺ، وهو الذي خرت الأمم تحته، وقرنت شرائعه بالهيبة، كما قال ﷺ: « نصرت بالرعب مسيرة شهر »[٣].
وقد أخبر داود أنه له ناموساً وشرائع، وخاطبه بلفظ الجبار، إشارة إلى قوته وقهره لأعداء اللّه، بخلاف المستضعف المقهور.
وقالوا: قال داود: « لترتاح البوادي وقراها، ولتبصر أرض « قيدار » مروجا، وليسبح سكان الكهوف ويهتفوا من قمم الجبال بحمد الرب، ويذيعوا تسابيحه في الجزائر »[٤]. =

---

(١) أخرجه أبو داود [٣٩٣] بلفظ: «يا محمد، هذا وقت الأنبياء من قبلك...» وقال الألباني في صحيح أبي داود [٣٧٧]: حسن صحيح، والترمذي [١٤٩]. وقال: حديث ابن عباس حديث حسن صحيح.
(٢) نص الترجمة الحالية: «فاض قلبي بكلام صالح، متكلم أنا بإنشائي للملك، لساني قلم كتاب ماهر، أنت أبرع جمالًا من بني البشر، انسكبت النعمة على شفتيك، لذلك باركك اللّه إلى الأبد، تقلد سيفك على فخذك - أيها الجبار -، جلالك وبهاءك وبجلالك اقتحم، الركب من أجل الحق والدعة والبر، فتريك يمينك مخاوف، نبلك المسنونة في قلب أعداء الملك، شعوب تحتك يسقطون». انظر: سفر المزامير، المزمور الخامس والأربعين: [١-٥] والعهد القديم [٦٧٢].
(٣) أخرجه البخاري [٣٣٥]، ومسلم [٥٢١] ولفظه: «نصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر».
(٤) هي في سفر أشعيا، الإصحاح الخامس [٢٦-٢٨]. والإصحاح الرابع والخمسون [١-١٧]. =

....

= فلمن البوادي من الأمم سوى أمة محمد ؟ ومن « قيدار » سوى ابن إسماعيل جد رسول اللَّه ﷺ ؟ ومن سكان الكهوف وتلك الجبال سوى العرب ؟

○قال داود: « ويحوز من البحر إلى البحر، ومن لدن الأنهار إلى منقطع الأرض، ويخر أهل الجزائر بين يديه، ويلحس أعداؤه التراب، ويسجد له ملوك الفرس، وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد، ويُخَلِّص البائس المضطهد ممن هو أقوى منه، وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له، ويرأف بالمساكين والضعفاء، ويُصلَّى عليه ويبارك في كل حين »[١] .

وهذه الصفات منطبقة على محمد، وأمته لا على المسيح؛ فإنه حاز من البحر الرومي[٢] إلى البحر الفارسي[٣] ، ومن لدن الأنهار بجيحون وسيحون إلى منقطع الأرض بالمغرب[٤] ، كما قال: « زُوِيَت لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوِيَ لي منها »[٥] . وهو يُصَلَّى عليه ويُبَارَكُ في كل حين . . في كل صلاة . . في الصلوات الخمس وغيرها، يقول كل من أمته: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد. فيُصلى عليه ويُبارك. ومنه خرت أهل الجزائر بين يديه، أهل جزيرة العرب، وأهل الجزيرة التي بين الفرات ودجلة، وأهل جزيرة قبرص[٦] ، وأهل جزيرة الأندلس[٧] . وخضعت له ملوك الفرس، فلم يبق منهم إلا من =

= العهد القديم [٧٨٧ و٨٢٥-٨٢٦]. بالمعنى في الترجمة الحالية.

(١) في الترجمة الحالية ما نصه: «ويملك من البحر ومن النهر إلى أقاصي الأرض، أمامه تجثو أهل البرية، وأعداؤه يلحسون التراب، ملوك ترشيش والجزائر يرسلون تَقْدُمَه. ملوك شبا وسباء يقدمون هدية ويسجد له كل الملوك. كل الأمم تتعبد له؛ لأنه ينجي الفقير المستغيث والمسكين، إذ لا معين له. يشفق على المسكين والبائس، ويخلص أنفس الفقر من الظلم والخطف، يفدي أنفسهم ويكرم دمهم في عينيه، ويعيش ويعطيه من ذهب شبا. يُصَلي لأجله دائماً. اليوم كله يباركه».

انظر: سفر المزامير، المزمور الثاني والسبعون [٨-١٥]، العهد القديم [٦٨٨].

(٢) يسمى الآن «البحر الأبيض المتوسط».

(٣) هو شعبة من بحر الهند الأعظم، وحده من البر من نواحي مكران إلى عبادان، وهو فوهة دجلة التي تصب فيه، أول سواحله من جهة البصرة إلى بليدة تسمى « المحورة»، في طرف جزيرة عبادان

(٤) هو آخر حدود أفريقية من الغرب إلى آخر جبال السوس التي وراءها البحر المحيط، ومنقطع الشيء حيث ينتهي إليه طرفه.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) بالصاد أو السين، وهي جزيرة كبيرة، شرق البحر الأبيض المتوسط، وهي تعد الثالثة في الكبر، والثانية في القيمة التاريخية والاقتصادية بجانب صقلية.

(٧) الأندلس: اسم أطلقه المسلمون العرب على كل شبه جزيرة أسبانيا بطريق التغليب.

....

= أسلم أو أدَّى الجزية عن يدٍ وهم صاغرون. بخلاف ملوك الروم، فإن فيهم من لم يُسلم ويؤدي الجزية، فلهذا خص ملوك فارس. ودانت له الأمم التي تعرفه وتعرف أمته، كانت إما مؤمنة به، أو مُسلمة له منافقة، أو مُهادنة مُصالحة، أو خائفة منهم. وأنقذ الضعفاء من الجبارين.

وهذا بخلاف المسيح، فإنه لم يتمكن هذا التمكن في حياته، ولا من اتبعه بعد موته تمكنوا هذا التمكن، ولا حازوا ما ذكر، ولا صُلِّي عليه وبورك عليه في اليوم والليلة، فإن القوم يدَّعون إلهيته.

○ قال أشعياء: «قيل لي: قم نظاراً، فانظر ماذا ترى، فقلت: أرى راكبين مقبلين أحدهما على حمار، والآخر على جمل، يقول أحدهما لصاحبه: سقطت بابل وأصحابها للمنحر»[(١)] .

قالوا: فراكب الحمار هو المسيح، وراكب الجمل هو محمد ﷺ، وهو أشهر بركوب الجمل من المسيح بركوب الحمار. وبمحمد ﷺ سقطت أصنام بابل.

ولما كان المسيح عليه السلام نازلاً في أمة محمد ﷺ، صار بينه وبين محمد من الاتصال ما ليس بينه وبين غير محمد ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إن أولى الناس بابن مريم أنا، إنه ليس بيني وبينه نبي»[(٢)] . وهذا مما يظهر في اقترانهما، فيما رواه أشعياء، حيث قال: «راكب الحمار وراكب الجمل».

○ وقال أشعياء النبي عليه السلام: «ارفعي إلى ما حولك بصرك، فستبتهجين وتفرحين من أجل أن يصير إليك ذخائر البحر، وتحج إليك عساكر الأمم، حتى يعم بك قطر الإبل الموبَلة، وتضيق أرضك عن القطرات التي تجتمع إليك، وتساق إليك كباش مدين، ويأتيك أهل سبأ، ويسير إليك أغنام فاران، ويخدمك رجال مأرب»[(٣)] . =

---

(١) في الترجمة الحالية ما نصه: «لأنه هكذا قال لي السيد: اذهب أقم الحارس، ليخبر بما يرى، فرأى ركاباً أزواج فرسان، ركاب حمير، ركاب جمال، فأصغي إصغاء شديداً، ثم صرخ كأسد: أيها السيد، أنا قائم على المرصد دائماً في النهار، وأنا واقف على المحرس كل الليالي، وهو ذا ركاب من الرجال، أزواج من الفرسان.

فأجاب وقال: سقطت بابل، وجميع تماثيل آلهتها المنحوتة، كسرها إلى الأرض».

انظر: سفر أشعياء، الإصحاح الحادي والعشرون [٦-٩]، والعهد القديم [٨٠١].

(٢) أخرجه مسلم واللفظ له [٢٣٦٥]، والبخاري [٣٤٤٢] بلفظ: «أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياء أولاد عَلّات، ليس بيني وبينه نبي». ؛ وأخرجه أبو داود [٤٦٧٥]، والحاكم في المستدرك [٢/ ٥٩٢] وأحمد في المسند [٢/ ٣١٩، ٤٣٧].

(٣) نص الترجمة الحالية: «ارفعي عينيك حواليك وانظري، قد اجتمعوا كلهم، جاؤوا إليك، يأتي =

....

= يريد سدنة الكعبة، وهم أولاد مأرب بن إسماعيل.
قالوا: فهذه الصفات كلها حصلت بمكة، فحملت إليها ذخائر البحرين، وحج إليها عساكر الأمم، وسبقت إليها أغنام فاران - الهدايا والأضاحي - و« فاران » هي البرية الواسعة التي فيها مكة، وضاقت الأرض عن قطرات الإبل الموبلة الحاملة للناس وأزوادهم إليها، وأتاها أهل سبأ، وهم أهل اليمن.
○ وقال أشعياء: « سأرفع علماً لأهل الأرض بعيداً، فيصفر لهم من أقاصي الأرض، فيأتون سراعاً »[(١)] .
والنداء: هو ما جاء به النبي ﷺ من التلبية في الحج، وهم الذين جعلوا للّه الكرامة، فوحدوه وعبدوه، وأفردوه بالربوبية، وكسروا الأصنام، وعطلوا الأوثان. والعلم المرفوع: هو النبوة. وصفيره: دعاؤهم إلى بيته ومشاعره، فيأتونه سامعين مطيعين.
○ وقال أشعياء النبي: سيري واهتزي أيتها العاقر التي لم تلد، وانطقي بالتسبيح، وافرحي إذ لم تحبلي، فإن أهلك يكونون أكثر من أهلي[(٢)] - يعني بأهله: بيت المقدس، ويعني بالعاقر: مكة شرفها اللّه؛ لأنها لم تلد قبل نبينا ﷺ، ولا يجوز أن يريد بالعاقر بيت المقدس؛ لأنه بيت للأنبياء ومعدن الوحي، فلم تزل تلك البقعة ولادة. =

= بنورك من بعيد، وتُحمل بناتك على الأيدي، حينئذٍ تنظرين وتنبهرين، ويخفق قلبك ويتسع؛ لأنه تحول إليك ثروة البحر، ويأتي إليك غني الأمم، تغطيك كثرة الجمال بُكْران مديان، وعيفة كلها تأتي من شبأ، تحمل ذهباً ولباناً، وتبشر بتسابيح الرب، كل غنم قيدار تجتمع إليك، كباش نبايوت تخدمك».
انظر: سفر أشعياء، الإصحاح الستون [٤-٧]، والعهد القديم [٨٤٠].

(١) ونصه في الترجمة الحالية بالعربية: «فيرفع راية للأمم من بعيد، ويُصْفر لهم من أقصى الأرض، فإذا هم بالعجلة يأتون سريعاً، ليس فيهم رازح ولا عاثر، لا ينعسون ولا ينامون، ولا تنحل حزم أحقائهم، ولا تنقطع سيور أحذيتهم، الذين سهامهم مسنونة، وجميع قسيهم ممدودة، حوافر خيلهم تحسب كالصوان، وبكراتهم كالزوبعة، لهم زمجرة كاللبؤة، ويزمجرون كالشبل، يُهرون ويمسكون الفريسة، ويستخلصونها ولا منقذ، يهرون عليهم في ذلك اليوم كهدير البحر، فإن نُظِر إلى الأرض فهو ذا ظلام الضيق، والنور قد أظلم بسحبها».
انظر: سفر أشعياء، الإصحاح الخامس [٢٦ - ٤٣٠]؛ والعهد القديم [٧٨٧].

(٢) تقول الترجمة الحالية: ترنمي أيتها العاقر التي لم تلد، أشيدي بالترنم أيتها التي لم تمخض؛ لأن بني المستوحشة أكثر من بني ذات الأمل، قال الرب: أوسعي مكان ضجتك، ولتبسط شقق مساكنك، لا تمسكي، أطيلي أطنابك، وشددي أوتادك؛ لأنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار، ويرث نسلك أمماً، ويعمر مدناً خربة».
انظر: سفر أشعياء، الإصحاح الرابع والخمسون [١ - ٣]، والعهد القديم [٨٣٥].

....

= ○ وقال أشعياء النبي: ولد لنا غلام، يكون عجباً وبشراً، والشامة [(١)] على كتفيه، أركون السلام، إلٰه جبار، وسلطانه سلطان السلام، وهو ابن عالمه، يجلس على كرسي داود[(٢)] .

قالوا: الأركون: هو العظيم بلغة الإنجيل، والأراكنة: المعظمون.

ولما أبرأ المسيح مجنوناً من جنونه، قال اليهود: « إن هذا لا يُخرج الشياطين من الآدميين إلا بأركون الشياطين » يعنون عظيمهم.

وقال المسيح في الإنجيل: « إن أركون العالم يدان »[(٣)] .

يريد إما إبليس أو الشرير العظيم الشر من الآدميين، وسماه إلٰهاً على نحو قول التوراة: « إن اللّٰه جعل موسى إلٰهاً لفرعون »[(٤)] أي حاكماً عليه ومتصرفاً فيه، وعلى نحو قول داود للعظماء من قومه: « إنكم آلهة »[(٥)] .

فقد شهد أشعياء بصحة نبوة محمد ﷺ ووصفه بأخص علاماته وأوضحها، وهي شامته، فلعمري: لم تكن الشامة لسليمان ولا للمسيح، وقد وصفه بالجلوس على كرسي داود، يعني أنه سيرث بني إسرائيل نبوتهم وملكهم، ويبتزهم رياستهم.

○ وقال أشعياء: « ستمتلئ البادية والمدن من أولاد قيدار يسبحون، ومن رؤوس الجبال ينادون، هم الذين يجعلون للّٰه الكرامة، ويسبحونه في البر والبحر »[(٦)] . وقيدار هو ابن إسماعيل باتفاق الناس، وربيعة ومضر من ولده، ومحمد ﷺ من مضر. وهذا الامتلاء والتسبيح، لم يحصل لهم إلا بمبعث محمد ﷺ.

○ وقال أشعياء: « أنا رسمتك على كفي، وسيأتيك أولادك سراعاً، ويخرج عنك من أراد أن يخيفك ويخونك، فارفعي بصرك إلى ما حولك، فإنهم سيأتونك ويجتمعون =

---

(١) المقصود بالشامة: خاتم النبوة وهي لغةً: أثر أسود في البدن وفي الأرض.

(٢) نص الترجمة الحالية: «لأنه يولد لنا ولد، ونعطى ابناً، وتكون الرياسة على كتفه، ويدعى اسمه عجيباً، مشيراً، إلهاً قديراً، أبا أبدياً، رئيس السلام، لنمو بأسه وللسلام لا نهاية، على كرسي داود وعلى مملكته؛ ليثبتها ويعضدها بالحق والبر، ومن الآن إلى الأبد، وغيرة رب الجنود تصنع هذا».

انظر: سفر أشعياء الإصحاح التاسع [٦ - ٧]، والعهد القديم [٧٩٠].

(٣) انظر إنجيل يوحنا، الإصحاح الرابع عشر [٣-٣١]، والعهد الجديد [١٤٣].

(٤) سفر الخروج، الإصحاح السابع [١]، والعهد القديم [٧٩].

(٥) مزامير داود، المزمور الثاني والثمانون [٦]، والعهد القديم [٦٩٦].

(٦) نص الترجمة الحالية: «غنوا للرب أغنية جديدة، تسبيحة من أقصى الأرض، أيها المنحدرون من البحر وملؤه، والجزائر وسكانها، لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار، لتترنم سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا، ليعطوا الرب مجداً، يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه».

سفر أشعياء، الإصحاح الثاني والأربعون [١٠-١٣]، والعهد القديم [٨٢٣].

....

= إليك، فتسمي باسمي، إني أنا الحي، لتلبسي الحلل، وتزيني بالإكليل مثل العروس، ولتضيقن خراباتك من كثرة سكانك والداعين فيك، ليهابَنَّ كل من يناوئك، وليكثرن أولادك حتى تقولي من رزقني هؤلاء كلهم ؟ أنا وحيدة فريدة، يرون رقوب، فمن ربي لي هؤلاء، ومن تكفل لي بهم »[١] ؟

قالوا: وذلك إيضاح من أشعياء بشأن الكعبة، فهي التي ألبسها اللّه الحلل الديباج الفاخرة، ووكل بخدمتها الخلفاء والملوك.

ومكة: هي التي ربا اللّه لها الأولاد من حجاجها والقاطنين بها.

وذلك أن مكة هي التي أخرج عنها كل من أراد أن يخيفها ويخربها، فلم تزل عزيزة مكرمة محرمة، لم يهنها أحد من البشر قط، بل أصحاب الفيل لما قصدوها عذبهم اللّه العذاب المشهور، ولم تزل عامرة محجوجة من لدن إبراهيم الخليل.

○ وقال حبقوق وسُمي محمد رسول اللّه ﷺ صريحاً مرتين في نبوته: « إن اللّه جاء من التيمن، والقدوس من جبل فاران، لقد أضاءت السماء من بهاء محمد، وامتلأت الأرض من حمده، شعاع منظره مثل النور، يحوط بلاده بعزه، تسير المنايا أمامه، وتصحب سباع الطير أجناده، قام فمسح الأرض، فتضعضعت له الجبال القديمة، وانخفضت الروابي، وتزعزعت ستور أهل مدين »[٢] .

○ وقال حزقيال - وهو يهدد اليهود ويصف لهم أمة محمد ﷺ : « وإن اللّه مظهرهم عليكم، وباعث فيهم نبياً، ومنزل عليهم كتاباً، ومملكهم رقابكم، فيقهرونكم ويذلونكم بالحق، ويخرج رجال بني قيدار في جماعات الشعوب، معهم ملائكة على خيل بيض متسلحين، محيطون بكم، وتكون عاقبتكم إلى النار، نعوذ باللّه من النار »[٣] .

وذلك أن رجال بني قيدار، هم « ربيعة » و « مضر » أبناء عدنان، وهما جميعاً من ولد قيدار بن إسماعيل، والعرب كلهم من بني عدنان، وبني قحطان. فعدنان أبو ربيعة ومضر، وأنمار من ولد إسماعيل باتفاق الناس.

وأما قحطان: فقيل: هم من ولد إسماعيل، وقيل: هم من ولد هود. ومضر ولد إلياس =

---

(١) سفر أشعياء، الإصحاح الرابع والخمسين [١-١٧]، والعهد القديم [٨٣٥-٨٣٦].

(٢) نص الترجمة الحالية: «اللّه جاء من تيمان، والقدوس من جبال فاران، سِلَاه، جلاله غطى السماوات، والأرض امتلأت من تسبيحه، وكان لمعان كالنور، له من يده شعاع، وهناك استتار قدرته، قدامه ذهب الوباء، وعند رجليه خرجت الحمي، وقف وقاس الأرض، نظر فرجف الأمم، ودكت الجبال الدهرية، وخسفت أكام القدم، مسالك الأزل له، رأيت خيام كوشان تحت بَلِيَّة، رجفت شقق مديان».

سفر حبقوق، الإصحاح الثالث [٣ - ٧]، والعهد القديم [١٠٤٦].

(٣) انظر: سفر حزقيال، الإصحاح العشرين [٤٥ - ٤٩]، والعهد القديم [٩٤٩].

....

= ابن مضر، وقريش: هم من ولد إلياس بن مضر. وهوازن مثل عقيل. وكلاب، وسعد ابن بكر، وبنو نمير، وثقيف وغيرهم؛ هم من ولد إلياس بن مضر.

وهؤلاء انتشروا في الأرض، فاستولوا على أرض الشام والجزيرة ومصر والعراق وغيرها، حتى إنهم لما سكنوا الجزيرة بين الفرات ودجلة، سكنت مضر في حران وما قرب منها، فسميت ديار مضر، وسكنت ربيعة في الموصل وما قرب منها، فسميت ديار ربيعة.

[انظر الجواب الصحيح: [٥/ ٢٢٦-٢٧٤].

وقال العلامة أبو محمد الميورقي: اعلموا رحمكم اللَّه أن نبوة نبينا محمد ﷺ ثابتة في كل كتاب أنزله اللَّه تعالى، وجميع الأنبياء قد بشروا به.

○فمن ذلك ما جاء في الفصل السادس عشر من الكتاب الأول من التوراة فإن التوراة خمسة كتب، واجتمعت في سفر واحد، وذلك أن « هاجر » لما هربت من « سارة » زوج إبراهيم الخليل رأت هاجر في تلك الليلة ملكاً من الملائكة، فقال لها: يا هاجر.. ما تريدين ؟ ومن أين أقبلت ؟ قالت: هربت من سارة. قال: ارجعي إليها واخضعي، لها، فإن اللَّه سيكثر زرعك وذريتك، وعن قريب تحملين وتلدين ولداً اسمه إسماعيل، من أجل أن اللَّه تعالى قد سمع خشوعك ويكون ولدك عين الناس، وتكون يده فوق الجميع، ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع، ويكون أمره في معظم الدنيا [١]. انتهى نص التوراة.

ومعلوم أن إسماعيل وأولاد صلبه لم يكونوا متصرفين في معظم الدنيا، وإنما الإشارة بذلك لعظيم ذريته، وهو نبينا محمد ﷺ؛ لأن دينه دين الإسلام علا على أهل الأرض وأكثر معمورها، ونصرت أمته في مشارق الأرض ومغاربها، وهذا أمر يعلمه علماء اليهود وأحبارهم، ولكنهم يكتمونه عن عوامهم لما أوجبه اللَّه عليهم من اللعنة والخذلان، نعوذ باللَّه من حالهم.

○ ومن ذلك ما في الفصل الثامن عشر من التوراة: إن اللَّه تعالى قال لموسى عليه السلام: قل لبني إسرائيل: إني أقيم لهم آخر الزمان نبياً مثلك من بني أخواتهم ومن لم =

---

(١) ورد هذا في سفر التكوين، وهو طويل جداً، اختصر المؤلف منه وأورد معناه، وأهم فقراته: «.. وقال لها ملاك الرب: تكثيراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة، وقال لها ملاك الرب: ها أنت حبلى فتلدين ابناً، وتدعين اسمه إسماعيل؛ لأن الرب قد سمع لمذلتك، وأنه يكون إنساناً وحشياً، يده على كل واحد، ويد كل واحد عليه، وإمام جميع إخوته يسكن، فدعت اسم الرب الذي تكلم معها: أنت إيل رئي، لأنها قالت ههنا أيضاً: رأيت بعد رؤية، لذلك دعيت البشر بئر لحي رئي، ها هي بين قادش وبارد، فولدت هاجر لإبرام ابناً، ودعا إبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل، وكان إبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لإبرام».
سفر التكوين [١٦ : ١٠-١٦].

....

= يسمع كلمتي التي يؤديها عني أنتقم منه[(١)] .

وهذا النص يدل على أن هذا النبي الذي يقيمه لبني إسرائيل في آخر الزمان ليس من نسلهم، ولكنه من إخوتهم، وكل نبي بعث من بعد موسى كان من بني إسرائيل، وآخرهم عيسى عليه السلام.

فلم يبق أن يكون من إخوتهم إلا نبينا محمد ﷺ؛ لأنه من ولد إسماعيل، وإسماعيل أخو إسحاق بن إبراهيم، وإسحاق جد بني إسرائيل، فهذه هي الأخوة التي ذكرت في التوراة، ولو كانت هذه البشارة لنبي من أنبياء بني إسرائيل لم يكن لذكر هذه الأخوة معنى، واليهود أجمعوا على أن جميع الأنبياء الذين كانوا في بني إسرائيل بعد موسى؛ لم يكن قبلهم مثله، والمراد بالمثلية هنا: أن يأتي بشرع خاص به، تتبعه الأمم بعده، وهذه هي صفة نبينا محمد ﷺ؛ لأنه من إخوتهم العرب بني إسماعيل، قد جاء بشريعة ناسخة لجميع الشرائع تبعته عليها الأمم، فهو كموسى من هذه الحيثية، وهو أفضل منه ومن جميع الأنبياء بإجماع أمته ﷺ.

○ ومن ذلك ما في الفصل الثالث والثلاثين من التوراة: أن الرب تعالى جاء من طور سيناء وطلع علينا من ساعير، وظهر من جبال فاران، ومعه وعن يمينه رايات القديسين[(٢)] وجبال فاران هي مكة وأرض الحجاز، فإن فاران اسم رجل من ملوك العمالقة الذين اقتسموا الأرض، فكان الحجاز وتخومه لفاران؛ فسمي القطر كله باسمه.

وفي مقولة التوراة: جاء اللّٰه من طور سيناء؛ يريد بمجيئه ظهور دينه، وتوحيده تبارك وتعالى بما أوحاه إلى موسى بطور سيناء.

وطلع من ساعير، يعني جبلًا بالشام به كان ظهور دين عيسى عليه السلام بما أوحاه اللّٰه إليه، وظهر من جبال فاران يريد ما أظهره وأكمله من دين الإسلام بمكة والحجاز على يد نبينا محمد ﷺ بما أوحاه اللّٰه إليه.

وقوله: إن رايات القديسين معه وعن يمينه؛ فالقديسون: هم الرجال الأولياء الصالحون، والمراد بهم هنا: أصحاب نبينا محمد ﷺ؛ لأنهم هم الذين كانوا معه وعن يمينه، ولم يفارقوه قط، رضي اللّٰه تعالى عنهم.

○ ومن ذلك ما اتفق عليه الأربعة الذين كتبوا الأناجيل: أن عيسى عليه السلام قال للحواريين حين رفع إلى السماء: « إني أذهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم، وأبشركم =

---

(١) ورد هذا النص في سفر التثنية كالتالي: أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به [تثنية ١٨:١٨] وليس في الثالث عشر كما ذكر المؤلف.

(٢) ورد هذا النص كالتالي: وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل اللّٰه بني إسرائيل قبل موته، فقال: جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتي من ربوات القدس، وعن يمينه نار شريعة لهم [تثنية ٣٣:١-٢].

....

= بنبيّ يأتي من بعدي اسمه بارقليط »، وهذا الاسم هو اللسان اليوناني، وتفسيره بالعربية أحمد، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦]. وهو في الإنجيل « باللطى براكلتس »، وهذا الاسم الشريف المبارك، هو الذي كان سبب إسلامي.

○ ومن ذلك ما قال يوحنا في الفصل الخامس عشر من إنجيله: إن عيسى قال: « البارقليط الذي يرسله أبي في آخر الزمان هو يعلمكم كل شيء ».

فالبارقليط: هو نبينا محمد ﷺ، وهو الذي علم الناس كل شيء بما أوحى الله إليه من القرآن العظيم، الذي فيه علوم الأولين والآخرين، وما فرط الله فيه من شيء، كما قال الله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨]. ولم يظهر بعد المسيح نبي بهذه الصفة غير نبينا محمد ﷺ، فهو المراد بهذه البشارة الجليلة.

○ ومن ذلك ما قال يوحنا في الفصل الخامس عشر من إنجيله: إن المسيح قال: « البارقليط الذي يرسله أبي من بعدي يقول من تلقاء نفسه شيئاً، ولكن يناجيكم بالحق كله، ويخبركم بالحوادث والغيوب ».

وهذه صفة نبينا محمد ﷺ بالأخبار المتواترة، بحيث لا ينكرها إلا مخذول مطرود عن أبواب رحمة الله.

فأما كونه لا ينطق عن الهوى، ولا يقول إلا بوحي يوحى، فهذا شهد الله له به، ولا خلاف فيه بين أمته.

○ ومن ذلك ما قال النبي يعقوب في الفصل الثالث من كتابه: في آخر الزمان يجيء الرب من القبلة والقدس من جبال فاران. ومجيء الرب تبارك وتعالى هو مجيء وحيه، والقدس هو نبينا محمد ﷺ، ظهر من جبال فاران، وهي مكة وأرض الحجاز.

○ ومن ذلك ما قال النبي ميشا في الفصل الرابع من كتابه: في آخر الزمان تقوم أمة مرحومة، وتختار الجبل المبارك ليعبدوا الله فيه، ويجتمعون من كل الأقاليم فيه، ليعبدوا الله الواحد، ولا يشركوا به شيئاً [١].

وهذا الجبل هو جبل عرفات بلا شك، والأمة المرحومة هي أمة محمد ﷺ، والاجتماع =

---

(١) وميشا: هو رجل بنياميني، كما ورد ذكره في أخبار الأيام الأول [٨: ٩]، ولكنه رجل عادي كما ذكر ذلك قاموس الكتاب المقدس [ص٩٣٩]. وليس هو المقصود من كلام المؤلف. ونعتقد أن المقصود هو ميخا: لأن هناك سفراً يسمى سفر ميخا، وقد جاء في الإصحاح الرابع منه ما يلي: ويكون في آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتاً في رأس الجبال، ويرتفع فوق التلال، وتجري إليه شعوب، وتسير أمم كثيرة، ويقولون: هلم نصعد إلى جبل الرب، وإلى بيت الله يعقوب، فيعلمنا من طرقه ونسلك في سبله؛ لأنه من صهيون تخرج الشريعة، ومن أورشليم كلمة الرب [ميخا ٤: ١٢].

....

= بالجبل المبارك هو اجتماع الحجاج بعرفات، وإتيانهم إليه من جميع الأقاليم.
○ ومن ذلك ما قال النبي إشعيا في الفصل الثاني والأربعين من كتابه: إن الرب سبحانه وتعالى يبعث في آخر الزمان عبده الذي اصطفاه لنفسه، يبعث له الروح الأمين يعلمه دينه، وهو يعلم الناس ما علمه الروح الأمين، ويحكم بين الناس بالحق، ويمشي بينهم بالعدل، وما يقول للناس. هو نور يخرجهم من الظلمات التي كانوا فيها، وعليها رقود، وقد عرفتكم ما عرفني الرب سبحانه قبل أن يكون.
وهذه رحمكم الله، هي صفات نبينا محمد ﷺ واضحة مبينة؛ لأنه هو الذي بعثه الله في آخر الزمان بعد أن اصطفاه لنفسه، وجعله حبيبه وخليله من خلقه، وبعث إليه الروح الأمين جبريل عليه السلام يعلمه دينه، وهو وحي القرآن والسنة، وشرائع دين الإسلام، وقد بلغ ﷺ كل ما أمره الله بتبليغه.
وهو معنى قول: هذا النبي، وهو يعلم الناس ما علمه الروح الأمين عليه السلام، وكان يحكم بين الناس بالحق، ويمشي بينهم بالعدل، فإن كل ما أمر به ودعا إليه أو نهى عنه. أجمع أهل العقول على عدله وصوابه في المأمورات والمنهيات، وما أنكره وكفر به من كفر إلا عناداً ومكابرة للعيان، وتخبطاً في حبائل الشيطان، فهو محتوم الخذلان، والنور الذي أخرج به الناس من ظلماتهم هو القرآن العظيم، الذي أنزله الله عليه.
وكلام هذا النبي « إشعياء » من أبين الأدلة وأوضح البراهين على ثبوت نبوة نبينا محمد ﷺ.
تحفة الأريب [٢٥٦ : ٢٨٣].
○ نبوءة حبقوق: الذي يقول في سفره، [الإصحاح ٣ عدد ٣، ٤]: « الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران. سلاه. جلاله غطى السموات والأرض. امتلأت من تسبيحه. وكان لمعان كالنور. له من يده شعاع وهناك استِتَار قدرته ».
إن هذه النبوءة التي قالها حبقوق إنما تشير إلى مكة المكرمة. فقوله: « الله جاء من تيمان » تشير إلى بلد في جنوب شرقي تبوك قريب مِن المدينة المنورة.
وقوله: « القدوس من جبل فاران » إنما هي إشارة إلى مكة المكرمة.
وحينما يقول: « جلاله غطى السموات » ماذا تعني هذه العبارة ؟ إننا في هذه الليلة استمعنا إلى أذان العشاء فقد توقفنا عن الحديث، تابعنا المؤذن، إذن هي صيحات « الله أكبر » التي تتردد في الآفاق في كل الأرض التي يسكنها المسلمون قلوا أو كثروا. إنها جلال الله الذي يغطي السموات والأرض. إنها لا يمكن أن تشير إلى كنيس اليهود الذي يستخدم البوق، ولا تشير إلى كنيسة النصاري التي تستخدم الجرس، ولكنها تشير إلى مئذنة المسجد، حيث يعلوها المؤذن ليشهد أن « لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله » وليعلن للناس كافة: « الله أكبر »، حتى إذا ما أقيمت الصلاة قام المسلمون خاشعين لله يسبحون ويكبرون ويسجدون بجباههم على الأرض تعظيماً لله. ولايحدث شيء من هذا لا في كنيس اليهود ولا كنيسة النصارى، فلا تمتلئ الأرض بتسبيح الله إلا في صلاة =

....

= المسلمين، بل وفي غير صلاتهم، فهم دائما أهل التسبيح والتحميد.
وأما قوله: « وكان لمعان كالنور. له من يده شعاع وهناك استِتاَر قدرته » فما أعظم وما أمجد أن يرفع القرآن عالياً، ففيه النعمة، وفيه الهداية، وفيه البركة، وفيه كل الخير. لقد قال هذا حبقوق النبي.
○ نُبوّة داود يقول في [المزمور ١١٨: ٢٢، ٢٣]: « الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية. من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا ». إن هذا يعني أن أنبياء بني إسرائيل على كثرتهم تشير إليهم الحجارة الكثيرة في بناء بيت الرب.
أما الحجر الذي هو رأس الزاوية ويمسك البناء كله، فهو وإن كان حجراً واحداً إلا أنه هو الأهم والأعظم أثراً في إقامة البناء وتماسكه للّه.
إنه يشير إلى محمد خاتم النبيين، والذي بدونه لا ترتبط النبوات معاً، ولا يمكن أن تكون لها قيمة تذكر، تماماً كما أنه بدون ذلك الحجر « رأس الزاوية » لا يكتمل البناء ولايكون له قيمة. ولقد كان هذا الأمر « من قبل الرب ». ربما يقول قائل إن هذا الكلام يشير إلى المسيح عليه السلام، ولكن المسيح قال: موجها كلامه لبني إسرائيل في تنديد شديد، كما في إنجيل [متى ٢١: ٤٣ - ٤٤]: قال لهم يسوع: « أما قرأتم قط في الكتب الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار هو رأس الزاوية من قبل الرب، كان هذا وهو عجيب في أعيننا؛ لذلك أقول لكم: إن ملكوت اللّه ينزع منكم ويعطي لأمة تعمل أثماره ».
إن قول المسيح هنا: « لذلك أقول لكم: إن ملكوت اللّه ينزع منكم » يعني: أن النبي الخاتم الذي يرمز إليه هذا الحجر « رأس الزاوية » لن يكون من بني إسرائيل.
وأما قوله: « ومن سقط على هذا الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يسحقه »، فإنما يشير إلى قوة الإسلام، فقد قضى المسلمون الناشئون على الإمبراطورية الفارسية، كما اقتطعوا من الإمبراطورية الرومانية نصف أملاكها.
إن تنبؤ المسيح بهزيمة أعداء الإسلام هنا يتفق وما سبق أن قاله موسى في [سفر التثنية ١٨: ١٩]: « ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه». أي أن اللّه سبحانه وتعالى سينتقم منه.
جاء في [سفر دانيال الإصحاح ٢ العدد ٣١ - ٣٦]: « أنت أيها الملك كنت تنظر وإذا بتمثال عظيم، هذا التمثال العظيم البهي جداً وقف قبالتك ومنظره هائل، رأس التمثال من ذهب جيد، صدره وذراعاه من فضة، بطنه وفخذاه من نحاس، ساقاه من حديد، قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف، كنت تنظر إلى أن قطع حجر بغير يدين، فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد، وخزف فسحقهما، فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معا، وصار كعصافة البيدر في الصيف، فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان، أما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلًا كبيراً وملأ =

....

= الأرض كلها، هذا هو الحلم فنخبر بتعبيره قدام الملك ».
« أنت أيها الملك، ملك ملوك، لأن إله السموات أعطاك مملكة و اقتداراً و سلطاناً وفخراً. وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها ليدك، وسلطك عليها جميعا. فأنت هذا الرأس من ذهب. وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك، ومملكة ثالثة أخرى من نحاس فتتسلط على كل الأرض.
وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد؛ لأن الحديد يدق ويسحق كل شيء، وكالحديد الذي يكسر - تسحق و تكسر كل هؤلاء.
وبما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خزف والبعض من حديد، فالمملكة تكون منقسمة، ويكون فيها قوة الحديد من حيث إنك رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين.
وأصابع القدمين بعضها من حديد والبعض من خزف، فبعض المملكة يكون قويا والبعض قصما. وبما رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين فإنهم يختلطون بنسل الناس، ولكن لا يتلاصق هذا بذاك، كما أن الحديد لا يختلط بالخزف. وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبداً، وملكها لا يترك لشعب آخر، وتسحق و تفنى كل هذه الممالك وهي تثبت إلى الأبد، لأنك رأيت أنه قد قطع حجر من جبل لا بيدين فسحق الحديد والنحاس و الخزف والفضة والذهب. الله العظيم قد عرّف الملك ما سيأتي بعد هذا. الحلم حق وتعبيره يقين » [٢: ٣٧ -٤٥].
وبدراسة التاريخ نجد أن أقدم مملكة بعد الفراعنة هي المملكة البابلية، وهي رأس من ذهب. بعد ذلك تأتي المملكة الفارسية وهي من الفضة. وبعد ذلك المملكة المقدونية الإغريقية وهي من النحاس. بعد ذلك المملكة الرومانية وهي من الحديد. وهذه الأخيرة انقسمت إلى قسمين كبيرين: الشرقية و الغربية، وبعد ذلك تفتتت إلى ممالك أخرى. وبعد ذلك قامت دولة الإسلام التي ورثت هذه الممالك العظيمة، وهي مملكة خرجت من الصحراء إذ أشير إليها بحجر قد قطع من جبل.
وهذا الحجر قد قضى على تلك الممالك. إنه الإسلام الباقي إلى الأبد.
إذ يقول دانيال: « وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبداً، ومُلكها لا يترك لشعب آخر، وتسحق وتفنى كل هذه الممالك، وهي تثبت إلى الأبد » [١ : ٤٤].

في [سفر أشيعاء - إصحاح ٤٢] إنما هو وثيقة تتحدى كل من لا يؤمن بمحمد؛ ذلك أن وصف هذا النبي وقومه، خصائصهم وحالهم قبل مجيئه، ثم حالهم بعد ظهوره بينهم؛ كل ذلك يقود كل من يقرأ هذا الإصحاح مخلصاً مع نفسه؛ إلى التسليم بأن هذه الأوصاف لا تنطبق إلا على محمد بن عبد اللّه.
ماذا يقول هذا [الإصحاح ٤٢ من سفر أشيعاء] ؟ حين نقسمه إلى فقرات تتكون كل منها من مجموعة أسطر أو كلمات متناسقة،تجمع معا لتعطي معنى متكاملا نجد الآتي: =

....

= ١ - تتحدث الفقرة الأولى عن نبي اشتهر بأنه عبد اللّٰه ورسوله، فهي تقول: « هو ذا عبدي الذي أعضده. مختاري الذي سرت به نفسي. وضعت روحي عليه، فيخرج الحق للأمم ».

٢- وتبين الفقرة الثانية أن الدين يسود، وتكتمل الشريعة التي جاء بها في عهده هو وليس من بعده.

ومن الواضح - وهذا ما يعلمه كل علماء المسيحية - أن المسيحية المعاصرة لم تكتمل في حياة المسيح، فقد دخل عليها الكثير من عمل التلاميذ، وعمل رجال الكنيسة، وعمل بولس. لكن النبي الذي تتحدث عنه نبوءة أشعياء تؤكد اكتمال الشريعة في عهده، ويكتمل الدين في وجوده، بحيث لا تستطيع الأجيال اللاحقة أن تقوم بعمليات حذف أو إضافة إلى ما جاء به هذا النبي، فما عليها إلا التطبيق. إن هذا ما يقوله السفر: « لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض. وتنتظر الجزائر شريعته ».

إنه يبين لنا أن لهذا النبي شريعة، بينما المعلوم أن المسيح ليس له شريعة؛ لكنه جاء بمجموعة من الأخلاق يحافظ من خلالها على شريعة موسى، و يدعو المؤمنين به لتطبيقها. فقد كان آخر وصاياه قوله في إنجيل [متى ٣٢: ١ - ٣]: « على كرسي موسى جلس الكتبة و الفريسيون. فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا؛ لأنهم يقولون ولا يفعلون ».

٣- وتبين الفقرة الثالثة أن اللّٰه يعصمه من الناس حتى يكمل رسالته، أي إنه لن يموت، ولن يقتل حتى يكتمل الدين. إنها تقول: « أنا الرب، قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك، وأحفظك و أجعلك عهداً للشعب، ونوراً للأمم ».

ومن الواضح أن هذا لا يمكن تطبيقه على المسيح. فقد كل وانكسر سريعا، إذ إن الأناجيل تزعم أنه قتل بعد فترة وجيزة من بدء دعوته، اختلف في تقديرها المسيحيون بين عام ونصف العام، أو قد تزيد إلى نحو ثلاثة أعوام فقط.

إن حفظ اللّٰه لنبيه هذا من بطش الناس، والذي تحدث عنه أشعياء هنا، قد جاء في القرآن الكريم في سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ [المائدة: ٦٧]. لقد قضى اللّٰه سبحانه بعصمة نبيه محمد من الناس. ولما نزلت هذه الآية وكان له حرس يحرسه من كيد الكافرين فصرفهم النبي وقال: « أيها الناس، انصرفوا عنا، فقد حرسنا اللّٰه »[1].

٤- وتبين الفقرة الرابعة أن هذا النبي يأتي من نسل إسماعيل بن إبراهيم، فهي تقول: « لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار. لتترنم سكان سالع. من الجبال =

(١) أخرجه الترمذي [٣٠٤٦]، والطبري في تفسيره [٦/ ١٩٩]، والواحدي في أسباب النزول [ص ١٣٨].

....

= ليهتفوا ». وقيدار هذا، هو الابن الثاني لإسماعيل، كما في [سفر التكوين ٢٥: ١٣].
٥ - ثم هناك علامة بارزة تفرق بين هذا النبي وأي نبي آخر، قد يقال: إنها تتنبأ عنه كالمسيح أو غيره، فهي تبين بوضوح أن أعداءه المنهزمين كانوا عبدة أصنام وأصحاب أوثان. واليهود الذين ظهر فيهم المسيح ما كانوا عبدة أصنام.
لقد كانوا يؤمنون بالإله الواحد، الحي الذي لا يموت. إنها تقول: « يخزى خزياً المتكلمون على المنحوتات، القائلون للمسبوكات: أنتن آلهتنا ».
٦ - وتبين الفقرة السادسة أن هذا النبي رجل حرب.
ونجد في أسفار موسى أن رجل الحرب صفة من صفات اللّه سبحانه وتعالى، فهذا ما قاله موسى في [سفر الخروج ١٥ :٣]: « الرب رجل الحرب الرب اسمه ».
إن الحرب ليست بالأمر الهين، فهي تحمل للمقاتل الكثير من الآلام البدنية والنفسية، ولكن تكفي التذكرة بما قاله الشاعر العربي في شطر بيته: « والجود بالنفس أسمى غاية الجود ».
لأن ذلك الذي يتكئ على أريكته، أو تحت الظلال الوارفة، ثم ينقد أهل الجهاد الحق.
كم يساوي هو ؟ أو ماذا قدم برهاناً عملياً لعقيدته ؟ لقد كان موسى رجل حرب، فلقد أعد قواته للحرب، وقاد بني إسرائيل في المعارك، حيث انتصر في بعضها، وانهزم في البعض الآخر. إن هذا ليس عيباً على الإطلاق إذ إنه من صفات أولي العزم من الأنبياء.
يصف أشعياء هذا النبي بأنه رجل حرب ومقدام شجاع، ينتصر على أعدائه.
إن هذه الفقرة تقول: « الرب كالجبار يخرج كرجل حروب ينهض غيرته، يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه ». إن هذه كلها صفات محمد بن عبد اللّه.
٧ - ماذا في دين هذا النبي ؟ إن هذه الفقرة تبين أن: في دينه هتاف من رؤوس الجبال، وتسبيح وتكبير، ومؤتمر عالمي يعقد سنويا. والإسلام هو الدين الوحيد الذي يحدث فيه هذا، إذ يجتمع كل الحجيج من ملوك وشعوب، ومن مختلف البيئات والأعمار، لا يجتمعون في القصور، وإنما في رؤوس الجبال.
إن هذه الفقرة تقول: « من رؤوس الجبال ليهتفوا، ليعطوا الرب مجداً، ويخبروا بتسبيحه في الجزائر » إن هذا ما يحدث في الإسلام فقط، وذلك في ركنه الخامس، وهو الحج.
٨ - تُبين هذه الفقرة أن الشعب الذي ظهر فيه النبي كان ضعيفا جداً، وكان طعمة لكل آكل.
لقد كان معروفا حال العرب قبل الإسلام، فقد كانت الحدود الشمالية الغربية نهباً للروم، كما كانت الحدود الشمالية الشرقية نهباً للفرس. ولنر كيف وصف السفر هذا الشعب. إنه يقول: « شعب منهوب ومسلوب، قد اصطيد في الحفر كله، وفي بيوت الحبوس اختبأوا. صاروا نهباً ولا منقذ، وسلباً وليس من يقول رد ». =

....

= ٩ - ولكن بعد أن جاءهم هذا النبي وظهر فيهم هذا الدين، تحول العُمي إلى مبصرين، والمرضي إلى أصحاء، فانطلقوا في العالم حتى خضع لهم العالم.
إن هذه الفقرة تقول: « لتفتح عيون العُمي، لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن، الجالسين في الظلمة. أسيّر العُمى في طرق لم يعرفوها، في مسالك لم يدروها أمشيهم. أبعد الظلمة أمامهم نوراً، والمعوجات مستقيمة. هذه الأمور أفعلها ولا أتركهم».
من كان يجرؤ حين ينظر إلى خريطة العالم في القرن السابع الميلادي ثم يقول: « إن من هذه الجزيرة يخرج قوم يسودون العالم و يكتسحونه »، كما سبق أن قرر ذلك الوزير البريطاني السابق « أنتوني فاتننج » حين قال:
« إن ما حدث في الإسلام ليس له مثيل في تاريخ العالم، فلقد كان متوسط مساحة الأرض التي يفتحها الإسلام نحو ٢٥٠ كيلوا متراً مربعاً يومياً، على مدى سبعين عاماً. لقد امتدت الفتوحات الإسلامية على هذا النحو الخارق لكل تجارب البشر، وهي تفوق الواجب اليومي لأي جيش من جيوش العالم حديثة التنظيم والتسليح ».
١٠ - بعد ذلك يختتم السفر نبوءته بأنه: « نبي البر » الذي يعظم شريعة اللّه ويكرمها. وهذا ما عرف عن محمد ﷺ الذي شمل بره الحيوانات، والضعفاء، من الأطفال واليتامى، والنساء و الأرامل.
لقد كان يحترم النفس البشرية مهما كانت، ويكفي التذكرة بقصة ذلك اليهودي الذي مرت جنازته فوقف رسول اللّه احتراما لها. ولما قال صحابته: يا رسول اللّه، إنها ليهودي. قال الرسول: « أليست نفساً ». لقد استكثر صحابة النبي أن يقوم احتراماً ليهودي ميت، وذلك بسبب العداوة الشديدة، والأذى الذي ألحقه اليهود بمحمد ﷺ وصحبه ورسالته، فما كان منه عليه الصلاة والسلام إلا أن ارتقى بهم إلى مستوى عال من الخلق الكريم، الذي قال عنه: « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ».
إنني كمسلم أؤمن بالمسيح إيماناً كاملًا وفق التعاليم القرآنية،
وإنه - كما يقول الإنجيل: نبي اللّه، وإنه رسول اللّه، وإنه العبد الصالح، ولا شيء أكثر من هذا. ولكن السادة الذين كتبوا الأناجيل وضعوا فيها ثغرات، أصبح علماء المسيحية يهاجمون المسيح ذاته من خلالها.
فهذا « ويلز » الأستاذ بجامعة لندن، يقول في « كتابه يسوع المسيحيين الأوائل »: إن المسيح نادي بالمحبة المثالية فقال: « لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا. . . أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم. . . من قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع. ومن قال أحمق يكون مستوجب دار جهنم. . » إلى آخر هذه الأقوال.
مناظرة بين الإسلام والنصرانية [٢٢٥ - ٢٣٦]. =

....

❁ ❁ ❁

= ولمزيد من المعلومات حول موضوع البشارات راجع الكتب التالية:
الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية [٥/ ١٤٦ : ٢٨٤].
« منهج أهل السنة والجماعة في الرد على النصارى » عبد الراضي بن محمد عبد المحسن [٣١٦ : ٣٨٢].
« هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى » لابن القيم - السؤال الثالث [٧٥ : ١٧٥].
« البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل » - أحمد حجازي السقا.
« إظهار الحق » رحمة اللّه الهندي الباب السادس - الفصل الأول [١٥١ : ٢٤٤].
« تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب [٢٥٥ : ٢٧١] و « مناظرة بين الإسلام والنصرانية [٢١٩ : ٢٤٨].
« الإسلام والأديان الأخرى » لواء أحمد عبد الوهاب [٧٥ : ٧٩].
« النبوة والأنبياء في اليهودية والمسيحية والإسلام - البشارات » لواء أحمد عبد الوهاب [١١٧ : ١٧٢].
« بين الإسلام والمسيحية »، أبو عبيدة الخزرجي [٢١٤ : ٢٣١، ٢٧٢].
« الرد على النصارى »، لأبي البقاء صالح بن الحسين الجعفري [١٢٤ : ١٢٧].
« تنقيح الأبحاث للملل الثلاث »، لابن كمونة اليهودي.
« المنتخب الجليل من تخجيل من حرف الإنجيل »، أبو الفضل المسعودي.
« الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام »، الإمام القرطبي [٢٦١ : ٣٨٧].
« الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح » [١/ ٢٦١، ٣٥٣].
« عيسى رسول الإسلام »، القس سليمان شاهد مفسر [٢٤ : ٤٢].
« مناظرة في الرد على النصارى »، فخر الدين الرازي [٢١ : ٤٣].

منزلة الرسول ﷺ عند اللّه تعالى

السؤال: لماذا كان نبينا ﷺ المثل الأعلى للبشرية كلها ؟

الجواب: إذا كانت العلة في الوجود والإيجاد، هي تحقيق العبادة المثلى للّه سبحانه وتعالى، فمن الذي أنزل اللّه سبحانه وتعالى عليه: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

من الذي جاء على يديه كمال الدين، وتمام النعمة ؟ إنه رسول اللّه ﷺ، تتمثل فيه أفضل درجات الرضا من اللّه سبحانه وتعالى، وفيه ﷺ تحققت العبودية التي أرادها اللّه من خلق الإنسان على الأرض، عبودية عن محبوبية للّه ودخول فى طاعة اللّه سبحانه وتعالى طوعاً واختياراً، بالالتزام بما أنزل اللّه التزاماً كاملًا، والبعد عما نهى عنه بعداً كاملًا، هذه هي العبودية المُثْلَى للّه سبحانه وتعالى.

إذن . . محمدٌ ﷺ هو المثل الأعلى للبشرية كلها، يحتذِي به أولئك الذين يريدون أن يعبدوا اللّه عبادة حرية واختيار، وحب وإيمان، وقرب من اللّه سبحانه وتعالى، فإذا عرفت هذا كله؛ فلا بد أن يتسع عقلك وفطنتك لمنزلة رسول اللّه ﷺ عند ربه، وقربه منه، وحبه له [١].

❁ ❁ ❁

(١) صدق اللّه العظيم القائل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]

فهو ﷺ صاحب الخلق العظيم، والوسيلة، والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود، أول من تفتح له أبواب الجنة، وأول شافع ومشفع في الناس يوم القيامة، إمام الأنبياء وسيد المرسلين، وقائد الغر المحجلين. صلوات اللّه وسلامه عليه وآله وصحبه والتابعين.

عتاب اللَّه تعالى لرسوله ﷺ

السؤال: مما يدل على أن الرسول ﷺ قام بالتبليغ الكامل لكل ما أوحى إليه أن الآيات التي عاتبه فيها اللَّه تعالى لم يحجبها عن المؤمنين، فهل لدى فضيلتكم ما تقولونه في هذا الشأن ؟

الجواب: إن عتاب اللَّه تعالى لرسوله ﷺ إذا جاز لنا أن نقول ذلك كان بسبب إفراطه ﷺ في الرحمة بمن لا يؤمنون، ذلك أن الرسول ﷺ قد بُعث رحمة للعالمين، يعلم تماماً ما ينتظر غير المؤمنين من عقاب عظيم، ومن هنا فهو مشفق على الناس جميعاً، لأنه مرسل إليهم جميعاً، يحاول أن يبذل كل ما يستطيع، وفوق ما يستطيع ليدخلهم في رحمة اللَّه تعالى؛ لأن اللَّه تعالى أرسله ﷺ كما نعلم رحمة للعالمين، وفي هذا يحمل نفسه فوق ما يطيق، والآيات التي فيها عتاب لرسول اللَّه ﷺ تحمل هذا المعنى، كشيء حمل رسول اللَّه ﷺ نفسه عليه، وهو غير محمول عليه بحكم التشريع، أو شيء مباح ورسول اللَّه ﷺ قيد نفسه حتى في المباح، وخرج من السهل إلى الصعب كما في قول اللَّه تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ ﴾.

أيهما أسهل على رسول اللَّه ﷺ، أن يدعو إلى الهدى رجلًا أعمى، جاء وفي قلبه إيمان ؟ أم أن يتعب نفسه مع صناديد قريش الذين ملأ الكفر قلوبهم ؟ الأسهل بالطبع أن يجلس مع ذلك الذي جاء يطلب الإيمان؛ فيعلمه شرائع الإسلام وشُعب الإيمان، ولكن رسول اللَّه ﷺ يختار الطريق الأصعب، إنه يريد أن يعز الإسلام بصناديد قريش وزعمائها، وهنا يحدث العتاب من اللَّه تعالى كأن يقول للرسول ﷺ، لماذا تترك السهل وتحمل نفسك كل هذه المشقة ؟، لا تضيق على نفسك؛ لأن اللَّه تعالى غني عن هؤلاء جميعاً، والآية هنا من مقام العبادة وزيادة القرب من اللَّه سبحانه وتعالى، ولذلك كان رسول اللَّه ﷺ يحمل نفسه المشقة زيادة في مقام العبادة، فكأن اللَّه سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ، إنني لا أريد منك أن تحمل نفسك فوق ما تطيق، وذلك حب من اللَّه تعالى لنبيه ﷺ، وحب وعبادة من الرسول ﷺ للَّه خالقه ومرسله للعالمين.

ولعل هذه الآيات تلفت أنظارنا إلى شيء مهم، هو: لو أن رسول اللَّه ﷺ لم يبلغ كل ما أوحي إليه من اللَّه تعالى لكانت هذه الآيات هي أول ما يحجب عن المؤمنين، ولكنها دليل على صدق البلاغ، وصدق المبلغ عن اللَّه تعالى. وصلى اللَّه على رسوله الأمين وعلى آله وصحبه وسلم.



هل الرسول ﷺ يخطئ ويصيب ؟!

السؤال: ما رأي فضيلتكم في قول أعداء الإسلام: إن الرسول بشر يخطئ ويصيب، ويؤخذ من قوله ويترك، مع أن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى، ومعصوم من الخطأ، كما أخبر بذلك اللّٰه تعالى ؟

الجواب: حجة تكذيب الرسل؛ لأنهم بشر استخدمها الكفار من عهد نوح، ويستخدمونها حتى الآن، محاولين بذلك أن يصلوا ببشرية الرسول إلى أن اللّٰه سبحانه وتعالى لم يرسل شيئاً، حتى إننا في هذه الأيام لا نزال نسمع من يقول: إن محمداً كان بشراً يصيب ويخطئ، وإن قوله يؤخذ منه ويترك، بل إن أساس طعن المستشرقين في القرآن هو زعمهم أنه قول بشر، مع أن قضية بشرية الرسول ﷺ قضية حتمية، ولو لم يكن بشراً لكان ملكاً أو مخلوقاً من أي نوع آخر[1]، ولوجد من يطعن في الرسالة، وسنبين هذا بالتفصيل.

رسالة اللّٰه سبحانه وتعالى هي للبشر، ورسالة اللّٰه هي منهج لا بد أن يطبق أمام الناس حتى يتبعوه، وأن يكون هذا التطبيق صحيحاً بواسطة بشر يوحى إليه، محروس من اللّٰه سبحانه وتعالى، مُؤْتَمن على تبليغ الرسالة، ومن هنا فإن الرسول الذي يأتي بمنهج السماء، بلاغاً عن اللّٰه؛ إنما يطبق هذا المنهج على نفسه أولًا، ولا يجعل أحكام المنهج تعطيه ميزة عن باقي المؤمنين، ولذلك إذا أردت أن تعرف هل هذا منهج حق أو منهج باطل، انظر إلى مُبَلِّغه أو من يُقَدِّمه لك، فإن رأيت أنه حقق ميزات لنفسه، وجعل نفسه مميزاً عن باقي الذين معه فاعلم أنه منهج بشري وضعه صاحبه ليحقق ميزات ومكاسب لنفسه، وإن رأيت أن هذا المنهج لا يحقق أي ميزة لصاحبه بل يساوي بين الناس جميعاً ويتحمل صاحبه المشقة من أجله، فاعلم أنه منهج حق، ذلك أن مناهج وقوانين البشر، الأساس فيها أنها تحقق

---

(١) يقول اللّٰه تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء].

ميزات لمن وضعوها أو للقائمين عليها، فذلك هو سبيل المنهج البشري، أما منهج السماء، فإن أول من يتبعه هو الرسول، ولا يأتي أبداً بشيء يخالفه ولا يحقق له ميزة فوق المؤمنين.

إذن.. فالرسول بشر، جاء مبلغاً بمنهج السماء، وحياته هي التطبيق لهذا المنهج، وهنا تكون بشرية الرسول حتمية، لماذا؟ لأنه لو أرسل اللَّه ملكاً؛ لقال الناس: يارب، هذا مَلَكٌ، مخلوق من نور، ونحن مخلوقون من طين، له قدرات فوق قدراتنا البشرية، ولذلك فقد كلفتنا يا رب أكثر مما نطيق وفوق قدراتنا، ولكن كون الرسول بشراً، وكونه من بين قومه، وكونه يطبق المنهج؛ تُسْقِط حجة هؤلاء جميعاً.

إذن.. فبشرية الرسول ضرورة، حتى لا يقول الناس: إن هذا المنهج موضوع لملك، له قدرة فوق قدرتنا، أو موضوع لمخلوق من جنس آخر يتميز عنا في القدرات والخَلْق، ولكن اللَّه أتي ببشر اختاره من بين قومه، حتى يكون شهيداً عليهم يوم القيامة، فإن قالوا: إن المنهج كلفنا ما لا نطيق. كانت هذه الحجة مردود عليها بأن هذا المنهج طبقه بشر مثلكم، ولم يحتمل فوق ما يطيق، وكان مثلًا لكم كان عليكم أن تحتذوا به، ومن هنا فإن عدم بشرية الرسول تكون حجة على الرسالة وليست حجة لها، ومجالًا للطعن في عدم مناسبة التكليف للمكلف به، ولكن لكون الرسول بشراً، فذلك عين الحكمة؛ لنقول: إن هذا التكليف قام به بشر مثلنا ونحن قادرون على القيام به.

وكان أجدر بهؤلاء الكافرين، أنه ما دام الرسول بشراً، وما دام في قدراته القيام بالتكليف، كان الأجدر بهم أن يناقشوا التكليف نفسه، وكيف يدعو إلى الخير والرحمة، وطيب الخلق والتسامح والتكامل، وكل القيم العليا التي جاءت بها الرسالات السماوية، وحتى هذه اللحظة نجد أن من يثير نقطة بشرية الرسول، يحاول أن يدفع بها عن نفسه وغيره قراءة المنهج بالتقييم الصحيح، وهو لأنه يعلم أن هذا المنهج حق، وأنه لا يستطيع أن يناقشه، يدفع القضية كلها محاولا إثارة قضية بشرية الرسول؛ ليتخذها حجة في أن يقول: إنه ما دام بشراً يخطئ ويصيب، فلن آخذ عنه، ولو أنه كان يريد النقاش حقيقة لناقش المنهج نفسه، ولكنه هرب بإثارة هذه القضية الوهمية التي هي ضده وليست له.

فإذا قرأت الآن من يثير قضية بشرية الرسول، فاعلم أنه لا يستطيع مناقشة منهج اللَّه، ولذلك فهو يحاول أن يهرب بكلام هو ضده وليس له.

❁ ❁ ❁

أمية الرسول ﷺ من دلائل إعجاز القرآن

السؤال: لو لم يكن النبي أمياً لاتهمه الكفار والمشركون بأن القرآن كلامه، ومع ذلك عارضوه، وهم يعلمون أنه لا يقرأ ولا يكتب. فماذا تقول فضيلتكم ؟

الجواب: إنهم في وقوفهم موقف المعارضة، أثبتوا أنهم في داخل نفوسهم يعتقدون أن القرآن هو الحق؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يتحدوا إعجازه، الإعجاز أولًا في النبي المختار للدعوة، والإعجاز ثانياً في استخدام نفس الحروف والألفاظ التي يستخدمها البشر.

فالإعجاز الأول أن النبي ﷺ لم يقرأ ولم يكتب طيلة حياته المباركة، ولم يتعلم القراءة والكتابة، ولم يعرف الشعر ولا النثر، ولا علم الكلام، إلى غير ذلك، ومع هذا فقد جاء بكلام غاية في الإعجاز، كلام لا يستطيع أولئك الذين درسوا البلاغة وبرعوا فيها أن يأتوا به، أو يأتوا بسورة من مثله؛ بل الإعجاز يتجلى أكثر في أن اللّٰه سبحانه وتعالى أثبت في القرآن أن هذا الكلام ليس كلام محمد ﷺ؛ بل هو كلام لا يمكن أن يأتي به أمي، فالإنسان الأمي قد ينطق الكلمات وقد ينظم الشعر والنثر والسجع، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يأتي بالحروف التي تتكون منها الكلمات، فإذا أنت ذهبت إلى إنسان لم يعرف في حياته القراءة والكتابة، وسألته ما هذا ؟ يقول لك: هذا كوب مثلًا، فإذا قلت له ما هي الحروف التي تتكون منها كلمة كوب لم يعرف؛ لأنه لم يتعلم القراءة والكتابة، ولكن اللّٰه سبحانه وتعالى أنزل عليه حروفاً لا يعرف مسمياتها رجل أمي. فعلمه النطق بها، وجعلها في القرآن فقرأ ﷺ: « ألف، لام، ميم، كاف، هاء، ياء، عين، صاد »، وسمع العرب هذا الكلام إمعاناً في الإعجاز والتحدي، بمعنى: أن محمداً أمي[1] لا

---

(١) قال الشيخ الإمام رداً على سؤال: لماذا هو نبي أميّ ؟: نحن أمة تعبد اللّٰه بإعلان عبوديتها وخضوعها التام له؛ ولذلك حين نتبع منهج القرآن الكريم، نكون قد تميزنا عن البشر جميعاً. كيف ؟ لأن أي إنسان في هذه الدنيا، لا يخضع للّٰه سبحانه وتعالى، ولا يأخذ منهجه عنه، فهو خاضع لمنهج بشري وضعه مساوٍ له من البشر. والبشر له هوى، =

يمكن أن يعرف أسماء هذه الحروف أبداً، ولكنه جاء بأسماء هذه الحروف ونطق

= ففي كل نفس بشرية هوى تريد أن تحققه، ولذلك فهي تضع المنهج، الذي يمكنها من التمييز على الناس. وإذا نظرت إلى أي منهج بشري، وجدت أنه يحقق الفائدة لمن وضعوه، ويقدم لهم ميزات فوق ميزات غيرهم. فذلك هو طريق البشر. طبقة تصنع منهجاً؛ لتتميز به عن الآخرين، وتستفيد منه هي وحدها. وقد لا يكون هذا المنهج من وضع طبقة، بل مجموعة أفراد. ولكن المهم في هذا كله، أن الفائدة تعود على عدد محدود من الناس، هم واضعو هذا المنهج. ولكنك إذا خضعت لحكم اللّه فاعلم أنك خاضع لخالق الأرض والسماء، رب كل شيء ومليكه. واللّه سبحانه وتعالى لا هوى له، فهو غني عن العالمين، أنت محتاج إليه، وهو غير محتاج لك. ولذلك حين يضع لك منهجاً؛ فإنه يضع هذا المنهج ليعطيك الخير، ولا يضعه ليمنع عنك خيراً، أو ليستأثر هو بالخير. لماذا ؟ لأن الخير كله بيده، فهو سبحانه غير محتاج لما تملك، ولا ما يملك البشر جميعاً؛ لأنه سبحانه هو الغني، ولذلك فإن اللّه سبحانه وتعالى منزه عن الهوى، ولا ذلة لنا في أن يضع سبحانه وتعالى المنهج، لماذا ؟ لأنه يضع هذا المنهج بقواعد ثابتة تسري على الجميع. فأنت خاضع لمنهج اللّه، سواء كنت غنياً أو فقيراً، أبيض أو أسود.. لا تفرقة ولا ذلة؛ لأنك أنت ومن أعلى منك، خاضعون لمنهج اللّه. ولذلك فعندما تتبع منهج اللّه، تعيش عزيزاً، مرفوع الرأس، ماضياً في طريق الحق.
ربما كانت تلك الحكمة، هي التي أدت إلى أن يختار اللّه سبحانه وتعالى نبياً أمياً، لا يقرأ ولا يكتب. ذلك أن اللّه حينما اختار رسوله من البشر - والرسالات في تبليغها للناس، لا بد أن تتم عن طريق البشر - فبشرية الرسول ضرورة حتمية، في رسالات اللّه إلى أهل الأرض؛ لأن الرسالة هي المنهج، وحياة الرسول الكريم تمثل التطبيق العملي لهذا المنهج. وإذا لم يكن الرسول بشراً، وكان ملكاً لقال الناس: كيف نتبع ملكاً ونحن بشر، إن هذا الملك له قانونه، فهو مخلوق من نور ونحن مخلوقون من طين، هو يستطيع أن يعيش بلا طعام، فلا يأكل ولا يشرب، ونحن لا بد أن نبحث عن الرزق؛ لنطعم أنفسنا وأولادنا. ولاحتجَّ بعضهم بأن عدم بشرية الرسول، تجعل تطبيق المنهج مستحيلًا. ولكن كون الرسول بشراً، وكونه بشراً من بينهم، يعرفه قومه خير المعرفة، يبطل هذه الحجة، ويجعل تطبيق المنهج سهلًا وميسراً؛ لأن الذي يقوم به بشر.
إذن.. فالمنهج في مقدور البشر، وهكذا فإن بشرية الرسول حتمية لسلامة التطبيق. فإذا كانت بشرية الرسول حتمية، فلماذا اختار اللّه سبحانه وتعالى محمداً أُمياً لا يقرأ ولا يكتب ؟ ومعنى أمي: أي: كما ولدته أمه، لم يأخذ ثقافة من بشر. فلا هو تثقف على الشرق، ولا هو تثقف على الغرب، ولا هو قرأ لفيلسوف، ولا هو اطلع على نظرية إنسان، بل لم يقرأ كلمة في حياته. عندما يأتي هذا الإنسان، بكل هذا الإعجاز القرآني، فهو لا يمكن أن يأتي به من ذاته؛ لأنه غير مؤهل لذلك. إذن.. فالأمية شرف لرسول اللّه ﷺ، ودليل على صدق رسالته، وإن كانت مهانة لأمثالنا. بل إن اختيار اللّه =

بها، وكان هذا يكفيهم لو أنصفوا على أن القرآن العظيم ليس كلام محمد ﷺ؛

= سبحانه وتعالى للعرب في جاهليتهم؛ ليكونوا هم أمة القرآن له حكمة، فلو نزل هذا القرآن في أمة متحضرة في ذلك الوقت، كفارس أو الروم، لقالوا: التقاءات حضارية، وهبات عقلية، وموجات اصلاحية، قام بها أُناس عن حضارة وثقافة؛ ليقودوا حركة الحياة.

ولكن الأمية التي جاءت لتحجب الفكر البشري عن رسول اللَّه، والجاهلية التي جاءت لتحجب الرؤية الحضارية عن أمة رسول اللَّه، إنما جاءتا أيضاً لتؤكِّدا أن هذه الرسالة هي من اللَّه، وأنه لا دخل للأرض فيها. وما دام ليس للأرض دخل، ولا لثقافتها وحضارتها مكان، فالذي قاله، هو « قرآن »، أوحي إليه من عند اللَّه. واللَّه حين منع رسوله بالأمية، من ثقافات ومعطيات عقول البشر، وصله بعالم الغيب والشهادة، فعلَّمه بالوحي والإلهام، ما لم يكن يعلم هو وقومه.

وهنا يحضرني لقاء الغار، حينما نزل القرآن على محمد، عليه الصلاة والسلام، مع الملك جبريل، وضمه بقوة وقال: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾[العلق: ١] ورد الرسول ﷺ وهو يرتعد من الضمة: « ما أنا بقارئ » كيف يقول اللَّه سبحانه وتعالى لنبيه: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ وهو يعلم أنه أُمي لايقرأ ولا يكتب، والرسول يرد: ما أنا بقارئ؟ نقول: إنه لا تعارض بين الاثنين؛ فالرسول حينما قال: ما أنا بقارئ، أخذ بالأسباب البشرية، في أنه لم يتعلم القراءة والكتابة. ولذلك كان صادقاً مع نفسه وأمام ربه. واللَّه سبحانه وتعالى حينما قال لرسوله: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ لم يأخذ بالأسباب الأرضية، بل أخذ بالأسباب العلوية.. أي: يا محمد أنت ستقرأ، ولكني لن أرسلك إلى معلم أو إلى مدرسة، لتتعلم فيها القراءة، ولكنك ستقرأ ﴿ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾. أي: العلم الذي سيأتيك هو من اللَّه سبحانه وتعالى، وهو علم يحيط بعلم البشرية كلها، ولكنه لا يحتاج منك لأن تتعلم القراءة والكتابة؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى، هو الذي سيعلمك، وسيعلمك ما لم تكن تعلم. وهكذا كان الإعجاز في الآية الأولى التي نزلت من القرآن تطلب من نبي أُمي أن يقرأ فيقول: ما أنا بقارئ، فيقول له جبريل: أنت ستقرأ، وأنا الذي سأعلمك علماً من عند اللَّه لا من عند البشر. وهكذا كانت قضية أُمية الرسول وبشريته تقتضي كمعجزة أن المنهج صالح لحياة البشر، وأن العلم القادم ليس هو من نتاج لقاءات العقول، بل علم من رب الأرض والسماء.

ولذلك تحدى اللَّه سبحانه وتعالى أن يأتي أحد بسورة مثله، وكان هذا التحدي خروجاً بالقرآن، عن القدرة البشرية. ذلك أنه - حسب علم البشر - يأتي إنسان يخترع شيئاً، ثم يأتي بشر آخر بمثل هذا الشيء؛ بل ويزيد عليه، وكلما تقدم الزمن، وكشف اللَّه لعباده عن علم في الأرض، جاءت الزيادات بعد ذلك. ولكن القرآن الكريم لأنه من اللَّه، بقي إعجازاً أربعة عشر قرناً. وسيبقى إعجازاً أبديا. ولذلك نجد أن الأمة الإسلامية، قد استطاعت بهذا العلم الإلٰهي، أن تسود الأرض كلها، وأن تنتصر على حضارتين كانتا أعلى ما صنع البشر في الأرض، في ذلك الوقت، وهما الحضارة =

لأنه لو كان كلام محمد وهو رجل لم يقرأ ولم يكتب في حياته، لكان من

= الفارسية والحضارة الرومانية. كيف تم ذلك ؟ هل استطاع القرآن أن يعطي العرب سلاحاً بشرياً يفوق أسلحة هذه الدول، أو كشف لهم سر القنبلة الذرية مثلًا ؟! لم يحدث ذلك أبداً، وإنما جاء هذا الدين الجديد بمنهج من عند اللَّه، إذا اتبعناه دانت لنا الأرض كلها. لماذا ؟ لأنك إن وضعت منهجاً ربانيا مقابل منهج أرضي، انهزم منهج البشر ولم يعد له مكان، وساد منهج اللَّه، ولذلك فإن المنهج الذي ساد به العرب الأرض، لم يكن منهجاً من وضعهم أو اختراعهم، ولو كان منهجاً بشرياً، لانهزم أمام حضارة الروم والفرس، ولكنه منهج علوي من الخالق الأعظم. قال اللَّه تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ والجاهلية هي نسبة إلى جاهل. ولو كانت نسبة إلى الجهل لجاء القول: « جهلية »، لكن المعنى هنا « جاهلية نسبة إلى جاهل ». وحتى نعرف معنى الجاهل بالتحديد، لا بد لنا أن نعلم أن كل لفظ نتكلم به له معنى، وساعة نسمع اللفظ، فإن المعنى يأتي إلى الذهن. ولكن المعنى يأتي إفرادياً، مثلما نسمع كلمة « جبل »، فإن الذي يقفز إلى الذهن هو صورة الجبل، لكن لا توجد حال واضحة للجبل؛ لأن الكلمة لم تكن مصحوبة بحكم.
إذن.. فهناك معنى للفظ، ولكن هذا المعنى لا يستقل بفائدة؛ تماماً كما نقول: « القاهرة » فإن مدلولها يأتي كعاصمة لمصر؛ ولكن إن قلنا: إن القاهرة مكتظة بالسكان، هنا نكون قد أتينا بحكم؛ يوضح لنا ماذا نقصد بقولنا: « القاهرة ».
إذن.. هناك فرق بين اللفظ، حين يؤدي معنى مفرداً لا حكم له، وحينما يؤدي معنى مقترناً بحكم. ولذلك فساعة يأتي العربي القديم إلى لفظ بلا حكم، فإنه لم يكن ليحتمله.
لذلك ها هو رجل عربي، كان يقول: أشهد أن محمداً رسولَ اللَّه - بفتح اللام في كلمة رسول - هكذا تكون « رسول اللَّه » صفة لمحمد.
إذن.. أين الخبر المطلوب ؟! لذلك قال له عربي آخر: وماذا يصنع محمداً ؟ إنه يريد أن يلفت القائل إلى أنه لم يتلق الخبر.
إذن.. كل لفظ له معنى، هذا المعنى مفرد، ولا بد له من نسبة. مثال ذلك عندما نقول لإنسان آخر: « محمد »، ويكون هذا الإنسان يعرف محمداً، فيسألك: « وما لمحمد ؟ » إنه يطلب الخبر؛ ليعرف ماذا حدث له أو منه، فتقول له: « محمد يأمر بمكارم الأخلاق »، وهكذا تكتمل الفائدة.
إذن.. فكل لفظ من الألفاظ المفردة، له معنى حين يفرد اللفظ. فإذا ما جاء الحكم فتنشأ عنه النسبة. والنسبة إن كانت واقعة ويعتقدها قائلها، ويستطيع إقامة الدليل عليها، فهذه نسبة علم؛ لأن العلم نسبة مجزوم بها وواقعة، ونستطيع إقامة الدليل عليها. تماماً مثلما نقول: « الأرض بيضاوية »، إن كلمة الأرض توحي أولًا بصورة الأرض، وعندما أضفنا إليها نسبة هي « بيضاوية » فذلك؛ لأننا نعتقد أنها بيضاوية، والواقع يؤكد ذلك. =

المستحيل أن يعرف أسماء الحروف التي لا يعرفها ولا يستطيع أن ينطق بها إلا من

= فإذا ما جئنا بالدليل عليها، فهذه نسبة علم.
ذلك أننا نعرف أن العلم نسبة معتقدة وواقعة، وعليها دليل. أما إذا كانت النسبة واقعة ومعتقدة، ولا نستطيع التدليل عليها فذلك هو التقليد. فالطفل يكرر مثل والده بعضاً من الحقائق، ولكنه لا يستطيع إقامة الدليل عليها، إنه قلد من يثق به.
إذن.. فالمرحلة الأقل من العلم هي التقليد، أما إذا كان الإنسان يعتقد أن النسبة قد حدثت، ولكن الواقع غير ذلك، فهذا هو الجهل.
إذن.. فالجهل ليس معناه أنك لا تعرف، ولكن معنى الجهل أنك تعرف قضية مناقضة للواقع. إن الأمي هو الذي لا يعرف، أما الجاهل فهو الذي يعرف قضية مخالفة للواقع، وهو متشبث بها.
قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ إن الحق يتساءل وهو سبحانه أعلم: هل يرغبون في الاستمرار بالاعتقاد الخاطئ الجاهل؟ إن الأمر مع الأمي يختلف عن الأمر مع الجاهل: فالأمي قد يكتفي بأن نقول له العلم الذي نريد تعليمه إياه؛ أما الجاهل، فلا بد أن يكون التعامل معه من خلال عملين:
العمل الأول: أن نجعله يحذف من تفكيره القضية الخاطئة.
والعمل الثاني: أن نجعله يقتنع بالقضية الصحيحة.
والذي يسيء إلى دعوة الدين هم الجهلة؛ هؤلاء الذين يعتقدون اعتقاداً خاطئاً في قضايا باطلة.
لكن.. ماذا إن كانت النسبة مجالًا للنفي ومجالًا للإثبات؟ إن كان النفي مساوياً للإثبات، فهي نسبة شك. وإن غلب الإثبات.. فهذا ظن. وإن كان النفي راجحاً فذلك هو الوهم. إننا عندما ننظر في النِّسب، نجدها كما يلي:
علم : وهو نسبة واقعة معتقدة، وعليها دليل.
تقليد: وهو نسبة واقعة معتقدة، ولا يقدر على أن يأتي عليها بدليل.
جهل: وهو نسبة معتقدة غير واقعة.
ظن: وهو نسبة يتساوى فيها النفي والإثبات.
وهم : وهو نسبة يغلب فيها النفي على الإثبات.
وهكذا يتضح لنا أن أصعب قضية أمامنا، هي قضية الجهل، مَن يسبب التعب في هذه الدنيا هم الجهلة؛ ذلك أنهم يعتقدون بقضايا خاطئة. فمادام هناك حكم من اللّه.. فلماذا لا يرتضونه إذن؟ أيريدون حكم الجاهلية؟ إن أهل الكتاب أنفسهم كانوا يسفهون حكم الجاهلية. ولنا أن نلحظ: أن ذلك التسفيه كان في زمن المواجهة بين الجاهلية وبين أهل الكتاب. ولكن ما أن جاء الإسلام، الذي سيزيل كل الجاهلية، وكل التزييف الذي قام به بعض أهل الكتاب، هنا اختلف الأمر.
لقد كانوا من قبل يستفتحون على أهل المدينة ومكة، وكثيراً ما قالوا: لقد أطل عهد نبي =

تعلم القراءة والكتابة، ولكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

❁ ❁ ❁

= سنتبعه، ونقتلكم به قتل عاد وإرم. ولكن ما أن جاء رسول الله ﷺ حتى قالوا العكس.
ماذا قالوا للجاهلين ؟ قالوا: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٥١]، وذلك لما سأل سادة قريش بعض أحبار اليهود قائلين: أنتم أهل الكتاب، وأهل العلم القديم، فأخبرونا عنا وعن محمد ؟
فقال الأحبار: ما أنتم وما محمد ؟
فقال سادة قريش: نحن ننحر الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونفك العاني ونصل الأرحام، ونسقي الحجيج، وديننا القديم، ودين محمد الحديث.
فقال الأحبار: أنتم خير منه وأهدى سبيلًا. لقد كانوا يزورون القول، وكما ينقل الرواة قصة أخرى في هذا الموضع: أن واحداً من أحبار اليهود، قال لأبي سفيان: أنتم والله أهدى سبيلًا مما هو عليه. لقد قالوا ذلك حسداً لرسول الله ﷺ.
إذن.. فهل يرتضي أهل الكتاب حكم الجاهلية ؟ لا، ولكنه التناقض والتضارب.
ولما تناقضوا مع الكتاب الذي نزل إليهم، قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا ﴾ إن الحق لم يقل: إن الأحسن في الحكم هم المسلمون.. لماذا ؟ لجواز أن يكون من المسلمين من ينحرف؛ لذلك رد الأمر إلى ما لا يتغير أبداً وهو حكم الله تعالى.
إن الحق قرر ذلك؛ لأنه علم أزلًا، أنه قد يأتي قوم مسلمون وينحرفون عن المنهج.
ونحن نرى ذلك في حياتنا، إننا نرى في بعض الأحيان سلوكاً منحرفاً من مسلم، فهل نلصق هذا السلوك بالإسلام ؟ لا.. إنما ننظر إلى حكم الله في كتابه. وعندما نرى أن حكم الله يجرم فعلًا ويجعل له عقوبة، فإن العقوبة تقع على المسلم المنحرف أيضاً.
مثال ذلك قول الحق سبحانه: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٨]
إن هذا الحكم يُطبق على المسلم وعلى غير المسلم.
إذن.. فلا نقول: هذا حكم المسلمين، وذلك حكم الجاهلية، ولكننا نقول: إنه حكم صاحب المنهج؛ وهو الله سبحانه وتعالى.
السيرة النبوية للشيخ الشعراوي [٤٣٢ : ٤٤٧].

كل نفس بما كسبت رهينة

السؤال: هل يقبل اللَّه من الإنسان الصالح يوم القيامة أن يعطي من حسناته للإنسان الطالح ؟

الجواب: إن الحق سبحانه يعلمنا أن كل نفس مسئولة عما فعلت؛ فلا تستطيع نفس أن تعطي من عملها لنفس أخرى.

وذلك قول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار: ١٩].

فلو جاء يوم القيامة واحد وقال: يا ربي أنا سوف أجزى عن فلان أو أنا سوف أكون مكان فلان، أو أنا سوف أقضي الحق عن فلان.

هذا القول سوف يسمعه الإنسان الذي يطلب له الإنسان المؤمن أن يجزى عنه، وسيكون موقفه موقف الذلة، ولكن اللَّه لا يقبل جزاء نفس عن نفس أخرى.

وكأن النفس الجازية التي تريد أن تعطي من عملها الصالح على مرحلتين:

المرحلة الأولى: هي التي تذهب فيها إلى اللَّه تطلب الشفاعة، فلا يقبل اللَّه الشفاعة عن نفس عملها طالح.

المرحلة الثانية: هي أن تذهب النفس الجازية تطلب من اللَّه أن تفتدي بعملها الصالح نفساً أخرى عملها طالح، هنا لا يقبل اللَّه الفدية أو العدل.

والمقصود بالعدل هنا هو أن النفس المؤمنة ترجو اللَّه أن يأخذ من عملها فدية تُفتدى بها النفس ذات العمل الطالح.

إذن.. الشفاعة أو الافتداء مستحيلة من نفس لنفس أخرى[1].

---

(١) قال العلامة عبد الرحمن السعدي في تفسيره عن قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ [طه: ١٠٩] أي: لا يشفع أحد عنده من الخلق، إلا من أذن له في الشفاعة، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله، أي: شفاعته، من الأنبياء والمرسلين، وعباده المقربين، فيمن ارتضى قوله، وهو المؤمن المخلص، فإذا اختل =

....

۞ ۞ ۞

= واحد من هذه الأمور، فلا سبيل لأحد إلى شفاعة من أحد.
وينقسم الناس في ذلك الموقف قسمين:
ظالمين بكفرهم، فهؤلاء لا ينالهم إلا الخيبة والحرمان، والعذاب الأليم في جهنم وسخط الديان.
والقسم الثاني: من آمن الإيمان المأمور به وعمل صالحاً من واجب ومسنون ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١١٢] أي: زيادة في سيئاته، ﴿ وَلَا هَضْمًا ﴾ أي: نقصاً من حسناته، بل تغفر ذنوبه، وتطهر عيوبه، وتضاعف حسناته، ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠].

لماذا نرتكب المعاصي ؟

السؤال: بالرغم من أن كلًا منا يعرف عاقبة ارتكاب المعاصي، فإننا نرتكبها، لماذا؟

الجواب: المؤمن حين يمنع نفسه من متاع في الدنيا، إنما يمنع نفسه من شيء وقتي، وهو يمنع نفسه من شر كبير، لماذا ؟ لأن الذي يدفع الإنسان إلى المعصية هو غياب الجزاء عنه، فلو كان الجزاء حاضراً، ما ارتكب إنسان معصية أبداً، ولنوضح هذا قليلًا: هَبْ أننا جئنا بشاب قوي، وأحضرنا له أجمل نساء الأرض، وأخذناه إلى حجرة فاخرة، وقلنا له: هذه المرأة لك، ولن يدخل عليك أحد هذه الليلة، ثم فتحنا له باباً جانبياً من أبواب هذه الحجرة، فرأى الجزاء أو النار التي سيعذب فيها، وقلنا له: في الصباح وبعد أن تقضي ليلتك كما تشاء فإنك ستلقى في هذه النار، تُرَى هل سَيُقْدم هذا الشاب على معصية من معاصي اللَّه ؟ أبداً. أؤكد لكم أنه لو رأى هذا الشاب الجزاء حاضراً؛ لظل يصلي طوال الليل ويستغفر اللَّه، ولطرد هذه المرأة من حجرته، ولكن الذي يغري بالمعاصي، هو أن الجزاء مستور عنا وذلك لحكمة أرادها الحكيم الخبير.

* * *

العصاة وأبواب الرحمة

السؤال: يزعم الذين يسرفون على أنفسهم أنهم إذا رجعوا إلى اللّه فلن يقبل توبتهم، فهل هذا الزعم صحيح، أم أن باب الرحمة مفتوح أمامهم ؟

الجواب: إن ذنوب الإنسان في الدنيا ومعاصيه لا تحصى ولا تعد، إذا تكلم فقد يَنمُّ، وإذا حكم فقد يظلم، وإذا ظن فقد يُسيء، وإذا تحدث فقد يخطئ، وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق، هذه أشياء يرتكبها بعض الناس مئات المرات، وبدرجات متفاوتة، فمن النادر أن تجد إنساناً لم يَصْدُر عنه في يوم من الأيام كلمة تحمل معنى النم، ولو مرة، أو لم يصدر عنه حكم لم يجانبه الصواب في أي شيء من أمور الحياة ؟ ومن منا لم يسيء الظن بإنسان يوماً ما ؟ ومن منا لم يخطئ الحديث أو ابتعد عن الحق ولو مرة واحدة ؟ من منا يستطيع أن ينسب الكمال لنفسه، وأن يخلّص هذه النفس من هواها، وأن يبتعد بعداً كاملا عن كل خطيئة ؟! من الذي يستطيع أن يدعي أنه منذ أن يستيقظ حتى ينام لم يخطئ خطأ، ولم يرتكب إثماً ولم يهدر حقاً لإنسان ؟

إن الذين يبذلون أقصى جهدهم في الطاعة لله سبحانه وتعالى لا يَصِلون إلى مرتبة الكمال، فالكمال للّه وحده، ورسول اللّه ﷺ يقول: « كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون »(١)، واللّه سبحانه وتعالى يصف الإنسان فيقول: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والشيطان يحاول أن يقعد بالإنسان عن الصراط المستقيم، وأن يمنعه من طاعة اللّه سبحانه وتعالى(٢).

ولذلك كان لا بد من باب للرحمة، يدخل منه البشر إلى اللّه سبحانه

---

(١) أخرجه الترمذي عن أنس رضي اللّه تعالى عنه [٢٤٩٩]، وابن ماجه [٤٢٥١] وحسنه الألباني.

(٢) إشارة لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣ ﴾ [ص].
وقوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٦].

وتعالى، وأن يكون هذا الباب مفتوحاً على مصراعيه، يهرع إليه كل عاص؛ ليقول: « يا رب، عُدتُ إليك وأنا نادم على ما فعلت فاقبلني ».

وكثيراً ما تحدثت كتب السير والتاريخ عن عدد من كبار العباد والزهاد أخطأوا في بداية حياتهم، وعصوا اللَّه ثم تابوا إلى اللَّه وأنابوا إليه سبحانه.

فلو كنت قد ارتكبت معصية فإن باب التوبة مفتوح، ولو قلت: إنني عصيت اللَّه ؟ نقول لك: إن ذلك لا يمنع من الاستعانة باللَّه سبحانه وتعالى؛ لأنه رحمن ولأنه رحيم، ولا تمنعك معصية من أن تستعين باسم اللَّه في كل عمل؛ لأنها الطريق إلى التوبة، وإلى الإيمان، واللَّه سبحانه وتعالى يطلب منك أن تستعين به في كل أمر من أمور الدنيا، وأنت إذا استعنت باسم اللَّه الجامع لكل صفات الكمال، أعانك[1]، فإن كنت عاصياً فلا تعتقد أن اللَّه سبحانه وتعالى قد طردك من رحمته، أو قد تخلى عنك إذا رفعت يدك إلى السماء واستعنت به سبحانه أو أنه قد غضب عليك حتى إنه لا يستجيب عندما تستعين به في أمر من أمور الدنيا، بل اعلم أن اللَّه سبحانه وتعالى يطلب منك أن تستعين به، ولذلك فقد عرفك أن من صفاته سبحانه أنه: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ٣]؛ حتى تتذكر أن بابه مفتوح دائماً، ويقبل التوبة من عباده، فادخل عليه من باب الرحمة[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) يشير إلى حديث ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: « يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستعن باللَّه . . . » الحديث. أخرجه الترمذي [٢٥١٦] وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترمذي، وأحمد في المسند [١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧].

(٢) يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].
ومن دعاء خليفة رسول اللَّه ﷺ الراشد أبي بكر الصديق رضي اللَّه تعالى عنه: « اللَّهُمَّ إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ».
أخرجه البخاري [٨٣٤]، وأحمد في المسند [١/ ٤، ٧].




الجزء الثاني



رحمة اللّٰه للمطيع والعاصي

السؤال: هل يمكن أن يصل الإنسان إلى مرتبة الكمال في طاعة اللّٰه فلا يعصيه أبداً؟ أم أن كلّا منا مقدَّر عليه أن يذنب وأن يدخل من باب رحمة اللّٰه إلى التوبة والمغفرة ؟

الجواب: إن ذنوب الإنسان في الدنيا لا يحصيها ولا يعدها إلا اللّٰه سبحانه وتعالى، فإذا تكلم فقد ينم، وإذا حكم فقد يظلم، وإذا ظن فقد يسيء، وإذا تحدث فقد يخطئ، وإذا شهد فقد يميل عن الحق، كل ذلك لهوى أو شهوة، فهذه أشياء قد يرتكبها أي شخص مرات عديدة، وبدرجات متفاوتة، فقلما تجد إنساناً لم يصدر عنه في يوم من الأيام كلمة تحمل معنى النم، ولو مرة، ولم يصدر عنه حكم بعيد عن الصدق في شيء من أمور الحياة، أو جانبه الحق في بعض المسائل، أو لم يسيء الظن بإنسان ؟

من منا الذي يستطيع أن ينسب الكمال لنفسه ؟ ويخلص هذه النفس من هواها ؟ ويبعدها بعداً كاملاً عن كل خطيئة ؟ من ذا الذي يستطيع أن يدعي أنه منذ يستيقظ حتى ينام، لم يخطئ خطأ واحداً، ولم يرتكب إثماً ولو صغيراً ولم يهدر حقًّا لإنسان ؟

إن الذين يبذلون أقصى جهدهم في الطاعة للّٰه سبحانه وتعالى، لا يصلون إلى مرتبة الكمال، فالكمال للّٰه وحده، ورسول اللّٰه ﷺ يقول : « كلّ ابن آدم خطّاء، وخيرُ الخطّائين التوّابون »[(١)].

واللّٰه سبحانه وتعالى يصف الإنسان فيقول ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والشيطان يحاول أن يقعد بالإنسان عن الصراط المستقيم، وأن يمنعه عن طاعة اللّٰه[(٢)].

---

(١) رواه الترمذي [٢٤٩٩] عن أنس رضي اللّٰه تعالى عنه، وقال الألباني في صحيح الترمذي [٢٠٢٩]: حسن.

(٢) إشارة إلى قول اللّٰه تعالى حكاية عن الشيطان الرجيم؛ إذ قال: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٦].

ولذلك كان لا بد من باب الرحمة؛ ليدخل منه العصاة والمذنبون إلى اللَّه سبحانه وتعالى، ويكون هذا الباب مفتوحاً على مصراعيه، يلجأ إليه كل عاص ويدعو ربه أن يغفر له خطأه وإسرافه على نفسه وأن يتقبل توبته، ويكتبه في عباده الصالحين ولو تأملنا بداية الإسلام نجد أن رجالًا ونساء من الذين حاربوا هذا الدين في أوله، قد حسن إسلامهم، ودخلوا في الإسلام ليصيروا عزًّا ونصراً لدين اللَّه، بعد أن كانوا حرباً عليه، وغفر اللَّه سبحانه وتعالى لهم ما ارتكبوه أيام الجاهلية، وفتح لهم أبواب رحمته وقبل توبتهم ورضي عنهم.



الفرق بين معصية آدم وعصيان إبليس

السؤال: يلتبس على بعض الناس فهم الفرق بين معصية آدم، وخروجه من الجنة بسبب ذلك، ثم توبته وقبول اللّٰه لها. وعصيان إبليس ربه، وخروجه من رحمة اللّٰه، واستحقاقه اللعنة، نريد من فضيلتكم توضيحاً لهذا الفرق.

الجواب: لنا أن نتذكر دائماً أن إبليس من الجن، وأنه شهد مع الملائكة أمر السجود الصادر من الحق لهم، ذلك أنه كان مطيعاً، ولكن بعد عصيان أمر السجود أصبح من الكافرين.

ونحن نعرف أن جنس الجن له حرية الاختيار بين الطاعة والمعصية.

فإذا كان إبليس قد تفوق على الملائكة في أول الأمر بأنه عبد الحق سبحانه فصار طاووساً بين الملائكه إلا أنه عندما رد أمر الخالق جل وعلا بالسجود لآدم، كان ذلك منه فسوقاً عن أمر اللّٰه، وعصياناً في القمة.

إن مخالفة إبليس جاءت في أمر يستوجب الطاعة فاستكبر وأبى، ومخالفة آدم كانت في نهي أغواه الشيطان في فعله.

إذن.. كان عصيان إبليس إباء واستكباراً ولذلك كان عصياناً في القمة.

أما آدم لما سولت له نفسه الأكل من الشجرة شعر بأن ما فعله معصية وذنباً، فاستغفر ربه واعترف بذنبه، وهذا هو الفارق بين عصيان إبليس ومعصية آدم.

قال آدم طالباً الصفح والمغفرة من ربه تعالى: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[1] [الأعراف: ٢٣].

❁ ❁ ❁

---

(١) راجع القصة كاملة في كتاب قصص الأنبياء لفضيلة الشيخ الشعراوي [١/ ١٧٨] وهو من منشورات مكتبة التراث الإسلامي.

اللَّه تعالى يطلب من العاصي أن يتوب

السؤال: كيف أستعين باللَّه وأنا عاصٍ له ؟

الجواب: إن اللَّه سبحانه وتعالى يطلب منك أن تستعين به في كل أمر من أمور حياتك، وإذا استعنت باسم اللَّه الجامع لكل صفات الكمال، أعانك، فإن كنت عصيته في أمر تعتقد أنه سبحانه وتعالى قد طردك من رحمته، أو قد تخلى عنك، ولا تظن أنه قد غضب عليك فلا يستجيب لك عندما تستعين به في أمر من أمور الدنيا. بل أقبل علَيه من فورك وتب إليه، وتطهر من معصيتك بالإنابة إليه سبحانه، واعلم أنه يحب التوابين ويحب المتطهرين، ولا تيأس من رحمته، فسبحانه غافر الذنب وقابل التوب.

شرع لنا الاستعانة به، فنقول في صلاتنا: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وعرفنا أن من أسمائه الحسنى سبحانه وتعالى أنه: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، حتى تتذكر أن بابه مفتوح دائماً، وأنك تدخل إليه من باب الرحمة، فلا تقل أبداً إنني أستحي أن أستعين باللَّه؛ لأنني عصيته، تذكر دائماً رحمة اللَّه سبحانه وتعالى التي وسعت كل شيء[1] وتذكر في كل لحظة بأنه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، واعلم أنه لولا رحمة اللَّه ورحمانيته، لما بقيت لنا نعمة.

❁ ❁ ❁

(١) عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ قال: « إنَّ للَّه مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدتها وأخَّر اللَّه تسعاً وتسعين رحمةً، يرحم بها عباده يوم القيامة ». أخرجه مسلم في صحيحه [١٩/٢٧٥٢].

المؤمن العاصي والفرق بينه وبين الكافر

السؤال: هل المؤمن الذي يعصي اللّه في بعض المعاصي ولم يتب عنها يعذب في النار ؟

الجواب: نعم إن المؤمن الذي يعصي اللّه في بعض المعاصي ولم يتب عنها، فإن عذابه بقدر ما عصى، إلا إذا تداركته رحمة من اللّه.

وهل الكافر الذي آمن وهو لا يتوقع الموت ثم مات بعد الإيمان بلحظات هل يدخل النار أم يدخل الجنة ؟

○ بل يدخل الجنة لأن الإسلام يجب ما قبله.

وهل ترى هذا عدلاً؟، أليس الكافر هو الذي ملأ الدنيا فساداً وإفساداً وفجوراً ومعصية ثم يغفر اللّه كل ذلك قبل أن يقبض روحه بلحظات نتيجة لتلفظه بكلمة الإيمان ؟

○ ذلك عين العدل، فالكافر لم يكن يدري لحظة إيمانه متى يموت وإيمانه باللّه هو رغبة في ميلاد جديد.

أما المؤمن فقد التزم مع اللّه التزاماً فلا بد أن ينفذ عهد الإيمان(١).

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: التوبة نوعان، واجبة ومستحبة:

فالواجبة: هي التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور. وهذه واجبة على جميع المكلفين، كما أمرهم اللّه بذلك في كتابه وعلى ألسنة رسله.

والمستحبة: هي التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات. فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين. ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين: إما الكافرين وإما الفاسقين.

قال اللّه تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الواقعة].

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الواقعة]. =

....

= وقال تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الإنسان].

وقال: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المطففين].

قال ابن عباس: تمزج لأصحاب اليمين مزجاً، ويشرب بها المقربون صرفاً.

والتوبة: رجوع عما تاب منه إلى ما تاب إليه. فالتوبة المشروعة هي الرجوع إلى اللّه، وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما ظن كثير من الجهال، لا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهي عنها، فأكثر الخلق يتركون كثيراً مما أمرهم اللّه به من أقوال القلوب وأعمالها وأقوال البدن وأعماله، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أمروا به، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه، فيكونون إما ضالين بعدم العلم النافع، وإما مغضوباً عليهم بمعاندة الحق بعد معرفته.

وقد أمر اللّه عباده المؤمنين أن يدعوه في كل صلاة بقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ ولهذا نزّه اللّه نبيه عن هذين، فقال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم].

فالضال الذي لا يعلم الحق بل يظن أنه على الحق وهو جاهل به، كما عليه النصارى. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧].

والغاوي: الذي يتبع هواه وشهواته مع علمه بأن ذلك خلاف الحق، كما عليه اليهود. قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف].

شهوات الغي والضلال:

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «إنَّ أَخْوَفَ ما أخافُ عليكم شهوات الغَيِّ في بُطُونِكُمْ =

....

= ومُضلاَّت الفِتَن »[(١)] . فإن الغي والضلال يجمع جميع سيئات بني آدم، فإن الإنسان كما قال تعالى: ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فبظلمه يكون غاوياً، وبجهله يكون ضالاً، وكثيراً ما يجمع بين الأمرين فيكون ضالاً في شيء غاوياً في شيء آخر؛ إذ هو ظلوم جهول، ويعاقب على كل من الذنبين بالآخر، كما قال: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠]، وكما قال: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥].

كما يثاب المؤمن على الحسنة بحسنة أخرى، فإذا عمل بعلمه ورَّثه اللّه علم ما لم يعلم، وإذا عمل بحسنة دعته إلى حسنة أخرى.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧].

وقال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦].

وقال: ﴿ ... وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحديد].

وهو ﷺ ذكر الشهوات: الغي في البطون والفروج، كما في الصحيح أنه قال: « مَن تَكَفَّلَ لي بما بين لَحْيَيْهِ وما بين رجْلَيْهِ تكفلت له بالجنة »[(٢)].

فإن هذا يعلم عامة الناس أنه من الذنوب، لكن يفعلونه اتباعاً لشهواتهم.

مضلات الفتن:

وأما مضلات الفتن، فأن يفتن العبد فيضل عن سبيل اللّه وهو يحسب أنه = مهتد، كما قال: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الزخرف].

وقال: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر: ٨].

وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ [غافر: ٣٧].

وقال: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الكهف]. =

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد [١/ ٢٥٥]: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري [٦٤٧٤]، وأحمد في المسند [٥/ ٣٣٣]، والترمذي [٢٤١٠]: بلفظ: «من تكفل لي ما بين لحييه وما بين رجليه أتكفل له بالجنة». وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

....

= ولهذا تأول أصحاب النبي ﷺ هذه الآية فيمن يتعبد بغير شريعة اللّه التي بعث بها رسوله، من المشركين وأهل الكتاب كالرهبان، وأهل الأهواء من هذه الأمة كالخوارج الذين أمر النبي ﷺ بقتالهم، وقال فيهم: « يَحْقِرُ أحدُكُم صلاته مَعَ صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرأون القرآن لا يُجَاوزُ حناجرهم، يمرُقُونَ من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية. أينما لقيتموهم قاتلوهم، فإن في قتلهم أجراً عند اللّه لمن قتلهم يوم القيامة »(١). وذلك لأن هؤلاء خرجوا عن سنة رسول اللّه ﷺ وجماعة المسلمين حتى كَفَّرُوا من خالفهم مثل عثمان وعليّ وسائر من تولاهما من المؤمنين، واستحلوا دماء المسلمين وأموالهم، كما قال النبي ﷺ فيهم: « يقتلون أَهْلَ الإسلام، ويَدَعُونَ أهل الأوثَانِ »(٢).

اجتماع شهوات الغي ومضلات الفتن:

وإذا اجتمعت شهوات الغي ومضلات الفتن قوي البلاء، وصار صاحبه مغضوباً عليه ضالّاً. وهذا يكون كثيراً؛ بسبب حب الرئاسة، والعلو في الأرض، كحال فرعون. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤] فوصفه بالعلو في الأرض والفساد.

وقال في آخر السورة: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣]. ولهذا قال في حق فرعون: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ [غافر: ٣٧].

وذلك أن حب الرئاسة شهوة خفية، كما قال شداد بن أوس رضي اللّه تعالى عنه: « يا نَعَيَا العَرَبِ! إنَّ أَخْوَفَ ما أَخَافُ عليكم الرِّياءُ والشَّهْوَةُ الخفِيَّةُ ». قيل لأبي داود السجستاني: ما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرئاسة. وحبك الشيء يعمي ويصم، فيبقى حب ذلك يزين له ما يهواه، مما فيه علو نفسه، ويبغض إليه ضد ذلك، حتى يجتمع فيه الاستكبار، والاختيال، والحسد الذي فيه بغض نعمة اللّه على عباده، لا سيما من مناظره.

والكبر والحسد هما داءان أهلكا الأولين والآخرين، وهما أعظم الذنوب التي بها عُصِيَ اللّه أولّاً. فإن إبليس استكبر وحسد آدم، وكذلك ابن آدم الذي قتل أخاه؛ ولهذا كان الكبر ينافي الإسلام، كما أن الشرك ينافي الإسلام. فإن الإسلام هو الاستسلام للّه وحده، فمن استسلم له ولغيره فهو مشرك به، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر، كحال فرعون وملئه. ولذلك قال لهم موسى: ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [الدخان: ١٩]. =

---

(١) أخرجه البخاري [٣٦١٠] عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه تعالى عنه.
(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري [٣٦١١] عن سويد بن غفلة رضي اللّه تعالى عنه.

....

= وقال تعالى عن فرعون: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤].

ومن أسلم وجهه للَّه حنيفا فهو المسلم الذي على ملة إبراهيم الذي قال له ربه: أسلم، قال: أسلمت لرب العالمين.

وهذا الإسلام هو دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم، كما وصف اللَّه به في كتابه نوحاً وإبراهيم، وموسى، ويوسف، وسليمان وغيرهم من النبيين، مثل قول موسى لقومه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال نوح عليه السلام: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٢].

وقال يوسف: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقالت بلقيس: ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤].

الغي ليس مقصوراً على شهوات البطون والفروج:

وليس الغيُّ مختصاً بشهوات البطون والفروج فقط، بل في شهوات البطون والفروج، وشهوات الرئاسة والكبر والعلو وغير ذلك. فهو اتباع الهوى وإن لم يعتقد أنه هوى، بخلاف الضال، فإنه يحسب أنه يحسن صنعاً، ولهذا كان إبليس أول الغاوين، كما قال: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف].

وقال: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [القصص].

وقال تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الشعراء].

وإنما في الحديث ما يخاف على هذه الأمة من الغي، وهو شهوات الغي في البطون والفروج. فأما الغي الذي هو الاستكبار عن اتباع الحق، فذاك أصل الكفر، فصاحبه ليس من هذه الأمة، كإبليس وفرعون وغيرهما. وأما غي شهوات البطون والفروج، فلذاك يكون لأهل الإيمان ثم يتوبون، كما قال: ﴿ ... وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه]. =

....

= وفي السنن والمسند من حديث ليث بن سعد، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو، عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن إبليس قال لربه عز وجل: بِعزَتِكَ وجلالك لا أبرَحُ أُغوى بني آدم ما دامت الأرواحُ فيهم. فقال له ربه عز وجل: فَبِعِزَّتي وجلالي لا أَبرَحُ أَغفِرُ لهم ما استغفروني »[(١)].

إنما التوبة للذين يعملون السوء بجهالة كل من عصى الله فهو جاهل:

وجميع ما يتوب العبد منه، سواء كان فعلًا أو تركاً، قد لا يكون كان عالماً بأنه ينبغي التوبة منه، وقد يكون كان عالماً بذلك فإن الإنسان كثيراً ما يكون غير عالم بوجوب الشيء أو قبحه، ثم يتبين له فيما بعد وجوبه أو قبحه، ويتركه أو يفعله لضعف المقتضى لفعل الواجب، أو قوة المقتضى لفعل القبيح. لكن هذا لا يكاد يقع إلا مع ضعف العلم بوجوبه وقبحه، وإلا فإذا كمل العلم استلزم الإرادة الجازمة في الطرفين، ولهذا قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧].

قال أبو العالية: قال أصحاب محمد ﷺ: كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤].

والمؤمن لا يزال يخرج من الظلمات إلى النور، ويزداد هدى، فيتجدد له من العلم والإيمان ما لم يكن قبل ذلك، فيتوب مما تركه وفعله، والتوبة تصقل القلب وتجليه مما عرض له من رَيْنِ الذنوب، كما قال النبي ﷺ: « إن العبد إذا أذنَبَ نُكِتَتْ له في قلبه نُكتَةٌ سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صُقِلَ قلبه، وإن زاد زيد فيها حتى يعلو قلبه، فذلك الرَّانُ الذي قال الله: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ».

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: « إنه لَيُغَانُ على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة ».

التوبة من الاعتقادات الفاسدة:

والتوبة من الاعتقادات أعظم من التوبة من الإرادات، فإن من ترك واجباً أو قبيحاً يعتقد وجوبه وقبحه، كان ذلك الاعتقاد داعياً له إلى فعل الواجب ومانعاً من فعل القبيح، فلا يكون في فعله وتركه ثابت الدواعي والصوارف، بل تكون دواعيه وصوارفه متعارضة. ولهذا يكون الغالب على هذا هو التلوم، وتكون نفسهم لوامة، تارة يؤدون الواجب وتارة يتركونه، تارة يتركون القبيح، وتارة يفعلونه، كما تجده في كثير من فساق القِبْلَةِ =

(١) رواه أحمد في المسند [٣/ ٢٩].

....

= الذين يؤدون الحقوق تارة ويمنعونها أخرى، ويفعلون السيئات تارة ويتركونها أخرى، لتعارض الإرادات في قلوبهم، إذ معهم أصل الإيمان الذي يأمر بفعل الواجب وينهى عن فعل القبيح، ومعهم من الشبهات والشهوات ما يدعوهم إلى خلاف ذلك.

وأما ما فعله الإنسان مع اعتقاد وجوبه، وتركه مع اعتقاد تحريمه، فهذا يكون ثابت الدواعي والصوارف، أعظم من الأول بكثير. وهذا تحتاج توبته إلى إصلاح اعتقاده أولًا وبيان الحق. وهذا قد يكون أصعب من الأول، إذ ليس معه داع إلى أن يترك اعتقاده، كما كان مع الأول داع إلى أن يترك مراده. وقد يكون أسهل إذا كان له غرض فيما يخالف موجب الاعتقاد. مثل الآصار والأغلال التي على أهل الكتاب، وإذلال المسلمين لهم، وأخذ الجزية منهم، مع مخالفة المسلمين له، فهذا قد يكون داعياً إلى أن ينظر في اعتقاده: هل هو حق أو باطل حتى يتبين له الحق. وقد يكون أيضاً مرغباً له في اعتقاد يخرج به من هذا البلاء.

وكذلك قهر المسلمين لعدوهم بالأسر يدعوهم إلى النظر في محاسن الإسلام، فالرغبة والرهبة تأخير عظيم في معاونة الاعتقاد، كما للاعتقاد تأثير عظيم في الفعل والترك.

وكل واحد من العلم والعمل بموجبه والإرادة رغبة ورهبة، والعمل بموجبها النظر والعلم الموافق لتلك الإرادة والعمل كما يقال: من عمل بما علم أورثه اللّه علم ما لم يعلم.

وفي القرآن شواهد هذا متعددة، في مثل قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [النساء].

وفي قوله: ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

فإذا كان الإنسان معاقباً على الاعتقاد كما يعاقب الكفار على كفرهم، كانت التوبة منه ظاهرة، كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المائدة].

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ ﴾ [التوبة].

فأما الاعتقاد المغفور: كالخطأ والنسيان الذي لا يؤاخذ اللّه به هذه الأمة، كما في قوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقد ثبت في الصحيح أن اللّه قد فعل ذلك[1]. وكما قال النبي ﷺ: « إذا اجتهد =

---

(١) أخرجه مسلم [١٢٦/ ٢٠٠].

....

= الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر »[1]. فهذا قد يقال في مثله إن قيل إنه يتاب منه فكيف يتاب مما لا ذم فيه ولا عقاب ؟ وإن قيل: لا يتاب منه فكيف لا يرجع الإنسان إلى الحق إذا تبين له ؟

وجواب ذلك أنه يتاب منه كما يتاب من غيره، لأن صاحبه قد ترك ما هو مأمور به في نفس الأمر من العلم وما يتبعه من أعمال القلوب والجوارح. إما لعجزه عن بلوغه وإما لتقصيره في طلبه.

وأيضاً، فإنه قد فعل من الاعتقاد وما يتبعه من أعمال القلوب والجوارح ما هو منهي عنه في نفس الأمر، لكن سقط عنه النهي لعدم قدرته على معرفة قبحه. والتكليف مشروط بالتمكن من العلم والقدرة، فلا يكلف العاجز عن العلم ما هو عاجز عنه، والناسي والمخطئ كذلك. لكن إذا تجدد له قدرة على العلم صار مأموراً بطلبه، إذا تجدد له العلم صار مأموراً حينئذ باتباعه. وصار في هذه الحال مذموماً على ترك ما يقدر عليه من طلب العلم الواجب، وعلى ترك اتباع ما تبين له من العلم.

وأيضاً، فما دام غير مستيقن للحق فهو مأمور بطلب العلم الذي يبين له الحق. والمعتقد المخطئ لا يكون مستيقناً قط، فإن العلم واليقين يجده الإنسان من نفسه كما يجد سائر إدراكاته وحركاته، مثلما يجد سمعه وبصره وشمه وذوقه، فهو إذا رأى الشيء يقيناً يعلم أنه رآه، وإذا علمه يقيناً يعلم أنه علمه. وإذا لم يكن مستيقناً فإنه لا يجد ما يجده العالم، كما إذا لم يستيقن رؤيته لم يجد ما يجده الرائي، وإنما يكون عنده ظن ونوع إرادة توجب اعتقاده.

هذا هو الذي يجده بنو آدم في نفوسهم، كما قال سبحانه: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣]. وإذا كان الإنسان مأموراً بطلب العلم الذي يحتاج إليه بحسب إمكانه وهو إذا لم يجد العلم اليقيني يعلم أنه لم يجد العلم فهو مأمور بالطلب والاجتهاد، فإن ترك ما أمر به كان مستحقًّا للذم والعقاب على ذلك، فإذا تبين له الحق وعلمه، وعلم أنه كان جاهلًا به معتقداً غير الحق كان تائباً، بمعنى أنه رجع من الباطل إلى الحق، وإن كان اللّه قد عفا عنه ما رجع عنه لعجزه إذ ذاك. وكان أيضاً تائباً مما حصل فيه أولًا من تفريط في طلب الحق، فكثير من خطأ بني آدم من تفريطهم في طلب الحق لا من العجز التام. وكان أيضاً تائباً من اتباع هواه أولًا بغير هدى اللّه، فإن أكثر ما يحمل الإنسان على اتباع الظن المخطئ هو هواه، كما قال تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾. وليس توبة هذا وحاله كحال من كان عاجزاً عن الفعل ثم قدر عليه كالمريض الذي لا يطيق القيام إذا أقدر عليه بعد ذلك، وكالخائف إذا أمن، وكالمصلى بتيمم، ونحو هؤلاء. =

(١) أخرجه البخاري [٧٣٥٢]، ومسلم [١٧١٦/ ١٥] عن عمرو بن العاص رضي اللّه عنه.

....

= وذلك أن هؤلاء إذا كانت إرادتهم للفعل المأمور به على وجه الكمال ثابتة في قلوبهم، قد علموا ما يقدرون عليه من المراد، وإنما تركوا تمامه لعجزهم - كان لهم مثل ثواب الفاعل، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه عن أبي موسى: « إذا مَرِض العَبْدُ أو سافر كُتِبَ له من العَمَلِ ما كان يعمل وهو صحيحٌ مُقِيمٌ »[(١)].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: « إنَّ بالمدينة لرجالًا ما سِرتُمْ مَسِيراً ولا قطعتُم وادياً إلا كانوا معكم، حَبَسَهُمُ العُذرُ »[(٢)].

وقد قال تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ [النساء: ٩٥]. فهؤلاء لهم علم بالمأمور به الكامل، واعتقاد الأمر به، وإرادة فعله بحسب الإمكان، وهذا كله من أدائهم للمأمور به، فإذا تجددت لهم قدرة لم تتجدد رغبة في الفعل الكامل، وإنما يتجدد العمل بتلك الرغبة المتقدمة وإن كان لا بد لهذا الفعل من إرادة تخصه، ولم يكن هؤلاء مأمورين بذلك إلا في هذه الحال فقط، كما تؤمر المرأة بالصلاة عند انقضاء الحيض، وكما يؤمر الصبي بما يجب عليه عند بلوغه. وكما يؤمر المزكي بالزكاة بعد ملك النصاب والحول، والمصلي بالصلاة بعد دخول الوقت.

وأما الناسي والمخطئ فإنه لم يكن قد أتي بالعلم والاعتقاد والإرادة فلا يثاب على هذه الأمور التي لم تكن له، بل يكون الذي حصل له ذلك أفضل منه بها، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]، فنفي المساواة بين الذي يعلم والذي لا يعلم مطلقاً، لم يستثن المعذور كما استثني في تفضيل المجاهد على القاعد المعذور.

وكذلك سائر ما في القرآن من نحو هذا، كقوله: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ... ﴿٢٢﴾ ﴾ [فاطر].

وقوله: ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾.

وقوله: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر »[(٣)]. =

---

(١) أخرجه البخاري [٢٩٩٦].

(٢) أخرجه البخاري [٢٨٣٩] من حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه.

(٣) لفظ مسلم: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» عن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه، برقم [١٧١٦].

....

= لم يجعل أجر العاجز عن إصابة الصواب مع اجتهاد كأجر القادر عليه. كما جعل للمريض والمسافر مثل ثواب الصحيح المقيم، كما جعلَ المعذور من القاعدين عن الجهاد الذي تمت رغبته بمنزلة المجاهد، فإن الأصل هو القلب، والبدنُ تابعٌ. فالمستويان في عمل القلب إذا فعل كل منهما بقدر بدنه متماثلان، بخلاف المتفاضلين في عمل القلب: علمه وإرادته وما يتبع ذلك، فإنهما لا يتماثلان؛ ولهذا يعاقب العبد على ما تركه من الإيمان بقلبه.

وإن قيل: إن ذلك تكليف ما لا يطاق، ولا يعاقب على ما عجز عنه بدنه باتفاق المسلمين، فهو يعاقب على ترك ما أمر بإرادته وفعله وإن كانت نفسه لا تريده ولا تحبه، وليس هو معاقباً على ترك ما عجز منه بدنه، كجهاد المقعد والأعمى ونحوهما. ونفسه إنما لا تعلم الحق الذي بعث اللّه به رسله ولا تريده لتفريطه وتعديه، إذ آيات ذلك الحق ظاهرة وهو محبوب، وقد خلق اللّه كل مولود على محبته، ولكن غير فطرته بما يقلده من غيره، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ على الفِطرَةِ، فأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ويُنَصِّرَانِهِ ويُمَجِّسانِهِ، كما تَنْتُجُ البهيمة جَمْعَاءَ، هل تُحِسُّونَ فيها من جَدعَاءَ ؟! »[1] . وإذاً قد خلق على الصحة والسلامة. فهو يستحق العقوبة على ما غيره من خلق اللّه بتفريطه وعدوانه لاتباعه الظن وما تهوى الأنفس.

وقد بعث اللّه الرسل مبشرين ومنذرين، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وهذا مما يظهر به الفرق بين المجتهد والمخطئ والناسي من هذه الأمة في المسائل الخبرية والعملية، وبين المخطئ من الكفار والمشركين وأهل الكتاب الذي بلغته الرسالة، إذا قيل: إنه غير معاند للحق، فإن ذاك لا يكون خطأه إلا لتفريطه وعدوانه، لا يتصور أن يجتهد فيكون مخطئاً في الإيمان بالرسول، بل متى اجتهد - والاجتهاد: استفراغ الوسع في طلب العلم بذلك - كان مصيباً للعلم به بلا ريب. فإن دلائل ما جاء به الرسول ودواعيه في نهاية الكمال والتمام الذي يشمل كل من بلغته، ولا يترك أحد قط اتباع الرسول إلا لتفريط وعوان فيستحق العقاب، بخلاف كثير من تفضيل ما جاء به، فإنه قد يعزب علمه عن كثير من خواص الأمة وعوامها، بحيث لا يكونون في ترك معرفته مقصرين ولا مفْرطين فلا يعاقبون بتركه، مع أنهم قد آمنوا به إيماناً مجملًا في إيمانهم بما جاء به الرسل، فهم آمنوا به مجملًا ومعهم أصول الإيمان به، كما أن الفاسق معه الدواعي لفعل المأمور وترك المحظور.

فلهذا كان المخطئ بالتأويل من هذه الأمة، والفاسق بالفعل مع صحة الاعتقاد، كل منهما محسناً من وجه، وليس واحد منهما كالكفار من المشركين وأهل الكتاب، وإن =

---

(١) أخرجه البخاري [٤٧٧٥]، ومسلم [٢٦٥٨/ ٢٢] باختلاف يسير في الألفاظ: عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه.

....

❁ ❁ ❁

= كانوا في ذلك على درجات متفاوتة، بل كل منهما ليس تاركاً لما أمر به من الاعتقاد والعمل مطلقاً ولا فاعلًا لضده مطلقاً، بل المتأول قد آمن إيماناً عامًّا بكل ما جاء به الرسول، واستسلم لكل ما أمره به. وهذا الإيمان والإسلام يتناول ما جهله، ويدعوه إلى الإيمان والإسلام المفصل إذا علمه، لكن عارض ذلك من جهله وظلمه لنفسه ما قد يكون مغفوراً له وقد يكون معذباً به.

ولذلك الفاجر بالعمل معه من الإيمان بقبح الفعل وبغضه ما هو داع له إلى فعل الأصل المأمور به وداع له إلى تركه، لكن عارض ذلك من هواه ما منع كمال طاعته، بخلاف المكذب للرسول ﷺ والكافر به، فإنه لم يصدق بالحق ولم يستسلم له لا جملة ولا تفصيلًا، لكن قد يكون ما اتبعه من ظنه وهواه موجباً لبعض ما جاء به الرسول ومانعاً له من النظر فيه بحيث لا يستطيع مع ذلك أن يسمع به، فهذا واقع، كما قال سبحانه: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ [الكهف].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [هود].

لكن عدم هذه الاستطاعة كان بتفريطه وعدوانه، ومن كان تركه للمأمور بذنب منه، أو صيرورته إلى المحظور بذنب منه - لم يكن ذلك مانعاً من ذمه وعقابه، ومن هذا قوله سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقال. ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

التوبة لابن تيمية [١٣: ٣٦].

الفرق بين المعصية بإغواء الشيطان . . . ومعصية من النفس

السؤال: كيف نفرق بين معصية يوحي بها الشيطان ومعصية تصر عليها النفس ؟

الجواب: هناك فارق بين معصية يوحي بها الشيطان، ومعصية تصر عليها النفس، فإذا حدثتك نفسك بمعصية ووقفت عندها وأصررت عليها؛ فاعلم أن نفسك هي التي تحاول أن تقودك لمعصية من هذا اللون بالذات؛ لأن النفس تريد من صاحبها أن يكون عاصياً على لون خاص يحقق لها رغبة أو شهوة. ولكن وسوسة إبليس ليس على هذا المنوال، فإبليس يريد المؤمن عاصياً على أي شكل من أشكال المعصية، ولا يهمه نوع معين ولكن يهمه العصيان في ذاته، فإذا طرق لك باباً ووجدك فيه متشدداً متمسكاً لا تصغي إليه؛ انطلق يطرق باباً آخر فيه نقطة ضعف، وهكذا يظل ينتقل من باب إلى باب حتى تسقط في قبضته وتستمع إليه .

وإذا كان الشيطان يجد في العبد المؤمن محافظة على الصلاة والزكاة وضعفاً من ناحية المرأة مثلًا أتاه من ناحية هذا الضعف؛ فيظل يزين له امرأة خليعة ويزينها في نظره ويوسوس له، حتى يسقط في الحرام، ومتى سقط في الزنا سقط في الكبائر، فإذا كان قوياً في هذه النواحي كلها جاء إبليس وزين له الخمر أو مجلس السوء أو النميمة، المهم أن إبليس يترك نقطة القوة في الإنسان ويأتيه من نقطة ضعفه؛ حتى ينفذ إليه من نقطة الضعف.

❁ ❁ ❁

باب التوبة مفتوح

السؤال: نريد أن نتعرف من فضيلتكم على معنى التوبة، ولماذا جعل اللّه باب التوبة مفتوحاً ؟

الجواب: إن تشريع التوبة هو حصار لخلايا الشر في النفس الإنسانية، ذلك أن كل إنسان حين يرتكب ذنباً، يعود سريعاً إلى رشده طالباً من ربه الصفح والعفو، وبذا ينتهي أثر الشر ولا يستشري.

ثم إن التائب يبدل سيئاته حسنات، فلو كل مسرف على نفسه حكمنا عليه بالضلال والهوان وأنه لا توبة له؛ لتحول إلى شيطان مارد يعيث فساداً في المجتمع، يُهلك الحرث والنسل، ولكن لو علم أن له رباً وسعت رحمته كل شيء ولا يجب أن ييأس هذا العاصي من روح اللّه، ولا يقنط من رحمة اللّه، وأن اللّه غفور رحيم، عفوّ كريم، يحب العفو لأقلع عن ذنبه وعاد إلى ربه [١].

۞ ۞ ۞

(١) قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٣].

شروط التوبة وعلاماتها

السؤال: ما شروط التوبة، وما علامتها ؟

الجواب: إن التوبة تستدعي أن ينيب الإنسان أمره لصاحب كل أمر وأن يسلم الإنسان بكل جوارحه للّه تعالى وأن يسرع الإنسان بالتوبة قبل أن يفاجئه الموت.

ولنا أن نعرف أن الإنسان بطبيعته ليس خيِّراً مطلقاً ولا شرِّيراً مطلقاً؛ ففي الحياة نماذج متنوعة من البشر فمثلًا:

إنسان يتميز بعمل الخير لكنه في إحدى المرات قد عمل عملًا خارجاً عن دائرة فعل الخير..

ونرى إنساناً آخر عُرف بفعل الشر، لكنه قد يقوم بعمل خارج عن دائرة الشر.

ولهذا كان الثواب وكان العقاب، فقد يسهو الطائع فيزل، فيذهب إلى اللّه مستغفرا تائباً.

وقد يستشعر العاصي رحمة اللّه في موقف ما فيدخل في رحاب اللّه طالباً المغفرة والتوبة .

قال العلماء: التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين اللّه تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط:

الأول : أن يُقلع عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فعلها.

والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً.

فإن فُقد أحدُ الثلاثة لم تصح توبته.

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعةٌ: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت ما لًا أو نحوه رده إليه، وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه، وإن كان غيبة استحله منها. ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب =

. . . .

❁ ❁ ❁

= من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقي عليه الباقي. وقد تظاهرت دلائل الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة على وجوب التوبة.
قال الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].
وقال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ [هود: ٣].
وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم: ٨].
رياض الصالحين [ص: ٤٦، ٤٧].

أول مخالفة بشرية !!

السؤال: كيف استطاع إبليس أن يوسوس لآدم في الجنة؛ حتى جعله يأكل من الشجرة المحرمة عليه ؟

الجواب: إن الاختبار الأول كان مع آدم عليه السلام حيث أعطاه اللّه كل النعم، وحرم عليه شجرة واحدة في الجنة التي يعيش فيها [١]، واستطاع الشيطان أن يوقع آدم في أول مخالفة بشرية، أو أول معصية بشرية، بعد أن استخدم الإغراء والحب البشري للخلود وحب الحياة، ومع أن آدم يعرف أن أبليس عدو له، وأنه رفض الخضوع لأمر اللّه بالسجود لآدم، إلا أنه لم يفطن إلى هذا كله، بل إنه لم يفطن إلي أن إبليس قد وعد بما لا يملكه، وبما لا يستطيع أن يعطيه حين قال له: ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾.

لم يفطن آدم عليه السلام إلى أن إبليس يعرض عليه الخلود، بينما إبليس نفسه لا يملك أن يعطي لنفسه الخلود، بل إنه طلب من اللّه تعالى أن يبقيه إلى يوم القيامة، حين قال: ﴿ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الأعراف: ١٤]. ولحكمة قدرها الحكيم الخبير أنظره إلى يوم القيامة وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥].

وعلينا أن نعتبر ونتأمل فلو كان إبليس اللعين يملك الخلود لنفسه، وهو المستكبر الذي رد الأمر على اللّه، لكان قد منحه لذاته، ولم يكن ليطلب مِن اللّه أن يبقيه إلى يوم البعث، ولكن إبليس لا يملك هذا، ولا يستطيع أن يهب لنفسه هذا الملك، وكل ما يملكه إبليس هو أن يمني الناس كذباً حتى يوقعهم في المعاصي، ثم بعد ذلك يهرب ويتركهم إلى مصيرهم.

إذن.. إبليس لا يملك شيئاً في كل ما يزينه للبشر، وإن كان يستغل الغرور

---

(١) إشارة لقول اللّه تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥].

البشري، والطمع البشري، والأماني الكاذبة ليدفع الناس إلى المعاصي، ولكن آدم عليه السلام لحكمة أرادها اللَّه تعالى لم يفطن لهذا كله فكانت الغفلة.

وكانت توبة آدم أول توبة، وكأن معصيته عليه السلام فتحت باب الرحمة والمغفرة لأبنائه من بعده، فقد شرع اللَّه تعالى التوبة والمغفرة، والتجاوز عن الذنوب، لأن الإنسان خُلِقَ ضعيفاً، تغريه الدنيا بمادياتها، ويغريه الجزاء العاجل عما ينتظره (١).

---

(١) قال تعالى: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١] قال القرطبي؛ فيه ست مسائل:
الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَعَصَىٰٓ ﴾ تقدم في « البقرة » القول في ذنوب الأنبياء، وقال بعض المتأخرين من علمائنا والذي ينبغي أن يقال: إن اللَّه تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بذلك عن نفوسهم، وتنصلوا منها، واستغفروا منا وتابوا، وكل ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها، وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات، وفي حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم، وعلو أقدارهم؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس؛ فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة.
قال: وهذا هو الحق. ولقد أحسن الجنيد حيث قال: حسنات الأبرار سيئات المقربين؛ فهم صلوات اللَّه وسلامه عليهم، وإن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يخل ذلك بمناصبهم، ولا قدح في رتبتهم، بل قد تلافاهم، واجتباهم وهداهم، ومدحهم وزكّاهم واختارهم واصطفاهم؛ صلوات اللَّه عليهم وسلامه.
الثانية: قال القاضي أبو بكر بن العربي: لا يجوز لأحد منا اليوم أن يخبر بذلك عن آدم إلا إذا ذكرناه في أثناء قوله تعالى عنه، أو قول نبيه، فأما أن يبتدئ ذلك من قبل نفسه فليس بجائز لنا في آبائنا الأدنين إلينا، المماثلين لنا، فكيف في أبينا الأقدم الأعظم الأكرم النبي المقدّم، الذي عَذَره اللَّه سبحانه وتعالى وتاب عليه وغفر له.
قلت: وإذا كان هذا في المخلوق لا يجوز، فالإخبار عن صفات اللَّه عز وجل كاليد والرجل والإصبع والجنب والنزول إلى غير ذلك أولى بالمنع، وأنه لا يجوز الابتداء بشيء من ذلك إلا في أثناء قراءة كتابه أو سنة رسوله، ولهذا قال الإمام مالك بن أنس رضي اللَّه عنه: من وصف شيئاً من ذات اللَّه عز وجل مثل قوله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة: ٦٤] فأشار بيده إلى عنقه قطعت يده، وكذلك في السمع والبصر يقطع ذلك منه؛ لأنه شبه اللَّه تعالى بنفسه.
الثالثة: روى الأئمة واللفظ لمسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « احتج آدم وموسى فقال يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدم يا موسى اصطفاك =

....

= اللَّه عز وجل بكلامه وخطّ لك بيده يا موسى: أتلومونِي على أمر قدّره اللَّه عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة فحج آدم موسى ثلاثا »[(١)][(٢)].

قال المهلب قوله: « فحج آدم موسى » أي غلبه بالحجة. قال الليث بن سعد: إنما صحت الحجة في هذه القصة لآدم على موسى عليهما السلام من أجل أن اللَّه تعالى قد غفر لآدم خطيئته وتاب عليه، فلم يكن لموسى أن يعيره بخطيئة قد غفرها اللَّه تعالى له؛ ولذلك قال آدم: أنت موسى الذي آتاك اللَّه التوراة، وفيها علم كل شيء فوجدت فيها أن اللَّه قد قدّر عليّ المعصية، وقدّر عليّ التوبة منها، وأسقط بذلك اللوم عني أفتلومني أنت واللَّه لا يلومني؛ وبمثل هذا احتج ابن عمر على الذي قال له: إن عثمان فرّ يوم أُحد؛ فقال ابن عمر: ما على عثمان ذنب؛ لأن اللَّه تعالى قد عفا عنه بقوله: « ولقد عفا اللَّه عنهم ».

وقد قيل: إن آدم عليه السلام أب وليس تعييره من برّه أن لو كان مما يعيّر به غيره؛ فإن اللَّه تبارك وتعالى يقول في الأبوين الكافرين: « وصاحبهما في الدنيا معروفا » ولهذا إن إبراهيم عليه السلام لما قال له أبوه وهو كافر: « لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً. قال سلام عليك » فكيف بأب هو نبي قد اجتباه ربه وتاب عليه وهدى ».

الرابعة: وأما من عمل الخطايا ولم تأته المغفرة، فإن العلماء مجمعون على أنه لا يجوز له أن يحتج بمثل حجة آدم، فيقول تلومني على أن قتلت أو زنيت أو سرقت وقد قدّر اللَّه عليَّ ذلك؛ والأمة مجمعة على جواز حمد المحسن على إحسانه، ولوم المسيء على إساءته، وتعديد ذنوبه عليه.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ فَغَوَىٰ ﴾ أي ففسد عليه عيشه، حكاه النقاش واختاره القشيري. وسمعت شيخنا الأستاذ المقرئ أبا جعفر القرطبي يقول: « فغوى » ففسد عيشه بنزوله إلى الدنيا؛ والغيّ الفساد؛ وهو تأويل حسن، وهو أولى من تأويل من يقول « فغوى » معناه ضلّ؛ من الغيّ الذي هو ضد الرشد.

وقيل: معناه جهل موضع رشده؛ أي: جهل أن تلك الشجرة هي التي نهى عنها؛ والغيّ الجهل. وعن بعضهم « فغوى » فبشم من كثرة الأكل؛ الزمخشري: وهذا وإن صح على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفا؛ فيقول في فني وبقي: فنى وبقى وهم بنوطي - تفسير خبيث.

السادسة: قال القشيري أبو نصر قال قوم يقال: عصى آدم وغوى ولا يقال له عاص ولا غاوٍ، كما أن من خاط مرة يقال له: خاط، ولا يقال له خيّاط ما لم تتكرر منه الخياطة. =

---

(١) ثلاثاً: أي قال النبي ﷺ «فحج آدم موسى ثلاث مرات».
(٢) أخرجه مسلم [٢٦٥٢/١٣].

....

۞ ۞ ۞

= وقيل: يجوز للسيد أن يطلق في عبده عند معصيته ما لا يجوز لغيره أن يطلقه، وهذا تكلف؛ وما أضيف من هذا إلى الأنبياء فإما أن تكون صغائر، أو ترك الأولى، أو قبل النبوّة.

قلت: هذا حسن؛ قال الإمام أبو بكر بن فورك رحمه اللّه تعالى: كان هذا من آدم قبل النبوّة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]. فذكر أن الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان، وإذا كان هذا قبل النبوة فجائز عليهم الذنوب وجها واحداً؛ لأن قبل النبوة لا شرع علينا في تصديقهم، فإذا بعثهم اللّه تعالى إلى خلقه وكانوا مأمونين في الأداء معصومين لم يضر ما قد سلف منهم من الذنوب. وهذا نفيس واللّه أعلم.

تفسير القرطبي [١١/ ٢٥٥].

توبة آدم . . . وماذا تعني بالنسبة لأبنائه ؟

السؤال: لقد ذكر القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى علَّم آدم كلمات قالها؛ فتاب عليه؛ فما هي هذه الكلمات، وماذا تعني توبة آدم بالنسبة لأبنائه ؟

الجواب: لقد علم آدم بخطإه فعلى الفور بادر بالعودة إلى اللَّه تعالى نادماً منكسراً. لذلك تاب الله عليه.

وتساءل كثير من الناس عن الكلمات التي علمها الله لآدم؛ فقالها فتاب عليه، قال بعض العلماء إن آدم قال: اللَّهُمَّ لا إله إلا أنت، سبحانك ربي وبحمدك، إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً فاغفر لي يا خير الغافرين ».

وقال آخرون إن آدم قال:

« اللَّهُمَّ لا إله إلا أنت سبحانك ربي وبحمدك؛ ربي إني ظلمت نفسي ظلما كثيراً فتقبل توبتي ياخير التوابين ».

وسواء قال آدم عليه السلام: « فاغفر لي يا خير الغافرين »، أو قال: « فتقبل توبتي يا خير التوابين ».

فإن الذي يعنينا أن آدم عليه السلام أقر بطاعة مطلقة وندم على مخالفته لأمر ربه سبحانه[١].

---

(١) قال القرطبي في تأويل قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾[البقرة: ٣٧] فيه ثمان مسائل:
الأولى: قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ﴾ تلقى قيل معناه: فهم وفطن.
وقيل: قبل وأخذ؛ وكان عليه السلام يتلقى الوحي؛ أي يستقبله ويأخذه ويتلقفه. تقول: خرجنا نتلقى الحجيج؛ أي نستقبلهم. وقيل معنى تلقى تلقن. وهذا في المعنى صحيح، ولكن لا يجوز أن يكون التلقي من التلقن في الأصل؛ لأن أحد الحرفين إنما يقلب ياء إذا تجانسا، مثل تظنى من تظنن، وتقصى من تقصص، ومثله تسريت من تسررت، وأمليت من أمللت وشبه ذلك؛ ولهذا لا يقال تقبي من تقبل، ولا تلقى من تلقن؛ فاعلم. =

طاعة آدم إذن هي إقبال منه على اللّه تعالى بانكسار واعتذار، ورغبة إلى اللّه تعالى أن يقبل الله توبته.

= وحكى مكي أنه ألهمها فانتفع بها. وقال الحسن: قبولها تعلمه لها وعمله بها.
الثانية: واختلف أهل التأويل في الكلمات؛ فقال ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير والضحاك ومجاهد هي قوله: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].
وعن مجاهد أيضاً: سبحانك اللهم لا إله إلا أنت ربي ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم.
وقالت طائفة: رأى مكتوباً على ساق العرش « محمد رسول اللّه » فتشفَّع بذلك، فهي الكلمات.
وقالت طائفة: المراد بالكلمات البكاء والحياء والدعاء.
وقيل: الندم والاستغفار والحزن.
قال ابن عطية وهذا يقتضي أن آدم عليه السلام لم يقل شيئاً إلا الاستغفار المعهود.
وسئل بعض السلف عما ينبغي أن يقوله المذنب؛ فقال: يقول ما قاله أبواه: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ الآية.
وقال موسى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى ﴾ [القصص: ١٦].
وقال يونس: ﴿ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾. وعن ابن عباس ووهب بن منبه: أن الكلمات سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم ».
وقال محمد بن كعب هي قوله: « لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، عملت سوءاً وظلمت نفسي فارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك عملتُ سوءاً وظلمت نفسي فارحمني إنك أرحم الراحمين ».
وقيل: الكلمات قوله حين عطس: « الحمد للّه » والكلمات: جمع كلمة؛ والكلمة تقع على القليل والكثير. وقد تقدم.
الثالثة: قوله تعالى: ﴿ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ٣٧] أي قَبِل توبته، أو وفقه للتوبة. وكان ذلك في يوم عاشوراء في يوم جمعة؛ على ما يأتي بيانه إن شاء اللّه تعالى ، وتاب العبد: رجع إلى طاعة ربه، وعبد توّاب: كثير الرجوع إلى الطاعة. وأصل التوبة الرجوع؛ يقال: تاب وثاب وآب وأناب: رجع.
الرابعة: إن قيل: لم قال ﴿ عَلَيْهِ ﴾ ولم يقل عليهما، وحواء مشاركة له في الذنب بإجماع، وقد قال: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة: ٣٥] و ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف: ٢٣] فالجواب: أن آدم عليه السلام لما خوطب في أول القصة بقوله: =

ولو نظرنا إلى هذا الموقف، موقف طلب آدم للتوبة، لوجدنا مبدأ نورانياً هاماً في حياة الجماعة المؤمنة.

= ﴿ٱسْكُنْ﴾ خصه بالذكر في التلقي؛ فلذلك كملت القصة بذكره وحده. وأيضاً فلأن المرأة حُرمة ومستورة فأراد الله الستر لها؛ ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]. أيضاً لما كانت المرأة تابعة للرجل في غالب الأمر لم تُذكر؛ كما لم يذكر فتى موسى مع موسى في قوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ [الكهف: ٧٢] وقيل: إنه دلّ بذكر التوبة عليه أنه تاب عليها إذ أمرهما سواء؛ قاله الحسن.

وقيل: إنه مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي التجارة لأنها كانت مقصودة القوم، فأعاد الضمير عليها ولم يقل إليهما؛ والمعنى متقارب. وقال الشاعر عمر بن أحمر الباهلي:

رماني بأمر كنتُ منه ووالدي بريئاً ومن فوق الطوي رماني

وفي التنزيل: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] فحذف إيجازاً واختصاراً.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤] وصف نفسه سبحانه وتعالى بأنه التواب؛ وتكرر في القرآن معرَّفاً ومنكراً واسماً وفعلًا. وقد يُطلق على العبد أيضاً؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال ابن العربي: ولعلمائنا في وصف الرب بأنه تواب ثلاثة أقوال؛ أحدها: أنه يجوز في حق الرب سبحانه وتعالى فيدعى به كما في الكتاب والسنة ولا يتأول.

وقال آخرون: هو وصف حقيقي لله سبحانه وتعالى؛ وتوبة الله على العبد رجوعه من حال المعصية إلى حال الطاعة.

وقال آخرون: توبة اللّه على العبد قبوله توبته؛ وذلك يحتمل أن يرجع إلى قوله سبحانه وتعالى: قبلت توبتك، وأن يرجع إلى خلقه الإنابة والرجوع في قلب المسيء وإجراء الطاعات على جوارحه الظاهرة.

السادسة: لا يجوز أن يقال في حق الله تعالى: تائب، اسم فاعل من تاب يتوب؛ لأنه ليس لنا أن نطلق عليه من الأسماء والصفات إلا ما أطلقه هو على نفسه أو نبيه عليه السلام أو جماعة المسلمين؛ وإن كان في اللغة محتملًا جائزاً، هذا هو الصحيح في هذا الباب، على ما بيناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى». قال الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧] وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥]. وإنما قيل لله عز وجل: تواب، لمبالغة الفعل وكثرة قبوله توبة عباده لكثرة من يتوب إليه. =

إن طلب آدم للتوبة، وقبول الله لتوبته، إنما هو وضع أساسي هام لمسيرة الإنسان.

إن مرتكب الذنب سوف يجد باب التوبة مفتوحاً، فيقبل عليه بانكسار، ولا يتمادي في معصيته.

= **السابعة**: اعلم أنه ليس لأحد قدرة على خلق التوبة؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو المنفرد بخلق الأعمال؛ خلافاً للمعتزلة ومن قال بقولهم، وكذلك ليس لأحد أن يقبل توبة من أسرف على نفسه ولا أن يعفو عنه.

قال علماؤنا: وقد كفرت اليهود والنصارى بهذا الأصل العظيم في الدين ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] جلّ وعزّ ، وجعلوا لمن أذنب أن يأتي الحِبْر أو الراهب فيعطيه شيئاً ويحط عنه ذنوبه ﴿ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

الثامنة: قرأ ابن كثير: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ [البقرة: ٣٧]. والباقون برفع « آدَم » ونصب « كَلِماتٌ » والقراءتان ترجعان إلى معنى؛ لأن آدم إذا تلقى الكلمات فقد تلقته، وقيل: لما كانت الكلمات هي المنقذة لآدم بتوفيق الله تعالى له لقبوله إياها ودعائه بها كانت الكلمات فاعلة، وكأن الأصل على هذه القراءة « فتَلَقّت آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كلماتٌ »؛ لكن لما بعد ما بين المؤنث وفعله حسن حذف علامة التأنيث، وهذا أصل يجري في كل القرآن والكلام إذا جاء فعل المؤنث بغير علامة؛ ومنه قولهم: حضر القاضي اليوم امرأة.

وقيل: إن الكلمات لما لم يكن تأنيثه حقيقياً حُمِل على معنى الكَلِم ، فذُكّر. وقرأ الأعمش: ﴿ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ ﴾ مدغماً، وقرأ أبو نوفل بن أبي عقرب: « أنه » بفتح الهمزة، على معنى لأنه؛ وكسر الباقون على الاستئناف. وأدغم الهاء في الهاء أبو عمر وعيسى وطلحة فيما حكى أبو حاتم عنهم. وقيل: لا يجوز؛ لأن بينهما واواً في اللفظ لا في الخط.

قال النحاس: أجاز سيبويه أن تحذف هذه الواو، وأنشد:

لـه زَجَـلٌ كـأنَّـهُ صَـوْتُ حـادٍ إذا طـلـب الـوسـيـقـة أو زمـيـر

فعلى هذا يجوز الإدغام، وهو رفع بالابتداء، « التواب » خبره، الجملة خبر « إن» ويجوز أن يكون « هو » توكيداً للهاء، ويجوز أن تكون فاصلة؛ على ما تقدم.

وقال سعيد بن جبير: لما أهبط آدم إلى الأرض لم يكن فيها شيء غير النسر في البر، والحوت في البحر؛ فكان النسر يأوي إلى الحوت فيبيت عنده؛ فلما رأى النسر آدم قال: ياحوت، لقد أهبط اليوم إلى الأرض شيء يمشي على رجليه ويبطش بيديه ! فقال الحوت: لئن كنت صادقاً مالي منه في البحر مَنْجى ، ولا لك في البر منه مَخْلص!

تفسير القرطبي [١/ ٣٢٣-٣٢٧].

ولو أن اللَّه تعالى لم يشرع التوبة لعباده، لتاه كل صاحب ذنب، ولفسدت الدنيا [١].



(١) من رحمة الله تعالى أن يديه مبسوطتان بالليل والنهار يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويغفر الزلات، فله الحمد سبحانه غافر الذنب وقابل التوب، ومن الأحاديث الواردة في فضل التوبة:
١ – عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » أخرجه البخاري [٦٣٠٧].
٢ – وعن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروا فإني أتوب في اليوم مائة مرة » أخرجه مسلم [٢٧٠٢/ ٤٢].
٣ – وعن أبي حمزة أنس بن مالك الأنصاري رضي اللَّه تعالى عنه خادم رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاةٍ » متفق عليه رواه البخاري [٦٣٠٩]، ومسلم [٢٧٤٧/ ٨].
وفي رواية لمُسلم [٢٧٤٧/ ٧]: « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتي شجرةً فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربُّك، أخطأ من شدة الفرح ».
٤ – عن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إن الله تعالى يُبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » أخرجه مسلم [٢٧٥٩].
٥ – وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » أخرجه مسلم [٢٧٠٣].

المضاربة مع اللَّه

السؤال: هناك عبارة يقولها البعض، وهي: أن هذا الإنسان يضارب مع اللَّه، فما معنى أن يكون الإنسان مضارباً مع اللَّه ؟

الجواب: التكسب للرزق، والإنفاق منه في سبيل اللَّه بالزكاة، والهبات والصدقات، ورعاية الأهل وصلة الرحم، هذا التكسب، وهذا الإنفاق يجعل الإنسان المؤمن عن طريقه مضارباً مع اللَّه. ما معنى أن يضارب الإنسان المؤمن مع اللَّه ؟ إن معنى ذلك أن الإنسان المؤمن يتحرك بعمله وطاقاته التي وهبها له اللَّه في المجال، والكون الذي سخره اللَّه للإنسان، ويستخرج من كنوز الأرض ما يجعله يكتسب المال، وبعد ذلك يخرج من هذا المال زكاة بنسبة اثنين ونصف في المائة، هذه الزكاة لا تخرج من يد العبد إلا لعبد آخر لا يقوى على الحركة من أجل الرزق، هنا يكون التكافل الاجتماعي بأتم صوره، ومعنى ذلك أن اللَّه يبارك للعبد في رزقه؛ فيمنح اللَّه العبد المزيد من التكسب والقدرة على الإنفاق[1].

---

(١) قال ابن كثير قوله: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥] يحث تعالى عباده على الإنفاق في سبيل اللَّه. وقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع. وقوله: ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ روي عن عمر وغيره من السلف: هو النفقة في سبيل اللَّه. وقيل: هو النفقة على العيال.

وقوله: ﴿ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ كما قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٦١]. الآية.

وروى الإمام أحمد عن أبي عثمان النَّهدي، قال: « أتيت أبا هريرة فقلت له: إنه بلغني أنك تقول: إن الحسنة تُضاعف ألف ألف حسنة ؟ قال: وما أعجبك من ذلك ! قال سمعته من النبي ﷺ يقول: « إن اللَّه يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة». هذا حديث غريب، وعليّ بن زيد بن جُدْعان: عنده مناكير.

لكن رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر[1] وفي معنى هذا الحديث ما رواه الترمذي وغيره =

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر رواه أحمد في المسند: [٧٩٣٢]، والطبري [٩٥١٠]، ورواه أحمد أيضاً، =

....

۞ ۞ ۞

= من طريق عمرو بن دينار، عن سالم، عن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب، عن أبيه، أن رسول اللّه ﷺ قال: «من دخل سوقاً من الأسواق فقال: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب اللّه له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، وبني له بيتاً في الجنة»[1].

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ ﴾ [البقرة: ٢٤٥] أي: أنفقوا ولا تبالوا، فاللّه هو الرزاق، يضيق على ما يشاء في الرزق، ويوسعه على آخرين، له الحكمة البالغة في ذلك ﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥] أي: يوم القيامة.

[عمدة التفسير: ٢/١٤٨-١٤٩].

= بأطول من هذا قليلًا [١٠٧٧٠]. وعليّ بن زيد بن جدعان: ثقة، كما بينا في المسند مراراً. ولم ينفرد به، كما بين الحافظ ابن كثير هنا، من رواية ابن أبي حاتم بإسناد صحيح.

(١) رواه ابن ماجه [٢٢٣٥] وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه [١٨١٧].

اللَّه هو المعطي المانع

السؤال: ما رأي فضيلتكم فيما يجري على الناس في الكون، من غني وفقر وسعادة وشقاء وصحة وعافية ؟

الجواب: اللَّه سبحانه وتعالى القادر على أن يعطي من شاء مما شاء، وأن ينزع ما يشاء ممن شاء في أي وقت يشاء، وهذه من طلاقة القدرة، فالإنسان إذا أعطى الإنسان ما لًا مثلًا؛ فإنه قد لا يستطيع أن يسترده منه، وإذا أولاه ولاية مثلًا قد لا يستطيع أن ينزعها منه، ذلك أن الوالي يمكنه أن يجرد جيشه أو يسلحه، ويعلن استقلاله عمن ولاه الحكم، كذلك في كثير من أمور الدنيا فإذا أطعمت إنساناً طعاماً مثلًا؛ فإنك لا تستطيع أن تسترده، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى يستطيع أن يأخذ من كل إنسان أياً من نعمه التي استخلفه فيها، فإذا كان اللَّه سبحانه وتعالى قد أعطى إنساناً الصحة، فهو قادر على أن يزيلها عنه متى شاء، وإذا كان اللَّه قد أعطى إنساناً ما لًا أو جاهاً، فهو يستطيع أن يسلبه إياه تماماً، ذلك هو اللَّه المعطي المانع، ولذلك لا يجب أن نتعجب من إنسان ضاع ملكه في أيام، أو فقد ماله في ساعات، أو ابتلي بمرض بين يوم وليلة ولا يستطيع أن يجد له شفاء[1].

---

(١) أخرج مسلم [٤٧٧/ ٢٠٥] عن أبي سعيد الخُدري؛ قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: « ربنا لك الحمد، مِلْءَ السموات والأرض، ومِلْءَ ما شئت من شيء بعد. أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد: اللَّهُمَّ لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ».
وقال الإمام النووي: قوله: « أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » أما قوله: «أهل» فمنصوب على النداء، هذا هو المشهور، وجوَّز بعضهم رفعه على تقدير أنت أهل الثناء، والمختار النصب، «والثناء»: الوصف الجميل والمدح، «والمجد»: العظمة ونهاية الشرف. المشهور في الرواية في مسلم وغيره.
قال القاضي عياض: ووقع في رواية ابن ماهان « أهل الثناء والحمد ». وله وجه، ولكن الصحيح المشهور الأول.

=

....

= وقوله: « أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ». هكذا هو في مسلم وغيره « أحق » بالألف « وكلنا » بالواو، وأما ما وقع في كتب الفقه: حق ما قال العبد كلنا، بحذف الألف والواو فغير معروف من حيث الرواية وإن كان كلاماً صحيحاً، وعلى الرواية المعروفة تقديره؛ أحق قول العبد لا مانع لم أعطيت ولا معطي لما منعت... إلى آخره، واعترض بينهما « وكلنا لك عبد »، ومثل هذا الاعتراض في القرآن قول الله تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨ ﴾ [الروم] اعترض قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ومثله قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ [آل عمران: ٣٦] على قراءة من قرأ وضعت بفتح العين وإسكان التاء، ونظائره كثيرة. ومنه قول الشاعر:

ألم يأتيك والأنباء تنمى ... بما لاقت لبون بني زياد

وقول الآخر:

ألا هل أتاها والحوادث جمة ... بأن أمرأ القيس بن يملك يبقر

ونظائره كثيرة، وإنما يعترض ما يعترض من هذا الباب للاهتمام به، وارتباطه بالكلام السابق وتقديره هنا: أحق قول العبد لا مانع لما أعطيت وكلنا لك عبد، فينبغي لنا أن نقوله.

وفي هذا الكلام دليل ظاهر على فضيلة هذا اللفظ، فقد أخبر النبي ﷺ - الذي لا ينطق عن الهوى - أن هذا حق ما قاله العبد، فينبغي أن نحافظ عليه؛ لأن كلنا عبد، ولا نهمله. وإنما كان؛ أحق ما قاله العبد؛ لما فيه من التفويض إلى الله تعالى والإذعان له والاعتراف بوحدانيته، والتصريح بأنه لا حول ولا قوة إلا به، وأن الخير والشر منه، والحث على الزهادة في الدنيا والإقبال على الأعمال الصالحة.

وقوله: « ذا الجد » المشهور فيه فتح الجيم، هكذا ضبطه العلماء المتقدمون والمتأخرون، قال ابن عبد البر: ومنهم من رواه بالكسر، وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: هو بالفتح، قال: وقاله الشيباني بالكسر، قال: وهذا خلاف ما عرفه أهل النقل، قال: ولا يعلم من قال غيره، وضعف الطبري ومن بعده الكسر قالوا: ومعناه على ضعفه الاجتهاد، أي لا ينفع ذا الاجتهاد منك اجتهاده، إنما ينفعه وينجيه رحمتك.

وقيل: المراد: ذا الجد والسعي التام في الحرص على الدنيا. قيل: معناه: الإسراع في الهرب أي لا ينفع ذا الإسراع في الهرب منك هربه، فإنه في قبضتك وسلطانك، والصحيح المشهور: الجد بالفتح، وهو الحظ والغني والعظمة والسلطان، أي لا ينفع ذا الحظ في الدنيا بالمال والولد والعظمة والسلطان منك حظه، أي لا ينجيه حظه منك، وإنما ينفعه وينجيه العمل الصالح كقوله تعالى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ﴾ [الكهف: ٤٦] والله تعالى أعلم.

شرح النووي على مسلم [٢/ ٤٣٣-٤٣٤] بتصرف.

حقيقة التوكل على اللّٰه

السؤال: إن اللّٰه أمرنا في القرآن الكريم بأن نتوكل عليه. فما حقيقة التوكل على اللّٰه؟

الجواب: الأصل في الحياة أن يخضع الأدنى للأعلى، ولو كان هذا هو الكون؛ لتكرر خضوع بعضنا لبعض، ولكن اللّٰه سبحانه وتعالى حررنا من هذه العبودية بأن جعلنا لا نخضع لسواه، ولو تأملنا التاريخ الغابر لوجدنا العقل البشري قد خضع، وعبد الشمس، وعبد الريح، وعبد الحيوانات المفترسة، وعبد الأحجار والأصنام، أشياء كان يخشاها، وأخرى كان يعتقد أنها تحميه من الأذى وتنصره على أعدائه، وأخرى صور له عقله أنها تقربه من اللّٰه سبحانه وتعالى، وفي الحاضر نجد أنه استهواه العلم ووجد فيه إلٰهه القادر على تحقيق رغباته وطموحاتها.

إذن.. العقل في كل خضوعياته يخرج من عبودية إلى عبودية، فهو مرة يعبد إلهاً؛ فيجد أنه لا ينصره، فيتجه إلى إله آخر؛ فلا يجد له حولاً ولا قوة، فيمضي إلى إله ثالث ورابع، ويظل حائراً ينتقل من عبودية إلى أخرى، يصور له جهله أشياء، ويصور له خوفه أشياء، فخضع الإنسان للإنسان، وخضع للحيوان، وخضع للجماد، وفي كل خضوعه كان يعطي ولا يأخذ، يعطي القرابين، ويعطي الذهب، والفضة للمعابد، ولا يأخذ شيئاً.

ولو أحسن الإنسان استخدام عقله لأطاع اللّٰه تعالى في قوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فالعبودية للّٰه، والتوكل عليه تحرير للإنسان من كل هذه العبوديات.

فأنت تجد حاكماً تخضع له، ثم يذهب هذا الحاكم، وتجد نفسك بلا نصير، ولكن اللّٰه سبحانه وتعالى لأنه الباقي يزيل عنك هذه العبودية، أنت تخضع لرجل ذي مال، ثم يأتي ويفلس، وتجد نفسك لا شيء؛ ولكن اللّٰه سبحانه وتعالى وهو الغني يزيل عنك هذه العبودية، أنت تخضع لإنسان تظن أنه يملك شيئاً، ولكنه يتخلى عنك، وبدلاً من أن يعطيك ما تريد، يعطيك الخوف والفقر،

أنت تعبد ما لَا اقتنيته أو ذهباً أخذته، أو قوة جعلتك تتفوق على غيرك، أو سلاحاً تملكه ولا يملكه آخر، هذه بعض عبادات الدنيا، ثم يذهب هذا المال، أو تضيع هذه القوة، أو يأتي إنسان بسلاح جديد يهزمك، ولكن اللّه سبحانه وتعالى يريد أن ينجيك من كل هذا، وهو يريد أن يرشدك إلى ما فيه صلاح حياتك وآخرتك فيقول سبحانه: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨]، الذي إذا طلبته وجدته؛ فهو القوي وقوته أزلية، وهو القادر وقدرته لا تزول، وهو الحكم العدل وحكمه لا ينتهي وهو العزيز الذي لا يغلب، كلمته هي النافذة في كل وقت وفي كل عصر وفي كل زمان، ولا يستطيع أن يصل إلى ملكه أحد، هو الباقي والكل إلى فناء، وهو القوي والكل ضعيف، وهو القادر والكل مقدور عليه، وهو الذي يستطيع أن يبدل العسر يسراً والظلام نوراً والضيق فرجاً [١].

❁ ❁ ❁

---

(١) روى ابن أبي الدنيا عن أبي قدامة الرملي قال: قرأ رجل هذه الآية: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٨] فأقبل على سليمان الخواص، فقال: يا أبا قدامة ما ينبغي لعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله في أمره، ثم قال: انظر كيف قال الله تبارك وتعالى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ فأعلمك أنه لا يموتُ وأن جميع خلقه يموتون، ثم أمرك بعبادته، فقال: وسبح بحمده، ثم أخبرك بأنه خبير بصير، ثم قال: والله يا أبا قدامة لو عامل عبد الله بحسن التوكل، وصدق النية له بطاعته، لاحتاجت إليه الأمراء فمن دونهم، فكيف يكون هذا محتاجاً، وموئله وملجأه إلى الغني الحميد.

عزة المؤمن في توكله على اللَّه تعالى

السؤال: كيف يكون التوكل على اللَّه ؟

الجواب: لو حَكَّمت عقلك دقيقة واحدة؛ لوجدت أن كل ما دون اللَّه هو سراب وأوهام، وشيء ضائع وزائل، ولكن الباقي هو اللَّه، فإذا كان اللَّه سبحانه وتعالى يطالبك أن تتوكل عليه، أي إذا قصدت حاجة؛ فقل: اللَّهُمَّ أعنِّي. وإذا أردت عملًا فارفع يدك إلى السماء وقل: اللَّهُمَّ يَسِّرَ لي. وإذا كان هناك ما يؤرقك فقل: اللَّهُمَّ أذهب عني هذا. وإذا كنت تواجه شيئاً عسيراً فاطلب العون من اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨].

نحن في الصباح نصبح وصدورنا ممتلئة بالعزة، ورؤوسنا مرفوعة للسماء، لماذا ؟ لأننا نتوكل على اللَّه سبحانه وتعالى، وكل ما في الكون خاضع للَّه، فلا قوي يستطيع أن يدعي قوة فوق قوة اللَّه، ولا عزيز في الدنيا يجرؤ أن يقول إلا أنه ذليل للَّه العزيز سبحانه وتعالى؛ لذلك فإن الإنسان الذي لا يعتمد على الحي الذي لا يموت يعيش في ذل الدنيا، وفي عبودية هذا الذل؛ فهو يصبح خائفاً أن يفقد عمله، أو يفقد ماله، وهو حين يتكلم أو يتصرف، خائف أن يغضب رئيسه عليه أو يغضب صاحب العمل، وهو في خوف دائم مِن كل مَن هو أعلى منه، وهذا الخوف يدفعه إلى حياة بائسة بغيضة، ولكن ذلك المعتز باللَّه سبحانه وتعالى لا يهمه إلا أن يُرضي اللَّه وحده، والذلُّ لله عزٌّ، والذل لغير اللَّه بؤس وشقاء وهوان، ذلك أن اللَّه سبحانه وتعالى يريد لي الخير، ولا يريد لي الشر، فهو يعطيني، وهو يرحمني، وهو لا ينظر إلى ما في يدي، وفوق ذلك كله هو سبحانه الذي خلقني وأنه سبحانه وتعالى يمنحني من نِعَمِه ما لا يُعد ولا يُحصى. ولكن الإنسان يريد أن يأخذ ولا يعطي، وأن يسلب الحق، وأن يفعل كل ما تكرهه النفس [١].

---

(١) قال ابن القيم: ترك الاختيار والتدبير في رجاء زيادة أو خوف نقصان، أو طلب صحة أو فرار من سقم، وعلم أن الله على كل شيء قدير (بدائع الفوائد: ١١٣).

وقال: والتوكل تارة يكون توكل اضطرار وإلجاء، بحيث لا يجد العبد ملجأ ولاوزراً إلا =

....

= التوكل. كما إذا ضاقت عليه الأسباب، وضاقت عليه نفسه، وظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وهذا لا يتخلف عنه الفرج والتيسير ألبتة.
وتارة يكون توكل اختيار، وذلك التوكل مع وجود السبب المفضي إلى المراد، فإن كان السبب مأموراً به ذم على تركه، وإن قام بالسبب وترك التوكل ذم على تركه أيضاً، فإنه واجب باتفاق الأمة ونص القرآن، والواجب القيام بهما والجمع بينهما، وإن كان السبب محرماً حرم عليه مباشرته وتوحد السبب في حقه في التوكل فلم يبق سبب سواه، فإن التوكل من أقوى الأسباب على الإطلاق، وإن كان السبب مباحاً نظرت، هل يضعف قيامك به التوكل أو لا يضعفه؟ فإن أضعفه وفرق عليك قلبك وشتت همك فتركه أولى، وإن لم يضعفه فمباشرته أولى.
وسر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله: توكلت على الله مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء وتوكل القلب شيء، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء، فقول العبد توكلت على الله، مع اعتماد قلبه على غيره مثل قوله: تبت إلى الله وهو مصر على معصيته مرتكب لها.

[بدائع الفوائد ٨٦].

وقد ورد في الحديث والأثر عن التوكل ما يلي:

١ - عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً، وتروح بطاناً»[١].

٢ - عن معاوية بن قرة أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لقي ناساً من أهل اليمن فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون، قال: بل أنتم المتكلون، إنما المتوكل الذي يلقي حَبه في الأرض، ويتوكل على الله[٢].

٣ - عن سعيد بن المسيب رضي الله تعالى عنه قال: التقى عبد الله بن سلام وسلمان فقال أحدهما لصاحبه: إن مت قبلي فالقني فأخبرني ما لقيت من ربك، وإن مت قبلك لقيتك فأخبرتك، فقال أحدهما للآخر: أو تلقى الأموات الأحياء؟ قال: نعم، أرواحهم تذهب في الجنة حيث شاءت، قال: فمات فلان فلقيه في المنام، فقال: توكل وأبشر فلم أر مثل التوكل قط، توكل وأبشر فلم أر مثل التوكل قط[٣]. =

---

(١) رواه ابن ماجه [٤١٦٤]، وصححه الألباني صحيح ابن ماجه [٣٣٥٩].
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التوكل رقم [١١].
(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان [١٣٥٥].

....

= ٤ - عن ابن إسحاق قال: قلت للفضيل تَحُدُّ لي التوكل؟ قال: آه، كيف تتوكل عليه وأنت يختار لك فتسخط قضاءه، أرأيت لو دخلت بيتك فوجدت امرأتك قد عميت، وابنتك قد أقعدت، وأنت قد أصابك الفالج كيف كان رضاك بقضائه؟ قلت: كنت أخاف ألَّا أصبر، قال: فكيف لا، حتى يكون عندك واحداً ترضي بكل ما صنع في العافية والبلاء لا تسخط على ما زوى عنك وتثق بما آتاك، قال ثم ذكر رجلًا قد سماه، قال: إني لأكره أن أقول في سجودي: اللهم عليك توكلت[١].

٥ - عن عون بن عبد الله قال: بينا رجل في بستان بمصر في فتنة ابن الزبير مكتئباً، معه شيء ينكت به في الأرض، إذ رفع رأسه فسنح له صاحب مسحاة فقال له:

يا هذا مالي أراك مكتئباً حزيناً قال: فكأنه ازدراه، فقال: لا شيء؟ فقال صاحب المسحاة: أللدنيا، فإن الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر، والآخرة أجل صادق يحكم فيها ملك قادر، يفصل بين الحق والباطل، حتى ذكر أن لها مفاصل كمفاصل اللحم من أخطأ شيئاً أخطأ الحق، فلما سمع ذلك منه كأنه أعجبه قال: فقال: لما فيه المسلمون، قال: فإن الله سينجيك بشفقتك على المسلمين، وسل فمن ذا الذي سأل الله فلم يعطه، ودعاه فلم يجبه، وتوكل عليه فلم يكفه، أو وثق به فلم ينجه، قال: فعلقت الدعاء: اللهم سلمني، وسلم مني فتجلت، ولم تصب منه أحداً[٢].

٦ - عن عباد بن منصور قال: سئل الحسن عن التوكل فقال: الرضي عن الله[٣].

٧ - عن صالح بن شعيب قال: أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم عليه السلام: أنزلني من نفسك كهمك، واجعلني ذخراً لك في معادك، وتقرب إليّ بالنوافل أدنك، وتوكل علي أكفك، ولا تول غيري فأخذلك[٤].

٨ - عن محمد بن يحيى بن حاتم قال: سألت عبد الله بن داود عن التوكل، فقال: أرى التوكل حسن الظن[٥].

٩ - عن عوف قال: كان طلق بن حبيب يقول: أسألك خوف العالمين بك، وعلم الخائفين لك، وتوكل المؤمنين بك، ويقين المتوكلين عليك، وإنابة المخبتين إليك وإخبات المنيبين إليك، وصبر الشاكرين لك، وشكر الصابرين لك، وإلحاقاً بالأحياء المرزوقين عندك[٦]. =

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التوكل رقم [١٦].

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية [٤/ ٢٤٣].

(٣) رواه البيهقي في الشعب [١٢٧٥].

(٤) رواه البيهقي في الشعب [١٣٠٧].

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في التوكل رقم [٣١].

(٦) رواه أبو نعيم في الحلية [٣/ ٦٣].

....

۞ ۞ ۞

= ١٠ - عن حصين قال: كنا جلوساً مع سعيد بن جبير ذات غداة فقال لنا: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ قال: قلت: أنا، ثم استدركت نفسي فقلت: إن سهري لم يكن في صلاة، ولكن لدغتني العقرب فسهرت. فقال سعيد بن جبير: كيف صنعت؟ قلت: صنعت أن استرقيت، قال: ما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي. قال: وما حدثكم؟ قال: قلت: حدثنا الشعبي عن بريدة بن حصيب الأسلمي أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حُمَةٍ، فقال سعيد بن جبير: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ثم قال سعيد بن جبير حدثنا ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «عرضت عليَّ الأمم، فرأيت النبي يمر ومعه الرهط، والنبي يمر ومعه الثلاثة والاثنان، والنبي يمر ومعه الرجل الواحد، والنبي يمر وليس معه أحد، إلى أن رفع لي سواد عظيم فقلت: هذه أمتي. قيل ليس بأمتك، هذا موسى وقومه، إلى أن رفع لي سواد عظيم قد سد الأفق، فقيل هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب» قال: ثم دخل النبي ﷺ فخضنا في أولئك السبعين، وجعلنا نقول من الذين يدخلون الجنة بغير حساب؟ هم الذين صحبوا النبي ﷺ، أم هم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً؟ إلى أن خرج النبي ﷺ فقال: «ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه؟»، قال: فأخبروه. فقال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ قال: «أنت منهم»، فقال رجل آخر من المهاجرين فقال: أنا منهم يا رسول الله قال: «سبقك بها عكاشة»[١].

(١) أخرجه مسلم [٢٢٠/٣٧٤]، وابن ماجه [٣٥١٣].

اللّٰه يحفظ من يتوكل عليه

السؤال : تقول فضيلتكم : إن اللّٰه يحفظ العبد إذا التجأ إليه، ولكنه يترك العبد إذا اعتمد العبد على نفسه وقوته، فهل من مثل على ذلك ؟

الجواب: لعل في قصة الغار الذي التجأ إليه الرسول ﷺ [مثلًا عندما هاجر إلى المدينة، هو وأبو بكر الصديق رضي اللّٰه تعالى عنه، وجاء الكفار، ووقفوا عند مدخل الغار وملأ الخوف قلب أبي بكر من أن يقع الرسول ﷺ [في أيدي الكفار، وقال: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، وكان أبو بكر بذلك يقرر واقعاً، فالكفار واقفون عند باب الغار، والنبي ﷺ [وأبو بكر في داخله، ونظرة واحدة من الكفار إلى داخل الغار تكشف الأمر كله، فماذا قال رسول اللّٰه ﷺ [؟ قال: « ما ظنّك باثنين اللّٰه ثالثهما ؟ »، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[﴾ [التوبة : ٤٠].

إذن . . فالرسول رفع الأمر إلى اللّٰه تعالى، وقال لصاحبه: نحن في معية اللّٰه تعالى، وما دمنا في معية اللّٰه فلن يصلوا إلينا. أما قول أبي بكر: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، هو قول يعتمد على الذاتية البشرية.

إذن . . لو سلم الإنسان أمره إلى اللّٰه تعالى، وتوكل عليه، وسار على نهجه الذي أنزله في كتابه، وبينه رسوله ﷺ، لحفظه اللّٰه تعالى، وأتم عليه نعمته، ولعاش في دنياه سعيداً قرير النفس مرتاح البال، وفي آخرته أمنه اللّٰه من الفزع الأكبر وأدخله برحمته مع النبيين والصديقين والشهداء في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

❁ ❁ ❁

عطاء الربوبية . . وعطاء الألوهية

السؤال: كثيراً ما نسمع كلمة عطاء الربوبية، وكلمة عطاء الألوهية ، فما الفرق بينهما؟

الجواب: عطاء الربوبية يشمل المؤمن والكافر، أما عطاء الألوهية فهو للمؤمن وحده.

عطاء يشمل كل خلق اللَّه تعالى ومنه تسخير كل ما في الأرض والكون لخدمة الإنسان، فذلك التسخير لم يدعه أحد، ولا يستطيع أحد أن يدعيه، فلا يمكن لإنسان أن يقول: إنه خلق الشمس، أو القمر، أو الأرض وما عليها أو أوجد السموات وما فيها، إلى غير ذلك من آيات الكون، كل هذه الآيات هي عطاء ربوبية، تشمل المؤمن والكافر. ولا يستطيع أن ينكرها أو يزعم أنه خالقها؛ ذلك أن هذه الآيات العظيمة فوق قدرات البشر وعلمهم، ولذلك بقيت، وستبقى آيات شاهدة على عظمة الخالق سبحانه وتعالى لا يستطيع أحد أن يكابر فيها، آيات تذكرنا كل صباح ومساء، بل في كل لحظة بأن اللَّه سبحانه وتعالى هو الخالق، وهذا خلقه، إذا أشرقت الشمس، فهذا عطاء ربوبية، يعطيه اللَّه لكل خلقه يستوجب حمداً من خلق اللَّه كلهم، وإذا أمطرت السماء فهذا عطاء ربوبية، يعطيه اللَّه سبحانه وتعالى لكل خلقه، وهو يستوجب الحمد، وإذا تعاقب الليل والنهار، فهذا عطاء ربوبية من اللَّه يستوجب الحمد؛ ولذلك يقول الخلاق العظيم في أم الكتاب ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ٢]، ولم يقرن اللَّه سبحانه وتعالى هذه الآية بعطاء ألوهية، لأن هناك من يؤمن بألوهية اللَّه سبحانه وتعالى، ومن يحاول أن ينكرها، ولكن عطاء الربوبية لا يستطيع أحد أن ينكره؛ لماذا ؟ لأنه ظاهر أمام الدنيا كلها، ليس غيباً، ولأنه لا أحد يستطيع أن يدعي الفضل فيه.

❁ ❁ ❁

ربح الدنيا، وربح الآخرة

السؤال: من غفلة الإنسان عن الآخرة: أنه يبحث عن الربح العاجل في الدنيا، وينسى الربح الخالد في الآخرة، نريد من فضيلتكم توضيحاً لذلك.

الجواب: إننا في أمور الدنيا نحاول أن نعمل من أجل ما نعتقد أنه نفع قادم، فكل منا يرسل أولاده في مرحلة طويلة من الدراسة وطلب العلم الدنيوي، ويظل يسهر عليهم ويضنيهم في المذاكرة؛ ليحصلوا على درجة علمية يعتقد أنها ستنفعهم في المستقبل، وربما قيد حركته وحركتهم أيضاً من أجل ذلك.

ويأتي نفس الإنسان ومع يقينه أن حياته ستنتهي، وأنه حتماً ولا بد مغادر إلى الحياة الآخرة، نجده غافلًا عن أن يعمل لآخرته ما عمله لدنياه، وأن يطبق نفس المنطق الذي يطبقه على حياته الدنيوية، مع أن هناك فارقاً كبيراً بين مستقبل سيحققه لسنوات معدودة، وبين نعيم مقيم سيخلد فيه حيث لا موت فيها، ولكنها الغفلة التي تصيب القلب البشري وتجعله ينظر إلى ما هو عاجل، وإلى ما تقدمه له الدنيا وينسى ما هو قادم وهو لقاء اللَّه في الآخرة، وتلك الغفلة التي تصيب القلوب سببها البعد عن منهج اللَّه، ولو أن كلًا منا تمسك بمنهج اللَّه لربح الدنيا والآخرة[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرج ابن حبان [٧٠٨٢] عن أبي عثمان النهدي أن صهيباً حين أراد الهجرة إلى المدينة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً، فكثر مالك عندنا، وبلغت ما بلغت، ثم تريد أن تخرج بنفسك ومالك، واللَّه لا يكون ذلك. فقال لهم: أرأيتم إن أعطيتكم مالي أتخلون سبيلي؟ فقالوا: نعم، فقال: أشهدكم أني قد جعلت مالي لهم، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب».

كيف يرزق اللَّه من يشاء بغير حساب ؟

السؤال : بعض الناس يقولون إذا كان اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة: ٢١٢] فلماذا العمل والتعب ؟ ولماذا السعي وراء الرزق؟ ما رأي فضيلتكم في هذا ؟

الجواب: قبل الإجابة على هذا السؤال لا بد من إيضاحين:

الإيضاح الأول : أنه إذا كان اللَّه تعالى بطلاقة قدرته يعطي بلا حساب، فإن ذلك لا يمكن أن يكون هو قانون الحياة الدنيا؛ لأن قانون العطاء بغير عمل هو قانون الآخرة، وليس قانون الدنيا، ففي الآخرة يأتيك الشيء بمجرد أن يجول بخاطرك، أو تفكر فيه، لا عمل في الآخرة، ولا سعي، وإنما عطاء من اللَّه بلا حدود، ولا قيود، أما في الدنيا فهناك قانون الأسباب.

الإيضاح الثاني: أن لكل إنسان رزقاً يعلمه، ورزقاً لا يعلمه، وأنه إذا كان الكافر يحدد الرزق بالمال وحده، فإن المؤمن يحدد الرزق بعطاءات كثيرة من اللَّه سبحانه وتعالى، فحب الناس لك رزق، والبركة في بيتك رزق، وفي صحة أولادك وهدايتهم رزق، والزوجة الصالحة رزق، إلى آخر ما تنطبق عليه كلمة الرزق، واللَّه تعالى في الآية الكريمة: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، يلفتنا إلى قضية مهمة جداً هي:

إن الذين يطعنون في هذا الدين يعبدون الأسباب ويتخذونها آلهة، فكل رزق عندهم مساو للعمل الذي يتم من أجله، فإذا عملت ليل نهار زاد رزقك، وإذا عملت بضع ساعات قل رزقك، وهكذا، تلك هي القاعدة التي يتبعونها، أي: الرزق على قدر العمل.

نقول لهم: إن هذا قد يكون صحيحاً كقاعدة عامة، ولكن اللَّه تعالى وهو سبحانه الرزاق العليم يرزق من يشاء بغير حساب وبدون أسباب، وعلينا أن نتأمل آخر الآية الكريمة؛ إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾، ولم يقل سبحانه: أرزق كل الناس بغير حساب.

إذن.. اللَّه سبحانه جعل لكلِّ رزق معلماً على قدر ما يسر اللَّه له من عمل وجهد، وتبقى مشيئته سبحانه في أن يعطي من شاء ما شاء، دون سبب أو واسطة.

إذا نظرنا مثلًا إلى دول البترول، تلك التي تملك المال وهو: القوة الحقيقية في العالم كله الآن، إذا نظرنا إليهم نجد أنهم أغنى الناس في العالم مادياً، بل هم قد فاقوا في متوسط دخل الفرد نظيره في الدول التي فاقتهم في العمل والعلم، حتى إن هذه الدول أصبحت تتجه إليهم؛ ليدعموا اقتصادها، كأمريكا وأوربا الغربية.

لو أن القاعدة على إطلاقها، أن الأسباب هي التي توجِد الرزق، لما كانت دول البترول تستطيع أن تكون أكبر قوة اقتصادية في العالم، وفي زمن قياسي، لا يستطيع العمل والعلم خلاله أن يعطيا بهذه الوفرة، وبهذا السخاء، وهنا يجب أن يصمت دعاة الفكر الغربي، الذي يأخذ بالأسباب، ولا يعترف بغيرها، ويزعم أذنابه أن قول اللَّه تعالى في الآية الكريمة: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، لا يتوافق وتطورات العصر، ومقاييس العلم والزمن.

ولقد ضربنا هذا المثل - مثل دول البترول - من واقع حياة الناس والمجتمعات المعاصرة، ولم نأت بمثل من التاريخ، حتى لا يقول أحد: إنها حكاية مكتوبة، أو أسطورة من الأساطير.

وكذلك لم نأت بنبوءة مستقبلية، حتى لا يقول أحد: إن هذا غيب لن يحدث. وعلى هؤلاء الرافضين لقول اللَّه تعالى أن يتأملوا في الكون، سيجدون للَّه سبحانه في كل مكان عطاءً ورزقاً بغير حساب، هذا الرزق يلقي بالأسباب بعيداً، وسيلحظ المتأمل إن كان صادقاً في تأمله أن اللَّه تعالى يعطي ما شاء لمن يشاء دون أسباب.

❁ ❁ ❁

المعنى الحقيقي للرزق

السؤال: هل الرزق له معنى غير الذي نفهمه، وهو أن يحصل الإنسان على الشيء الذي ينتفع به مباشرة ؟

الجواب: إن اللَّه سبحانه يطلب منا أن نسعى لطلب الرزق. وهناك من يفهم معنى الرزق بشكل قاصر.

فقد يظن إنسان أن الرزق هو الشيء المباشر للانتفاع، وهذا خطأ. لأن الإنسان مأمور من اللَّه أن يبحث عن الرزق المطمور وأن يتعاون مع أخيه الإنسان في العمل، فهناك من يزرع وهناك من يتاجر وهناك من يدير.

إن الرزق ليس بالضرورة أن يكون الشيء المباشر للانتفاع، مثال ذلك، الرجل يخرج أول الشهر ويشتري ما يحتاج إليه البيت من مواد تموينية، ولكن الزوجة هي التي تقوم كل يوم بإعداد الطعام، فشراء الزوج للمواد التموينية يعني أن الرزق بدرجة ما مطمور في المنزل، ينتظر عمل الزوجة.

أيضاً: البذور عند الفلاح هي رزق مطمور، يبذرها في الأرض، ثم يتعهد البذرة بالرعاية والعناية.

وهكذا يتفاعل عمل الفلاح مع الأرض والبذور، رعاية وحرثاً منتظماً، ثم انتظاراً لنتيجة العمل.

وعلينا أن نعرف أن الرزق نوعان: رزق يحتاج إلى قوة للحصول عليه: كالرزق الموجود في البذور التي تحتاج إلى الزراعة لتنتج، والرزق الموجود في المواد الخام المطمورة في الأرض تحتاج لعمل الإنسان حتى يستخرجها ويقوم بتصنيعها أو صقلها، مثل البترول والمواد الخام والمعادن.

والنوع الثاني: من الرزق: رزق الفعل، وهو الإنتاج الجاهز من الاستعمال. كالخبز الذي كان قمحاً، وكان بذوراً في الأرض ثم أصبح سنابل، ثم تم حصاده، وتنقيته وطحنه وعجنه وخبزه.

وهكذا نرى أن الرزق بالفعل هو الإنتاج الذي تفاعل فيه عمل الإنسان فيما أعطاه اللَّه له من مواد وصار هذا الإنتاج صالحاً للاستهلاك على الفور.

كفالة الله تعالى للرزق

السؤال: بعض أعداء الإسلام يقولون: إن الإسلام دين يحض على التخلف؛ بسبب الإيمان بطلاقة القدرة، ويرددون قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة:٢١٢]، على أساس أنه دعوة صريحة لعدم العمل، فإذا كان الله يرزق من يشاء بغير حساب، فلماذا العمل والتعب ؟ ولماذا السعي وراء الرزق، مع ما يجره العمل على النفس من مشقة ؟

الجواب: قبل أن أجيب على هذا السؤال لا بد من إيضاحين:

الإيضاح الأول: أن الرزق بلا أسباب هو قانون الآخرة، وليس قانون الدنيا، ففي الآخرة يأتيك الشيء بمجرد أن يجول في خاطرك، أو تفكر فيه، فلا عمل في الآخرة، ولا سعي، وإنما عطاء من الله بلا حدود، ولا قيود، أما في الدنيا فقد جعل الله لكل شيءٍ سبباً.

والإيضاح الثاني: أن لكل إنسان رزقاً يعلمه، ورزقاً قد لا يعلمه، وأنه إذا كان الكافر يحدد الرزق بالمال وحده، فإن المؤمن يحدد الرزق بعطاءات كثيرة من الله سبحانه وتعالى، فحب الناس لك رزق، والبركة في بيتك رزق، وفي صحتك رزق، إلى آخر ما تنطبق عليه كلمة الرزق.

نعود مرة أخرى إلى الآية الكريمة: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، لنطرح قضية مهمة معاصرة.. الذين يطعنون في هذا الدين يعبدون الأسباب ويتخذونها إلهاً، فكل رزق عندهم مساوٍ للعمل الذي يتم من أجله، فإذا عملت ليل نهار زاد رزقك، وإذا عملت بضع ساعات قل رزقك، وهكذا، تلك هي القاعدة التي يتبعونها، كل رزق مساوٍ للعمل.

نقول لهم: إن هذا قد يكون صحيحاً كقاعدة عامة، ولكن الله يرزق من يشاء بغير حساب، ولنلاحظ في نهاية الآية الكريمة قول الله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢١٢] ولم يقل سبحانه وتعالى: أرزق كل الناس بغير حساب.

ولكن لكل إنسان رزق معلوم على قدر ما أتاحه الله تعالى له من عمل

وجهد، وتبقى المشيئة، أو طلاقة القدرة، فيعطي سبحانه بغير حساب، وبغير أسباب، وإذا نظرنا إلى دول البترول مثلًا، تلك التي تملك القوة الحقيقية في المال أو في الرزق في العالم كله، إذا نظرنا إليهم نجد أنهم أغنى الناس في العالم، رزقاً أو ما لًا، بل هم قد فاقوا في الرزق تلك الأمم التي فاقتهم في العمل والعلم، فأصبحت تتجه إليهم ليدعموها في الرزق، كأمريكا وأوروبا الغربية، وهم أكثر عملًا وعلماً، تتجه إلى دول البترول لتقترض منها الملايين لتدعيم اقتصادها، وتحاول أن تجذب أموال دول البترول إلى بلادها، بل إن دول البترول تستطيع أن تفلس أكبر دول العالم كأمريكا وألمانيا الغربية واليابان، إذا هي أوقفت تعاملها معها، فالذي يملك القوة الاقتصادية في العالم، هي دول البترول التي لا تتحكم في رزقها فقط، ولكن في اقتصاد العالم كله، بشهادة غير المؤمنين والماديين في هذا العالم.

وإذا كانت دول البترول قد وصلت إلى المركز الذي يتحكم في اقتصاد العالم أجمع، فلا بد أنها قدمت حسب النظرية المادية السببية من العلم والعمل ما قدمته دول العالم أجمع، وهذا غير صحيح، بل إن بعض هذه الدول تعمل على استخراج البترول فيها، شركات غربية من الدول التي تحتاج إلى أموال دول البترول لدعم اقتصادها، والعمل الذي تم بواسطة خبراء وآلات ومعدات تكنولوجية، استوردت من دول أخرى، فكيف يحدث هذا إذا لم يكن اللّٰه سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب، ولقد شاء سبحانه أن يتم ذلك في أمة مسلمة؛ ليكون ذلك برهاناً صادقاً على كلام اللّٰه تعالى للماديين الذين يؤمنون بالأسباب.

ولو أن القاعدة على إطلاقها؛ أي: أن الأسباب هي التي ترزق؛ لما كان ذلك يمكن أن يحدث، ولما كانت دول البترول تستطيع أن تكون أكبر قوة اقتصادية في العالم، وفي زمن قياسي، لا يستطيع العمل والعلم خلاله أن يعطينا بهذه الوفرة، وبهذا السخاء، ذلك أنه لكي تتطور دولة أو عدة دول، لتصبح أغنى دول العالم، فإن ذلك يتطلب بجانب ذلك العمل والعلم فترة زمنية طويلة، ولكن هنا لا الزمن، ولا العلم، ولا العمل يتناسب مع الرزق، إذن من الذي أوجد هذا الرزق؟ ومن الذي أعطاه؟ هو اللّٰه سبحانه وتعالى، وصدق اللّٰه العظيم إذ يقول: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة: ٢١٢] وهنا يجب أن يتوقف أذناب الحكم المادي، الذي يأخذ الأسباب، ولا يعترف بغيرها، والذين يشككون في الآية الكريمة: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾. ويزعمون أنها لا تتماشى مع تطورات العصر

ومقاييس العلم والزمن، نقول لهم: اخسأوا ولا تتجاوزوا قدركم وانتهوا من ضلالكم وعودوا إلى رشدكم، فقد أتينا لكم بِمَثَل من العصر الذي نعيش فيه، ولم نأت لكم بمثل من التاريخ، حتى لا يقول قائل: حكاية مكتوبة أو أسطورة من الأساطير.

وكذلك لم نأت بنبوءة مستقبلية، حتى لا يزعم زاعم أن هذا غيب لن يحدث، ولو أن عندهم شيء من البصيرة لتأملوا في كون اللَّه عندئذ سيجدون للَّه في كل مكان رزقاً بغير حساب، هذا الرزق يلقي بالأسباب بعيداً، حتى يعلم الإنسان أن اللَّه تعالى يفعل ما يشاء عندما يشاء، كيفما يشاء، وأنه إذا كانت الأسباب موجودة، فإن خالقها وموجدها هو اللَّه رب العالمين ولا تعمل إلا وفق مشيئته سبحانه.



سعة الرزق وضيقه اختبار من اللَّه تعالى

السؤال: يظن بعض الناس أن الذين وسع اللَّه عليهم في الرزق راض عنهم، وأن الذين ضيق عليهم في رزقهم غاضب عليهم، فهل لسعة الرزق وضيقه صلة برضا اللَّه وغضبه ؟

الجواب: إن الحق سبحانه يُكذِّب الإنسان الذي يظن النعمة تكريماً، ونسي أنها اختبار.

والحق سبحانه يُكذِّب الإنسان الذي يظن أن التقتير في الرزق إهانة وليس اختباراً.

أي أن قبض النعمة ليس إهانة، ومنح النعمة ليس تكريماً.

إنما منح النعمة أو منعها هو اختبار للإنسان؛ حتى يحسن العمل ويستقبل كل ما يجريه اللَّه عليه على أنه نعمة.

نعمة سلب، أو نعمة إيجاب.

ولنا في صور الحياة ما يؤكد صدق هذه القضية:

يأتي إنسان ليسافر مثلًا، فيتأخر خمس دقائق، وقد يحزن هذا الإنسان لأنه على ميعاد هام، وقد يظن أن ما فاته هو الخير الكثير.

ويلحق الإنسان بعربة ثانية أو طائرة ثانية، فيرى العربة الأولى قد وقع لها حادث تصادم، أو أن الطائرة الأولى حدثت لها كارثة جوية.

هنا يلتفت الإنسان إلى نعمة سلب اللَّه له لمكانه في السيارة الأولى، أو الطائرة الأولى، إن العمل السَّيئ لا يأتي من اللَّه أبداً، إنما يأتي من نفس الإنسان.

لكن عندما ننظر إلى كل شيء على أنه من نعم اللَّه؛ هنا يتضاءل كل طمع صغير.

ومهما كبرت ومهما كبر الناس حولك؛ فما دمت تذكر اللَّه؛ فأنت تجد اللَّه معك.

وعلى المؤمن أن يحمد اللَّه تعالى على كل حال إن أعطاه شكر وإن سلبه صبر وفي كل خير[١].

---

(١) قال الشيخ عبد المنعم حسين «أبو ذر القلموني»: قد ورد أن من أسباب زيادة الرزق ستة أشياء:

١ - **الصلاة**: لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه: ١٣٢].

٢ - **التقوى**: لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

٣ - **التوكل**: لقول الرسول ﷺ: « لو أنكم توكلون على اللَّه تعالى حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا » [رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم، وقال الترمذي: حسن صحيح].

٤ - **الاستغفار**: لقول اللَّه تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [نوح].

٥ - **التحرك**: لقول اللَّه تعالى: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾.

٦ - **صلة الرحم**: أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس من مالك رضي اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: « من أحب أن يبسط له رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه »، وللبخاري عن أبي هريرة: « من سره أن يبسط له رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه »، ورواه الترمذي بلفظ: « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منساة في الأثر»، ومعنى: « مثراة في المال» كما قال العلماء أي زيادة. ومعنى: « منساة في الأثر » النسأ: أي زيادة في عمره أي يؤخر له في أثره وهو الذكر الحسن، فيكتسب صاحبه حسنات وهو في القبر بالدعاء الصالح له أو الاقتداء به في صالح عمله.

وأخرج البزار بإسناد لا بأس به والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: « مكتوب في التوراة من أحب أن يزاد في عمره ويزاد في رزقه فليصل رحمه » وأخرج الطبراني بإسناد حسن والحاكم عن ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إن اللَّه ليعمر بالقوم الديار ويثمر لهم الأموال وما نظر إليهم منذ خلقهم بغضاً لهم، قيل: وكيف ذلك يا رسول اللَّه ؟ قال: « بصلتهم الأرحام ».

٧ - **الحسنة بصفة عامة**: كتلاوة القرآن الكريم بتدبر، والذكر الذي يتواطأ فيه القلب مع اللسان والدعاء، ومذاكرة العلم النافع وقيام الليل وهو وإن كان يندرج تحت الصلاة إلا أنه يجب التنبيه عليه لأهميته وقس على ذلك باقي أعمال البر التي تشرح الصدر كالصدقة وغيرها ودليل كل ذلك واللَّه أعلم - ما قاله ابن عباس رضي اللَّه تعالى =

.... يقصد

❁ ❁ ❁

= عنهما-: « إن للحسنة ضياء في الوجه، ونوراً في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمة في القبر والقلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلق ».

فائدة: قيل لأحد الصالحين: إن الأسعار قد ارتفعت، قال: أنزلوها بالتقوى. . يقصد رحمه اللّه قول اللّه تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

الطيبات من الرزق [ص: ٦٨-٧٠].

قلة الرزق وزيادته رحمة بالمؤمن

السؤال: أحياناً يضُيق اللّه تعالى الرزق على عبده، وأحياناً يزيد؛ والمؤمن في حالة قلة الرزق وزيادته، مطالب بالرضا، فما تعليل ذلك ؟

الجواب: هناك إنسان الرزق الكثير يفسده ويدفعه إلى طريق المعصية، والهلاك والجريمة، فإذا ضيق اللّه سبحانه وتعالى عليه في الرزق، كان ذلك رحمة به، لا ضرراً له.

وهناك إنسانٌ قلة الرزق تجعله يتجه إلى الجريمة، والمعصية، والهلاك فإذا فتح اللّه له الرزق، كان ذلك منجاة له من النار.

كلا الشخصين يريد الرزق، وكلا الشخصين مؤمن، ولكن اللّه سبحانه وتعالى، وهو يحب عباده المؤمنين، يعطي أحدهم ويمنع عن الآخر، وفي العطاء رحمة، وفي المنع رحمة، والمؤمن في الحالين عليه أن يرضي بقضاء اللّه وقدره(١).

---

(١) إشارة إلى ما رواه ابن أبي الدنيا في أول كتاب الأولياء من حديث أنس رضي اللّه تعالى عنه عن النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام عن ربه تعالى وتقدس قال: «من أهان لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة، وما ترددتُ في شيء أنا فاعِلُه ما ترددتُ في قبض نفس المؤمنِ، لأنه يكرهُ الموت، وأنا أكرهُ مساءَتَهُ، ولا بُدَّ له منُه، وإن من عبادي المؤمنين من يريدُ باباً مِنَ العلم فاكفُّه عنه، لا يدخله عجبٌ فيفسد لذلك، وما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُه عليه، وما يزالُ عبدي يتنفل لي حتى أُحبَّهُ، فإذا أحببتُه كُنْتُ لَهُ سَمْعاً، وبَصَراً، ويَداً، ومؤيِّداً. دعاني فأجبتُه وسألني فأعطيتُه، ونصح لي فنصحتُ لَهُ، وإنَّ مِنْ عِبَادِي المؤمنين من لا يُصْلحُ إيمانهُ إلا الغني، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يُصْلِحُ إيمانه إلا الفقر، ولو بسطت له لأفسده ذلك، وإن من عبادي المؤمنين من لا يُصْلِحُ له إيمانه إلا الصحة ولو أسقمته لأفسده ذلك. وإن من عبادي المؤمنين من لا يُصْلِحُ إيمانُه إلا السَقم، ولو أصححتُه لأفسده ذلك، إني أدَبر أمر عبادي بعلمي، إني عليم خبير».
وذكره الحافظ في الفتح [١١/ ٣٤٢ - السلفية] وضعفه، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني [٤/ ١٨٨-١٨٩].

والإنسان المؤمن يمضي في الحياة، وفي قلبه هذا الشعور بالرضا، وهو يعلم يقيناً أن اللّٰه يحب عباده المؤمنين، وهو يعلم يقيناً أن اللّٰه ينصر الذين آمنوا، وهو يعلم أن اللّٰه ولي الذين آمنوا في الحياة الدنيا، وفي الآخرة، ولذلك فإذا اتجه إلى السماء، وطلب شيئاً، فإن أجيب طلبه فهو خير، وإن منع فهو خير. لماذا؟ لأن اللّٰه سبحانه وتعالى يريد له الخير، وهو يعلم ما لا نعلم.



حب المال

السؤال: جُبِل الإنسان على حب المال، ولا يعلم ما يكمن فيه من ضرر، فماذا وضع الإسلام من قواعد لمنع ضرر المال عن الإنسان؟

الجواب: إن المال في الدنيا قد يضر وينفع، أي أنه ليس نافعاً لصاحبه على إطلاقه، ولا ضاراً على إطلاقه، فإذا استخدمت المال مثلًا، في الإفراط في فاخر الطعام، أصابت جسمك الأمراض والعلل، التي قد تمنعك من تناول لقمة واحدة.

وإذا أردت أن تسرف في الشراب مثلًا أو في الملذات الحسية، قد ينهدم جسدك، وتضيع قوتك، وتضعف صحتك، وتصبح عليلًا، وهكذا أصابك المال بالضرر وليس بالمنفعة.

وقد تنفق هذا المال على إنسان فيطمع فيك، وتحسن إليه، فيرى الخير عندك؛ فيقرر أن يقتلك ليحصل على مالك كله، وفي هذا يكون المال ضرراً وليس نفعاً.

وقد يجلب عليك المال العداوات، والحقد، والكراهية، من غيرك من البشر.

وهكذا نرى أن المال في الدنيا قد يضر وقد ينفع، أي أنه ليس كله نفعاً، فيجب أن يكون الإنسان فطناً ذكياً، والذكي هو الذي لا ينفق ماله إلا في مرضاة اللّه تعالى ابتغاء للأجر منه سبحانه.

والمؤمن بطبعه كيس فطن، ليس كمن يتظاهرون بالفطنة وحسن معالجة الأمور، يقدمون ما يضرهم على ما ينفعهم، إن المؤمن ينفق ماله فيما ينفعه ولا يضره.

۞ ۞ ۞

الغني الذي لا يرعى حق اللَّه

السؤال: ما الرأي في رجل أنعم الله عليه بالرزق الوفير، ومع ذلك لا يرعى حق الله ؟

الجواب: إننا نجد أحياناً ثريًا لا يرعى حق اللَّه؛ فننظر إلى حياته ونظن أنها حياة سعيدة، ورغم أنه متخم بالمال فإنه لا يرعى حق الله في صحته، انشغل بالمال والثراء عن حق جسده في الراحة، وأرهق جسده في ترف الحياة حتى اعتراه أكثر من مرض، فيبحث عن الخبز الأسود ليأكله ويحرم عليه الأطباء اللحم، ويحيا أسير تعليمات الأطباء، لماذا ؟ لأنه لم يرع حق الله في جسده، فلم يُعِنْ عاجزاً، وأكل حتى التخمة، ولم يتأسَّ برسول الله ﷺ، في مأكله ومشربه. ولم يخرج زكاة ماله، ولم ينشر خير الله الذي أنعم به عليه على من حوله؛ ففقد توازن الحياة؛ لذلك عندما ينظر إليه أحد وهو غني وأسير المرض في نفس الوقت يقول المؤمن: إنها إرادة الله أن أعطاه ومنعه[1].

۞ ۞ ۞

(١) روى ابن ماجه [٣٣٤٩] عن المِقدام بن معدي كَرِب رضي الله تعالى عنه، أنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ، قال: «مَا مِنْ وِعَاءٍ مَلأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَراً مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ ابْنِ آدَمَ أُكَلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ». وصححه الألباني في صحيحه ابن ماجه [٢٧٠٤].

الكسب غير المشروع، وندم صاحبه في الدنيا

السؤال هل تعتقد فضيلتكم أن الدنيا - وإن لم تكن دار حساب - يعاقب اللَّه فيها السارق والمرتشي والفاسق ؟

الجواب: الإنسان حين يحاول أن يخدع الناس، وحين يحاول أن يظهر بمظهر الذكي الذي يستغل ذكاءه في الإثراء بطريق غير شريف، أو في الحصول على ما ليس من حقه، وينظر إليه الناس على أنه إنسان يعرف من أين تؤكل الكتف، أو كما يقولون: «إنسان فهلوي يلعب بالبيضة والحجر».

الحقيقة أن هذا الإنسان لا يخدع إلا نفسه؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى يراقبه، واللَّه تعالى يدافع عن كل ضعيف وينتصر لكل مظلوم، وهب أن إنساناً خدع شخصاً أو بعضاً من الناس؛ فإن لا يمكن أن يخدع كل الناس، فضلًا عن أن يخدع اللَّه سبحانه وتعالى؛ ولذلك فإن هذا الإنسان الذي يزين له الشيطان خطواته في اللحظة التي يحس فيها أنه سيجني الثمرة يجد أن اللَّه سبحانه وتعالى لم يعطه إلا ما قسم له، ويتلفت حوله، فيجد أنه أذل نفسه، وأضاع حياته، وعصى اللَّه وخسر الدنيا والآخرة، وتأمل معي في كل عصر، وفي كل يوم أسماء أولئك الذين نسوا اللَّه وانطلقوا مع الشيطان ينهبون ويسرقون، ويهدرون كل قيمة، ثم جاءت لحظة الحساب، ساعتئذ يتمنى كل من عصى اللَّه لو تسوى بهم الأرض، ويتمنى في هذه اللحظة أن يأخذ اللَّه ملايينه ويستره، يصبح فقيراً معدماً، لا يملك قوت يومه، وينجيه اللَّه مما هو فيه.

وكم من أناس حسبوا أنهم ملكوا الدنيا، فتمادوا في استغلال الناس واستعبادهم، ثم دارت الأيام، وانتهت دولة الظالمين وسطوتهم، فإذا الذين عبدوهم وأطاعوهم من دون اللَّه، هم أول من أطاحوا بهم، وتخلصوا منهم، وفي أحداث التاريخ عبرة لمن أراد أن يعتبر.

۞ ۞ ۞

كل المال زائل إلا ما أُنفق في سبيل اللَّه تعالى

السؤال: الحرص على المال يجعل بعض الناس يمسكه ولا ينفق منه شيئاً في وجوه البر؛ ظناً منه أنه بذلك أبقى المال لورثته ولم ينقص منه شيئاً، فأيهما أبقى للإنسان: المال الذي يأخذه الورثة أم المال الذي يتصدق به على الفقراء ؟

الجواب: العمل الطيب ومنه الصدقة هو الذي يبقى للإنسان، ولنا في رسول اللَّه أسوة حسنة، فقد أهديت له ﷺ شاة من بعض المسلمين فطلب من عائشة أن تتصدق بها على فقراء المسلمين، وكانت عائشة رضي اللَّه تعالى عنها تعلم أن رسول اللَّه ﷺ يحب لحم الكتف؛ فأبقت قطعة من لحم الكتف ولم تتصدق بها، فسألها الرسول ﷺ: ماذا صنعت بالشاة ؟ قالت: تصدقت بها وبقيت كتفها، فقال رسول اللَّه ﷺ: بل كلها بقيت إلا كتفها »[(١)].

السيدة عائشة أرادت أن تقول لرسول اللَّه ﷺ: إن كتف الشاة هي التي بقيت ولم تتصدق بها، ولكن رسول اللَّه ﷺ صحح لها المنطق، وقال لها: لقد بقيت الشاة، أي ما تصدقنا به هو الباقي، ولكن كتف الشاة التي أبقيتها لنأكلها هو الجزء الذي ضاع؛ لأننا سنأكله ويفنى، كل الشاة بقيت لنا إلى يوم القيامة جزاءً على الصدقة؛ لأن ما نتصدق به للآخرة هو الباقي وأن ما سنأكله سينتهي.

ولذلك يقول رسول اللَّه ﷺ: « يقول الإنسان: مالي، مالي، وهل لك من مالك إلا ما لبست فأبليت، وأكلت فأفنيت، وتصدقت فأبقيت »[(٢)] إذن.. ما هو الباقي من المال للإنسان ؟ الصدقة وحدها.

ولا يتعارض هذا مع إبقاء الإنسان شيئاً لورثته.

---

(١) رواه الترمذي [٢٤٧٠] من حديث عائشة رضي اللَّه تعالى عنها ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٢٠٠٩].

(٢) رواه الترمذي [٢٣٤٢] عن مطرف عن أبيه، وهو عند مسلم [٢٩٥٩/٤] عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه قال: يقول العبد: مالي ، مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما دون ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس».

من أدب التعامل مع اللَّه

السؤال: هل من الجائز أن يقول الإنسان، سأفعل كذا دون أن يقول، إن شاء اللَّه ؟

الجواب: إن الإنسان حينما يُقبل على أي فعل، يجب ألا يقول، « سأفعل كذا»؛ لسبب بسيط للغاية، هو أن الإنسان لا يملك قدرة السيطرة على أي عنصر من عناصر أي حدث؛ لأن العناصر كلها بيد الحق سبحانه.

لا سيطرة لنا على أن نفعل؛ لأن اللَّه يملك كل حياتنا.

لا سيطرة لنا على الزمن؛ لأن اللَّه تعالى خلق الزمن طيعاً لديه.

لا سيطرة لنا على أن نوجه أي حدث إلا بعد أن يأذن لنا خالق كل شيء ومليكه صاحب الأمر كله.

لا سيطرة لنا على سبب أي حدث من الأحداث إلا إذا شاء الحق.

نحن لا يمكننا أن نفعل، أو أن نتلقى أي فعل، أو نحدد زمان أي سلوك أو مكان أي حدث، أو سبب حدوث أي حدث، ولا قدرة لنا على الفعل لا يمكننا أي شيء من ذلك كله إلا أن يشاء اللَّه.

وهكذا نعرف أن كل العناصر ليست مملوكة للإنسان، إنما هي مملوكة للخالق الرحمن، لذلك يعلمنا اللَّه سبحانه أن نتأدب ونعرف حدود طاقاتنا وإمكاناتنا، وما دمنا لا نملك السيطرة على أي عنصر من عناصر الحدث إلا بمشيئة اللَّه، فإياك أن تقول: ﴿ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ [الكهف: ٢٣]، ولكن اللَّه تعالى يعلمنا أن نقول: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف].

إن اللَّه سبحانه يعلمنا أنه سبحانه وتعالى مالك كل عناصر الأحداث، وأننا لا نملك إلا طلب التيسير بالتوفيق من اللَّه تعالى فيما ننوي أن نفعل[١].

---

(١) قال العلامة ابن كثير: هذا إرشاد من اللَّه تعالى لرسول اللَّه ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم =

إننا إذا قدمنا مشيئة اللَّه، فنحن نعصم أنفسنا من الكذب، ونكون قد طلبنا من اللَّه تعالى الهداية في أن نفعل ما نقدم عليه بإتقان وإيمان.

= على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة اللَّه عز وجل علام الغيوب الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: « قال سليمان بن داود عليهما السلام لأطوفن الليلة على سبعين امرأة - وفي رواية تسعين امرأة وفي رواية مائة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل اللَّه فقيل له - وفي رواية قال له الملك - قل إن شاء اللَّه فلم يقل فطاف بهن فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان، فقال رسول اللَّه ﷺ: « والذي نفسي بيده لو قال إن شاء اللَّه لم يحنث وكان دركاً لحاجته » وفي رواية: « ولقاتلوا في سبيل اللَّه فرساناً أجمعين ».

وقوله: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف: ٢٣] قيل: معناه إذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك له، قاله أبو العالية والحسن البصري، وقال هشيم، عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس في الرجل يحلف قال له: أن تستثني ولو إلى سنة وكان يقول: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ في ذلك قيل للأعمش: سمعت عن مجاهد فقال: حدثني به ليث بن أبي سليم يرى ذهب كسائي هذا، ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية عن الأعمش به.

ومعنى قول ابن عباس أنه يستثني ولو بعد سنة أي إذا نسي أن يقول في حلفه وفي كلامه، إن شاء اللَّه. وذكر ولو بعد سنة فالسُّنة له أن يقول ذلك ليكون آتياً بسنة الاستثناء حتى ولو كان بعد الحنث.

قال ابن جرير رحمه اللَّه: ونص على ذلك لا أن يكون رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة وهذا الذي قاله ابن جرير رحمه اللَّه هو الصحيح وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه واللَّه أعلم.

وقال عكرمة: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ إذا غضبت.

وقال الطبراني حدثنا محمد بن الحارث الجيلي، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد ابن مسلم، عن عبد العزيز بن حسين، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، في قوله: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ، إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ أن تقول إن شاء اللَّه.

وروى الطبراني أيضاً عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ الاستثناء فاستثن إذا ذكرت، وقال: هي خاصة برسول اللَّه ﷺ وليس لأحد منا أن يستثني إلا في صلة من يمينه، ثم قال: انفرد به الوليد عن عبد العزيز بن الحصين، ويحتمل في الآية وجه آخر وهو أن يكون اللَّه تعالى قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر اللَّه تعالى لأن النسيان منشأه من الشيطان كما قال فتى موسى: ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾ =

وإن لم نستطع لظروف خارجة عن إرادتنا، فإننا نقول: إن الحدث الذي كنا ننوي القيام به حالت بيننا وبينه أمور منعتنا من إتمامه، وقدر الله وما شاء فعل.

= [الكهف: ٦٣]، وذكر الله تعالى يطرد الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذكر الله سبب للذكر ولهذا قال: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ وقوله: ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ أي إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك، وقيل في تفسيره غير ذلك والله أعلم.

تفسير ابن كثير [٣/ ٧٧، ٧٨].

مشيئة اللَّه تعالى

السؤال: قال اللَّه سبحانه وتعالى، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فما معنى مشيئته سبحانه ؟

الجواب: إن من معاني قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[1] أي أن كل شيء في هذا الكون خاضع لمشيئة اللَّه سبحانه وتعالى، وقد شاء اللَّه أن يعطيكم الاختيار الحر في عدد من المسائل، أي: ترك لكم أن تفعلوا فيها ما تريدون، ولو شاء اللَّه سبحانه وتعالى أن يقهركم على عبادته ما أعطاكم هذا الاختيار، فهناك خلق من خلق اللَّه نراه أمامنا ليس له اختيار، فكل ما خلقه اللَّه في هذه الأرض، من جماد، ونبات، وحيوانات، كل ذلك مقهور يؤدي مهمته في الكون بلا اختيار، والملائكة الذين لا نراهم هم أيضاً لا اختيار لهم، واللَّه سبحانه وتعالى قد خلق كل هذه المخلوقات وشاء أن تكون مقهورة على ما تفعل؛ ولذلك سقط عنها الحساب.

---

(١) قال القرطبي في تأويل قول اللَّه تعالى، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ أي: الطاعة والاستقامة واتخاذ السبيل إلى اللَّه.
﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فأخبر أن الأمر إليه سبحانه ليس إليهم، وأنه لا تنفذ مشيئة أحدٍ ولا تتقدم، إلا أن تتقدم مشيئته.
وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «وما يشاءون» بالياء على معنى الخبر عنهم. والباقون بالتاء على معنى المخاطبة للَّه سبحانه.
وقيل: إن الآية الأولى منسوخة بالثانية.
والأشبه أنه ليس بنسخ، بل هو تبيين أن ذلك لا يكون إلا بمشيئته، قال الفراء: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ جواب لقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩] ثم أخبرهم أن الأمر ليس إليهم فقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ ذلك السبيلَ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ لكم.
تفسير القرطبي [١٩/ ١٥٢].

وخلق سبحانه الجن والإنس، وشاء أن يكون لهم اختيار في بعض أمورهم؛ ولذلك جاء هذا الاختيار طبقاً لمشيئة اللّه سبحانه وتعالى، ولو لم يكن الأمر كذلك، فأروني إنساناً يستطيع أن يكون له اختيار، فيما لم يشأ اللّه سبحانه وتعالى أن يعطيه الاختيار فيه، أروني إنساناً قادراً على أن يتنفس، أو لا يتنفس طبقاً لاختياره، أروني إنساناً يستطيع أن يأمر معدته أن تتوقف عن هضم الطعام عندما يشاء، أو أن تقوم بهضم الطعام إذا أصيبت بمرض منعها عن أداء وظيفتها، أروني إنساناً يستطيع أن يتحكم في لونه، أو في أمه، ومن تكون، أو في أبيه ومن هو، أو في أي بلد يولد، وفي أي مكان يموت أو أن يعطي الأمر بالحركة لقدميه أو يديه إذا أصابهما الشلل.

كل هذه الأمثلة التي ضربناها هي من داخل الجسد البشري، ومع ذلك لا تخضع لاختيار البشر، حتى ولو أرادوا ذلك، لماذا؟ لأن اللّه سبحانه وتعالى قد شاء ألا تخضع، كما شاء للإنسان أن تكون له إرادة حرة في منطقة معينة من حياته في افعل ولا تفعل. وكذلك مشيئة اللّه في الكون هل استطاع إنسان أن يمنع الشمس من الظهور أو يمنع الليل من المجيء، أو يوقف الأرض عن دورانها؟ كل هذا شاء اللّه سبحانه وتعالى ألا يكون للبشر فيه مشيئة.

إذن.. فقول اللّه سبحانه، ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠]، لا يتعارض أبداً مع المشيئة الحرة للبشر، ذلك أن اللّه شاء في أشياء ألا تخضع لاختيار البشر، وخرجت فعلاً عن هذا الاختيار، وشاء في أشياء أخرى أن تبقى داخل الاختيار البشري؛ فكانت مشيئة اللّه نافذة، وكان الاختيار الحر للبشر في عدد من أمور حياتهم.

إذن.. فهذا الاختيار الحر يخضع لمشيئة اللّه؛ لأن اللّه شاء أن يكون للبشر اختيار في هذه المنطقة، ولو شاء اللّه غير ذلك لما استطاع بشر أن يكون له اختيار. وبذلك تكون حرية الإنسان في إطار المشيئة الإلهية؛ لأن اللّه شاء له أن يأخذ هذه الحرية ليحاسبه عليها.

ثم بعد ذلك، نأتي إلى النقطة التالية، وهي أن اللّه سبحانه وتعالى علم أن هذه المشيئة ستفسد البشر، وتبعدهم عن منهج اللّه تعالى؛ فالإغراءات كثيرة والإنسان خلق ضعيفاً، وهنا كان ولا بد أن يتدارك اللّه تعالى الناس برحمته، ويرسل رسله لتنقذ البشرية من غياهب الجاهلية وتبدد ظلمات الكفر، وتعيد الإنسان الذي ضل الطريق إلى صراط اللّه المستقيم.

❁ ❁ ❁

لقاء اللّه . . ولقاء الناس

السؤال: ما الفرق بين لقاء اللّه تعالى ولقاء أي مخلوق في الدنيا ؟

الجواب: إن الفرق بين لقاء اللّه ولقاء أي مخلوق في الدنيا، هو أن اللقاء باللّه متروك لك، تختار متى تلقاه، أما عظماء الدنيا فالإنسان قد يطلب اللقاء، وبعد ذلك ينتظر هل يوافق الذين حوله ؟ أم قد يقيمون سدودا في وجه هذا اللقاء؟ وحتى إذا وافقت الحاشية على اللقاء، فهم بالطبع سيسألون طالب المقابلة عن المراد منها، وما الموضوعات التي سيدور فيها الحوار ؟ وإن راق لهم الأمر، فإنهم هم الذين يحددون مكان اللقاء ومدته.

ثم بعد كل هذه العقبات وعندما تذهب إلى لقاء من طلبت لقاءه، فقد يقف متعالياً مترفعاً عليك لأن قولك لا يعجبه فينهي المقابلة.

إذن . . الفرق بين عظيم الدنيا من البشر، وعظيم العظماء خالق كل شيء ومليكه، أن الإنسان هو الذي يحدد الزمان والمكان، بل إن تحديد الوقت طوله أو قصره متروك لك أنت، ولا يمل اللّه حتى يمل الإنسان.

وهكذا تتأكد عزة المؤمن في أنه يلقى اللّه ربه وخالقه متى أراد.

وحين يخرجنا اللّه من عبودية بعضنا البعض، إلى تخصيص ذاته العلوية بالوحدانية والعبودية، ففي ذلك رحمة بنا؛ لأن كل هؤلاء البشر خلقٌ خَلَقَه اللّه سبحانه وهو جل شأنه الواحد الأحد.

❀ ❀ ❀

الشفاء بإذن اللّه تعالى

السؤال: ما معنى قول اللّه تعالى في كتابه الكريم، ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠].

الجواب: إن بعض الناس يُعجزه تفكيره عن فهم تفسير الآية الكريمة: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾، وبعضهم لا يذهب إلى الطبيب تطبيقاً لهذه الآية، والبعض الآخر يذهب إيماناً منه بأن الشفاء يحدث على يد الطبيب، ولكن الذي يجب أن يُعلم أن لكل شفاء أجلًا، فإذا جاء الأجل وحان الموعد كشف اللّه للطبيب المرض فيتحدد الداء ويتقرر الدواء فيتم الشفاء بإذن اللّه تعالى[1].

---

(١) قال العلامة فخر الدين الرازي، قوله: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ فيه سؤال، وهو أنه لما قال ﴿ مَرِضْتُ ﴾ دون أمرضني؟ وجوابه من وجوه:

الأول: أن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك. ومن ثم قالت الحكماء: لو قيل لأكثر الموتى ما سبب آجالكم؟ لقالوا: التخم.

الثاني: أن المرض إنما يحدث باستيلاء بعض الأخلاط على بعض، وذلك الاستيلاء إنما يحصل بسبب ما بينهما من التنافر الطبيعي. أما الصحة فهي إنما تحصل عند بقاء الأخلاط على اعتدالها، وبقاؤها على اعتدالها، إنما يكون بسبب قاهر يقهرها على الاجتماع، وعودها إلى الصحة إنما يكون أيضاً بسبب قاهر يقهرها على العود إلى الاجتماع والاعتدال بعد أن كانت بطباعها مشتاقة إلى التفرق والنزاع، فلهذا السبب أضاف الشفاء إليه سبحانه وتعالى، وما أضاف المرض إليه.

وثالثها: وهو أن الشفاء محبوب وهو من أصول النعم، والمرض مكروه وليس من النعم، وكان مقصود إبراهيم عليه السلام تعديد النعم، ولما لم يكن المرض من النعم لا جرم لم يضفه إليه تعالى، فإن نقضته بالإماتة.

فجوابه: أن الموت ليس بضرر، لأن شرط كونه ضرراً وقوع الإحساس به، وحال حصول الموت لا يقع الإحساس به، إنما الضرر في مقدماته، وذلك هو عين المرض، وأيضاً فلأنك قد عرفت أن الأرواح إذا كملت في العلوم والأخلاق كان بقاؤها في هذه الأجساد عين الضرر وخلاصتها عنها عين السعادة بخلاف المرض.

التفسير الكبير [٢٤/ ١٤٥]. =

وقد يحدث أننا نذهب إلى أشهر الأطباء وأكثرهم علماً وخبرة فلا يتم على يده الشفاء، ثم نذهب إلى طبيب صغير أو مبتدئ فيعرف الداء ويكتب الدواء، ونحن حين يحدث هذا نتعجب؛ ذلك لأن الذي حدث يخالف الأسباب في الأرض، فالمفروض أن الطبيب الأكثر علماً وخبرةً هو الذي يكشف الداء بحكم علمه وخبرته، والطبيب المبتدئ لا يمكن أن يكتشف ما عمي على أستاذه، تلك هي أسباب الأرض، ولكن ما يحدث عادةً وما نشاهده جميعاً ونعرفه هو عكس ذلك، والحقيقة أن علم الطبيب المبتدئ لا يمكن أن يزيد عن علم أستاذه، ولا خبرته، ولكن الذي حدث أن وقت الشفاء قد جاء فيسر اللّه للطبيب موطن الداء.

إذن.. الشافي على الحقيقة هو اللّه تعالى.

❁ ❁ ❁

= وقال القرطبي: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ قال: ﴿ مَرِضْتُ ﴾ رعاية للأدب وإلا فالمرض والشفاء من اللّه عز وجل جميعاً. ونظيره قول فتى موسى: ﴿ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ﴾. [الكهف: ٦٣].

تفسير القرطبي [١٣/ ١١٠].

شروط إجابة الدعاء

السؤال: هناك من يقول، إنني دعوت اللَّه فلم يستجب لي، مع أنه سبحانه قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. ما تعليق فضيلتكم؟

الجواب: حين يلجأ الإنسان المؤمن إلى اللَّه تعالى بعد أن يستنفد كل الأسباب التي منحها سبحانه له ويتجرد من حوله وقوته إلى حول اللَّه تعالى وقوته هنا يستجيب اللَّه سبحانه وتعالى، فقد اقتضت حكمته سبحانه أن يكون دعاء العبد المؤمن مقبولًا، لأنه دعاء مضطر لذلك يجب علينا أن نقف عند الآية القرآنية الكريمة التي يفهمها بعض الناس فهماً قاصراً عن معناها، يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

البعض منا قد يتساءل، لقد دعوت اللَّه فلم يستجب لي، لماذا ؟ وقد يشرد ذهن بعض هؤلاء الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم؛ فيظنون أن اللَّه تعالى قد أخلف وعده، لهؤلاء نقول: أنتم دعوتم اللَّه دون استخدام ما وهبكم سبحانه من إمكانات؛ لذلك كانت دعواتكم من غير اضطرار، لأن اللَّه يستجيب الدعاء ممن استنفد كل أسباب الدنيا، فتوجه إلى اللَّه تعالى بقلبه وعقله، ومطعمه حلال ومشربه حلال كما أن الدعاء المرجو قبوله لا يضر بصالح قوم آخرين، ثم إن الاستجابة قد تكون فورية في الدنيا وقد تؤجل للآخرة لمصلحة العبد المؤمن فعندما يضعف مثل هذا المؤمن في أي موقف، فإن اللَّه سبحانه يعين هذا الإنسان على تحقيق ما يرجوه.

وهذه المسألة تعلمنا أن الحق سبحانه وتعالى له جند لا يعلمهم إلا هو، يمد بهم المضطر المؤمن الذي استنفد كل الأسباب.

إن خالق الكون لا يتخلى أبداً عن عبد مؤمن استنفد كل الأسباب المشروعة ؛ لتحقيق هدف في إطار المنهج الإسلامي؛ لذلك، يطمئن اللَّه عباده المؤمنين، بأن الواحد منهم لا يواجه المتاعب التي فوق قدرته بمفرده، ولكن العبد المؤمن يواجه

الحياة كلها مستنداً إلى قوة من آمن به وأخلص في عبادته له، فما دام العبد قد اختص اللَّه بالعبادة أركاناً وبنياناً، فالمؤكد أن اللَّه يغيث، وينجد العبد الطائع الداعي الذي استنفد قدرته على مواجهة مشاكله [١].

❁ ❁ ❁

---

(١) اعلم أخا الإسلام أن الدعاء بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحده، فمتى كان السلاح تاماً لا آفة به، والساعد ساعداً قوياً، والمانع مفقوداً، حصل المطلوب، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير.

فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثم مانع من الإجابة لم يحصل الأثر، وحتى يكون الدعاء أرجي للقبول يجب على الداعي توقي الآفات التي تمنع ترتيب أثر الدعاء عليه؛ كأن يستعجل العبد ويستبطئ الإجابة، فيستحسر ويدع الدعاء، وهو بمنزلة من بذر بذراً أو غرس غرساً فجعل يتعاهده ويسقيه، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله.

أخرج البخاري [٦٣٤٠] ، ومسلم [٢٧٣٥/ ٩٠، ٩١] ، أبو داود [٣٣٨٧]، وابن ماجه [٣٨٥٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت فلم يستجب لي ».

وفي صحيح مسلم [٢٧٣٥/ ٩٢] عنه رضي اللَّه تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: « لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل ».

قيل يا رسول اللَّه: وما الاستعجال ؟

قال: « يقول قد دعوت، وقد دعوت فلم أر يستجاب لي، فيستحسر عن ذلك ويدع الدعاء ».

وإذا جمع مع الدعاء حضور القلب وجمعه بكليته على المطلوب وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة وهي:

الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وإدبار الصلوات المكتوبات، وعند قعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضي الصلاة من ذلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر.

فإذا تخير العبد هذه الأوقات وأزال عنه الآفات وخشع قلبه، وتطهر واستقبل القبلة ورفع يديه ودعا اللَّه، وبدأ بالحمد والثناء عليه سبحانه وصلى على رسول اللَّه ﷺ فإن دعاءه لا يكاد يرد أبداً، لا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة أو أنها متضمنة للاسم الأعظم .

العمل المقبول والعمل المردود

السؤال: هناك رجلان يعملان عملًا واحداً، لماذا يقبل اللّه عمل أحدهما، ولا يقبل عمل الآخر ؟

الجواب: اللّه سبحانه وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك؛ ولذلك إذا كان العمل خالصاً لوجهه، وإرضاء له سبحانه وتعالى فإنه يتقبله، أما إذا كان لإرضاء البشر فإنه غني عنه ولا يتقبله، حتى ولو كان فيه جزء لإرضاء البشر أو لجاه في الدنيا، فإنه لا يتقبله؛ لأن اللّه غني عن العالمين، والحديث الشريف: « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى »[1]، هو أكبر توضيح لذلك، فالنية محلها القلب، واللّه مطلع على القلوب، يعرف ما تخفيه الأنفس، ويعلم كل شيء تماماً، ولكن بعض الناس في هذه الدنيا يتصور بزعمه أنه يستطيع أن يخدع اللّه، وهذه هي كارثة الإنسانية كلها.



(١) أخرجه البخاري [١] عن عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه، وأبو داود [٢٢٠١]، والترمذي [١٦٤٧]، وابن ماجه [٤٢٢٧].

دعاء المضطر

السؤال: كلنا في أوقات الشدة يتجه إلى اللّه ويقول: يارب، وبعضنا يلجأ لمثله من البشر؛ ليأخذ بيده، ولا شك أننا ننفعل عند زوال الشدة، ولكن المغزى الخفي لا يفهمه الكثيرون، ما تعليق سيادتكم ؟

الجواب: هب أنني أمُر بأزمة مالية شديدة، ثم جاء إنسان عرف ما أمُر به؛ فأعطاني ما لَا لتنفرج هذه الأزمة، إن أول ما يأتي إليَّ من هذه النعمة، يأتي أثره إلى العقل أنَّ هذا الإنسان قد أعطاني ما لَا صانني به من كرب كان يتهددني، وأخرجني من أزمة ربما كانت تعصف بحياتي.

إذن.. فإذا حكمت العقل عرفت أن هذا الإنسان صنع معروفاً، وأسدى لي عملًا يستحق عليه الشكر.

ثم ينزل بعد ذلك إلى القلب، فينفعل به، ويهتز قلبي لهذا الرجل الذي قدم لي هذا المعروف، وأحس بانفعال نحوه بأنني يجب أن أشكره على هذا المعروف، هذا الانفعال يجعلني أترجم العاطفة بجوارحي، فأمد يدي مصافحاً إياه بحرارة الحب أو تنزل الدموع من عيني من شدة الانفعال، أو أحاول أن أرد له جزاء ما صنعه معي إن استطعت إلى ذلك سبيلًا.

فإذا نقلنا النعمة إلى المنعم الأعظم سبحانه وتعالى، وهو سبحانه العليم بخلقه، ولذلك يقينا الذلة، فأنت إذا طلبت معروفاً من أحد، يجب أن تحيطه علماً بأن تذهب إليه وتخبره بأشياء هي من أدق خصوصياتك، وفي هذا ذلة للنفس، وقد تلح عليه في السؤال، وفي ذلك ذلة أكبر، ولكن اللّه سبحانه وتعالى حين تتجه إليه؛ يقيك الذل كله، فبمجرد أن ترفع يدك إلى السماء وتدعو يارب؛ يجيبك دون أن تسأل لماذا ؟ لأنه يعلم حالك قبل أن يكون لك حال، وهو سبحانه القادر على أن يعطيك على الفور بكلمة ﴿ كُن ﴾ فإذا أردت سعادة الدارين فاستجب له، سبحانه بأن تؤمن به وبرسوله ﷺ وتقيم منهجه في: افعل ولا تفعل وإن شئت فتقرب إليه

بالنوافل، ثم اطلب - ولا عليك - وكل شيء مجاب في هذه الدنيا أو مدخر لك في الآخرة، وصدق اللَّه العظيم: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

❁ ❁ ❁

كيف تشترك الجوارح في شكر اللَّه ؟

السؤال: لا شك أن توفيق اللَّه تعالى للإنسان على عدم ارتكاب المعصية من أعظم النعم، والجوارح كلها تحس بهذا، فكيف تشترك الجوارح في شكر اللَّه تعالى على نعمة التوفيق ؟

الجواب: كل مؤمن مطالب بأن يبتعد عن أي مكان فيه معصية، إذا أحس أن ذلك يمكن أن يقوده لما يغضب اللَّه سبحانه، وتلك رحمة من اللَّه سبحانه وتعالى، ولذلك حين نقول: الحمد للَّه على ما منعنا عنه وعصمنا منه. فإن هذا الحمد، عرفان بجميل اللَّه تعالى، وثناء عليه يفيض على النفس؛ لأن النفس تقدم الشكر لله سبحانه وتعالى على نعمه، والذي يثني ويشكر على النعمة، أو على المُنْعِم، هو الذي ينتفع بها، وهل عقلك هو المستمتع بالنعمة وحده ؟ لا.. وإنما كل جوارحك، ولذلك لا بد أن يحدث انفعال من كل ما استمتع بالنعمة، من العقل والقلب والجوارح، انفعال من هذه الأشياء كلها.

وكما أن القلب يحمل الدم إلى كل شعيرة في الجسم، فينتفع به الجسد كله، كذلك الانفعال بالحمد والشكر، يصل إلى كل شعيرة في جسمك؛ أي يتوزع على الجسم كله، فيتفاعل مع هذه المعاني الطيبة شاكراً للَّه تعالى الذي أعطانا كل شيء.

❁ ❁ ❁

هل علمه سبحانه بأحوالنا يُغني عن سؤالنا؟

السؤال: إن اللَّه هو الذي خلقنا ويعلم ما توسوس به أنفسنا، فهل علم اللَّه بأحوال العبد يغني العبد عن سؤال اللَّه أم لا بد من سؤاله سبحانه ؟

الجواب: لما جاء جبريل لإبراهيم عليهما السلام، وإبراهيم ملقى في النار، والنار تشتعل حوله، والناس واقفون ينتظرون حرق إبراهيم، وفي هذه اللحظة الحاسمة التي تُدخل الخوف والهلع إلى أقوى القلوب، لم يشعر إبراهيم عليه السلام أنه في حاجة إلا إلى اللَّه سبحانه وتعالى، ولم يطلب من جبريل عليه السلام شيئاً قائلًا له: أما إليك فلا. . لماذا ؟!! لأن اللَّه سبحانه وتعالى هو المجيب، وهو القادر على النُّصْرة في هذا الموقف العصيب، وهو سبحانه الذي يعلم بما داخل النفس وما يخفيه الإنسان ولا يبيح به لأحد ولذلك يقول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧]، وتتعجب أنت من هذه الآية الكريمة، أيوجد ما هو أخفى من السر ؟ نقول لك: نعم، لماذا ؟ لأن السر يكون بين اثنين، أحدهما أَسرَّ به لآخر، أي يلقيه إليه أو يحدثه عنه، أو يكلمه فيه، ولا ثالث بينهما، هذا هو السر، ولكن الذي هو أخفى من السر، هو ما في داخل النفس، لا تبوح به لأحد، فهناك أشياء أنت تعرفها، ويعرفها أقرب الناس إليك، هذا هو السر، سرٌّ بينك وبين زوجتك، أو بينك وبين أخلص أصدقائك، أما ما هو أخفى من السر، فهو ما تخفيه عن زوجتك، أو أخلص أصدقائك ويبقى في صدرك حبيساً لا يعرفه أحد، فكأن اللَّه سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا: إن علمه لا يصل إلى السر فقط الذي بين اثنين، ولكن علم اللَّه يصل إلى ما تخفيه الصدور، ولا تبوح به؛ ومع ذلك فإن اللَّه سبحانه أمرنا بالدعاء، فقال سبحانه: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦] بل وأمرنا رسولنا الكريم بالإلحاح في الدعاء والطلب من اللَّه سبحانه وتعالى.

واعلم أنك إذا سألت بشراً فقد يعطيك أو يمنعك، ولكنه إن أعطاك أو منعك؛ فهو في هذه الحالة متضرر متأفف، قد تذهب مرة لتسأله؛ فيعطيك، ثم تذهب مرة أخرى؛ فيهرب منك، أو يطلب من خادمه أو أهل بيته أن يقولوا لك: إنه غير موجود، ولكن اللّه سبحانه وتعالى لا يضجر منك أبداً مهما سألت، فإنه يطلب منك أن تسأل، ويقول لك: ﴿ ٱدۡعُونِيٓ ﴾، ويقول لك: إنني قريب منك، أسمع دعاءك، ويقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ﴾[غافر: ٦٠]، فأنت حين تسأل اللّه، تسأل من لا يحرمك إذا سألته، ولا يهرب منك إذا دعوته، ولا يصيبه السأم أو الضجر مهما دعوت، أو مهما سألت، فهو دائماً المجيب، ومن كمال صفات اللّه سبحانه وتعالى أنه مجيب للدعاء وهذا يستوجب الحمد، وأن تقول: الحمد للّه.

ثم إن الدعاء في ذاته عبادة للّه تعالى، فأكثروا من الدعاء وأجملوا في الطلب.

* * *

وجوب الاستعاذة بالله من الشيطان قبل قراءة القرآن

السؤال: لماذا نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم قبل قراءة القرآن ؟

الجواب: عندما نقرأ القرآن أو نستمع إليه لا بد أن ننقي النفس المستقبلة للقرآن ونجعلها صافية، وأحسن صفاء للنفس هو تخلصها من الشيطان، وأقوى ما تخلص به نفسك من الشيطان هو أن تقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وبذلك تكون قد استعذت بالله ويكون الله معك، فإذا صفيت نفسك لاستقبال القرآن؛ فإن آياته الكريمة تمس قلبك ونفسك ويكون لك هدى ونور. وأنت إذا استعذت بالله من أي شيطان أو أي مكروه؛ فإنك بذلك تجعل الله إلى جانبك، فإبليس من خلق الله وأنت من خلق الله، فإذا واجهتما بعضكما البعض؛ كانت الغلبة لمن هو أكثر قوة أو أكثر حيلة؛ ذلك لأن كلا منكما يعتمد على ملكاته الشخصية في مواجهتكما معاً، ولكن إذا استعان المؤمن بالله، كان الله في جانبه[١].

---

(١) قال الشيخ الشعراوي في كتابه القيم: « منهاج الصالحين »: أمر الله سبحانه وتعالى كل مؤمن قبل أن يقرأ القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم[١]. =

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: والمشهور الذي عليه الجمهور: أن الاستعاذة لدفع الوسواس فيها إنما تكون قبل التلاوة.

والدليل على ذلك: عن أبي سعيد الخدري، قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل، فاستفتح صلاته وكبّر، قال: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدك، ولا إله غيرك، ويقول: لا إله إلّا الله - ثلاثاً - ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»[١].

عن جبير بن مطعم، قال: رأيت رسول الله ﷺ حين دخل في الصلاة، قال: « الله أكبر كبيراً - ثلاثاً - الحمد لله كثيراً - ثلاثاً - سبحان الله بكرة وأصيلًا - ثلاثاً - اللهم إني أعوذ بك من الشيطان، من همزه ونفخه ونفثه»[٢].

---

(١) رواه أحمد في المسند [٣/ ٥٠]، وذكره الهيثمي في المجمع [٢/ ٢٦٨] وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٢) رواه أبو داود [٧٧٥]، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٧٠].

....

= يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨] إن معوقات اتباع منهج اللّه تعالى إنما هي من عمل الشيطان، ونحن حين نقرأ القرآن لا بد أن نُصفِّيَ جهاز استقبالنا؛ ليُحسِن استقبال كلام اللّه تعالى.

ولما كان الشيطان هو المُعوِّقُ لنا عن اتباع المنهج، ونحن لا طاقة لنا به إلا إذا لجأنا إلى اللّه تعالى طالبين منه سبحانه العون والقوة على ذلك الرجيم.

والشيطان تَوَّعد بني آدم من القدم، يوم رفض السجود لأبيهم آدم عليه السلام وعصى أمر ربه، وما نسي أبداً ذلك اللعين أنه طُرد من الجنة وحقت عليه اللعنة من اللّه إلا بسبب ذلك، فما كان منه إلا أن قال كما جاء في كتاب ربنا: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف].

فذلك الرجيم في غني عمن باع نفسه للمعصية، وانطلق يخالف كل ما أمر به اللّه تعالى. . فالنفس الأمارة بالسوء لها شيطانها، وهي ليست في حاجة إلى غواية؛ ولذلك فإن ذلك اللعين ليس محل عمله أماكن اللهو والفسق، فرواد هذه الأماكن هم أعوانه، وجنوده، أما عمله الذي يبذل فيه غاية جهده فهو أماكن العبادة وتنزل الرحمات؛

وجهات الغواية التي يأتي منها إبليس بني آدم هي:

﴿ مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾، أي : من أمامهم وهذه هي الجهة الأولى.

﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾، أي: من ورائهم، وهذه هي الجهة الثانية.

﴿ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾، أي: من اليمين، وهذه هي الجهة الثالثة.

﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾، أي : من الشمال، وهذه هي الجهة الرابعة.

وكلنا نعلم أن الجهات ستٌ، وليست أربعاً. . فما الجهتان اللتان لا يأتي منهما الشيطان؟ هما فوق وتحت. . هرب إبليس من هاتين الجهتين بالذات. . ولم يقل: سآتي لهم من فوقهم ومن تحتهم؛ لأنه يعلم أن الجهة العليا جهة رفع اليدين والدعاء والمناجاة للّه رب العالمين، وأن الجهة السفلى تمثل قمة العبودية والقرب من اللّه؛ ولذلك ابتعد إبليس عن هاتين الجهتين تماماً.

ومن العجيب أنك إذا نظرت إلى أبواق الإلحاد في كل عصر؛ تجد أنها تأتي من الجهات التي يأتي منها الشيطان.

تسمعهم وهم يقولون: تقدُّمي، أي: جهة الأمام، ورجعي: جهة الخلف، ويميني: جهة اليمين، ويساري: جهة اليسار.

أما نحن بحمد اللّه تعالى لسنا في أي جهة من هذه الجهات؛ فلسنا تقدميين ندعو إلى التحلل والفجور، ولسنا رجعيين نقول هذا ما وجدنا عليه آباءنا، كما أننا لسنا يساريين ننكر الدين ونناصر الكفر، أو يمينيين نؤمن بالرأسمالية واستغلال الإنسان. ولكننا أمة مسلمة. كل أمورنا عن اللّه العلي الأعلى. =

....

* * *

= وما دامت أمورنا من اللَّه سبحانه وتعالى فنحن لا نخضع لمساوٍ لنا. ولكننا نخضع للَّه العلي القدير. وما دمت تخضع لإلهك الذي خلقك، فلا ذلة أبداً؛ بل عزة ورفعة.
والحق سبحانه وتعالى يريد منا عندما نقرأ القرآن أن نتدبر آياته، وأحكامه. وهو جل جلاله يعلم مكائد الشيطان، ومداخله إلى النفس البشرية. وأنه سيوسوس لنا ما يفسد علينا فطرتنا الإيمانية، حتى يأتي القرآن على فطرة قد فسدت، فلا يكون هناك استقبال لفيوضاته من النفس البشرية.
ولكن إذا استعذت باللَّه، فقد استعذت بالخالق.. فلا يجرؤ الخلق على الاقتراب منك.
ولذلك إن أردت من جهاز استقبالك أن يكون صالحاً لسماع كلام اللَّه تعالى، متدبراً له، فنحن نعلم أن القرآن الكريم ليس كلام القارئ له. ولكنه كلام اللَّه سبحانه وتعالى.

منهاج الصالحين [١/ ١٧-٢٠].

نعمة الاهتداء إلى الصراط المستقيم

السؤال: إننا نطلب من اللّه دائماً أن يهدينا الصراط المستقيم، وهو الذي علمنا ذلك وأمرنا بذلك، فكلما قرأنا الفاتحة توجهنا إلى اللّه بهذا الدعاء. فمن هم هؤلاء الذين أنعم اللّه عليهم بالصراط المستقيم ؟

الجواب: حينما أطلب الهداية إلى الطريق المستقيم من اللّه سبحانه وتعالى، أطلب منه نعمة كبرى لا ينعم بها إلا على من أحبهم، ورضي عنهم وهم كما ورد ذكرهم في القرآن الكريم:

النبيون أولئك الذي اصطفاهم اللّه سبحانه وتعالى لحمل رسالاته، وطهرهم من دنس الدنيا، ووقاهم من وسوسة الشيطان.

الصديقون: الذين صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه واتبعوا الطريق المستقيم الذي رسمه اللّه لهم، فأنعم اللّه عليهم بالهداية.

الشهداء: أولئك الأبرار الذين ضحوا بحياتهم من أجل إعلاء كلمة اللّه، وقدموا أعز ما يملكون وهي النفس في سبيل اللّه، لا يريدون شيئاً، ولا يطلبون جزاء سوى رضا اللّه سبحانه وتعالى.

هذه المثل العليا من البشر الذين أحبهم اللّه، وأحبوه، يجب علينا أن نطلب من اللّه سبحانه وتعالى في كل صلاة أن يهدينا وينعم علينا بالصراط المستقيم كما هداهم.

بعد أن آمنت باللّه سبحانه وتعالى إلٰهاً وربًا، واستحضرت عطاء الألوهية، ونعم الربوبية، وفيوضات رحمة اللّه على خلقه، وشهدت بوحدانية اللّه تعالى وخلعت عنك كل ما يعبد من دونه سبحانه، وقَصَرْتَ العبادة عليه وحده، واستعنت به وحده، فإن اللّه تعالى، يرشدك إلى دعاء جامع مانع، سيد كل دعاء، ومفتاح كل خير.

فمن رحمة اللّه تبارك وتعالى أنه علمنا وأرشدنا إلى طلب الصراط المستقيم، وهذا يستوجب الحمد للّه.

إن قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة - ٦] هو أول طلب يتحتم على المؤمن أن يطلبه من ربه، فمن لم يهده اللّٰه فلا هادي له.

والهداية نوعان: هداية دلالة، وهداية معونة، هداية الدلالة هي للناس جميعاً، وهداية المعونة هي للمؤمنين فقط المتبعين لمنهج اللّٰه.

واللّٰه سبحانه وتعالى هدى كل عباده هداية دلالة، أي: دلَّهم على طريق الخير وَبَيَّنَهُ لهم، فمن أراد أن يتبع طريق الخير اتبعه، ومن جحد وعصى، تركه اللّٰه لما اختار.

هذه هي الهداية العامة هي أساس البلاغ عن اللّٰه، فقد بَيَّن لنا اللّٰه تبارك وتعالى منهجه الذي هو « افعل ولا تفعل » ما يرتضيه سبحانه وما يغضبه، وأوضح لنا الطريق الذي إن اتبعناه اهتدينا، وكذلك الطريق الذي لو سلكناه يحق علينا غضب اللّٰه وسخطه، نعوذ باللّٰه من غضبه وعقابه.

ولكن.. هل كل من بيّن له اللّٰه سبحانه وتعالى طريق الهداية اهتدي ؟!

يقول ربنا جل جلاله: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾. [فصلت: ١٧].

إذن.. هناك من عرفهم اللّٰه، ولكنهم عصوا بالاختيار الذي أعطاه اللّٰه لهم، فما الذي يحدث للذين عرفوا طريق الهداية، وألزموا أنفسهم به والذين لم يتبعوه، وخالفوا مراد اللّٰه الشرعي في كونه؟

الذين التزموا طريق الهداية يعينهم اللّٰه سبحانه وتعالى ويحببهم في الإيمان ويؤتهم التقوى ويحببهم في الطاعة؛ يقول تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ [محمد: ١٧].

أما الذين جحدوا وحادوا عن منهج اللّٰه وعصوا أمره، فإن اللّٰه تبارك وتعالى لا يهديهم سواء السبيل، ويتركهم في ضلالهم يعمهون يقول تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه].

ويقول تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦].

واللّٰه سبحانه وتعالى قد بَيّن لنا المحرومين من هداية المعونة على الإيمان وهم ثلاثة أصناف، كما بَيَّنَهم لنا في القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [النحل: ١٠٧].

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٨].

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ما هو الصراط ؟ إنه الطريق الموصل إلى الغاية. ولماذا نص على أنه الصراط المستقيم ؟ لأن اتباع منهج اللَّه سبحانه وتعالى هو الطريق المستقيم، والطريق المستقيم هو أقصر الطرق إلى تحقيق الغاية، فأقصر طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم؛ ولذلك إذا كنت تقصد مكاناً، فأقصر طريق تسلكه هو الطريق الذي لا اعوجاج فيه.

ولا تظن أن البعد عن الطريق المستقيم يبدأ باعوجاج كبير؛ بل باعوجاج صغير جدًّا، ولكنه ينتهي إلى بُعد كبير.

ولذلك فإن الدعاء: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي: الطريق الذي ليس فيه اعوجاج، بمعنى: الذي ليس فيه مخالفة تبعدنا عن طريق اللَّه المستقيم.

لذلك، فإن الإنسان المؤمن يطلب من اللَّه سبحانه وتعالى أن يهديه إلى أقصر الطرق للوصول إلى الغاية. وما هي الغاية ؟ إنها الجنة والنعيم في الآخرة، ولذلك نقول: يا رب اهدنا، وأعنَّا على أن نسلك الطريق المستقيم، وهو طريق المنهج ليوصلنا إلى الجنة دون أن يكون فيه أي اعوجاج يبعدنا عنها.

ولقد جاء في الحديث القدسي: أنه إذا قال العبد: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ يقول جل جلاله: « هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل » (١).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٧] أي: طريق الذين أنعم اللَّه تعالى عليهم.

فمن هم الذين أنعم اللَّه عليهم ؟ لقد جاء ذكرهم في قول اللَّه تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

---

(١) أخرجه مسلم [٣٩٥/ ٣٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

أي إنك تطلب من اللَّه جل جلاله، أن يجعلك تسلك نفس الطريق الذي سلكه هؤلاء المنعم عليهم؛ لتكون معهم في الآخرة، في ﴿ مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٥]، وفي جنة ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ليس هذا فقط؛ بل: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣٥] .

۞ ۞ ۞

الأصل في الأعمال الطاعة

السؤال: ما رأي فضيلتكم فيمن يقولون: إن فائدة الصيام أنه يريح المعدة، وإن الصلاة رياضة للبدن، وهكذا يعللون كل فريضة بفائدة دنيوية؟

الجواب: إذا تحدثنا عن الصوم، وعن رمضان، فإننا لا يجب أن نربط العبادات إلا بالطاعة للَّه سبحانه وتعالى، ذلك أن ربط العبادة بغير الطاعة، مهما كانت، يخرجها عن مفهومها الأصيل، وهو العبادة للَّه، فالذي يقول مثلًا، إن الصلاة نوع من الرياضة، نقول له: إن الصلاة عبادة، نؤديها لأن اللَّه أمرنا بها، ولو كانت الصلاة نوعاً من الرياضة، لكان من الأصوب والأوفق أن نتجه إلى الرياضة نفسها، ونؤديها في الوقت الذي نريد، وكيفما نشاء، وبذلك نكون قد وفينا الحكمة من الصلاة، ولكن الصلاة عبادة، ونحن نؤديها؛ لأن اللَّه أمرنا بها، سواء كانت حركتها نوعاً من الرياضة، أو لم تكن كذلك، وإخراج الصلاة عن مفهوم العبادة يخرجها عن مفهوم الإيمان، ذلك أن مفهوم الإيمان يحتم علينا أن نفعل ما أمر اللَّه به، ولا نفعل ما نهى عنه، دون النظر إلى أي شيء آخر.

فهناك أشياء نجد فيها نفعاً عاجلًا، أو متعة مؤقتة، ومع ذلك فقد نهانا اللَّه عنها، وهناك أشياء تحتاج إلى صبر وتحمل ومشقة، وقد أمرنا اللَّه بها، ونحن في هذا كله نطيع أمر اللَّه فيما أمر، وفيما نهى.

وما يقال عن الصلاة يقال عن الصيام، فبعض الناس يقول: إن اللَّه شرع الصيام؛ ليشعر الإنسان الغني بشعور الجائع والمحروم، ولو كان هذا صحيحاً ما فرض اللَّه صياماً على إنسان فقير؛ لأنه يعرف هذا الشعور جيداً، وليس محتاجاً لأن يصوم ليعرفه، ولكن الصوم في ذاته هو عبادة للَّه تعالى، وهو اختبار من اللَّه سبحانه وتعالى لحبه في قلب عبده، وكذلك العبادات كلها، فكلما أحب الإنسان اللَّه، أحس بنعمة العبودية له، وكلما ابتعد الإنسان عن اللَّه استهوته الشياطين واجتذبته إلى المعصية [1].

---

(١) راجع أحكام الصيام في كتاب: « منهاج الصالحين لمعرفة أوامر ونواهي رب العالمين » لفضيلة الإمام الشيخ محمد متولي الشعراوي [١/ ٣٨٢: ٤٣٩] وقد أفرد بالنشر مع زيادات وفوائد مكتبة التراث الإسلامي .

صحبة الأخيار.. ومنزلتها عند اللَّه تعالى

السؤال: ما فائدة صحبة الإنسان للأخيار من عباد اللَّه، ولماذا فضل اللَّه تعالى العبادة الجماعية؟

الجواب: حينما تكون مع الأخيار ينالك بصحبتهم الخير الكثير، ورسول اللَّه ﷺ يقول: « إنَّ للَّه ملائكَة يطوفون في الطرقِ يلتمسونَ أهلَ الذِّكر » أي ليس لهم عمل، عندما ينزلون إلى الأرض، إلا تتبع الحلقات التي يُذكر فيها اللَّه سبحانه وتعالى. «فإذا وجدوا قوماً يذكرون اللَّه، تنادَوْا، هَلُمُّوا إلى حَاجَتِكم. قال: فَيَحُفُّونهم بأجنحتِهم إلى السَّماءِ الدنيا، قال: فَيَسْأَلُهم رَبُّهم عَزَّ وَجَلَّ وهو أعْلَمُ منهم ما يقولُ عبادي؟ قال: تقول: يسبحونك ويُكبرونك ويَحمدونك ويُمجدُونك، قال: فيقول: هل رَأَوْني؟ قال: فيقولون: لا واللَّه، ما رَأَوْكَ. قال: فيقول: كَيْفَ لو رَأَوْني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادةً وأشدَّ لك تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً، قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا واللَّه يارب، ما رأوها. قال: فيقول فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبةً، قال: فَمِمَّ يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: فيقولون: لا واللَّه يارب، ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافةً، قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم، قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان، ليس منهم؛ إنما جاء لحاجةٍ. قال: هم الجلساء لا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ»(١).

هكذا الجماعة في الذكر وفي العلم، وفي الصلاة، تفيد العبد؛ لأنه ولو كان حتى مارًّا بغير قصد، وجلس مع هؤلاء الجالسين؛ شاركهم في طاعة اللَّه تعالى، فاللَّه سبحانه وتعالى يغفر له ما دام جالساً معهم.

---

(١) أخرجه البخاري [٦٤٠٨]، ومسلم [٢٦٨٩]، والترمذي [٣٦٠٠] من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

الاقتداء في الطاعة

السؤال: بمن أقتدي في الطاعة، وأكون صديقاً له؟

الجواب: العباد في الطاعة متفاوتون قبولًا، فهناك من هو مقبول الطاعة، ومن هو مقبول الطاعة بدرجة أقل، ونحن يجب أن نتعلم حين نقبل على طاعة اللّٰه أن نأخذ الطاعة كلها، فلا نأخذ بعضها ونترك بعضها، بل نطيع اللّٰه في كل شيء، على أن هناك نفساً قوية ونفساً ضعيفة، وجهاد النفس مستمر ما دام الإنسان حيًّا، وما دمنا جميعاً نجاهد، وبعضنا أقوى من البعض الآخر في الطاعة، فيجب ألا أغار من إنسان هو أكثر مني اجتهاداً في طاعة اللّٰه سبحانه وتعالى، بل ألتصق به وأصادقه، لماذا؟ لأنه سيحملني معه على الطاعة، قد نجلس فيقوم ويصلي ركعتين. فأقوم وأصلي معه، ولذلك حين ترى عبداً مقبلًا على اللّٰه، فحاول أن تصحبه، واحرص على أن تكون دائماً مع المخلصين للّٰه[1].

---

(١) قال العلامة ابن كثير: أي: كلُّ صداقةٍ وصحابةٍ لغير اللّٰه فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان للّٰه عز وجل فإنه دائم بدوامه وهذا كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].
وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن عليّ رضي اللّٰه عنه: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].
قال: خليلان مؤمنان وخليلان كافران فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة فذكر خليله فقال: اللَّهُمَّ إن فلاناً خليلي كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر وينبئني أني ملاقيك اللَّهُمَّ فلا تضله بعدي حتى تريه مثل ما أريتني، وترضي عنه كما رضيت عني؛ فيقال له: اذهب فلو تعلم ما له عندي لضحكت كثيراً وبكيت قليلًا. قال: ثم يموت الآخر فتجتمع أرواحهما فيقال: ليثن أحدكما على صاحبه؛ فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نعم الأخ ونعم الصاحب ونعم الخليل، وإذا مات أحد الكافرين وبشر النار ذكر خليله فيقول: اللَّهُمَّ إن خليلي فلاناً كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك ﷺ، ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ويخبرني أني غير =

....

⁂

= ملاقيك ، فلا تهده بعدي حتى تريه مثل ما أريتني وتسخط عليه كما سخطت عليّ قال : فيموت الكافر الآخر فيجمع بين أرواحهما ، فيقال : ليثن كل واحد منكما على صاحبه فيقول كل واحد منهما لصاحبه : بئس الأخ وبئس الصاحب وبئس الخليل . رواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن عباس رضي اللّه عنهما ومجاهد وقتادة : صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين .

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة هشام بن أحمد عن هشام بن عبد اللّه بن كثير ، حدثنا أبو جعفر محمد بن الخضر بالرقة عن معافى ، حدثنا حكيم بن نافع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لو أن رجلين تحابا في اللّه أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب لجمع اللّه تعالى بينهما يوم القيامة يقول : هذا الذي أحببته في». تفسير ابن كثير [٤/ ١٣٥ : ١٣٦]. عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ: « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل »(١).

وعن أبي سعيد رضي اللّه تعالى عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»(٢).

(١) رواه الترمذي [٢٣٧٨] وقال الألباني [١٩٣٧]: حسن.
(٢) رواه الترمذي [٢٣٩٥] وقال الألباني [١٩٥٢]: حسن.

العبد الطائع للّه لا يخاف أبداً

السؤال: الملاحظ في حياتنا أن العبد الطائع للّه يعيش في سلام نفسي وسكينة ولا يخاف من شيء أبداً، هل يمكن لفضيلتكم إلقاء الضوء على هذه النقطة ؟

الجواب: يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

أي أنهم لو آمنوا بواجب الوجود الأعلى، واتقوا باتباع منهجه سبحانه أمراً ونهياً لسلمت آلاتهم. لأن الصانع من البشر حين يصنع آلة من الآلات، يحدد ويبين الغاية من الآلة قبل أن يبتكرها ، ويصمم لها أسلوب استخدام معين، وقانون صيانة خاصاً لتؤدي مهمتها ، فما بالنا بمن خلق الإنسان.

إذن. . فالبشر لو أخذوا من رب الإنسان منهج صيانة الإنسان لعاش هذا الإنسان في خير وسلام، وسبحانه وتعالى أوضح أنهم إن اتقوا تأت لهم بركات من السماء والأرض ، فإن أردتها بركات مادية تجدها في المطر الذي ينزل من أعلى، وبركات من الأرض مثل النبات، وكذلك كنوزها التي تستنبط منها الكماليات المرادة في الحياة.

وما معنى البركة ؟ البركة هي أن يعطي الموجود فوق ما يتطلبه حجمه؛ كواحد مرتبه خمسون جنيهاً ونجده يعيش هو وأولاده في رضا وسعادة، ودون ضيق ، فنتساءل: كيف يعيش ؟ ويجيبك: إنها البركة. وللبركة تفسير كوني لأن الناس دائماً - كما قلنا سابقاً - ينظرون في وارداتهم إلى رزق الإيجاب ، ويغفلون رزق السلب. رزق الإيجاب: أن يجعل سبحانه دخلك آلاف الجنيهات ولكنك قد تحتاج إلى أضعافهم، ورزق السلب يجعل دخلك مائة جنيه ويسلب عنك مصارف كثيرة ، كأن يمنحك العافية فلا تحتاج إلى أجر طبيب أو نفقة علاج. . وهكذا في كل شيء.

إذن. . فقوله: ﴿ بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الاعراف: ٩٦] أي أن يعطي

الحق سبحانه وتعالى من القليل، الكثير في الرزق الحلال، ويمحق الكثير الذي جاء من الحرام كالربا، ولذلك سمى المال الذي نخرجه عن المال الزائد عن الحاجة سماه زكاة مع أن الزكاة في ظاهرها نقص، فحين تملك مائة جنيه وتخرج منها جنيهين ونصف الجنيه يكون قد نقص مالك في الظاهر. وإن أقرضت أحداً بالربا مائة جنيه فأنت تأخذها منه مائة وعشرة.

لكن الحق سمى النقص في الأولى نماء وزكاة ، وسمى الزيادة في الثانية محقاً وسحتاً.

إذن.. فلو أخذ الإنسان قانون صيانته من خالقه لاستقامت له كل الأمور، لكن الإنسان لا يفعل ذلك. يقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وهكذا نعلم أن الأخذ ليس عملية جبروت من الخالق ، وإنما هي عدالة منه سبحانه؛ لأن الحق لو لم يؤاخذ المفسدين ، فماذا يقول غير المفسدين ؟ سيقول الواحد منهم: ما دمنا قد استوينا، وحال المفسدين تسير على ما يرام، فلنفسد نحن أيضاً.

إذن.. هذا يغري غير المفسد بأن يفسد، ويطلق العنان لشهواته، لكن حين يؤاخذ الله المفسدين بما كانوا يكسبون، يعلم غير المفسد أن سوء المصير للمفسد واضح ، فيحفظ نفسه من الزلل.

كان القياس أنه يقول سبحانه: بما كانوا يكتسبون، لأن مسألة الحرام تتطلب انفعالات شتى ، وضربنا المثل من قبل بأن إنساناً يجلس مع زوجته ، وينظر إلى جمالها ويملأ عينيه منها، لكن إن جلس مع أجنبية وأراد أن يغازلها ليتمتع بحسنها، فهو يناور ويتحايل ، وتتضارب ملكاته بين انفعالات شتى، وهو يختلف في ذلك عن صاحب الحلال الذي تتناسق ملكاته وهو يستمتع بما أحل له الله.

ولكن هؤلاء المفسدين تدربوا على الفساد فصار دربة تقرب من الملكة فقال فيهم الحق سبحانه: ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦]. أي: ولا يجدون في ارتكابه عنتاً.

❁ ❁ ❁

الحكمة من تدبر آيات اللّه في الكون

السؤال: لماذا أمرنا اللّه بأن نتدبر في آياته ؟ ونتأمل في إعجاز خلقه وقدرته ؟

الجواب: إن اللّه سبحانه وتعالى طلب منا أن نسير في الأرض، ونتدبر في الكون، وأن نتأمل آيات اللّه، لماذا يأمرنا اللّه بهذا ؟ لو أن في هذا الكون دليلًا واحداً على عدم قدرة اللّه ووحدانيته، لما أمرنا اللّه أن نتدبر في الكون، وأن نتدبر في أنفسنا، لماذا ؟ لأن الذي يعرض عليك شيئاً فيه أدنى شك، لا يقول لك: افحصه جيداً، وإنما يحاول بشتى الطرق أن يجذب انتباهك عن هذا الشيء الذي تنظر إليه؛ حتى لا تتبين فيه أي نقص أو عيوب. أما الذي يقول لك تدبر وفكر وانظر، فهو موقن من إتقان العمل، ولذلك يريدك أن ترى الإبداع والإتقان الموجود، وأن تشهده لتعرف قيمة وروعة الخلق فتشهد للخالق سبحانه بالعظمة.

ولأضرب مثلًا بسيطاً يقرب ذلك إلى الأذهان، إذا دخلت لتشتري أي شيء وقابلت البائع، أو صاحب ذلك الشيء أو صانعه، فهنا يدور الحديث حول أحد أمرين:

الأول: أن يكون الشيء متقناً إتقاناً بديعاً وحينئذ يقول لك صانعه: افحصه جيداً، فإذا فحصته مرة، طلب منك أن تفحصه مرات ومرات، لماذا ؟ لتتبين دقة الصنع وتعرف كمال الشيء.

والثاني: أن يكون الشيء فيه عيوب، فيحاول أن يغشك ويخدعك، حينئذ يفعل كل ما يستطيع من الحيل ليأخذ انتباهك عما في يدك، حتى لا تتبين عيوبه أو النقص الذي فيه.

واللّه سبحانه وتعالى يطلب في قرآنه الكريم أن نتدبر الخلق ونتدبر الكون، ويلفتنا سبحانه إلى أنه في هذا الكون آيات بينات، وأن في خلقكم وخلق السموات والأرض آيات بينات، وفي أنفسكم فيقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ

وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].
ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام: ١١].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

إذا لم يكن قائل هذا الكلام هو خالق الكون وخالق البشر وعالماً بأسرار كل شيء، أفلا يخشى أن تكون هناك عيوب ونواقص وأشياء لا يعرفها قد يأتي التدبر فيها بنتيجة عكسية، ولكن اللّه سبحانه وتعالى هو الخالق، وهو القائل، وهو العالم، وهو يعرف دقة ما خلق، ولذلك يقول تدبروا في الكون، انظروا فيه، ستجدون آياتي وإعجاز خلقي وقدرتي، انظروا في أنفسكم أي آيات تلك التي يتحدث عنها اللّه سبحانه وتعالى، ويتحدى بها ؟ لا بد أنها عظيمة جليلة؛ خلقها سبحانه بقدرة وإعجاز[١].

---

(١) قال ابن كثير في تأويل قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت - ٥٣] أي سنظهر لهم دلالتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلًا من عند اللّه على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بدلائل خارجية ﴿ فِى ٱلْءَافَاقِ ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان
قال مجاهد والحسن والسدي: دلائل في أنفسهم، قالوا: وقعة بدر وفتح مكة ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم، نصر اللّه فيها محمداً ﷺ وصحبه وخذل فيها الباطل وحزبه، ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة من حسن وقبح وغير ذلك وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله وحذره أن يجوزها ولا يتعداها كما أنشده ابن أبي الدنيا في كتابه التفكر والاعتبار عن شيخه أبي جعفر القرشي حيث قال وأحسن المقال:

وإذا نظرت تريد معتبراً ... فانظر إليك ففيك معتبر
أنت الذي تمسي وتصبح في ... الدنيا وكل أموره عبر
أنت المصرف كان في صغر ... ثم استقل بشخصك الكبر
أنت الذي تنعاه خلقته ... ينعاه منه الشعر والبشر
أنت الذي تعطي وتسلب لا ... ينجيه من أن يسلب الحذر
أنت الذي لا شيء منه له ... وأحق منه بما له القدر

وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي: =

....

۞ ۞ ۞

= كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم وهو يشهد أن محمداً ﷺ صادق فيما أخبر به عنه.
كما قال ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ [النساء: ١٦٦] الآية.
وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ﴾ [فصلت: ٥٤] أي: في شك من قيام الساعة ولهذا لا يتفكرون فيه ولا يعملون له ولا يحذرون منه بل هو عندهم هدر لا يعبأون به وهو كائن لا محالة وواقع لا ريب فيه.
قال ابن أبي الدنيا حدثنا أحمد بن إبراهيم حدثنا خلف بن تميم حدثنا عبد الله ابن محمد حدثنا سعيد الأنصاري قال: إن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه صعد المنبر فحمد الله وأثني عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس فإني لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أنتم إليه صائرون فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحمق والمكذب به هالك، ثم نزل.
ومعنى قوله رضي الله عنه: إن المصدق به أحمق، أي: لأنه لا يعمل له عمل مثله ولا يحذر منه ولا يخاف من هوله وهو مع ذلك مصدق به موقن بوقوعه وهو مع ذلك يتمادي في لعبه، وغفلته، وشهواته، وذنوبه فهو أحمق بهذا الاعتبار، والأحمق في اللغة ضعيف العقل.
وقوله: والمكذب به هالك هذا واضح والله أعلم.
ثم قال تعالى مقرراً أنه على كل شيء قدير وبكل شيء محيط وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ [فصلت: ٥٤]، أي: المخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته وتحت طي علمه وهو المتصرف فيها كلها بحكمه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن لا إله إلا هو.
تفسير ابن كثير [٤/١٠٦: ١٠٧].

الخلق لم يوجد صدفة . . والدليل فينا

السؤال: بماذا ترد فضيلتكم على من يقولون إن الخلق تم صدفة ؟

الجواب: إن الذين يقولون بأن الخلق تم صدفة ويتم بالصدفة هم جهلاء بحقيقة العلم وبجوهر الإيمان.

أي صدفة تلك التي تملك القدرة على خلق بويضة في مبيض المرأة تنزل إلى الرحم في وقت لا يعلمه إلا اللّه وحده، ويأتيها الإخصاب من حيوان منوي خلقه اللّه ضمن ملايين الحيوانات المنوية في الكيس الحامل لهذه الحيوانات بالجهاز التناسلي للرجل ؟

ثم بعد الإخصاب تكون العلقة فالمضغة ثم تُكسى العظام لحماً، ثم ينشئ الله الإنسان نشئاً آخر؛ ويتعهده بالرعاية والعناية حتى يأتي إلى الدنيا ثم يهيئ له من أسباب الرزق والحياة ما يوفر له معيشة كريمة، ثم عندما يبلغ يكلفه بمنهج فيه عز الدارين.

ولذلك لا يمكن أن يكون صدفة؛ لأن الصدف لا نظام لها، أما خلق الإنسان فله نظام حكيم دقيق، نظام وضعه إله قادر خالق، قدر لكل خلق زماناً ومكاناً وهدفاً [1].

❁ ❁ ❁

(١) نقول للذين يزعمون ذلك: هل شهدتم هذه الصدفة وهي تخلق ؟ وهل أرسلت الصدفة من يخبر عنها أنها خلقت وأوجدت ؟ وهل يعقل أن خالق هذا الكون العظيم بما فيه لم ينسبه إلى نفسه ويقول: إني خلقت، يا قوم هذا خلق اللّه تعالى ولم ينازع فيه سبحانه أبداً حتى الذين كفروا وأشركوا لم ينازعوا في قضية الخلق، اللّهُمَّ إلا هذه الحثالة الملحدة التي نسبت الخلق مرة للصدفة، ومرة للطبيعة فكان من أمرها أنها باتت في طي النسيان، وألقي بها في مزبلة التاريخ. والحمد للّه رب العالمين.

كيف خلق اللّٰه حواء ؟

السؤال: الكثير منا لا يفهم المعنى الحقيقي للآية الكريمة ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١]، فما معناها ؟ وهل لفظ زوج يطلق على الرجل والمرأة ؟

الجواب: إن كلمة زوج تطلق على الرجل عندما يتزوج، وتطلق أيضاً على امرأته تماماً، كما أن كلمة توأم تطلق على الوليد الذي يشاركه وليد آخر في نفس الرحم ويسميان توأمين.

ذلك أنه من الخطأ الشائع: أن تقول: زوج على الرجل والمرأة معاً، إن المرأة والرجل معاً هما زوجان.

وهكذا نفهم من سياق ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾[1] أي: أن حواء قد خلقها اللّٰه من ضلع آدم.

ولنا أن نتأمل حكمة الخالق سبحانه الذي ربط الرجل والمرأة برباط تحمل مسئولية عمارة الكون؛ بأن تبدأ المسئولية بينهما برغبة ولذة، ثم تعب وتضحيات في سبيل الأبناء.

إن تأمل لحظة لقاء الرجل بالمرأة في فراش الزوجية والاستمتاع الحسي في حدود أوامر اللّٰه تعالى، هذا التأمل يجعلنا نقول: إنه لولا عطاء الحق لنا من انسجام وحنان ومودة وترابط ولذة، لما كان الإنسان قادراً على عمارة الكون.

إن اللقاء الذي يحدث بين الرجل وزوجه ويسفر عن الذرية جعله اللّٰه تعالى مصحوباً باللذة، وذلك من حكمة الخالق جل وعلا؛ حتى لا يهرب الإنسان من عمارة الكون بالذرية التي تخلفه في الأرض.

* * *

(١) قال الماوردي في تفسيره: وخلق منها زوجها، يعني: حواء.
قال ابن عباس ومجاهد، والحسن: خلقت من ضلع آدم، وقيل الأيسر، ولذلك قيل للمرأة: ضلع أعوج.

النكت والعيون [١/ ٤٤٦].

قوانين الكون ومشيئة اللَّه تعالى

السؤال: إن اللَّه تعالى خلق الكون ووضع له قوانينه، فهل هذه القوانين تعمل تلقائياً، أم أنها تعمل بمشيئة اللَّه ؟

الجواب: قوانين الكون لا تعمل إلا بمشيئة اللَّه، ولذلك فإن اللَّه تعالى يعطلها متى شاء، فمثلاً مع نبي اللَّه إبراهيم عليه السلام، عطَّل اللَّه تعالى خاصية الإحراق في النار، حين قام الكفار في عهد إبراهيم؛ ليحرقوه أمام أصنامهم وآلهتهم، وفي ظنهم أن هذه الآلهة ستعاونهم على الفتك بإبراهيم وإحراقه، فماذا حدث ؟ جاؤوا بإبراهيم، وأمام آلهتهم وفي حمايتها أوقدوا ناراً هائلة ليحرقوه، وأرادوا أن يكون الحرق أمام الآلهة وعلى مشهد منها ليكون انتقاماً من إبراهيم، تباركه الآلهة، وتجعله رهيباً، وشاء اللَّه سبحانه وتعالى أن يتم لهم ذلك كله، فكان من الممكن أن يختفي إبراهيم في أي مكان، ولا يظهر، كان ذلك ممكناً ليبقى إبراهيم بعيداً عن الحرق، واللَّه قادر على أن يعميهم عنه، فلا يعثرون عليه، كما أنه سبحانه قادر على أن يخفيه عنهم، ولكن لو حدث هذا، لقالوا: لو أننا قبضنا على إبراهيم لأحرقناه، ولذلك كان لا بد أن يقع إبراهيم في أيديهم؛ ليعرف القوم جميعاً سفاهة معتقداتهم.

وكان من الممكن أن تنطفئ النار لأي سبب من الأسباب، كأن يُنزل اللَّه المطر من السماء مثلًا، أو يرسل الريح عاصفة بها وبهم، ولكن ذلك لم يحدث؛ لأنه لو حدث لقالوا: لو لم تمطر السماء، أو لو لم تهب الرياح لانتقمت آلهتنا منه بالحرق، ولكن إبراهيم لم يهرب، بل وقع في أيديهم، والنار لم تنطفئ، بل زادت اشتعالًا، وألقوا بإبراهيم في النار ليحرقوه، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى عطل خاصية الإحراق في النار.

إذن . . فمعجزة إبراهيم ليست أن ينجو من إلقائه في النار، ولو أراد اللَّه تعالى له أن ينجو ما استطاعوا أن يقبضوا عليه، ولكن اللَّه شاء أن تظل النار متأججة قوية،

ويلقى فيها إبراهيم أمام الناس، ثم يعطل اللَّه قانون الإحراق فيها[1].

---

(١) قال اللَّه عز وجل: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ ﴾ [الأنبياء].
قال ابن كثير: لما دحضت حجتهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم فـ ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ فجمعوا حطباً كثيراً جداً، قال السدي حتى إن كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم ثم جعلوه في حومة من الأرض وأضرموها ناراً فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد، قال شعيب الجبائي اسمه هيزن فخسف اللَّه به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، فلما ألقوه قال: حسبي اللَّه ونعم الوكيل كما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال حسبي اللَّه ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد عليهما السلام حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا اللَّه ونعم الوكيل[1].
وروى الحافظ أبو يعلى حدثنا ابن هشام حدثنا إسحاق بن سليمان عن أبي جعفر عن عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « لما أُلقي إبراهيم عليه السلام في النار قال اللَّهُمَّ إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد أعبدك » ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك، وقال شعيب الجبائي كان عمره إذ ذاك ست عشرة سنة واللَّه أعلم.
وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء فقال: ألك حاجة ؟ فقال: أما إليك فلا، وأما من اللَّه فبلى.
وقال سعيد بن جبير، ويروى عن ابن عباس أيضاً قال لما أُلقي إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله ؟ قال: فكان أمر اللَّه أسرع من أمره. قال اللَّه: ﴿ يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]. قال: لم يبق نار في الأرض إلا طفئت وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أحد يومئذ بنار ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه وقال الثوري عن الأعمش عن شيخ عن عليّ بن أبي طالب ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ قال: لا تضريه، وقال ابن عباس وأبو العالية لولا أن اللَّه عز وجل قال: ﴿ وَسَلَٰمًا ﴾ لآذي إبراهيم بردها، وقال جويبر عن الضحاك: ﴿ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ قالوا: صنعوا له حظيرة من حطب جزل وأشعلوا فيه النار من كل جانب فأصبح ولم يصبه منها شيء حتى أخمدها اللَّه. قال: ويذكرون أن جبريل كان معه يمسح وجهه من العرق فلم يصبه منها شيء غير ذلك، وقال السدي: كان معه فيها ملك الظل.
=

---

(١) أخرجه البخاري [٤٥٦٤].

وفي قصة موسى عليه السلام مع فرعون، حين فر موسى ومعه بنو إسرائيل من فرعون وجنوده طالباً النجاة باتجاه البحر، فلما قارب فرعون من إدراكهم والفتك بهم أمر اللّه تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه فانشق، ونحن نعلم أن خاصية الماء الاستطراق، ولكن اللّه سبحانه وتعالى أمر البحر أن ينشق لموسى، وعطّل له قانوناً من قوانين الكون [1].

= وقال ابن أبي حاتم حدثنا عليّ بن الحسين حدثنا يوسف بن موسى حدثنا مهران حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن المنهال بن عمرو قال: أخبرت أن إبراهيم ألقي في النار قال: فكان فيها إما خمسين وإما أربعين. قال: ما كنت أياماً وليالي قط أطيب عيشاً إذ كنت فيها وددت أن عيشي وحياتي كلها مثل عيشي إذ كنت فيها، وقال أبو زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة قال: إن أحسن شيء قال أبو إبراهيم لما رفع عنه الطبق وهو في النار وجده يرشح جبينه قال عند ذلك: نعم الرب ربك يا إبراهيم. وقال قتادة: لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار، إلا الوزغ. وقال الزهري أمر النبي ﷺ بقتله وسماه فويسقاً.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا عبيد اللّه ابن أخي ابن وهب حدثني عمر حدثنا جرير بن حازم أن نافعاً حدثه قال: حدثتني مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت: دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحاً فقلت يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح؟ فقالت: نقتل به هذه الأوزاغ إن رسول اللّه ﷺ قال: «إن إبراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار غير الوزغ فإنه كان ينفخ على إبراهيم فأمرنا رسول اللّه ﷺ بقتله.

تفسير ابن كثير [٣/ ١٧٩-١٨٠].

(١) قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣].

قال ابن كثير: ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ قال قتادة: أوحى اللّه تلك الليلة إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع فبات البحر تلك الليلة وله اضطراب ولا يدري من أي جانب يضربه موسى، فلما انتهى إليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون يا نبي اللّه أين أمرك ربك عز وجل. قال: أمرني أن أضرب البحر قال فاضربه، وقال محمد بن إسحاق أوحى اللّه - فيما ذكر لي - إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له قال: فبات البحر يضطرب ويضرب بعضه بعضاً فرقاً من اللّه تعالى وانتظاراً لما أمره اللّه، وأوحى اللّه إلى موسى: ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ فضربه بها ففيها سلطان اللّه الذي أعطاه فانفلق، وذكر غير واحد أنه جاءه فكناه فقال انفلق على ذلك بإذن اللّه.

قال اللّه تعالى: ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، أي: كالجبل الكبير قاله ابن مسعود وابن عباس ومحمد بن كعب والضحاك وقتادة وغيرهم. وقال عطاء الخراساني: =

وكذلك عبد اللّه ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام، كانت له أكثر من معجزة في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن اللّه (١).

هذا قليل من كثير ذكره اللّه تعالى في كتابه الكريم ليلفتنا إلى قدرته سبحانه وعظمته، وانصياع كل المخلوقات لأمره.

= هو الفج بين الجبلين، وقال ابن عباس صار البحر اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق، وزاد السدي وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض، وقام الماء على حيله كالحيطان وبعث اللّه الريح إلى قعر البحر فلفحته فصار يبساً كوجه الأرض. قال اللّه تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]. [تفسير ابن كثير ٣/ ٣٢٥].

(١) إشارة إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾ [آل عمران: ٤٩].

قال ابن كثير: قوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ قائلاً لهم: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ وكذلك كان يفعل بصور من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن اللّه عز وجل الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله. ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ﴾ قيل: إنه الذي يبصر نهاراً ولا يبصر ليلاً، وقيل: بالعكس، وقيل: الأعشى، وقيل: الأعمش، وقيل: هو الذي يولد أعمى وهو أشبه لأنه أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي ﴿وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ معروف ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ قال كثير من العلماء: بعث اللّه كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة، فبعثه اللّه بمعجزات بهرت الأبصار، وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من عباد اللّه الأبرار.

وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد.

وكذلك محمد ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجاريد الشعراء فأتاهم بكتاب من اللّه عز وجل فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً لو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وما ذاك إلا أن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبداً.

وقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾ أي: أخبركم بما أكل أحدكم الآن وما هو مدخر له في بيته لغد، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في ذلك كله: ﴿لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ﴾ أي: على صدقي فيما جئتكم به. [تفسير ابن كثير: ١/ ٣٤٤-٣٤٥].

القوانين الكونية في حياة الناس

السؤال: بعيداً عن معجزات الأنبياء والرسل وتعطيل قوانين الكون لتأييدهم من اللَّه تعالى حتى يُبلغوا رسالته، هذه القوانين في حياتنا العادية، هل هي أيضاً مرتبطة بمشيئة اللَّه في كل حركاتها.

الجواب: نعم إن اللَّه سبحانه وتعالى يغيِّر ناموساً من نواميس الكون؛ ليلفت الناس إلى طلاقة قدرته، وإن القوانين في انطلاقها مقيدة بالمشيئة، فيأتي مثلًا إلى جزء من العالم، الأصل فيه أنه مطير، يأتيه المطر في كل عام، ثم يأتي عام من الأعوام لا تمطر السماء، ويصاب هذا الجزء من الأرض بالجفاف، بعد أن كان قانونه هو المطر الغزير.

أيضاً نهر من الأنهار، يفيض ماؤه كل عام، ثم يأتي عام لا تنزل فيه الأمطار، فلا يحدث الفيضان، ويعيش الناس عام جفاف.

إذن.. هذا النهر، أو هذه البقعة من الدنيا، رغم أنها خاضعة لقانون من قوانين اللَّه سبحانه وتعالى، وهو المطر كل عام. المشيئة الإلهية تمنع الأمطار في عام ما من النزول، لماذا ؟ حتى يلتفت هؤلاء الناس إلى أن المنعم هو اللَّه سبحانه وتعالى، ولا ينسوه مع مُضيِّ الزمن وتقلبهم في النعم، فيعتقدون أن ذلك حق مكتسبٌ لهم.

ونرى أيضاً منطقة بها برد شديد في العالم، يأتي عليها عام لا يحدث فيها برد ولا صقيع بل ينقلب البرد إلى صيف شديد.. أو منطقة آمنة من الزلازل لا تدخل فيما يسميه العلماء بحزام الزلازل؛ ثم يأتي عام فتصاب بزلزال عنيف.

ذلك لفتة من اللَّه سبحانه وتعالى؛ ليؤكد لنا أن قوانين الكون لا تحكم مشيئةَ اللَّه، ولكنها تخضع له سبحانه وتعالى. فهو الذي خلق هذه القوانين، وبأمره سبحانه وتعالى تعمل، ووفقاً لمشيئته وقدره.

وهناك من يقول: إن اللَّه سبحانه وتعالى خلق الكون، ووضع له قوانينه ثم تركه بعد ذلك يعمل بهذه القوانين، وهذا خطأ جسيم. فاللَّه سبحانه وتعالى بيده

الأمر كله، قائمٌ عليه، ولو كانت المسألة هي قوانين الكون، وهي تعمل بلا تدخل من اللَّه لعبدت الناس القوانين.

ولنقرأ الآية الكريمة التي يفزع إليها كل مؤمن إذا أحس بضرر أو واجهه سوء، يقول اللَّه سبحانه وتعالى في هذه الآية: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ومعنى ﴿ ٱلْحَيُّ ﴾: أنه دائم الحياة والوجود، لا يدركه الموت، لأنه خالق الموت والحياة. ومعنى: ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾، أي: القائم على ملكه، وهذه تحتاج إلى تأمل وتدبر؛ لأن كثيراً من الناس يردد أن الكون يمشي بالقوانين التي خلقها اللَّه سبحانه وتعالى، وهي قوانين دقيقة، لا تختل بالزمن، ولا تتأثر بأي شيء.

ولكن اللَّه سبحانه وتعالى يريد أن يخبرنا أنه خلق الكون، ووضع له قوانينه، ولكنه قائم عليه، أي: أن اللَّه سبحانه وتعالى قائم على ملكه، لا يتركه لحظة واحدة، واللَّه طلب منا أن نأخذ بالأسباب، وحينما لا تستجيب الأسباب، فإن المؤمن يفزع إلى ربه، ويرفع يديه إلى السماء ويقول: « يا رب »، وكلمة يا رب؛ إيماناً بأن اللَّه سبحانه وتعالى قائم على ملكه، فحين يفزع المؤمن إلى اللَّه، إنما يعلم أن اللَّه قادر متى عجزت الأسباب، وهو قائم على كونه في كل لحظة وثانية، يبدل العسر يسراً، واليأس أملًا وفرجاً.

وتأملوا قصة هاجر أم إسماعيل عليهما السلام: تركت وليدها عند موضع بئر زمزم الآن، وانطلقت تسعى من أجل طلب الماء، ولكن الأسباب أعيتها وعجزت أن تفي لها بطلبها، وبعد سبعة أشواط تعبت وتسرب اليأس إلى قلبها؛ فضرب وليدها الأرض بقدمه، وهو الطفل الضعيف الذي لا يملك من أسباب الدنيا شيئاً، فانفجر الماء.

الأم القادرة التي تستطيع أن تسير هنا وهناك تبحث عن الماء، لم تستطعه، وتعجز الأسباب أن تيسّر لها ولو شَربَةَ ماء، والطفل الرضيع العاجز الذي لا يملك استخدام الأسباب، بل لم يعرفها بعد يضرب الأرض بقدمه فينفجر الماء بأمر اللَّه، ليس هذا فحسب بل تظل هذه العين إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها،

لا يَغيضُ ماؤها، ليس هذا فقط بل هو شفاء ورحمة من اللّه الرؤوف الرحيم[(١)].

فأي أسباب هذه التي تقوم بنفسها !! سبحان ملك الملوك، كل شيء بيده، يرفع من يشاء، ويخفض من يشاء، ويعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، لا إله غيره ولا رب سواه، ولا حول ولا قوة إلا به سبحانه وتعالى.

---

(١) عن جابر رضي اللّه تعالى عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ماء زمزم لما شرب له». أخرجه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [٢٤٨٤].

معنى الزمن وحقيقته وحسابه

السؤال: بعض الناس يتساءل عن معنى العطاء المتجدد للقرآن الكريم، وهل اللَّه سبحانه وتعالى عنده زمن، بحيث يقسم الأشياء حسب الزمن، أم أن اللَّه سبحانه وتعالى لا زمن عنده، وبالتالي فما معنى عطائه لكل جيل، ويضيف بعض الناس في تساؤلاتهم عن معنى حرف السين في القرآن الكريم فهل اللَّه سبحانه وتعالى حين يذكر حرف السين دليل على أنه يتحدث عن أشياء ستأتي ؟ هل اللَّه تعالى في هذا الحديث يعني أن هذه الأشياء مستقبلية، وكيف يحدث ذلك ولا زمن عند اللَّه سبحانه وتعالى ؟

الجواب: نقول لهؤلاء جميعاً: إن اللَّه سبحانه وتعالى لا زمن عنده، ولا تَحدُّه حدود ولا قيود، ولكن القرآن كتاب منزل من عند اللَّه، ولذلك فهو يخاطب الناس على قدر عقولهم، ويعطيهم بالقدر الذي يفهمونه ببشريتهم، والقوانين التي وضعها اللَّه سبحانه وتعالى والأسباب في الأرض.

ولكي نفهم هذه النقطة لا بد لنا من إيضاح:

نحن كبشر يحكمنا شيء اسمه الزمن، فاليوم عندنا مقسم إلى أربع وعشرين ساعة مثلًا، والناس تقول: إن اليوم هو من شروق الشمس إلى شروقها مرة أخرى، وبعضهم يقول: لا. اليوم من شروق الشمس إلى غروبها، ثم عندما يأتي الليل يكون ليلة، ولذلك يقولون: يوم وليلة، هذا في قوانين الأرض.

أما عند اللَّه سبحانه وتعالى فلا شيء من هذا موجود. فاللَّه يقول في كتابه العزيز: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧].

ويقول: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥]، ونحن نسأل: هل اليوم عند اللَّه سبحانه وتعالى ألف سنة، أو مائة ألف سنة ؟ الحقيقة أنه لا زمن عند اللَّه سبحانه وتعالى، ولذلك فإن اليوم يمكن أن يكون ألف سنة، ويمكن أن يكون مائة ألف سنة، ويمكن أن يكون ملايين السنين بحساب الأرض، لماذا ؟ لأن اللَّه سبحانه وتعالى هو الذي يخلق، وكل شيء في الدنيا

مخلوق للّه خاضع له، فإذا أراد اللّه سبحانه وتعالى يوماً كألف سنة، قال له: ﴿ كُن ﴾ [يس: ٨٢] فيخرج ذلك اليوم من علم اللّه سبحانه وتعالى إلى علم غير القادر - وهو الإنسان - وكان ألف سنة كما أراد اللّه سبحانه وتعالى أن يكون. وإذا أراد اللّه له يوماً مقداره مائة ألف سنة قال له ﴿ كُن ﴾ فيخرج هذا اليوم من علم اللّه سبحانه وتعالى إلى علم غير القادر - وهو الإنسان - فكان مائة ألف سنة، وهكذا، أي: أنه لا شيء غير موجود في علم اللّه بل كل شيء موجود في علمه، وهو موجود في علمه سبحانه وتعالى بلا حدود وبلا قيود؛ لأن اللّه سبحانه وتعالى لا يحده شيء، وهو الذي يخلق وهو الذي يريد وكل شيء خاضع له.

ومن هنا فليست هناك مقاييس في الخلق لإرادة اللّه سبحانه وتعالى ومشيئته ولا حدود ولا قيود تجعل شيئاً يمكن أن يُفرَض في قالب معين سوى المشيئة، فإذا أراد سبحانه أن يخلق لنا يوماً مقداره كذا.. خلقه، ولذلك فاللّه تعالى هو الذي يحدد الزمن والقوانين وكل شيء، ولكن القوانين والزمن لا تحدد قدرة اللّه سبحانه وتعالى وليست قيداً على طلاقة قدرته.

وهكذا يجب أن نفهم أن مستقبلية الأشياء هي لنا وليست لله سبحانه وتعالى، فاللّه ليس عنده مستقبل ولا ماض، ولا زمن على الإطلاق، ولكنه يخلق الأشياء بكلمة ﴿ كُن ﴾ [يس: ٨٢]، حينما يشاء ووقتما يريد، فما سيحدث بعد ملايين السنين هو عند اللّه موجود، وإن كانت البشرية لا تراه إلا بعد ملايين السنين حين يشاء اللّه سبحانه وتعالى أن يُخرِجَه في الوقت والمكان الذي يريده.

* * *

الليلة . . . لماذا كانت بداية الزمن ؟

السؤال: إننا نجد في القرآن الكريم أنه عندما يتكلم عن الزمن يتكلم بالليلة. فما الحكمة في ذلك ؟

الجواب: القرآن عندما يذكر الزمن فهو يبدأ بالليلة.

مثال ذلك إننا ندخل شهر الصوم بدخول ليلة ظهور الهلال، ذلك أن الليل فيه علامة مميزة للتأريخ هي الهلال.

صحيح أن الشمس تشرق كل صباح وتغرب، لكن الليل يمكن أن نعرف منه الشهر، ذلك أن حساب الشروق يتطلب قدراً من الحسابات المتباينة، أما الغروب وظهور الهلال فيمكن أن نعرفه بالعين المجردة.

ونحن نصلي قيام رمضان مثلًا عند بدء ظهور هلال رمضان، ولا نصلي التراويح عند ظهور هلال شوال.

ولا توجد ليلة في الدين الحنيف تتبع النهار إلا يوم عرفة، فيوم عرفة هو الذي يتبع فيه الليل النهار، وفي تلك الليلة يذهب المسلمون إلى مزدلفة ثم يروحون ليوم الجمع.

إذن. . الليلة هي ابتداء الزمن الذي يراد به التدرج لمعرفة الشهور.

والزمن عند البشر كما أراده الله عز وجل عدته السنة وهي اثنا عشر شهراً.

والسنة الهجرية تختلف عن السنة الميلادية، وتقل عنها أحد عشر يوماً، وذلك رحمة من اللّه تعالى بالمؤمنين، لأن التوقيت الشمسي تثبت فيه مواقيت الشهور لأعوام طويلة، والتوقيت القمري يجعل رمضان على سبيل المثال يأتي مرة في الصيف، وبعد سنوات يأتي في الربيع، وبعد سنوات يأتي في الشتاء، وبعد سنوات يأتي في الخريف. وكذلك الحج إلى بيت اللّه الحرام.

وهكذا تدور المواسم الدينية على كل الفصول.

❁ ❁ ❁

مقاييس الزمن في الدنيا لا تصلح لليوم الآخر!

السؤال: بعض العلماء يقول: إن الناس قبل اليوم الآخر ستشملهم غيبوبة الموت، وإن الآخرة ستكون استيقاظاً لهم؛ لأنهم في الآخرة، سيشعرون بالأهوال، ويرون أشياء، ومن هنا ستكون الآخرة نهاراً، لأن الرؤية وقتها أو محلها النهار، ما رأي فضيلتكم ؟

الجواب: إن هذا فيه تجاوز، لماذا ؟ لأن كثيراً من الناس يأتون بمقاييس الدنيا، ويطبقونها على يوم ليس من أيام الدنيا، واللَّه سبحانه وتعالى أعطانا علامات الآخرة، ومن هذه العلامات أن كل شيء في هذه الدنيا كالليل والنهار، والبحار، والجبال، والنجوم، والشمس، والقمر، كل ما في هذه الدنيا سينتهي، مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ ﴾ [التكوير].

ولهذا فإن كل المقاييس الدنيوية ستزول، ولا يصح لنا أن نستخدم مقياساً دنيوياً في وصف يوم الدين، كأن نقول: إن كلمة يوم، معناها أنه سيكون نهاراً، إلى آخر ما يقال؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى أخبرنا، أنه في هذا اليوم، سيزول كل شيء في هذه الدنيا، فلا يقول أيٌّ منا، إن هذا اليوم أربع وعشرون ساعة، أو أنه نهار، إلى آخر هذا، لا بد أن نعرف أن كل شيء سوف يكون بمقاييس جديدة يضعها اللَّه سبحانه وتعالى، ولا ندري عنها شيئاً، إلا ما أخبرنا بها اللَّه تعالى في كتابه، أو علمنا إياها الرسول ﷺ ونقلت إلينا بالطريق المعروف عند المحدثين والرواة وقد ورد في ذلك أن الزمن واليوم سيكونان بخلاف زمن الدنيا وأيام الدنيا، وما علينا إلا أن نعمل لذلك اليوم ونجتهد في طاعة اللَّه سبحانه.

❁ ❁ ❁

أسباب فشل الفلاسفة في إثبات عدم البعث

السؤال: لماذا فشل العقل في إثبات عدم البعث رغم الجهود التي بذلوها جيلًا بعد جيل، ورغم المحاولات التي حاولوا فيها أن ينكروا الحياة بعد الموت ؟

الجواب: إن جهود الفلاسفة التي حاولوا فيها إثبات عدم البعث تلاشت وذهبت أدراج الرياح، لأنهم أدخلوا أنفسهم في متاهات وقاسوا قدرة الحق على قدرة الخلق وهذا القياس مُحال، لأن قدرة اللّه تعالى قد جعلت من الموت حياة، وجعل الموت أمراً مشاهداً رحمةً بالإنسان، فما الصعب في أن يجعل من الموت المشهدي للإنسان حياة أخرى ثم بعثاً أمام الحق في يوم القيامة.

وقد يقول قائل، كيف يبعث اللّه الإنسان بعد أن تبعثرت ذراته وتاهت مع تراب الأرض ؟

هنا نقول: إنك أيها الإنسان الذي تسأل هذا السؤال تظلم نفسك لأنك تنظر إلى الأمور كـ «مشخصات أجزاء»!!

ولنفرض أن إنساناً وزنه مائة كيلو جرام وأصابه مرض فنقص وزنه ثلاثين كيلو جراماً، هذه الكيلوجرامات الثلاثون قد نزلت فضلات وتحللت، وبعد ذلك جاء طبيب ناجح وشخص مرض هذا الإنسان وتم علاجه فاستعاد الإنسان ما فقده من وزن، هل كانت الثلاثون كيلو جراماً هي ذات الإنسان، هل تغيرت هذه الذات، أو تغير اسم الإنسان لفقدانها أو حتى بعد استعادتها؟!

الحشر . . . وإعادة الخلق يوم القيامة

السؤال: الكفار يقولون: كيف يستطيع الخالق سبحانه وتعالى أن يعيد خلقه مرة أخرى وحشرهم إليه يوم القيامة ؟

الجواب: الإجابة سهلة وبسيطة، إذا كنت أنا قد صنعت شيئاً، فهل لا أستطيع أن أعيد صناعته ؟ بالعكس في المرة الثانية تكون أسهل من المرة الأولى بالنسبة للإنسان على الأقل، فقد تحتاج في المرة الأولى إلى ابتكار ولمسات.

ولكنك في المرة الثانية إذا قيل لك: أعد صناعة نفس الشيء يكون ذلك أسهل وأيسر، ولكن اللّه سبحانه وتعالى ليس عنده سهل ولا صعب، فإذا كانت قضية الخلق محسومة، فكيف تكون قضية إعادة الخلق فيها جدل ؟ بينما هي بالنسبة لقدرتنا نحن أسهل.

ولكن الكفار الذين قد لا يجدون حجة في المجادلة في قضية الخلق لأنها كما قلنا محسومة، يجادلون، في قضية البعث.

ولقد جاء رجل يقال له: العاص بن وائل، وأخذ عظمة قديمة من البطحاء وفركها بيديه حتى صارت تراباً، ثم قال لرسول اللّه ﷺ: أيُحْيِي اللّه هذا بعد ما ترى؟ أي: بعد أن صار تراباً.

فقال رسول اللّه ﷺ: « نعم يبعث اللّه هذا، ويميتك اللّه ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم».

ونزلت الآية الكريمة التي في سورة يس يقول فيها تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ﴾[1] [يس].

---

(١) قال ابن كثير: قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ ﴾ [يس].

=

إذن . . الذين يجادلون في البعث، حجتهم داحضة فإن الله سبحانه وتعالى

= قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة: جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ : « نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار » ونزلت هذه الآيات من آخر يس ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ إلى آخرهن، وقال ابن أبي حاتم حدثنا عليّ بن الحسين بن الجنيد حدثنا محمد بن العلاء حدثنا عثمان بن سعيد الزيات عن هشيم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن العاص ابن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففته بيده ثم قال لرسول الله ﷺ : أيحيي الله هذا بعد ما أرى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم » قال: نزلت الآيات من آخر يس، ورواه ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم عن هشيم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير فذكره ولم يذكر ابن عباس رضي الله عنهما، وروي من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء عبد الله بن أبيّ بعظم ففته وذكر نحو ما تقدم، وهذا منكر لأن السورة مكية. وعبد الله بن أبي بن سلول إنما كان بالمدينة وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أبي بن خلف أو العاص بن وائل أو فيهما فهي عامة في كل من أنكر البعث، والألف واللام في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ للجنس يعم كل منكر للبعث ﴿ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أي: أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين كما قال عز وجل: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المرسلات] وقال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان: ٢] أي من نطفة من أخلاط متفرقة فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته كما قال الإمام أحمد في مسنده حدثنا أبو المغيرة حدثنا جرير حدثني عبد الرحمن بن ميسرة عن جبير بن نفير عن بشر بن جحاش قال: إن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى: يا بني آدم أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي، قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة ؟ »[1] ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يزيد بن هارون عن جرير بن عثمان به ولهذا قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨] أي استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض للأجساد والعظام الرميمة ونسي نفسه وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده ولهذا قال عز وجل: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا =

---

(١) رواه أحمد في المسند [٤/ ٢١٠] وابن ماجه [٢٧٠٧] وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه [٢١٨٨].

هو الذي خلق أول مرة، وهو سبحانه قادر على أن يعيد ما خلقه مرة أخرى.

وهؤلاء المجادلون بالباطل لو أنهم فكروا قليلًا لآمنوا بهذه الحقيقة، ولكن من نقائص العقل البشري، أنه يأتي إلى من هم دون اللَّه؛ فيتخذ منهم آلهة، ولو أن هذا العقل كان يفكر التفكير السليم؛ لما ترك الأعلى ويتخذ إلهاً ممن هم دونه، فلا يقبل عقلًا ولا منطقاً: أن أترك ذا القوة التي ليس فوقها قوة، وذا القدرة التي ليس فوقها قدرة، وآتي إلى من هم أقل قدرة لأعبدهم، أو آتي لمخلوق مثلى أتخذه إلهاً.

ولكن الذي يحدث أن النفس البشرية لها شهوات، وهي تريد أن تنطلق بهذه الشهوات، دون أن يكون هناك قيود تحدها.

واللَّه سبحانه وتعالى قد خلقنا جميعاً، وجعل لنا حقوقاً متساوية، فإذا جاء هوى النفس يطلب ما هو حق للغير، جاء عدل اللَّه وقال: لا، وحينئذ يبحث هوى النفس عمن يبيح له ذلك؛ فيخترع آلهة، أو يتصور آلهة تبيح له شهوات نفسه، ومن هنا يريد أن يشكل آلهة على هواه، فيتخذ أحجاراً، أو أسماء، أو أشياء يسميها هو، ولا وجود لها، ويضع لها هو المنهج الذي تمليه عليه نفسه، وفي هذه الحالة يكون الإنسان قد ألغى عقله، وخالف عن الحق.

= ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] أي يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت.

قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي قال: قال عقبة بن عمرو لحذيفة رضي اللَّه عنهما: ألا تحدثنا ما سمعت من رسول اللَّه ﷺ فقال سمعته ﷺ يقول: «إن رجلًا حضره الموت فلما يئس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا لي حطباً كثيراً جزلًا ثم أوقدوا فيه ناراً حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحشت فخذوها فدقوها فذروها في اليم ففعلوا فجمعه اللَّه تعالى إليه ثم قال له لم فعلت ذلك؟ قال من خشيتك فغفر اللَّه عز وجل له» فقال عقبة بن عمرو: وأنا سمعته ﷺ يقول ذلك وكان نباشاً[١].

وقد أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الملك بن عمير بألفاظ كثيرة منها أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه ثم يذروا نصفه في البر ونصفه في البحر في يوم رائح أي كثير الهواء ففعلوا ذلك، فأمر اللَّه تعالى البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه ثم قال له: كن، فإذا هو رجل قائم، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: مخافتك وأنت أعلم؛ فما تلافاه أن غفر له[٢]. تفسير ابن كثير [٣/ ٥٥٨: ٥٥٩].

---

(١) رواه أحمد في المسند [٤/ ١١٨، ٥/ ٤٠٧، ٣٨٣].

(٢) أخرجه البخاري [٦٤٨٠].

لماذا يمر أهل الجنة على النار ؟

السؤال: ما الحكمة من مرور أهل الجنة على النار ؟ فإن اللَّه تعالى يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٧١].

الجواب : لمرور الناس جميعاً على النار يوم القيامة حكمة بالغة، فلو أنني دخلت الجنة دون أن أمر على النار، وأشاهدها وأراها عين اليقين لما عرفت نعمة اللَّه عليَّ، ولما عرفت ما نجاني منه من عذاب وهوان، ولكن مروري على النار أولًا يجعلني أعرف نعمة اللَّه الكبرى، أعرف أنه نجاني من هذا العذاب الرهيب، وهذا الهوان، ثم بعد ذلك إذا كنت من أهل الجنة، وأدخلني اللَّه سبحانه وتعالى الجنة برحمته، أدرك النعمة الحقيقية التي امتن اللَّه سبحانه بها عليَّ، حين أقارن بين عذاب النار ونعيم الجنة، لذلك فإن اللَّه سبحانه وتعالى يريدني أن أعرف الفرق بين ما كنت سأتعرض له في النار لو خالفت منهج اللَّه تعالى، وما أتمتع به في الجنة برحمة اللَّه جزاء على طاعة اللَّه تعالى واتباع رسوله ﷺ[(١)].

---

(١) قال العلامة ابن كثير: قال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن حرب حدثنا خالد بن سليمان عن كثير بن زياد البرساني عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً ثم ينجي اللَّه الذين اتقوا، فلقيت جابر بن عبد اللَّه فقلت له: إنا اختلفنا في الورود فقال: يردونها جميعاً، وقال سليمان بن مرة: يدخلونها جميعاً وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه وقال: صُمّتا إن لم أكن سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم ثم ينجي اللَّه الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً» غريب ولم يخرجوه[(١)].

وقال الحسن بن عرفة حدثنا مروان بن معاوية عن بكار بن أبي مروان عن خالد ابن معدان قال: قال أهل الجنة بعد ما دخلوا الجنة: ألم يعدنا ربنا الورود على النار ؟ قال: قد مررتم عليها وهي خامدة.

وقال عبد الرزاق عن ابن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال: =

---

(١) رواه أحمد في المسند [٣/٣٢٨].

....

= كان عبد اللّه بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته فبكى فبكت امرأته. قال: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك تبكي فبكيت. قال: إني ذكرت قول اللّه عز وجل: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١] فلا أدري أنجو منها أم لا .. وفي رواية .. وكان مريضاً.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب حدثنا ابن يمان عن مالك بن مغول عن أبي إسحاق: كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أمي لم تلدني ثم يبكي. فقيل له: ما يبكيك يا أبا ميسرة؟ فقال: أخبرنا أنا واردوها ولم نخبر أنا صادرون عنها.

وقال عبد اللّه بن المبارك عن الحسن البصري قال: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار. قال: نعم قال: هل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك؟ قال: فما رئي ضاحكاً حتى لحق باللّه تعالى.

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا ابن عيينة عن عمرو أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع بن الأزرق فقال ابن عباس: الورود الدخول. فقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وردوا أم لا؟ وقال: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ [هود: ٩٨] أوردها أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى اللّه مخرجك منها بتكذيبك فضحك نافع.

وروى ابن جريج عن عطاء قال: قال أبو راشد الحروري وهو نافع بن الأزرق: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] فقال ابن عباس: ويلك أمجنون أنت؟ أين قوله تعالى: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ [هود: ٩٨]، ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٦]، ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾، [مريم-٧١] واللّه إن كان دعاء من مضى: اللّهُمَّ أخرجني من النار سالماً، وأدخلني الجنة غانماً.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن عبيد المحاربي حدثنا أسباط عن عبد الملك عن عبيد اللّه عن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس فأتاه رجل يقال له: أبو راشد وهو نافع بن الأزرق فقال له: يا ابن عباس أرأيت قول اللّه تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٧١]، قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها فانظر هل نصدر عنها أم لا؟

وقال أبو داود الطيالسي: قال شعبة: أخبرني عبد اللّه بن السائب عمن سمع ابن عباس يقرأها: « وإن منهم إلا واردها » يعني الكفار.

وهكذا روى عمرو بن الوليد البستي أنه سمع عكرمة يقرأها كذلك «وإن منهم إلا واردها» قال: وهم الظلمة كذلك كنا نقرأها، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ يعني البر والفاجر، ألا تسمع إلى قول اللّه لفرعون: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ الآية، =

....

= ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾، فسمى الورود على النار دخولاً وليس بصادر.
وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن عن إسرائيل عن السدي عن مرة عن عبد اللّه هو ابن مسعود ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال رسول اللّه ﷺ: « يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم ».
ورواه الترمذي عن عبد بن حميد عن عبيد اللّه عن إسرائيل عن السدي به، ورواه من طريق شعبة عن السدي عن مرة عن ابن مسعود مرفوعاً هكذا وقع هذا الحديث ههنا مرفوعاً.
وقد رواه أسباط عن السدي عن مرة عن عبد اللّه بن مسعود قال: يرد الناس جميعاً الصراط وورودهم: قيامهم حول النار ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل حتى إن آخرهم مراً رجل نوره على موضع إبهامي قدميه يمر فيتكفأ به الصراط، والصراط دحض مزلة عليه حسك كحسك القتاد حافتاه ملائكة معهم كلاليب من النار يختطفون بها الناس. وذكر تمام الحديث رواه ابن أبي حاتم.
وقال ابن جرير: حدثنا خلاد بن أسلم حدثنا النضر حدثنا إسرائيل أخبرنا أبو إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد اللّه قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح والثالثة كأجود الخيل والرابعة كأجود البهائم ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سلم سلم، ولهذا شواهد في الصحيحين وغيرهما من رواية أنس وأبي سعيد وأبي هريرة وجابر وغيرهم من الصحابة رضي اللّه تعالى عنهم.
وقال ابن جرير: حدثني يعقوب حدثنا ابن علية عن الجريري عن أبي السليك عن غنيم ابن قيس قال: ذكروا ورود النار فقال كعب: تمسك النار الناس كأنها متن إهالة حتى يستوي عليها أقدام الخلائق برهم وفاجرهم ثم يناديها مناد: أن أمسكي أصحابك ودعي أصحابي. قال: فتخسف بكل ولي لها هي أعلم بهم من الرجل بولده. ويخرج المؤمنون ندية ثيابهم، قال كعب: ما بين منكبي الخازن من خزنتها مسيرة سنة مع كل واحد منهم عمود ذو شعبتين يدفع به الدفع فيصرع به في النار سبعمائة ألف.
وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن أم مبشر عن حفصة قالت: قال رسول اللّه ﷺ: «إني لأرجو ألا يدخل النار إن شاء اللّه أحد شهد بدراً والحديبية». قالت: فقلت: أليس اللّه يقول:
﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾، قالت: فسمعته يقول: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[مريم: ٧٢].
وقال أحمد أيضاً: حدثنا ابن إدريس حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن أم =

....

= مبشر امرأة زيد بن حارثة قالت: كان رسول اللّه ﷺ في بيت حفصة فقال: لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية » قالت حفصة: أليس اللّه يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ فقال رسول اللّه ﷺ: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ الآية.
وفي الصحيحين من حديث الزهري عن سعيد عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحلة القسم ».
وقال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرني الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: « من مات له ثلاثة لم تمسه النار إلا تحلة القسم » يعني الورود.
وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا زمعة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم » قال الزهري: كأنه يريد هذه الآية: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾.
وقال ابن جرير: حدثني عمران بن بكار الكلاعي حدثنا أبو المغيرة حدثنا عبد الرحمن ابن يزيد بن تميم حدثنا إسماعيل بن عبيد اللّه عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: خرج رسول اللّه ﷺ يعود رجلًا من أصحابه وعك؛ وأنا معه ثم قال: « إن اللّه تعالى يقول: هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن لتكون حظه من النار في الآخرة » غريب لم يخرجوه من هذا الوجه.
وحدثنا أبو كريب حدثنا أبو اليمان عن عثمان بن الأسود عن مجاهد قال: الحمى حظ كل مؤمن من النار ثم قرأ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ ﴾.
وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا زبان بن فائد عن سهل بن معاذ ابن أنس الجهني عن أبيه عن رسول اللّه ﷺ قال: « من قرأ قل هو اللّه أحد حتى يختمها عشر مرات بني اللّه له قصراً في الجنة » فقال عمر: إذاً نستكثر يا رسول اللّه، فقال رسول اللّه ﷺ: « اللّه أكثر وأطيب ».
وقال رسول اللّه ﷺ: « من قرأ ألف آية في سبيل اللّه كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً إن شاء اللّه ومن حرس من وراء المسلمين في سبيل اللّه متطوعاً بأجر سلطان لم ير النار بعينيه إلا تحلة القسم » قال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ ﴾. وإن الذكر في سبيل اللّه يضاعف فوق النفقة بسبعمائة ضعف، وفي رواية بسبعمائة ألف ضعف.
وروى أبو داود عن أبي الطاهر عن ابن وهب وعن يحيى بن أيوب كلاهما عن زبان عن سهل عن أبيه عن رسول اللّه ﷺ: « إن الصلاة عليّ والصيام والذكر يضاعف النفقة في سبيل اللّه بسبعمائة ضعف ».
وقال عبد الرزاق: عن معمر عن قتادة قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ ﴾، قال: هو المرور عليها. =

* * *

= وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها، وورود المشركين أن يدخلوها، وقال النبي ﷺ: «الزالون والزالات يومئذ كثير وقد أحاط بالجسر يومئذ سماطان من الملائكة دعاؤهم يا اللّه سلم سلم».

وقال السدي عن مرة عن ابن مسعود في قوله: ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ قال: قسماً واجباً.

وقال مجاهد: حتماً، قال: قضاء. وكذا قال ابن جريج.

وقوله: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ أي: إذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم، نجى اللّه تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم وهي مواضع السجود وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فيخرجون أولًا من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان ثم الذي يليه ثم الذي يليه ثم الذي يليه حتى يخرجوا من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، ثم يخرج اللّه من النار من قال يوماً من الدهر: لا إله إلا اللّه وإن لم يعمل خيراً قط ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول اللّه ﷺ ولهذا قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧٢].

تفسير ابن كثير [٣/ ١٢٩، ١٣٠].

لماذا نرى النار يوم القيامة ؟

السؤال: ذكر القرآن الكريم أن البشر جميعاً سيرون النار يوم القيامة ؟فما الحكمة من رؤية المؤمن لها ؟

الجواب: رؤية المؤمن للنار يوم القيامة وعدم دخوله إليها هو في حد ذاته يجعله يشعر بحلاوة النجاة، وتحدث نفسه: لو أنه عصى اللّه تعالى لكان مصيره في هذه النار الشديدة المهلكة، ولكنه بطاعته للّه وامتثاله لأوامره ونواهيه نجاه منها وأبدله بدلًا منها جنة فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

إن هناك مثالًا أضربه دائماً لأوضح الفرق بين المؤمن الذي هداه اللّه إلى نعمة الإيمان، والضال الذي يرى في التكليف الإيماني عبئاً على كاهله.

المثال هو: لنفترض وجود تلميذين، واحد منهما كسول يصحو من نومه بصعوبة ويخرج من المنزل رغم أنفه مدعياً أنه سوف يذهب إلى المدرسة، لكنه لا يذهب إلى المدرسة، إنما يتسكع في الشوارع، أو يلتقي بعدد من أصدقاء السوء، هذا الكسول تمر عليه السنوات فيجد نفسه بلا مستقبل.

هذا مثله مثل الإنسان الضال الذي رأى في التكليف الإيماني عبئاً في الحياة، إنه يأتي يوم القيامة ليدخل النار بعد أن ظن أن الحياة اللاهية بالضلال منعته من دخول الجنة فلم يتزحزح عن النار، ويتكشف لمثل ذلك الإنسان الضال أنه أحب نفسه بطريقة ضارة، فلم يمتثل لتكاليف الإيمان؛ فضاعت منه جنة الرحمن.

وعلى العكس من ذلك نجد تلميذاً آخر، يقوم كل صباح في منتهى النشاط ويذهب إلى مدرسته بمنتهى الحيوية، ويستمع إلى دروس أساتذته بمنتهى الانتباه.

مثل هذا التلميذ ينال آخر العام أعلى الدرجات ويكون من البارزين في زملائه.

هكذا المؤمن الطائع المقبل على التكاليف الإيمانية بمنتهى الشوق والمحبة،

إن المؤمن المحب للتكاليف الإيمانية، يأتي يوم القيامة؛ ليشهد له عمله وقوله وسلوكه فيتزحزح عن النار ويدخل الجنة.

والفارق بين التلميذ اللاهي والتلميذ الجاد، هو كالفارق بين العبد اللاهي والعبد الطائع.

العبد اللاهي أحب نفسه حباً أحمق.

والعبد الطائع أحب نفسه حباً أعمق.

لهذا أوضح اللّه أننا جميعاً - مؤمنين أو ضالين - بأننا سوف نرى النار يوم القيامة.

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

۞ ۞ ۞

كيف تشهد أعضاء الإنسان عليه يوم القيامة ؟

السؤال: جاء في القرآن الكريم أن أعضاء الإنسان ستشهد عليه بما فعل يوم القيامة، فكيف يتم ذلك ؟

الجواب: إن أعداء اللَّه يوم القيامة تشهد عليهم أسماعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون؛ فيتساءلون موجهين السؤال إلى جلودهم لم شهدتم علينا؟

فترد الجلود: أنطقنا اللَّه الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة، وما كان الكافر يتصور أن تشهد عليه أعضاؤه.

وهكذا يفاجأ الكافر يوم القيامة بأن أعضاءه تشهد عليه، تتناقض معه كل الأدوات التي ظن أنها تأتمر بأمره في الدنيا، لكنها في حقيقة الأمر كانت مسخرة له بأمر اللَّه [١].

---

(١) إشارة لقول اللَّه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فصلت].

قال ابن كثير: يقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يُحشرون إلى النار ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ أي: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى: ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ أي: عطاشاً، وقوله عز وجل: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا ﴾ أي: وقفوا عليها ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي: بأعمالهم مما قدموه وأخروه لا يكتم منه حرف، ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ أي: لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم فعند ذلك أجابتهم الأعضاء: ﴿ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾، أي: فهو لا يخالف ولا يمانع وإليه ترجعون.

عن أنس بن مالك رضي اللَّه تعالى عنه قال: ضحك رسول اللَّه ﷺ ذات يوم وتبسم، =

لقد خلق اللّه هذه الأعضاء والأبعاض للإنسان، وخلق له تلك الأجهزة

= فقال ﷺ: «ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت؟» قالوا: يا رسول اللّه من أي شيء ضحكت؟ قال ﷺ: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أي ربي أليس وعدتني أن لا تظلمني، قال: بلى، فيقول: فإنني لا أقبل عليَّ شاهداً إلا من نفسي، فيقول اللّه تبارك وتعالى: أو ليس كفى بي شهيداً والملائكة الكرام الكاتبين - قال - فيردد هذا الكلام مراراً - قال - فيختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بعداً لكنَّ وسحقاً، عنكنّ كنت أجادل»، وقال أبو موسى: «يدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه عز وجل عمله، فيجحد، ويقول: أي رب وعزتك لقد كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل، فيقول له الملك: أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك، أي رب ما عملته، قال: فإذا فعل ذلك ختم على فيه، قال الأشعري فإني لأحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى».

وروى الحافظ أبو يعلى، عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فجحد وخاصم، فيقول: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك، فيقول: كذبوا فيقول: أهلك وعشيرتك. فيقول: كذبوا، فيقول: احلفوا، فيحلفون، ثم يصمتهم اللّه تعالى، وتشهد عليهم ألسنتهم ويدخلهم النار».

وقال ابن عباس رضي اللّه عنهما: إن يوم القيامة يأتي على الناس منه حين لا ينطقون ولا يعتذرون ولا يتكلمون، حتى يؤذن لهم، فيختصمون، فيجحد الجاحد بشركه باللّه تعالى، فيحلفون له كما يحلفون لكم فيبعث اللّه تعالى عليهم حين يجحدون شهداء من أنفسهم، جلودهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم ويختم على أفواههم، ثم يفتح لهم الأفواه، فتخاصم الجوارح، فتقول: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فتقر الألسنة بعد الجحود.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تكتمون منا الذي كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهرون اللّه بالكفر والمعاصي، ولا تبالون منه في زعمكم لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ، وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي: هذا الظن الفاسد وهو اعتقادكم أن اللّه تعالى لا يعلم كثيراً مما تعملون، هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي: في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم.

وروى الإمام أحمد، عن عبد اللّه رضي اللّه تعالى عنه قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفر: قرشي وختناه ثقفيان - أو ثقفي وختناه قرشيان - كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن اللّه يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه، وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: =

وجعل له إرادة السيطرة عليها في الدنيا، فهي تخضع لإرادة الإنسان وإن كان عاصياً لربه.

فأقدام العاصي تمشي به إلى أماكن لا يرضي عنها اللَّه.

وأقدام المؤمن تمشي به إلى المساجد حيث يُذكر اللَّه.

يد المؤمن تربت بالحنان على كتف اليتيم.

ويد الظالم تضرب إنساناً دون وجه حق.

كل أجهزة الإنسان مسخرة له في الدنيا؛ لتخدمه ولكنها بمجرد أن تنتهي حياته الدنيا لا سلطان له عليه، ويوم القيامة تشهد عليه.

❁ ❁ ❁

= إن سمع منه شيئاً سمعه كله، قال: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل اللَّه عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ - إلى قوله - الْخَاسِرِينَ﴾.

وروى الإمام أحمد، عن جابر رضي اللَّه تعالى عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن باللَّه الظن، فإن قوماً قد أرداهم سوء ظنهم باللَّه، فقال اللَّه تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾».

وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي: سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا، هم في النار لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذاراً فما لهم أعذار، ولا تقال لهم عثرات.

قال ابن جرير ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا﴾ أي: يسألوا الرجعة إلى الدنيا فلا جواب لهم، قال: وهذا كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون].

تفسير ابن كثير [٤/ ٩٧: ٩٩].

الهيئة التي نكون عليها في الآخرة حتى نتمكن من تحمل الرؤية

السؤال: على أي هيئة نكون في الآخرة؛ حتى نستطيع أن نرى اللَّه ؟

الجواب: الإنسان في الحياة قد خلقه اللَّه وهو على هيئة لا يستطيع بها أن يرى الحق سبحانه رؤية مادية، وفي الآخرة يبعثنا الحق بإعداد نتقبل به التجلي من الحق، وهذا من نعيم اللَّه في الآخرة (١).

كما أن نعيم الآخرة وهو نعيم فوق التصور البشري، كلما أخذ الإنسان منه شيئاً، يُخلق مكانه شيء آخر.

نحن نعيش في الدنيا بأسباب خلقها اللَّه تعالى، وفي الآخرة - نسأل اللَّه أن نكون من أهل القرب منه - فإننا سوف نرى اللَّه سبحانه وتعالى ويتجلى علينا برؤيته، ونعيش في الآخرة نلهم التسبيح والتحميد والتهليل، كما تلهم النفس

---

(١) قال ابن القيم عن قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٦].

فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجهه الكريم، كذلك فسرها رسول اللَّه ﷺ الذي أنزل عليه القرآن، فالصحابة من بعده، كما روى مسلم[١] في صحيحه من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلي عن صهيب قال: قال رسول اللَّه ﷺ ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال: « إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار، نادى منادٍ يا أهل الجنة إن لكم عند اللَّه موعداً ويريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو: ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار ؟ فيكشف الحجاب فينظرون إلى اللَّه فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة ».

بدائع التفسير [٢/ ٣٩٨].

---

(١) أخرجه مسلم [١٨١/ ٢٩٧] والترمذي [٢٥٥٢] وابن ماجه [١٨٧].

بإعداد أعده اللّه لنا، وبكيفية أخرى لا يعلمها إلا اللّه سبحانه وتعالى تؤهلنا للحياة التي أعدها اللّه لنا.

ولذلك فعلينا أن نعمل بالعقل فيما وهبه اللّه لنا من عطاء، وهذا العطاء هو من نعم اللّه علينا، وأن نحسن الفهم والعمل، وذلك حتى نأتي يوم القيامة لنستظل بظل عرش اللّه يوم لا ظل إلا ظله سبحانه وتعالى، ونسأله جل وعلا أن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم.



هل نرى اللّه تعالى في الآخرة ؟

السؤال: كيف نرى اللّه يوم القيامة ؟ ولماذا نعجز عن رؤيته في الدنيا ؟

الجواب: إن الإنسان مخلوق في هذه الدنيا على هيئة لا تمكنه من الرؤية المباشرة للّه تعالى، لذلك طلب المولى عز وجل من موسى أن ينظر إلى الجبل، وتجلى اللّه للجبل، ونحن نعرف أن الجبل له من الصلابة والقوة والتماسك، ما يعرفه كل البشر.

فماذا حدث للجبل ؟ لقد اندك الجبل، كأن اللّه يقول لموسى: أنا لم أضن عليك بالرؤية، ولكنك على هيئتك هذه لا تتحمل رؤيتي ولا تستطيعها، ذلك أن الجبل قد اندك حينما تجليت عليه.

ولقد صعق موسى من رؤية الجبل المدكوك عندما تجلى اللّه للجبل، وكأن اللّه بهذا الأمر يحسم تلك المسألة، مسألة رؤية الإنسان للّه رؤية مادية في الدنيا.

إن التكوين البشري غير معد لهذه الرؤية في هذه الدنيا.

إن الحق قد ادخر لنا رؤيته في اليوم الآخر.

لقد خلقنا في الدنيا بأجهزة محكومة بقوانين في حدود الإدراك.

فهناك حدود لإدراك العقل، وحدود لإدراك السمع، وحدود لإدراك البصر. إن لكل حواس الإنسان حدوداً تقف عندها.

إن الإنسان يرى الآن بالمجهر ما لم يكن يدركه من قبل بالعين المجردة، وهو قريب منهم.

والبشر يدركون الآن بواسطة الإذاعات المرئية والمسموعة ما لم يكونوا يدركونه من قبل، وعلى مسافات بعيدة للغاية حتى قيل: إن الدنيا أضحت قرية صغيرة.

لقد استطاع الإنسان وهو خلق من خلق اللّه تعالى، أن يصنع أجهزة غاية في التعقيد والإبداع نتيجة للعلم الذي وهبه اللّه للإنسان، هذه الأجهزة توسع حدود الرؤية والسمع والإدراك المحسوس، كالأقمار الصناعية وغيرها، وكل تلك

الأجهزة مصنوعة بفضل اللّٰه تعالى، ثم العقل الذي خلقه اللّٰه في الإنسان، ومن المادة التي خلقها اللّٰه تعالى وسخرها للإنسان.

ونحن في هذه الحياة نأكل ونشرب ونتغوط، وتمر على الواحد فينا عمليات الهدم بعد البناء، ويكفي أن نعرف أن العقل الإنساني به عدد كبير من الخلايا تموت كل يوم، والجسم الإنساني يستبدل خلاياه، طيلة عمره المحدد بأمر اللّٰه.

ولكن إعداد اللّٰه لعباده في الآخرة سوف يكون مختلفاً بحيث يستطيع كل واحد منهم رؤية ما لم تمكنه بشريته من رؤيته وأن يتنعم في حياة أخرى لها مقاييس أخرى [١].

---

(١) ومن الأحاديث الواردة في رؤية رب العزة سبحانه:

○ عن جرير قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر قال: « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامُّون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا ».

○ وعن جرير بن عبد اللّٰه قال: قال النبي ﷺ: « إنكم سترون ربكم عياناً ».

○ وعن جرير قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ليلة البدر فقال: « إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته ».

○ وعن أبي هريرة أن الناس قالوا: يا رسول اللّٰه هل نرى ربنا يوم القيامة ؟

فقال رسول الله ﷺ: « هل تضارون في القمر ليلة البدر؟ »

قالوا: لا يا رسول اللّٰه.

قال: « فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ ».

قالوا: لا يا رسول اللّٰه.

قال: « فإنكم ترونه كذلك، يجمع اللّٰه الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها أو منافقوها » شك إبراهيم فيأتيهم اللّٰه فيقول: أنا ربكم فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم اللّٰه في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه ويضرب السراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يؤمئذ، اللّٰهُمَّ سلم سلم.

وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم السعدان ؟ ».

قالوا: نعم يا رسول اللّٰه قال: « فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا اللّٰه، تخطف الناس بأعمالهم فمنهم الموبق بقي بعمله ومنهم المخردل أو المجازى أو نحوه، ثم يتجلى حتى إذا فرغ اللّٰه من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد =

....

۞ ۞ ۞

= من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار، من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه ممن يشهد أن لا إله إلا الله؛ فيعرفونهم في النار بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود. حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون تحته كما تنبت الحبة في حميل السيل.
ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار هو آخر أهل النار دخولاً الجنة.
فيقول: أي رب اصرف وجهي عن النار فإنه قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها، فيدعو الله ما شاء أن يدعوه.
ثم يقول الله هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسألني غيره؟
فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء.
فيصرف الله وجهه عن النار فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب قدمني إلى باب الجنة.
فيقول الله له: ألست قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسألني غير الذي أعطيت أبداً؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك.
فيقول: أي رب ويدعو الله.
حتى يقول: هل عسيت أن أعطيت ذلك أن تسأل غيره؟
فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره ويعطي ما شاء من عهود ومواثيق فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا قام إلى باب الجنة انفهقت له الجنة؛ فرأى ما فيها من الحبرة والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت ثم يقول: أي رب أدخلني الجنة.
فيقول الله: ألست قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت؟
فيقول: ويلك يا ابن آدم ما أغدرك.
فيقال: أي رب لا أكون أشقى خلقك، فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه، فإذا ضحك منه قال له: ادخل الجنة فإذا دخلها قال الله له: تَمنَّه؛ فسأل ربه وتمني حتى إن الله ليذكره يقول: كذا وكذا حتى انقطعت به الأماني قال الله: ذلك لك ومثله معه».
أخرجها البخاري [٧٤٣٤ - ٧٤٣٧].

بعض متاع الجنة . . . كما تحدث به القرآن

السؤال: ما الحكمة في أن اللّه ضرب مثلًا بأن الجنة فيها ماء غير آسن، ولبن لم يتغير طعمه، وخمر مختلف عن خمر الدنيا، وعسل مصفى؟

الجواب: إن اللّه يضرب المثل بالجنة بأن فيها أنهاراً من ماء غير آسن، ذلك أن العربي في زمان نزول القرآن الكريم كان ينتظر ماء السماء، وكانت الوديان تحتفظ بهذه المياه، وكانت القيعان تمتلئ بماء المطر؛ فيشرب منهما العرب ولا يبقى في قاع القيعان إلا الماء الآسن، وكان ذلك الماء مكروهاً عند العرب، لكن لا مفر منه عندما يحتاجونه؛ لذلك ضرب اللّه المثل مستبعداً منه ما يكرهه العرب من الماء الآسن.

وأيضاً، كان العرب يأخذون اللبن من الإبل ويحفظونه في أوان؛ ليشربوا منه، وبعد فترة كان اللبن يتغير طعمه، ولكن لا مفر من تناوله، لذلك يصور اللّه الجنة بأن فيها أنهاراً من لبن لم يتغير طعمه.

وكان العرب أيضاً يشربون الخمر، لكن الخمر فيها أضرار كثيرة؛ لذلك يصور اللّه الجنة بأن فيها أنهاراً من الخمر مختلفاً تماماً عن خمر الدنيا، المبيد للصحة، الذاهب بالعقل، المفقد للرشد، إن خمر الجنة لذة للشاربين.

وكان العرب عندما يحضرون العسل من الجبال؛ وفي الغالب كان يختلط به الرمل والحصى، وكان ذلك يضايق من يأكله، لكن اللّه يخبر أن في الجنة عسلًا مصفى لا يسبب الضيق لمن يأكله.

وكل ذلك أمثلة لتقريب الأمر للأذهان، وحتى تستوعبه العقول، أما على الحقيقة ففيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

❁ ❁ ❁

سعادة الكافر في باطنها العذاب

السؤال: أحياناً نرى الكافر سعيداً متمتعاً بحياته، فما تعليل فضيلتكم لذلك؟

الجواب: إن الكافر بنعم الله، حتى وإن بدا ظاهراً أنه قد وصل إلى السعادة، إلا أن حياته فيها من العذاب ما لا نراه(١).

(١) قال تعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل عمران].
وقوله تعالى: ﴿ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ١٢٦].
وقوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران -١٢].
وقال ﷺ: « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته »(١).
قال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾ يقول تعالى: لا تنظر إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه، من النعمة والغبطة والسرور، فعما قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجاً. وجميع ما هم فيه ﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ [غافر -٤].
وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس-٦٩، ٧٠].
وقال تعالى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤].
وقال تعالى: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق - ١٧] أي: قليلاً.
وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص - ٦١].
وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا وذكر مآلهم إلى النار، قال بعده: ﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران..١٩٨] أي: ضيافة ﴿ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران- ١٩٨].
عمدة التفسير [٣/ ٩٢-٩٣].

(١) أخرجه البخاري [٤٦٨٦]، ومسلم [٢٥٨٣] من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه.

أعمال الكافرين

السؤال: العلماء الذين كشف اللَّه على أيديهم دواءً نافعاً أو اختراعاً أفاد الإنسانية، هل هؤلاء يدخلون الجنة مع عدم إيمانهم ؟ وهل ما قدموه من عمل للإنسانية يغفر لهم أنهم لم يؤمنوا باللَّه وهل يتجاوز اللَّه عنهم بسبب عملهم ؟!

الجواب: بالطبع لا، ذلك أنك في أي عمل تقوم به إنما تطلب الجزاء ممن عملت من أجله، فأنت مثلاً إذا كنت تقوم ببناء منزل لي، فإنك تطلب الأجر مني، وإذا عملت لغيري تطلب الأجر منه، ولا يعقل أن يقوم إنسانٌ بالعمل لإنسان آخر، ثم يأتي فيطلب الجزاء مِنْ غير مَنْ عَمِلَ له.

والأساس في قبول الأعمال كلها، هو الإيمان؛ لأن الدنيا دار اختبار للإيمان، فيها امتحان يليه امتحان، منها الابتلاء بالخير، والابتلاء بالشر، ومنها الفتنة التي يسقط فيها البعض وينجو البعض الآخر بإيمانهم منها.

إذن.. كل أحداث الدنيا، هي اختبار للإيمان البشري، واللَّه غني عنا جميعاً، لا نزيد في ملكه شيئاً، ولا ننقص منه شيئاً؛ ذلك أن اللَّه قد خلق الكون بكل ما فيه من نعم وآيات وخصائص وأسرار، كشف سبحانه للعقل البشري بعضاً منها، وما زال هناك ما هو مجهول للبشر، كل هذا خلقه اللَّه قبل أن يخلقنا نحن؛ ولذلك فنحن لا نزيد في قدرة اللَّه ولا كماله شيئاً، ولا ننقص من ملكه سبحانه وتعالى شيئاً.

إذن.. الإنسان يأخذ الأجر ممن عمل من أجله، فإذا كنا قد عملنا من أجل اللَّه، وإذا كنا قد عملنا وفي قلبنا إخلاص للَّه، وإرضاء له سبحانه وتعالى، فنحن نأخذ أجرنا من اللَّه ونأتي يوم القيامة آمنين.

وإذا كان في قلبنا غير اللَّه؛ فإن اللَّه يوفينا أجرنا في الحياة الدنيا ممن عملنا من أجله سواء كان لشهرة، أو لمال أو لجاه، لذلك شاء عدل اللَّه أن الذين يعملون من أجل الدنيا يوفيهم أجورهم في الدنيا، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ولذلك نرى أنه من عمل من أجل الإنسانية مثلًا تخلده الإنسانية؛ فتقام له التماثيل، وترصد له الجوائز، ويطلق اسمه على شارع كذا أو مبنى كذا، إذن.. هو نال جزاءه ممن عمل من أجله.

ومن يعمل من أجل مجموعة من الناس، فإنهم يرفعونه ويبنون له القصور، وربما عينوه حاكماً عليهم، ومن هنا نال جزاءه من نفس نوع العمل الذي قام به.

أما من يعمل من أجل طلب رضا اللَّه، واضعاً نصب عينيه اليوم الآخر؛ يجد جزاءه عند اللَّه سبحانه وتعالى في الآخرة، ذلك هو عدل اللَّه سبحانه، وهو الأساس في الحساب.

اللَّه سبحانه وتعالى يريد أن يفهمنا ذلك؛ فيضرب لنا الأمثال حتى يقرب هذا المعنى من أذهاننا، وحتى نستطيع أن نستوعبه.

فلنتأمل قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨].

فكأن اللَّه تعالى يقول لنا: إن الذين كفروا لا يؤمنون بي، ولا بألوهيتي هؤلاء مهما عملوا أعمالهم كمثل التراب المتخلف عن الحريق تأتي به وتضعه في مكان خال في يوم شديد الرياح تبلغ فيه الرياح، من شدتها قوة العاصفة؛ فهل يتبقى من هذا التراب شيءٌ ؟! ولنتأمل قول اللَّه تعالى: ﴿ عَاصِفٍ ﴾ حتى لا يتبادر إلى أذهاننا أن الرياح ربما تكون شديدة ولكنها في شدتها قد تترك شيئاً؛ ولذلك يصورها اللَّه بالعاصفة التي لا تترك شيئاً من الرماد على الإطلاق، بعثرته وأضاعته.

وهؤلاء الكافرون مهما قصدوا بأعمالهم؛ إنما هي كالرماد الذي أطاحت به العاصفة، ومهما كسبوا فهم لا يقدرون على شيء منه، أي لا يبقى شيء منه، لماذا؟ لأنه ليس في قلوبهم إخلاص لله، وإيمان به، ومن هنا فإنهم لم يبقوا شيئاً للآخرة، ولم يعملوا شيئاً يقصدون به وجه اللَّه؛ ولذلك ضاعت أعمالهم جميعاً كما تضيع حفنة من الرماد في العاصفة [١].

---

(١) قال ابن كثير عند تفسيره للآية: هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره وكذبوا رسله وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ [إبراهيم ـ ١٨] أي =

* * *

= مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى لأنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئاً ولا ألفوا حاصلاً إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم -١٨] أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم كقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان- ٢٣]. وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران - ١١٧] وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة - ٢٦٤] وقوله في هذه الآية: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم - ١٨] أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾.
[تفسير ابن كثير [٢/٥٠٨-٥٠٩].

جزاء غير المؤمنين على أعمالهم

السؤال: هل أعمال العلماء والباحثين الذين قاموا بأبحاث تفيد البشرية، يوجد لها ثواب في الآخرة ؟

الجواب: على قدر إيمان هؤلاء، وعلى قدر اتجاهم بأعمالهم إلى اللَّه يكون الثواب، أما من عمل وهو مشرك باللَّه كافر به، فلقد أخذ من الدنيا المجد الذي سعى من أجله، والعظمة التي تمناها، والجاه الذي رغب فيه، وما له في الآخرة من نصيب.

بل إن المسلم الذي يعمل من أجل أن يقال عنه إنه عمل كذا وأقام كذا، هذا المسلم - رغم إيمانه باللَّه - فإن عمله خالطه الرياء بمعنى أحب أن يقال: «فلان عمل كذا. . . » هذا المسلم ينطبق عليه قول الرسول ﷺ: إن اللَّه سيقول للإنسان الذي عمل من أجل أن يقال عنه في الدنيا: «عملت ليقال وقد قيل»[(١)].

---

(١) روى ابن خزيمة في صحيحه [٤/ ١١٥، ١١٦/ رقم: ٢٤٨٢]. عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال: حدثني رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل يقتل في سبيل اللَّه، ورجل كثير المال، فيقول للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟
قال: بلى يا رب.
قال: فماذا عملت فيما علمت؟
قال: كنت أقوم به أثناء الليل وآناء النهار.
فيقول اللَّه له: كذبت.
وتقول الملائكة: كذبت.
ويقول اللَّه: بل أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قيل.
ويؤتى بصاحب المال فيقول اللَّه: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟!
قال: بلى.
قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟
=

هكذا يجب علينا أن نتدبر أمر أعمالنا لتكون النية في كل عمل متجهة إلى اللّه تعالى وعلى هدى رسول اللّه ﷺ[(١)].

❁ ❁ ❁

= قال: كنت أصل الرحم، وأتصدق. فيقول اللّه: كذبت.
وتقول الملائكة: كذبت.
فيقول اللّه: بل أردت أن يقال فلان جواد. فقد قيل ذاك.
ويؤتى بالذي قتل في سبيل اللّه، فيقال له: فيم قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتى قتلت.
فيقول اللّه: كذبت. وتقول الملائكة: كذبت.
ويقول اللّه عز وجل له: بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك.
ثم ضرب رسول اللّه ﷺ على ركبتي، فقال: «يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق اللّه تسعر بهم النار يوم القيامة».

(١) أخرج البخاري [١] عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

أحكام المنافق

السؤال: لماذا تتم معاملة المنافق في الدنيا كأنه مسلم ؟

الجواب: نحن نعلم أن المنافق هو الذي جمع بين أمرين: إعلان إسلام، وإبطان كفر. والمنافق مأخوذ من نافقاء اليربوع، وهي إحدى جحوره التي يستتر ويختفي فيها، واليربوع حيوان صحراوي يخادع من يريد به شراً فيفتح لنفسه بابين، يدخل أمام الرجل من باب ثم يخرج من باب آخر، فإن انتظره الرجل على باب فاليربوع يخرج من الآخر.

فالنفاق لم يعطهم إلا ظاهريات الإسلام، لكنهم يبطنون الكفر، ولذلك سيكونون في الدرك الأسفل من النار في الآخرة، وإن كانوا في الدنيا يعاملون معاملة المسلمين لتلفظهم بشهادة « لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه ».

إذن . . . فاللّه يعاملهم في الآخرة معاملة الكافرين، ويزيد على ذلك أنهم في الدرك الأسفل في النار نعوذ باللّه من ذلك.



المنافق أشد خطراً من الكافر

السؤال: أيهما أخطر على المجتمع المنافق أم الكافر؟

الجواب: إن المنافق أخطر على المجتمع المسلم من الكافر ذلك أن الكافر يعاند في الظاهر ويعلن ذلك بصراحة، وبكل وضوح بحيث ينتبه له المسلم فيأخذ حذره منه.

ولكن المنافق يزعم في الظاهر أنه على الإسلام ويبطن الكفر فيكون شوكة في ظهر المؤمنين ويطعنهم من الخلف دون أن يتنبه له أحد وهذا مكمن خطورته.

وهكذا نرى أن «المنافق» يحارب المجتمع بوجهين:

الوجه الأول: هو أن المنافق قد خدع المجتمع المؤمن بأنه معه فاعتبر سيفاً من سيوفه.

الوجه الثاني: هو أن المنافق بعدم اقتناعه وعدم إيمانه ثم بقدرته على الدس والوقيعة؛ أصبح سيفاً خفياً ضد المجتمع المؤمن.

لهذا فإن النفاق وأهله أشد خطورة على المجتمع المسلم نتيجة لإظهارهم الإسلام وإبطانهم الكفر.

۞ ۞ ۞

المنافقون وعقابهم في الدرك الأسفل من النار

السؤال: لماذا جعل اللّه عقاب المنافقين في الدرك الأسفل من النار؟

الجواب: ذلك أنهم خدعوا اللّه والمؤمنين، فقالوا كلمة الإيمان دون أن يكون لها رصيد إيماني في قلوبهم، وذلك هو عين الكذب.

ولذلك يكون العقاب من جنس ما فعلوا.

لقد أعلن هؤلاء المنافقون الإيمان، ونالوا به في الدنيا نفس مكانة المؤمنين الصادقين، لكنهم كانوا كاذبين؛ فقد أعلنوا كلمة «الإيمان»، وأبطنوا كلمة «الكفر».

لذلك فهم في الدنيا لهم أحكام الإسلام الظاهرة، ولهم ما للمسلمين من حقوق، ولكن في الآخرة هم في الدرك الأسفل من النار، جزاء خيانتهم وخداعهم للمؤمنين، ومناصرتهم للكافرين على المسلمين.



قوة المؤمن وضعف المنافق

السؤال: ما هي القوة التي يتمتع بها المؤمن حتى إن المسلمين الأوائل كانوا على قلة عددهم يهزمون أقوى جيوش العالم ؟

الجواب: المؤمن يتمتع بقوتين، قوة نفسية داخلية تهذب نفسه الأمارة بالسوء وتقوي نفسه المؤمنة بالله، وقوة إيمانية يواجه بها شراسة الباطل.

وهكذا نرى أن المؤمن تجتمع له قوتان، والكافر لا يملك إلا قوة واحدة.

لكن هناك الصنف الثالث من البشر « المنافقون »، الواحد منهم لا يقوى على نفسه، وهو ضعيف أمام هذه النفس، ونفس المنافق قد استذلها الباطل بعنف حتى سحق كرامة صاحبها؛ لذلك فلا تقوى نفس المنافق على أن تقبل دعوة الحق، ولا تستطيع نفس المنافق أن تكبح جماح ميلها إلى الباطل؛ لأن الباطل قد سحق هذه النفس بالسيادة [١].

---

(١) قال ابن القيم عند ذكر طبقات المكلفين، الطبقة الخامسة عشرة: طبقة الزنادقة، وهم قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسوله.

وهؤلاء المنافقون، هم في الدرك الأسفل من النار، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥].

فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف، وهم فوقهم في دركات النار. لأن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله، وزاد المنافقون عليهم بالكذب والنفاق، وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين.

ولهذا قال تعالى في حقهم: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ [المنافقون: ٤]، ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، أي لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد ها هنا حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها. فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم ـ وهم في الباطن على خلاف دينهم ـ أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم، معهم في الديار أولئك ساعة أو أياماً =

....

= ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر. وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحاً ومساءً، يدلون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم. فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾، لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدواً من الكفار المجاهرين.

ونظير ذلك قول النبي ﷺ: «ليس المسكين الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس، ولا يفطن له فيتصدق عليه»(١) فليس هذا نفياً لاسم المسكين عن الطواف، بل إخبار بأن هذا القانع الذي لا يسمونه مسكيناً أحق بهذا الاسم من الطواف الذي يسمونه مسكيناً.

ونظيره قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب»(٢). ليس هذا نفياً للاسم عن الصرعة ولكن إخبار بأن من يملك نفسه عند الغضب أحق منه بهذا الإسم.

ونظيره قوله ﷺ: «ما تعدون المفلس فيكم؟» قالوا: من لا درهم له ولا متاع. قال: «المفلس من يأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، ويأتي قد لطم هذا وضرب هذا وأخذ مال هذا فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من سيئاتهم ثم طرح عليه فألقي في النار»(٣).

ونظيره قوله ﷺ: «ما تعدون الرقوب فيكم» قالوا: من لا يولد له.

قال: «الرقوب من لم يقدم من ولده شيئاً»(٤).

ومنه عندي قوله ﷺ «الربا في النسيئة» وفي لفظ: «إنما الربا في النسيئة»(٥) هو إثبات لأن هذا النوع هو أحق باسم الربا من ربا الفضل، وليس فيه اسم الربا عن ربا الفضل فتأمله.

والمقصود أن هذه الطبقة أشقى الأشقياء، ولهذا يستهزأ بهم في الآخرة، وتعطي نوراً =

---

(١) أخرجه البخاري [١٤٧٦و١٤٧٩]، ومسلم [١٠٣٩]، وأبو داود [١٩٦١و١٩٣٢]، والنسائي [٥/ ٨٥]، وأحمد [٢/ ٢٦٠و٣١٦و٣٩٣و٣٩٥و٤٤٩و٤٥٧و٤٦٩]، والموطأ [٢/ ٩٢٣]، والدارمي [١٦٢٣]، من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

(٢) أخرجه البخاري [٦١١٤]، ومسلم [٢٦٠٩]، والموطأ [٢/ ٩٠٦]، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» [٣٩٤-٣٩٧]، وأحمد [٢/ ٢٣٦و٢٦٨و٥١٧]، من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

(٣) أخرجه مسلم [٢٥٨١] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم [٢٦٠٨]، وأبو داود [٤٧٧٩]، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه.

(٥) أخرجه البخاري [٢١٧٨]، ومسلم [١٥٩٦]، والنسائي [٧/ ٢٨١]، من حديث أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما.

....

= يتوسطون به على الصراط ثم يطفئ اللَّه نورهم، ويقال لهم: ﴿ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ ويضرب بينهم وبين المؤمنين: ﴿ بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحديد]، وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح، حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة، ونعوذ باللَّه من غضبه وعقابه. وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداء، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفراً وأخبث قلوباً، وأشد عداوة للَّه ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم، وإن كان البعداء متصدين لحرب المسلمين.

ولهذا قال تعالى في المنافقين: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقين: ٣].

وقال تعالى فيهم: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة-٧١] وقال تعالى في الكفار: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٨]. فالكافر لم يعقل، والمنافق أبصر ثم عمي، وعرف ثم تجاهل، وأقر ثم أنكر، وآمن ثم كفر، ومن كان هكذا فهو أشد كفراً وأخبث قلباً وأعتي على اللَّه ورسله، فاستحق الدرك الأسفل.

وفيه معنى آخر أيضاً، وهو: أن الحامل لهم على النفاق طلب العز والجاه بين الطائفتين، فيرضوا المؤمنين ليعزوهم، ويرضوا الكفار ليعزوهم أيضاً.

ومن ها هنا دخل عليهم البلاء، فإنهم أرادوا العزتين من الطائفتين، ولم يكن لهم غرض في الإيمان والإسلام ولا طاعة اللَّه ورسوله، بل كان ميلهم وصفوهم وجهتهم إلى الكفار، فقوبلوا على ذلك بأعظم الذل، وهو أن جعل اللَّه مستقرهم في أسفل السافلين تحت الكفار، فما اتصف به المنافقون من مخادعة اللَّه ورسوله والذين آمنوا، والاستهزاء بأهل الإيمان والكذب والتلاعب بالدين وإظهار أنهم من المؤمنين، وأبطنوا قلوبهم على الكفر والشرك وعداوة اللَّه ورسوله أمر اختصوا به عن الكفار فتغلظ كفرهم به، فاستحقوا الدرك الأسفل من النار.

ولهذا لما ذكر تعالى أقسام الخلق في أول سورة البقرة [٢-٢٠] فقسمهم إلى مؤمن ظاهراً وباطناً وكافر ظاهراً وباطناً، ومؤمن في الظاهر كافر في الباطن وهم المنافقون، ذكر في حق المؤمنين ثلاث آيات [٣-٥]، وفي حق الكفار آيتين [٦-٧]. فلما انتهى إلى ذكر المنافقين ذكر فيهم بضع عشرة آية [٨-٢٠] ذمهم فيها غاية الذم، وكشف عوراتهم وقبحهم وفضحهم، وأخبر: بأنهم هم السفهاء المفسدون في الأرض المخادعون المستهزئون المغبوبون في اشترائهم الضلالة بالهدى. =

....

= وأنهم صم بكم عمي فهم لا يرجعون، وأنهم مرضي القلوب وأن اللّٰه يزيدهم مرضاً إلى مرضهم، فلم يدع ذماً ولا عيباً إلا ذمهم به. وهذا يدل على شدة مقته سبحانه لهم، وبغضه إياهم، وعداوته لهم، وأنهم أبغض أعدائه إليه. فظهرت حكمته الباهرة في تخصيص هذه الطبقة بالدرك الأسفل من النار. نعوذ باللّٰه من مثل حالهم، ونسأله معافاته ورحمته.

ومن تأمل ما وصف اللّٰه به المنافقين في القرآن من صفات الذم علم أنهم أحق بالدرك الأسفل، فإنه وصفهم بمخادعته ومخادعة عباده ووصف قلوبهم بالمرض، وهو مرض الشبهات والشكوك. ووصفهم بالإفساد في الأرض، وبالاستهزاء بدينه وعباده، وبالطغيان واشتراء الضلالة بالهدى والصم والبكم والعمى، والحيرة والكسل عند عبادته، والزنا وقلة ذكره، والتردد. وهو التذبذب بين المؤمنين والكفار، فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، والحلف باسمه تعالى كذباً وباطلًا وبالكذب، وبغاية الجبن، وبعدم الفقه في الدين وبعدم العلم، وبالبخل وبعدم الإيمان باللّٰه وباليوم الآخر وبالرب، وبأنهم مضرة على المؤمنين لا يحصل لهم بنصيحتهم إلا الشر من الخبال والإسراع بينهم بالشر وإلقاء الفتنة. وكراهتهم لظهور أمر اللّٰه، ومحو الحق، وأنهم يحزنون بما يحصل للمؤمنين من الخير والنصر، ويفرحون بما يصل لهم من المحنة والابتلاء، وأنهم يتربصون الدوائر بالمسلمين، وبكراهتهم الإنفاق في مرضاة اللّٰه وسبيله، وبعيب المؤمنين ورميهم بما ليس فيهم، فيلمزون المتصدقين، ويعيبون مزهدهم، ويرمون مكثرهم بالرياء وإرادة الثناء في الناس. وأنهم عبيد الدنيا إن أعطوا منها رضوا وإن منعوا سخطوا، وبأنهم يؤذون رسول اللّٰه ﷺ وينسبونه إلى ما برأه اللّٰه منه أو يعيبونه بما هو من كماله وفضله، وأنهم يقصدون إرضاء المخلوقين ولا يطلبون إرضاء رب العالمين، وأنهم يسخرون من المؤمنين، وأنهم يفرحون إذا تخلفوا عن رسول اللّٰه ﷺ، ويكرهون الجهاد في سبيل اللّٰه، وأنهم يتحيلون على تعطيل فرائض اللّٰه عليهم بأنواع الحيل، وأنهم يرضون بالتخلف عن طاعة اللّٰه ورسوله، وأنهم مطبوع على قلوبهم، وأنهم يتركون ما أوجب اللّٰه عليهم مع قدرتهم عليه، وأنهم أحلف الناس باللّٰه: قد اتخذوا أيمانهم جُنة تقيهم من إنكار المسلمين عليهم، وهذا شأن المنافق، أحلف الناس باللّٰه كاذباً قد اتخذ يمينه جنة ووقاية. يتقي بها إنكار المسلمين عليه، ووصفهم بأنهم رجس. والرجس من كل جنس أخبثه وأقذره. فهم أخبث بني آدم وأقذرهم وأرذلهم، وبأنهم فاسقون، وبأنهم مضرة على أهل الإيمان يقصدون التفريق بينهم، ويؤوون من حاربهم وحارب اللّٰه ورسوله، وأنهم يتشبهون بهم ويضاهونهم في أعمالهم ليتوصلوا منها إلى الإضرار بهم وتفريق كلمتهم، وهذا شأن المنافقين أبداً، وبأنهم فتنوا أنفسهم بكفرهم باللّٰه ورسوله وتربصوا بالمسلمين دوائر السوء، وهذا عادتهم في كل زمان، وارتابوا في الدين فلم يصدقوا به، وغرتهم الأماني الباطلة وغرهم الشيطان، وأنهم أحسن الناس أجساماً تعجب الرائي أجسامهم، والسامع منطقهم، فإذا جاوزت أجسامهم وقولهم رأيت خُشباً مسندة، لا إيمان ولا فقه، ولا علم ولا صدق، بل =

....

= خشب قد كسيت كسوة تروق الناظر، وليسوا وراء ذلك شيئاً، وإذا عرض عليهم التوبة والاستغفار أبوها وزعموا أنهم لا حاجة لهم إليها، إما لأن ما عندهم من الزندقة والجهل المركب مغن عنها وعن الطاعات جملة . كحال كثير من الزنادقة . وإما احتقاراً وازدراء بمن يدعوهم إلى ذلك، ووصفهم تعالى بالاستهزاء به وبآياته وبرسوله وبأنهم مجرمون وبأنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم عن الإنفاق في مرضاته، ونسيان ذكره، وبأنهم يتولون الكفار ويعادون المؤمنين وبأن الشيطان قد استحوذ عليهم وغلب عليهم حتى أنساهم ذكر اللَّه فلا يذكرونه إلا قليلًا، وأنهم حزب الشيطان وأنهم يوادون من حاد اللَّه ورسوله وبأنهم يتمنون ما يعنت المؤمنين ويشق عليهم، وأن البغضاء تبدو لهم من أفواههم وعلى فلتات ألسنتهم، وأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم. ومن صفاتهم التي وصفهم بها رسول اللَّه ﷺ الكذب في الحديث والخيانة في الأمانة، والغدر عند العهد، والفجور عند الخصام، والخلف عند الوعد وتأخير الصلاة إلى آخر وقتها، ونقرها عجلة وإسراعاً، وترك حضورها جماعة، وأن أثقل الصلوات عليهم الصبح والعشاء. ومن صفاتهم التي وصفهم اللَّه بها الشح على المؤمنين بالخير، والجبن عند الخوف، فإذا زال الخوف وجاء الأمن سلقوا المؤمنين بألسنة حداد، فهم أحد الناس ألسنة عليهم كما قيل:

جهلًا علينا وجبناً عن عدوكم لبئست الخلتان الجهل والجبن

وأنهم عند المخاوف تظهر كمائن صدورهم ومخبآتها، وأما عند الأمن فيجب ستره، فإذا لحق المسلمين خوف دبت عقارب قلوبهم، ظهرت المخبآت وبدت الأسرار.

ومن صفاتهم أنهم أعذب الناس ألسنة وأمرّهم قلوباً، وأعظم الناس مخالفة بين أعمالهم وأقوالهم. ومن صفاتهم أنهم لا يجتمع فيهم حسن صمت وفقه في دين أبداً. ومن صفاتهم أن أعمالهم تكذب أقوالهم، وباطنهم يكذب ظاهرهم. وسرائرهم تناقض علانيتهم. ومن صفاتهم أن المؤمن لا يثق بهم في شيء فإنهم قد أعدوا لكل أمر مخرجاً منه، بحق أو بباطل، بصدق أو بكذب، ولهذا سمي منافقاً أخذاً من نافقاء اليربوع . وهو بيت يحفره ويجعل له أسراباً مختلفة . فكلما طلب من سرب خرج من سرب آخر، فلا يتمكن طالبه من حصره في سرب واحد، قال الشاعر:

ويستخرج اليربوع من نافقائه ومن بيته ذو الشيحة اليتقصع

فأنت منه كقبض على الماء، ليس معك منه شيء، ومن صفاتهم كثرة التلون، وسرعة التقلب، وعدم الثبات على حال واحد، بينما تراه على حال تعجبك من دين أو عبادة أو هدي صالح أو صدق، إذا انقلب إلى ضد ذلك كأنه لم يعرف غيره، فهو أشد الناس تلوناً وتقلباً وتنقلًا، جيفة بالليل قطرب بالنهار.

ومن صفاتهم أنك إذا دعوتهم عند المنازعة للتحاكم إلى القرآن والسنة أبوا ذلك وأعرضوا عنه، ودعوك إلى التحاكم إلى طواغيتهم. =

....

= قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) ﴾ [النساء].

ومن صفاتهم: معارضة ما جاء به الرسول ﷺ بعقول الرجال وآرائهم، ثم تقديمها على ما جاء به. فهم معرضون عنه، معارضون له، زاعمون أن الهدى في آراء الرجال وعقولهم، دون ما جاء به. فلو أعرضوا عنه وتعوضوا بغيره لكانوا منافقين، فكيف إذا جمعوا إلى ذلك معارضته زعموا أنه لا يستفاد منه هدى. ومن صفاتهم: كتمان الحق، والتلبيس على أهله، ورميهم له بأدوائهم هم. فيرمونهم إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ودعوا إلى اللَّه ورسوله . بأنهم أهل فتن مفسدون في الأرض.

وقد علم اللَّه ورسوله والمؤمنون بأنهم أهل الفتن المفسدون في الأرض، وإذا دعا ورثة الرسول إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله خالصة غير مشوبة رموهم بالبدع والضلال، وإذا رأوهم زاهدين في الدنيا راغبين في الآخرة متمسكين بطاعة اللَّه ورسوله رموهم بالزوكرة[(١)] والتلبيس والمحال، وإذا رأوا معهم حقاً ألبسوه لباس الباطل، وأخرجوه لضعفاء العقول في قالب « شنيع » لينفروهم عنه، وإذا كان معهم باطل ألبسوه لباس الحق وأخرجوا في قالبه ليقبل منهم.

وجملة أمرهم أنهم في المسلمين كالزغل في النقود، يروج على أكثر الناس لعدم بصيرتهم بالنقد، ويعرف حاله الناقد البصير من الناس، وقليل ما هم. وليس على الأديان أضر من هذا الضرب من الناس، وإنما تفسد الأديان من قبلهم، ولهذا جلا اللَّه أمرهم في القرآن، وأوضح أوصافهم، وبين أحوالهم، وكرر ذكرهم لشدة المؤنة على الأمة بهم، وعظم البلية عليهم بوجودهم بين أظهرهم، وفرط حاجتهم إلى معرفتهم والتحرز من مشابهتهم أو الإصغاء إليهم، فكم قطعوا على السالكين إلى اللَّه طرق الهدى، وسلكوا بهم سبيل الردى، ووعدوهم ومنوهم، ولكن وعدوهم الغرور، ومنوهم الويل والثبور. فكم من قتيل، ولكن في سبيل الشيطان. وسليب ولكن للباس التقوى والإيمان. وأسير لا يرجى له الخلاص، وفارّ من اللَّه لا إليه، وهيهات ولات حين مناص. صحبتهم توجب العار والشنار، ومودتهم تحل غضب الجبار وتوجب دخول النار. من علقت به كلاليب كلبهم ومخاليب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والإيمان، وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذيالاً، ويمشي على عقبيه القهقري إدباراً منه وهو يحسب ذلك إقبالاً فهم واللَّه قطاع الطريق. =

(١) الزوكرة: إظهار النسك وإبطان الفسق.

....

❁ ❁ ❁

= فيا أيها الركب المسافرون إلى منازل السعداء، حذار منهم حذار، هم الجزارون ألسنتهم شفار البلايا. ففرار منهم أيها الغنم فراراً ومن البلية إنهم الأعداء حقاً وليس لنا بد من مصاحبتهم؛ وخلطتهم أعظم الداء وليس بد من مخالطتهم. قد جعلوا على أبواب جهنم دعاة إليها فبعداً للمستجيبين، ونصبوا شباكهم حواليها على ما حفت به من الشهوات، فويل للمغترين نصبوا الشباك ومدوا الأشراك وأذن مؤذنهم: يا شياه الأنعام: حي على الهلاك، حي على التباب. فاستبقوا يهرعون إليهم، فأوردوهم حياض العذاب، لا الموارد العذاب. وساموهم من الخسف والبلاء أعظم حطة، قال: ادخلوا باب الهوان صاغرين ولا تقولوا حطة، فليس بيوم حطة. فواعجباً لمن نجا من شراكهم لا من علق، وأني ينجو من غلبت عليه شقاوته ولها خلق. فحقيق بأهل هذه الطبقة أن يحلوا بالمحل الذي أحلهم الله من دار الهوان، وأن ينزلوا في أردأ منازل أهل العناد والكفران. وبحسب إيمان العبد ومعرفته يكون خوفه أن يكون من أهل هذه الطبقة، ولهذا اشتد خوف سادة الأمة وسابقوها على أنفسهم أن يكونوا منهم، فكان عمر بن الخطاب يقول: يا حذيفة ناشدتك الله. هل سماني رسول الله ﷺ مع القوم؟ فيقول: لا، ولا أزكي بعدك أحداً. يعني لا أفتح عليّ هذا الباب في تزكية الناس، وليس معناه أنه لم يبرأ من النفاق غيرك. وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبرائيل وميكائيل[1].

---

(١) رواه البخاري تعليقاً [١/ ١٠٩]، وقال الحافظ في الفتح [١/ ١١٠]: هذا التعليق وصله ابن خيثمة في «تاريخه» لكن أبهم العدد، وكذا أخرجه محمد بن نصر المروزي مطولًا في كتاب «الإيمان» له، وعينه أبو زرعة الدمشقي في «تاريخه» من وجه آخر مختصراً كما هنا. ا هـ.

أفعال المرائي لا يقبلها اللّه تعالى

السؤال: ما رأي الإسلام فيمن يتصدق ويصلي، قاصداً حسن السُّمعة بين الناس ؟

الجواب: إن اللّه تعالى أمرنا بالتصدق على الفقراء، من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة اللّه تعالى وإيماناً به سبحانه وبمنهجه، فله الثواب، ولكن هب أن إنساناً يتصدق على الناس ليقال عنه إنه جواد، أو كريم،كأن يأتي أمام القوم، ويجمع الفقراء ويعطيهم المال، ويتباهى بذلك، ويتحدث عن إنفاقه كثيراً؛ ليقول الناس عنه إنه رجل كريم، حتى إذا جاءه فقير بينه وبين نفسه، طرده ولم يتصدق عليه، من يفعل مثل هذا يريد السمعة والشهرة، ولا يريد رضا اللّه تعالى، هذا الإنسان لا يثاب رغم أنه أتي عملًا من الأعمال التي حث عليها اللّه سبحانه وتعالى، وطلب منا القيام بها، ولكنه أتاها بلا إخلاص، أتاها وقلبه معلق بطلب المدح والثناء، لذلك فهو فعل من أجل أن يقال فعل وقد قيل [(١)].

---

(١) قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠] قال القرطبي في تفسير الآية: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يرجو رؤيته وثوابه ويخشى عقابه ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ قال ابن عباس: نزلت في جُندب بن زهير العامري، قال: يا رسول الله إني أعمل العمل لله تعالى، وأريد به وجه الله تعالى، إلا أنه إذا اطُّلع عليه سَرَّني؛ فقال النبي ﷺ: «إن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب ولا يقبل ما شورِكَ فيه» فنزلت الآية.

وقال طاوس: قال رجل يا رسول الله! إني أحب الجهاد في سبيل الله تعالى وأحب أن يرى مكاني: فنزلت هذه الآية.

وقال مجاهد: جاء رجل للنبي ﷺ، فقال يا رسول الله! إني أتصدق وأصِل الرحم ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى فيذكر ذلك منّي وأحمد عليه فيسرّني ذلك وأعجب به، فسكت رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً، فأنزل الله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

قلت: والكل مراد، والآية تعم ذلك كله وغيره من الأعمال. وقد تقدّم في سورة «هود» حديث أبي هريرة الصحيح في الثلاثة الذين يقضي عليهم أوّل الناس. وقد تقدّم في =

كذلك رجل يصلي رئاء الناس، فإذا كان وحده لا يصلي، هل يثاب على

= سورة «النساء» الكلام على الرياء، وذكرنا من الأخبار هناك ما فيه كفاية. وقال الماوردي: وقال جميع أهل التأويل: معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ إنه لا يرائي بعمله أحداً. وروى الترمذي الحكيم رحمه الله تعالى في «نوادر الأصول» قال: حدّثنا أبي رحمه الله تعالى قال: حدّثنا مكي بن إبراهيم قال: حدّثنا عبد الواحد ابن زيد عن عبادة بن نسَيّ قال: أتيت شدّاد بن أوس في مصلاه وهو يبكي، فقلت: ما الذي أبكاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ يوماً، إذ رأيت بوجهه أمراً ساءني فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما الذي أرى بوجهك؟ قال: «أمراً أتخوفه على أمتي من بعدي» قلت: ما هو يا رسول الله؟ قال: «الشرك والشهوة الخفية» قلت: يا رسول الله! وتشرك أمتك من بعدك؟ قال: «يا شداد أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حَجَراً ولا وثَناً ولكنهم يراؤون بأعمالهم» قلت: يا رسول الله والرياء شرك هو؟ قال: «نعم». قلت: فما الشهوة الخفية؟ قال: «يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوات الدنيا فيفطر» قال عبد الواحد: فلقيت الحسن، فقلت: يا أبا سعيد! أخبرني عن الرياء أشرك هو؟ قال: نعم؛ أما تقرأ، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وروى إسماعيل بن إسحاق قال: حدّثنا محمد بن أبي بكر قال: حدثنا المعتمر ابن سليمان عن ليث عن شهر بن حوشب قال: كان عبادة بن الصامت وشداد ابن أوس جالسين، فقالا: إنا نتخوف على هذه الأمة من الشرك والشهوة الخفية، فأما الشهوة الخفية فمن قبل النساء، وقالا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «من صلى صلاة يرائي بها فقد أشرك ومن صام صوماً يرائي به فقد أشرك» ثم تلا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

قلت: وقد جاء تفسير الشهوة الخفية بخلاف هذا، وقد ذكرناه في «النساء». وقال سهل ابن عبد الله: وسئل الحسن عن الإخلاص والرياء فقال: من الإخلاص أن تحب أن تكتم حسناتك ولا تحب أن تكتم سيئاتك، فإن أظهر الله عليك حسناتك تقول هذا من فضلك وإحسانك، وليس هذا من فعلي ولا من صنيعي، وتذكر قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ [المؤمنون: ٦٠] الآية؛ يؤتون الإخلاص، وهم يخافون ألا يقبل منهم؛ وأما الرياء فطلب حب النفس من عملها في الدنيا؛ قيل له: كيف يكون هذا؟ قال: من طلب بعمل بينه وبين الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرى فهو رياء. وقال علماؤنا رضي الله تعالى عنهم: وقد يفضي الرياء بصاحبه إلى استهزاء الناس به؛ كما يحكي أن طاهر ابن الحسين قال لأبي عبد الله المروزي: منذ كم صرت إلى العراق يا أبا عبد الله؟ قال: دخلت العراق منذ عشرين وأنا منذ ثلاثين سنة صائم؛ فقال يا أبا عبد الله سألناك =

صلاته، أبداً، مع أنه يفعل ما أمره اللّه تعالى به ولكن بلا إيمان، واللّه سبحانه

= عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين. وحكى الأصمعيّ أن أعرابياً صلّى فأطال وإلى جانبه قوم فقالوا: ما أحسن صلاتك؟! فقال: وأنا مع ذلك صائم. أين هذا من قول الأشعث بن قيس وقد صلّى فخفّف، فقيل له: إنك خففت؛ فقال: إنه لم يخالطها رياء؛ فخلص من تنقصهم بنفي الرياء عن نفسه، والتصنع من صلاته؛ وقد تقدّم في «النساء» دواء الرياء من قول لقمان؛ وأنه كتمان العمل.

وروى الترمذي الحكيم حدّثنا أبي رحمه الله تعالى قال: أنبأنا الحِمَّاني قال: أنبأنا جرير عن ليث عن شيخ عن مَعْقِل بن يَسَار قال: قال أبو بكر وشهد به على رسول الله ﷺ قال: ذكر رسول الله ﷺ الشرك، قال: «هو فيكم أخفى من دبيب النمل وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم تقولها ثلاث مرات». وقال عمر بن قيس الكندي: سمعت معاوية تلا هذه الآية على المنبر ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠]. فقال: إنها لآخر آية نزلت من السماء.. وقال عمر قال النبي ﷺ: «أوحي إليَّ أنه من قرأ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ رفع له نور ما بين عدن إلى مكة حشوه الملائكة يصلون عليه ويستغفرون له». وقال معاذ بن جبل: قال النبي ﷺ: «من قرأ أوّل سورة الكهف وآخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الأرض إلى السماء».

وعن ابن عباس أنه قال له رجل: إني أضمر أن أقوم ساعة من الليل فيغلبني النوم، فقال: إذا أردت أن تقوم أي ساعة شئت من الليل فاقرأ إذا أخذت مضجعك: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ [الكهف: ١٠٩] إلى آخر السورة فإن الله تعالى يوقظك متى شئت من الليل؛ ذكر هذه الفضائل الثعلبي رضي الله تعالى عنه.

وفي مسند الدارمي أبي محمد أخبرنا محمد ابن كثير عن الأوزاعي عن عبدة عن زرّ بن حبيش قال: من قرأ آخر سورة الكهف لساعة يريد أن يقوم من الليل قامها.

قال عبدة: فجربناه فوجدناه كذلك.

قال ابن العربي: كان شيخنا الطُّرطُوشيّ الأكبر يقول: لا تذهب بكم الأزمان في مصاولة الأقران، ومواصلة الإخوان؛ وقد ختم سبحانه وتعالى البيان بقوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

تفسير القرطبي [١١/ ٦٩: ٧٢].

وروى ابن خزيمة في صحيحه [٢٤٨٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: حدثني رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل يقتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا =

وتعالى، أغنى الأغنياء عن الشرك، ولذلك إذا كان العمل خالصاً لوجهه وابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى فإنه يتقبله، أما إذا كان لإرضاء البشر؛ فإنه غني عنه ولا يتقبله، حتى ولو كان فيه جزء لإرضاء البشر، أو لجاه الدنيا، فإنه لا يتقبله، فاللَّه تعالى غني عن العالمين، والحديث الشريف: « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ، وإنّما لكلِّ امْرِئ ما نوى »[(١)]، هو أكبر توضيح لذلك، فالنية وإن كان محلها القلب، فاللَّه تعالى مطَّلع على القلوب، يعلم سبحانه خائنة الأعين وما تخفي الصدور. والأخطر من ذلك أن هناك بعض الناس في هذه الدنيا يعتقد أنه يستطيع أن يخدع اللَّه تعالى واللَّه تعالى خادعهم[(٢)].

= رب. قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به أثناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت. وتقول الملائكة: كذبت. ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قيل. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى: قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم، وأتصدق. فيقول الله: كذبت. وتقول الملائكة: كذبت. فيقول الله: بل أردت أن يقال فلان جواد. فقد قيل ذاك. ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقال له فيم قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتى قتلت. فيقول الله: كذبت. وتقول الملائكة: كذبت. ويقول الله عز وجل له: بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك. ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي، فقال: يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة».

قال الوليد، فأخبرني عقبة أن شفياً هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا.

قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيافاً لمعاوية، وأن رجلًا دخل على معاوية فحدَّثه بهذا. قال: صدق الله ورسوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلى قوله. ﴿ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾. [هود: ١٥-١٦].

(١) أخرجه البخاري [١].

(٢) هذه سنة سيئة دخلت في قلوب ضعاف النفوس في هذه الأمة عن طريق بني إسرائيل الذين قال اللَّه تعالى فيهم: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ٩]. ولا عجب فقد تنبأ الحبيب المصطفى ﷺ بذلك فقال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه». قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري [٣٤٥٦].

نعم اللَّه تسبق مولد الإنسان

السؤال: هناك من يقول: إن الإنسان جاء إلى الدنيا وأسباب الحياة مهيأة له، فما هو رأي فضيلة الشيخ الإمام في هذا الموضوع ؟

الجواب: إذا كان بعض الناس يحتج أو يقول : إن الذي يوفر الحياة للبشر هم البشر، بمعنى أن أبا الطفل، وأمه، وعائلته هم الذين يعدون له البيت الذي يعيش فيه، والسرير الذي ينام عليه، وما يلزمه من مقومات حياته، نقول له: إن هذه هي سنة اللَّه في الأرض، واللَّه سبحانه وتعالى قبل أن ينزل الإنسان إلى هذه الأرض خلقها له، وهيأ له ظروف الحياة عليها، فالنعمة سبقت المنعم عليه، وآدم عليه السلام هو أول البشر خلقاً فلم يكن له أب يُعدُّ له، أو أم تجهز من أجله، ولكن سبقته النعمة؛ فعاش في جنة لا يجوع فيها ولا يشقى، وهكذا كانت نِعَمُ اللَّه سبحانه وتعالى تسبق آدم وتنتظره؛ لتعطيه الحياة الطيبة التي لم يصنعها لنفسه، ولكن خلقها اللَّه سبحانه وتعالى ويسرها له [١].

---

(١) قال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝١٢ ﴾ [فصلت].

قال ابن كثير: هذا إنكار من اللَّه تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقتدر على كل شيء، فقال: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ﴾ أي: نظراء وأمثالًا تعبدونها معه ﴿ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم. وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [فصلت: ٩]، ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء فذكر أنه خلق الأرض أولًا لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده السقف كما قال عز وجل: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ =

وكل من يدَّعي أن النعم التي تسبق البشر هي من صنع الإنسان، نرد عليه:

= سَمَٰوَٰتٍ ﴾ الآية، فأما قوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النازعات] ففي هذه الآية أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء، فالدحو مفسر بقوله: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾ وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس رضي اللّه تعالى عنه فيما ذكره البخاري عند تفسير هذه الآية من صحيحه فإنه قال: وقال المنهال عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما: إني لأجد في القرآن أشياء تختلف عليّ قال: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١] ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [الصافات: ٢٧] ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤٢] ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]. فقد كتموا في هذه الآية، وقال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾.. إلى قوله: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ فذكر خلق السماء قبل الأرض، ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ٩]. إلى قوله: ﴿ طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١]. فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء قال ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٠] ﴿ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٨] ﴿ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٤] فكأنه كان ثم مضى، فقال ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١] في النفخة الأولى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾، فلا أنساب بينهم عند ذلك، ولا يتساءلون بينهم في النفخة الأخرى. ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [الصافات: ٢٧]، وأما قوله: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾، ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤٢] فإن اللّه تعالى يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون: تعالوا نقول لم نكن مشركين. فيختم على أفواههم فتنطق أيديهم، فعند ذلك يعرف أن اللّه تعالى لا يكتم حديثاً، وعنده: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [النساء: ٤٢] الآية، وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحى الأرض، ودحيها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال، والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين؛ فذلك قوله تعالى ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ [النازعات: ٣٠] وقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ٩] فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلق السموات في يومين: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٣]، سمى نفسه بذلك.

وذلك قوله أي: لم يزل كذلك فإن اللّه تعالى لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد فلا يختلف عليك القرآن فإن كلًا من عند اللّه عز وجل.

قال البخاري: حدثنيه يوسف بن عدي حدثنا عبيد اللّه بن عمرو عن زيد بن أبي =

بأن لبن الأم الذي يعتبر غذاءً أساسياً للطفل ليس من صنع البشر، ولكنه من صنع

= أنيسة عن المنهال هو ابن عمرو، الحديث[1].

وقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ يعني يوم الأحد والإثنين ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا ﴾ [فصلت: ١٠] أي: جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس وقدر فيها أقواتها وهو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس يعني: يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع اليومين السابقين أربعة ولهذا قال: ﴿ فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ أي لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه.

وقال عكرمة ومجاهد في قوله عز وجل: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ [فصلت: ١٠]، وجعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها ومنه العصب باليمن، والسابوري بسابور، والطيالسة بالري.

وقال ابن عباس وقتادة والسدي في قوله تعالى: ﴿ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ أي: لمن أراد السؤال عن ذلك.

وقال ابن زيد: معناه وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين أي: على وفق مراده من له حاجة إلى رزق فإن اللّه تعالى قدر له ما هو محتاج إليه وهذا القول يشبه ما ذكروه في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾، واللّه أعلم.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت: ١١]، وهي بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أي استجيبا لأمري وانفعلا لفعلي طائعتين أو مكرهتين.

قال الثوري عن ابن جريج عن سليمان بن موسى عن مجاهد عن ابن عباس قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ قال: قال اللّه تبارك وتعالى للسموات: أطلعي شمسي وقمري ونجومي، وقال للأرض شققي أنهارك وأخرجي ثمارك ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ واختاره ابن جرير رحمه اللّه، أي: بل نستجب لك مطيعين بما فينا مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعاً مطيعين لك، حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية، قال: وقيل: تنزيلاً لهن معاملة من يعقل لكلامهما.

وقيل: إن المتكلم من الأرض بذلك هو مكان الكعبة ومن السماء ما يسامته منها. واللّه أعلم.

وقال الحسن البصري: لو أبيا عليه أمره لعذبهما عذاباً يجدان ألمه. ورواه ابن أبي حاتم ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ١٢]، أي: ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين، أي آخرين؛ وهما يوم الخميس ويوم الجمعة ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ [فصلت: ١٢] أي: ورتب مقرراً في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة وما =

---

(١) أخرجه البخاري [٩/ ٥٢١] قبل حديث [٤٨١٦].

اللَّه سبحانه وتعالى، ولا أعتقد أن أحداً يجادل في ذلك، وأن حنان الأم والأب على الابن، ليس من صنع البشر، والبشر لا يستطيع أن يصنع عاطفة قوية راسخة كهذه، ولكنها من صنع اللَّه سبحانه وتعالى، والدليل على ذلك أنها لا تختلف من إنسان إلى إنسان، ولا من شعب إلى شعب، بل هي نعمٌ للبشرية كلها، ونحن لا نتكلم عن الشواذ، ولكننا نتحدث عن القانون العام، والشعوب قد تختلف في درجة عواطفها، وكل إنسان يختلف فيما يحب ويكره، وقد أحب أنا شيئاً تكرهه

= فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾ [فصلت: ١٢] وهي الكواكب المنيرة المشرفة على أهل الأرض ﴿ وَحِفْظًاۚ ﴾ أي حرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ أي: العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكانتهم.

قال ابن جرير: حدثنا هناد بن السري حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبي سعيد البقال عن عكرمة عن ابن عباس قال هناد: قرأت سائر الحديث أن اليهود أتت النبي ﷺ فسألته عن خلق السموات والأرض فقال ﷺ: « خلق اللَّه تعالى الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر، والماء، والمدائن، والعمران، والخراب » فهذه أربعة ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت]، لمن سأله قال: « وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه، في الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس، وفي الثالثة آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر ساعة » ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا خالد ؟ قال: ثم استوى على العرش قالوا: قد أصبت لو أتممت.

قالوا: ثم استراح. فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً فنزل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ . . . ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة ق] هذا الحديث فيه غرابة فأما حديث ابن جريج عن إسماعيل بن أمية عن أيوم ابن خالد عن عبد اللَّه بن رافع عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال: أخذ رسول اللَّه ﷺ بيدي فقال: « خلق اللَّه التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » فقد رواه مسلم والنسائي في كتابيهما من حديث ابن جريج به، وهو من غرائب الصحيح وقد أعله البخاري في التاريخ فقال: رواه بعضهم عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه عن كعب الأحبار وهو الأصح.

تفسير ابن كثير [٤/ ٩٤-٩٦].

أنت ولا تطيقه، وقد يحب شعب ما شيئاً يمقته شعب آخر ولا يتقبله، إلا الابن أو الابنة، فإن ذلك يتساوى في العالم كله ومهما اختلفت العاطفة عند الشعوب، فإن الابن يظل هو الذي من أجله تعمل وتشقى وأنت راضٍ سعيد، تعطيه مالك، تبيع من أجله كل ما تملك، وتقدم التضحيات التي لا تقدمها لأحد في العالم، تقدمها برضيً وسعادة ورغبة، وربما لو سألك إنسان مسألة قد ترهقك ولو شيئاً يسيراً ربما ضجرت وشعرت بالضيق، ولكن لو سألك ابنك الدنيا كلها لكنت سعيداً.

* * *

النِّعَمُ تسبق ميلادَ الإنسان

السؤال: هناك أُناس لا يشعرون بنعم اللّه عليهم، ويظنون أنهم يحصلون على رزقهم بجدهم واجتهادهم، فما هو رأي فضيلة الشيخ في ذلك ؟

الجواب: الإنسان قبل ميلاده، قدَّر اللَّه سبحانه وتعالى له سُبُلَ حياته، ورزقه وعمره، وهل هو شقي أم سعيد، وكل النعم التي سُينعم بها في حياته الدنيا، وهكذا سبقت النعم الوجود البشري.

وحين يأتي الإنسان إلى الحياة الدنيا، تكون نعم اللَّه سبحانه وتعالى قد سبقته، فيُنْزل اللَّه سبحانه وتعالى من صدر أمه لبناً دافئاً في الشتاء، معقماً خالياً من كل الأمراض، بأكثر مما يستطيع العلم بكل قدراته أن يعقمه، ويجد هذا اللبن جاهزاً، فإذا جاع نزل اللبن له، وإذا شبع توقف نزوله حتى يجوع مرة أخرى، معين من الغذاء لا ينضب إلا إذا استطاع الطفل أن يستغني عنه، هذا الغذاء مَنْ الذي أوجده ؟ ومن الذي يَمدُّه به كل يوم ؟ إنه اللَّه سبحانه وتعالى.

والطفل حين يولد، يولد ضعيفاً عاجزاً عن الدفاع عن نفسه، ولكن اللَّه سبحانه وتعالى يهيئ له أبوين كريمين لا ينامان حتى ينام. إذا مرض ذهبا به إلى طبيب ليعالجه، وإذا جاع وهو عاجز عن الكسب سخَّر اللَّه له أبويه، يأتيان له بالطعام، ويسعيان في سبيل رزقه، فيدبران له ما يحتاج إليه من غذاء وسبل الحياة، وإذا حاول أحد الاعتداء عليه وهو عاجز عن الدفاع عن نفسه كان أبواه هما الدرع الواقية له يفديانه بحياتهما، ويظلان يرعيانه، حتى ولو بحرمان نفسيهما من اللقمة ليضعاها في فمه، ومن الكسوة لينعم هو بالثياب، ومن كل مباهج الدنيا ليؤهلاه هو للحياة، وهكذا توجد نعم اللَّه على الطفل قبل أن يستطيع أن يفعل لنفسه شيئاً، اللَّه سبحانه وتعالى جعل هنا من الضعف قوة، فالضعيف الصغير يتكاتف الجميع لإطعامه وكسوته والدفاع عنه، حتى الذي يموت أبواه يهيئ له اللَّه سبحانه وتعالى من يكفله، حتى إن أقوى الأقوياء في الدنيا يصبح ضعيفاً أمام ابنه الصغير، إذا صرخ فزع له، وإذا جاع أسرع يجري كالمجنون ليدبر له طعامه، وإذا تعرض

للخطر فداه بنفسه، وإذا احتاج إلى شيء أقام الدنيا وأقعدها ليأتيه به، وهكذا أصبح الضعيف قوياً، يطلب فيجاب، ويأمر فيطاع، ويأتيه كل شيء بلا تعب، وجعل اللّه البسمة على شفتي هذا الطفل الصغير، هي أجمل ما في الدنيا، وهكذا أوجد اللّه سبحانه وتعالى لهذا الضعيف النعم التي يحتاج إليها، بل أوجدها له قبل أن يأتي إلى الدنيا، فترى الأم تُعِدُّ للابن ملابسه وسريره قبل أن يولد، وتُجمّل هذا السرير، وتختار الثياب، وربما أعدت له ما يلزم لإطعامه أو إرضاعه، وكل هذا يحدث، والطفل لم يأت بعد إلى الدنيا، وهو ما يزال في بطن أمه.

إذن.. نعمة اللّه عليه تسبق وجوده في هذا الحياة الدنيا.

وإذا كان بعض الناس يحتج أو يقول: إن الذي يوفر الحياة للبشر هم البشر، بمعنى أن أبا الطفل وأمه وعائلته هم الذين يعدون له البيت الذي يعيش فيه، والسرير الذي ينام فيه، وما يلزمه، نقول له: إن هذه هي سُنَّة اللّه في الأرض خلقها له، وهيأ له ظروف الحياة فيها، فالنعمة سبقت المُنْعَم عليه.

وكل من يدّعي أن النعم التي تسبق البشر هي من صنع الإنسان، نقول له: إن لبن الأم الذي هو الغذاء الصحي الأساسي للطفل ليس من صنع البشر، ولكنه من صنع اللّه سبحانه وتعالى، ولا أعتقد أن أحداً يجادل في ذلك، وحنان الأم والأب على الابن و ليس من صنع بشر، والبشر لا يستطيع أن يصنع عاطفة قوية راسخة كهذه، ولكنها من صنع اللّه سبحانه وتعالى، والدليل على ذلك أنها لا تختلف من إنسان إلى إنسان، ولا من شعب إلى شعب؛ بل هي نعم للبشرية كلها.

فأنت تظل تعمل وتشقى من أجل ابنك وأنت راض وسعيد، تعطيه مالك، وتبيع من أجله كل ما تملك، وتقدم التضحيات تلو التضحيات برضا وسعادة ورغبة، ولو سألك إنسان جنيهاً واحداً لضجرت وشعرت بالضيق، ولو أنفقت مائة جنيه من أجل ابنك لكنت سعيداً، وهذه هي قدرة اللّه[١].

---

(١) هذا على مستوى الفرد، أما بالنسبة للكل فإن اللّه تعالى خلق السموات والأرض وجهزهما بما يكفل حياة آمنة مطمئنة للإنسان، فجعل سبحانه الشمس، والقمر، والأبراج، وأودع في الأرض أقواتها ومهدها للحياة عليها وأحاطها بغلاف جوي يحفظ للإنسان حياته، وسخر كل مافي السموات والأرض لخدمة هذا الإنسان، ثم خلق اللّه تعالى الإنسان من بعد ذلك وأهبطه الأرض لعمارتها بعبادة اللّه تعالى وحده، وأنزل له الهدى الذي يسير عليه حتى لا يضل ولا يشقى.

النعم فينا . . . ولكن لا ندركها

السؤال: هل النعم موجودة في الكون فقط، أو موجودة فينا كذلك، ولكننا لا ندركها ؟

الجواب: ليست النعم في الكون وحده، بل هي في كل واحد فينا، وإن كنا لا ندركها، لأن الإنسان بطول الوقت يألف النعمة ولا يحس بأنها شيء غير عادي. فكثير من الناس، يأخذ نعم اللَّه عليه على أساس أنها حق مكتسب، أو هي ذاتية من نفسه، غافلًا عن أن اللَّه سبحانه وتعالى هو الذي خلق، وهو الذي أعطى، فالإنسان له عقل يفكر به، ولكن هذا العقل، اللَّه سبحانه هو الذي أعطاه القدرة، وأعطانا الدليل على ذلك، فخلق من البشر من لهم عقول، ولكن ليست لهم القدرة على التفكير، خلقهم اللَّه سبحانه وتعالى ليلفتنا إلى أن كل شيء يعمل بقدرة اللَّه، فإذا قلت أنا أفكر بعقلي وقدراتي، ونسيت اللَّه، ثم رأيت إنساناً مثلك، له عقل مثلك، ولكنه غير قادر على التفكير ولا التمييز، تذكرت أن المسألة ليست ذاتية منك، ولكنها عطاء من اللَّه سبحانه وتعالى، لعل هذه اللفتة تعيدك إلى الإيمان مرة أخرى، وفي نفس الوقت فإن الذي خلقه اللَّه سبحانه وتعالى بعقل غير قادر على التفكير ولا التمييز - كالمجنون - أسقط عنه التكليف وجعل دخوله الجنة بناءً على اختبار له يوم القيامة، والمعلوم أن يوم القيامة يوم جزاء لا يوم امتحان، وهكذا شاء عدل اللَّه إذا سلب ميزة من بشر، أن يعطيه بدلًا منها ميزات[(١)].

---

(١) عن أبي هريرة والأسود بن سريع رضي اللَّه تعالى عنهما قالا: قال رسول اللَّه ﷺ: «أربعة يحتجون يوم القيامة رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، والصبيان يحذفونني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول، فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ومن لم يدخلها سحب إليها». رواه أحمد [٤/ ٢٤]، وابن حبان [٧٣٥٧]، وصححه الألباني في صحيح الجامع [٨٩٤].

نعم الله لا تحصى

السؤال: لا شك أن نعم الله كثيرة على الإنسان ولكنه يمضي غافلًا عنها، ولا يتنبه لها إلا من فقدها ؟ هذا رأي فضيلتكم، فهل يمكن إلقاء الضوء على هذه النقطة ؟

الجواب: إن الإنسان لا يحس بالنعمة إلا ساعة أن تخرج حياته عن المألوف، فأنت ما دمت تتمتع بالصحة لا تشعر أنك تتمتع بشيء. إنك تأخذ هذه النعمة على أساس المألوف، فهناك ألفة بينك وبين الصحة [١].

---

(١) قال العلامة ابن كثير: في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤].
يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلًا عن القيام بشكرها كما قال طلق بن حبيب رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين.
وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقول: « اللَّهُمَّ لك الحمد غير مكفي ولا مودع ولا مستغني عنه ربنا ».
وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث حدثنا داود بن المجبر حدثنا صالح المري عن جعفر بن زيد العبدي عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه، فيقول الله تعالى لأصغر نعمه - أحسبه قال في ديوان النعم -: خذي ثمنك من عمله الصالح فتستوعب عمله الصالح كله، ثم تنحى وتقول: وعزتك ما استوفيت. وتبقى الذنوب والنعم فإذا أراد الله أن يرحمه قال: يا عبدي قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزت لك عن سيئاتك - أحسبه قال: ووهبت لك نعمي - ». غريب وسنده ضعيف.
وقد روي في الأثر أن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك عليَّ ؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، أي حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم.
وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: الحمد لله الذي لا تؤدي شكر نعمة من نعمه إلا =

....

❁ ❁ ❁

= بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها، وقال القائل في ذلك:

لو كل جارحة مني لها لغة ... تثني عليك بما أوليت من حسن
لكان ما زاد شكري إذ شكرت به ... إليك أبلغ في الإحسان والمنن

تفسير ابن كثير [٢/ ٢٠٥].

كل شيء في الكون مسخر لخدمة الإنسان

السؤال: تقول فضيلتكم: إن الكون كله مسخرٌ لخدمة الإنسان، فهل يمكن أن تعطينا مثالًا على ذلك ؟

الجواب: يقول الشيخ: الأرض والشمس والجبال والرياح؛ كلها قوى جبارة لولا تسخير اللّٰه لها للإنسان ما استطاع الإنسان أن ينتفع منها، بل ربما قتلته؛ وكذلك الأنعام والدواب والحيوانات، وكلها أقوى من الإنسان ولولا تسخير اللّٰه لها ما استطاع الإنسان أن يستأنسها ويستفيد منها (١).

إذا كان هذا مسخراً لخدمة الإنسان وهو الأضعف؛ فلا بد أن الذي سخر هذا كله لخدمته هو الأقوى منها كلها، وهو خالقها الذي يقول للشيء كن فيكون، وقد

---

(١) قال اللّٰه تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [النحل].

قال ابن كثير: ينبه تعالى عباده على آياته العظام ومننه الجسام في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السموات نوراً وضياء ليهتدي بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله اللّٰه تعالى فيه يسير بحركة مقدرة لا يزيد عليها ولا ينقص عنها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله كقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: ١٢]، أي: لدلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن اللّٰه ويفهمون حججه وقوله: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ﴾ [النحل: ١٣] لما نبه تعالى على معالم السموات نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها وما فيها من المنافع والخواص ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل: ١٢] أي: آلاء اللّٰه ونعمه فيشكرونها.

تفسير ابن كثير [٢/ ٥].

سخرها للإنسان طوعاً أو قهراً، فهي لا تملك من أمرها اختياراً، بل إن الطفل الصغير قد يمسك سوطاً وينهال به على حصان قوي جامح، ومع ذلك يعجز الحصان عن أن يقتله، ويكون مسخراً وهو كاره، والشمس حين تشرق على الكون وتعطي الدفء والنور والحياة لإنسان كافر أو ملحد أو عاص، فهي مسخرة لذلك.

إذن.. فقضية تسخير الكون للإنسان قضية لا يستطيع أحد أن يجادل فيها.

فاللّٰه سبحانه وتعالى قد سخر لنا الكون، وجعله وهو الأقوى يخضع للأضعف وهو الإنسان، فالأرض ذلول، والثمر ينضج، والنعم كثيرة.



إخضاع الأقوى للأضعف

السؤال: تقول فضيلتكم: إن اللّه قد أخضع الأقوى للأضعف، فهل يمكن أن تأتي لنا بمثال على ذلك ؟

الجواب: إذا تأملنا أشياء كثيرة في الكون، نجد أن اللّه سبحانه وتعالى قد أخضع الأقوى للأضعف بقدرته، فالعقول الإلكترونية التي تفوق قدرة العقول الإنسانية في العمليات الحسابية، نقول: إن اللّه سبحانه وتعالى قد أخضع هذا الكشف للعقل البشري؛ ليدلنا على أن الكشف العلمي هو من اللّه سبحانه وتعالى، فلذلك يسر لعقل بشري أن يخترع آلة تفوقه في الدقة.

إذن.. فعدل اللّه مطلق فيما أعطاه للإنسان، ولكل واحد منا صفة يتميز بها عن غيره من البشر، ونعم الكون سواء كانت موجودة أصلًا ظاهرة لنا، أو كشف اللّه تعالى عنها للعقل البشري، تحمل الدليل على أن اللّه سبحانه وتعالى هو الذي خلق وقدر وهدى.

نعم اللّه تعالى . . . ولماذا نعجز عن إحصائها

السؤال: أعجب ما في البشر أنهم يغفلون عن نعم اللّه عليهم، مع أنهم لو فكروا فيها قليلًا، لوقفوا مبهوتين أمام كثرتها وتنوعها، وعجزوا عن إحصائها. فما هو رأي فضيلة الشيخ في ذلك ؟

الجواب: إن الإنسان لا يحس بالنعمة لأنه يعتاد عليها ويألفها، فيعتقد أنها حق مكتسب له، وينسى المُنْعم سبحانه، إن كل إنسان على وجه الأرض يتقلب في نعم اللّه، ولكنه ألفها فلم يعد يتذكرها أو يقدر لها قدرها، فعندما يكون نائماً ويستيقظ فقد عادت إليه نعمة الحياة، وإذا قام من سريره، فهذه نعمة الحركة التي لو شاء اللّه سبحانه وتعالى لسلبها منه، فإذا ذهب ليغتسل فهذه نعمة أتاحها اللّه له بأن أنعم عليه بماء منه يغتسل ويتوضأ.

بل إن كل عمل هو مجموعة من النعم، فأنت حين تغسل وجهك عندك نعمة الحركة، ونعمة الماء، والصابون الذي تستعمله، والمنشفة التي تجفف بها وجهك قد أنعم اللّه تعالى عليك بأن ملكك ما تجفف به وجهك وأنعم عليك مرة أخرى باستمرار يديك في الحركة حتى تقوم بعملية التجفيف، فإذا خرجت لتناول إفطارك، فهناك نعمة الحركة التي استطعت بها أن تنتقل من مكانك إلى مكان الطعام.

فإذا طلبت الإفطار فهناك نعمة الكلام التي استطعت بها أن تحرك لسانك، وهناك نعمة اللغة التي استطعت أن تتحدث بها، وهناك نعمة الاستجابة بأن سخر لك اللّه سبحانه وتعالى من يعد لك الإفطار، ثم تبدأ في تناول طعامك، فهناك نعمة أن الفم يمضغ، والبلعوم ينقل الطعام إلى المعدة، والمعدة تبدأ في عملية الهضم، فتبدأ العصارات الهضمية في هضم الطعام، كل هذه نعم مِن اللّه سبحانه وتعالى أنت لا تفكر فيها، ولكنك لو فكرت قليلًا لعرفت أن اللّه سبحانه وتعالى يستطيع أن يسلبك هذا كله، ولكن من فضل اللّه عليك أن أعطاك القدرة لتقوم وتغسل وجهك وتتناول إفطارك، وهذه أبسط الأشياء في حياة البشر، ولكن بعض الناس يفعل هذا كل يوم دون أن ينتبه إلى نعم اللّه، بل كثير مِن الناس مَنْ يجحد

نِعم اللَّه سبحانه وتعالى، ولو تأملت حياتك لبضع دقائق، لرأيت فيها مئات النعم على الإنسان، فكيف باليوم كله، وكيف بالعمر كله.

إذن.. فاللَّه سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بأن الإنسان يتمتع بنعم لا تعد ولا تحصى، أنعم بها اللَّه عليه، واللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] أي: إنه لو أراد أحد أن يقوم بإحصاء هذه النعم فلن يستطيع، لماذا؟ لأنه لا توجد طاقة بشرية في الكون مهما تقدمت، ومهما تعددت وسائل الإحصاء وتنوعت، أن تقوم بهذا الإحصاء وستظل عاجزة، وسيظل الإنسان عاجزاً عن أن يحصي نعم اللَّه، والإنسان أصلاً لا يُقْبل على ذلك، ولكنه حتى لو أراد فلن يستطيع.

هذا من ناحية النعمة، أما من ناحية المنعم، فاستمرار النعمة دليل على أن اللَّه سبحانه وتعالى - وهو المنعم - غفور رحيم، ومن رحمة اللَّه أنه لا يعطي النعمة للشاكرين وحدهم، أو للمؤمنين وحدهم، ومن رحمته أنه لا يحرم من يعصيه من نعمه، بل إن اللَّه سبحانه وتعالى يمد هؤلاء، وهؤلاء، ولو لم يكن اللَّه رب العالمين رحماناً رحيماً، لكان قد منع نعمه عمن عصاه.



النعم يجب أن تذكرنا بالمنعم

السؤال: من الثابت والمؤكد أن كلًا منا يعيش في نعم من اللَّه تعالى كثيرة، ولكننا نتذكر النعم وننسى المنعم، نريد من فضيلتكم أن تشير إلى بعض نعم اللَّه علينا ؟

الجواب: انظر إلى نفسك، فأنت تبصر بعينيك، ولكن هناك من عيناه مفتوحتان ولا يبصر. وتمشي بقدميك، ولكن هناك من له قدمان وهو عاجز عن المشي، وتسمع بأذنيك، وهناك من له أذنان ولا يسمع. وهكذا في كل جوارح الإنسان التي يعتقد أنها تنبع من ذاته، هي في الحقيقة من اللَّه سبحانه وتعالى، ولا تؤدي مهمتها إلا بأمره.

الكون: خلقه اللَّه تعالى يعمل بالأسباب، والأسباب في ظاهر الأمر تعطي، فأنت تسعى من أجل الرزق، وتعمل فتحصل على الرزق، وأنت تحرث الأرض وتزرعها بحب جيد؛ فتحصل على محصول جيد، وأنت تستخدم الآلة في الري؛ فتروي لك، وأنت تحضر العمال من أجل البناء؛ فيبنون لك العمارة التي تريدها، رتابة الأسباب هذه تنسينا المسبب، أو واهب النعمة؛ فنلتفت إلى الأسباب وننسى من خلق الأسباب وجعل لها قوانينها، ورغم أن اللَّه يلفتنا أكثر من مرة في آيات الكون، إلا أننا ننسى هذه اللفتات أو لا نلتفت إليها، ولا نذكر إلا الأسباب وحدها، وحينئذ نظن أن لنا قدرات ذاتية، وأن هذه القدرات الذاتية، قادرة على أن تعمل دون قدرة اللَّه، فيغتر الإنسان بالرزق الذي يسره اللَّه له بسعيه، ويغتر بالقدرة التي وهبها اللَّه لعقله أو جسده، ويبدأ يعتقد أنه هو موجد النعمة، وهو القادر على أن يحقق لنفسه ما يريد، وأن يفعل ما يشاء، إلى آخر ما نشهده من اغترار الناس بذاتيتهم، ونسبتهم الفضل إلى أنفسهم. بينما الفضل للَّه سبحانه وتعالى.

وحيث إن هذا الأمر معنوي لا نحسه كشيء مادي، فشاء اللَّه سبحانه وتعالى أن يضرب لنا الأمثال؛ ليقرب لنا ما تعجز عقولنا عن فهمه بحكم المادية التي نعيشها.

ولذلك ضرب اللّه أكثر من مثل في القرآن الكريم، يحذرنا فيه أن ننسب القدرة على العمل إلى أنفسنا ونتناسى قدرة اللّه سبحانه، ذلك أن هذا التناسي يبعد الإنسان عن اللّه، ويجعله يعبد الأسباب، أو يعبد ذاته، أو يعبد غيره من البشر، ممن أعطاهم اللّه أسباب الجاه والملك والغني في الحياة؛ ويحرضها الشيطان ما دامت الأسباب تعطي بذاتها فلماذا الاتجاه إلى المسبب ؟ وإذا كانت المخلوقات تستطيع أن تمنح وتمنع، فلماذا الالتجاء إلى اللّه ؟!

❁ ❁ ❁

المساواة في الإسلام

السؤال: المساواة مبدأ من مبادئ الإسلام، هذا ما تؤكد عليه فضيلتكم دائماً، نريد أن تضرب لنا مثلًا عن معنى المساواة بين الحاكم والمحكوم ؟

الجواب: إننا جميعاً متساوون أمام اللَّه تعالى في كل شيء، الحاكم عبد، والمحكوم عبد، إن أكثر الناس عزاً وجاهاً يدخل المسجد حافي القدمين، ويجلس على الأرض، وأقل الناس يدخل المسجد بنفس الطريقة، ويجلس بنفس الطريقة، لماذا ؟ حتى نعلم أن مناصب الدنيا لا قيمة لها عند اللَّه تعالى، وأن مناصب الدنيا ليس معناها رضاً من اللَّه فنغتر وتأخذنا العزة بالإثم، ونحسب أن عطاء اللَّه في الدنيا هو عطاؤه في الآخرة، أبداً، فهذا غير صحيح، فالإنسان في الدنيا قد يعطيه اللَّه الجاه والمنصب والمال، فيغتر، ويعتز بجاهه، ويأمر وينهى فيما لم يأمر اللَّه به، ويمضي يميناً ويساراً على غير هدى من اللَّه، يحسب أنه في منعة، ثم تأتي صلاة الجمعة، فيذهب هو وأقل الناس شأناً عنده، يجلسان معاً على الأرض، متساويين، وربما كان أقل الناس في الصف الأول، وهو في الصف الأخير ويركعان معاً، ويسجدان معاً، لا فرق بين رئيس ومَرْؤُوس، ولا غني وفقير، كل ذلك حتى يفيق الإنسان من غروره وما هو فيه من تجبر وتكبر، ولعله يتذكر أنه إذا كان اللَّه قد أعطاه في الدنيا فليس هذا دليل رضا بما يصنع، وإنما هو اختبار وابتلاء، فيتقي اللَّه في خلق اللَّه، ويخشى أن تدور عليه الدائرة.

إن المسلم على باب المسجد كما يخلع نعليه يخلع الدنيا كلها، فمهما كان جاهه وسلطانه وقوته وجبروته فبمجرد دخوله للمسجد خلع كل ذلك عنه ولم يبق معه إلا اللَّه تعالى.

فإذا قُضيت الصلاة وانتشر الناس يبتغون من فضل اللَّه تعالى، كلٌ في ما قدره اللَّه تعالى ويسره له، نجد أثر الصلاة في نفس المسلم عظيماً فلا يظلم ولا يبغي، بل يعطي كل ذي حق حقه، هذا العزيز لما سجد سجد الكل معه فقير وضعيف، لما طلب من اللَّه تعالى، طلب الكل معه، ورفعوا جميعاً أكف الضراعة

سائلين اللّه تعالى من فضله. فيقول في نفسه: علامَ التكبر والتسلط والبغي، وكلنا يسأل اللّه تعالى ويرجوه؟ ونسجد له وترغم أنوفنا له سبحانه، ونتساوى في الوقوف بين يديه سبحانه لا فرق بين غني ولا فقير، ولا صاحب جاه ومعدم، الكل سواسية، متراصون.

هنا يشعر الناس جميعاً أنهم عباد اللّه لا فرق بين أحد منهم إلا بالتقوى والعمل الصالح، فيتنافس الجميع في طلب مرضاة اللّه تعالى، ويسارعون في إغاثة الملهوف، وإعانة الطالب، وزيارة المريض، ونصرة المظلوم، وتفريج كربة المكروب.

وصدق اللّه العظيم إذ يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ [الحجرات: ١٣].

❁ ❁ ❁

تحصين المؤمن من مهلكات النعم

السؤال: كل منا يريد أن يتحصن من مهلكات النعم، فكيف يتم ذلك؟

الجواب: إن اللَّه سبحانه وتعالى أراد أن يحصن المؤمن في حياته، وأن يمنع عنه مهلكات النعمة في الدنيا، فالإنسان في حياته إما أن يفارق النعمة، أو تفارقه، تلك هي أسباب الهم في الدنيا؛ ولذلك فمنهج السماء بيَّن للإنسان الطريق الذي يبقي النعمة في الدنيا، فإذا انتقل إلى الآخرة كان النعيم المقيم، وهكذا فإن المنهج الإيماني يحفظ للإنسان النعم الحقيقية في الدنيا، ويجعله يتجنب المهلكات أو الأسباب التي تزول بها هذه النعمة [١].

---

(١) من أهم حفظ النعمة على المؤمن هي شكر المنعم سبحانه، وتجنبه للمعاصي، قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

يقول جل ثناؤه: واذكروا أيضاً حين آذنكم ربكم، وتأذّن: تفعل من أذن، والعرب ربما وضعت تفعَّل موضع أفعل، كما قالوا: أوعدته وتوعدته بمعنى واحد، وآذن: أعلم، كما قال الحارث بن حِلزة:

أذَنَتْنا بِبَيْنِها أسماءُ ... رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

يعني بقوله: أذنتنا: أعلمتنا.

وذُكر عن ابن مسعود رضي اللَّه تعالى عنه أنه كان يقرأ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾، « وإذ قال ربكم ».

حدثني بذلك الحارث، قال: ثني عبد العزيز، قال ثنا سفيان، عن الأعمش عنه؛ حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾: وإذ قال ربكم ذلك التأذن.

وقوله: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ يقول: لئن شكرتم ربكم بطاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم لأزيدنكم في أياديه ونعمه عليكم على ما قد أعطاكم من النجاة من آل فرعون، والخلاص من عذابهم.

وقيل في ذلك قول غيره، وهو ما حدثنا الحسن بن محمد، قال: ثنا الحسين بن الحسن، قال أخبرنا ابن المبارك، قال: سمعت عليّ بن صالح، يقول في قول اللَّه عز وجل: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ قال: أي من طاعتي. =

....

۞ ۞ ۞

= حدثنا المثني، قال: ثنا يزيد، قال أخبرنا ابن المبارك قال: سمعت عليّ بن صالح، فذكر نحوه. حدثني أحمد بن إسحاق، قال: ثنا أبو أحمد، قال: ثنا سفيان ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ قال: من طاعتي.

حدثني الحارث، قال: ثنا عبد العزيز، قال: ثنا مالك بن مغول، عن أبان بن أبي عياش، عن الحسن، في قوله: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ قال: من طاعتي، ولا وجه لهذا القول يفهم، لأنه يجر للطاعة في هذا الوضع ذكر، فيقال: إن شكرتموني عليها زدتكم منها، وإنما جرى ذكر الخبر عن إنعام اللّه على قوم موسى بقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة: ٢٠]. ثم أخبرهم أن اللّه أعلمهم إن شكروه على هذه النعمة زادهم، فالواجب في المفهوم أن يكون معنى الكلام: زادهم من نعمه، لا مما لم يجر له ذكر من الطاعة، إلا أن يكون أريد به: لئن شكرتم فأطعتموني بالشكر لأزيدنكم من أسباب ما يعينكم عليه، فيكون ذلك وجهاً.

وقوله: ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]، يقول: وقول ولئن كفرتم أيها القوم نعمة اللّه، فجحدتموها، بترك شكره عليها، وخلافه في أمره ونهيه، وركوبكم معاصيه ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾: أعذبكم كما أعذب من كفر بي من خلقي. وكان بعض البصريين يقول في معنى قوله: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ وتأذن ربكم. ويقول: ﴿وَإِذْ﴾ من حروف الزوائد، وقد دللنا على فساد ذلك فيما مضى قبل.

تفسير الطبري [١٧/ ١٨٥-١٨٦].

تحول النعمة يعيد المؤمن إلى رشده

السؤال: أحياناً تشغلنا أمور دنيانا، فإذا بنا فجأة نحس بزوال نعمة من نعم اللّه، فنفزع إليه سبحانه وتعالى فتطمئن القلوب، ما رأي فضيلتكم ؟

الجواب: نعم، إن اللّه سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا - ونحن نقدم على الأعمال - ألا ننسى الأمانة التي حملناها، وأن نعرف أنه قائم عليها، فإذا نسيناها؛ فستذهب النعم عنا، وتضيق الدنيا في وجوهنا، وقد نكون من أغنى أهل الأرض، ولكننا نعيش عيشة ضنكاً، لا نتمتع بشيء من النعم التي جعلنا اللّه مستخلفين فيها تماماً، كذلك الإنسان المريض الذي توجد أمامه النعم، ولكنه لا يستطيع أن يأكل لقمة واحدة، أو ذلك الإنسان الخائف المحروم من نعمة الأمن والأمان اللّذيْنِ يتمتع بهما أبسط خلق اللّه، فيهرب من مكان خوفاً من القتل، أو يعيش سجيناً في حجرة لا يغادرها.

فإذا ما تذكرت اللّه تعالى، وهو المتفضل عليك بالنعم وعلى رأسها نعمة وجودك في هذا الكون وإرسال الرسل وإنزال الكتب لهدايتك إلى الصراط المستقيم خشع قلبك ورجعت إلى رشدك والتزمت منهج ربك الذي أنزله من أجلك، من أجل أن تحيا حياة سعية مطمئنة ثم تنتقل إلى جواره تعالى في جنات وعيون ومقام كريم [١].

---

(١) قال ابن كثير عن قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦]، يقول تعالى مخبراً عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل.
كما قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨]، أي: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا، وذلك بعد ما عاينوا العذاب كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤]. =

....

۞ ۞ ۞

= وكذا قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ ﴾ [الأعراف: ٩٦] أي: آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرسل وصدقت به واتبعته، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: قطر السماء ونبات الأرض. قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أي: ولكن كذبوا رسلهم، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

ثم قال تعالى مخوِّفاً ومحذِّراً من مخالفة أوامره والتجري على زواجره ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [الأعراف: ٩٧] أي: الكافرة، ﴿ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ﴾ أي: عذابنا ونكالنا ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: ليلاً، ﴿ وَهُمْ نَآئِمُونَ . . . أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي: في حال شغلهم وغفلتهم ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ﴾ أي: بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم، ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩] ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفقٌ وَجِل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمِنٌ.

عمدة التفسير [٥/ ٢٠٣].

مساواة المرأة بالرجل

السؤال: بعض الناس ينادون بمساواة المرأة بالرجل في كل شيء، فهل يمكن أن تتحقق هذه المساواة ؟

الجواب: من العجيب أن نطلب المساواة بين نوعين قالبهما مختلف، وتكوينهما متباين، لا أقول معنوياً فحسب؛ ولكنَّه تباين عضوي وموضوعي، حتى في تكوين ذرات جسميهما، وفي الظواهر التكوينية لمرأى كل منهما.

والذين ينادون بمساواة المرأة بالرجل، لم لا يقولون بمساواة الرجل بالمرأة؟! ويطلبون من المرأة أن تقوم بعمل الرجل. فكان من الواجب أيضاً أن يطلبوا من الرجل القيام بعمل المرأة، إلا أنهم جاروا على مبدأ المساواة التي يطلبونها، فإذا قامت المرأة بالعمل المطلوب من الرجل، ظلت هي بعملها الخاص الذي لا يؤدي إلا من جهتها، ومعنى ذلك إلقاء حمل جديد على المرأة.

وهكذا فَهُمْ لا يطلبون مساواتها، ولكن يطلبون غَبْنها وظلمها، فلو أنصفت المرأة نفسها، لرأت الذين يطلبون مساواتها بالرجل.. فيما تجنح إليه فكرة المساواة.. خصوماً لها.



سر توصية اللّه تعالى بالأم

السؤال: يقول المستشرقون: إن اللّه فضَّل الأم على الأب بدليل أنه ذكرها وحدها في القرآن الكريم، مع أنه أوصى بالوالدين معاً، فكيف نرد عليهم ؟

الجواب: إن اللّه سبحانه وتعالى في توصيته بالأم قد اختصها؛ لأنها تقوم بالجزء غير المنظور في حياة الابن، أو غير المدرك عقلًا، بمعنى أن الطفل وهو صغير في الرضاعة وفي الحمل والولادة، وحتى يبلغ ويعقل؛ الأم هي التي تقدم له كل شيء، هي التي تسهر لترضعه وهي التي تحمل وهي التي تلد، فإذا كبر الطفل وعقل، مَنْ الذي يجده أمامه ؟ أباه، إذا أراد شيئاً فإن أباه هو الذي يحققه له، إذا أراد أن يشتري لُعبةً جديدة، وملابس جديدة، إذا أراد ما لَا . . . إلخ. كل هذا يقوم به الأب. إذن . . فضل الأب ظاهر أمامه، أما فضل الأم فمستتر؛ ولذلك جاءت التوصية بالأم أكثر من الأب، لماذا ؟ لأن الطفل حينما يحقق له أبوه كل رغباته يحس بفضل أبيه عليه، ولكن نادراً ما يقدر التعب الذي تعبته أمه، وهو يزيد أضعاف أضعاف ما يقدمه له أبوه.

ومن هنا جاءت التوصية بالأم؛ حتى إن رسول اللّه ﷺ قال: أمك، أمك، أمك، ثم أبوك »[1] ، ولكن ما هو الهدف من هذا التذكر إذا كان الإنسان لا يعقل

---

(١) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري [٥٩٧١]، ومسلم [٢٥٤٨]، وابن ماجه [٣٦٥٨]، وأبو داود [٥١٣٩]، والترمذي [١٨٩٧]، ولفظه عند البخاري: عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه قال: جاء رجل إلى رسول اللّه ﷺ فقال: يا رسول اللّه مَنْ أحق بحسن صحابتي؟
قال: « أمك »
قال: ثم مَنْ ؟
قال: « أمك »
قال: ثم مَنْ ؟
قال: « أمك »
قال: ثم مَنْ ؟
قال: « ثم أبوك ».

هذه الفترة، ولا يتذكرها من حياته مطلقاً ؟ الهدف هو أن ينظر إلى الأمهات ليرى كيف يتعبن ؟ وكيف يعانين ويقاسين ؟ وكيف يسهرن على أطفالهن ؟ وماذا يتحملن من مشقة ؟ وعندما يراه على غيره يدرك أن هذا قد حدث له ويحس به؛ ولذلك يرد لهن الجميل.

اللّه سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بتعب الأم، ويريد أن يوصينا بالاثنين معاً، الأب والأم، ولكنه يوصينا بالأم، وخصها بالذكر أكثر؛ لأن تعبها كان والطفل صغير لم يدرك بعد، بينما ما يفعله الأب واضح وظاهر أمام الابن بعد أن كبر واشتد عوده.



الإسلام . . . وعمل المرأة

السؤال: ما الرأي في خروج المرأة للعمل ؟ وإذا اضطرتها الحاجة لذلك فماذا عليها من واجبات وما لها من حقوق ؟

الجواب: المرأة عندما تخرج من البيت للعمل؛ تعود مرهقة وتستقبل في المنزل زوجاً مرهقاً وأطفالًا مشتتين فتعاني من عذابات كثيرة، عذابات الاغتراب، وعدم الانسجام مع الزوج، وعدم القدرة على تربية الأبناء بالقدر الكافي من الحنان.

إن ثبات الحقيقة العلمية التي أوردها القرآن الكريم أن رضاعة الطفل من أمه هي تنمية له، واستثمار في صحة المجتمع نفسه بتنشئة أطفال مشبعين بالحنان، وبالمواد التي تبني أجسامهم بصحة وعافية، هذه الحقيقة العلمية التي اكتشفوها أخيراً هي التي دعت الحكومات إلى منح النساء إجازات لرعاية الأبناء.

وثبات الحقيقة العلمية التي تؤكد زيادة نسبة اضطراب المرأة عصبياً؛ عندما لا تجد من يرعى ابنها في حضانة تمنحه مثلما تمنحه الأم، ثبات تلك الحقيقة يؤكد أن رعاية الأم تفوق بالتأكيد أي رعاية أخرى، وهذه الرعاية ليست أمراً مفروضاً على الأم، بل هو أمر غريزي ترتوي به الأم عطاءً لأبنائها كما يرتوي الأبناء به أخذاً.

وثبات الحقيقة العلمية أن حنان الأم يعطي الأبناء ثقة بالنفس، وصحبة الآباء تجعل الأبناء ينشأون على محبة الأسرة، تلك الحقيقة ثبتت في النظام الأسري للإسلام، وافتقدها الغرب في هذه الأيام، عندما رأى زيادة في أعداد المنحرفين بين شبابه.

وليس معنى ذلك أن الإسلام يحرم عمل المرأة على إطلاقه، ولكن يضع الأسس التي تسير عليها حياة الأفراد بانسجام واطمئنان مع شرع اللّه تعالى.

فإذا اضطرت المرأة للخروج للعمل فقد اشترط عليها الإسلام أن تكون في

سمت معين ولباس معين، لا يشف ولا يصف عورتها، وساتراً لبدنها [(١)]، ثم عليها أن تحذر الاختلاط بالرجال في غير ضرورة ملحة تقدر بقدرها.

وتحاول جهدها أن يكون مجال عملها مع بني جنسها وعلى المجتمع أن يوفر لها كل الضمانات التي تحقق لها عملاً آمناً يصون كرامتها ويحفظ هيبتها ويوافق تكوينها.

❁ ❁ ❁

(١) في كتاب جلباب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة [ص: ٣٧] ذكر الشيخ الألباني الشروط الواجب توافرها في جلباب المرأة إذا خرجت من بيتها فقال:
١ - استيعاب جميع البدن إلا ما استثني [(١)].
٢ - أن لا يكون زينة في نفسه.
٣ - أن يكون صفيقاً لا يشف.
٤ - أن يكون فضفاضاً غير ضيق.
٥ - أن لا يكون مبخراً مطيباً.
٦ - أن لا يشبه لباس الرجل.
٧ - أن لا يشبه لباس الكافرات.
٨ - أن لا يكون لباس شهرة.

(١) هذه المسألة فيها خلاف ونزاع بين العلماء فلتراجع في مظانها.

تعدد الزوجات للرجال لا للنساء . . لماذا ؟

السؤال: يتساءل بعض الناس: لماذا أباح اللَّه للرجل تعدد الزوجات، ولم يبح للمرأة تعدد الأزواج ؟

الجواب: إن اللَّه سبحانه وتعالى حين لم يعط المرأة حق التعدد في الصنف المقابل لها، إنما هو تكريم وإعزاز للمرأة؛ لأنه لم يجعلها نهباً لكل فحل يريد أن يطأها.

إننا في هذه الدنيا نجد في النساء من تسمو نفوسهن ويأبي حياء الواحدة منهن أن تتزوج بعد وفاة زوجها رعاية لأولادها وحتى لا ينكشف عليها رجل آخر ولو بما أحل اللَّه لها.

إذن . . فقول هذا الكلام من أهل الاستشراق إنما هو محاولة لزراعة نوع من الشهوة الهلوك في كيان المرأة ويريدون أن يدخلوا في روعها أن اللَّه قد حرمها ذلك، ونسوا أن اللَّه سبحانه وتعالى قد كرم المرأة كرامة تشهد لها بأنها عفيفة وعزيزة ولا تحب أن يتعدد عليها الرجال.

وقلت مرة لمن سألني ونحن في أمريكا عن سبب حرمان المرأة من التعدد مع أنه أُحل للرجل ؟

قلت لمن سألني ذلك السؤال:

سألتك باللَّه أعندكم في بلادكم إباحة للبغاء ؟

قال الرجل: نعم في بعض الولايات إباحة للبغاء.

سألت الرجل: كيف تحتاط حكومات تلك الولايات لصحة المرأة التي تمتهن هذه المهنة ؟

قال الرجل: بالكشف الصحي الدوري مرتين كل أسبوع، ومع ذلك تفاجأ المستشفيات بما لا حصر له ولا عدد من حالات الأمراض التناسلية الشديدة الفتك بالإنسان رجلًا كان أم امرأة، والكشف الدوري مرتين في الأسبوع حماية للرجل وللمرأة معاً.

قلت للرجل: كلام يؤيد ما أراد الإسلام صيانة لصحة المرأة وكرامتها، لذلك أسألك، هل هناك كشف دوري على المرأة المتزوجة مرة في الأسبوع أو كل شهر؟

قال الرجل: لا لأن المتزوجة لا تتعرض لميكروب خبيث أبداً، وإذا تعرضت له فلا بد أن زوجها قد جاء به من فعل جنسي خارج البيت. ذلك أن الميكروب لا ينتقل إلا بتعدد المرأة على عدد من الرجال وقد ينتقل من رجل فعل فاحشة إلى زوجته.

إذن.. فقد صدق اللَّه خلقه، حين أباح للرجل أن يعدد بشروط العدالة والتي منها كفالة المرأة ورعايتها وحفظ كرامتها... إلخ. ما اشترط الشرع عليه من العدل بين الزوجات، ولم يبح الإسلام التعدد للمرأة لأن فيه مهانة لها وأمراضاً لا نهاية لها تصيب المجتمع.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ﴾[1] [النساء: ٣].

المتأمل لشرع اللَّه تعالى يجد بعض الأحكام يشرعها سبحانه إما حلالًا، وإما

---

(١) هذا نص في إباحة التعدد فقد أفادت الآية الكريمة إباحته، فللرجل في شريعة الإسلام أن يتزوج واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً، بأن يكون له في وقت واحد هذا العدد من الزوجات. إلا أن هذه الإباحة مقصورة على الجمع بين أربع زوجات كحد أقصى للجمع، ولا يجوز له الزيادة على الأربع، وبهذا قال المفسرون والفقهاء، وأجمع عليه المسلمون ولا خلاف فيه.

ولهذا كان من أسلم في عهد النبي ﷺ وعنده أكثر من أربع زوجات يأمره النبي ﷺ بإمساك أربع زوجات ويفارق الباقيات.

ولكن هل الاقتصار على زوجة واحدة أولى من التعدد؟

قال الحنابلة: «ويستحب أن لا يزيد على واحدة إن حصل بها الإعفاف لما فيه من التعرض إلى المحرم.

قال تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء: ١٢٩].

وقال ﷺ: «من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل»[1].

المُفَصَّل في أحكام المرأة والبيت المسلم [٦/ ٢٨٦ : ٢٨٧].

---

(١) كشاف القناع [٣/ ٤]. والحديث رواه أبو داود [٢١٣٣]، والترمذي [١١٤١]، والنسائي في المجتبي [٣٩٤٢]، وابن ماجه [١٩٦٩]، وأحمد في المسند [٢/ ٣٤٧]، والدارمي [٢/ ١٤٣]. وقال الألباني في صحيح ابن ماجه [١٦٠٣]: صحيح.

حراماً، أو مسكوتاً عنه. . وفي هذه الآية اللّه سبحانه لم يفرض على الرجل التعدد. ولكنه أحله له فمن شاء عدد ومن شاء اقتصر على واحدة، وكل حسب قدرته ورغبته. وتحليل اللّه تعالى للتعدد له شروط وضوابط عرضها القرآن الكريم حتى لا يكون الأمر فوضى تختل به موازين الأسرة، هناك فرق بين أن يلزمك اللّه أن تفعل وبين أن يحل لك أن تفعل أو لا تفعل. وحين يحل لك اللّه تعالى أن تفعل أو لا تفعل، ما المرجع في فعلك ؟ إنه رغبتك وهكذا يظن البعض، ولكن الحقيقة هي: إنك إذا أخذت الحكم، فخذ الحكم من كل جوانبه فلا تأخذ الحكم بالتعدد ثم تتغاضى عن الحكم بالعدالة. . إذا حدث هذا فسينشأ الفساد في الأرض، وأول هذا الفساد هو تشكك الناس في دين اللّه. لماذا ؟ لأنك أخذت التعدد وتركت العدالة. . فأنت تكون قد أخذت شقاً من الحكم ولم تأخذ الشق الآخر وهو العدل.

والناس تجنح أمام التعدد لماذا ؟ لأن الناس شقوا كثيراً بالتعدد، أخذوا حكم اللّه في التعدد. وتركوا حكم اللّه في العدالة. والمنهج الإلهي يجب أن يؤخذ كله. لماذا تكره الزوجة أن يعدد الزوج ؟ لأنها وجدت أن الزوج إذا ما تزوج واحدة عليها التفت الزوج عنها كلية بخيره، وببسمته، وبحنانه إلى الزوجة الجديدة؛ حينئذ لا بد للمرأة أن تكره زواج الرجل عليها بامرأة أخرى.

إن الذين يأخذون حكم اللّه في التعدد يجب أن يلزموا أنفسهم بحكم اللّه أيضاً في العدالة. . فإن لم يفعلوا ذلك فهم يشيعون التمرد على حكم اللّه؛ وسيجد الناس حيثيات لهذا التمرد. . سيقال: انظر إلى فلان تزوج بأخرى وأهمل الأولى، أو ترك أولاده دون رعاية واتجه إلى الزوجة الجديدة فكيف تأخذ إباحة اللّه في شيء ولا تأخذ إلزامه سبحانه في ضوابط ذلك الشيء ؟!

إن من يفعل ذلك فهو يشكك الناس في دين اللّه. ويجعل الناس تتمرد على شرع اللّه. إذن. . فآفة الأحكام أن يؤخذ حكم جزئي دون مراعاة الظروف كلها والذي يأخذ حكماً عن اللّه لا بد أن يأخذ كل منهج اللّه. وللنظرإلى إنسان عدل في العشرة وفي النفقة. وفي المعيشة وفي المكان وفي الزمان. ولم يجد هناك مبرراً لأن يرجح واحدة على أخرى. . فالزوجة الأولى إن رفضت ذلك فهي لن تجد حيثية لها أمام الناس. أما عندما يكون الأمر غير ذي عدل فإنها سوف تجد الحيثية للاعتراض.

إذن. . الصراخ الذي نسمعه هذه الأيام إنما نشأ من أن البعض الذي أخذ

بالتعدد أعرض عن العدالة؛ والعدالة إنما تكون في الأمور التي للرجل فيها خيار، أما الأمور التي لا خيار فيها للرجل فلم يطالبه الله.

والكارهون للتعدد والذين في قلوبهم مرض يقولون: إن الله قال: اعدلوا.. ثم حكم أننا لا نستطيع أن نعدل !!

لهؤلاء نقول: هذا من سوء فهمكم للآية الكريمة، فالآية أحلت التعدد بشرط العدالة، ومن لا يستطيع العدالة فلا حق له في التعدد، فهؤلاء أخذوا قوله سبحانه: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء: ١٢٩]؛ وتركوا قوله سبحانه ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٢٩].

الله سبحانه وتعالى قد ألمح على عدم الاستطاعة في العدل المطلق عند البعض، ولكنه سبحانه قد أبقى الحكم ولم يلغه، لأن هناك من يستطيع أن يعدل.

ولنا أسوة حسنة في الرعيل الأول من صحابة الرسول ﷺ والتابعين ومن بعدهم عددوا وعدلوا، ولا تزال طائفة من هذه الأمة على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه وحكم الله تعالى قائم وباق إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء: ٣].

وأما تكملة الآية في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾ [النساء: ٣]. فشرط مرجعه شخص المُكَلف، بمعنى أنه إذا خاف ألا يعدل فعليه أن يقتصر على زوجة واحدة، وإن استطاع العدل بينهم بالسوية كما أشرنا سابقاً، فقد أحل الله له التعدد[1].

---

(١) **وعن شروط إباحة تعدد الزوجات:** يقول الدكتور عبد الكريم زيدان:

الشرط الأول - العدل: قال تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ﴾ [النساء: ٣]، أفادت هذه الآية الكريمة أن «العدل» شرط لإباحة التعدد، فإذا خاف الرجل من عدم العدل بين زوجاته إذا تزوج أكثر من واحدة، كان محظوراً عليه الزواج بأكثر من واحدة.

ولا يشترط اليقين من عدم العدل لحرمة الزواج بالثانية بل يكفي غلبة الظن، فإذا كان غالب ظنه أنه إذا تزوج زوجة أخرى مع زوجته، لم يستطع العدل بينهما حرم عليه هذا الزواج.

والمقصود بالعدل المطلوب من الرجل لإباحة التعدد له، هو التسوية بين زوجاته في النفقة والكسوة والمبيت ونحو ذلك من الأمور المادية مما يكون في مقدوره واستطاعته.

أما التسوية بين زوجاته في المحبة وميل القلب ونحو ذلك من الأحاسيس، فهذه الأمور =

قلنا: إن المؤمن يجب ألا يجعل منهج اللّه في حركة حياته عضين، بمعنى

= غير مكلف بها، ولا مطالب بالعدل فيها بين زوجاته؛ لأنه لا يستطيعها، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾، ولهذا كان ﷺ يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»[1]. أي في المحبة لبعض أزواجه أكثر من البعض الآخر.

فالعدل الذي هو شرط لإباحة التعدد في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ﴾ هو العدل في الأمور المادية المستطاعة والمقدور عليها كالنفقة والكسوة والمبيت.

أما العدل غير المستطاع بين الزوجات والمشار إليه في قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾، فهو العدل في المحبة وميل القلب، وبهذا قال المفسرون.

والشرط الثاني لإباحة التعدد: القدرة على الإنفاق على الزوجات: أي القدرة على الإنفاق على زوجته القديمة وزوجته الجديدة، والواقع أن شرط الإنفاق على الزوجة هو شرط لزواج الرجل، سواء كان هذا الزواج بالزوجة الأولى أو بالثانية، ويبقى هذا الالتزام ثابتاً في ذمة الرجل نحو زوجته ما دامت زوجته، ولا يسقط عنه بزواجه بأخرى، بل يزيد التزامه التزاماً آخر بالنفقة على زوجته الثانية، فإذا كان عاجزاً عن الإنفاق على زوجته الثانية مع الأولى، حرم عليه الزواج بالثانية. وقد دلّ على هذا الشرط: شرط الإنفاق قوله تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النور: ٣٣]، فقد أمر اللّه تعالى بهذه الآية الكريمة من يقدر على النكاح ولا يجده بأي وجه تعذر أن يستعفف، ومن وجوه تعذر النكاح من لا يجد ما ينكح به من مهر، ولا قدرة له على الإنفاق على زوجته.

وكذلك يستدل على شرط الإنفاق بقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾ [النساء: ٣]، فقد روي عن الإمام الشافعي أنه قال في معنى ﴿ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾: «أي: ألا يكثر عيالكم»[2].

وفي هذا إشارة إلى شرط الإنفاق؛ لأن الخوف من كثرة العيال لما تؤدي إليه هذه الكثرة من ضرورة كثرة الإنفاق التي قد يعجز عنها من يريد الزواج بأكثر من واحدة، فيفهم من ذلك أن القدرة على الإنفاق على الزوجات عند إرادة التعدد شرط لإباحة هذا التعدد، كذلك قد يستدل على شرط القدرة على الإنفاق بالحديث الصحيح عن النبي ﷺ وهو قوله: «يا معشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[3]. =

---

(١) رواه أبو داود [٢١٣٤]، والترمذي [١١٤٠]، والنسائي في المجتبي [٣٩٤٣]، وابن ماجه [١٩١٧]، وأحمد في المسند [٦/ ١٤٤]. وقال الألباني في ضعيف ابن ماجه [٤٢٧]: ضعيف.

(٢) الفخر الرازي [٩/ ١٧٧].

(٣) أخرجه البخاري [٥٠٦٦]، ومسلم [١٤٠٠] عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه.

أنه يأخذ حكماً في صالحه ويترك حكماً عليه. فالمنهج من اللّه يجب أن يؤخذ جملة من كل الناس لأن أي انحراف في فرد من أفراد الأمة الإسلامية يصيب المجموع بضرر.. فكل حق لك أيها المسلم واجب عند غيرك، فإن أردت أن تأخذ حقك فأدّ واجبك(١).

= فإذا لم يستطع على مؤونة الزواج لم يجز له الزواج وإن كان هو زواجه الأول، فمن باب أولى أن لا يباح له الزواج بالثانية وعنده زوجة إذا كان عاجزاً عن الإنفاق على الثانية مع إنفاقه على الأولى.

ثم إن الإقدام على الزيجة الثانية مع علمه بعجزه عن الإنفاق عليها مع الأولى عمل يتسم بعدم المبالاة بأداء حقوق الغير، ويعتبر من أنواع الظلم، والظلم لا يجوز في شرعة الإسلام.

وبناء على جميع ما تقدم، يعتبر من الظلم المحظور أن يقدم الرجل على الزواج بأخرى مع وجود زوجة عنده، ومع علمه بعجزه عن الإنفاق على زوجته الجديدة والقديمة.

المُفَصَّل في أحكام النساء [٦/ ٢٨٧ : ٢٨٩].

(١) **حكمة تعدد الزوجات:**

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان: والحكمة من تعدد الزوجات بعد توافر شروطه، هذه الحكمة ظاهرة جلية بالنسبة للرجل والمرأة وبالنسبة للمجتمع، ونذكر فيما يلي بعض وجوه هذه الحكمة:

أولاً : قد تكون الزوجة عقيمة أو لا تصلح للحياة الزوجية لمرضها، والزوج يتطلع إلى الذرية وهو تطلع مشروع، ولا سبيل لذلك إلا بالزواج بأخرى.

ثانياً: وقد لا يكفي الرجل زوجة واحدة لنشاطه الجنسي، والمرأة عادة تكون معطلة وعاجزة عن مشاركته هذا النشاط.

ثالثاً: وقد تكون المرأة من أقارب الرجل ولا معيل لها، وهي غير متزوجة، أو أرملة مات زوجها، ويرى هذا الرجل أن من أحسن الإحسان لها أن يضمها إلى بيته زوجة مع زوجته الأولى، فيجمع لها الإعفاف والإنفاق عليها.

رابعاً: وقد تكون المرأة قد مات زوجها شهيداً وهي لا تزال شابة أو بحاجة إلى زوج، فمن الخير والصيانة لها أن تكون زوجة ثانية لزوج يرغب في نكاحها وترغب في نكاحه.

خامساً: قد يكون في زمان معين أو مكان معين عدد النساء أكثر من عدد الرجال، ولاسبيل إلى تصريف الزائد من عدد النساء إلا عن طريق تعدد الزوجات.

سادساً: هناك مصالح مشروعة تدعو إلى الأخذ بالتعدد: كالحاجة إلى توثيق روابط بين عائلا ، أو توثيق الروابط بين رئيس وبعض أفراد رعيته أو جماعته.

سابعاً: وفي أعقاب الحروب تظهر عادة مشكلة كثرة النساء، وقلة الرجال بسبب فقد =

والذين يأخذون حكم اللّه في إباحة التعدد.. عليهم أن يأخذوا حكم اللّه أيضاً في العدل.. وإلا فقد أعطوا خصوم الدين حججاً قوية في الصد عن سبيل اللّه ويجرّئونهم على تغيير ما شرع اللّه بحجة ما يرونه من آثار أخذ حكم وإهمال حكم آخر.

والعدل المراد في التعدد: هو القسمة بالسوية في المكان، أي أن لكل واحدة من المتعددات مكاناً يساوي مكان الأخرى؛ وفي الزمان، أي: يقسم بينهن في المبيت، ويعطي كل واحدة حقها من الوقت. وفي متاع المكان، وفيما يخص الرجل من متاع نفسه. فليس له أن يجعل شيئاً له قيمة عند واحدة، وشيئاً لا قيمة له عند واحدة أخرى.. لا، لا بد من المساواة.. لا في متاعها فقط.. بل متاعك أنت أيها المسلم الذي تتمتع به عندها؛ حتى إن بعض المسلمين الأوائل كان

= الأزواج والرجال، وما ينتج عن ذلك من كثرة الأرامل والنساء الباكرات مع قلة الرجال، وهذه مشكلة خطيرة جداً وتلقي بثقلها على المجتمع المبتلي بها، ولا سبيل لحلّها إلا بالتعدد.

ثامناً: وفي التعدد كثرة النسل، وكثرة الأيدي العاملة، وفي هذه الكثرة قوة للأمة، وزيادة في إنتاجها، ومصلحة مؤكدة لأفراد العائلة.

اعتراض: وقد يعترض البعض ويقول: إن في تعدد الزوجات وجود الضرائر في البيت الواحد، وما ينشأ عن ذلك أو يترتب عليه من منافسات وعداوات بين الضرائر تنعكس على من في البيت من زوج وأولاد وغيرهم. وهذا ضرر، والضرر يزال، ولا سبيل إلى منعه إلا بمنع تعدد الزوجات.

دفع الاعتراض: والجواب: أن النزاع في العائلة قد يقع بوجود زوجة واحدة، وقد لايقع مع وجود أكثر من زوجة واحدة كما هو المشاهد. وحتى لو سلمنا باحتمال النزاع والخصام على نحو أكثر مما قد يحصل مع الزوجة الواحدة، فهذا النزاع حتى لو اعتبرناه ضرراً وشراً إلا أنه ضرر مغمور في خير كثير، وليس في الحياة شر محض ولا خير محض، والمطلوب دائماً تغليب ما كثر خيره وترجيحه على ما كثر شرّه، وهذا القانون هو المأخوذ والملاحظ في إباحة تعدد الزوجات.

اعتراض آخر: وقد يقال أيضاً: إن الأخذ بإباحة التعدد يهدم قاعدة المساواة بين الرجل والمرأة؛ لأن المرأة ممنوعة من تعدد الأزواج، بينما يباح للرجل تعدد الزوجات، ولا سبيل إلى رفع هذا الحَيْف إلا بمنع التعدد.

دفع هذا الاعتراض: والجواب: أن المساواة في الحقوق لا تعني المساواة بينهما في كل ما يعطاه الرجل، وفي كل ما تعطاه المرأة، وإنما المساواة أن يعطي كل منهما ما يستحق إعطاءه.

المُفَصّل في أحكام المرأة والبيت المسلم [٦/ ٢٨٩: ٢٩١]. بتصرف.

يساوي بينهن في النعال التي يلبسها في بيته؛ فيأتي بها من لون واحد وشكل واحد وصنف واحد وذلك حتى لا تفاخر واحدة منهن على الأخرى قائلة: إن زوجي يكون عندي في أحسن هندام منه عندك.

والعدالة المطلوبة أيضاً هي العدالة فيما يدخل في اختيارك، لأن العدالة التي لا تدخل في اختيارك لا يكلف اللَّه بها.. فأنت عدلت في المكان، وفي الزمان، وفي المتاع لكل واحدة. ولكنك لا تستطيع أن تعدل بميل قلبك وحب نفسك؛ لأن ذلك ليس في قدرتك، والرسول ﷺ يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تَلُمْنِي فيما تملك ولا أملك»[١].

إذن.. هذا معنى قول الحق سبحانه: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٢٩].

هناك أشياء لا تدخل في قدرتك ولا تدخل في اختيارك، مثال ذلك كأن ترتاح نفسياً عند واحدة ولا ترتاح نفسياً عند أخرى، لكن الأمر الظاهر للكل يجب أن تكون فيه القسمة بالسوية حتى لا تفضل واحدة على الأخرى وحتى لا تعطي الكارهين لدين اللَّه ثغرة ينفذون منها إلى شرع اللَّه تعالى[٢].

---

(١) رواه أبو داود [٢١٣٤] عن عائشة رضي اللَّه تعالى عنها، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود [٤٦٧].

(٢) قال العلامة أحمد شاكر: نبتت في عصرنا هذا الذي نحيا فيه نابتة إفرنجية العقل، نصرانية العاطفة، رباهم الإفرنج في ديارنا وديارهم، وأرضعوهم عقائدهم، صريحة تارة، وممزوجة تارات؛ حتى لبسوا عليهم تفكيرهم، وغلبوهم على فطرتهم الإسلامية. فصار هجيراهم وديدنهم أن ينكروا تعدد الزوجات، وأن يروه عملًا بشعاً غير مستساغ في نظرهم! فمنهم من يصرح، ومنهم من يجمجم. وجاراهم في ذلك بعض من ينتسب إلى العلم من أهل الأزهر، المنتسبين للدين، والذين كان من واجبهم أن يدفعوا عنه، وأن يعرّفوا الجاهلين حقائق الشريعة.

فقام من علماء الأزهر من يمهد لهؤلاء الإفرنجيّي العقيدة والتربية للحدّ من تعدد الزوجات، زعموا!! ولم يدرك هؤلاء العلماء! أن الذين يحاولون استرضاءهم لا يريدون إلا أن يزيلوا كل أثر لتعدد الزوجات في بلاد الإسلام، وأنهم لا يرضون عنهم إلا أن جارَوْهم في تحريمه ومنعه جملة وتفصيلًا. وأنهم يأبون أن يوجد على أيّ وجه من الوجوه، لأنه منكر بشع في نظر سادتهم الخواجات!!

وزاد الأمر وطمّ، حتى سمعنا أن حكومة من الحكومات التي تنتسب للإسلام وضعت =

....

= في بلادها قانوناً منعت فيه تعدد الزوجات جملة، بل صرحت تلك الحكومة باللفظ المنكر: أن تعدد الزوجات - عندهم - صار حراماً. ولم يعرف رجال تلك الحكومة أنهم بهذا اللفظ الجريء المجرم؛ صاروا مرتدين خارجين من دين الإسلام، تجري عليهم وعلى من يرضي عن عملهم كلُّ أحكام الردّة المعروفة، التي يعرفها كل مسلم. بل لعلهم يعرفون ويدخلون في الكفر والردَّة عامدين عالمين. بل إن أحد الرجال الذين ابتلى الأزهر بانتسابهم إلى علمائه، تجرأ مرة وكتب بالقول الصريح أن الإسلام يحرم تعدد الزوجات، جرأة على الله، وافتراء على دينه الذي فُرض أن يكون هو من حفظته القائمين على نصره !!

واجترأ بعض من يعرف القراءة والكتابة - من الرجال والنسوان - فجعلوا أنفسهم مجتهدين في الدين !! يستنبطون الأحكام ويفتون في الحلال والحرام، ويسبونْ علماء الإسلام إذا أرادوا أن يعلموهم ويقفوهم عند حدّهم. وأكثرُ هؤلاء الأجْرِيَاء، من الرجال والنساء، لا يعرفون كيف يتوضؤون ولا كيف يصلون، بل لا يعرفون كيف يتطهرون، ولكنهم في مسألة تعدد الزوجات مجتهدون !!

بل لقد رأينا بعض من يخوض منهم فيما لا يعلم، يستدل بآيات القرآن بالمعنى، لأنه لا يعرف اللفظ القرآني !!

وعن صنيعهم هذا الإجرامي، وعن جرأتهم هذه المنكرة، وعن كفرهم البواح دخل في الأمر غير المسلمين، وكتبوا آراءهم مجتهدين !! كسابقيهم، يستنبطون من القرآن وهم لا يؤمنون به؛ ليخدعوا المسلمين ويضلوهم عن دينهم. حتى إن أحد الكتاب غير المسلمين كتب في إحدى الصحف اليومية التي ظاهر أمرها أن أصحابها مسلمون كتب مقالًا بعنوان: «تعدد الزوجات وصمة» ! فشتم بهذه الجرأة الشريعة الإسلامية، وشتم جميع المسلمين من بدء الإسلام إلى الآن ! ولم نجد أحداً حرك في ذلك ساكناً. مع أن اليقين أن لو كان العكس، وأن لو تجرّأ كاتب مسلم على شتم شريعة ذلك الكاتب، لقامت الدنيا وقعدت. ولكن المسلمين مؤدبون.

وبعد: فإن أول ما اصطنعوا من ذلك: أن اصطنعوا الشفقة على الأسرة وعلى الأبناء خاصة ! وزعموا أن تعدد الزوجات سبب لكثرة المتشردين من الأطفال ! بأن أكثر هؤلاء من آباء فقراء تزوجوا أكثر من واحدة ! وهم في ذلك كاذبون، والإحصاءات التي يستندون إليها هي التي تكذبهم. فأرادوا أن يشرعوا قانوناً يحرم تعدد الزوجات على الفقير ويأذنون به للغنيّ القادر !! فكان هذا سوأة السوءات، أن يجعلوا هذا التشريع الإسلامي السامي وقفاً على الأغنياء !

ثم لم ينفع هذا ولم يستطيعوا إصداره؛ فاتجهوا وجهة أخرى يتلاعبون فيها بالقرآن: فزعموا أن إباحة التعدد مشروطة بشرط العدل، وأن الله سبحانه أخبر بأن العدل غير =

....

= مستطاع، فهذه أمارة تحريمه عندهم !! إذ قصروا استدلالهم على بعض الآية وتركوا باقيها: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ ﴾ وتركوا باقيها: ﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ ﴾ [النساء: ١٢٩]. فكانوا كالذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض !

ثم ذهبوا يتلاعبون بالألفاظ، وببعض القواعد الأصولية، فسمَّوْا تعدد الزوجات « مباحاً» ! وأن لولي الأمر أن يقيد بعض المباحات بما يرى من القيود للمصلحة ! وهم يعلمون أنهم في هذا كله ضالون مضلُّون. فما كان تعدد الزوجات مما يطلق عليه لفظ «المباح» بالمعنى العلمي الدقيق: أي المسكوت عنه، الذي لم يردْ نص بتحليله أو تحريمه، وهو الذي قال فيه الرسول ﷺ: «الحلال ما أحل اللَّه في كتابه. والحرام ما حرم اللَّه في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه» . بل إن القرآن نصَّ صراحة على تحليله، بل جاء إحلاله بصيغة الأمر، التي أصلها للوجوب: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء: ٣].

وإنما انصرف فيها الأمر من الوجوب إلى التحليل بقوله: ﴿ مَا طَابَ لَكُم ﴾. ثم هم يعلمون - علم اليقين - أنه حلال بكل معنى كلمة «حلال»، بنص القرآن، وبالعمل المتواتر الواضح الذي لا شك فيه و منذ عهد النبي ﷺ وأصحابه إلى اليوم. ولكنهم قوم يفترون !

وشرط العدل في هذه الآية: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ﴾ [النساء: ٣]، شرط شخصي لا تشريعي، أعني: أنه شرط مرجعه لشخص المكلف، لا يدخل تحت سلطان التشريع والقضاء. فإن اللَّه قد أذن للرجل - بصيغة الأمر - أن يتزوج ما طاب له من النساء، دون قيد بإذن القاضي أو بإذن القانون أو بإذن ولي الأمر أو غيره، وأمره أنه إذا خاف - في نفسه - أن لا يعدل بين الزوجات أن يقتصر على واحدة. وبالبداهة: أن ليس لأحد سلطان على قلب المريد الزواج، حتى يستطيع أن يعرف ما في دخيلة نفسه من خوف الجور أو عدم خوفه، بل ترك اللَّه ذلك لتقديره في ضميره وحده. ثم علَّمه اللَّه سبحانه أنه على الحقيقة لا يستطيع إقامة ميزان العدل بين الزوجات إقامة تامة لا يدخلها ميل، فأمره أن لا يميل «كل الميل فيذر بعض زوجاته كالمعلقة». فاكتفى ربه منه - في طاعة أمره - بالعدل أن يعمل منه بما استطاع، ورفع عنه ما لم يستطع.

وهذا العدل المأمور به مما يتغير بتغير الظروف، ومما يذهب ويجيء بما يدخل في نفس المكلف. ولذلك لا يعقل أن يكون شرطاً في صحة العقد. بل هو شرط نفسي متعلق بنفس المكلف وبتصرفه في كل وقت بحسبه. =

رواه الترمذي [١٧٢٦] ، وابن ماجه [٣٣٦٧] ، وقال الألباني في صحيح ابن ماجه [٢٧١٥] : حسن .

....

= فربَّ رجل عزم على الزواج المتعدد، وهو مصرٌّ في قلبه على عدم العدل، ثم لم ينفذ ما كان مصرًّا عليه، وعدل بين أزواجه. فهذا لا يستطيع أحد يعقل الشرائع أن يدعي أنه خالف أمر ربه. إذْ إنه أطاع اللّه بالعدل، وعزيمتُه في قلبه من قبلُ لا أثر لها في صحة العقد أو بطلانه - بداهةً - خصوصاً وأن النصوص كلها صريحة في أن اللّه لا يؤاخذ العبد بما حدَّث به نفسه، ما لم يعمل به أو يتكلم[1]. ورُبَّ رجل تزوج زوجة أخرى عازماً في نفسه على العدل، ثم لم يفعل، فهذا قد ارتكب الإثم بترك العدل ومخالفة أمر ربه. ولكن لا يستطيع أحد يعقل الشرائع أن يدّعي أن هذا الجور المحرَّم منه قد أثّر على أصل العقد بالزوجة الأخرى، فنقله من الحلّ والجواز إلى الحرمة والبطلان. إنما إثمه على نفسه فيما لم يعدل، ويجب عليه طاعة ربه في إقامة العدل. وهذا شيء بديهي لا يخالف فيه من يفقه الدين والتشريع. والقوم أصحاب هوى ركب عقولهم، لا أصحاب علم ولا أصحاب استدلال، يحرفون الكلم عن مواضعه. ويلعبون بالدلائل الشرعية من الكتاب والسنة ما وسعهم اللعب.

فمن ألاعيبهم: أن يستدلوا بقصة عليّ بن أبي طالب، حين خطب بنت أبي جهل في حياة فاطمة بنت الرسول ﷺ، وأن رسول اللّه ﷺ حين استؤذن في ذلك قال: «فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما هي بضعة مني، يريبني ما أرابها، ويؤذيني ما آذاها». ولم يسوقوا لفظ الحديث، إنما لخصوا القصة تلخيصاً مريباً! ليستدلوا بها على أن النبي ﷺ يمنع تعدد الزوجات، بل صرح بعضهم بالاستدلال بهذه القصة على ما يزعم من التحريم! لعباً بالدين، وافتراءً على اللّه ورسوله.

ثم تركوا باقي القصة، الذي يدمغ افتراءهم - ولا أقول استدلالهم، هو قول رسول اللّه ﷺ في الحادثة نفسها: «وإني لست أُحرّمُ حلالاً، ولا أُحلُّ حراماً، ولكن واللّه لا تجتمع بنت رسول اللّه وبنت عدوّ اللّه مكاناً واحداً أبداً».

واللفظان الكريمان رواهما الشيخان: البخاري ومسلم[2].

فهذا رسول اللّه ﷺ المبلغ عن اللّه، والذي كلمته الفصل في بيان الحلال والحرام، يصرح باللفظ العربي المبين - في أدق حادث يمسّ أحب الناس إليه، وهي ابنته الكريمة السيدة الزهراء بأنه لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً، ولكنه يستنكر أن تجتمع بنت رسول اللّه وبنت عدوّ اللّه في عصمة رجل واحد. =

---

(١) أخرجه البخاري [٢٥٢٨]، ومسلم [١٢٧/٢٠١] واللفظ له. عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه قال: النبي ﷺ: «إن اللّه تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به».

(٢) أخرجه البخاري [٣١١٠، ٥٢٣]، ومسلم [٢٤٤٩/٩٣] من حديث المسور بن مخرمة رضي اللّه تعالى عنه.

....

= وعندي وفي فهمي: أنه ﷺ لم يمنع عليًا من الجمع بين بنته وبنت أبي جهل بوصفه رسولاً مبلغاً عن ربه حكماً تشريعيًا، بدلالة تصريحه بأنه لا يحرم حلالاً ولا يحل حراماً، وإنما منعه منعاً شخصياً بوصفه رئيس الأسرة التي منها عليّ ابن عمه وفاطمة ابنته، بدلالة أن أسرة بنت أبي جهل هي التي جاءت تستأذنه فيما طلب إليهم عليّ رضي اللّه تعالى عنه. وكلمة رئيس الأسرة مطاعة من غير شك، خصوصاً إذا كان ذلك الرئيس هو سيد قريش، وسيد العرب، وسيد الخلق أجمعين. صلى اللّه عليه وسلم.

وليس بالقوم استدلال أو تحرّ لما يدل عليه الكتاب والسنة، ولا هم من أهل ذلك ولا يستطيعونه. إنما بهم الهوى إلى شيء معين، يتلمسون له العلل التي قد تدخل على الجاهل والغافل.

بل إن في فلتات أقلامهم ما يكشف عن خبيئتهم، ويفضح ما يكنون في ضمائرهم.

ومن أمثلة ذلك: أن موظفاً كبيراً في إحدى وزاراتنا كتب مذكرة أضفى عليها الصفة الرسمية، ونشرت في الصحف منذ بضع سنين، وضع نفسه فيها موضع المجتهدين، لا في التشريع الإسلامي وحده، بل في جميع الشرائع والقوانين فاجترأ على أن يعقد موازنة بين الدين الإسلامي في إحلاله تعدد الزوجات، وبين الأديان الأخرى - زعم !! -وبين قوانين الأمم حتى الوثنية منها ! ولم يجد في وجهه من الحياء ما يمنعه من الإيحاء بتفضيل النصرانية التي تحرم تعدد الزوجات، ومن ورائها التشريعات الأخرى التي تسايرها، بل يكاد قوله الصريح ينبئ عن هذا التفضيل !! ونسي أنه بذلك خرج من الإسلام بالكفر البواح، على الرغم من أن اسمه يدل على أنه ولد على فراش رجل مسلم. إلى ما يدل عليه كلامه من جهله بدين النصارى، حتى عقد هذه المفاضلة !!

فإن اليقين الذي لا شك فيه: أن سيدنا عيسى عليه السلام لم يحرم تعدد الزوجات الحلال في التوراة التي جاء هو مصدقاً لها بنص القرآن الكريم. وإنما حرمه بعض البابوات بعد عصر سيدنا عيسى بأكثر من ثمانمائة سنة على اليقين. بما جعل هؤلاء لأنفسهم من حق التحليل والتحريم، الذي نعاه اللّه عليهم في الكتاب الكريم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، والذي فسَّره الرسول ﷺ، حين استفسر منه عدي بن حاتم الطائي الذي كان نصرانيًا وأسلم إذ سمع هذه الآية فقال: إنهم لم يعبدوهم. فقال الرسول ﷺ: «بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم»[(١)].

فيا أيها المسلمون: لا يستدرينكم الشيطان، ولا يخدعنكم أتباعه وأتباع عابديه، =

---

(١) رواه الترمذي [٣٠٩٥] بلفظ: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه». وقال الألباني في صحيح الترمذي [٢٤٧١]: حسن.

....

۞ ۞ ۞

= فتستخفوا بهذه الفاحشة التي يريدون أن يذيعوها فيكم، وبهذا الكفر الصريح الذي يريدون أن يوقعوكم فيه. فليست المسألة مسألة تقييد مباح أو منعه، كما يريدون أن يوهموكم. وإنما هي مسألةٌ في صميم العقيدة: أتُصرُّون على إسلامكم وعلى التشريع الذي أنزله اللّه إليكم وأمركم بطاعته في شأنكم كله ؟ أم تعرضون عنهما والعياذ باللّه فتتردوا في حمأة الكفر، وتتعرضوا لسخط اللّه ورسوله ؟ هذا هو الأمر على حقيقته.

إن هؤلاء القوم الذين يدعونكم إلى منع تعدد الزوجات لا يتورع أكثرهم عن اتخاذ العدد الجم من العشيقات والأخدان، وأمرهم معروف مشهور. بل إن بعضهم لا يستحي من إذاعة مباذله وقاذوراته في الصحف والكتب، ثم يرفع علم الاجتهاد في الشريعة والدين، ويزري بالإسلام والمسلمين.

إن اللّه حين أحل تعدد الزوجات بالنص الصريح في القرآن - أحله في شريعته الباقية على الدهر، في كل زمان وكل عصر. وهو سبحانه يعلم ما كان وما سيكون. فلم يعزب عن علمه عز وجل ما وقع من الأحداث في هذا العصر، ولا ما سيقع فيما يكون في العصور القادمة. ولو كان هذا الحكم مما يتغير بتغير الزمان - كما يزعم الملحدون الهدامون لنصَّ على ذلك في كتابه أو في سنة رسوله: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٦].

والإسلام بريء من الرهبانية، وبريء من الكهنوت. فلا يملك أحد أن ينسخ حكماً أحكمه اللّه في كتابه أو في سنة رسوله ﷺ، ولا يملك أحد أن يحرم شيئاً أحله اللّه، ولا أن يحل شيئاً حرمه اللّه، لا يملك ذلك خليفة ولا ملك، ولا أمير ولا وزير. بل لا يملك ذلك جمهور الأمة، سواء بإجماع أم بأكثرية، الواجب عليهم جميعاً الخضوع لحكم اللّه، والسمع والطاعة.

اسمعوا قول اللّه: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [النحل].

وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩].

ألا فلتعلمن أن كل من حاول تحريم تعدد الزوجات أو منعه، أو تقييده بقيود لم ترد في الكتاب ولا في السنة، فإنما يفتري على اللّه الكذب.

ألا فلتعلمنَّ أن «كل امرئ حسيب نفسه»، فلينظر امرؤ لنفسه أنّى يصدر وأنّى يرد. وقد أبلغتُ. والحمد للّه رب العالمين.

عمدة التفسير [٣/ ١٠٢: ١٠٩].

الحكمة في اجتناب النساء أثناء الحيض

السؤال: لماذا أمرنا اللّه سبحانه وتعالى باجتناب النساء أثناء الحيض ؟

الجواب: لما سأل المؤمنون رسول اللّه ﷺ عن المحيض، نزلت الآية الكريمة: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وسؤال المؤمنين عن المحيض هو رغبة في معرفة هل من الحلال معاشرة الزوجة أثناء فترة المحيض ؟

وكانت الإجابة بأن هذا الاقتراب فيه أذى للمرأة، وهذا ما أثبته الطب الحديث بالإضافة إلى أن الرجل قد يعاف زوجته لو اقترب منها أثناء الحيض، فالتحذير والتحريم في صالح الرجل والمرأة معاً.

لذلك يجب على المؤمن ألا يقترب من زوجته أثناء المحيض؛ لأن الرحم يغسل نفسه بهذه الدماء، وتستعد المرأة بيولوجياً لدورة جديدة من دورات الحياة، فإذا انتهى المحيض وتطهرت المرأة؛ فللرجل أن يباشر زوجته من حيث أمر اللّه تعالى[١].

❁ ❁ ❁

(١) لمزيد من المعرفة راجع فصل الحيض وأحكامه من كتاب: «أحكام الأسرة والبيت المسلم» [١/ ١٩٨-٢٢٢] لفضيلة الشيخ الإمام: محمد متولي الشعراوي، وهو من منشورات مكتبة التراث الإسلامي.

من أسباب الطلاق

السؤال: ما هي الأسباب الداعية إلى الطلاق، ولماذا تتفكك بعض الأسر ؟

الجواب: لو نظرنا بإنصاف إلى الأسباب الداعية إلى الطلاق لوجدنا أن ذلك راجع لمخالفة المتزوجين لمقاييس الإسلام، ولو أن طالب الزواج دخل على الزواج بمطلوبات اللَّه تعالى فيه [١]، لما تفشت ظاهرة الطلاق التي نراها اليوم، وليس ذلك خاصاً بالزواج فقط؛ لكنه يتعلق أيضاً بولي أمر الزوجة، حين يقبل زوجاً . . لمن هي في ولايته . . على غير مقاييس اللَّه ومطلوبات الدين فعليه أن يرفضه، أما إذا قبله بغير مقياس الدين [٢]، فمن العدل أن يحدث له كثير من المتاعب. ولو لم تحدث هذه المتاعب لكان ذلك مخالفاً لمنهج اللَّه، ولشككنا في هذه التعاليم، فالمنصف يرى أن متاعب الطلاق اليوم شهادة للدين لا عليه.

❁ ❁ ❁

---

(١) والتي وردت في قول اللَّه تعالى: ﴿ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ . . . ﴾ [النور: ٢٦] الآية، وقول النبي ﷺ: « تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك » أخرجه البخاري [٥٠٩٠] عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه.

(٢) روى الترمذي [١٠٨٥] عن أبي حاتم المزني قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد ». قالوا: يا رسول اللَّه وإن كان فيه ؟ قال: « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ثلاث مرات ». وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٨٦٦].

الحياة الزوجية في الجنة

السؤال: نود أن نعرف - على قدر الإمكان - كيف تكون الحياة الزوجية في الجنة؟ وخاصة أن المؤمنين سيزوجهم اللّه بالحور العين ؟

الجواب: عندما نتأمل قول الحق: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥]، لنا أن نعرف أن الأزواج المطهرة إنما تعني الحياة الزوجية، بما فيها من متعة تختلف عن متع الزواج في الدنيا، فقد يقول قائل: إن الزواج في الحياة يحمل بعض المنغصات سواء من الرجل أو من المرأة، فالبعض قد يعاني من سلاطة اللسان، أو ضيق الخلق، أو متاعب الحياة على اختلاف ألوانها، لكن الأزواج المطهرة في الجنة أمرها مختلف، إنها مطهرة بأمر الحق الرحمن مبنى ومعنى.

فلا يمكن أن يكون في جنة الآخرة شيء من سلوك كرهته في الحياة، إن كل شيء طاهر ومطهر بأمر اللّه (١).

---

(١) قال ابن القيم: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الدخان].

فجمع لهم بين حسن المنزل وحصول الأمن فيه من كل مكروه، واشتماله على الثمار والأنهار وحسن اللباس وكمال العشرة لمقابلة بعضهم بعضاً، وتمام اللذة بالحور العين، ودعائهم بجميع أنواع الفاكهة مع أمنهم من انقطاعها ومضرتها وغائلتها (١)، وختام ذلك أعلمهم بأنهم لا يذوقون فيها هناك موتاً.

والحور جمع حوراء وهي المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء شديدة سواد العين.

وقال الحسن: الحوراء شديدة بياض العين شديدة سواد العين.

واختلف في اشتقاق هذه اللفظة. فقال ابن عباس: الحور في كلام العرب: « البِيض »، وكذلك قال قتادة: « الحور: البيض »، وقال مقاتل: « الحور: البيض الوجوه ».

وأصل الحَور البياض والتحوير التبييض.

=

---

(١) غائلتها: الغائلة هي الشر أو المصيبة.

....

= والصحيح أن الحُور مأخوذ من الحور في العين وهو شدة بياضها مع قوة سوادها فهو يتضمن الأمرين.
وفي الصحاح: الحور شدة بياض العين في شدة سوادها، امرأة حوراء بينة الحور.
والحور في العين معنى يلتئم من حسن البياض والسواد وتناسبهما واكتساب كل واحد منهما الحسن من الآخر، عين حوراء إذا اشتد بياض أبيضها وسواد أسودها، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينها بياض لون الجسد.
والعين: جمع عيناء وهي العظيمة العين من النساء، ورجل أعين إذا كان ضخم العين وامرأة عيناء، والجمع عين.
والصحيح أن العين اللاتي جمعت أعينهن صفات الحسن والملاحة.
قال مقاتل: العين حسان الأعين.
ومن محاسن المرأة اتساع عينها في طول، وضيق العين في المرأة من العيوب، ويستحب السعة منها في أربعة مواضع: وجهها وصدرها وكاهلها وهو ما بين كتفيها، وجبهتها. ويستحسن البياض منها في أربعة مواضع: لونها وفرقها وثغرها وبياض عينها. ويستحب السواد منها في أربعة مواضع عينها وحاجبها وهدبها وشعرها.
وقوله تعالى: ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الدخان: ٥٤].
قال أبو عبيدة: جعلناهم أزواجاً، جعلناهم اثنين اثنين.
وقال يونس: قرناهم بهن وليس من عقد التزويج، قال: والعرب لا تقول: تزوجت بها وإنما تقول تزوجتها. قال ابن نصر: هذا والتنزيل يدل على ما قاله يونس وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ولو كان على تزوجت بها لقال: زوجناك بها.
وقال الأزهري: تقول العرب زوجته امرأة وتزوجت امرأة وليس من كلامهم تزوجت بامرأة. وقوله تعالى: ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾. أي قرناهم.
قال الواحدي: وقول أبي عبيدة في هذا أحسن لأنه جعله من التزويج الذي هو بمعنى جعل الشيء زوجاً لا بمعنى عقد النكاح ومن هذا يجوز أن يقال: كان فرداً فزوجته بآخر كما يقال شفعته بآخر.
قلت: ولا يمتنع أن يراد الأمران معاً، فلفظ التزويج يدل على النكاح كما قال مجاهد: أنكحناهم الحور، ولفظ الباء تدل على الاقتران والضم وهذا أبلغ من حذفها. والله أعلم.
وقال تعالى: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الرحمن].
وصفهن سبحانه بقصر الطرف في ثلاثة مواضع:
أحدها: هذا.
=

....

= **والثاني**: قوله تعالى في الصفات: ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴾ [الصافات: ٤٨].
والثالث: قوله تعالى في ص: ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾ [ص: ٥٢].
والمفسرون كلهم على أن المعنى قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يطمحن إلى غيرهم.
عن مجاهد في قوله: ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ قال: يقول قاصرات الطرف على أزواجهن فلا يبغين غير أزواجهن.
وعن الحسن قال: قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم واللّه ما هن متبرجات ولا متطلعات.
وعن مجاهد: قصرن أبصارهن وقلوبهن وأنفسهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم.
وأما الأتراب فجمع ترب وهو لدة الإنسان.
قال أبو عبيدة وأبو إسحاق: أقران، أسنانهن واحدة.
قال ابن عباس وسائر المفسرين: مستويات على سن واحدة وميلاد واحد، بنات ثلاث وثلاثين سنة.
وقال مجاهد: ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أمثال.
قال أبو إسحاق: هن في غاية الشباب والحسن، وسُمّي سن الإنسان وقرنه تربه لأنه مس تراب الأرض معه في وقت واحد.
والمعنى من الإخبار باستواء أسنانهن: أنهن ليس فيهن عجائز قد فات حسنهن ولا ولائد لا يطقن الوطء، بخلاف الذكور فإن فيهم الولدان وهم الخدم.
وقوله تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٥٦].
قال أبو عبيدة: لم يمسهن، يقال: ما طمث هذا البعير حبل قط أي ما مسه.
وقال الفراء: الطمث: الافتضاض، وهو النكاح بالتدمية.
قال المفسرون: لم يطأهن ولم يغشهن ولم يجامعهن.
قلت: ظاهر القرآن أن هؤلاء النسوة لسن من نساء الدنيا وإنما هن من الحور العين، وأما نساء الدنيا فقد طمثهن الإنس، ونساء الجن قد طمثهن الجن والآية تدل على ذلك.
قال أبو إسحق: وفي هذه الآية دليل على أن الجن يغشى كما أن الإنس يغشى.
ويدل على أنهن الحور اللاتي خلقن في الجنة أنه سبحانه جعلهن مما أعده اللّه في الجنة لأهلها من الفواكه والثمار والأنهار والملابس وغيرها، ويدل عليه أيضاً الآية التي بعدها وهي قوله تعالى: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٢].
ثم قال: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٧٤].
قال الإمام أحمد: والحور العين لا يمتن عند النفخة للصور لأنهن خلقن للبقاء.
وفي الآية دليل لما ذهب إليه الجمهور أن مؤمن الجن في الجنة كما أن كافرهم في =

....

= النار، وبوب عليه البخاري في صحيحه فقال « باب ثواب الجن وعقابهم»[1]، ونص عليه غير واحد من السلف.
قال ضمرة بن حبيب - وقد سئل: هل للجن ثواب ؟ - فقال: نعم، وقرأ هذه الآية ثم قال: الإنسيات للإنس والجنيات للجن.
وقوله: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾.
قال الحسن وعامة المفسرين: أراد صفاء الياقوت في بياض المرجان، شبههن في صفاء اللون وبياضه بالياقوت والمرجان.
ويدل عليه ما قاله عبد اللّه: إن المرأة من نساء أهل الجنة لتلبس عليها سبعين حلة من حرير فيرى بياض ساقيها من ورائهن، ذلك بأن اللّه يقول: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ ألا وإن الياقوت حجر لو جعلت فيه سلكاً ثم استصفيته نظرت إلى السلك من وراء الحجر[2].
فصل: « قصر الحور العين في الخيام »:
وقال تعالى في وصفهن: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٢].
المقصورات: المحبوسات.
قال أبو عبيدة: خدرن في الخيام، وكذلك قال مقاتل.
وفيه معنى آخر وهو أن يكون المراد أنهن محبوسات على أزواجهن لا يرون غيرهم وهن في الخيام، وهذا معنى قول من قال: قصرن على أزواجهن فلا يردن غيرهم ولا يطمحن إلى من سواهم، وذكره الفراء.
قلت: وهذا معنى ﴿ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ لكن أولئك قاصرات بأنفسهن وهؤلاء مقصورات، وقد تقدم وصف النسوة الأول بكونهن قاصرات الطرف وهؤلاء بكونهن مقصورات.
والوصفان لكلا النوعين فإنهما صفتا كمال. فتلك الصفة قصر الطرف عن طموحه إلى غير الأزواج وهذه الصفة قصر الرجل على التبرج والبروز والظهور للرجال.
فصل: « اجتماع صفات الخير والحسن في نساء الجنة ».
وقال تعالى: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن: ٧٠]. =

---

(١) هكذا ذكره البخاري في بدء الخلق، باب ذكر الجن وثوابهم وعقابهم «فتح الباري» [٦/ ٣٩٥].
(٢) رواه الترمذي في صفة الجنة [٢٥٣٣، ٢٥٣٤و٥٨٣، ٥٨٤]، وبنحوه عند ابن حبان [٢٦٣٢ موارد]، وقال الألباني في الصحيحة [١٧٣٦]: وللحلل السبعين شاهدان من حديث أبي سعيد الخدري وعبد اللّه بن مسعود مرفوعاً أخرجهما ابن حبان [٢٦٣١، ٢٦٣٢] بإسنادين يستشهد بهما. اهـ.
وضعف الحديث في ضعيف الجامع الصغير [١٧٧٦].
وقال محقق صفة الجنة لأبي نعيم [٣٧٩ /٣ /٢٢٢]: والخلاصة أن الحديث حسن إن شاء اللّه تعالى. ولا يضره وقف من أوقفه. اهـ.

....

= فالخيرات جمع خيرة وهي مخففة من خيرة كسيدة ولينة، و ﴿ حِسَانٌ ﴾ جمع حسنة فهن خيرات الصفات والأخلاق والشيم، حسان الوجوه.

فصل: « خلق وإنشاء الحور العين ».

وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الواقعة] أعاد الضمير إلى النساء ولم يجر لهن ذكر لأن الفرش دلت عليهن إذ هي محلهن.

قال قتادة وسعيد بن جبير: خلقناهن خلقاً جديداً.

وقال ابن عباس: يريد نساء الآدميات.

وقال الكلبي ومقاتل: يعني نساء أهل الدنيا العجز الشمط[1] يقول تعالى: « خلقناهن بعد الكبر والهرم[2] بعد الخلق الأول في الدنيا ويؤيد هذا التفسير حديث أنس المرفوع هن عجائزكم العُمْش[3] الرُمْص[4] »[5].

وعن عائشة: « أن النبي ﷺ أتته عجوز من الأنصار فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال نبي الله ﷺ: «إن الجنة لا يدخلها عجوز». فذهب نبي الله ﷺ فصلى ثم رجع إلى عائشة، فقالت عائشة: لقد لقيت من كلمتك مشقة وشدة، فقال ﷺ: «إن ذلك كذلك، إن الله تعالى إذا أدخلهن الجنة حولهن أبكاراً »[6].

وذكر مقاتل قولًا آخر وهو اختيار الزجاج: أنهم الحور العين التي ذكرهن، قيل أنشأهن الله عز وجل لأوليائه لم يقع عليهن ولادة. =

---

(١) الشمط: جمع شمطاء وهي المرأة التي شاب بعض رأسها.

(٢) الهَرَم: أقصى الكِبَر.

(٣) العُمْش: جمع عمشاء. وهي الضعيفة البصر مع جريان الدمع.

(٤) الرُمْص: جمع رَمْصَاء: وهي التي يخرج من أطراف عينيها وسخ أبيض «العُمَاصُ».

(٥) رواه الترمذي في التفسير [٣٢٩٦]، والطبري في تفسيره [٢٧/ ١٨٥، ١٨٦] وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي [٦٥٠].

(٦) عزاه ابن القيم رحمه الله لابن أبي شيبة، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد [١٠/ ٤١٩] رواه الطبراني في الأوسط. اهـ.

وعزاه ابن كثير في تفسيره [٨/ ٩] لعبد بن حميد، والترمذي في الشمائل.

وقال العراقي في تخريج الإحياء [٢٦٢٨]: رواه الترمذي في الشمائل مرسلًا، وأسنده ابن الجوزي في الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف اهـ.

وحسنه الألباني في مختصر الشمائل المحمدية للترمذي [٢٠٥]، وكذلك في غاية المرام [٣٧٥] لشواهده عند عبد بن حميد والترمذي في الشمائل وابن المنذر والبيهقي في البعث وفي الشُّعَب، والطبراني والبغوي.

....

= والظاهر أن المراد أنشأهن اللّه تعالى في الجنة إنشاء ويدل عليه وجوه:
أحدها: أنه قد قال في حق السابقين: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة: ١٧-٢٣]. فذكر سررهم وآنيتهم وشرابهم وفاكهتهم وطعامهم وأزواجهم من الحور العين، ثم ذكر أصحاب الميمنة وطعامهم وشرابهم وفرشهم ونساءهم والظاهر أنهن مثل نساء من قبلهم خلقن في الجنة.
الثاني: أنه سبحانه قال: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾ وهذا ظاهر أنه إنشاء أول لا ثان؛ لأنه سبحانه حيث يريد الإنشاء الثاني يقيده بذلك كقوله: ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ٧]. وقوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الواقعة: ٦٢].
الثالث: أن الخطاب بقوله: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ [الواقعة: ٧] إلى آخره للذكور والإناث، والنشأة الثانية أيضاً عامة للنوعين كقوله: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾ ظاهره اختصاصهن بهذا الإنشاء. وتأمل تأكيده بالمصدر.
والحديث لا يدل على اختصاص العجائز المذكورات بهذا الوصف بل يدل على مشاركتهن للحور العين في هذه الصفات المذكورة فلا يتوهم انفراد الحور العين عنهن بما ذكر من الصفات بل هي أحق به منهن فالإنشاء واقع على الصنفين. واللّه أعلم.
وقوله: ﴿ عُرُبًا ﴾ جمع عروب، وهن المتحببات إلى أزواجهن.
قال ابن الأعرابي: العروب من النساء: المطيعة لزوجها المتحببة إليه.
وقال أبو عبيدة: « العروب الحسنة التَبَعُّل[1] » قلت: يريد حسن مواقعتها وملاطفتها لزوجها عند الجماع.
وقال المبرد: هي العاشقة لزوجها.
وذكر المفسرون في تفسير « العُرُب » أنهن العواشق المتحببات والغنجات الشكلات المتعشقات الغَلِمَات[2] المغنوجات، كل ذلك من ألفاظهم.
وقال البخاري في صحيحه: عرباً مثقلة، واحدها عروب مثل صبور وصبر، تسميها أهل مكة: العربة، وأهل المدينة: الغنجة، وأهل العراق: الشكلة. « والعرب » المتحببات إلى أزواجهن، هكذا ذكره في كتاب بدء الخلق[3].
قلت: فجمع سبحانه بين حسن صورتها وحسن عشرتها، وهذا غاية ما يطلب من النساء وبه تكمل لذة الرجل بهن.
وفي قوله: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٥٦] إعلام بكمال اللذة بهن، فإن لذة الرجل بالمرأة التي لم يطأها سواه لها فضل على لذته بغيرها وكذلك هي أيضاً. =

---

(١) التَبَعُّل: مطاوعة المرأة لزوجها وتزينها له.
(٢) الغَلِمَات: جمع غَلِمَة وهي التي تتوق وتشتاق إلى زوجها بشدة. أو التي غُلِبَت شهوةً إلى زوجها.
(٣) هكذا ذكره البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، فتح الباري [٦/ ٣٦٥].

....

= **فصل: من تمام جمال وحسن نساء الجنة.**

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ ﴾ [النبأ].

فالكواعب جمع كاعب وهي الناهد.

قال قتادة ومجاهد والمفسرون: قال الكلبي: هي الفلكات اللواتي تكعب ثديهن وتفلكت.

وأصل اللفظة من الاستدارة والمراد أن ثديهن نواهد كالرمان ليست متدلية إلى أسفل، ويسمين نواعد وكواعب.

فصل: حسن صفات نساء الجنة وتنعم أزواجهن بهن:

روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك أن رسول اللّه ﷺ قال: « لغدوة في سبيل اللّه أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قيده بعنى سوطه من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحاً ولأضاءت ما بينهما. ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»[١].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم: « إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضواء كوكب دري في السماء، ولكل امرئ منهن زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب »[٢].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: « للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الثياب »[٣].

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٥٨] قال: ينظر إلى وجهه في خدها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين المشرق والمغرب، وإنه ليكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك »[٤].

وعن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول اللّه هل نصل إلى نسائنا في الجنة؟ فقال: « إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء »[٥]. =

---

(١) أخرجه البخاري [٢٧٩٦].

(٢) أخرجه البخاري [٣٢٤٦] ومسلم [٢١٧٨].

(٣) رواه أحمد في المسند [٢/ ٣٤٥].

(٤) رواه أحمد [٣/ ٧٥] وعزاه ابن كثير في تفسيره [٤/ ٢٨٠] لابن أبي حاتم، وذكره الهيثمي في المجمع [١٠/ ٤١٩] وقال: رواه أحمد وأبو يعلى وإسنادهما حسن.

(٥) قال الهيثمي في مجمع الزوائد [١٠/ ٤١٧]: رواه البزار في رواية عنده وعند الطبراني في الصغير والأوسط بنحوه، ورجال هذه الرواية الثانية رجال الصحيح غير محمد بن ثواب وهو ثقة. اهـ. =

....

= **فصل: عدد أزواج أهل الجنة.**

والأحاديث الصحيحة إنما فيها أن لكل منهم زوجتين وليس في الصحيح زيادة على ذلك، فإن كانت هذه الأحاديث محفوظة فإما أن يراد بها ما لكل واحد من السراري زيادة على الزوجتين، ويكونون في ذلك على حسب منازلهم في القلة والكثرة كالخدم والولدان، وإما أن يراد أنه يعطي قوة من يجامع هذا العدد، ويكون هذا هو المحفوظ، فرواه بعض هؤلاء بالمعنى فقال له كذا وكذا زوجة.

وقد روى الترمذي في جامعه من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع» قيل: يا رسول اللّه أو يطيق ذلك؟ قال: «يعطى قوة مائة»[(١)] . هذا حديث صحيح، فلعل من رواه يفضي إلى مائة عذراء رواه بالمعنى، أو يكون تفاوتهم في عدد النساء بحسب تفاوتهم في الدرجات واللّه أعلم.

ولا ريب أن للمؤمن في الجنة أكثر من اثنتين لما في الصحيحين من حديث أبي بكر بن عبد اللّه بن قيس عن أبيه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن للعبد المؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة مجوفة طولها ستون ميلا، للعبد المؤمن فيها أهلون فيطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضاً»[(٢)] .

فصل في: ذكر المادة التي خلق منها الحور العين وما ذكر فيها من الآثار وذكر صفاتهن ومعرفتهن اليوم بأزواجهن.

فأما المادة التي خلق منها الحور العين:

قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: إن لوليّ اللّه في الجنة عروساً لم يلدها آدم ولا حواء ولكن خُلِقَت من زعفران. وهذا مروي عن صحابيين وهما ابن عباس وأنس وعن تابعيين وهما أبو سلمة ومجاهد.

وبكل حال فهي من المنشآت في الجنة، ليست مولودات بين الآباء والأمهات. واللّه أعلم.

وإذا كانت هذه الخلقة الآدمية التي هي من أحسن الصور وأجملها، مادتها من تراب وجاءت الصور من أحسن الصور، فما الظن بصورة مخلوقة من مادة الزعفران الذي هناك!!! فاللّه المستعان. =

= ونقل ابن كثير في نهاية البداية والنهاية [٢/ ٣٤١] قول الحافظ الضياء: هذا عندي على شرط الصحيح اهـ.

وكذلك نقل ابن القيم قول الضياء بلفظ: ورجال هذا الحديث عندي على شرط الصحيح. اهـ.

وصححه الألباني في الصحيحة [٣٦٧].

(١) رواه الترمذي في صفة الجنة [٢٥٣٦] وقال: هذا حديث صحيح غريب اهـ.
وصححه في صحيح الترمذي [٢٠٥٩].

(٢) أخرجه البخاري [٣٢٤٣] ومسلم [٢١٨٢] واللفظ له.

....

= وقد روى في مادة خلقهن صفة أخرى:

عن الزهري أن ابن عباس قال: إن في الجنة نهراً يقال له البيدخ عليه قباب من ياقوت، تحته حور ناشئات. يقول أهل الجنة: انطلقوا بنا إلى البيدخ فيجيئون فيتصفحون تلك الجواري فإذا أعجب رجلاً منهم جارية مس معصمها فتتبعه [(١)].

وعن ابن عباس قال: كنا جلوساً مع كعب يوماً فقال: لو أن يداً من الحور دليت من السماء لأضاءت لها الأرض كما تضيء الشمس لأهل الدنيا، ثم قال: إنما قلت يدها فكيف بالوجه وبياضه وحسنه وجماله !! [(٢)].

وفي مسند الإمام أحمد من حديث معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: « لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك اللّه، فإنما هو عندك دخيل[(٣)] يوشك أن يفارقك إلينا» [(٤)].

وقال ربيعة بن كلثوم: نظر إلينا الحسن ونحن حوله شباب فقال: يا معشر الشباب أما تشتاقون إلى الحور العين ؟

وقال لي[(٥)]: ابن أبي الحواري: حدثني الحضرمي قال: نمت أنا وأبو حمزة على سطح فجعلت أنظر إليه يتقلب على فرشه إلى الصباح فقلت: يا أبا حمزة ما رقدت الليلة، فقال: إني لما اضطجعت تمثلت لي حوراء حتى كأني أحسست بجلدها وقد مس جلدي، فحدثت به أبا سليمان فقال: هذا رجل كان مشتاقاً.

وعن يحيى بن أبي كثير: إن الحور العين يتلقين أزواجهن عند أبواب الجنة، فيقلن: طال ما انتظرناكم فنحن الراضيات فلا نسخط، والمقيمات فلا نظعن، والخالدات فلا نموت، بأحسن أصوات سمعت وتقول: « أنت حبي وأنا حبك، ليس دونك تقصير ولا وراءك معدل [(٦)] »[(٧)].

فصل في: ذكر نكاح أهل الجنة ووطئهن والتذاذهم بذلك أكمل لذة ونزاهة ذلك عن المذي والمني والضعف وأنه لا يوجب غسلاً

قد تقدم حديث أبي هريرة: قيل: يا رسول اللّه أنفضي إلى نسائنا في الجنة ؟ فقال: =

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية [٢/ ١٧٣] والبيدخ في اللغة تعني العظيم أو البادن السمين.

(٢) رواه نعيم بن حماد في زياداته على «الزهد» لابن المبارك ص ٧٢، ٧٣ رقم [٢٥٦].

(٣) دخيل: الدخيل هو من دخل في القوم وليس منهم، والمقصود هنا: الغريب.

(٤) رواه أحمد [٥/ ٢٤٢]، وابن ماجه [٢٠١٤]، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه [١٦٣٧] وانظر الصحيحة [١٧٣].

(٥) أي لربيعة بن كلثوم.

(٦) في «الزهد»: مَعْدَى، والمقصود: ليس بعدك غاية تطلب.

(٧) رواه ابن المبارك في «الزهد» من رواية نعيم ص ٣١ رقم [٤٣٥].

....

= «إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء »[١] ، وأن إسناده صحيح.
وتقدم حديث أبي موسى المتفق على صحته: « إن للمؤمن في الجنة خيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلًا، له فيها أهلون يطوف عليهم»[٢] .
وحديث أنس: « يعطي المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من النساء»[٣] . وصححه الترمذي.
وروى الطبراني وعبد اللَّه بن أحمد وغيرهما من حديث لقيط بن عامر أنه قال: يا رسول اللَّه علامَ يطلع من الجنة ؟ قال: « على أنهار من عسل مصفى، وأنهار من كأس ما بها صداع ولا ندامة، وأنها من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن، وفاكهة لعمر إلهك مما تعلمون وخير من مثله، وأزواج مطهرة. قلت: يا رسول اللَّه أو لنا فيها أزواج مصلحات ؟ قال: «الصالحات للصالحين تلذون بهن مثل لذاتكم في الدنيا، ويلذذن بكم، غير أن لا توالد»[٤] .
وعن عبد اللَّه بن مسعود في قوله: ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾. قال: «شغلهم افتضاض العذارى »[٥] .
وعن الأوزاعي في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾. قال: «شغلهم افتضاض الأبكار ».
قال مقاتل: شغلوا بافتضاض العذارى عن أهل النار فلا يذكرونهم ولا يهتمون لهم.
وقال أبو الأحوص: شغلوا بافتضاض الأبكار على السرر في الحجال.
وعن أبي مجلز قلت لابن عباس عن قول اللَّه تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾: ما شغلهم ؟ قال: افتضاض الأبكار.
وعن سعيد بن جبير: إن شهوته لتجري في جسده سبعين عاماً يجد اللذة [٦] ولا يلحقهم بذلك جنابة فيحتاجون إلى التطهير ولا ضعف ولا انحلال قوة بل وطئهم وطء التذاذ ونعيم لا آفة فيه بوجه من الوجوه.
وأكمل الناس فيه أصونهم لنفسه في هذه الدار عن الحرام فكما أن من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ومن أكل =

---

(١) سبق تخريجه ص [٧٠٢].
(٢) سبق تخريجه ص [٧٠٣].
(٣) سبق تخريجه ص [٧٠٣].
(٤) رواه عبد الله بن أحمد في الزوائد [٤/ ١٣] والحاكم في المستدرك [٤/ ٥٦٠].
(٥) رواه الطبري [٢٣/ ١٧، ١٨] وأبو نعيم في الحلية [٣/ ٢١٥، ٢١٦].
(٦) عزاه الزبيدي في تخريج الإحياء [٤٢١٧] لابن أبي شيبة من كلام سعيد بن جبير إلا أن لفظه: وإن شهوته لتجري في جسدها سبعين عاماً تجد اللذة.

....

= من صحاف الذهب والفضة في الدنيا لم يأكل فيها في الآخرة، كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة»[١] . فمن استوفي طيباته ولذاته وأذهبها في هذه الدار حرمها هناك كما نعى سبحانه على من أذهب طيباته في الدنيا واستمتع بها.

ولهذا كان الصحابة ومن تبعهم يخافون من ذلك أشد الخوف.

ذكر الإمام أحمد عن جابر بن عبد اللّه: أنه رآه عمر ومعه لحم قد اشتراه لأهله بدرهم فقال: ما هذا ؟ !! قال: لحم اشتريته لأهلي بدرهم. فقال: أو كلما اشتهى أحدكم شيئاً اشتراه !! أما سمعت اللّه تعالى يقول: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[٢] [الأحقاف: ٢٠].

وقال الحسن: قدم وفد أهل البصرة مع أبي موسى على عمر فكنا ندخل عليه كل يوم وله خبز ثلاثة، وربما وافقناها مأدومة بالسمن، وربما وافقناها مأدومة بالزيت، وربما وافقناها مأدومة باللبن، وربما وافقناها القدائد[٣] اليابسة قد دقت ثم أغلي بها، وربما وافقناها اللحم الغريض[٤] وهو قليل. فقال ذات يوم: إني واللّه قد أرى تعذيركم[٥] وكراهيتكم لطعامي، إني واللّه لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً وأرقكم عيشاً ولكني سمعت الله عير قوماً بأمر فعلوه فقال: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾[٦].

فمن ترك اللذة المحرمة للّه، استوفاها يوم القيامة أكمل ما تكون، ومن استوفاها هنا حرمها هناك أو نقص كمالها، فلا يجعل اللّه لذة من أوضع في معاصيه ومحارمه كلذة من ترك شهوته لله أبداً، واللّه أعلم.

فصل في: ذكر اختلاف الناس هل في الجنة حمل وولادة أم لا ؟

قال الترمذي في جامعه. . . . عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللّه ﷺ: =

(١) أخرجه البخاري [٥٤٢٥] ومسلم [١٦٣٧].
(٢) رواه أحمد في الزهد [ص: ١٥٣].
(٣) القدائد: قطع لحم يابسة.
(٤) الغريض: الطازج.
(٥) تعذيركم: تقصيركم في الأكل.
(٦) رواه ابن المبارك في الزهد ص٢٠٤، ٢٠٥ رقم [٥٧٩] بنحوه، ورواه عبدالله بن أحمد في زوائده على «الزهد» لأحمد بن حنبل من طريق الحسن عن الأحنف باختصار شديد [ص: ١٤٢]. وعزاه الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافي فى تخريج أحاديث الكشاف «٣٩٨» لابن المبارك في الزهد، وأبي عبيدة في الغريب، وابن سعد، وأحمد في الزهد وأبي نعيم في الحلية. وعزاه الآلوسي في تفسيره [٢٦/ ٢٣] لابن المبارك وابن سعد وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وأبي نعيم في الحلية.

....

= «المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة، كان حمله ووضعه وسنه[١] في ساعة كما يشتهي»[٢]
قال: هذا حديث حسن غريب. وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم: في الجنة جماع ولا يكون ولد. هكذا روي عن طاووس ومجاهد وإبراهيم النخعي.
وقال محمد- يعني البخاري - قال إسحاق بن إبراهيم في حديث النبي ﷺ: « إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان في ساعة كما يشتهي »، ولكن لا يشتهي[٣].
قال محمد: وقد روي عن أبي رزين العقيلي عن النبي ﷺ قال: « إن أهل الجنة لايكون لهم فيها ولد ».
وتأويل إسحاق فيه نظر. فإنه قال: « إذا اشتهى المؤمن الولد » و « إذا » للمتحقق الوقوع، ولو أريد ما ذكره من المعنى لقال لو اشتهى المؤمن الولد لكان حمله في ساعة، فإن ما لا يكون أحق بأداة « لو »، كما أن المتحقق الوقوع أحق بأداة « إذا ».
وأما حديث أبي رزين الذي أشار إليه البخاري فهو حديثه الطويل ونحن نسوقه بطوله نجمل به كتابنا فعليه من الجلالة والمهابة ونور النبوة ما ينادي على صحته.
عن دَلْهَم بن الأسود بن عبد اللّه بن حاجب بن عامر بن المُنْتَفِق العُقَيلي عن أبيه عن عمه لقيط بن عامر، قال دلهم: وحدثنيه أبو الأسود عن عاصم بن لقيط: أن لقيطاً خرج وافداً إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم ومعه صاحب له يقال له نهيك بن عاصم بن مالك بن المنتفق قال لقيط: فخرجت أنا وصاحبي حتى قدمنا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم حين انصرف من صلاة الغداة، فقال في الناس خطيباً فقال: «ألا أيها الناس إني قد خبأت لكم صوتي منذ أربعة أيام ألا لأسمعنكم. ألا فهل من امرئ بعثه قومه فقالوا له: اعلم لنا ما يقول رسول اللّه صلى اللّه عليه وعلى آله =

---

(١) سِنّه: شبابه وكِبَره.
(٢) رواه الترمذي في صفة الجنة [٢٥٦٣]، وأحمد [٣/ ٩]، وابن ماجه في الزهد [٤٨٣٨]، وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٢٠٧٧]، وفي صحيح ابن ماجه [٣٥٠٠]، وقد صحح ابن القيم إسناد الحديث على شرط الصحيح، ونقل ابن كثير في نهاية البداية والنهاية [٢/ ٣٤٤] قول المقدسي: هذا عندي على شرط مسلم. اهـ.
(٣) جملة «ولكن لا يشتهي» هي قول إسحاق، وقال الألباني في تخريج المشكاة [٥٦٤٨]: وقول إسحاق ليس من الحديث، ثم هو مما لا دليل عليه في السُّنَّة الصحيحة وظاهر الحديث يرده اهـ.
وقال ابن كثير في نهاية البداية والنهاية [٢/ ٣٤٤]: ونقل عن جماعة من التابعين كطاوس ومجاهد، وإبراهيم النخعي وغيرهم «إن الجنة لا يولد فيها» ثم قال: وهذا صحيح. وذلك أن جماعهم لا يقتضي ولداً كما هو الواقع في الدنيا، فإن الدنيا دار يراد منها بقاء النسل لتعمر، وأما الجنة فالمراد بقاء الملك، ولهذا لا يكون في جماعهم مَنِيّ يقطع لذة الجماع ولكن إذا أحب أحدهم الولد يقع كما يريد قال اللّه تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٤].

....

= وسلم ؟ ألا ثم لعله أن يلهيه حديث نفسه أو حديث صاحبه، أو يلهيه الصلاة ألا إني مسئول، ألا هل بلغت، ألا اسمعوا تعيشوا. ألا اجلسوا ألا اجلسوا»، قال: فجلس الناس وقمت أنا وصاحبي حتى إذا فرغ لنا فؤاده وبصره قلت: يا رسول اللّٰه ما عندك من علم الغيب ؟ فضحك لعمر اللّٰه وهز رأسه وعلم أني أبتغي سقطه، فقال: «ضن ربك بمفاتيح خمس من الغيب لا يعلمهن إلا اللّٰه، وأشار بيده»، قلت: وما هي ؟ قال: «علم المنية[(١)] قد علم متى منية أحدكم ولا تعلمونه، وعلم ما في غد ما أنت طاعم غداً ولا تعلمونه، وعلم يوم البعث يوم يشرف عليكم أزلين[(٢)] مشفقين فيظل يضحك قد علم أن غيركم[(٣)] إلى قريب» - قال لقيط: قلت: لن نعدم من رب يضحك خيراً - وعلم يوم الساعة، قلت: يا رسول اللّٰه علمنا مما تعلم الناس وما تعلم فإنا من قبيل لا يصدقون تصديقنا أحد، من مذحج التي تربو[(٤)] علينا، وخثعم[(٥)] التي توالينا، وعشيرتنا التي نحن منها، قال: «تلبثون ما لبثتم ثم يتوفى نبيكم ثم تلبثون ما لبثتم، ثم تبعث الصائحة[(٦)]، لعمر إلهك[(٧)] لا تدع على ظهرها شيئاً إلا مات، والملائكة الذين مع ربك عز وجل. فأصبح ربك يطوف في الأرضين وخلت عليه البلاد، فأرسل ربك السماء تهضب[(٨)] من عند العرش، فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها من مصرع قتيل ولا مدفن ميت إلا شقت القبر عنه حتى يخلقه من عند رأسه، فيستوي جالساً فيقول ربك: مهيم[(٩)] لما كان فيه، يقول: يارب أمس، اليوم[(١٠)] ولعهده بالحياة عشية تحسبه حديثاً بأهله»، فقلت: يا رسول اللّٰه كيف يجمعنا بعد ما تمزقنا الرياح والبلى والسباع ؟ فقال: « أنبئك بمثل ذلك في آلاء اللّٰه، الأرض أشرفت عليها وهي مدرة[(١١)] بالية -فقلت: لا تحيا أبداً-، ثم أرسل ربك عليها السماء فلم تلبث عليك إلا أياماً حتى أشرفت عليها وهي شرية[(١٢)] واحدة، ولعمر إلهك لهو أقدر على أن يجمعهم من الماء على أن يجمع نبات الأرض، =

---

(١) المَنِيَّة: الموت.
(٢) أَزِلِين: أصابكم الأزل وهو الشدة.
(٣) غَيْركم: تحولكم، والمقصود تحولكم من الشدة إلى الرخاء.
(٤) تربو: تزيد.
(٥) مذحج وخثعم: قبيلتان من العرب اليمانية.
(٦) الصائحة: نفخة الصور التي يموت معها أهل الأرض جميعاً.
(٧) لَعَمْرُ إِلَهَك: قسم ببقاء اللّٰه وحياته، وفيه دليل على جواز الإقسام بصفات اللّٰه عز وجل.
(٨) تَهْضِبُ: تمطر.
(٩) مَهْيَم: ما شأنك وما أمرك وفيم كنت ؟
(١٠) أمس، اليوم: يتردد ويستقل فترة مكثه في الأرض ويظن أنه فارق أهله حديثاً.
(١١) مَدَرَة: قطعة من الطين اليابس، وهو حال الأرض بدون الماء.
(١٢) شَرْيَة: الحنظلة وهي ذات لون أخضر، فالمعنى أن الأرض بعد يبسها قد اخضرت تماماً.

....

= فيخرجون من الأَصْوَاء[١] ومن مصارعهم فتنظرون إليه وينظر إليكم»، قال: قلت: يا رسول اللّه فكيف ونحن ملء الأرض وهو شخص واحد ينظر إلينا وننظر إليه ؟ «قال: أنبئك بمثل ذلك في آلاء اللّه، الشمس والقمر آية منه صغيرة ترونها ويريانكم ساعة واحدة لا تضارون في رؤيتهما، ولعمر إلهك لهو أقدر على أن يراكم وترونه منهما »، قلت: يا رسول اللّه فما يفعل بنا ربنا إذا لقيناه ؟ قال: «تعرضون عليه بادية له صفحاتكم، لا تخفى عليه منكم خافية، فيأخذ ربك عز وجل بيده غرفة من الماء فينضح قبلكم بها، فلعمر إلهك ما يخطئ وجه أحد منكم منها قطرة، فأما المسلم فتدع وجهه مثل الريطة [٢] البيضاء، وأما الكافر فتخطم وجهه بمثل الحُمَم[٣] الأسود، ألا ثم ينصرف نبيكم رسول اللّه صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم ويفرق[٤] على أثره الصالحون فيسلكون جسراً من النار فيطأ أحدكم الجمرة فيقول: حس، فيقول: ربك أو أنه [٥] ، فيطلعون على حوض الرسول ﷺ، على أظمأ -واللّه - ناهلة [٦] قط رأيتها، فلعمر ربك ما يبسط واحد منكم يده إلا وقع عليها قدح تطهره من الطوف[٧] والبول والأذى، وتحبس الشمس والقمر فلا ترون منها واحداً». قال: قلت: يا رسول اللّه فبم نبصر ؟ قال: «بمثل بصرك ساعتك هذه، وذلك مع طلوع الشمس في يوم أشرقته الأرض ثم واجهته الجبال». قال: قلت: يا رسول اللّه فيم نجزى من حسناتنا وسيئاتنا ؟ قال: «الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها إلا أني عفو». قال: قلت: يا رسول اللّه ما الجنة ما النار ؟ قال: «لعمر إلهك إن للنار سبعة أبواب ما منهن بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاماً، وإن للجنة ثمانية أبواب ما منهن بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاماً»، قال: قلت: يا رسول اللّه فعلامَ نطلع من الجنة ؟ قال: «على أنهار من عسل مصفى، وأنهار من كأس[٨] ما بها من صداع ولا ندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وماء غير آسن، وبفاكهة لعمر إلهك مما تعلمون وخير من مثله معه، وأزواج مطهرة»، قلت: يا رسول اللّه ولنا فيها أزواج أو منهن صالحات ؟ قال: «الصالحات للصالحين تلذون بهن مثل لذاتكم في =

---

(١) الأَصْوَاء: القبور.
(٢) الريطة: الملاءة.
(٣) الحُمَم: جمع حُمَمَة وهي الفحمة.
(٤) يفرق: يفزع ويسرع.
(٥) أو أنه: قال ابن قتيبة: فيه قولان: أحدهما أن يكون «أنه» بمعنى «نعم»، والآخر أن يكون الخبر محذوفاً كأنه قال أنتم كذلك أو أنه على ما يقول.
(٦) أظمأ ناهلة: الناهلة هم العطاش الذين يأتون الماء ليشربوا، والمعنى أنهم يأتون لحوض النبي صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم وهم أعطش ما يكون وأشد حاجة للماء.
(٧) الطوف: الغائط.
(٨) كأس: خمر.

....

= الدنيا، ويلذذن بكم غير أن لا توالد». قال: لقيط فقلت: أقصى ما نحن بالغون ومنتهون إليه[(١)]، فلم يجبه النبي ﷺ. فقلت: يا رسول الله علام أبايعك؟ فبسط النبي ﷺ يده وقال: «على إقامة الصلاة وايتاء الزكاة، وزيال المشرك[(٢)] وأن لا تشرك بالله إلهاً غيره»، قال: قلت: وأن لنا ما بين المشرق والمغرب؟ فقبض النبي ﷺ وبسط أصابعه - وظن أني مشترط شيئاً لا يعطينيه- قال: قلت: نحِلُ[(٣)] منها حيث شئنا ولا يجني على امرئ إلا نفسه[(٤)]. فبسط يده وقال: «ذلك لك تحل حيث شئت ولا يجني عليك إلا نفسك». قال: فانصرفنا وقال: «ها إن ذين ها إن ذين لعمر إلهك إن حدثت إلا أنهما من أتقى الناس في الأولى والآخرة»، فقال له كعب بن الخُدَرِيَّة أخو بني بكر بن كلاب: من هم يا رسول الله؟ قال: «بنو المنتفق أهل ذلك». قال فانصرفنا وأقبلت عليه فقلت: يا رسول الله هل لأحد مما مضى من خير في جاهليتهم؟ قال: قال: «رجل من عُرْض[(٥)] قريش: والله إن أباك المنتفق لفي النار». قال: فكأنه قد وقع حَرٌّ[(٦)] بين جلدي ووجهي ولحمي مما قاله لأبي على رؤوس الناس فهممت أن أقول: وأبوك يا رسول الله؟ ثم إذا الأخرى أجمل فقلت: يا رسول الله وأهلك؟ قال: «وأهلي، لعمر الله ما أتيت عليه من قبر عامري أو قرشي من مشرك فقل: أرسلني إليك محمد ﷺ فأبشرك بما يسوءك تجر على وجهك وبطنك في النار»، قال: قلت: يا رسول الله مافعل الله بهم ذلك، وقد كانوا على عمل لا يحسنون إلا إياه وكانوا يحسبونهم مصلحين؟ قال: «ذلك بأن الله عز وجل بعث في آخر كل سبع أمم نبياً فمن عصى نبيه كان من الضالين ومن أطاع نبيه كان من المهتدين»[(٧)]. =

---

(١) أقصى ما نحن بالغون ومنتهون إليه: يحتمل معنيين: الأول: أقصى مدة الدنيا ونهايتها، الثاني: ماذا بعد دخول الجنة أو النار وفي كل لا توجد إجابة ولذلك لم يجبه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فهذا من الغيب.

(٢) جملة «زيال المشرك» كانت ساقطة من حادي الأرواح والإصلاح من المسند، وزاد المعاد وغيره. ومعناها: مفارقة المشرك ومُعَاداته فلا يجاوره ولا يواليه. ولاحظ أن هذا الأمر كان في بيعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأعراب يدخلون الإسلام حديثاً مما يدل أبلغ الدلالة على أهميته.

(٣) نَحِلّ: نقيم ونتنزل.

(٤) لا يجني على امريء إلا نفسه: لا يعاقب الإنسان إلا بعمله.

(٥) عُرْض قريش: عامة قريش وليس من أشرافهم.

(٦) وقع حر بين جلدي ووجهي ولحمي: تشبيه يراد به بيان الغيظ والغضب والحرج.

(٧) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في مسند أبيه [٤/ ١٣]، وفي كتاب «السنة» له [١١٢٠ ٢/ ٤٨٥]، ورواه ابن أبي عاصم في «السنة» [٦٣٦ ١/ ٢٣١]، وابن خزيمة في «التوحيد» [ص: ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠] والحاكم في المستدرك [٤/ ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤] =

....

= وقال نفاة الإيلاد: فهذا حديث صريح في انتفاء الولادة.

وقوله: «إذا اشتهى» معلق بالشرط ولا يلزم من التعليق وقوع المعلق ولا المعلق به، و«إذا» وإن كانت ظاهرة في المحقق فقد تستعمل لمجرد التعليق الأعم من المحقق وغيره، قالوا وفي هذا الموضع يتعين ذلك لوجوه:

أحدها: حديث أبي رزين.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥] وهن اللاتي طهرن من الحيض والنفاس والأذى.

عن مجاهد: مطهرة من الحيض والغائط والبول والنخام والبصاق والمني والولد.

وعن عطاء ﴿ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ قال: من الولد والحيض والغائط والبول.

الثالث: قوله: « غير أنه لا مني ولا منية» وقد تقدم، والولد إنما يخلق من ماء الرجل فإذا لم يكن هناك مني ولا مذي ولا نفخ في الفرج لم يكن هناك إيلاد.

الرابع: أنه قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: « يبقى في الجنة فضل، فينشئ الله لها خلقاً يسكنهم إياها »[(١)] ولو كان في الجنة إيلاد، لكان الفضل لأولادهم وكانوا أحق به من غيرهم. =

= وقال: صحيح الإسناد كلهم مدنيون، ولم يخرجاه. اهـ.

وأخرج أبو داود منه جملة واحدة في الأيمان والنذور [٣٢٦٦ ٣/ ٥٧٧، ٥٧٨]، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد [١٠/ ٣٤٠]: رواه عبد الله والطبراني بنحوه، وأحد طريقي عبد الله إسنادها متصل ورجالها ثقات، والإسناد الآخر وإسناد الطبراني مرسل عن عاصم بن لقيط أن لقيطاً. . . اهـ، وعزاه ابن كثير في البداية والنهاية [٥/ ٧٢، ٧٣، ٧٤] للبيهقي في البعث والنشور، وعبد الحق الأشبيلي في العاقبة، والقرطبي في التذكرة.

وقال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد [٣/ ٦٧٧، ٦٧٨] وفي حادي الأرواح [ص: ٢٤١] ما ملخصه: رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل، وابن أبي عاصم والطبراني وأبو الشيخ وابن منده، وابن مردويه، والعسال، وأبو نعيم الأصبهاني وغيرهم ونَقَلَ عن ابن منده قوله: «رواه بالعراق بمجمع العلماء وأهل الدين جماعة من الأئمة منهم أبو زرعة الرازي وأبو حاتم وأبو عبد الله محمد بن إسماعيل « البخاري» ولم ينكره أحد، ولم يتكلم في إسناده بل رَوَوْه على سبيل القبول والتسليم، ولا ينكر هذا الحديث إلا جاحد أو جاهل أو مخالف للكتاب والسنة» وقال أبو الخير بن حمدان: هذا حديث كبير ثابت مشهور، وقال المزي عنه «عليه جلال النبوة» اهـ.

وقد ترجم ابن حبان في الثقات لجميع رجال عبد الله بن أحمد بن حنبل.

وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة [٣/ ٢٩٥] في ترجمة «نهيك بن عاصم»: وسند الحديث حسن. اهـ.

(١) أخرجه مسلم [٢٨٤٨/ ٣٩].

....

= **الخامس**: أن اللّه سبحانه جعل الحمل والولادة مع الحيض والمني، فلو كانت النساء يحبلن في الجنة لم ينقطع عنهن الحيض والإنزال.

السادس: أن اللّه سبحانه قدر التناسل في الدنيا لأنه قدر الموت وأخرجهم إلى هذه الدنيا قرناً بعد قرن وجعل لهم أمداً ينتهون إليه فلولا التناسل لبطل النوع الإنساني، ولهذا الملائكة لا تتناسل فإنهم لا يموتون كما تموت الإنس والجن، فإذا كان يوم القيامة أخرج اللّه سبحانه الناس كلهم من الأرض وأنشأهم للبقاء لا للموت، فلا يحتاجون إلى تناسل يحفظ النوع الإنساني إذ هو منشأ للبقاء والدوام، فلا أهل الجنة يتناسلون ولا أهل النار.

السابع: أنه سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور: ٢١] فأخبر سبحانه أنه يكرمهم بإلحاق ذرياتهم الذين كانوا لهم في الدنيا، ولو كان ينشأ لهم في الجنة ذرية أخرى لذكرهم كما ذكر ذرياتهم الذين كانوا في الدنيا لأن قرة أعينهم كانت تكون بهم كما هي بذرياتهم من أهل الدنيا.

الثامن: أنه إما أن يقال باستمرار التناسل فيها لا إلى غاية، أو إلى غاية ثم ينقطع، وكلاهما مما لا سبيل إلى القول به لاستلزام الأول اجتماع أشخاص لا تتناهى، واستلزام الثاني انقطاع نوع من لذة أهل الجنة وسرورهم وهو محال، ولا يمكن أن يقال بتناسل يموت معه نسل ويخلفه نسل إذ لا موت هناك.

التاسع: أن الجنة لا ينمو فيها الإنسان كما ينمو في الدنيا، فلا ولدان أهلها ينمون ويكبرون، ولا الرجال ينمون كما تقدم، بل هؤلاء ولدان صغار لا يتغيرون، وهؤلاء أبناء ثلاث وثلاثين لا يتغيرون، فلو كان في الجنة ولادة لكان المولود ينمو ضرورة حتى يصير رجلًا، ومعلوم أن من مات من الأطفال يردون أبناء ثلاث وثلاثين من غير نمو.

الوجه العاشر: أن اللّه سبحانه وتعالى ينشئ أهل الجنة نشأة الملائكة أو أكمل من نشأتهم، بحيث لا يبولون ولا يتغوطون ولا ينامون ويلهمون التسبيح ولا يهرمون على تطاول الأحقاب ولا تنمو أبدانهم بل القدر الذي جعلوا عليه لازم لهم أبداً واللّه أعلم، فهذا ما في المسألة.

فأما قول بعضهم: « إن القدرة صالحة والكل ممكن »، وقول آخرين: « إن الجنة دار المكلفين التي يستحقونها بالعمل » وأمثال هذه المباحث فرخيصة وهي في كتب الناس وباللّه التوفيق.

قال الحاكم: قال الأستاذ أبو سهل: أهل الزيغ ينكرون هذا الحديث يعني حديث الولادة في الجنة وقد روى فيه غير إسناد وسئل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن ذلك فقال: يكون ذلك، على نحو مما روينا واللّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ وليس بالمستحيل أن يشتهي المؤمن الممكن من شهواته المصفى المقرب المسلط على لذاته، قرة عين وثمرة فؤاد من الذين أنعم اللّه عليهم =

....

= بأزواج مطهرة. فإن قيل: ففي الحديث أنهن لا يحضن ولا ينفسن فأين يكون الولد؟ قلت: الحيض سبب الولادة الممتد مدة بالحمل على الكثرة والوضع عليه كما أن جميع تلاد[1] الدنيا من المشارب والمطاعم والملابس على ما عرف من التعب والنصب وما يعقبه كل منهما مما يحذر منه ويخاف من عواقبه، وهذه خمرة الدنيا المحرمة المستولية على كل بلية قد أعدها الله تعالى لأهل الجنة منزوعة البلية موفرة اللذة، فلم لا يجوز أن يكون على مثله الولد؟! انتهى كلامه.

قلت: النافون للولادة في الجنة لم ينفوها لزيغ قلوبهم ولكن لحديث أبي رزين «غير أن لا توالد»، وقد حكينا من قول عطاء وغيره أنهن مطهرات من الحيض والولد، وقد حكى الترمذي عن أهل العلم من السلف والخلف في ذلك قولين وحكى قول إسحاق بإنكاره، وقال أبو أمامة في حديثه: «غير أن لا مني ولا منية. والجنة ليست دار تناسل بل دار بقاء وخلد لا يموت من فيها فيقوم نسله مقامه.

وحديث أبي سعيد الخدري هذا أجود أسانيده: إسناد الترمذي وقد حكم بغرابته وأنه لا يعرف إلا من حديث أبي الصديق الناجي وقد اضطرب لفظه فتارة يروى عنه «إذا اشتهى الولد»، وتارة «إنه ليشتهي الولد»، وتارة «إن الرجل من أهل الجنة ليولد له»، فالله أعلم.

فإن كان رسول الله ﷺ قد قاله فهو الحق الذي لا شك فيه، وهذه الألفاظ لا تنافي بينها ولا تناقض، وحديث أبي رزين «غير أن لا توالد» إذ ذاك نفي للتوالد المعهود في الدنيا ولا ينفي ولادة حمل الولد فيها ووضعه وسنه وشبابه في ساعة واحدة. فهذا ما انتهى إليها علمنا القاصر في هذه المسألة وقد أتينا فيها بما لا تجده في غير هذا الكتاب. والله أعلم.

فصل في: ذكر سماع الجنة وغناء الحور العين وما فيه من الطرب واللذة

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الروم].

. قال يحيى بن أبي كثير عن قوله عز وجل: ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ قال: الحبرة: اللذة والسماع.

عن يحيى بن أبي كثير في قوله: ﴿يُحْبَرُونَ﴾ قال: السماع في الجنة.

ولا يخالف هذا قول ابن عباس: يكرمون، وقال مجاهد وقتادة: ينعمون فلذة الأذن بالسماع من الحبرة والنعيم.

عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إن الحور العين يغنين =

---

(١) معنى التلاد: المال أو الأنعام الأصلية القديمة عند الإنسان.

= في الجنة، يقلن: نحن الحور الحسان، خلقن لأزواج كرام »[١].

وعن أبي أمامة عن رسول اللّه، قال: « ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه اثنتان من الحور العين، يغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن، وليس بمزامير الشيطان[٢] »[٣].

وعن ابن عمر قال: قال رسول اللّه ﷺ: « إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ما سمعها أحد قط، إن مما يغنين به: نحن الخيرات الحسان، أزواج قوم كرام، ينظرون بقرة أعين، وإن مما يغنين به: نحن الخالدات فلا نمتنه، نحن الآمنات فلا نخفنه، نحن المقيمات فلا نظعنه »[٤].

وقال يحيى بن أبي كثير: (إن الحور العين يتلقين أزواجهن عند أبواب الجنة فيقلن: طال ما انتظرناكم، فنحن الراضيات فلا نسخط، والمقيمات فلا نظعن، والخالدات فلا نموت، بأحسن أصوات سمعت، وتقول: أنت حبي وأنا حبك، ليس دونك مقصر ولا وراءك معدل[٥].

فصل: ولهم سماع أعلى من هذا

وعن محمد بن المنكدر قال: « إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الذين كانوا ينزهون أسماعهم وأنفسهم عن مجالس اللهو ومزامير الشيطان؟ أسكنوهم رياض المسك، ثم يقول للملائكة: أسمعوهم تمجيدي وتحميدي »[٦].

وعن ابن عباس قال: « في الجنة شجرة على ساق قدر ما يسير الراكب في ظلها مائة =

---

(١) رواه أبو نعيم في «صفة الجنة» [٣/ ٢٨٠] وعزاه ابن القيم لابن أبي الدنيا، وقال المنذري في الترغيب والترهيب [٤/ ٩٩٧]: رواه ابن أبي الدنيا والطبراني واللفظ له وإسناده مقارب. اهـ. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير [١٦٠٢] ولكن من طريق «سمويه» فقط.

(٢) مزامير الشيطان: أصوات الشياطين والمقصود ما يزينونه لبني آدم من الملاهي والمعازف وآلات الطرب، ويطلق على صوت الغناء وعلى الآلة نفسها التي يعزف بها. وإضافتها للشيطان من ناحية أنها تلهي الإنسان عن ذكر ربه وهو المقصود الأعظم للشيطان في هذه الدنيا.

(٣) قال المنذري في الترغيب والترهيب [٤/ ٩٩٧]: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجالهما رجال الصحيح. اهـ. وقال العراقي في تخريج الإحياء [٤٢٢٢]: رواه الطبراني بإسناد حسن. اهـ.

(٤) قال الهيثمي في مجمع الزوائد [١٠/ ٤١٩]: رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجاله رجال الصحيح. اهـ.
وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير [١٥٦١] من طريق الأوسط فقط.

(٥) سبق تخريجه صـ (٧٠٥).

(٦) رواه نعيم بن حماد في زياداته على «الزهد» لابن المبارك [٤٣/ ١٢].

....

۞ ۞ ۞

= عام، فيتحدثون في ظلها فيشتهي بعضهم، فيذكر لهو الدنيا فيرسل اللّه ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدنيا »[١] .

فصل: سماع أهل الجنة لكلام اللّه وخطابه لهم

ولهم سماع أعلى من هذا يضمحل دونه كل سماع.

وذلك حين يسمعون كلام الرب جل جلاله وخطابه وسلامه عليهم ومحاضرته لهم ويقرأ عليه كلامه فإذا سمعوه منه فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك. وسيمر بك أيها السُّنِّيُّ من الأحاديث الصحاح والحسان في ذلك ما هو من أحب سماع لك في الدنيا وألذ لأذنك وأقر لعينك، إذ ليس في الجنة لذة أعظم من النظر إلى وجه الرب تعالى وسماع كلامه منه ولا يعطي أهل الجنة شيئاً أحب إليهم من ذلك.

صحيح حادي الأرواح [ص٢٠٤-٢٣٦].

---

(١) قال المنذري في الترغيب والترهيب [٤/ ٩٦٦]: رواه ابن أبي الدنيا موقوفاً من طريق زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام وقد صححها الحاكم وابن خزيمة وحسنها الترمذي.

من مناقب السيدة خديجة رضي اللّٰه تعالى عنها

السؤال: لقد ساندت السيدة خديجة رضي اللّٰه عنها رسول اللّٰه في بداية الدعوة وآمنت به، وكانت خير معين له، فهل تذكر لنا فضيلتكم شيئاً من ذلك ؟

الجواب: خديجة بنت خويلد رضي اللّٰه تعالى عنها هي أول من آمن برسالة رسول اللّٰه ﷺ وكانت رضي اللّٰه تعالى عنها تمتلك من الفقه الإيماني ما يجعلها تدرك بفطرتها أن زوجها إنما هو رسول كريم، فعندما نزل الوحي عليه ﷺ لأول مرة في غار حراء، جاءها الرسول ﷺ وهو في حالة روع ويقول: « زمّلوني، زمّلوني ».

ولما ذهبت عنه حالة الروع، قال لها:

لقد خشيت على نفسي.

وكانت خشية الرسول من أن لا يكون ما نزل عليه وحياً من السماء.

لكن خديجة رضي اللّٰه عنها بفطرة الإيمان قالت:

إنك لتصل الرحم، وتكسب المعدوم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر، واللّٰه ما يخزيك اللّٰه أبداً [(١)].

كان هذا هو استنباطاً وقياساً.

ولو سألنا من أين أتت خديجة رضي اللّٰه عنها بهذا الاستنباط والقياس ؟

لكان لنا من ذكائها ونضجها ما يجعلها تملك الحواس التي تجعلها تطمئن لصدق رسالة رسول اللّٰه ﷺ.

أقول ذلك حتى نفهم أن زواج الرسول الكريم ﷺ منها وهي في سن الأربعين بينما كان عمره خمسة وعشرين عاماً إنما كان ذلك من مشيئة الرحمن في الإعداد الإلٰهي لرسالة محمد ﷺ.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [٣] بنحوه.

إن الرجل العادي في عمر الخامسة والعشرين لا يمكن أن يفكر إلا في الزواج بمن تصغره بسنوات.

لكن اللَّه يهيئ من الظروف حتى يتم زواج خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد اللَّه ﷺ.

خديجة رضي اللَّه عنها هي أول زوجة لرسول اللَّه، لأن الرسول ﷺ عندما بلغ الأربعين تلقى الرسالة، وكان يحتاج إلى من تفهم وتقدر العبء الملقى على عاتقه. كان يحتاج إلى حنان المرأة الناضجة التي تجيد الفهم والقياس.

لأن اللَّه أراد لمحمد رسوله الكريم ﷺ ظروفاً تجعل من أقرب المحيطين به من هم أكثر فهماً له.

هكذا كانت خديجة رضي اللَّه تعالى عنها.

ذلك أننا لو افترضنا أن رسول اللَّه ﷺ قد تزوج في بداية حياته بمن تصغره في العمر وجاءه الوحي، لكان استقبالها للحدث الإيماني مختلفاً.

فالحدث الإيماني الجليل كان لا بد أن يجد فيه رسول اللَّه ﷺ مشقة، وأن يجد في ذات الوقت حناناً من لدن الرحمن، ممثلًا في حنان زوجته الأولى السيدة خديجة رضي اللَّه تعالى عنها وأرضاها.

نتأمل حسن استقبالها واستنباطها، عندما يخبرها رسول اللَّه ﷺ بمجيء الوحي وبما يقوله الملك جبريل، فتقول له:

إذا جاءك الوحي أتستطيع أن تخبرني ؟.

فيرد رسول اللَّه ﷺ: نعم.

وعندما جاء الوحي؛ قال الرسول ﷺ لخديجة رضي اللَّه عنها:

وهل ترين الوحي ؟

فأخذت خديجة رسول اللَّه في حجرها وقالت له:

هل ترى الوحي ؟

ويرد الرسول:

نعم أراه.

فأزاحت خديجة رضي اللَّه عنها الخمار الذي تغطي به رأسها وسألت النبي الكريم ﷺ:

أما زلت ترى الوحي ؟

قال الرسول ﷺ: لا .

فتقول خديجة رضي اللّٰه تعالى عنها: اطمئن يا رسول اللّٰه ليس ما يجيء إليك بشيطان، إنما هو ملك من عند اللّٰه. . لماذا ؟

لأن خديجة رضي اللّٰه عنها أزاحت الخمار عن رأسها، والشيطان، لا يختفي لمثل هذا التصرف، أما الملك جبريل فهو سامع مطيع، لا يعصى اللّٰه ما أمره.

أي امرأة كانت تستطيع أن تستنبط مثل هذا الاستنباط من مثل هذا الموقف؟!

أي امرأة كانت تستطيع أن تمتلك هذا القدر من الفهم والحكمة ؟!

وتأخذ خديجة رسول اللّٰه إلى ورقة بن نوفل، فيخبرهما ورقة بعد أن سمع رسول اللّٰه ﷺ وقد حكى له ما رآه في الغار ـ بأن هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى عليه السلام وبشره ورقة رضي اللّٰه تعالى عنه بأنه رسول هذه الأمة وشد على يده وقال له: يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك[1].



(١) راجع قصة زواج النبي ﷺ بالسيدة خديجة رضي اللّٰه تعالى عنها وبدء الوحي، وذلك في كتاب السيرة النبوية للشيخ الإمام محمد متولي الشعراوي [ص: ١٠١ : ١٢٠] وهو من إصدارات مكتبة التراث الإسلامي.

الإسلام . . وهل انتشر بالسيف؟

السؤال: إن عدداً من المستشرقين يتهم الإسلام بأنه قد انتشر بالسيف، وأن الناس كانوا يُخَيَّرُوْن بين الإيمان أو القتل، وأن الفتوحات الإسلامية هي التي نشرت الإسلام بالسيف، فما تعليق فضيلتكم ؟

الجواب: هذا القول يحمل بهتاناً عظيماً، ذلك أنه لو كان الإسلام قد انتشر بالسيف، لما وجد في الدول التي أعلنت إسلامها غير المسلمين، ولكن وجد في الدولة الإسلامية اليهود والنصاري، وظلوا على دينهم، لم يحاول أحد أن يقتلهم أو يدخلهم في دين الإسلام قهراً، بل تركوا ودينهم، وما تمتع هؤلاء بحرية العبادة وأمان الحياة - باعترافهم هم - إلا في ظل الدولة الإسلامية، ولنقرأ التاريخ جيداً، فإنه يروي لنا أن أقباط مصر الذين كانوا يختفون في المغارات وقت الحكم الروماني، قد خرجوا إلى الآفاق في أيام الحكم الإسلامي، وكانوا يؤدون عبادتهم في حماية الخلافة الإسلامية.

ومن هنا فإن القول بأن الإسلام قد انتشر بالسيف قول كاذب، والإسلام حين استخدم السيف استخدمه ليدافع عن حرية الكلمة، وحرية العقيدة للبشرية كلها، فقد كان دعاة الإسلام يعرضون الإسلام على الأمم؛ فيشرحون الدين الجديد للناس، وبعد إبلاغهم بالدين الجديد والحجج التي نزل بها القرآن، من شاء فليؤمن، ومن لم يشأ ظل على دينه.

إذن . . كان المسلمون يطالبون بحرية الرأي، وحرية العقيدة، وكانوا يعرضون الإسلام على الناس، فمن كانت له حجة - ولله الحجة البالغة - فليتقدم، ثم بعد ذلك تترك حرية العقيدة لكل إنسان.

فما كان من بعض حكام هذه الدول إلا قتلوا دعاة المسلمين، والبعض الآخر منعوا المسلمين من أن يعرضوا دينهم على الناس، وصادروا حرية الرأي وحرية العقيدة، محاولين فرض دين الكفر، وحملوا السيف ليمنعوا الإسلام من أن يصل

إلى قلوب وآذان البشر، فكان لا بد أن يحمل المسلمون السيف؛ ليضمنوا للبشرية حرية الرأي، وحرية العقيدة، ويخلصوها من جبروت فرض الكفر والإلحاد على الناس بالقوة، وبعد أن وصلوا إلى الموقف الذي يستطيعون فيه إبلاغ تعاليم الإسلام، تركوا السيف وألقوا به بعيداً، وبدأوا في شرح تعاليم الدين، ثم تركوا بعد ذلك كل إنسان حراً في أن يدخل الإسلام أو يبقى على دينه، فمن دخل الإسلام كان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم بلا تمييز، وإن بقي على دينه كانت له حرية العقيدة يحميها المسلمون في ظل خلافة إسلامية وقوانين ربانية تحفظ لكل ذي حق حقه.



الشيء الجميل يذكرنا بخالقه

السؤال: إن اللّه تعالى خلق فينا حاسة الجمال، فماذا نقول حين نرى شيئاً جميلًا ؟

الجواب: قد تمدح شيئاً بما لا شأن له فيه، فعندما ترى جوهرة جميلة مثلًا، تمتدح جمالها، والجوهرة لا شأن لها في أن تكون جميلة أو غير جميلة، وقد ترى زهرة جميلة، أو خلقاً من خلق اللّه سبحانه وتعالي تستهويك فيه صفة من صفات الجمال، هذا الخلق لا شأن له بالجمال الذي يظهر به، فأنت في هذه الحالة تخلط فتمتدح الخلق بدلًا من أن تُثني على الخالق سبحانه ولكنك إذا رأيت شيئاً جميلًا من خلق اللّه سبحانه، فعليك أن تقول: ما شاء اللّه.. تبارك اللّه، وليذكرك هذا الجمال بدقة صنع الخالق تبارك وتعالى وأنه سبحانه أحسن كل شيء خلقه، فلا تخلط بين المدح وتمتدح المخلوق، فإذا رأيت زهرة جميلة، فلتقل: سبحان اللّه في خلقه، ولتجعلك هذه الأشياء في الكون تتذكر عظمة الصانع سبحانه.

❁ ❁ ❁

تفضيل الابن الصغير عدالة

السؤال: لماذا يحب الأب ابنه الصغير، ويفضله على باقي أولاده، هذه مشكلة كبيرة في عدد من العائلات، تجد الابن الأصغر أو الابنة الصغرى دائما عند الأب والأم، يعطيانهما أكثر، ويرعيانهما أكثر من غيرهما ؟

الجواب: إن هذا عدل من اللّه سبحانه وتعالى، لماذا ؟ لأن الأب والأم يعطيان من حنانهما ورعايتهما للابن الأصغر أكثر ممن يكبره؛ لأنهما سيعيشان معه فترة أقل مهما طالت أو قصرت.

فلنفرض أن عندي ولدين أحدهما عمره عشرون عاماً، والآخر عمره خمسة عشر عاماً، يكون الأول قد تمتع برعايتي له وربما وفرته وقدمته إليه عشرين سنة، بينما الثاني تمتع بخمس عشرة سنة فقط، أي خمس سنوات أقل.

ومهما طال العمر بي بعد ذلك، فأحد الولدين قد كبر علي رعايتي وعنايتي وإنفاقي سنوات أكثر من الآخر، حينئذ يأتي عدل اللّه سبحانه وتعالى ليعوض هذا الصغير الذي أخذ عدداً أقل من السنوات بجرعة أكبر من عناية الأب وحنان الأم، حتى يكون العطاء متساوياً للاثنين، وهذا بزيادة جرعات الرعاية والحنان، وهكذا يأبي اللّه سبحانه وتعالى إلا أن يكون العدل مطلقاً بين الأبناء، وهذه لفتة يجب أن نفهمها حتى لا نتساءل: لماذا يؤثر الابن الصغير فطريًا عمن هم أكبر منه ؟ (١).

❁ ❁ ❁

---

(١) هذا إذا كان التفضيل في المشاعر كما ذكر الشيخ، أما في الهبات والعطايا فإن الأمر يختلف؛ فيكره تفضيل بعض الأولاد على بعض في الهبة؛ لما اتفق عليه الشيخان عن رسول اللّه ﷺ قال: عندما حدثه أحدهم قائلًا: إني نحلت ابني هذا غلاماً كان لي. فقال رسول اللّه: «أكل ولدك نحلته مثل هذا ؟» فقال: لا. فقال رسول اللّه ﷺ: «فارجعه» أخرجه البخاري [٢٥٨٦]، ومسلم [١٦٢٣]، والترمذي [١٣٦٧] وابن ماجه [٢٣٧٦]. وأبو داود [٤٢٣٥].
وكذلك الميراث الشرعي الذي فرضه الله، وحد حدوده.

دستور الرسول في تربية النشء

السؤال: كلنا يعلم أن رسول اللَّه ﷺ كان مربي الإنسانية فما دستوره ﷺ في تربية النشء ؟

الجواب: إن الرسول الكريم عندما يأمرنا بأن نعطف على الطفل سبعاً، وأن نعلمه سبعاً، وأن نصادقه سبعاً، إنما يضع لنا دستوراً في التربية لم تعرف البشرية نظيراً له.

فالطفل الذي ينشأ في رعاية أبوين متحابين مؤمنين يؤديان ما عليهما من واجبات، هذا الابن يشب عن الطوق وهو ممتلئ بروح الإيمان، فإذا ما بلغ السابعة وبدأ الأب في الحزم معه وفي تعليمه فن إدارة الذات، والقدرة على تلقي العلم والانتظام في السلوك القويم؛ فإن الابن يصل إلى الرابعة عشرة وقد تأصل فيه الإحساس بالمسئولية، وأصبح قادراً على صحبة الأب للتدريب الجديد على الحياة في المجتمع، ولسوف تمر السبع سنوات من الرابعة عشرة إلى الحادية والعشرين، وقد تأصل في الابن روح المبادأة واحترام الكبير، والقدرة على إبداء الرأي، وحسن إتقان العمل.



أدعياء باسم الأولياء

السؤال: هل صحيح أن بعض الأولياء يزورون ناساً في المنام، ويأمرونهم بأشياء يجب أن نفعلها ؟

الجواب: هؤلاء أدعياء يحتالون على الناس باسم الأولياء، وأروي هذه الواقعة دليلًا على ذلك.

لقد دخلت ذات مرة إلى مسجد السيدة زينب رضوان اللّٰه تعالى عليها فجاءني واحد ليقول:

لقد جاءتني السيدة وقالت لي أن أذهب إليك؛ لتعطيني سبعة جنيهات.

سألته: ولماذا لم تقل عشرة أو عشرين ؟

قال: السيدة تعلم عنك أكثر مما تعلم أنت عن نفسك.

قلت: عن أي سيدة تتحدث.

قال: عن السيدة زينب.

قلت: إن السيدة زينب لو أرادت أن تعطيك هذه الجنيهات السبعة كما تزعم؛ لجاءت لي أنا في الرؤيا؛ لأنني أنا الذي سوف أعطى، ولن تأتي إليك؛ لأنك الذي ستأخذ، ذلك أن السيدة عندما تقول لك: خذ من فلان سبعة جنيهات فقد يكون ما معي هو خمسة وسبعين قرشاً.

ثم قلت للرجل: إن حفيدة رسول اللّٰه أكرم من أن تأتي إليك في الرؤيا.

وعرف الرجل أنني اكتشفت أنه نصاب.

❁ ❁ ❁

مسئولية الآباء والأمهات عن عقوق الأبناء

السؤال: إن ظاهرة عقوق الأبناء للآباء وإن كانت قديمة، إلا أن الإسلام لا شك قد جاء بعلاج لها فما رأي فضيلتكم في علاج العقوق ؟

الجواب: إن كثيراً من الآباء والأمهات يشكون من عقوق الأبناء أو من سلوك الأبناء.

وينسى الآباء والأمهات أن فرصة التربية قد ضاعت منهم، إما في زجر الأبناء في وقت لا يستدعي الأمر إلى زجر، أو في التقليل من شأن الأبناء، في وقت يحتاج الابن فيه إلى من يعتني به ويرعاه.

ومضت السنوات، والأب غافل عن ابنه إما بالتجاهل لحياة ابنه وما يلزمها في كل مرحلة، أو بالغرق في نمط من الحياة بعيداً عن ضرورة رعاية الأبناء، والأم كذلك لاهية عن الابنة في أمور أنستها مهمتها الأساسية في الحياة فلا تأخذ الابنة من أمها حناناً وقت الاحتياج إلى الحنان، ولا تلقى الابنة حزماً وقتما تحتاج إلى حزم، ولا تنال الابنة حق الصداقة والفهم، وقت أن احتاجت البنت إلى صداقة الأم. فساد التنافر جو الأسرة باسم الحياة المعاصرة.

والعجيب أننا لو تأملنا المجتمعات التي يقال عنها «معاصرة»، لوجدنا علماء تلك المجتمعات يعودون إلى منهج الإسلام؛ ليأخذوا منه قواعد التربية الصحيحة للأبناء. - وكما قلنا - لا كدين من عندنا يجب عليهم اتباعه، ولكن كناحية اجتماعية تضمن لهم سلامة حياتهم الاجتماعية.

الحنان والاحترام والمودة بين الزوجين؛ فينشأ الطفل متمتعاً بالوجدان الصافي لتلقي مسئوليات الحياة.

الحزم واحترام ذاتية الطفل وتعليمه منهج الدين من السابعة إلى الرابعة عشرة؛ ليعرف أن المؤمن هو الإنسان الذي يتقن عمله، حتى تصلح حياته بهذا العمل، وأن يعطي من الجهد والتعليم ما يجعله متدرباً على تحمل المسئولية ومعرفة فن إدارة الحياة وفق منهج الله تعالى.

صداقة وفهم وصحبة في ضوء الإيمان؛ ليكون الشاب متقبلًا للحياة المؤمنة، مخلصاً في أداء عمله. واعياً بمسئولياته؛ فيقوم المجتمع على أفراد منسجمين بالإيمان مع أنفسهم، ومع الكون الذي خلقه اللَّه.

وإذا كان الحق سبحانه أوصي الآباء بالأبناء؛ فيجب أن نلتفت إلى أنه سبحانه أوصي الأبناء بالآباء وكأن ما يزرعه الأب والأم في صغيرهما ينفعهما في كبرهما فقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[1] [الإسراء].

---

(١) قال القرطبي فيه ست عشرة مسألة:
الأولى: ﴿ وَقَضَىٰ ﴾ أي أمر وألزم وأوجب ، قال ابن عباس والحسن وقتادة: ليس هذا قضاء حكم بل هو قضاء أمر، وفي مصحف ابن مسعود « ووصَّى » وهي قراءة أصحابه وقراءة ابن عباس أيضاً وعليّ وغيرهما ، وكذلك عند أُبي بن كعب. قال ابن عباس: إنما هو « ووصى ربك » فالتصقت إحدى الواوين فقرئت. ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ إذ لو كان على القضاء ما عصى اللَّه أحد،
وقال الضحاك: تصحفت على قوم « وصى بقضى » حين اختلطت الواو بالصاد وقت كُتب المصحف، وذكر أبو حاتم عن ابن عباس مثلَ قول الضحاك. وقال عن ميمون بن مهران أنه قال: إن على قول ابن عباس لنوراً ، قال اللَّه تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣] ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابن عباس قال ذلك.
وقال: ولو قلنا هذا لطعن الزنادقة في مصحفنا، ثم قال علماؤنا المتكلمون وغيرهم: القضاء يستعمل في اللغة على وجوه: فالقضاء بمعنى الأمر؛ كقوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣] معناه أمر. والقضاء بمعنى الخلق؛ كقوله: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ١٢] يعني خلقهن، والقضاء بمعنى الحكم؛ كقوله تعالى: ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾ [طه : ٧٢] يعني احكم ما أنت تحكم، والقضاء بمعنى الفراغ؛ كقوله: ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٤١]. أي فرغ منه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ [الجمعة: ١٠]، والقضاء بمعنى الإرادة؛ كقوله تعالى: ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [مريم: ٣٥]. والقضاء بمعنى العهد؛ كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ [القصص: ٤٤].
فإذا كان القضاء يحتمل هذه المعاني فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصي بقضاء اللَّه؛ لأنه إن أريد به الأمر فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك، لأن اللَّه تعالى لم يأمر به، فإنه لا يأمر بالفحشاء، وقال زكريا بن سلام: جاء رجل إلى الحسن فقال إنه طلق امرأته ثلاثاً. =

حتى لا يوجد إنسان في المجتمع، وهو لا يتحمل مسئولية من أحسنوا تربيته، ومسئولية الأبناء الذين تقع عليهم مسئولية حسن تربيتهم؛ وذلك حتى يتحقق للمجتمع الراحة والأمان والانسجام.

= فقال: إنك قد عصيت ربك وبانت منك. فقال الرجل: قضى اللّه ذلك عليّ! فقال الحسن وكان فصيحاً: ما قضى اللّه ذلك! أي ما أمر اللّه به، وقرأ هذه الآية: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾.

الثانية: أمر اللّه سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل بر الوالدين مقروناً بذلك، كما قرن شكرهما بشكره فقال: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾.

وقال: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

وفي صحيح البخاري عن عبد اللّه قال: سألت النبيّ ﷺ أي العمل أحب إلى اللّه عز وجل؟ قال: « الصلاة على وقتها » قال: ثم أيّ؟ قال: « ثم بر الوالدين» قال ثم أيّ؟ قال: « الجهاد في سبيل اللّه »[(١)] فأخبر ﷺ أن برّ الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام. ورتّب ذلك بـ« ثم » التي تعطي الترتيب والمهلة.

الثالثة: من البرّ بهما والإحسان إليهما ألا يتعرض لسبِّهما ولا يعقهما؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف، وبذلك وردت السنة الثابتة؛ ففي صحيح مسلم عن عبداللّه بن عمرو أن رسول اللّه ﷺ قال: « إن من الكبائر شتم الرجل والديه» قالوا: يا رسول اللّه، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال:« نعم. يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه »[(٢)].

الرابعة: عقوق الوالدين مخالفتها في أغراضهما الجائزة لهما؛ كما أن بِرّهما موافقتهما على أغراضهما، وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه، إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح في أصله، كذلك إذا كان من قبيل المندوب، وقد ذهب بعض الناس إلى أن أمرهما بالمباح يصيّره في حق الولد مندوباً إليه وأمرهما بالمندوب يزيده تأكيداً في ندبيته.

الخامسة: روى الترمذي عن ابن عمر قال: كانت تحتي امرأة أحبها، وكان أبي يكرهها فأمرني أن أطلقها فأبيت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال:

«يا عبد اللّه بن عمر طلق امرأتك». قال: هذا حديث حسن صحيح[(٣)].

السادسة: روي في الصحيح عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال: « أمك » قال: ثم من؟ قال: « أمك» قال: ثم من؟ قال: « ثم أمك » قال: ثم من؟ قال: « ثم أبوك »[(٤)]. فهذا الحديث يدل على =

---

(١) أخرجه البخاري [٢٧٨٢].
(٢) أخرجه مسلم [٩٠].
(٣) رواه أبو داود [٥١٣٨]، والترمذي [١١٨٩]، وصحح الألباني في صحيح أبي داود [٤٢٨٤].
(٤) أخرجه البخاري [٥٩٧١]، ومسلم [٢٥٤٨].

....

= أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغي أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب؛ لذكر النبي ﷺ الأم ثلاث مرات وذكر الأب في الرابعة فقط. وإذا توصل هذا المعنى شهد له العيان؛ وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب؛ فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب.

وروي عن مالك أن رجلًا قال له: إن أبي في بلد السودان، وقد كتب إليَّ أن أقدم عليه، وأمي تمنعني من ذلك؛ فقال له: أطع أباك ولا تعص أمك، فدل قول مالك هذا أن برهما متساو عنده، وقد سُئل الليث عن هذه المسألة فأمره بطاعة الأم؛ وزعم أن لها ثلثي البر. وحديث أبي هريرة يدل على أن لها ثلاثة أرباع البر؛ وهو الحجة على من خالف. وقد زعم المحاسبي في « كتاب الرعاية له » أنه لا خلاف بين العلماء أن للأم ثلاثة أرباع البر وللأب الربع؛ على مقتضى حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه. واللّه أعلم.

السابعة: لا يختص بر الوالدين بأن يكونا مسلمين، بل إن كانا كافرين يبرهما ويحسن إليهما إذا كان لهما عهد؛ قال اللّه تعالى: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨]. وفي صحيح البخاري عن أسماء قالت: قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم إذا عاهدوا النبي ﷺ مع أبيها، فاستفتيت النبي ﷺ فقلت: إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها؟ قال: « نعم صلي أمك »[(١)].

وروي أيضاً عن أسماء قالت: أتتني أمي راغبة في عهد النبي ﷺ فسألت النبي ﷺ أأصلها؟ قال: « نعم ». قال ابن عيينة: فأنزل اللّه عز وجل فيها: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾[(٢)] [الممتحنة: ٨] الأول معلق والثاني مسند.

الثامنة: من الإحسان إليهما والبر بهما إذا لم يتعين الجهاد ألا يجاهد إلا بإذنهما.

روي في الصحيح عن عبد اللّه بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد فقال: « أحَيٌّ والداك؟ » قال: نعم. قال: « ففيهما فجاهد »[(٣)]. لفظ مسلم.

في غير الصحيح قال: نعم؛ وتركتهما يبكيان، قال: « اذهب فأضحكهما كما أبكيتهما»[(٤)] وفي خبر آخر أنه قال: « نومك مع أبويك على فراشهما يضاحكانك ويلاعبانك أفضل لك من الجهاد معي » ذكره ابن خويز مَنْدَاد. ولفظ البخاري في كتاب بر الوالدين: أخبرنا أبو نعيم أخبرنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عبد اللّه بن =

(١) أخرجه البخاري [٥٩٧٨].
(٢) أخرجه البخاري [٥٩٧٨].
(٣) أخرجه مسلم [٢٥٤٩].
(٤) رواه أبو داود [٢٥٢٨] وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٢٢٠٥].

....

= عمرو قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يبايعه على الهجرة، وترك أبويه يبكيان فقال: «ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما»[1].

قال ابن المنذر: في هذا الحديث النهي عن الخروج بغير إذن الأبوين ما لم يقع النفير؛ فإذا وقع وجب الخروج على الجميع، وذلك بيِّنٌ في حديث أبي قتادة أن رسول اللَّه ﷺ بعث جيش الأمراء. . ؛ فذكر قصة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وابن رواحة وأن منادي رسول اللَّه ﷺ نادي بعد ذلك: أن الصلاة جامعة؛ فاجتمع الناس فحمد اللَّه وأثني عليه ثم قال: « أيها الناس، اخرجوا فأمدوا إخوانكم ولا يتخلفن أحد » فخرج الناس مشاةً وركباناً في حر شديد . فدل قوله: « اخرجوا فأمدوا إخوانكم » أن العذر في التخلف عن الجهاد إنما هو ما لم يقع النفير؛ مع قوله عليه السلام: « فإذا استنفرتم فانفروا».

قلت: وفي هذه الأحاديث دليل على أن الفروض أو المندوبات متى اجتمعت قدم الأهم منها. وقد استوفى هذا المعنى المحاسبي في كتاب الرعاية.

التاسعة: واختلفوا في الوالدين المشركين هل يخرج بإذنهما إذا كان الجهاد من فروض الكفاية؛ فكان الثوري يقول: لا يغزو إلا بإذنهما. وقال الشافعي: له أن يغزو بغير إذنهما. قال ابن المنذر: والأجداد آباء ، والجدات أمهات فلا يغزو المرء إلا بإذنهم؛ ولا أعلم دلالة توجب ذلك لغيرهم من الإخوة وسائر القرابات.

وكان طاوس يرى السعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل اللَّه عز وجل.

العاشرة: من تمام برهما صلة أهل ودهما ، ففي الصحيح عن ابن عمر قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى »[2].

وروى أبو أسيد وكان بدرياً قال: كنت مع النبي ﷺ جالساً فجاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول اللَّه، هل بقي من بر والدي من بعد موتهما شيء أبرهما به ؟ قال: « نعم. الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما بعدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما فهذا الذي بقي عليك »[3]. وكان ﷺ يهدي لصدائق خديجة براً بها ووفاءً لها وهي زوجته، فما ظنك بالوالدين.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣]. خص حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بره لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر؛ فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كلّا عليه، فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره =

---

(1) أخرجه البخاري في الأدب المفرد [١٣] وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد [١٠].

(2) أخرجه مسلم [١٢/٢٥٥٢].

(3) أخرجه البخاري في الأدب المفرد [٣٥]، وأبو داود [٥١٤٢]، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود [١١٠١].

....

= أن يليا منه؛ فلذلك خُصّ هذه الحالة بالذكر. وأيضاً فطول المكث للمرء يوجب الاستثقال للمرء عادة ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه وتنتفخ لهما أوداجه، ويستطيل عليهما بدالة البنوة وقلة الديانة، وأقل المكروه ما يظهره بتنفسه المتردد من الضجر. وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة، وهو السالم عن كل عيب فقال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنفه رغم أنفه رغم أنفه» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة»(١).

وقال البخاري في كتاب بر الوالدين: حدثنا مسدد حدثنا بشر بن المفضل حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ رغم أنف رجل أدرك أبويه عنده الكبر أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يُغفر له» .

حدثنا ابن أبي أويس حدثني أخي عن سليمان بن بلال عن محمد بن هلال عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة السالمي عن أبيه رضي الله عنه قال: إن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: قال النبي «أحضروا المنبر» فلما خرج رقي إلى المنبر، فرقي في أول درجة منه قال «آمين» ثم رقي في الثانية فقال: «آمين» ثم لما رقي في الثالثة قال: آمين، فلما فرغ ونزل من المنبر قلنا: يا رسول الله، لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنا نسمعه منك؟ قال: «وسمعتموه؟» قلنا: نعم. قال: «إن جبريل عليه السلام اعترض قال: بَعُدَ من أدرك رمضان ولم يغفر له فقلت: آمين، فلما رقيت في الثانية قال: بَعُدَ من ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت: آمين، فلما رقيت الثالثة قال: بَعُدَ من أدرك عنده أبواه الكبر أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة قلت: آمين» .

حدثنا أبو نعيم حدثنا سلمة بن وردان سمعت أنساً رضي الله عنه يقول: ارتقى رسول الله على المنبر درجة فقال: «آمين» ثم ارتقى درجة فقال: «آمين» ثم ارتقى الدرجة الثالثة فقال: «آمين»، ثم استوى وجلس فقال أصحابه: يا رسول الله، علامَ أمنت؟

قال: «أتاني جبريل عليه السلام فقال رغم أنف من ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت: آمين ورغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخل الجنة فقلت: آمين» الحديث.

فالسعيد الذي يبادر اغتنام فرصة برهما لئلا تفوته بموتهما فيندم على ذلك، والشقي من عقهما، لا سيما من بلغه الأمر ببرهما. =

أخرجه مسلم [٢٥٥١].

أخرجه البخاري في الأدب المفرد [٢١]، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد [١٦].

أخرجه الطبراني في الكبير [١٩/ ١٤٤].

أخرجه إسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي [١٥].

....

= **الثانية عشرة**: قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [الإسراء: ٢٣] أي لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرم، وعن أبي رجاء العطاردي قال: الأف الكلام القذع الرديء الخفي. وقال مجاهد: معناه إذا رأيت منهما في حال الشيخ، الغائط والبول الذي رأياه منك في الصغر فلا تقذرهما وتقول أفّ. والآية أعم من هذا. والأف والنف وسخ الأظفار. ويقال لكل ما يضجر ويستثقل: أف له. قال الأزهري: والتف أيضاً الشيء الحقير. وقرئ « أفّ » منوّناً مخفوضاً؛ كما تخفض الأصوات وتنون، تقول: صهٍ ومهٍ. وفيه عشر لغات: أفَّ، أفُّ، أفِّ، أفًّا، أفٌ، وأفٌ، أفَّهْ، إفْ لك « بكسر الهمزة »، وأُفْ، أفًا « بضم وتسكين الفاء »، وأفاً « مخففة الفاء ». وفي الحديث: « فألقى طرف ثوبه على أنفه ثم قال أف أف »[1]، قال أبو بكر: معناه استقذار لما شم. وقال بعضهم: معنى أف: الاحتقار والاستقلال؛ أخذ من الأفف وهو القليل. وقال القُتبي: أصله نفخك الشيء يسقط عليك من رماد وتراب وغير ذلك، وللمكان تريد إماطة شيء لتقعد فيه؛ فقيلت هذه الكلمة لكل مستثقل. وقال أبو عمرو بن العلاء: الأف وسخ بين الأظفار، والتف قلامتها. وقال الزجاج: معنى أف: النتن. وقال الأصمعي: الأف وسخ الأذن، والتف وسخ الأظفار؛ فكثر استعماله حتى ذكر في كل ما يتأذى به. وروي من حديث عليّ بن أبي طالب رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « لو علم اللَّه من العقوق شيئاً أردأ من « أف » لذكره فليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار؛ وليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة ».

قال علماؤنا: وإنما صارت قوله: « أفٌ» للأبوين أردأ شيء لأنه رفضهما رفض كفر النعمة، وجحد التربية وردّ الوصية التي أوصاه في التنزيل.

« وأف » كلمة مقولة لكل شيء مرفوض؛ ولذلك قال إبراهيم لقومه: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٧] أي رفض لكم ولهذه الأصنام معكم.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ [الإسراء: ٢٣] النهر: الزجر والغلظة. ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء: ٢٣] ﴾ أي ليناً لطيفاً، مثل: يا أبتاه ويا أماه، من غير أن يسميهما أو يكنيهما؛ قاله عطاء. وقال أبو البداح التُّجيبيُّ: قلت لسعيد بن المسيب كل ما في القرآن من بر الوالدين قد عرفته إلا قوله: ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ما هذا القول الكريم؟ قال ابن المسيب: قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء: ٢٤] هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتذلل لهما تذلل الرعية للأمير والعبيد للسادة؛ كما =

---

(١) رواه ابن الأثير في النهاية [١/ ٥٥].

....

= أشار إليه سعيد بن المسيب. وضرب خفض الجناح ونصبه مثلًا لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده، والذل: هو اللين، وقراءة الجمهور بضم الذال، من ذل يذل ذلًا وذلة ومذلة فهو ذال وذليل، وقرأ سعيد بن جبير وابن عباس وعروة بن الزبير «الذل» بكسر الذال ، ورويت عن عاصم؛ من قولهم: دابة ذلول بينة الذِّل، والذل في الدواب المنقاد السهل دون الصعب. فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خير ذلة، في أقواله وسكناته ونظره ، ولا يحد إليهما بصره فإن تلك هي نظرة الغاضب.

الخامسة عشرة: الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ والمراد به أمته؛ إذ لم يكن له عليه السلام في ذلك الوقت أبوان، ولم يذكر الذل في قوله تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥]

وذكره هنا بحسب عظم الحق وتأكيده. و « من » في قوله: ﴿ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] لبيان الجنس ، أي إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة في النفس، لا بأن يكون ذلك استعما لًا. ويصح أن يكون لانتهاء الغاية، ثم أمر تعالى عباده بالترحّم على آبائهم والدعاء لهم، وأن ترحمهما كما رحماك وترفق بهما كما رفقا بك؛ إذ ولياك صغيراً جاهلًا محتاجاً فآثراك على أنفسهما، وأسهرا ليلهما، وجاعا وأشبعاك ، وتعريا وكسواك، فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحد الذي كنت فيه من الصغر، فتلي منهما ما وليا منك، ويكون لهما حينئذ فضل التقدم ، قال ﷺ: « لا يجزي ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه»[1]، وسيأتي في سورة مريم الكلام على هذا الحديث.

السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي ﴾ [الإسراء: ٢٤] خص التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية ، فيزيده ذلك إشفاقاً لهما وحناناً عليهما ، وهذا كله في الأبوين المؤمنين. وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أولى قربي، كما تقدم، وذكر عن ابن عباس وقتادة أن هذا كله منسوخ بقوله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣] فإذا كان والدا المسلم ذميين استعمل معهما ما أمره اللّه به ها هنا؛ إلا الترحم لهما بعد موتهما على الكفر؛ لأن هذا وحده نسخ بالآية المذكورة. وقيل: ليس هذا موضع نسخ، فهو دعاء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما داما حيين، كما تقدم. أو يكون عموم هذه الآية خص بتلك، لا رحمة الآخرة، لا سيما وقد قيل: إن قوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا ﴾ [الإسراء: ٢٤] نزلت في سعد بن أبي وقاص، فإنه أسلم، فألقت أمه نفسها في الرمضاء متجردة، فذكر ذلك لسعد فقال: لتمت؛ فنزلت الآية. =

(١) رواه أحمد في المسند [٢/ ٢٣٠]، ومسلم [١٥١٠] من حديث أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه.

....

۞ ۞ ۞

= وقيل: الآية خاصة في الدعاء للأبوين المسلمين. والصواب أن ذلك عموم كما ذكرنا، وقال ابن عباس قال النبي ﷺ: « من أمسى مرضياً لوالديه وأصبح.. أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة وإن واحداً فواحداً، ومن أمسى وأصبح مسخطاً لوالديه أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار وإن واحداً فواحداً » فقال رجل: يا رسول اللّه، وإن ظلماه ؟ قال: « وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه »(1). وقد روينا بالإسناد المتصل عن جابر بن عبد اللّه رضي اللّه تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللّه، إن أبي أخذ مالي، فقال النبي ﷺ للرجل: « فأتني بأبيك » فنزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ فقال: إن اللّه عز وجل يقرئك السلام ويقول لك إذا جاءك الشيخ فاسأله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه. فلما جاء الشيخ قال له النبي ﷺ: « ما بال ابنك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله ؟ » فقال: سله يا رسول اللّه، هل أنفقه إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسي ! فقال له رسول اللّه ﷺ: « إيه، دعنا من هذا، أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك ؟ » فقال الشيخ: واللّه يا رسول اللّه، ما زال اللّه عز وجل يزيدنا بك يقيناً، لقد قلت في نفسي شيئاً ما سمعته أذناي.

قال: «قل وأنا أسمع» قال قلت:

غذوتك مولوداً ومنتك يافعاً ... تعل بما أجني عليك وتنهل
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت ... لسقمك إلا ساهراً أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طرقت به دوني فعيني تهمل
تخاف الردى نفسي عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي غلظةً وفظاظةً ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترعَ حق أبوتي ... فعلت كما الجار المصاقب يفعل
فأوليتني حق الجوار ولم تكن ... عليَّ بمال دون مالك تبخل

قال: فحينئذ أخذ النبي ﷺ بتلابيب ابنه وقال: « أنت ومالك لأبيك ».

قال الطبراني: اللخمي لا يروي - يعني هذا الحديث - عن ابن المنكدر بهذا التمام والشعر إلا بهذا الإسناد؛ وتفرد به عبيد اللّه بن خلصة، واللّه أعلم.

تفسير القرطبي [١٠/ ٢٣٦].

---

(1) رواه الشجرى في أماليه [٢/ ١٢٠].

علامات المُخلصين

السؤال: من هم عباد اللَّه تعالى المخلصون الذين عجز إبليس عن إغوائهم ؟

الجواب: عباد اللَّه المخلصون هم أولئك الذين تنازلوا باختيارهم وحبهم لله عن كل ما يُغضب اللَّه، واتبعوا باختيارهم وحبهم للَّه ما يرضيه سبحانه.

فاللَّه لا يريد قوالب تخضع، ولكنه يريد قلوباً تخشع بالحب، لأن إخضاع القالب يمكن أن يأتي بالرغم منك، فإذا أمسك إنسان كرباجاً وقال لك: افعل كذا، وقلت: لا، فسيضربك بقوة، ويؤلمك الضرب، فيخضع قالبك. أي: خضَعَ الظاهر منك وقمت تفعل له ما يريد، ولكن هل تفعل هذا عن حب ؟ هل تفعل هذا بإخلاص؟ هل تفعل هذا عن رغبة ؟ لا. أنت تفعل وأنت مكره.. اللَّه سبحانه وتعالى وهو قادر على هذا، لا يريد أن يكرهك، ولكنه يريد قلوباً تخشع، أي يريدك أن تخشع من داخل قلبك، والقلب هو المنطقة الحرة التي خلقها اللَّه في الإنسان، ولا تستطيع قوة في الأرض أن تجعلها مقهورة على شيء، فما في قلبك هو ملك خاص لك، ليس للعالم كله سلطان عليه، وقد يكرهك إنسان فتتظاهر له بالحب، ولكن قلبك يظل يكرهه ويرفضه، وقد تتظاهر لإنسان بالخضوع، ولكن قلبك يمقته، وفي نفس الوقت مهما فعلوا بك، ولو وضعوك في سجن تعذب فيه ليل نهار، ولو قطعوا جسدك، فإنهم لن يستطيعوا أن يكرهوا قلبك على حب شيء تكرهه، أو كره شيء تحبه، بل تبقى هذه المنطقة حرة لا يتدخل فيها إنسان، ولا يستطيع إنسان أن يتدخل فيها، ولذلك قال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾[١] [النحل: ١٠٦].

---

(١) قال القاسمي في تفسيره للآية: قال ابن إسحاق: إن المشركين عَدَوْا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه. فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين. فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش. وبرمضاء مكة إذا اشتد الحرّ. يفتنونهم عن دينهم. فمنهم من يفتتن من شدة البلاء الذي يصيبه. ومنهم من يَصْلُبُ لهم ويعصمه الله منهم. وكان بلال رضي الله عنه عبداً لبعض بني جُمَح. يخرجه أمية بن خلف، إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة. ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره. ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات =

لماذا ؟ لأن الإكراه في هذه الحالة يكون إكراهاً للقالب، وليس للقلب،

= والعزى. فيقول (وهو في ذلك البلاء): أحدٌ. أحدٌ حتى اشتراه أبو بكر وأعتقه.
وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه، رضي الله عنهم، إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة. فيمرّ بهم رسول الله ﷺ. فيقول: «صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة» فأما أمه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام.
قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺمن العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم. والله! إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه، حتى ما يقدر على أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة. حتى يقولوا له: اللات والعزّى الَهك من دون الله؟ فيقول: نعم. حتى إن الجُعَل ليمر بهم فيقولون له: هذا الجُعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم. افتداء منهم، مما يبلغون من جَهْده.
وقد ذكر ابن هشام في (السيرة) في بحث (عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة) غرائب في هذا الباب، فانظره.
قال ابن كثير: ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي، إبقاء لمهجته. ويجوز له أن يأبى. كما كان بلال رضي الله عنه يأبي عليهم، وهم يفعلون به الأفاعيل، وهو يقول: أحد. أحدٌ. ويقول: والله! لو أعلم كلمة أغيظ لكم منها لقلتها. رضي الله عنه وأرضاه. وكذلك حبيب بن زيد الأنصاريّ، لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك.
وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة السهميّ، أحد الصحابة؛ أنه أسرته الروم. فجاؤوا به إلى ملكهم. فقال له: تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي. فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب، على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين، ما فعلت. فقال: إذاً أقتلك. فقال: أنت وذاك. فأمر به فصلب. وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى. ثم أمر به فأنزل. ثم أمر بقِدْر فأحميت. وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح. وعرض عليه فأبى. فأمر به أن يلقى فيها. فرفع بالبكرة ليلقى فيها فبكى. فطمع فيه ودعاه فقال: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة. تلقى في هذا القدر الساعة. فأحببت أن يكون لي، بعدد كل شعرة في جسدي، نفس تعذب هذا العذاب في الله.
وفي بعض الروايات؛ أنه سجنه ومنعه الطعام والشراب أياماً. ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه. ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال أما هو فقد حلَّ لي. ولكن لم أكن لأُشَمِّتَك فيَّ. فقال له الملك: فقبِّل رأسي وأنا أطلقك وأطلق جميع أسارى المسلمين. قال، فقبَّل رأسه. فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده. فلما =

والله سبحانه وتعالى - كما قلنا - لا يريد قوالب تخضع، ولكنه يريد قلوباً تخشع، ولذلك ما دام القلب خاشعاً، فالله راضٍ، حتى ولو أُجبر الإنسان على غير ما في قلبه، ولذلك فقط أسقط سبحانه الحساب عن كل مَن أُكْرِهَ قالبه على شيء وقلبه يرفضه، فأنت إذا أمسكت عصاً غليظة، وأجبرت إنساناً على الصلاة، وقلبه لا يريد الصلاة ويرفضها، فلا صلاة له، وأنت إذا أكرهت إنساناً على فعل منكر، وقلبه يرفضه، فلا حساب عليه، فالله يسقط عنه الحساب.

والله تعالى يقول: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٦٥].

فالمهمة هنا أن يكونوا عباداً لا عبيداً، وأن يعبدوا الله سبحانه وتعالى عن محبوبية وخضوع، وأن يأتوا عن حب في كل ما يعملون، إذا عبدوا فعبادتهم عن حب، وإذا حكموا فحكمهم عن حب، وإذا باعوا، وإذا اشتروا، فكل ذلك في إطار إرضاء الله تعالى، في كل أمر من أمور الدنيا، لا يشغلهم إلا ذلك الحب، فكل عمل يقومون به، يبتغون منه رضاء الله تعالى، ويسألون أين الرضا فيتبعونه، فلا يغش أحدهم في بيع، ولا يزور في عمل، ولا يزيف في شهادة، وهكذا [١].

= رجع قال عمر بن الخطاب: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة. وأنا أبدأ. فقام فقبل رأسه.

[تفسير القاسمي: ١٠/ ٣٨٦٤:٣٨٦٦]

(١) ومن صفات عباد الرحمن التي وردت في القرآن الكريم قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

قال القاسمي في تفسيره: ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً﴾ أي: هينين. أو مشياً هيناً. أي بسكينة وتواضع. لا يضربون بأقدامهم، ولا يخفقون تبعاً لهم أشراً وبطراً. ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾ أي: إذا خاطبهم السفهاء بالقول السيئ لم يقابلوهم بمثله، بل قالوا كلاماً فيه سلام من الإيذاء والإثم سواء كان بصيغة السلام كقولهم: «سلام عليكم»، أو غيرها مما فيه لطف في القول أو عفو أو صفح. وكظم للغيظ. دفعاً بالتي هي أحسن.

[تفسير القاسمي ١٢/ ٤٥٨٨]

ومن صفاتهم أيضاً قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ ﴾ [المؤمنون].

قال القاسمي: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي دخلوا في الفوز الأعظم، ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ أي متذللون مع خوف وسكون للجوارح، لاستيلاء الخشية والهيبة على قلوبهم.

[تفسير القاسمي ١٢/ ٤٥٨٨]

صفة عباد الرحمن

السؤال: ورد في القرآن لفظ: « عباد »، ولفظ: « عبيد » فما الفرق بينهما مع أنهما متضمنتان معنى العبودية للَّه ؟

الجواب: حينما يقول اللَّه سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: عباداً وعبيداً، علينا أن نبحث عن الفرق بين هاتين الكلمتين، والمتأمل فيهما يعرف أنهما ليستا مترادفتين، ولكن لكل منهما معنى يختلف عن الآخر، فكل خلق اللَّه عبيد له سبحانه، لماذا ؟ لأن هنا أموراً قهرية تجري على كل الخلق في هذه الدنيا، ولا اختيار له فيها، مثلاً أبي وأمي، بلدي، رزقي، حركة أعضائي الداخلية، الأحداث التي تقع عَليَّ، كل هذا أنا مقهور فيه؛ ولذلك فالكل عبيد من هذه الناحية.

أما قوله: « عباد » فهم الذين اختاروا منهج اللَّه بإرادتهم؛ مع أنهم كان يمكنهم أن يختاروا غيره.

إذن.. فالذي يتنازل باختياره عن حركة الحياة، هم عباد الرحمن، هم أولئك الذين أعطاهم اللَّه صفة الاختيار، في أن يفعلوا، أو لا يفعلوا، ولكنهم تنازلوا عن الاختيار الذي منحه اللَّه تعالى لهم، بمعنى أن جعلوا هواهم تبعاً لما جاء به رسول اللَّه ﷺ فطاعتهم حباً للَّه، وخشوعاً وخضوعاً له سبحانه، وليس عن قهر.

إذن.. هم وحّدوا حركة حياتهم باختيارهم مع منهج الحياة الذي شرعه اللَّه سبحانه وتعالى، حبًّا في اللَّه وتقربًا إليه، هؤلاء هم الذين ورد فيهم قول اللَّه تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الفرقان]، هؤلاء هم العباد.

اللَّه سبحانه وتعالى لم يقل: « وعبيد الرحمن »، بل قال جل شأنه: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾، لماذا ؟ لأن هؤلاء قهروا أنفسهم على حب اللَّه بمحض إرادتهم واختيارهم، فألزموا أنفسهم بمنهجه.

❁ ❁ ❁

أهل الدنيا . . . وأهل الآخرة

السؤال: لو أراد الإنسان أن يعرف هل هو من أهل الدنيا أو من أهل الآخرة، فما هي الموازين التي يزن بها أعماله ؟

الجواب: الإنسان في الدنيا يعيش قلقاً خائفاً من زوال النعمة، فالنعمة إما أن تفارق الإنسان بأن تزول عنه، أو يفارقها هو بأن يترك الحياة الدنيا، لذلك نجد أشد الناس حرصاً على الدنيا، ذلك الذي هو في نعمة يخشى أن يفارقها أو تزول عنه، ولكن النعمة في الآخرة لا تفارق الإنسان أبداً.

إذن. . فمن الخير لي أن يكون نعيمي في الآخرة حيث لا تفارقني النعمة أبداً، بل أعيش مخلداً فيها.

ولقد دخل أحد الأشخاص على رجل صالح، وقال له: أريد أن أعرف، هل أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟

قال له الرجل الصالح: إن اللّه أرحم بعباده من أن يجعل موازينهم في أيدي أمثالهم، فميزان كل امرئ في يد نفسه، لماذا ؟ لأنك تستطيع أن تغش الناس، ولكنك لا تستطيع أن تغش نفسك، ميزانك في يدك تستطيع أن تدرك أأنت من أهل الدنيا، أم من أهل الآخرة ؟

وطلب الرجل من العبد الصالح أن يشرح له كيف ذلك ؟

فقال له العبد الصالح: إذا دخل عليك من يعطيك مالًا، ودخل عليك من يأخذ منك صدقة، فبأيهما تفرح ؟ فسكت الرجل.

وهنا قال العبد الصالح: إذا كنت تفرح بمن يعطيك مالًا، فأنت من أهل الدنيا، وإن كنت تفرح بمن يأخذ منك صدقة، فأنت من أهل الآخرة، لماذا ؟ لأن الإنسان يفرح بمن يقدم له ما يحبه، فالذي يعطيني ما لًا، يعطيني الدنيا، والذي يأخذ مني صدقة، يعطيني الآخرة، فإذا كنت من أهل الآخرة؛ فإني أفرح بمن يأخذ مني صدقة أكثر من فرحي بمن يعطيني ما لًا.

ولذلك كان بعض الصالحين، إذا دخل عليه من يريد منه صدقة، يقف له،

ويقول: مرحباً بمن جاء يحمل زادي إلى الآخرة بغير أجر.

ولذلك فإننا يجب أن نرحب بالفقير والمحتاج وابن السبيل، ونغدق في الإنفاق عليهم ونحاول جهدنا سد حاجتهم لأن ذلك مفتاح الجنة لنا.

وعلينا أن نعلم أن الكلمة غير الطيبة تفسد الصدقة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣].

لماذا قال اللّه سبحانه وتعالى ذلك؟ لأن الذي يتبع الصدقة بالأذى، ليست وجهته الآخرة وليس إيمانه كاملًا، إذ كيف أهين أو أوذي ذلك الذي جاء يحمل حسناتي إلى الآخرة بغير أجر؟ أيكون هذا إيماناً، أم أنني أرحب به وأكرمه، أفرح به لأنه سيؤدي لي خير ما في الدنيا، وسيؤديه بلا أجر؟[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) قال ابن كثير: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي: من كلمة طيبة ودعاء لمسلم.
﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: عفو وغفر عن ظلم قولي أو فعلي.
﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا ابن فضيل قال: قرأت على معقل بن عبد الله عن عمرو بن دينار قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «ما من صدقة أحب إلى الله من قول معروف ألم تسمع قوله ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن خلقه ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم وقد وردت الأحاديث بالنهي عن المن في الصدقة، ففي صحيح مسلم من حديث شعبة عن الأعمش عن سليمان بن مسهر عن خرشه بن الحرّ عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المنن بما أعطى والمسبل إزاره والمنفق سلعته بالحلف الكاذب[1].
تفسير ابن كثير [١/ ٣٠١].

---

(١) أخرجه مسلم [١٠٦/ ١٧١].

رحلة الحياة، ومفهومها الواسع

السؤال: ما هي حقيقة الحياة ؟

الجواب: الحياة كلها اختبار وابتلاء يمر به الإنسان، اختبار لما يمكن أن يفعل ولا يفعل، فالمال مال اللَّه لا يملكه أحد، والأرض أرض اللَّه، لن يحتفظ بها أحد، فالإنسان يأتي إلى هذه الدنيا وحيداً ويخرج منها وحيداً، ليس معه سوى عمله.

إذن. . الرحلة كلها من المهد إلى اللحد، رحلة إيمان، وفي مفهومها الواسع اختبار لحب اللَّه تعالى في القلب، وعبادة اللَّه في الأرض عن اختيار حر، ومهما فلسفنا الأمور، أو وضعنا للدنيا موازين ومقاييس، فإننا نأتي في النهاية، إلى أنها رحلة إيمانية لاختبار حب اللَّه تعالى في القلب، دون أي شيء آخر، وإذا كانت ثمة أشياء قد وضعت في الأرض لتحث الإنسان على العمل، أو على الزرع وتعهده. . . إلخ. . ما نراه، فهذه كلها أسباب ومسببات، وضعها اللَّه سبحانه وتعالى؛ لعمارة الكون، وإذا كانت هناك مغريات قد وضعت، فتلك اختبارات الإيمان، أما من يقول: إنه يملك، أو إنه يستطيع كذا وكذا، أو أن يفعل كذا وكذا فكل ذلك في مبناه الحقيقي مجاز، لا علاقة له بجوهر الأشياء، فأنا أملك -مجازاً ما دمت حيًّا، فإذا مت، فلا أملك شيئاً، ولو كنت مالكاً للدنيا كلها، وأنا أحكم مجازاً- وأقضي، فإذا انقضت أسباب الحكم التي مكنني اللَّه بها فلا أستطيع أن أقضي ولا على فرد واحد.

ولنعلم جميعاً أن الدنيا مزرعة الآخرة، من زرع حصد، ومن جد وجد، وما هي إلا سوق قام، ثم انفض، ربح فيه الرابحون، وخسر فيه الخاسرون، فكن فيها يا عبد اللَّه كراكب استظل تحت شجرة ثم راح، كن كعابر سبيل، فإنا إلى اللَّه راجعون. فشمر عن ساعد الجد وابتغِ فيما آتاك اللَّه الدار الآخرة، واعمل ليوم تخشع فيه الأبصار والأصوات فلا تسمع إلا همساً، يوم يخزي اللَّه الكافرين والمشركين ويرفع الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلى عليين.

❁ ❁ ❁

معنى السعادة

السؤال: ما معنى السعادة من وجهة نظر فضيلة الشيخ الإمام ؟

الجواب: السعادة كل السعادة في اتباع منهج الله تعالى واتباع هدى النبي ﷺ، واقتفاء أثر الصحابة والتابعين.

ثم إن السعادة طاقة من الرضا تقبل الواقع؛ لأنه إرادة الله سبحانه.

وعلينا أن نعمل على تحسين هذا الواقع بالأسباب التي خلقها لنا الله، ولا يفتننا عن الإيمان أي سبب من أسباب الحياة. ونطمئن إلى المستقبل، لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

ذلك أن المؤمن يختلف عن الكافر. إن الكافر تفتنه الدنيا فيكفر بآيات اللَّه، إنه لا يلتفت إلى آيات الله في الكون ليتعظ، ولا يرضي بقضاء اللَّه وقدره. فيعيش حالة السخط والهم، وإن كان يُرى أثر للسعادة عليه فإنه ظاهري وغير معبر عما بداخله، لأنه لا يعزه القناعة والرضي، ولا يؤمن بيوم الحساب.



هل الدنيا غاية ؟

السؤال: بماذا نرد على الذين يقولون: إن الدنيا هي الغاية ولا شيء بعدها ؟

الجواب: إننا نقول لهؤلاء: إذا كان زعمكم هذا صحيحاً فما ذنب الذين يَشْقون في حياتهم الدنيا، ليُسعدوا غيرهم ؟ أين يكون جزاؤهم إن لم تكن إلا هذه الحياة الدنيا ؟ لو نظرنا هذه النظرة لكان هؤلاء هم أحمق الحمقى؛ لأنهم فرضوا على أنفسهم موضوعاً واحداً هو الدنيا، لا عوض لهم في شيء اسمه الآخرة.

وقضية الموت في الإسلام قضية تمد الواقع بأصل عقدي، فالموت في نظر المؤمن واقع لا بد أن يكون.

ونظرة المؤمن للحياة والموت يجب أن تكون نظرة التساند لا نظرة التعاند، ونظرة التعاضد، لا نظرة التعارض؛ لأن الحياة الدنيا في نظر المؤمن حياة موقوتة، وحياة هي موضوع المحاسبة، وما دامت موضوع المحاسبة، فيجب أن يفسح الموضوع لحال المحاسبة (١).

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرج البخاري [٦٤١٦] عن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه تعالى عنهما قال: أخذ رسول ﷺ بمنكبي فقال: « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ».
وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك.
وعن ابنِ عبَّاسٍ، قال: دَخَلَ عمرُ بنُ الخَطَّاب على النَّبيِّ ﷺ وهُوَ على حصيرٍ قَد أَثَّرَ في جنبهِ، فقالَ: يا رسولَ اللّه، لو اتَّخذتَ فِرَاشاً أَوثَرَ مِنْ هذا ؟ فقال: « يا عمرُ، ما لي وللدُّنيا، وما للدُّنيا ولي، والذي نفسي بيده، ما مَثلي ومثل الدُّنيا إلا كراكبٍ سارَ في يَوْمٍ صائفٍ، فاستظلَّ تحت شجرةٍ ساعةً مِنْ نهارٍ، ثُمَّ راحَ وتركَها ».
أخرَجه ابن حبان [٦٣٥٢]. وقال الأرناؤوط: إسناده قوي.

غضُّ البصر والبعد عن أماكن المعصية فريضة

السؤال: كيف نتجنب الوقوع في المعصية ونغلق باب الشيطان ؟

الجواب: لو نظر الرجل إلى امرأة جميلة، فالنظر إدراك، ثم استقر إعجابه بها، فالإعجاب وجدان، وحتى هذه اللحظة لم يحدث شيء، ولكننا تركنا النظر يستشري حتى أصبح العلاج صعباً، ولو أن الرجل حين يقع نظره على امرأة جميلة لا تحل له، تذكر أمر اللَّه تعالى بغض البصر، فغض بصره، هل يكون هنا أي نوع من أنواع الشقاء البشري، أو عدم الاحتمال، أو عدم القدرة ؟ بالطبع لا، قبل أن يبدأ ذلك كله أمر اللَّه سبحانه المؤمن أن يحصن نفسه، وأن يسد كل منافذ عمل الشيطان، فأمر سبحانه بغض البصر، فإذا نحن غضضنا بصرنا، انتهى كل شيء، ولذلك كان أمر اللَّه سبحانه وتعالى لنا بغض البصر، بعدم الاقتراب من الأشياء التي حرمها اللَّه سبحانه وتعالى، هو رحمة من اللَّه تعالى لعباده.

كذلك إذا رأيت أُناساً يعصون اللَّه تعالى، كأن يشربون الخمر مثلًا، فلا تجلس معهم، لماذا ؟ لأن الإغراء في هذه الحالة سيكون أقوى، فإنك إن انصرفت عنهم في اللحظة التي رأيتهم فيها، فلا إغراء في نفسك، ولكنك إن بقيت معهم كان الإغراء أشد، وكان الوقوع في المعصية أسهل، والهروب منها أصعب، واللَّه تعالى يريد أن يرحمك، فلذلك طلب منك الابتعاد عن المعاصي تماماً، منذ اللحظة الأولى، منذ النظرة الأولى، لأن الإنسان خلق ضعيفاً، ثم لماذا تفتعل معركة لم يدعك أحد إليها، وتبدد طاقة ليس مطلوباً أن تبددها، وتعرض نفسك للسقوط في محارم اللَّه تعالى ؟ اجعل هذه الطاقة للخير، واستخدمها فيما ينفع الناس، اللَّه تعالى أمرنا في كتابه الكريم: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨]. فمن هذا الباب إذا رأينا الذين يقعون في محارم اللَّه تعالى ويتعدون حدوده فلا نقعد معهم حتى ينتهوا عن الوقوع في حدود اللَّه تعالى [١].

---

(١) يقول القرطبي، قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ فيه مسألتان:
الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ بالتكذيب والرد والاستهزاء =

....

= ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ والخطاب مجرّد للنبيّ ﷺ. وقيل: إن المؤمنين داخلون في الخطاب معه. وهو صحيح؛ فإن العلة سماع الخوض في آيات الله، وذلك يشملهم وإياه. وقيل: المراد به النبيّ ﷺ وحده؛ لأن قيامه عن المشركين كان يشق عليهم، ولم يكن المؤمنون عندهم كذلك؛ فأمر أن ينابذهم بالقيام عنهم إذا استهزأوا وخاضوا ليتأدّبوا بذلك ويدعوا الخوض والاستهزاء. والخَوْض أصله في الماء، ثم استعمل بعدُ في غَمَرات الأشياء التي هي مجاهل، تشبيهاً بغَمَرات الماء فاستعير من المحسوس للمعقول. وقيل: هو مأخوذ من الخلط. وكل شيء خُضْتَه فقد خلطته؛ ومنه خاض الماءَ بالعسل خلطه. فأدّب الله عز وجل نبيّه بهذه الآية. كان يقعد إلى قوم من المشركين يَعِظهم ويدعوهم فيستهزئون بالقرآن؛ فأمره الله أن يُعرض عنهم إعراضَ مُنكِر. ودلّ بهذا على أن الرجل إذا علم من الآخر منكَراً وعلم أنه لا يقبل منه فعليه أن يُعرض عنه عَراض منكر ولا يُقبل عليه. وروى شِبْل عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قال: هم الذين يستهزئون بكتاب الله، نهاه الله عن أن يجلس معهم إلا أن ينسى فإذا ذَكَر قام. وروى وَرْقَاء عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد قال: هم الذين يقولون في القرآن غير الحق.

الثانية: في هذه الآية ردٌّ من كتاب الله عز وجل على من زعم أن الأئمة الذين هم حُجَجٌ وأتباعَهم لهم أن يخالطوا الفاسقين ويصوّبوا آراءهم تَقِية. وذكر الطبريّ عن أبي جعفر محمد بن عليّ أنه قال: لا تجالسوا أهل الخصومات، فإنهم الذين يخوضون في آيات الله. قال ابن العربيّ: وهذا دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تحِلّ. قال ابن خُوَيْزمَنْدَاد: مَن خاض في آيات الله تُركت مجالسته وهُجِر، مؤمنا كان أو كافراً. قال: وذلك منع أصحابنا الدخولَ إلى أرض العدوّ ودخولَ كنائسهم والبِيَع، ومجالسة الكفار وأهلِ البِدَع، وألاّ تُعتقد مودّتهم ولا يُسمع كلامهم ولا مناظرتهم. وقد قال بعض أهل البِدع لأبي عمران النخَعِيّ: اسمع مني كلمة؛ فأعرض عنه وقال: ولا نصف كلمة. ومثله عن أيوّب السِّختياني. وقال الفُضيل بن عِيَاض: من أحبّ صاحبَ بدعة أحبط الله عمله وأخرج نور الإسلام من قلبه، ومن زوّج كريمته من مُبْدَع فقد قطع رَحِمَها، ومن جلس مع صاحب بِدْعة لم يُعط الحكمة، وإذا علم الله من رجل أنه مُبغض لصاحب بِدْعة رَجَوْتُ أن يغفِر الله له. وروى أبو عبد الله الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَن وَقَّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام». فبطل بهذا كلّه قَولُ من زعم أن مجالستهم جائزة إذا صانوا أسماعهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ﴾ [الأنعام: ٦٨] فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ﴾ «إما» شرط، فيلزمها النون الثقيلة في الأغلب وقد لا تلزم، كما قال:

إمّا يُصِبْكَ عدوّ في مناوأة يوماً فقد كنت تَسْتَعْلِي وتنتصر =

....

۞ ۞ ۞

= وقرأ ابن عباس وابن عامر «يُنَسِّينك» بتشديد السين على التكثير؛ يقال: نَسَّى وأَنْسَى بمعنى واحد؛ قال الشاعر:

قالت سُليمى أتَسْرِي اليوم أم ثقل   وقد يُنَسِّيك بعضَ الحاجةِ الكسلُ

وقال امرؤ القيس:

*... تُنَسِّيني إذا قمت سِرْبَالي *

المعنى: يا محمد إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم فجالستهم بعد النَّهي. ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ﴾ أي إذا ذكرت فلا تقعد مع القوم الظالمين، يعني المشركين. والذِّكْرَى اسم للتذكير.

الثانية - قيل: هذا خطاب للنبيّ ﷺ والمراد أمته؛ ذهبوا إلى تبرئته عليه السلام من النسيان. وقيل: هو خاص به، والنسيان جائز عليه. قال ابن العربيّ: وإن عذَرْنا أصحابَنا في [قولهم إن] قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] خطاب للأمة باسم النبيّ ﷺ لاستحالة الشِّرْك عليه، فلا عُذْر لهم في هذا لجواز النسيان عليه. قال عليه السلام: «نَسِيَ آدمُ فنَسِيت ذرِّيَّتُه» خرجه الترمذيّ وصحّحه. وقال مخبراً عن نفسه: «إنما أنا بشر مثلكم أنسَى كما تَنْسَون فإذا نسيت فذكروني». خرّجه في الصحيح، وأضاف النسيان إليه. وقال وقد سمع قراءة رجل: «لقد أذكَرني آيةَ كذا وكذا كنتُ أنسيتها». واختلفوا بعد جواز النسيان عليه؛ هل يكون فيما طريقه البلاغ من الأفعال وأحكام الشرع أم لا. فذهب إلى الأول - فيما ذكره القاضي عياض- عامة العلماء والأئمةُ النُّظّار؛ كما هو ظاهر القرآن والأحاديث، لكن شرط الأئمة أن الله تعالى ينبّهه على ذلك ولا يُقرّه عليه. ثم اختلفوا هل مِن شرط التنبيه اتصالُه بالحادثة على الفَوْر، وهو مذهب القاضي أبي بكر الأكثر من العلماء، أو يجوز في ذلك التّراخي، ما لم يَنخرِم عمره وينقطع تبليغه، وإليه نحا أبو المَعالي. ومنعت طائفة من العلماء السَّهوَ عليه في الأفعال البلاغِية والعبادات الشرعية؛ كما منعوه اتفاقاً في الأقوال البلاغِية، واعتذروا عن الظواهر الواردة في ذلك؛ وإليه مال الأستاذ أبو إسحاق. وشذّت الباطِنية وطائفة من أرباب علم القلوب فقالوا: لا يجوز النسيان عليه، وإنما يَنْسَى قصداً ويتعمّد صورةَ النسيان ليَسُنّ. ونَحَا إلى هذا عظيم من أئمة التحقيق وهو أبو المظفر الإسفَرَاييني في كتابه (الأوسط) وهو منحى غيرُ سديد، وجمعُ الضدّ مع الضدّ مستحيل بعيد.

[تفسير القرطبي: ٧/ ١٢-١٤].

دعوة المظلوم

السؤال: إننا نرى أحياناً مظلوماً ينصره اللّه على الظالم الأقوى منه، مع أن هذا المظلوم لا يملك أسباب النصر الدنيوية فما هو تعليل فضيلتكم لذلك ؟

الجواب: الذي يثير هذا التعجب، أن يأتي القدر على عكس ما هو متوقع كما يقولون في المثل: « تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن »، مثلًا كأن تذهب لتشي بإنسان أو تقول فيه سوءاً؛ حتى يفصل من عمله، فتكون سبباً في ترقيته إلى مركز أعلى، حينئذ لا تكون الأسباب هي التي تتفاعل، فالنتيجة المنطقية لهذه الوشاية، هي إصابة من أردت أن تشي به بالسوء، تلك هي الأسباب، ولكن شاء اللّه تعالى أن يأتي له بالخير، حينئذ لا تكون المقدمات منسجمة مع نتائج قوانين الأسباب، ولكنها تخرج منها إلى طلاقة القدرة.

وطلاقة القدرة ليست غيباً عنا، فكل إنسان فينا يرى طلاقة القدرة كل يوم في العالم، فحاكم يذهب، وآخر يجيء، وصاحب سلطان أو مال، يصبح بلا سلطان، وبلا مال في ساعات، ونرى مظلوماً ضعيفاً نصره اللّه تعالى على ظالم قوي، بل إن كلمة يارب التي تخرج من قلب مظلوم لا حول له ولا قوة، هي استنجاد باللّه تعالى بعد أن عجزت الأسباب، فالذي يقول: يارب، لم يعد له إلا أن يتجه إلى اللّه تعالى خالق الأسباب الذي أمره أن يقول للشيء كن فيكون، ويستنجد به تعالى، فهو وحده سبحانه القادر على أن يعيد للضعيف حقه وأن يقتص للمظلوم من ظالميه[(١)].

(١) عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما أن النبي ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال: « واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين اللّه حجاب ». رواه البخاري[(١)].
قال الحافظ في الفتح: واتق دعوة المظلوم: أي تجنب الظلم لئلا يدعو عليك المظلوم. =

(١) أخرجه البخاري [٢٤٤٨].

....

= وفيه تنبيه على المنع من جميع أنواع الظلم، وأنها ليس لها صارف يصرفها ولا مانع وأنها مقبولة وإن كان عاصياً.

قال الطيبي: اتق دعوة المظلوم: تذييل لاشتماله على الظلم الخاص من أخذ الكرائم وعلى غيره.

فإنها ليس بينها وبين اللَّه حجاب: تعليل للاتقاء وتمثيل للدعاء كمن يقصد دار السلطان متظلماً فلا يحجب. ا.هـ.

قال المناوي: اتقوا دعوة المظلوم: أي اجتنبوا دعوة من تظلمونه، وذلك مستلزم لتجنب جميع أنواع الظلم على أبلغ وجه وأوجز إشارة وأفصح عبارة لأنه إذا اتقى دعاء المظلوم لم يظلم، فهو أبلغ من قوله: لا تظلم فإنك إن ظلمت ودعا عليك استجيب له، وإن كان عاصياً مجاهراً. ا.هـ.

عن خزيمة بن ثابت قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام، يقول اللَّه: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين». رواه الطبراني[(١)].

قال المناوي: فإنها تحمل على الغمام: أي يأمر اللَّه برفعها حتى تجاوز الغمام، أي: السحاب الأبيض حتى تصل إلى حضرته تقدس.

وقيل الغمام: شيء أبيض فوق السماء فإذا سقط لا تقوم به السموات السبع بل يتشققن. قال اللَّه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، وعلى هذا فالرفع والغمام حقيقة.

قال القاضي: استأنفت لهذه الجملة لفخامة شأن دعاء المظلوم واختصاصه بمزيد قبوله ورفعه على الغمام. وفتح أبواب السماء له مجاز عن إثارة الآثار العلوية وجميع الأسباب السماوية على انتصاره بالانتقام من الظالم وإنزال البأس عليه.

يقول تعالى: وعزتي وجلالي لأنصرنك: أي لاستخلصن لك الحق ممن ظلمك.

ولو بعد حين: أي أمد طويل. بل دل به سبحانه على أنه يمهل الظالم ولا يهمله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ [الكهف: ٥٨]. ا.هـ.

عن ابن عمر رضي اللَّه عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة». رواه الحاكم[(٢)].

قال المناوي: كأنها شرارة: كناية عن سرعة الوصول؛ لأنه مضطر في دعائه، وقد قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، وكلما قوي الظلم قوي تأثيره في النفس فاشتدت ضراعة المظلوم فقويت استجابته. والشرر ما تطاير من النار في =

---

(١) رواه الطبراني [١/١٨٦]، وانظر الصحيحة [٨٧٠]، وصحيح الجامع [١١٦].

(٢) رواه الحاكم في المستدرك [١/٢٩]، وانظر صحيح الجامع [١١٧]، والصحيحة [٨٧١].

....

❁ ❁ ❁

= الهواء، شَبَّه سرعة صعودها بسرعة طيران الشرر من النار. اهـ.
عن أنس رضي اللَّه عنه أن النبي ﷺ قال: « اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً، فإنها ليس دونها حجاب ». رواه أحمد[١].
قال المناوي: وإن كان كافراً: معصوماً[٢] فإن دعوته إن كان مظلوماً مستجابة وفجوره على نفسه.
ليس دونها حجاب: أي ليس بينها وبين القبول حجاب مانع، والحجاب هنا ليس حسياً لاقتضائه نوعاً من البعد واستقرار في مكان، والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك، وأقرب لكل شيء من نفسه.
عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: « ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن دعوة الوالد، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم ». رواه الترمذي وابن حبان وأحمد[٣].
قال المناوي: دعوة الوالد لولده، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم على ظالمه؛ لأن السفر مظنة حصول انكسار القلب بطول الغربة عن الأوطان، وتحمل المشاق، والانكسار من أعظم أسباب الإجابة، والمظلوم مضطر.
وعلينا أن نتقي دعوة المظلوم بالبعد عن الظلم، حتى لا نعرض أنفسنا لدعائه لأنه مستجاب، وإن كان من غير المسلمين كما دلت السنة الشريفة على ذلك[٤]

---

(١) رواه أحمد في المسند [٣/١٥٣]، وانظر صحيح الجامع [١١٨]، والصحيحة [٧٦٦].
(٢) كأن يكون معاهداً أو ذمياً أو مستأمناً. واللَّه أعلم.
(٣) رواه الترمذي [٢/٢٥٦]، وابن حبان [٢٤٠٦]، وأحمد في المسند [٢/٢٥٨]، وانظر الصحيحة [٥٩٦].
(٤) كتاب الظلم والظالمون لأمة الحق، إيمان بنت عبد الفتاح.

اضطهاد الأقليات المسلمة

السؤال: الملاحظ أن الأقليات المسلمة مضطهدة في الدول غير المسلمة، فماذا تفعل هذه الأقليات إزاء اضطهادها حتى تحتفظ بدينها ؟

الجواب: إن الكفار في لجوئهم إلى القوة والعنف والقتل في محاربة الدين الإسلامي، إنما يفعلون ذلك لأنهم لا يستطيعون مواجهة هذا الدين بالحوار والإقناع، وعلينا أن نعلم أن هؤلاء الكفار ليسوا بمعجزين في الأرض، وأنهم لا يساوون عند اللَّه شيئاً. وإنما هي ابتلاءات، فيبتلي اللَّه المؤمنين بهؤلاء الكافرين ليمحصهم ويميز الخبيث من الطيب.

إن موكب الإيمان لا بد أن يستمر، والدعوة إلى اللَّه قائمة إلى قيام الساعة وعلى المؤمن أن يعرف أنه لا بد من المواجهة مع الكفار، ولكن إذا حدث أن تمكَّن الكفر في بقعة من الأرض، وكان مصير المؤمنين إما أن يُقتَّلوا أو يرجعوا عن دينهم، حينئذ يحق لهم أن يفروا بدينهم إلى مكان آخر، لكن على أن يعودوا وهم أكثر قوة.

اللَّه سبحانه وتعالى قادر على أن ينصر دينه دون معونة أو حاجة من أحد، فهو سبحانه الغالب على أمره ولكن هذا الذي يحدث إنما هو ابتلاء من اللَّه سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين؛ ليثيبهم عليه في الآخرة ويدخلهم الجنة.

واللَّه سبحانه وتعالى يعلم أن الذين يتخذون طريق الإيمان والدعوة إليه يُحارَبون من الكفار؛ ويضيق عليهم في حياتهم، هؤلاء يفتح اللَّه لهم من رحمته ما يبدل هذا الضيق سعة، ويحول هذا الهم فرجاً، وييسر لهم من السبل ما يعوضهم به عما يلاقونه من أعداء الدين، ثم يثبتهم باليقين ويريهم من آياته ما يثبتهم به على المنهج، ويثلج صدورهم بأنهم اختاروا الطريق المستقيم.

۞ ۞ ۞

نوم الدنيا ويقظة الآخرة

السؤال: يقول الإمام عليّ رضي اللّه تعالى عنه: « الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا »، ماذا يعني بنومنا أثناء اليقظة وانتباهنا أثناء النوم الأبدي ؟

الجواب: إن الإنسان يظن أنه يعيش في الدنيا متيقظ، منتبه، فإذا جاء الموت، جاء كما يقولون النوم الأبدي، ولكن الحقيقة غير ذلك، فالناس في هذه الدنيا نيام، وماذا يحدث للنائم ؟ إنه لا يرى ما حوله، ولا ينتبه لحقيقة ما يجري.

وكذلك نحن في الدنيا، لا نرى ما حولنا؛ لأن الروح موجودة في داخل الجسد، يحد من رؤيتها ذلك الطين الذي خلق منه الإنسان؛ ولذلك فهي لا ترى الملائكة، ولا ترى الجان، ولا ترى كثيراً مما يحدث في الدنيا، ولو رأته لأحسّت بحقائق الكون المستورة عنها، ولعلمت يقيناً بالغيب، وما يحدثنا اللّه تعالى به عن أشياء لا نسمعها، ولا نراها، مثل عالم الجن، وعالم الملائكة.

ولذلك عندما تخرج الروح من الجسد ترى ما كان محجوباً عنها، وتنتبه وتفيق وتعلم أن ما كان في الدنيا ليس هو كل شيء، وأن الحصول على كل شيء، ولو بالباطل هو قانون الحياة الدنيا.

عندما تخرج الروح من الجسد تعلم ما هي قوانين الحياة، وما هي قوانين ما بعد الحياة، وترى أشياء كثيرة لا تراها ولم تكن تصدقها في الحياة الدنيا.

إذن.. الناس في الحياة الدنيا، إنما هم في الحقيقة نيام، مستورة عنهم غيبيات كثيرة، تقال لهم، ولكن لا يرونها، فإذا ماتوا انتبهوا، وعرفوا كل شيء مصداقاً لقول اللّه: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق: ٢٢][1].

---

(١) قال ابن كثير: في تفسير الآية ﴿... فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ حكى ابن جرير ثلاثة أقوال في المراد بهذا الخطاب في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾.

أحدها: أن المراد بذلك الكافر رواه عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما وبه يقول الضحاك ابن مزاحم وصالح بن كيسان. =

....

۞ ۞ ۞

= **والثاني**: أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة والدنيا كالمنام وهذا اختيار ابن جرير ونقله عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

والثالث: أن المخاطب بذلك النبي ﷺ وبه يقول زيد بن أسلم وابنه والمعنى على قولهما لقد كنت في غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك فبصرك اليوم حديد، والظاهر من السياق خلاف هذا بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو.

والمراد بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ يعني من هذا اليوم ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أي قوي لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصراً حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة لكن لا ينفعهم ذلك قال الله تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم: ٣٨] وقال عز وجل: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢].

تفسير ابن كثير [٤/ ٢٢٦].

المصدر الذي يستمد منه المؤمن شجاعته

السؤال: لماذا كان المؤمن شجاعاً دائماً حتى ولو كان أضعف من خصمه ؟

الجواب: إن الإنسان إذا طبق منهج اللّه تعالى لا يصيبه الخوف أبداً؛ لأنه يعلم حتى وإن كان ضعيفاً يواجه خصماً شرساً؛ أن اللّه معه، واللّه أقوى من خصمه؛ ولذلك فهو لا يستسلم، ولا يهلع أبداً، حتى ولو وقف في مواجهة أقوى البشر وأشرهم، لأنه متيقن أن اللّه معه وناصره، فيصبح ذلك القوي أمامه ضعيفا، فلا يخشاه. وهكذا يورث الإيمان شجاعة في النفس، وقوة في الوقوف في وجه أي ظالم جبار مهما بلغ؛ فلا تَهِنُ النفس، حتى ولو واجه الإنسان الموت؛ لأنه إذا كان الإنسان مدافعاً عن ماله أو عرضه؛ مات شهيداً، والمؤمن لا يخشى الشهادة[1]، ولكنه يتمناها؛ ولذلك فإن المؤمن لا يمكن أن يُسْتَعْبَد، ولا يخشى الوقوف أمام طاغية جبار، ما دام في صدره إيمان. إيمانه يجعله يحس بأنه في مَنَعَةٍ من عدوه، كما أن إيمانه وشجاعته تجعلانه يقدم على فعل الخير ونصرة المظلوم والوقوف في وجه الظالم ليزيد من حسناته، ويتقرب إلى اللّه تعالى، فهو يعلم أن الباقي هو اللّه وحده، وأن ما ينفعه من عمل، هو ما قُصِدَ به وجه اللّه تعالى فقط.



(١) عن سعيد بن زيد عن النبي ﷺ قال: «من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله، أو دون دمه، أو دون دينه فهو شهيد» رواه أبو داود [٤٧٧٢] وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٣٩٩٣].

ماذا تقول عندما ترى شيئاً جميلًا ؟

السؤال: إن اللَّه خلق الجمال ليدلنا على بديع صنعه، فماذا نقول عندما نرى شيئاً جميلًا ؟

الجواب: عندما ترى جوهرة جميلة مثلًا، فإنك تمتدح جمالها. . والجوهرة لا دخل لها في أن تكون جميلة أو غير جميلة، وقد ترى زهرة جميلة، أو خلقاً من خلق اللَّه سبحانه وتعالى يستهويك فيه صفة الجمال، وهذا الخلق لا دخل له بالجمال الذي يظهر به، فأنت في هذه الحالة تخلط فتمتدح الخلق بدلًا من امتداح الخالق، ولكنك إذا رأيت شيئاً جميلًا من خلق اللَّه تعالى، فاعلم أن اللَّه تعالى صنعه ليذكرك بعظمة الخالق، ودقة الخالق، فلا تخلط بين المدح وتمتدح المخلوق، فإذا رأيت شيئاً جميلًا، فلتقل سبحان اللَّه في خلقه، تبارك اللَّه أحسن الخالقين، ولتجعلك هذه الأشياء في الكون تتذكر عظمة الصانع سبحانه.

حمد اللّه تعالى والرضي بالقدر
حجاب من المعصية

السؤال: كيف يبتعد الإنسان عن المعصية ؟

الجواب: حينما نحمد اللّه سبحانه وتعالى، فإن صيغة الحمد تأتي على أشياء كثيرة من النعم، فاللّه سبحانه وتعالى محمود لذاته، واللّه سبحانه وتعالى محمود لصفاته، واللّه سبحانه وتعالى محمود لنعمه، واللّه سبحانه وتعالى محمود لرحمته، واللّه سبحانه وتعالى محمود لأنه الذي يستحق الحمد.

والحمد للّه: مفتاح للقلب، وشحنة إيمانية كبرى، تماماً كما تضع بطارية لتشحن، ثم بعد ذلك تنطلق بها في الحياة، فأنت حين تقول: الحمد للّه، تتذكر نعم اللّه عليك، وحين تأتي معصية، فإنك تقول: لقد أنعم اللّه عليَّ بكذا وكذا، هل أنا أحمد بالمعاصي؛ حينئذ تجد نفسك تبتعد عن المعصية ولا تقترب منها، لماذا ؟ لأن بداية المعصية في الإنسان، هي نسيانه نعم اللّه، ونسيانه الحمد، ذلك أن الإنسان حين يَقْدُم على معصية، أو يعتزم المعصية، لو تذكر نعمة اللّه عليه، وما أعطاه له، وكيف أنه مثلًا يستخدم هذه النعمة التي هي فضل اللّه عليه في معصية اللّه لاستحى وانصرف، ولكن المعصية تبدأ دائماً بنسيان المنعم، أو بنسبة النعمة والفضل إلى الإنسان، بدلًا من اللّه سبحانه وتعالى، فالإنسان الحامد للّه، الذاكر لنعمته، الراضي بقضائه وقدره نادراً ما يقع في معصية، وإذا حدث واستذله الشيطان فإنه يسارع إلى التوبة، ولكن الإنسان الذي لا يذكر نعم اللّه عليه إما جاحد لها، أو متخذ لسبيل قارون الذي قال: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾ [القصص: ٧٨] ذلك الإنسان الذي ينسب الفضل لذاته، هو المقبل على المعصية، المعتز بالإثم، الذي لا يوجد رادع داخل نفسه يجعله يذكر اللّه تعالى.

المؤمن أذكى الناس. . . لماذا ؟

السؤال: من المؤسف أن المؤمن في نظر البعض لا يتمتع بدرجة الذكاء التي يتمتع بها غير المؤمن فهل هذه النظرة خطأ أم صواب ؟

الجواب: بعض الناس يعتقد أن المؤمن إنسان أبله، وهم ينظرون إليه على أنه مسكين، فالناس تتمتع بما حباها اللَّه به من مال؛ فتشتري فاخر الثياب، وفاخر الأثاث، وفاخر السيارات، وفاخر متاع الدنيا، وهو يأخذ نقوده ويعطيها للفقراء، بل يتعب في المال ويشقى، ثم يوزعه على الناس.

الناس تتمتع بما حَرَّمه اللَّه في الدنيا من متع حسية، وهو يحرم نفسه، ويغض بصره، إنسان حرم نفسه من معظم ماله، ومن زينة الدنيا، ولكن الحقيقة أن المؤمن أذكى الناس جميعاً، لماذا ؟ لأن المال الذي يكتسبه يستطيع أن يتمتع به على قدر ما في الدنيا من متاع محدود، وعلى قدر طاقة البشر وحدودهم في التمتع، ولكنه حين يدفع هذا المال لوجه اللَّه، فإنه في هذه اللحظة يختار ثلاثاً:

الأولى: أن هذا المال يبقى ولا يفنى، فماله في الدنيا يفنى وماله عند اللَّه يبقى؛ لذلك فهو بدلًا من أن يُفْني هذا الذي اكتسبه في لحظة (١)، يتمتع به ثم يزول، جعله باقياً له أبداً إلى يوم القيامة، فأيهما الذكي؟ ذلك الذي يُفْني ماله في لحظات، أم ذلك الذي يختار أن يُبقي هذا المال بأن ينفقه في سبيل اللَّه تعالى فيدخره له؟(٢) هذه واحدة.

---

(١) عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: « يقول العبد: مالي، مالي، وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأبقى. وما سوى ذلك فهو ذاهبٌ، وتاركه للناس ». أخرجه مسلم [٢٩٥٩].
وهو عند الترمذي [٢٣٤٢] عن مطرف عن أبيه أنه انتهى إلى النبي ﷺ وهو يقول: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١] قال: « يقول ابن آدم: مالي، مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت ».

(٢) أخرج مسلم [١٠١٤/ ٦٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تصدق أحد بصدقة من طَيِّب ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن =

أما الثانية: فقد كان هذا المال يستمتع به حسب قدرات البشر، وقدرات البشر محدودة، ولكنه رفض ذلك، واختار أن يمتعه اللّٰه به في الآخرة حيث المتعة بلا حدود، ففي الدنيا، قدرة المال هي التي ستمتّع صاحبه، أما في الآخرة، فإن المتاع لا يكون بقدرة المال، بل بقدرة اللّٰه سبحانه وتعالى، ومن هنا فإنه ترك محدود القدرة؛ ليذهب لمن ليس لقدرته حدود ولا قيود، فهل هذا غباء، أم ذكاء؟

والثالثة: أنه قد يدفع ماله في الدنيا فيما يضره ولا ينفعه، فإذا أنفق المال مثلًا في فاخر الطعام، أصابته الأمراض، وإذا أسرف في شرب الخمر مثلًا، أو في الملذات الحسية، قد ينهدم جسمه، وتضيع قوته، وتضعف قدرته. . .إلخ. ما يمكن أن يصرف فيه المال دون عائد.

إذن. . فإنفاق المال في الدنيا قد يصيب صاحبه بالضرر كما يصيبه بالنفع الظاهري، كلا الاحتمالين موجود، ولكن ماذا عن إنفاق المال من أجل الآخرة، إنه يحمل النفع وحده، ولا يحمل الضرر أبداً، فالمؤمن قد اختار أن ينفق ماله فيما ينفعه، بدلًا من أن ينفقه فيما قد ينفعه أو قد يضره، فأيهما هو الذكي الفطن ؟ ذلك الذي ينفق ماله فيما ينفعه ؟ أو ذلك الذي ينفق ماله فيما قد ينفعه أو قد يضره ؟!!

❁ ❁ ❁

= بيمينه، وإن كانت تمرة، فتربو في كفِّ الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل، كما يُرَبّي أحدكم فَلُوَّهُ أو فصيله».

سَمِّ اللّٰه قبل بدء أي عمل

السؤال: ما هي الحكمة وراء بدء كل عمل باسم اللّٰه تعالى ؟

الجواب: حين تبدأ أي شيء باسم اللّٰه؛ فإنك تنقل الأمر من قدرتك المحدودة إلى قدرة اللّٰه المطلقة، فيكون اللّٰه سبحانه وتعالى معك، يسخر لك ما لا تستطيع تسخيره، وييسر لك الأمر، ويبارك لك فيما تفعل، فأنت إذا كنت فلاحاً وذهبت لحراثة الأرض لتعطي لك الزرع، فلا بد أن تتذكر أولًا أنك لم تخلق الأرض، ولم تخلق عنصراً من عناصرها، وأنت لم تخلق البذرة التي وضعتها في الأرض، إنما هي من خلق اللّٰه تعالى فقد جاء الإنسان إلى الدنيا فوجد اللّٰه سبحانه وتعالى قد أعدها له، وأنت لم تخلق المياه التي نزلت من السماء، ولم تنزلها في هذه البقعة بالذات[1]، والدليل على ذلك أن العالم مليء بالصحارى بينما مناطق أخرى تصيبها الفيضانات من كثرة الأمطار، ولو كنت الذي فعلت هذا، لاستطعت أن تروي الصحراء، وأن تُوجد فيها البحار والأنهار، ولكنك لم تستطع، ولن تستطيع، وكل ما يقال مخالفاً لذلك، فهو ظن، وليس علماً ولا حقيقة، فلا أنت خلقت الأرض، ولا أنت خلقت البذرة، ولا أنت أنزلت المياه، كل ما في الأمر، أنك أعملت فكرك الذي خلقه اللّٰه تعالى في المادة التي خلقها اللّٰه تعالى، بالطاقة التي خلقها اللّٰه تعالى.

إذن . . فعملك هنا محدود، ولذلك حين تُقْبل على الزراعة، يجب أن تقول: « باسم اللّٰه »، لو أنك لم تقل: « باسم اللّٰه » ، لنسبت الفضل إلى غيره، وباللّٰه عليك لو أنك بدأت باسمك أنت، وأنت لا قدرة لك على خلق الأرض، ولا إنزال المطر، ولا إيجاد البذرة، لا قدرة لك على أن ترغم الأرض أن تنبت،

---

(١) يقول اللّٰه عز وجل: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الواقعة] .

ولا أن تخلق أرضاً غير تلك التي خلقها اللَّه لتزرعها، ولا أنت تستطيع أن تخلق بذرة من عدم، ولا أن تنزل الماء، فما هي قدرتك التي تبدأ بها ؟ وأي قدرة تلك التي تدفعك أن تستغني عن اللَّه سبحانه وتعالى لتنسب الفضل إلى نفسك ؟! لا توجد قدرة إنسانية تستطيع أن ترغم عملاً من الأعمال في الدنيا على أن ينفعل بها.



سر اختلاف الناس في الذكاء والمواهب

السؤال: إننا جميعاً أمام اللَّه سواء، ولكن أقدارنا وأرزاقنا مختلفة في الحياة، فلماذا لم يخلقنا اللَّه على قدر واحد من الذكاء والمواهب ؟

الجواب: إن اللَّه لم يخلقنا جزافاً، إنما خلق اللَّه كل إنسان ورزقه موهبة معينة ليتكامل مع بقية الناس، لذلك نجد أن كل إنسان يختلف عن الآخر في الصفات والمميزات والذكاء.

إن معطيات الحق لكل إنسان تختلف من حيث الموهبة والقدرة، منا من ينبغ في الهندسة أو الطب أو العلوم أو القانون، أو الأدب أو القدرة العضلية، ونكون جميعاً هرماً اجتماعياً نتلقى فيه العلم والنجاح على قدر الجهد والموهبة، وإذا كان الوجود الاجتماعي هرمياً من ناحية العمل؛ فإن قدر كل منا محفوظ عند اللَّه، وقد أوصي اللَّه أقوانا في الحياة بأضعفنا فيها، وأمر الغني برعاية الفقير، لكن الهرم الاجتماعي له مهمة، هي أن يوجِد لكل إنسان عملًا يناسبه ويرضي به، ويكون الهرم الاجتماعي ثابتاً على ركائز قوية وفي نفس الوقت يستقبل ذلك الهرم الاجتماعي صعود أصحاب المواهب المختلفة إلى مكانهم في ذلك الهرم الاجتماعي.

لذلك كان خلق اللَّه لكل إنسان هو عن تقدير وحكمة، ولهذه الموهبة ولتلك القدرات مكانها في صناعة الانسجام الاجتماعي في الهرم الثابت الذي يتكون من المجتمع.

وكل منا مختبر من الخالق في إتقان عمله وفي الأخذ بأسباب إتقان العمل، ذلك أننا قلنا من قبل: إن الإسلام ليس أركاناً تعبدية فقط، ولكن العبادة تكتمل بقيام بنيان الإسلام، أي بإتقان كل منا لعمله وأن يحفظ كل منا قدر أخيه.

وإذا تفاوتت أقدارنا في الحياة؛ فأصبح أحدنا رئيساً للآخر أو للآخرين، فالإيمان يحذرنا من أن نفتن بمكانة القيادة في المجتمع؛ لأنها اختيار من اللَّه لحكمة يعلمها اللَّه تعالى.

❁ ❁ ❁

المنصب والجاه اختبار من اللّٰه تعالى

السؤال: ما الرأي فيمن يتبوأ منصباً؛ فيتعالى على الناس الذين جعلهم الله سبباً في وصوله إلى هذا المنصب، ويتنكر لمن ساعدوه ؟

الجواب: إن تأمل حركة الناس في المجتمعات المعاصرة يعطينا الكثير من الدروس التي تجعل القلب يخشع لقوة الله، التي هي فوق كل قوة.

فمثلًا قد نجد إنساناً بوأه الله مكانة رفيعة بين الناس وولاه عليهم، هذا الإنسان قد يأخذ الأمانة بحقها فيؤدي للناس حقوقهم، يأخذ من الغني ليعطي الفقير، ويقتص من القوي للضعيف وينتصر للمظلوم من الظالم، ويقيم شرع الله في الأرض.

هنا يكون هذا الإنسان نجح فيما ابتلاه الله تعالى به. وآخر، ما أن يجلس على كرسيه أو يتبوَّأ منصبه الجديد حتى يبدأ في الابتعاد عمن جعلهم اللّٰه سبباً في قوته ومكانته، إنه لا يريدهم أن يذكِّروا الناس بما كان عليه من ضعف. فيبعد أهل الصلاح ويقرب أهل الرياء والنفاق وتنمو من حوله طبقة طفيلية تسعى في الأرض فساداً، وتكمم الأفواه فلا تسمع أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر. هذا الإنسان سقط في الفتنة فاستذلته أهواء الدنيا، نعوذ بالله من الخذلان.

إنه يخشى رؤية من ساندوه؛ لأنه صار متكبراً، لهذا نجد الخالق الأكرم يدير دورة الحياة؛ ليجعل المتكبر ذليلًا حتى يعرف أن ما أعطاه له اللّٰه إنما كان عطاء اختبار، لا عطاء من أجل التجبر والتكبر.

أما من يتواضع دائماً ويذكر فضل اللّٰه عليه؛ فإن اللّٰه يقذف محبته في نفوس الناس جميعاً ومن ساعدوه، ومن ولاه اللّٰه عليهم؛ لذلك يقول الرسول ﷺ: « مَنْ تواضَعَ لله رَفَعهُ »(١).

❁ ❁ ❁

---

(١) سبق تخريجه.

اختيار الأكْفاء للمناصب القيادية

السؤال: هل وضع الإسلام معايير لاختيار الرجال الأكْفاء في المناصب القيادية، أو ترك المسألة بدون ضوابط ؟ وماذا يحدث لو وضعنا الرجل في منصب فوق طاقته ؟

الجواب: الإسلام جعل لكل منا ولاية في الأرض، والنبي ﷺ يقول: «كلكم راع وكلُّ راع مسئولٌ عن رعيته» ، وكلمة « كلكم » تكون كالسور الذي يحيط بالمؤمنين، ثم يفصل الرسول الكريم ﷺ ألوان الولايات، الإمام راعٍ، المرأة راعية، الرجل راع، وهكذا نجد أن لكل مؤمن ولاية هو مسئول عنها.

فإذا أراد المؤمن ألا يفسد في مجال ولايته فعليه أن يحسن العمل في رعاية مجال هذه الولاية.

« من ولاه اللَّه عز وجل شيئاً من أمر المسلمين، فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب اللَّه عنه دون حاجته وخلته وفقره » .

هكذا يكون الحاكم مقيداً بضرورة اختيار الرجل الملائم والمناسب للمهمة التي يجب أن يضطلع بها، فلا محسوبية ولا قرابة، إنما لا بد من أن يختار الحاكم في سلطانه الزمني من هو قادر على إتقان الولاية على الناس في مختلف مجالات إدارة أمورهم.

وهكذا جعل اللَّه عين كل مسلم ساهرة في حدود ولاية المسلم.

ولهذا فحين يحدث الإصلاح؛ فلنعلم أن كل مسلم قد قام بولايته حق القيام، وأتقن عمله حق الإتقان.

وإذا نشأ فساد في الأرض؛ فلنعلم أن هناك من أهمل، وشاركه الآخرون في

---

(١) أخرجه البخاري [٥٢٠٠] من حديث ابن عمر رضي اللَّه تعالى عنهما.

(٢) رواه أبو داود [٢٩٤٨] من حديث معاوية رضي اللَّه تعالى عنه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٢٥٥٥]، وانظر الصحيحة رقم [٦٢٩].

الإهمال، فيجتمع الإهمال ليصير فساداً (١).

---

(١) قال رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الروم: ٤١].

قال ابن القيم: نزلت هذه الآية على أحوال العالم، وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث من تلك الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات آخر متلازمة بعضها آخذ برقاب بعض، وكلما أحدث الناس ظلماً وفجوراً؛ أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم وأهويتهم ومياههم وأبدانهم وخلقهم وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم. ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هي اليوم، كما كانت البركة فيها أعظم.

وقد روى الإمام أحمد بإسناده: أنه وجد في خزائن بعض بني أمية صرة فيها حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليها: هذا كان ينبت أيام العدل، وهذه القصة ذكرها في مسنده على أثر حديث رواه.

وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة بقية عذاب عذبت به الأمم السالفة ثم بقيت منها بقية مرصدة لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم، حكماً قسطاً وقضاء عدلاً. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله في الطاعون: «إنه بقية رجز أو عطاب أرسل على بني إسرائيل» (أ)

وكذلك سلط الله سبحانه وتعالى الريح على قوم سبع ليال وثمانية أيام، ثم أبقى في العالم منها بقية في تلك الأيام، وفي نظيرها عظة وعبرة، (ب) وقد جعل الله سبحانه أعمال البر والفاجر مقتضيات لآثارها في هذا العالم اقتضاء لا بد منه، فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سبباً لمنع الغيث من السماء والقحط والجدب، وجعل ظلم المساكين والبخس في المكاييل والموازين وتعدي القوي على الضعيف سبباً لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استرحموا، ولا يعطفون إن استعطفوا، وهم في الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت في صور ولاتهم، فإن الله سبحانه بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم فى قوالب وصور تناسبها؛ فتارة بقحط وجدب، وتارة بعدو، وتارة بولاة جائرين، وتارة بأمراض عامة، وتارة بهموم وآلام وغموم تحضرها نفوسهم لا ينفكون عنها، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم، وتارة بتسليط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزاً؛ لتحق عليهم الكلمة وليصير كل منهم إلى ما خلق له، والعاقل يُسَيِّرُ بصيرته بين أقطار العالم؛ فيشاهده، وينظر مواقع عدل الله وحكمته. =

(أ) أخرجه البخاري بنحوه [٥٧٣٤] من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها.

(ب) قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ... ﴾ [الحاقة].

زاد المعاد [٤/ ٣٦٣-٣٦٤].

....

❁ ❁ ❁

= وحينئذ يتبين له أن الرسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون، وإلى دار البوار صائرون، والله بالغ أمره لا معقب لحكمه ولا راد لأمره. وبالله التوفيق.

زاد المعاد [٤/ ٣٦٣-٣٦٤].

وقال في بدائع التفسير: قال مجاهد: إذا وُلّي الظالم سعى بالظلم والفساد؛ فيحبس الله بذلك القطر؛ فيهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد، ثم قرأ: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

ثم قال: أما والله ما هو بحركم هذا؛ ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر.

وقال عكرمة: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾، أما إني لا أقول لكم: بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء. وقال قتادة: أما البر فأهل العمود، وأما البحر فأهل القرى والريف.

قلت: وقد سمى الله تعالى الماء العذب بحراً فقال: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ [فاطر: ١٢]. وليس في العالم بحر حلو واقف، وإنما هي الأنهار الجارية، والبحر المالح هو الساكن، فسمى القرى التي عليها المياه الجارية باسم تلك المياه.

وقال ابن زيد: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ قال: الذنوب. قلت: أراد أن الذنوب سبب الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها، فيكون اللام في قوله: ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لام العاقبة والتعليل، وعلى الأول فالمراد بالفساد: النقص والشر، والآلام التي يحدثها الله في الأرض عند معاصي العباد، فكلما أحدثوا ذنباً أحدث الله لهم عقوبة. كما قال بعض السلف: كلما أحدثتم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة. والظاهر، والله أعلم، أن الفساد المراد به: الذنوب وموجباتها ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾ فهذا حالنا وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا، ولو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة.

[بدائع التفسير. ج٣/ ٣٩٤-٣٩٦]

عدم تكافؤ الفرص وشقاء المجتمع

السؤال: أحياناً تكون الفرص في المجتمع غير متكافئة، ومن يحصل على فرصة يستغلها استغلالًا سيئاً، فما الرأي في من يسيء استغلال منصبه أو يقرب جماعه على حساب آخرين ؟ وما أثر ذلك على المجتمع ؟

الجواب: الذي يأخذ فرصة أعلى من غيره، قد تشقيه ولا تسعده، والذي يعطيه اللَّه فرصة أقوى إذا لم يستخدمها في الخير، سلط اللَّه عليه الشقاء؛ ولذلك نجد من يصل إلى فرصة أعلى نغبطه على أنه سيعيش حياة كريمة، ولكن الحقيقة أنه ربما تجلب له هذه الفرصة الشقاء والتعاسة، وذلك هو قانون التوازن في الدنيا، المجتمع لا يصلح إلا إذا تكافأت فيه الفرص.

قرية آمنة مطمئنة ثم يأتي إنسان ويحصل فيها على سلاح، هذا السلاح يعطيه فرصة غير متكافئة مع أهل القرية، ويجعله هو الأقوى، إذا استخدم هذا السلاح في الدفاع عن القرية ضد أي مجرم يعبث بأمنها أو ضد أي إنسان يريد أن يهددها؛ بارك اللَّه في عمله، ولكن إذا استخدم السلاح في فرض الإتاوات على الناس والظلم في الأرض، وأن يكون هو الأقوى، وكلمته هي القانون؛ سلط اللَّه عليه من أهل القرية أو من خارجها، من يأتي ويحمل سلاحاً، ويقف ليهدده هو ويصبح هنا تكافؤ فرص، لأن الذي يملك السلاح في هذه الحالة يخشى ذلك القادم أو الذي يحمل سلاحاً من أهل القرية؛ فيبدأ يراجع نفسه ويبتعد عن طغيانه، فإذا أخذه غرور الدنيا، ولم يرتدع؛ فقد يدفع حياته ثمنا لتجبره وبعده، عما أمر به اللَّه، إذن فوجود الإنسان الذي يخل بتكافؤ الفرص في المجتمع يفسد هذا المجتمع؛ فيأتي اللَّه سبحانه وتعالى بمن يعيد التوازن إليه، وفي هذا التوازن يكون الصلاح، فتكافؤ الفرص في الحياة هو التوازن، فإذا اختل ذلك فسد المجتمع وكذلك الذي يستعين بقوى غير قوى البشر كالجن مثلًا، تجده دائماً يعيش حياة الضنك والشقاء، ورغم أنه يستخف بعقول بعض السُّذّج والجهّال، ويحصل منهم على أموال نتيجة لدجله واحتياله، إلا أنك تجده دائماً مفلساً معسراً، ويموت في أسوأ حال، إذن الفرصة

غير المتكافئة لا تجلب إلا الشقاء، قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾[1] [الجن: ٦].

❁ ❁ ❁

---

(١) قال القرطبي: قال اللّه تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ فمن فتح وجعله من قول الجنّ ردّها إلى قوله: ﴿ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ ﴾ [الجن: ١] ومن كسر جعلها مبتدأ من قول اللّه تعالى. والمراد به ما كانوا يفعلونه من قول الرجل إذا نزل بوادٍ: أعوذ بسيد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه؛ فيبيت في جواره حتى يصبح؛ قاله الحسن وابن زيد وغيرهما. قال مقاتل: كان أوَّل من تعوذ بالجنّ قوم من أهل اليمن، ثم من بني حنيفة، ثم فشا ذلك في العرب، فلما جاء الإسلام عاذوا باللّه وتركوهم. وقال كَرْدَم بن أبي السائب: خرجت مع أبي إلى المدينة أوّلَ ما ذُكر النبيّ ﷺ، فآوانا المبيت إلى راعي غنم، فلما انتصف الليل جاء الذئب فحمل حملًا من الغنم، فقال الراعي: يا عامر الوادي، « أنا » جارك. فنادي منادٍ يا سِرحان أرسله، فأتي الحملَ يشْتد. وأنزل اللّه تعالى على رسوله بمكة: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦] أي: زاد الجن والإنس ﴿ رَهَقًا ﴾ أي خطيئة وإثماً؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة. والرهَق: الإثم في كلام العرب وغِشيان المحارم؛ ورجلٌ رهقٌ إذا كان كذلك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ [يونس: ٢٧] وقال الأعشى:

لا شيءَ ينفعني مِن دونِ رؤيتِها هل يَشتفِي وامق ما لم يُصِب رَهقَا

يعني إثماً، وأضيفت الزيادة إلى الجنّ إذ كانوا سبباً لها، وقال مجاهد أيضاً: ﴿ فَزَادُوهُمْ ﴾ أي: إن الإنس زادوا الجن طغياناً بهذا التعوذ، حتى قالت الجِنّ: سُدنا الإنس والجنّ.

وقال قتادة أيضاً وأبو العالية والربيع وابن زيد: ازداد الإنس بهذا فَرَقاً وخوفاً من الجنّ.

وقال سعيد بن جُبير: كفراً. ولا خفاء أن الاستعاذة بالجن دون الاستعاذة باللّه كفر وشرك.

وقيل: لا يطلق لفظ الرجال على الجنّ؛ فالمعنى: وأنه كان رجال من الإنس يعوذون من شر الجنّ برجال من الإنس، وكان الرجل من الإنس يقول مثلًا: أعوذ بحذيفة بن بدر من جنّ هذا الوادي.

قال القشيري: وفي هذا تحكم إذا لا يبعد إطلاق لفظ الرجال على الجنّ.

تفسير القرطبي [ج١٩/ ٩-١١].

ليس بالعقل وحده تحل المشكلات

السؤال: هل في استطاعة العقل وحده أن يحل المشكلات بدون أن يخلق مشكلات أخرى ؟

الجواب: إن العقل الإنساني عادة ما يفتنهُ طغيانه فلا يرى إلا عيباً واحداً أو مشكلة واحدة ويحاول أن يجد لها حلًا، هذا الحل قد يخلق عدداً آخر من المشاكل. وينسى العقل البشري أن اللّه هو العليم بكل خلقه وإننا يجب أن ندرس كل الجوانب المختلفة بكل مشكلة حتى لا نخلق من مشكلة بسيطة مشاكل مركبة. فمن ذا الذي أوتي علم كل شيء ؟!

ولننظر إلى دودة القطن مثلًا عندما ظهرت كانت المقاومة لها يدوية. وكان في ذلك حماية للزرع وللإنسان وللحيوان الذي يخدم الإنسان، لكن مع افتتان العقل بما يصنعه جعل البعض يروج لاستيراد مبيدات حشرية قد تنفع في إبادة دودة القطن ولكنها تضر الإنسان والحيوان، وقد تلقينا نحن في مصر دروساً قاسية من مثل هذا النوع، فما يبيد الدودة في عام يمنحها مقاومة في العام القادم ويكون الأمر مصحوباً بضرر بالغ على صحة الإنسان وعلى الحيوان.

إن الحضارة الغربية عندما قدمت هذه المبيدات قدمتها للدنيا على أنها أحدث الاكتشافات ولم يدرس علماؤها الآثار الجانبية لها. ولكن عندما ظهرت هذه الآثار التي تضر الإنسان والحيوان صدرت القوانين بإبطال استعمال هذه المبيدات والبدء في البحث عن وسائل أخرى، ولكن لم يصدر قرار بمنع تصنيعها وتصديرها للخارج، وكأن أصحاب الحضارات المزعومة أرادوا النجاة لأنفسهم والهلاك لغيرهم.

إن هذه المبيدات أبادت بالتجربة ما لا نحب أن يباد. واستطاعت مصر بعد أعوام من المرارة أن تلتفت إلى قيمة العمل الإنساني فعادت مقاومة الآفات الزراعية يدوياً، عدنا إلى الإيمان بأن الخالق هو عليم بكل شيء، فلا يجب أن نستند إلى سلطان أعمى من العلم يحل مشكلة واحدة ليعطينا عدداً أكبر من المشاكل.

وكنت قد التقيت برجال بعثة ألمانية تقاوم انتشار مرض البلهارسيا في مصر

وقضيت تسع ساعات أتحدث مع رئيس البعثة وأنا أحاوره، حول البلهارسيا التي نحرص على القضاء عليها لأنها تسرق صحة وعمر آلاف من أبناء الريف المصري، وأعرف مدى فداحة ما يخسره الإنسان بسببها، وكان حواري منصباً على:

هل سنقضي على البلهارسيا وحدها أم سيحدث من راء ذلك مشاكل ؟

وعرفت أن هناك بعضاً من المشاكل سيظهر بعد ذلك كتسرب نسبة من السموم ببطء، للإنسان وللنبات وللحيوان.

فقلت:

إن الإنسان يصلح صانعاً ومنتجاً وعالماً ولكن عليه أن يعي المعادلات حتى لا يضار من حيث يبغي النفع.

ومن ثم فإن كل شيء في كون اللّه يجب ألا يتدخل فيه الإنسان إلا بمنهج اللّه حتى لا يفسد فيه، لأننا عندما نُقدم على كون اللّه بمنهج اللّه، ندخل بحراسة من يعلم فوق علمنا ومن في قدرته أن يمدنا بكل الصواب.

فالعلم قاصر إذا استخدمه الإنسان بدون منهج اللّه، لأنه علم - إن علم شيئاً - يغيب عنه أشياء وحتى الذي يعلمه لا بد وأن يكون رب العزة سبحانه هو الذي كشف عنه لحكمة يعلمها سبحانه، فلا شيء في أرض اللّه يتم بدون إذن منه. فلنتق اللّه ونلزم منهجه ونسلك طريقه، عندئذ لا مشاكل ولا متاعب.



كيف نتجنب الكبر ونتصف بالعزة ونكون متواضعين ؟

السؤال: إن هناك أموراً يختلط على الإنسان فهمها، ومنها التكبر والعزة فاللَّه تعالى ذم المتكبرين، ووصف المؤمنين بالعزة، فما الفرق بين التكبر والعزة ؟ وكيف يجمع الإنسان بين العزة والتواضع ؟

الجواب: الاستكبار: هو أن يضع الإنسان نفسه في منزلة هي فوق ما يستحقه، والتواضع: هو أن يضع الإنسان نفسه في منزلة دون ما يستحقه. والعزة: هي أن يعتز الإنسان بنفسه فلا يعطيها أكثر من قدرها، إن الإنسان حين يعرف قدر نفسه لا يقال عنه إنه متكبر.

ولنا أن نعرف أن العزة أمر مطلوب للإنسان، وهناك قول كريم للرسول ﷺ ما معناه: « من تواضع لِغَنِيٍّ لِغِنَاه فقد ذهب ثلث دِينه »[1].

---

(١) وقد ورد أحاديث كثيرة تحض على فضيلة التواضع، ذكر النووي في رياض الصالحين [٦٥٧] منها:

١ - عن عياض بن حمارٍ رضي اللَّه تعالى عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إنَّ اللَّه أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ »
أخرجه مسلم [٢٨٦٥/ ٦٤].

٢ - وعن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: « ما نقصت صدقةٌ من مال، وما زاد اللَّه عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ للَّه إلا رفعه اللَّه ».
رواه مسلم [٢٥٨٨].

٣ - وعن أنس رضي اللَّه تعالى عنه أنه مر على صبيان فسلم عليهم وقال:
كان النبي ﷺ يفعله. أخرجه البخاري [٦٢٤٧]، ومسلم [٢١٦٨/ ١٥].

٤ - وعنه قال: إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت. أخرجه البخاري [١٠/ ٤٨٩] معلقاً، ومسلم [٢٣٢٦].

٥ - وعن الأسود بن يزيد قال: سُئلت عائشة رضي اللَّه تعالى عنها ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته ؟ قالت: كان يكون في مهنة أهله - يعني: خدمة أهله فإذا حضرت الصلاة، خرج إلى الصلاة. أخرجه البخاري [٦٧٦]. =

ولنا أن نلتمس التحديد القاطع في ذلك الحديث، الذي ينص على ألا يتواضع إنسان لإنسان بسبب الغني؛ لأن ذلك معناه فقدان ثلث الدين.

إن الإنسان يتواضع أمام علم منحه اللّٰه لعالم، أو أمام خير موهوب من اللّٰه لإنسان يفعل الخير، والمقياس في التواضع هو النية.

والخالق جل وعلا مطلع على نوايا الناس ويعرف أقدارها؛ فهو سبحانه لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

إن المتكبر تتكشف له نفسه على حقيقتها، إنه يستر منزلة نفسه الفعلية عن الناس، ويحاول أن يصور نفسه أمام الناس في مقام فوق ما يستحقه؛ لذلك يُذِلُّ اللّٰه المتكبر بألا تغيب عن ذهنه صورته الفعلية الصورة الوضيعة.

ثم إن الناس تساهم في كبر المتكبر عندما يذلون أنفسهم أمامه؛ فيرفعون من شأن ذات المتكبر وأفعاله، وينسون أن الخالق جل وعلا كرم كل إنسان وميزه بصفات عن الآخرين؛ لذلك فليس لنا أن نرفع من قدر أحد فوق ما يستحق؛ حتى

= ٦ – وعن أبي رفاعة تميم بن أُسيد رضي اللّٰه عنه قال: انتهيت إلى رسول اللّٰه ﷺ وهو يخطب، فقلت: يا رسول اللّٰه، رجلٌ غريبٌ جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه ؟ فأقبل عليَّ رسول اللّٰه ﷺ، وترك خطبته حتى انتهى إليَّ، فأتي بكرسي، فقعد عليه، وجعل يعلمني مما علمه اللّٰه، ثم أتي خُطبته فأتم آخرها.

أخرجه مسلم [٨٧٦].

٧ – وعن أنس رضي اللّٰه تعالى عنه، أن رسول اللّٰه ﷺ كان إذا أكل طعاماً لعق أصابعه الثلاثة قال: وقال: « إذا سقطت لقمة أحدكم فليمط عنها الأذى وليأكلها ولا يدعها للشيطان » وأمر أن تسلت القصعة قال: « فإنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة ». أخرجه مسلم [٢٠٣٤].

٨ – وعن أبي هريرة رضي اللّٰه تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: « ما بعث اللّٰه نبياً إلا رعى الغنم » قال أصحابه: وأنتَ ؟ فقال: « نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة ». أخرجه البخاري [٢٢٦٢].

٩ – وعنه عن النبي ﷺ قال: « لو دعيت إلى كراعٍ أو ذراع لأجبتُ، ولو أهدي إلي ذراعٌ أو كراع لقبلت ». أخرجهُ البخاري [٢٥٦٨].

١٠– وعن أنس رضي اللّٰه تعالى عنه قال: كانت ناقة رسول اللّٰه ﷺ العضباء لا تُسْبَقُ، أو لا تكاد تُسْبَق، فجاء أعرابي على قعودٍ له، فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه فقال: « حق على اللّٰه أن لا يرتفع شيءٌ من الدنيا إلا وضعه ».

أخرجه البخاري [٦٥٠١].

لا نشارك بأفعالنا في إثم صناعته ولا أن نقلل من شأن أنفسنا أمام أحد، إنما التواضع يكون للّه تعالى وحده.

ولو أن كل متكبر تذكر الكبرياء الحقة؛ لوجدها للّه الحق؛ ولخشعت نفسه أمام خالقه عز وجلّ.

لذلك فلحظة ترى متكبراً فاعلم أنه محجوب عن الحق؛ لأن الكبرياء للّه وحده، ولو علم هذا المتكبر حقيقة نفسه، ما تعالى على خلق اللّه(١).

---

(١) وقد ورد أحاديث كثيرة في ذم التكبر والمتكبرون ذكر النووي في رياض الصالحين [٦٥٧] منها:

١ - عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » فقال رجلٌ: إنَّ الرجل يُحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة ؟ قال: « إن اللّه جميل يحب الجمال. الكبرُ بَطر الحق وغمط الناس ». أخرجه مسلم [٩١].

« بطر الحق »: : دفعه ورده على قائله، و « غمط الناس » احتقارهم.

٢ - وعن سلمة بن الأكوع رضي اللّه تعالى عنه، أن رجلًا أكل عند رسول اللّه ﷺ بشماله، فقال: « كل بيمينك » قال: لا أستطيع ! قال: « لا استطعت » ما منعه إلا الكبر. قال: فما رفعها إلى فيه. أخرجه مسلم [٢٠٢١].

٣ - وعن حارثة بن وهب رضي اللّه تعالى عنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « ألا أخبركم بأهل النار: كل عُتُل جواظ مستكبر ».

أخرجه البخاري [٤٩١٨]، ومسلم [٢٨٥٣].

٤ - وعن أبي سعيد رضي اللّه تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فيّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: فيّ ضعفاء الناس ومساكينهم، فقضى اللّه بينهما؛ إنك الجنة رحمتي، أرحم بك من أشاء، وإنك النار عذابي، أعذب بك من أشاء، ولكليكما عليَّ ملؤها ». أخرجه مسلم [٢٨٤٧].

٥ - وعن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه، أن رسول اللّه ﷺ قال: « لا ينظر اللّه يوم القيامة إلى من جر إزاره بطراً ». أخرجه البخاري [٥٧٨٨]، ومسلم [٢٠٨٧].

٦ - وعنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: « ثلاثةٌ لا يُكلمهمُ اللّه يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ، وملك كذاب، وعائل مستكبرٌ »

أخرج مسلم [١٠٧].

٧ - وعنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: « قال اللّه عز وجل: العز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني في واحدٍ منهما فقد عذبته ». أخرجه مسلم [٢٦٢٠].

٨ - وعنه أن رسول اللّه ﷺ قال: « بينما رجلٌ يمشي في حلة تعجبه نفسه مرجل =

....

۞ ۞ ۞

= رأسه، يختال في مشيته، إذ خسف اللَّه به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة.
أخرجه البخاري [٥٧٨٩]، ومسلم [٢٠٨٨].
« مرجل رأسه »: أي ممشطه. « يتجلجل »: بالجيمين: أي يغوص وينزل.
٩ - وعن سلمة بن الأكوع رضي اللَّه تعالى عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يُكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم » رواه الترمذي [٢٠٠٠] وقال: حديث حسن.

الحزن . . . وكيف يمر به المؤمن ؟

السؤال: كل منا يصيبه مكروه؛ فيشعر بالحزن، ولكن يختلف شعور كل منا عن الآخر، فكيف نمر بالحزن دون أن نفعل ما يغضب اللّه ؟

الجواب: إن الإنسان يحزن لافتقاد شيء سار.

والعبد الطائع الصالح الذي يسير في حياته بنور منهج اللّه، يعرف أن اللّه قد يعطيه شيئاً أكثر سروراً.

وعندما ألتقي بواحدة تبكي؛ لأن ابنها الوحيد قد سافر لبعثة في الخارج، وستحرم من رؤيته مدة طويلة !!

مثل هذه السيدة أقول لها:

- ألا تعرفين أن اللّه ادخر لك فخراً أكثر سروراً بابنك؛ إنه سيعود إن شاء اللّه ليكون مصدر سعادة وفخر لأسرته وإثراء لبلده.

وعندما ألتقي بواحدة تبكي ابنها الذي فقدته في الحرب، أو في ظروف قاسية استشهد فيها فأنا أقول لها:

ألا تعرفين أنه عند اللّه حيّ يُرزَق ويعيش في كنف اللّه تعالى ورحمته في جنة عرضها كعرض السماوات والأرض، وأنه لو خير بين أن يعود لما كان عليه في الدنيا أو يبقى فيما هو فيه الآن، لاختار جوار اللّه.

لكن ليس معنى ذلك أن الإيمان يحول الإنسان إلى صخر، لا، إن الإيمان يقتضي أن نعطي العواطف فرصتها للتعبير ولكن بلطف الانفعال بالأحداث في ظلال الإيمان بقضاء اللّه تعالى وقدره، وأنه ماشاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

فالذي يصاب بكارثة وهو غير مؤمن يدمره اليأس والحزن.

أما الذي يستقبل الأحداث الخارجة عن إرادته في نور منهج اللّه؛ فإن الأمر بالنسبة إليه يختلف.

ولقد علمنا رسول اللّه ﷺ الحد الفاصل بين اليأس وبين الحزن والصبر الجميل.

ولتسمع ماذا قال رسول اللَّه ﷺ عند فقده لابنه إبراهيم ؟

قال ﷺ: « إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، ولا نقول ما يسخط الرب. وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون »[١].

هذا هو المنهج الإيماني.

إنه الحزن دون أن نفصل سبب الحزن عن قضاء الخالق سبحانه الذي قدر هذا الحدث؛ لأن ذلك يولد صفاء القلب ويزيد من نور الإيمان.

* * *

(١) أخرجه البخاري [١٣٠٣] من حديث أنس بن مالك رضي اللَّه تعالى عنه.

على المؤمن الفرار بدينه إذا خشي الفتنة

السؤال: ماذا يفعل المؤمنون عندما يحاربهم الكفار، أو غير المؤمنين، ويتمكن الكفر في البقعة التي يعيشون فيها ؟

الجواب: إذا حدث أن تمكن الكفر في بقعة من الأرض، وكان مصير المؤمنين إما أن يقتلوا، أو أن يكرهوا على العودة إلى الكفر علناً وأمام الناس؛ حينئذ يحق لهم أن يفروا بدينهم إلى مكان آخر، على أن يعودوا وهم أكثر قوة، وإن اللّٰه سبحانه وتعالى قادر على أن ينصر دينه دون معونة أو حاجة من أحد، وليعلم أن فتنة المؤمن رحمة من اللّٰه سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين ليثيبهم بها في الآخرة ويدخلهم الجنة.

واللّٰه سبحانه يعلم أن الذين اختاروا الإيمان يحاربون من غير المؤمنين حتى يضيق عليهم حياتهم ليعودوا في الكفر مرة ثانية بعد أن نجاهم اللّٰه منهم، ولكن اللّٰه يفتح لهم من رحمته ما يبدل هذا الضيق فرجاً، ويوجد لهم من السبل ما يعوضهم عن هذه الحروب التي يلاقونها من أعداء الدين، ثم يثبتهم باليقين ويريهم من آياته ما يثبتهم على المنهج ويثلج صدورهم بأنهم اختاروا الطريق المستقيم[١].

---

(١) قال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧].

أخرج البخاري عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود، قال: « قُطع على أهل المدينة بعثٌ، فاكتُتِبت فيه، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشدّ النهي، قال: أخبرني ابن عباس: أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثِرون سوادَهم على عهد رسول اللّٰه ﷺ، يأتي السهم يُرمى به فيصيبُ أحدَهم فيقتله، أو يُضرب عنقه فيقتل، فأنزل اللّٰه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[١]. =

---

(١) أخرجه البخاري [٤٥٩٦].

....

۞ ۞ ۞

= وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: « كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، قال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية، قال: فكتب إلى من بقي من المسلمين بهذه الآية: لا عذر لهم، قال: فخرجوا، فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٨].

الآية [١]. فنزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكناً من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراماً بالإجماع، وبنص هذه الآية، حيث يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بترك الهجرة ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ﴾ أي: لم مكثتم ها هنا وتركتم الهجرة ؟ قالوا: ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا نقدر على الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض ﴿ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ .

وروى أبو داود عن سمرة بن جندب: « أما بعد، قال رسول الله ﷺ: « من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله »[٢] .

وقوله: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ [النساء: ٩٨]، هذا عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٨].

قال مجاهد وعكرمة والسدي: يعني طريقاً.

وقوله تعالى: ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ ﴾ أي: يتجاوز عنهم تركهم الهجرة. و ﴿عَسَى﴾ من الله موجبة ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ .

عمدة التفسير [٣/ ٢٥١-٢٥٢].

---

(١) رواه الطبري [١٠٢٦٠]، وإسناده عندهم صحيح. وزاد السيوطي [٢/ ٢٠٥] نسبته لابن المنذر وابن مردويه والبيهقي. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [٧/ ٩-١٠] وقال: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، غير محمد بن شريك، وهو ثقة.

(٢) رواه أبو داود [٢٧٨٧] وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٢٤٢٠].

غباء الذين يسخرون من خلق اللَّه

السؤال: بعض الناس خلقهم اللَّه وبهم عيوب جسدية، كأن يكون الإنسان أعرج، أو أعمى، أو أصم ولكنهم يصادفون من يسخر من هذه العيوب، فما رأي فضيلتكم في هؤلاء الساخرين ؟

الجواب: إن الاستهزاء بالناس أو السخرية من عيوب آحاد الناس إنما هو دليل على نقص إيمان في النفس، لأن المخلوق الذي به عيب خلقي ليس له دخل في ذلك العيب، إنما هي مشيئة اللَّه تعالى الذي خلق ذلك المخلوق على هذا النحو، وأن يسخر إنسان ما من عيب إنسان آخر، فمعنى ذلك أنه يسخر من صنعة اللَّه.

والسخرية من هذا النوع هي من نقص الإيمان؛ ذلك أن الصنعة لا تستطيع أن تعدل ما عمله الصانع، فالذي يبحث عن عيوب البشر، فهو يبحث عن عيوب قدرها اللَّه في بعض الخلق لحكمة يعلمها سبحانه.

فمثلًا حين يعيب إنسان على صناعة كرسي أو مائدة، فهذا ليس تعديلًا على الكرسي أو المائدة، ولكنه تعديل لمن قام بصنعة هذا الكرسي أو تلك المائدة.

إذن.. فساعة أن يسخر أحد من إنسان به عيب، فالإنسان لا حيلة له في صنع نفسه.. فالسخرية إذن تكون من خلق اللَّه.

❁ ❁ ❁

التبرع للحفلات الخيرية وسباق الخيل

السؤال: ما رأي فضيلتكم فيمن يذهبون إلى الحفلات الخيرية ويتبرعون لها بمبلغ من المال، وكذلك الذين يخصصون جزءاً من حصيلة سباق الخيل لإنفاقها في وجوه البر والإحسان معلنين عن ذلك متباهين به ؟

الجواب: إن الذين يذهبون إلى الحفلات الخيرية مثلًا، ويعلنون عن أسمائهم ويتباهون أمام الناس بما تبرعوا، بل يحاول كل منهم أن يزيد على الآخر حتى يقال: إنه رجل بر، أو رجل إحسان، أو إنه أغنى منه.. إلى آخر ما يحدث، هل يحتسب لهؤلاء جميعاً، وهذا قصدهم ونياتهم، هل تحتسب الحسنات لهم من اللّه، وهم يقصدون بها غير وجه اللّه ؟ الجواب بالطبع لا.

ومثل ذلك ما يقال من أن خمسة وعشرين في المائة من حصيلة سباق الخيل تذهب للخير. نقول: أي خير هذا الذي يأتي بارتكاب معصية ؟! وهل اللّه فقير محتاج إلى مال حتى ننفق من معصية أو مما حرم اللّه ؟! إن اللّه سبحانه وتعالى هو الذي يملك خزائن الأرض كلها، وهو الذي يرزقنا، وكل المال الذي في الأرض هو مال اللّه سبحانه وتعالى، فكلنا يخرج من الدنيا ويتركه، واللّه وحده هو الذي يرث الأرض ومن عليها، ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧].

أي أن المال أصلًا مِلْكٌ للّه تعالى، وهو الذي جعلنا مستخلفين فيه لفترة من الفترات، طالت أو قصرت، كل حسب عمره، ولكمية زادت أو نقصت وفق رزقه، ومن هنا فإن اللّه غير محتاج لمال حتى ننفق في وجوه البر من المعاصي ومما حرم اللّه تعالى، واللّه تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً [(١)]،

---

(١) عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: « أيها الناس إن اللّه طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن اللّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١]. وقال: =

ومن هنا فإن لم يكن المال من حلال فإن الله لا يقبله .

❁ ❁ ❁

= ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر: « الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يارب، يارب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام، فأني يستجاب لذلك ؟! ».
أخرجه مسلم [١٠١٥]، والترمذي [٢٩٨٧].

الغرب أخذ من الإسلام العمل وترك العقيدة

السؤال: ألا ترى فضيلتكم أن أساس تقدم المجتمعات في البلاد غير الإسلامية هو تنفيذها لمباديء الإسلام في صورة قيم اجتماعية ؟

الجواب: حين نتأمل واقع المجتمعات الغربية نجد أن مبادئ الدين الإسلامي مطبقة كقيم اجتماعية في تلك المجتمعات ، ففي أي مجتمع متقدم تراه يحافظ على حق كل إنسان، ويعاقب أشد العقوبة على الكذب، باعتباره من الرذائل التي تقود أفراد المجتمع إلى عدم الثقة، وإلى إخفاء الحقائق، وإلى أشياء كثيرة، كما أن هذا المجتمع يكافئ الأمين، ويعترف بالفضل لصاحبه، ويفتح الآفاق أمام الجميع، كل هذه الأشياء هي من قيم الإسلام، ولكن هؤلاء الناس أخذوها وجعلوها قيماً اجتماعية، لماذا ؟ لأن التقدم لا يتم إلا بتطبيقها، بل إن الأعجب من ذلك أننا نجد أشياء هي مباحة في هذه المجتمعات بحكم ما يزعمونه من حريات، ولكن تقوم جمعيات بحملات لمنعها، كالخمر مثلًا، فتجد محاضرات عن مضار الخمر، وجمعيات لإنقاذ المدمنين للخمر من الهلاك، الذي يقودهم إليه هذا الإدمان، وأبحاث طبية. . إلى غير ذلك، إن هذا كله لا يتم إيماناً بالإسلام، أو لأن الإسلام حرَّم الخمر، وإنما يتم عن حاجتهم الملحة لذلك، ولأسباب فرضت نفسها على هذا المجتمع وذاك، وصدق اللّه ربنا العظيم إذ يقول تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[1] [الصف: ٩]، والذي لا شك فيه أنه لا يوجد تفسير أصدق لهذه الآية الكريمة من التفسير الحادث الآن،

---

(١) قال القرطبي ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أي بالحجج. ومن الظهور الغلبَةُ باليد في القتال؛ وليس المراد بالظهور ألّا يبقى دين آخر من الأديان، بل المراد أن يكون أهل الإسلام عالين غالبين. ومن الإظهار ألّا يبقى دين سوى الإسلام في آخر الزمان.
وقال أبو هريرة رضي اللّه تعالى عنه: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ بخروج عيسى، وحينئذ لا يبقى كافر إلا أسلم.
=

فالذين يحاربون شرب الخمر، ويحاولون اقتلاع هذا الداء العضال من مجتمعاتهم، والذين أصبحوا يبيحون الطلاق لأنه بات ضرورة اجتماعية، والذين يضعون قيماً لمجتمعاتهم الأصل فيها مستمد من تعاليم اللَّه سبحانه وتعالى، وإن كان ذلك ليس إيماناً منهم بتشريع اللَّه ولكن كضرورة اجتماعية لحياة مجتمعاتهم إنما يعلنون للعالم أجمع مبادئ هذا الدين القويم، وإن كرهوا أن يزدهر الدين نفسه، ولم يأخذوه كعقيدة، ولكن ألجأتهم ظروف الحياة إلى اتباع ما شرع اللَّه سبحانه وذلك قهر من اللَّه لهم، ولقد قال الشيخ محمد عبده حينما زار أوربا: رأيت قوماً لا يقولون لا إلـٰه إلا اللَّه وإنما يعملون بمعناها، ونحن قوم نقول: لا إلـٰه إلا اللَّه، وفي أحيان كثيرة لا نعمل بمقتضاها.

* * *

= وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي اللَّه تعالى عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لينزلن ابن مريم حَكَماً عادلاً فليَكْسِرَنَّ الصليب وليَقْتُلنَّ الخنزير وَلَيَضَعَنَّ الجِزْيَةَ ولتتركنَّ القِلاص فلا يُسْعَى عليها ولَتَذْهَبَنَّ الشَّحْناءُ والتَّباغُضُ والتحاسدُ ولَيَدْعُوَنَّ إلى المال فلا يَقْبَلُهُ أحَدٌ»[1].

وقيل، ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ ﴾ أي ليطلع محمداً ﷺ على سائر الأديان؛ حتى يكون عالماً بها عارفاً بوجوه بطلانها، وبما حرّفوا وغيّروا منها. ﴿ ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أي: الأديان؛ لأن الدين مصدر يعبّر به عن جمع. تفسير القرطبي [١٨/ ٨٦].

(١) أخرجه مسلم [١٥٥/ ٢٤٣] واللفظ له، والبخاري [٢٢٢].

عناد اليهود

السؤال: لماذا عاند اليهود في دخول الإسلام، مع أنهم قرأوا في التوراة البشارة بالرسول ؟

الجواب: إن الرسول محمداً عليه الصلاة والسلام دعا اليهود، أن يدخلوا في الإسلام، دين اللّه الذي اكتمل به منهج السماء إلى الأرض لكنهم بعد أن حرفوا التوراة، وبعد أن تجاهلوا ما جاءت به التوراة من البشارة بمحمد رسول اللّه ﷺ، وبعد أن فتح اللّه قلوب الأوس والخزرج؛ فتوحدت تحت اسم واحد هو «الأنصار»، وبعد أن ضاعت على هؤلاء اليهود لعبة التفرقة بين العرب، وادعاء السيادة عليهم؛ وقد كذبوا في قولهم، فلو أنهم مؤمنين حقاً بالتوراة لآمنوا بمحمد ﷺ واتبعوا رسالته، ذلك أنه مكتوب عندهم وبشرت به ﷺ كل أنبياء بني إسرائيل، ولكنه العناد المفضي إلى الكفر والهلاك بسبب أنه ﷺ جاء من العرب ولم يجيء من بني إسرائيل.

❁ ❁ ❁

من غرائب مطالب اليهود !!

السؤال: لماذا طلب قوم موسى أن يخرج اللّه لهم من الأرض: ﴿ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ [البقرة: ٦١] مع أنه أنعم عليهم بالمن والسلوى ؟

الجواب: نتأمل طلب قوم موسى أن يخرج اللّه لهم من الأرض ﴿ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾، فإن تلك الألوان من الطعام أدنى مرتبة من ﴿ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴾ [البقرة: ٥٧] ، ذلك أن المن والسلوى لا تعب للإنسان فيهما، أما البقل والقثاء والفوم والعدس، فهي نباتات يزرعها الإنسان، ويكدح في سبيل أن تخرج من الأرض.

والبقل: هو كل نبات لا ساق له من الأرض، مثل الخس، والفجل، والجرجير، والكرفس.

والقثاء: هي ما نعرفها شبيهة للخيار.

والفوم: يفسرها البعض بأنها الثوم.

وهكذا نجد أن الحق يوضح أن الألوان التي طلبوها من الأطعمة لها من المشقة والتعب في زراعتها وحصادها ما يرهق الإنسان، ذلك أنها تدخل في دائرة قانون السببية، أي: أن الإنسان يكدح بعرقه؛ ليحرث الأرض، ويضع البذور، ويروي الزرع بالمياه في الموسم ويبحث عن وسائل لصرف الماء الزائد عن حاجة الزرع ثم الحصاد، أما ﴿ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴾ فإن إرسالهما كرزق لهم إنما هو قادم بما لا تعب لهم فيه أو إرهاق، إنه بأسباب اللّه المباشرة التي لا دخل للعبد فيها بأي تعب. ولكنه العنت اليهودي والتمرد على نعم اللّه ومحاولة تعجيز رسولهم عليه السلام.

❁ ❁ ❁

سجود اليهود على جهة واحدة من وجوههم !

السؤال: إن اليهود يسجدون في صلاتهم على جهة واحدة من وجوههم، لماذا ؟

الجواب: لقد رفع اللَّه جبل الطور فوق قوم موسى، وجعله بقدرته سبحانه كالظلة فوقهم، وأمرهم أن يأخذوا التكليف الإيمانية، وخضعوا كرهاً وخوفاً من سقوط الجبل فوقهم، واستقبلوا ما أمر به اللَّه ساجدين خائفين.

وكان سجودهم على جهة من وجوههم؛ ليروا الجبل المرفوع فوقهم بالجهة الأخرى أثناء سجودهم.

ولقد ظلت هذه المسألة باقية في سجود البقية الباقية منهم إلى اليوم كشاهد على عدم إذعانهم للأمور إلا كرهاً وقسراً (١).

۞ ۞ ۞

(١) وهذا يلاحظه اليوم المتابع لتمثيلية السلام الإسرائيلي العربي، فهم متعنتون إلى أبعد حد، ولولا أن دك اللَّه حصونهم على يد جيش مصر الباسل في العاشر من رمضان السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ما كانوا خضعوا حتى لمجرد الكلام، وهذا ما يجب أن يلتفت إليه العرب في حواراتهم معهم، فهم قوم لا يخشون إلا القوة، ولا يرهبون إلا من لون الدم، فيجب أن نعيد حساباتنا مع اللَّه تعالى ثم نعد لهم ما استطعنا من قوة لنحملهم على التسليم بحقنا في فلسطين الحبيبة والقدس المغتصب ولا نخشى من يمدهم بالمال والسلاح فقط علينا أن نحرص أن نكون جنداً للَّه تعالى، فإن اللَّه تعالى لا يهزم جنده.

الفرق بين المغضوب عليهم والضالين

السؤال: جاء في سورة الفاتحة كلمة ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ وكلمة: ﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧] ، فما الفرق بين هاتين الفئتين ؟

الجواب: المغضوب عليه هو، من عَرَفَ الحق، ولكنه كابر فيه، ويعرف الطريق المستقيم ولكنه لا يتبعه، بل وأكثر من ذلك يدّعي أنه يستطيع أن يحقق بنفسه ولنفسه طريقاً أفضل، فتلك شريعة اللَّه أمامه، وبدلًا من أن يتبعها ويلتزم بها، فإنه إما أن ينحيها من طريقه، ويشرع لنفسه حسب هواه، وإما أن يأتي إلى ما أنزل اللَّه سبحانه وتعالى فيخفي بعضه ويظهر بعضه، فيظهر ما يتفق مع هواه، ويخفي ما لا يتفق مع هواه وإن كان هو الحق والعدل، كأن يخفي ما حرم اللَّه؛ ليطلق لنفسه العنان ليفعل ما يشاء وما يريد دون ضوابط أو قيود، أو يأتي بأشياء من عنده ينسبها إلى اللَّه سبحانه وتعالى، ويحاول أن يستفيد بها هو استفادة شخصية.

هؤلاء جميعاً مغضوب عليهم، ومحكوم عليهم بالكفر؛ لأنهم وهم يعرفون شريعة اللَّه حق المعرفة يكابرون فيها، ويحرفون الكلم عن مواضعه.

أما أولئك الضالون، فهم الذين يتخبطون في الدنيا إذا صادفوا مسألة قضى اللَّه فيها حكماً، لا يجهدون أنفسهم في سبيل معرفته، بل يمضون في طريقهم لا يحاولون البحث ولا التحري، ولا تعلُّم دين اللَّه، بل إنَّ ما وجدوا عليه الناس أخذوه بلا تفكير ولا روية، وقد يسأل البعض ما ذنب هؤلاء ؟ فهم قد جهلوا ! نقول: إنهم قد جهلوا عن عمد، إنهم يرفضون المعرفة، ويرفضون النصيحة في أمور الدين، أما في أمور الدنيا فهم يبحثون ويدققون، فإذا قيل لأحدهم مثلًا: إن مكان « خزينة » صرف المرتبات قد تغير، فإن كل واحد منهم يسارع ويجري ليعرف المكان الجديد للخزينة، ويبحث عن مكان الصراف، وإذا وجد الواحد منهم أن مرتبه نقص ولو قليلًا، أسرع يسأل ويحقق ويبحث ويحسب، هذا في أمور الدنيا، أما إذا قيل له: إن الدين يأمر بكذا في هذه المسألة لم يلتفت، ولم يحاول أن يعرف، أو يدقق، بل هو يفعل ما يهواه دون أن يكلف نفسه حتى عناء السؤال، وإذا أعطاه أحد فتوى هي ليست من الدين في شيء ولكنها توافق هواه، أسرع

يتبعها دون أن يتوقف ولو لحظة واحدة؛ ليسأل نفسه هل هو على باطل أم على حق ؟ إنه يعيش على غش غيره، فإذا سمع إنساناً يقول: إن الزكاة غير ملزمة مثلًا، أسرع يتبع هذا القول، دون أن يكلف نفسه عناء البحث، مع أنه يعرف أن الزكاة ركن من أركان الدين، ولكنه أخذ هذه الفتوى، الباطلة في حقيقتها ونفذها؛ لأنها تتفق مع هواه، وإذا سمع من يقول: إن الصلاة بالقلب وليست باتباع هيئة الصلاة المعروفة، أو إنها غير ملزمة في أوقاتها، ولكن في أي وقت وغير ملزمة في طريقتها، ولكن بأي طريقة، فإنه يصدق ذلك ولا يقيم الصلاة، ولا يحاول أن يتحرى.

وترى أُناساً كثيرين يفعلون ذلك، لا يحاول واحد منهم أن يتعرف على منهج اللّه ولو مرة واحدة، ولا يحاول عندما يقدم على عمل أن يتحرى موافقته للمنهج من عدمه، إذا حدثته في الدين امتعض، وإذا حدثته في أمور الدنيا ابتهج، يردد الكلام دون أن يفهم معناه.

من هم الصابئة ؟

السؤال: ورد لفظ الصابئة في القرآن الكريم، فمن هم الصابئة ؟ ولماذا سموا بهذا الاسم ؟

الجواب: إن معنى « الصابئة » اختلف فيه العلماء، بعضهم يرى أنهم أتباع نوح عليه السلام، وبعض العلماء يرى أنهم الذين عبدوا الوسائط في الكون، كالكواكب والنجوم.

وبعض العلماء قال: إن « الصابئة »، هم الذين مالوا عن العقيدة التي كانوا يعاصرونها إلى دين آخر، وهم الذين تحنفوا قبل الإسلام، أي هؤلاء القوم العقلاء الذين استعملوا عقولهم فرفضوا عبادة الأصنام.

قيل لواحد منهم:

كيف تعبد هذه الأصنام، والأصنام تقع وتكب على أنوفها، ونحن الذين نعدل من وضعها، ونداري التشققات التي تحدث لها عندما تتكسر، ونحن الذين نقوم بنحتها، فكيف نعبد آلهة لا تضر ولا تنفع، آلهة من اختراعنا نحن ؟

ولهذا امتنع هؤلاء القوم من العقلاء عن عبادة الأصنام وتحنفوا، وقال عنهم العرب إنهم صبئوا عن دين آبائهم وإن لم يتبعوا ديناً جديداً.

لقد كان عند هؤلاء القوم اقتناع بأن عبادة الأصنام أمر باطل.

وقد اتهمت قريش محمداً رسول اللّه ﷺ والذين آمنوا معه بأنهم صبئوا عن دين آبائهم.

والصبأ مأخوذ من الصبوة، أي الميل إلى دين غير الدين الذي كان يسود في ذلك الزمان[1].

---

[1] صَبَأَ يصبأُ - من باب فَتَحَ - صَبئاً وصُبُوءاً: وصَبُؤ من باب كَرُمَ: خرج من دين إلى دين. والصابئون يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام.
وقيل: هم عُبَّاد الملائكة.

....

❁ ❁ ❁

= وقيل: عُبَّاد الكواكب والنجوم.
وقيل: عُبَّاد النار. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾ [البقرة: ٦٢]، فهم غير اليهود والنصارى خلافاً لمن قال: إنهم النصارى لأنهم يعمدون في الماء وأنه مأخوذ من صَبَغَ بالعبرية أي غطس في الماء.
القاموس القويم [٣٦٥].

لماذا نحن شعوب نامية ؟

السؤال: إنه لمن المؤسف أن نوصف بأننا شعوب نامية، مع أن أجدادنا كانت لهم الصدارة في الحياة، فما الذي جعلنا هكذا ؟

الجواب: آنَ لنا أن نعرف أن المسلمين ليسوا قوماً طارئين على الكون، ذلك أن الإسلام قد جاء منذ أربعة عشر قرناً، وظلت أمته هي الأمة الأولى في العالم بالثقافة والمدنية والحضارة، وذلك كنتيجة حتمية لاتباع المسلمين لمنهج اللّه تعالى وإقامة نظام إسلامي، الكلمة العليا فيه لكتاب اللّه تعالى وسنة رسوله ﷺ وأخذ العالم عن المسلمين كل أسباب الارتقاء، أما ما يحدث الآن لشعوبنا، فهو نتيجة طبيعية لبعدنا عن منهج الإسلام في الحياة.

وإذا كان المسلمون قد أهملوا منهجهم؛ فعليهم أن يصطلحوا مع اللّه ويقيموا منهجه، ومنهج اللّه هو الذي يعمر الأرض ويبارك فيها ومن ثم فلن تكون بلاد المسلمين مجرد سوق استهلاكي لغيرهم وإنما بجدهم وإتقانهم لعملهم سيزرعون ما يأكلون ويصدرون الفائض عن حاجتهم؛ هنا فقط يكون قرارهم في أيديهم، ولنا أن نعرف أن الاستعمار قد اختلف لونه ومضمونه، فلم يعد الاستعمار قاعدة عسكرية؛ إنما استعمار أفكار وعادات، واقتصاد يأخذ الكفار منا خير ما فينا، ويعوِّدون مجتمعاتنا على عادات وقيم واستهلاك، لا نستطيع أن نتحلل منها.

إننا الآن لا نأخذ بأسباب الحياة؛ فلا نقيم مصانع كبرى تنتج لنا ما نريد من مستلزمات تشغيل وأدوات للإنتاج الزراعي والصناعي، بل نكتفي أن نمد أيدينا إلى غيرنا، والعجيب أن الغني فينا يشتري إنتاج الخارج احتقاراً منه لإنتاج بلاده، ولو أن هذا الغني أراد لنفسه ولأولاده ولأبناء بلده العزة لأقام مصنعاً؛ لينتج ليكفي أهل بلده ويصدر الفائض.

فالمسلمون يكتفي أغنياؤهم الآن بالثروة، ويتمتعون بما لم تنتجه أيديهم، وبذلك رضوا وارتضوا لأنفسهم بالتبعية.

وفقراء المسلمين غير قادرين على امتلاك الوسائل التي تمكنهم من الارتقاء

بأنفسهم؛ لذلك أيضاً يعيشون تبعاً لمن يعطيهم إلا من رحم ربي.

وهكذا نجد أن الأمة المسلمة ارتضت لنفسها ما لا يرضاه لها دينها من تبعية واستذلال.

إن غير المؤمنين يريدون منا أن نكون أسواقاً لكل منتجاتهم، وهم بذلك يعيدون استعمارنا ولكن اقتصادياً بأن نتعود على إنتاجهم، ذلك الإنتاج الذي نسهم نحن فيه بالمواد الخام التي وهبها اللّه لنا، لكننا لم نحسن استخدامها واكتفينا باستيراد كل شيء منهم.

إن على المسلمين أن ينهضوا بأنفسهم وبعلمائهم في كافة المجالات؛ ليصلوا إلى السيطرة على أمورهم بما لا يجعلهم أتباعاً لأحد.



سر عداوة الرأسمالية والشيوعية للإسلام

السؤال: لماذا تلتقي الرأسمالية والشيوعية عند هدف واحد هو محاربة الإسلام، مع أنهما عدوان لدودان ؟

الجواب: الرأسمالية والشيوعية تخوضان حرباً شرسة ضد الإسلام، ولا بد أن تقوم الدول الإسلامية بتطبيق قواعد الإسلام وتشريعات الإسلام.

لماذا ؟

لأن الإسلام عندما يطبق التطبيق الصحيح، فلا مجال لرأسمالية تغتصب حقوق الإنسان، ولا مجال لشيوعية تسرق كرامة الإنسان، ولا عبودية من مخلوق لمخلوق، ولا قلق بسبب تحكم فرد في رزق فرد.

إنما قوانين إلـٰهية من خالق الأرض والسماء تحمي للإنسان حريته وكرامته وعمله، وتكفل له حياته في مجتمع إيماني، الكلمة العليا فيه للّه تعالى، فالكل عبيد ينفذون ما أمر به الخالق سبحانه، فلا مجال لعلو طائفة على الأخرى. إنما يكون التفاضل بتقوى اللّه تعالى[١].

❁ ❁ ❁

---

(١) وصدق اللّه العظيم إذ يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

أعداء الإسلام يؤكدون رسالته !

السؤال: قلتم فضيلتكم ما معناه: إن اللّه جعل من مواقف أعداء الدين ما يخدم هذا الدين. . فكيف ذلك ؟

الجواب: إن اللّه سبحانه وتعالى يجعل على يد خصوم القرآن وخصوم محمد عليه الصلاة والسلام ما يثبت صدق رسالته ويؤكد حقيقتها، فمثلاً أخبرنا القرآن الكريم أنه سيأتي السفهاء من الناس ويسألون عن سبب تغيير القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، فنبأنا قبل أن يأتوا، وذكر ما سيرددونه قبل أن ينطقوا به، ثم أعلن أن هؤلاء الناس هم السفهاء[1]، ثم

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[البقرة: ١٤٢].

قال ابن كثير: قيل: المراد بالسفهاء ههنا مشركو العرب. وقيل: أحبار يهود. وقيل: المنافقون. والآية عامة في هؤلاء كلهم. واللّه أعلم. وروى البخاري عن البرّاء: « أن رسول اللّه ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستةَ عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلتُه قِبَلَ البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاَّها صلاةَ العصر وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد باللّه لقد صليتُ مع النبي ﷺ قِبَل مكة، فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذي قد مات على القبلة قَبْل أن تحوّل قبل البيت رجالاً قُتلوا، لم نر ما نقول فيهم، فأنزل اللّه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[البقرة: ١٤٣]. ورواه مسلم[1].

وروى ابن أبي حاتم عن البراء قال: « كان رسول اللّه ﷺ قد صلى نحو بيت المقدس ستةَ عشر أو سبعةَ عشر شهراً، وكان يحبُّ أن يُوجَّه نحو الكعبة، فأنزل اللّه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾[البقرة: ١٤٤] قال: فوُجِّه نحو الكعبة، وقال السفهاء من الناس، وهم اليهود: ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها. فأنزل اللّه ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ =

---

(١) أخرجه البخاري ص٤٤٨٦]، ومسلم [٥٢٥/١١].

يأتي فعلاً هؤلاء الكفار ويقولون هذا الكلام ويرددون ما جاء في القرآن،

= ﴿ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقد جاء في هذا الباب أحاديثُ كثيرةٌ. وحاصل الأمر: أنه قد كان رسول اللّه ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يصلي بين الركنين، فيكون بين يديه الكعبة، وهو مستقبل صخرةَ بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تعذّر الجمعُ بينهما، فأمره اللّه بالتوجّه إلى بيت المقدس. فاستمر الأمر على ذلك بضعةَ عشر شهراً، وكان يكثر الدعاءَ والابتهالَ أن يوجَّه إلى الكعبة التي هي قبلةُ إبراهيم عليه السلام، فأجيبَ إلى ذلك، وأُمر بالتوجه إلى البيت العتيق. فخطب رسول اللّه ﷺ الناسَ وأعلمهم بذلك. وكان أوّل صلاة صلاها إليها صلاة العصر، كما تقدم في الصحيحين من رواية البرّاء. وأما أهلُ قُباء فلم يبلغهم الخبرُ إلى صلاة الفجر من اليوم الثاني. كما جاء في الصحيحين عن ابن عمر أنه قال: « بينما الناس بقباء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إنّ رسول اللّه ﷺ قد أنزل عليه الليلةَ قرآنٌ، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبَلُوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروُا إلى الكعبة»[١]. وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمُه إلّا بعد العلم به، وإن تقدّم نزوله وإبلاغُه، لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء. واللّه أعلم.

ولما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتيابٌ وزيغٌ عن الهدى وتخبيط وشكّ، وقالوا: ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ أي: قالوا: ما لهؤلاء تارةً يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل اللّه جوابهم في قوله: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ أي: الحكم والتصرف والأمر كله للّه، وحيثما تولوا فثم وجه اللّه، و ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي: الشأن كله في امتثال أوامر اللّه، فحيثما وجَّهَنا توجهنا، فاطاعة في امتثال أمره، ولو وجّهنا في كل يوم مراتٍ إلى جهات متعدّدة، فنحن عبيده وفي تصريفه وخدّامُه، حيثما وجّهَنا توجهنا. وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد صلوات اللّه وسلامه عليه وأمته عنايةٌ عظيمة، إذْ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت اللّه في الأرض، إذْ هي بنايةُ إبراهيم الخليل عليه السلام. ولهذا قال: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢]. وقد روى الإمام أحمد عن عائشة، قالت: قال رسول اللّه ﷺ - يعني في أهل الكتاب -: « إنهم لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على يوم الجمعة التي هدانا اللّه لها وضلّوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا اللّه لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلفَ الإمام « آمين »[٢].

عمدة التفسير [١/ ٢٦١-٢٦٣].

(١) أخرجه البخاري [٤٤٩٣]، ومسلم [٥٢٦/ ١٤].
(٢) رواه أحمد في المسند [٦/ ١٣٤، ١٣٥].

مثبتين صدق كلام اللَّه، بينما هم يحاولون أن يضللوا الناس عن دينه، وهكذا يأتي اللَّه سبحانه وتعالى على يد خصوم القرآن بالدليل القاطع على صدق هذا الكتاب، ويجعل الذين يحاولون هدم هذا الدين مثبتين له بأمر اللَّه، وهم لا يملكون في ذلك اختياراً.



عجز الفلاسفة

السؤال: هل في قدرة العقل أن يصل إلى وجود اللّه تعالى، أم أنه عاجز عن إدراك هذه الحقيقة ؟

الجواب: لقد أجهد الفلاسفة أنفسهم على مر السنين في الوصول إلى وجود اللّه تعالى، محاولين استخدام العقل بدلًا من الرسالات السماوية التي أنزلها اللّه سبحانه وتعالى، ومن هنا فإنهم أرادوا أن يستخدموا العقل فيما لم يُخْلق له، ذلك أن العقل له وظيفة في الحياة، ليس من بينها أن يصل إلى وجود اللّه بدليل فوق طاقته، أو غير مستخدم الوسائل أو الرسالات التي أنزلها اللّه لعباده، فهذه الرسالات قد وضع اللّه سبحانه وتعالى فيها الأدلة فيما هو في قدرة العقل البشري، منذ يوم خلقه إلى يوم القيامة، ولكن الفلاسفة يريدون أن يتجاوزوا هذا، بأن يثبتوا للعقل البشري ما هو فوق طاقته، وهذا مستحيل.



الحكمة من قطع يد السارق

السؤال: يدّعي أعداء الإسلام أن قطع يد السارق - كما أمر بذلك الإسلام - يعتبر تشويهاً للإنسان فما الرأي في هذا الادعاء ؟

الجواب: إن المتشدقين بالمظهرية الحضارية يرون في قطع يد السارق تشويهاً للإنسان.

وينسون أن يد السارق أثيمة وآثمة، ولنا في رسول اللَّه ﷺ أسوة حسنة عندما قال:

« إنَّما أهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلكُمْ، أَنَّهم كانوا إذا سَرَقَ فِيهِم الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذاً سَرَقَ فيهم الضَّعِيفُ أقاموا عليه الحدَّ وايْمُ اللَّهِ لو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ محمد سرقت لقطَعْتُ يَدَهَا »(١).

لماذا قال الرسول ذلك وهو نبي الرحمة ؟

لأن رحمة النبي من رحمة اللَّه التي أرادها الحق منعاً للشر.

إن اللَّه سن العقوبة لا لتقع الجريمة؛ ولكن ليمنع أن تقع الجريمة.

إن ترويع المجتمع بالسرقات واستنزاف أموال الناس بالباطل لهو أمر بشع ما ينبغي للمجتمع المسلم أن يتهاون فيه، إن قطع يد سارق واحد أو اثنين أو أكثر في سبيل أن يعيش مجتمع كامل في أمن وأمان لهو الرحمة المطلقة والعدل المطلق.

إن حياة مجتمع أغلى وأثمن من يد سارق تقطع عقاباً له على سرقته، وترويعاً لغيره ممن تسول لهم أنفسهم الاعتداء على أموال الناس أو المجتمع بالباطل؛ لذلك فعلى ولي الأمر أن يقطع يد السارق مهما كان، فلا حماية لأحد بنفوذ أو جاه، ولا شفاعة لأحد في قانون وضعه اللَّه تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري [٦٧٨٨]، ومسلم [٨/١٦٨٨] من حديث عائشة رضي اللَّه تعالى عنها.

إن اللّه تعالى لا يشرع القوانين أو يجرم الأفعال بغرض أن يعاقب أحداً بعينه؛ ولكن ليمنع آثار الجريمة من الإضرار بمصالح المجتمع.

إن الإنسان عندما يعيش في مجتمع يرتفع فيه شأن اللصوص، يشعر بالضياع والمهانة ويفقد القدرة على أن ينتج وأن يعمل، لذلك شرع الحق قطع يد السارق حتى يجعل الرزق حلالًا بين عباده؛ فيتنافسوا في الوصول إلى الرزق لهم ولمن حولهم.



سر ليلة القدر

السؤال: ليلة القدر ولماذا كانت خيراً من ألف شهر ؟

الجواب: ليلة القدر، كان اختيارها يشرف البشرية كلها، لأنها ليلة يتوزع فيها خير السلام على الصالحين، وهي ليلة في رأينا ليست محصورة في يوم محدد، إنما هي تمر على كل ليالي السنة في فصول السنة المختلفة مع اختلاف مجيء رمضان الكريم من فصل إلى فصل.

وليلة القدر تعرضت لزمان الإنزال، لأن القرآن أُنزل فيها من اللوح المحفوظ إلى الكون ليباشر مهمته بتعاليم الدين الحنيف.

و ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١] إنما تعني إنزال القرآن من اللوح المحفوظ في عالم الغيب الذي كان مستوراً فيه، ولقد كان إنزال القرآن خيراً لا يستوعبه أحد باجتهاده وعلمه فالقرآن يستوعب أقضية الكون منذ أن وجد الكون وإلى أن تقوم الساعة.

ونزول الروح الأمين وهو جبريل عليه السلام، هو من أمور الغيب التي نصدقها، لأننا نؤمن بالغيب كما أمرنا اللّٰه تعالى.

وكانت ليلة القدر خيراً من ألف شهر، لأن العرب لم تكن تحسب في عهد الرسول أكثر من الألف، ولم يكن أهل ذلك الزمان يعرفون المليون أو البليون، وخير ليلة القدر المادي أنه أنزل فيها القرآن ليباشر مهمته في الوجود، وليصلح من شأن البشر بمنهج اللّٰه.

والمفروض في المسلم أنه إذا أمضى ليلة القدر في تعبد صادق فإنه ينال صفاء سلام النفس[١].

---

(١) **لماذا كانت ليلة القدر خيراً من ألف شهر ؟**

قال الفخر الرّازي: هذه الآية فيها بشارة عظيمة وفيها تهديد عظيم.

أما البشارة فهي أنه تعالى ذكر: أن هذه الليلة خيرٌ ولم يبين قدر الخيرية، وهذا كقوله =

إذن. . فالفرحة بليلة القدر لا تكون إلا إذا كانت آثار القرآن الكريم قد اتضحت

= عليه السلام: « لمُبَارَزة عليّ رضي اللَّه تعالى عنه مع عمرو بن عبد ودٌ العامري أفضل من عمل أُمتي إلى يوم القيامة »، فلم يقل مثل عمله بل قال أفضل كأنه يقول: حسبك هذا من الوزن والباقي جزاف.

واعلم أنَّ من أحياها فكأنما عَبَدَ اللَّه تعالى نيفاً وثمانين سنة، ومن أحياها كل سنةٍ رزق أعماراً كثيرة، ومن أحيا الشهر لينالها بيقين فكأنه أحيا ثلاثين قَدْراً.

يُروى أنه يُجاءُ يوم القيامة بالإسرائيلي الذي عبد اللَّه أربعمائة سنة، ويجاء برجل من هذه الأمة وقد عَبَدَ اللَّه أربعين سنة فيكون ثوابه أكثر، فيقول الإسرائيلي: إنه العدل وأرى ثوابه أكثر، يقول: لأنكم كنتم تخافون العقوبة المجلّة فتعبدون، وأمة محمد كانوا آمنين لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾، ثم إنهم كانوا يعبدون، فلهذا السبب كانت عبادتهم أكثر ثواباً. وأما التَّهديد فهو: أنه تعالى توعّد صاحب الكبيرة بالدخول في النار، وإن إحياء ليلة من القدر لا يخلصه من ذلك العذاب المستحق بتطفيف حبَّةٍ واحدة، فلهذا فيه إشارة إلى تعظيم حال الذَّنب والمعصية.

لماذا أخفى اللَّه سبحانه هذه الليلة ؟

١ - أخفاها سبحانه كما أخفى سائر الأشياء، فإنه أخفى رضاه في الطاعات حتى يرغبوا في الكلّ، وأخفَى غضبه في المعاصي ليحترزوا عن الكل، وأخفى الإجابة في الدعاء ليبالغوا في كل الدعوات، وأخفى الإسم الأعظم ليعظموا كل الأسماء، وأخفى الصلاة الوسطى ليحافظوا على الكلّ.

وأخفى قبول التوبة ليواظب المُكَلَّف على جميع أقسام التَّوبة، وأخفى وقت الموت ليَخافَ المُكَلَّفَ.

فكذا أخفى هذه الليلة ليعظموا جميع ليالي رمضان.

٢ - كأنَّه تعالى يقول: لو عُيِّنت ليلة القدر وأنا عالم بتجاسركم على المعصية فربما دعتك الشَّهوة في تلك الليلة إلى المعصية فوقعت في الذَّنب، فكانت معصيتك مع علمك أشدّ من معصيتك مع عدم علمك، فلهذا السبب أخفيتها عليك.

وروي أنه عليه السلام دخل المسجد فرأى نائماً، فقال: « يا عليّ؛ نبّهه ليتوضأ »، فأيقظه عليّ، ثم قال عليّ: يا رسول اللَّه إنك سبّاقٌ إلى الخيرات فَلِمَ لَمْ تنبّهه ؟ قال: «لأنَّ ردّه عليك ليس بكفر، ففعلت ذلك لتخف جنايته لو أبى».

فإذا كان هذا رحمة الرسول فَقِسْ عليه رحمة الرّب تعالى، فكأنه تعالى يقول: إذا علمت ليلة القدر فإن أَطعت فيها اكتسبت ثواب ألف شهرٍ، وإن عصيت فيها اكتسبت عقاب ألف شهرٍ ودفْع العقاب أولى من جَلْبِ الثواب.

٣ - كأنه تعالى يقول: إني أخفيت هذه الليلة حتى يجتهد المُكَلَّف في طلبها فيكتسب ثواب الاجتهاد. =

في سلوكنا وتعطرت بها أرواحنا ومن فيض آيات الرحمن ارتوت النفوس فخشعت.

= ٤ - إن العبد إذا لم يتيقَّن ليلة القدر فإنه يجتهد في الطَّاعة في جميع ليالي رمضان، على رجاء أنه ربما كانت هذه الليلة هي ليلة القدر، فَيُباهي اللّٰه تعالى بهم ملائكته ويقول: كنتم تقولون فيهم يُفْسدون ويَسْفكون الدماء. فهذا جَدّه واجتهاده في الليلة المظنونة، فكيف لو جعلناها معلومة له فحينئذ يظهر سرّ قوله تعالى: ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

من رأى ليلة القدر ؟

قال ابن رجب: إن اللّٰه تعالى لم يكشفها لأَحد من الأَولين والآخرين، ولا النبيين والمرسلين، في يوم ولا ليلة، إلا لنبينا ﷺ، فإنه لـمَّا أنزلها عليه، وعرّفه قدرها، أراه عليه الصلاة والسلام إياها في منامه، وعرّفه في أي ليلة تكون، فأصبح عالماً بها، وأراد أن يخبر بها الناس لسروره، فتلاحى بين يديه رجلان، فَأُنسيها ﷺ، وأمر بطلبها في ليالي العشر الأواخر، لأنهم لا يرونها مكاشفة أبداً، ولا يراها أحد بعده ﷺ.

وفي بعض الأخبار ما يدل على أن رؤيتها مناماً وقعت لغيره ﷺ، ففي صحيح مسلم وغيره: عن ابن عمر رضي اللّٰه تعالى عنهما: أن رجالًا من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر، فقال رسول اللّٰه ﷺ: « أَرَى رُؤْيَاكُم قد تَواطَأَت في السَّبْعِ الأَوَاخِرِ، فمن كان مُتحريها فَلْيتحَرَّهَا في السَّبْع الأَواخِر ».

وفي شرح مسلم للنووي ما يخالف ذلك إذ قال: اعلم أن ليلة القدر موجودة، وأنها تُرى ويتحققها من شاء اللّٰه تعالى من بني آدم كل سنة في رمضان، كما تظاهرت عليه الأحاديث وأخبار الصالحين بها، ورؤيتهم لها أكثر من أن تُحصى.

من خصائص الليلة وفضائلها:

﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴾ [القدر: ٤].

أي يكثر نزول الملائكة في هذه الليلة، لكثرة بركتها، والملائكة يَنزلون مع تَنزُّل البركة والرحمة، كما ينزلون عند تلاوة القرآن، ويحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيماً له.

و ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ ﴾ [القدر: ٥]. قال مجاهد: هي سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً، أو يعمل فيها أذى.

وقال الشعبي: تُسلِّم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد حتى يطلع الفجر.

وعن أبي هريرة رفعه: إنَّ الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى ﴿ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٤].

قال قتادة وغيره: تُقْضَى فيها الأُمور، وتُقَدَّر الآجال والأَرزاق.

وأورد ابن كثير عن كعب أنه قال:

إن سدرة المنتهى على حد السماء السابعة مما يلي الجنة، فهي حد هواء الدنيا وهواء الآخرة، علوها في الجنة، وعروفها وأغصانها من تحت الكرسي، فيها ملائكة لا يعلم =

....

= عدّتهم إلا اللَّه عز وجل، يعبدون اللَّه عزَّ وجلَّ على أغصانها، في كل موضع شعرة منها مَلَكٌ، ومقام جبريل في وسطها، فينادي اللَّه جبريل أن ينزل في كل ليلة القدر مع الملائكة الذين يسكنون سدرة المنتهى، وليس فيهم مَلَكٌ إلا قد أُعطي الرأفة والرحمة للمؤمنين، فينزلون على جبريل في ليلة القدر حين تغرب الشمس، فلا تبقى بقعة في ليلة القدر إلا وعليها مَلَكٌ إما ساجد وإما قائم، يدعو للمؤمنين والمؤمنات، إلا أن تكون كنيسة، أو بيعة، أو بيت نار، أو وثن، أو بعض أماكنكم التي تطرحون فيها الخبث، أو بيت فيه سكران، أو بيت فيه مسكر، أو بيت فيه وثن منصوب، أو بيت فيه جرس معلق، أو مبولة، أو مكان فيه كساحة البيت، فلا يزالون ليلتهم تلك يدعون للمؤمنين والمؤمنات، وجبريل لايدع أحداً من المؤمنين إلا صافحه، وعلامة ذلك: من اقشعر جلده، ورق قلبه، ودمعت عيناه، فإن ذلك من مصافحة جبريل.

وذكر كعب: إن من قال في ليلة القدر: لا إله إلا اللَّه ثلاث مرّات، غفر اللَّه له بواحدة، ونجاه من النَّار بواحدة، وأدخله الجنة بواحدة، فقلنا لكعب الأحبار: يا أبا إسحاق صادقاً؟ فقال كعب الأحبار: وهل يقول لا إله إلا اللَّه في ليلة القدر إلا كل صادق، والذي نفسي بيده إن ليلة القدر لتثقل على الكافر والمنافق حتى كأنها على ظهره جبل، فلا تزال الملائكة هكذا حتى تطلع، فأول من يصعد جبريل حتى يكون في وجه الأفق الأعلى من الشمس، فيبسط جناحيه، وله جناحان أخضران لا ينشرهما إلا في تلك الساعة، فتصير الشمس لا شعاع لها، ثم يدعو ملكاً ملكاً فيصعد، فيجتمع نور الملائكة، ونور جناحي جبريل، فلا تزال الشمس يومها ذلك متحيرة، فيقيم جبريل ومن معه بين الأرض وبين السماء الدُّنيا يومهم ذلك، في دعاء ورحمة واستغفار للمؤمنين والمؤمنات ولمن صام رمضان إيماناً واحتساباً، ودعاء لمن حدّث نفسه إن عاش إلى قابل صام رمضان للَّه، فإذا أمسوا دخلوا إلى السماء الدنيا، فيجلسون حلقاً حلَقاً، فتجتمع إليهم ملائكة سماء الدنيا، فيسألونهم عن رجل رجل وعن امرأة امرأة، فيحدثونهم، حتى يقولوا: ما فعل فلان وعن امرأة امرأة، فيحدثونهم، حتى يقولوا: ما فعل فلان وكيف وجدتموه العام؟ فيقولون: وجدنا فلاناً عام أول في هذه الليلة متعبداً ووجدناه العام مبتدعاً، ووجدنا فلاناً مبتعداً ووجدناه العام عابداً، قال: فيكفون عن الاستغفار لذلك، ويقبلون على الاستغفار لهذا، ويقولون: وجدنا فلاناً وفلاناً يذكران اللَّه، ووجدنا فلاناً راكعاً، وفلاناً ساجداً، ووجدناه تالياً لكتاب اللَّه، قال: فهم كذلك يومهم وليلتهم حتى يصلوا إلى السماء الثانية، ففي كل سماء يوم وليلة، حتى ينتهوا مكانهم من سدرة المنتهى، فتقول لهم سدرة المنتهى: يا سَاكِنِيَّ حدّثوني عن الناس، وسمّوهم لي، فإن لي عليكم حقاً، وإني أُحِبُّ من أَحَبَّ اللَّه، فذكر كعب الأحبار: أنهم يعدون لها، ويحكون لها الرجل والمرأة بأسمائهم وأسماء آبائهم، ثم تقبل الجنة على السدرة فتقول: أخبريني بما أخبر سكانك من الملائكة، فتخبرها، قال: فتقول =

....

= الجنة: رحمة اللّه على فلان، ورحمة اللّه على فلانة، اللَّهُمَّ عجلهم إليّ، فيبلغ جبريل مكانه قبلهم، فيلهمه اللّه فيقول: وجدت فلاناً ساجداً فاغفر له، فَيُغفَرُ له، فيسمع جبريل جميع حملة العرش فيقولون: رحمة اللّه على فلان، ورحمة اللّه على فلانة، ومغفرته لفلان، ويقول يا رب وجدت فلاناً الذي وجدته عام أول على السنة والعبادة، ووجدته العام قد أحدث حدثاً وتولى عما أُمرَ به، فيقول اللّه: يا جبريل إن تاب فأعتبني قبل أن يموت بثلاث ساعات غفرت له، فيقول جبريل: لك الحمد إلٰهي، أنت أرحم من جميع خلقك، وأنت أرحم بعبادك من عبادك بأنفسهم. فيرتج العرش وما حوله، والحجب، والسموات ومن فيهن تقول: الحمد للّه الرحيم، الحمد للّه الرحيم.
قال: وذكر كعب أنه من صام رمضان وهو يحدث نفسه إذا أفطر رمضان أن يعصى اللّه دخل الجنة بغير مسألة ولا حساب ليلة القدر، وللّه الحمد والمنة.
ومنها: إنَّ الشيطان لا يخرجُ في هذه الليلة حتى يُضيء فجرها، ولا يستطيع أن يصيب فيها أحد بخَبل ولا شيء من الفساد، ولا ينفذ فيها سحر ساحر.
وقال الشعبي: وليلها كيَوْمِهَا، ويَوْمها كَلَيْلِهَا.
وقال الفراء: لا يقدر اللّه في ليلة القدر إلا السعادة والنعم، ويقدر في غيرها البلايا والنّقم.
وجاء في حديث أخرجه محمد بن نصر عن أنس مرفوعاً: « إنها تعدل ربع القرآن ».
وذكر غير واحد من الشافعية أنه يُسَنُّ قراءتها بعد الوضوء.

ليلة القدر وليلة الجمعة:

قال اللّه تعالى: ﴿ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴾ [القدر: ٣].
قال العلامة الألوسي: وظاهر الآية أنها أفضل من ليلة الجمعة، والمسألة خلافية، وأكثر الأئمة على أنها أفضل منها، للآية، ولأن اللّه تعالى أنزل فيها القرآن، ولم ينزله في غيرها، ولأنه سبحانه أمر بطلبها، عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى:
﴿ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ ﴾ [البقرة: ١٨٧]. ليلة القدر.
ولأنه عز وجل جعلها ليلة الفرق والحكم، فقال جل شأنه: ﴿ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٤].
وسماها جل وعلا ليلة القدر، أي: التقدير.
وروي عن كعب أنه قال: إن اللّه تعالى اختار الساعات فاختار أوقات الصلاة. واختار الأيام، فاختار يوم الجمعة، واختار الشهور، فاختار شهر رمضان، واختار الليالي، فاختار ليلة القدر. فهي أفضل ليلة في أفضل شهر.
ولأن النبي ﷺ حث على العمل فيها، فقد صحَّ: « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ». وفي رواية: « وما تَأَخَّرَ » ونهى عليه الصلاة والسلام أن يخص ليلة الجمعة بقيام، ويومها بصيام. =

....

= ولأنه سبحانه وتعالى أخفاها ولم يعينها، كما أخفى سبحانه أعظم أسمائه عز وجل، وكما أخفى جل شأنه أفضل الصلوات وهي الصلاة الوسطى.

فائدة: ذهب أكثر الحنابلة كأبي حسن الجزري، وعبد اللّٰه بن بطة، وأبي حفص البرمكي وغيرهم: إلى أن ليلة الجمعة أفضل، لما روي عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: « يغفِرُ اللّٰه تعالى ليلة الجمعة لأهل الإسلام أجمعين ». وهذه فضيلة لم تجيء لغيرها.

رُوِي عن ابن مسعود قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « ما من ليلة جمعة إلا وينظر اللّٰه تعالى إلى خلقه ثلاث مرات لمن لا يُشرك باللّٰه تعالى شيئاً ».

ولما رُوِي عن عمر رضي اللّٰه تعالى عنه، أن النبي ﷺ قال: « أكثروا الصلاة عليّ في الليلة الغراء واليوم الأزهر، ليلة الجمعة ويوم الجمعة » والغُرّةُ مِنَ الشيء خياره.

الدعاء فيها:

وَرَدَ عن السيدة عائشة أُم المؤمنين رضي اللّٰه تبارك وتعالى عنها، أنها سألت النبي ﷺ أنها إن وافقت ليلة القدر ما تقول فيها ؟ فأجابها الحبيب ﷺ: بقوله الجامع، قولي: «اللهم إنك عفوّ تُحب العفو فاعف عني».

العفوّ من أسماء اللّٰه تعالى، وهو يتجاوز عن سيئات عباده، الماحي لآثارهم عنهم، وهو يحب العفو؛ فيجب أن يعفو عن عباده ويحب من عباده أن يعفو بعضهم عن بعض، فإذا عفا عن بعض عاملهم بعفوه، وعفوه أحب إليه من عقوبته.

وكان النبي ﷺ يقول: « أعوذ برضاك من سخطك وعفوك من عُقوبتك »[١] .

قال يحيى بن معاذ: « لو لم يكن العفو أحب الأشياء إليه، لم يَبْتَلِ بالذَّنب أكرم الناس عليه ».

يشير إلى أنه ابتلي كثير من أوليائه وأحبابه بشيء من الذُّنوب لِيعاملهم بالعفو، فإنه يحب العفو.

قال بعض السلف الصالح: لو علمت أحب الأعمال إلى اللّٰه تعالى لأجهدت نفسي فيه، فرأى قائلًا يقول له في منامه: إنك تريد ما لا يكون، إن اللّٰه يحب أن يعفو ويغفر، وإنما أحَبَّ أن يعفو ليكون العباد كلهم تحت عَفوه.

لمَّا عَرفَ العارفون بجلاله خَضَعوا، ولما سمِعَ المذنبون بعفوه طَمِعُوا، ما ثَمّ إلا عفو اللّٰه أو النَّار، لولا طمع المذنبين في العفو لاحترقت قلوبهم باليأس من الرحمة[٢].

نسأل اللّٰه سبحانه أن يتجاوز عن سيئاتنا ويعفو عنَّا فإنَّه هو سبحانه العفو الرحيم. هذا وقد سبق لي أن جمعت كتاب « دعاء الرسول ﷺ »[٣]. وقد اخترت منه بعض الأدعية للاستعانة بها على خير الدنيا والآخرة ومنها: =

---

(١) أخرجه مسلم [٤٨٦].

(٢) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي [ص: ٢١٩، ٢٢٠].

(٣) من منشورات مكتبة التراث الإسلامي.

....

= ○ اللَّهُمَّ أنت الأول فلا شيء قبلك، وأنت الآخرُ فلا شيء بعدك، أعوذ بك من شر كل دابة ناصيتها بيدك، وأعوذ بك من الإثم والكسل وعذاب القبر وفتنة الغني وفتنة الفقر، وأعوذ بك من المأثم والمغرم، اللَّهُمَّ نقِّني من خطاياي كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، اللَّهُمَّ باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب.

○ اللَّهُمَّ إني أسألك خير المسألة، وخير الدعاء، وخير النجاح، وخير العمل، وخير الحياة، وخير الممات، وثبتني، وثقِّل موازيني، وارفع درجتي، وتقبل صلاتي، واغفر خطيئتي، وأسألك الدرجات العُلى من الجنَّة.. آمين. اللَّهُمَّ إني أسألك الجنة.. آمين، اللَّهُمَّ أسألك خير ما فعل، وخير ما عمل وخير ما بطن، وخير ما ظهر، وأسألك الدرجات العلى من الجنة... آمين، اللَّهُمَّ إني أسألك أن ترفع ذكري، وتضع وزرِي، وتُصلح أمري، وتطهر قلبي، وتحفظ فرجي، وتنور قلبي وتغفر ذنبي. وأسألك الدرجات العُلى من الجنة.. آمين. اللَّهُمَّ نجني من النَّار[(١)].

○ اللَّهُمَّ ربنا لك الحمد، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت مَلِكُ السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك حق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمدٌ حق، والساعة حق. اللَّهُمَّ لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المُقَدِّم وأنت المُؤخِرُ لا إله إلا أنت - أو لا إله غيرك-[(٢)].

○ اللَّهُمَّ رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلِفَ فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم[(٣)].

○ اللَّهُمَّ إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللَّهُمَّ إني أسألك العفو والعافية في ديني ودُنياي، وأهلي ومالي، اللَّهُمَّ استر عَورَاتي، وآمن رَوعَاتي، اللَّهُمَّ احفظني من بين يَدَيَّ ومن خَلْفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أُغْتال من تحتي[(٤)]. =

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [١٠/ ١٧٦] وقال: ورجاله رجال الصحيح. غير محمد بن زنبور وعاصم بن عبيد وهما ثقتان.

(٢) أخرجه البخاري [٧٤٤٢] من حديث ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما.

(٣) أخرجه مسلم [٧٧١].

(٤) رواه أبو داود [٥٠٧٤]، وابن ماجه [٣٨٧١]، ورواه الحاكم [١/ ٥١٧] وصححه ووافقه الذهبي. وقال الحافظ في أمالي الأذكار: حسن، كما في الفتوحات الربانية لابن علان [٣/ ١٠٨] وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٤٢٣٩].

....

= ○ اللَّهُمَّ اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تُبلغنا به جنَّتك، ومن اليقين ما تُهوّن به علينا مصيبات الدنيا، ومَتِّعْنَا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مُصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مَبْلَغ علمنا، ولا تُسلّط علينا مَنْ لا يرحمنا (١).

يا من لا تراه العيون، ولا تُخالطه الظنون، ولا يصفه الواصفون ولا تغيره الحوادث، ولا يخشى الدوائر، يعلم مثاقيل الجبال، ومكاييل البحار، وعدد قطر الأمطار، وعدد وَرَقِ الأشجار، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار، ولا تواري منه سماءٌ سماء، ولا أرضٌ أرضاً، ولا بحرٌ ما في قعره، ولا جبلٌ ما في وعره، اجعل خير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك فيه (٢).

○اللَّهُمَّ بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا علمت الوفاة خيراً لي، اللَّهُمَّ وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الإخلاص في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغني وأسأل نعيماً لا يَنْفَد، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مُضِرة، ولا فِتْنة مُضِلَّة، اللَّهُمَّ زيِّنا بزينة الإيمان واجعلنا هداةً مهتدين (٣).

○ اللَّهُمَّ أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبُوءُ لك بنعمتك عليّ، وأبوءُ بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت (٤).

○ رَبِّ أعني ولا تُعِنْ عَليَّ، وانصُرْني ولا تَنصُرْ عليَّ، وامكُر لي ولا تَمْكُر عَليَّ، واهدني ويسر لي الهدى، وانصرني على من بغى عَليَّ، رب اجعلني شاكراً لك، ذاكراً لك، راهباً لك، مِطْوَاعاً لك، مُخْبِتاً إليك، أوَّاهاً مُنيباً، رَبِّ تقبل توبتي، واغسل حَوْبتي، وأجب دعوتي، وثبت حُجتي، وسدد لساني، واهدِ قلبي، واسْلل سخيمة صدري. ليلة القدر للعراقي [ص: ٨: ٣٣].

---

(١) رواه الترمذي [٣٥٠٢] وقال: حديث حسن وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٢٧٨٣].

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [١٠/ ١٥٨] وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن محمد أبو عبد الرحمن الأذومي وهو ثقة.

(٣) رواه النسائي في المجتبي [٣/ ٥٤] من حديث عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه، وصححه الألباني في صحيح النسائي [١٢٣٧، ١٢٣٨].

(٤) أخرجه البخاري [٦٣٠٦] من حديث شداد بن أوس رضي الله تعالى عنهما.

وأما موعدها على التحديد فلا يعلمه إلا اللَّه تعالى. وورد عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: « التمِسُوها في العَشْرِ الأوَاخر من رمضانَ »(١).

---

(١) وقد اختلف العلماء في محلها، فذهب جمع من العلماء إلى أنها تلزم ليلة بعينها، واختلف هؤلاء في تعيين تلك الليلة على أقوال:

أحدها: إنها في جميع السَّنَة، وهو المشهور عن أبي حنيفة رضي اللَّه تعالى عنه. ويشهد له قول عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه تعالى عنه: ومن يُقِم الحَول يُصيبها. لكن في صحيح مسلم عن زر بن حبيش قال: سألت أُبَيّ بن كعب فقلت: إن أخاك ابن مسعود يقول: من يُقِم الحول يُصِبْ ليلة القدر، فقال رحمه اللَّه: أراد أن لا يغفل الناس، أما إنه قد علم أنها في رمضان وأنها في العشر الأواخر، وأنها ليلة سبع وعشرين، فبهذا فَهِمَ أُبي من كلام عبد اللَّه.

ويشهد له ما في مسند أحمد عن أبي عقرب قال: غدوت إلى ابن مسعود ذات غداة في رمضان. فوجدته فوق بيت جالساً. فسمعنا صوته وهو يقول: صدق اللَّه وبلَّغ رسوله.

فقلنا: سمعناك تقول: صدق اللَّه وبلغ رسوله!

قال: إن رسول اللَّه ﷺ قال: ليلةُ في السَّبْع الأواخر. تَطْلع الشمس غَدَاةَ غَدِها صافية ليس لها شُعَاع. فنظرت فوجدتها كما قال رسول اللَّه ﷺ » رواه البزار في مسنده بنحوه(١).

وفي معجم الطبراني عن ابن مسعود رضي اللَّه تعالى عنه قال: « سُئِل رسول اللَّه ﷺ عن ليلة القدر فقال: « أيُّكُمْ يذكر ليلة الصَّهباوات؟ » فقال عبد اللَّه: أنا بأبي وأمي يا رسول اللَّه. حين طلع الفجر وذلك ليلة سبع وعشرين(٢).

والحديث في عدّة كتب، لكن لم أرَ التَّصريح بليلة سبع وعشرين إلا في معجم الطبراني الكبير، فلذلك اقتصرت على عَزْوِهِ إليه(٣).

الثاني: إنها في شهر رمضان كله، وهو قول ابن عمر رضي اللَّه تعالى عنهما، وجماعة من الصحابة.

=

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [٣/ ١٧٤] وقال: رواه أحمد وأبو يعلى.. وأبوعقرب لم أجد من ترجمه وبقية رجاله ثقات. ا.هـ.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [٣/ ١٧٤] وعن عبد اللَّه بن مسعود: «أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال من يذكر ليلة الصهباوات؟ فقال عبد اللَّه: أنا بأبي وأمي، وإن في يدي التمرات أتسحر بهن مستتراً بمؤخرة رحل، من الفجر وذلك حين يطلع القمر.

رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في الكبير وزاد: «وذلك ليلة سبع وعشرين».

وقال: أبو عبيدة لم يسمع من أبيه. ا.هـ.

(٣) سُئل ابن تيمية رحمه اللَّه عن ليلة القدر، وهو معتقل بالقلعة - قلعة الجبل - سنة ست وسبعمائة، فأجاب:

=

كان الرسول بذلك يخبرنا أن التشاجر والجدل إنما يشجب عن النفس صفاءها.

= وفي سنن أبي داود عن ابن عمر قال: «سُئِل رسول اللَّه ﷺ عن ليلة القدر، وأنا أسمع، قال: هي في كل رمضان»[(١)].
قال أبو داود: وروى موقوفاً عليه.
قلت: الحديث مُحتمل للتَّأويل، بأن يكون المعنى بأنها تتكرر وتوجد في كل سَنَةٍ في =

= الحمد للَّه، ليلة القدر في العشر الأواخر من شهر رمضان، هكذا صح عن النبي ﷺ أنه قال: «هي في العشر الأواخر من رمضان». وتكون في الوتر منها. لكن الوتر يكون باعتبار الماضي، فتطلب ليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاثة وعشرين، وليلة خمس وعشرين، وليلة سبع وعشرين، وليلة تسع وعشرين.
ويكون باعتبار ما بقي، كما قال النبي ﷺ: «لتاسعة تبقى، لسابعة تبقى، لخامسة تبقى، لثالثة تبقى» فعلى هذا إذا كان الشهر ثلاثين يكون ذلك ليالي الاشفاع، وتكون الاثنين وعشرين تاسعة تبقى، وليلة أربع وعشرين سابعة تبقى.
وهكذا فسره أبو سعيد الخدري في الحديث الصحيح[(١)].
وإن كان الشهر تسعاً وعشرين، كان التاريخ بالباقي، كالتاريخ الماضي. وإن كان الأمر هكذا، فينبغي أن يتحراها المؤمن في العشر الأواخر جميعها، كما قال النبي ﷺ: «تحروها في العشر الأواخر».
وتكون في السبع الأواخر أكثر، وأكثر ما تكون ليلة سبع وعشرين، كما كان أُبي بن كعب يحلف أنها ليلة سبع وعشرين، فقيل له: بأي شيء علمت ذلك؟ فقال: بالآية التي أخبرنا رسول اللَّه ﷺ.
«أخبرنا أن الشمس تطلع صبحة، صبيحتها كالطست، لا شعاع لها». فهذه العلامة التي رواها أُبي بن كعب عن النبي ﷺ من أشهر العلامات في الحديث.

(١) رواه أبو داود [١٣٨٧] وقال: هي في كل رمضان، ورجاله ثقات، إلا أبا إسحاق وهو السبيعي يرمونه بالاختلاط في آخر عمره.
وقد رواه سفيان موقوفاً على ابن عمر - وهو أثبت الناس في أبي إسحاق - وإسناده صحيح، أخرجه ابن أبي شيبة. قاله شعيب الأرناؤوط في شرح السنة [٦/ ٣٨٢] وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود [٢٩٦] وقال: والصحيح موقوف.

(١) عن أبي هريرة قال: تذاكرنا ليلة القدر، فقال رسول اللَّه ﷺ: «كم مضى من الشهر؟» قلنا: اثنان وعشرون، وبقي ثمان. فقال: «مضى اثنان وعشرون وبقي سبع، اطلبوها الليلة، الشهر تسع وعشرون».
رواه البغوي في شرح السنة [٦/ ٣٨٦] وقال محققاً الكتاب. إسناده صحيح، وقد روي في علاماتها «أنها ليلة بلجة[(١)] منيرة». وهي ساكنة لا قوية الحر، ولا قوية البرد.
وقد يكشفها اللَّه لبعض الناس في المنام، أو اليقظة فيرى أنوارها، أو يرى من يقول له هذه ليلة القدر، وقد يفتح على قلبه من المشاهدة ما يتبين به الأمر واللَّه تعالى أعلم.

(١) في النهاية لابن الأثير [١/ ١٥١]. «ليلة القدر بلجة» أي مشرقة. والبلجة بالضم والفتح: ضوء الصبح.

وأن اللَّه أراد بالعشرة أيام الأخيرة من رمضان أن يعيها المؤمن في صفاء

= رمضان، لأنها وجدت مرة في الدهر، فلا يكون له دليل لهذا القول.

الثالث: إنها أول ليلة من شهر رمضان، قاله أبو رزين العقيلي الصحابي رضي اللَّه تعالى عنه.

الرابع: إنها في العَشرِ الأوسط والأواخر، ويردّه ما في الصحيح(١) عن أبي سعيد من قول جبريل عليه السلام للنبي ﷺ لمّا أن اعتكف العَشرَ الأوسط « إن الذي تَطْلُبُ أمَامَكَ ».

الخامس: إنها في العشر الأواخر فقط ويدل له قول النبي ﷺ « التمسوها في العشر الأواخر »(٢).

السادس: أنها تختص بأوتار العشر الأواخر لقوله ﷺ: « التمسوها في العشر الأواخر في وتر».

وفي مسند أحمد(٣) ومعجم الطبراني الكبير عن عبادة بن الصامت رضي اللَّه تعالى عنه: أنه سأل رسول اللَّه ﷺ عن ليلة القدر، فقال: رسول اللَّه ﷺ: « في رمضان، فالتمسوها في العشر الأواخر، فإنها في وتر، في إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين، أو تسع وعشرين، أو في آخر ليلة، فمن قامها وابتغاها إيماناً واحتساباً ثم وفقت له غُفِرَ له ما تقدم من ذَنْبِهِ وما تأخر ».

فيه عبد اللَّه بن محمد بن عقيل، وحديثه حَسَن، يرويه عمر بن عبد الرحمن، وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وقال: ليس بابن عوف، وقال الطبراني أظنه ابن الحارث بن هشام.

وفي هذا الحديث فائدتان حَسَنتان:

إحداهما: قوله: وما تأخر وما تقدم، تقدم التنبيه عليها.

الثانيــة: إنه إنما يترتب الثواب على قيامها بقصد ابتغائها لا على مُطْلَق القيام، وفيه إشكالٌ لقوله: « أو في آخر ليلة »، لأنه قال أولًا: فإنها في وتر، وآخر ليلة ليست وتراً إن كان الشهر كاملًا، وإن كان ناقِصاً فهي ليلة تِسع وعشرين، فلا معنى لعطفها عليها. لأن العطف يقتضي المُغايرة.

ويُجاب عنه بأن قوله: « أو في آخر ليلة » معطوف على قوله: « فإنها في وتر » لا على قوله: « أو تسع وعشرين » فليس تفسيراً للوتر بل معطوف عليه.

السابع: إنها تختص بأشفاعه(٤) لقول أبي سعيد الخدري، وقد قيل له: ما التاسعة =

---

(١) أخرجه مسلم [١١٦٧].

(٢) أخرجه البخاري [٢٠٢١] بلفظ: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، ليلة القدر، في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى».

(٣) رواه أحمد في المسند [٥/٣١٨، ٣٢٤].

(٤) الشفع: الزوج. ويروى بالفتح والضم، كالغرفة والغرفة، وإنما سمى الشفع لأنه أكثر من واحد. النهاية [٢/ ٤٨٥].

وسلام مع النفس لأن السلام في ليلة القدر هو سلام لكل الأزمنة لا يختل إلا إذا

= والسابعة والخامسة، أمَّا واحد وعشرون فالتي تليها اثنتان وعشرون، وهي التاسعة، فإذا مَضت ثلاثٌ وعشرون فالتي تليها السابعة، فإذا مضت خمس وعشرون. فالتي تليها الخامسة.

الثـامن: إنها ليلة سبع عشرة، وهو مَرْويٌّ عن زيد بن أرقم وابن مسعود أيضاً[1]. ففي معجم الطبراني عن زيد بن أرقم قال: ما أَشُكُّ وما أمتري أنها ليلة سبع عشرة، ليلة أُنزل القرآن، ويوم التقى الجمعان.

وعن زيد بن ثابت: أنه كان يحيي ليلة سبع عشرة، فقيل له: تحيي ليلة سبع عشرة. قال: إن فيها نزل القرآن، وفي صبيحتها فرق بين الحق والباطل، وكان يصبح فيها مبتهج الوجه، قلت: وحكي أيضاً عن الحسن البصري.

التاسـع: إنها ليلة تسع عشرة، وهو محكي عن عليّ بن أبي طالب وابن مسعود أيضاً.

العاشـر: إنها تُطلب ليلة سبع عشرة، بتقديم السين. أو إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين، حُكِي عن عليّ وابن مسعود أيضاً، ويشهد له ما في سنن أبي داود عن ابن مسعود رضي اللّه تعالى عنه قال: « قال لنا رسول اللّه ﷺ في ليلة القدر: « اطلبوها ليلة سبع عشرة من رمضان، وليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين. ثم سكت » واللّه أعلم.

الحادي عشر: إنها ليلة إحدى وعشرين.

ويدل عليه حديث أبي سعيد الثابت في الصحيح، الذي فيه: « وإني رأيتها ليلة وتر، وإني أسجد في صبيحتها في ماءٍ وطين، فأصبح من ليلة إحدى وعشرين، وقد قام إلى الصبح فمطرت السماء، ووكف المسجد، فأبصرت الطين والماء، فخرج حين فرغ من صلاته وجبينه وأنفه فيهما الماء والطين، وإذا هي ليلة إحدى وعشرين من العشر الأواخر»[2].

الثاني عشر: إنها ليلة ثلاث وعشرين، وهو قول جَمْع كثير من الصحابة وغيرهم ويدل لها ما في صحيح مسلم عن عبد اللّه بن أنيس: إن رسول اللّه ﷺ قال: « أُريت ليلة القدر ثم أُنسيتُها، وإذا في صبيحتها أسجد في ماء وطين، قال: فمُطِرنا ليلة ثلاث وعشرين، فصلي بنا رسول اللّه ﷺ، فانصرف وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه»[3].

وفي صحيح مسلم أيضاً عن أبي هريرة قال: « تَذاكرنا ليلة القدر عند رسول اللّه ﷺ =

---

(١) رواه أبو داود [١٣٨٤] من حديث ابن مسعود رضي اللّه تعالى عنه، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود [٢٩٥].

(٢) أخرجه البخاري [٤/٢٣٦]، ومسلم [١١٦٧].

(٣) أخرجه مسلم [١١٦٨].

امتنع البشر فيه عن السلام، وعطلوا ذلك السلام والزمان، وبذلك يكون امتناع

= فقال: « أيُّكم يذكر ليلة طلع القمر وهو مثل شق جفنة »(١).

وفي مسند أحمد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: « نظرتُ إلى القمر صبيحة ليلة القدر فرأيته كأنه فلق جَفْنَة » قال أبو إسحق السبيعي: إنما يكون القمر كذلك صبيحة ثلاث وعشرين.

ورواه عبد اللَّه بن أحمد في زياداته عن عليّ قال: قال النبي ﷺ: « خرجت ليلة حين بزغ القمر كأنه فلق جفنة، فقال: الليلة ليلة القدر ».

وكذا رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده مرفوعاً: وفيه إن الصحابي هو عليّ رضي اللَّه تعالى عنه (٢).

وفي سنن أبي داود عن عبد اللَّه بن أنيس قال: قلت: يا رسول اللَّه إن لي بادية أكون فيها وأُصلي فيها بحمد اللَّه، فمُرْني بليلة أنزلها إلى هذا المسجد، فقال: « انزل ليلة ثلاث وعشرين »(٣).

وروى الطبراني في معجمه الكبير مثله، عن عبد اللَّه بن جَحْش عن أبيه مرفوعاً. وفي مسند أحمد عن ابن عباس رضي اللَّه تعالى عنهما قال: « أُتيتُ وأنا نائم في رمضان، فقيل لي: إن الليلة ليلة القدر، قال: فقمت وأنا نَعِسٌ، فتعلقت ببعض أطناب النبي ﷺ، فأتيت رسول اللَّه ﷺ فإذا هو يُصلي فنظرت فى تلك الليلة فإذا هى ليلة ثلاث وعشرين »(٤).

ورجاله رجال الصحيح. ورواه الطبراني فى معجمه الكبير أيضاً.

الثالث عشـر: إنها ليلة أربع وعشرين، وهو مَرْوي عن بلال وابن عباس والحسن وقتادة.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس موقوفاً عليه: « التمسوا ليلة القدر فى أربع وعشرين » ذكره عقب حديثه الآتي: « هي في العشر فى سبع يمضين أو في سبع بقين». وظاهره أنه تفسير للحديث فيكون عمدة.

وفي مسند أحمد(٥) عن بلال: أن رسول اللَّه ﷺ قال: « ليلة القدر أربع وعشرين ». =

---

(١) أخرجه مسلم [١٩٧٠].

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [٣/ ١٧٤] وقال: رواه عبد اللَّه بن أحمد من زياداته وأبو يعلى وفيه خديج بن معاوية وثقه أحمد وغيره، وفيه كلام.

(٣) رواه أبو داود [١٣٨٠] من حديث عبد اللَّه بن أنيس رضي اللَّه تعالى عنه، وصححه الألباني في صحيح الألباني [١٢٣١].

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع [٣/ ١٧٦] وقال: رواه أحمد والطبراني في الكبير، ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٥) رواه أحمد في المسند [٦/ ١٢]، وذكره الهيثمي في المجمع [٣/ ١٧٦] وقال: رواه أحمد وإسناده حسن.

السلام هو غفلة من الإنسان عن اتباع منهج اللّه .

= **الرابع عشر** : إنها تكون في ليلة ثلاث وعشرين ، أو سبع وعشرين ، وهو محكي عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنه ، ويدل له ما في صحيح البخاري عن ابن عباس : « قال رسول اللّه ﷺ : «هي في العشر في سبع يمضين أو سبع بقين ، يعني ليلة القدر» .

وما في مسند البزار بإسناد جيد عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه تعالى عنه قال : سُئل النبي ﷺ عن ليلة القدر فقال : « كنت أُعْلِمْتُها ثم انفلتت مني ، اطلبوها في سبع بقين أو ثلاث بقين »[١] .

الخامس عشر: إنها ليلة سبع وعشرين، وهذا عليه أجمع كثيرون من الصحابة وغيرهم فكان أُبي بن كعب رضي اللّه تعالى عنه يَحْلِفُ لا يستثني أنها ليلة سبع وعشرين، كما هو ثابت في الصحيح، فقيل له: بأي شيء تقول ذلك يا أبا المنذر.

فقال: بالعلامة أو بالآية التي أخبرنا رسول اللّه ﷺ: « إن الشمس تطلُعُ يومئذ لا شُعَاعَ لها »[٢].

وفي سنن أبي داود عن معاوية رضي اللّه تعالى عنه عن النبي ﷺ في ليلة القدر قال: «ليلة سبع وعشرين »[٣].

وفي مسند أحمد بإسناد على شرط الشيخين عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من كان مُتَحَريها فليتحرها ليلة سبع وعشرين » وقال: « تحروها ليلة سبع وعشرين. يعني: القَدْر » ورواه الطبراني في معجمه الكبير.

وفي معجم الطبراني الأوسط بإسناد لا بأس به، عن جابر بن سَمُرَة قال: « قال رسول اللّه ﷺ: « التمسوا ليلة القدر ليلة سبع وعشرين »[٤].

واستدل ابن عباس على ذلك: بأن الإنسان خلق من سَبع وجُعل رزقه في سبع.

واستحسن ذلك عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه.

واستدل بعضهم على ذلك بأن اللّه سبحانه وتعالى كرر ذكر ليلة القدر في السورة المتقدمة، ذكرها ثلاث مرات. وعدد حروف ليلة القدر تسعة أحرف، والمرتفع من ضرب ثلاثة في تسعة سبعة وعشرون، فتكريرها ثلاثاً دون غيرها إشارة إلى ذلك.

واستدل أيضاً بأن عدد كلمات السورة إلى قوله: ﴿ هِيَ ﴾ [القدر: ٥] سبع وعشرون كلمة، وفيه إشارة إلى ذلك. =

---

(١) ذكره الهيثمي في المجمع [٣/ ١٧٦] وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه مسلم [٢٢٠].

(٣) رواه أبو داود [١٣٦] وصححه الألباني في صحيح أبي داود [١٢٣٦].

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع [٣/ ١٧٧] وقال: رواه الطبراني في الأوسط عن أبي بكر ابن أبي شيبة وجادة عن خط أبيه، ورجاله ثقات.

....

= ونقل أبو محمد بن عطية في تفسيره نظير ذلك، في قول بعضهم: إن ملائكة النار الذين قال فيهم اللَّه تعالى: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر: ٣٠] عددهم كعدد حروف بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، لكل حرف ملك، وهم يقولون في كل أفعالهم بسم اللَّه الرحمن الرحيم، فيها قُوتهم واستغاثتهم.

وفي قول بعضهم في عدد الملائكة الذين ابتدروا قول القائل ربنا لك الحمد حمداً طيباً مُباركاً فيه: إنها بضعة وثلاثون حرفاً، فلذلك قال النبي ﷺ: « لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتُبها » قال ابن عطية وهذه من مِلَحِ التفسير وليست من متين العلم[١].

السادس عشر: إنها في آخر ليلة من الشهر: وفي سنن أبي داود عن عبد اللَّه بن أنيس قال: كنت في مجلس بني سَلَمَة وأنا أصغرهم فقالوا: من يسأل لنا رسول اللَّه ﷺ عن ليلة القدر، وذلك صبيحة إحدى وعشرين من رمضان، فخرجت فوافيت مع رسول اللَّه ﷺ صلاة المغرب، وقُمْتُ بِبَاب بَيْته، فمر بي فقال: ادخل، فدخلت، فأُتي بعشائه، فلقد كنت أكُفّن يدي عنه من قلته، فلما فَرَغَ قال: « ناولني نعلي »، فقام وقُمْتُ معه، فلما خرجنا قال: « أكانت لك حاجة ؟ » فقلت: أجل، أرسلني إليك رَهْطٌ من بني سلمة يسألونك عن ليلة القدر، فقال: « كم الليلة ؟ » قلت اثنتان وعشرون، قال: « هي الليلة » ثم رجع فقال: « أو القابلة »، يريد ليلة ثلاث وعشرين[٢]. وفي جامع الترمذي عن أبي بكر رضي اللَّه تعالى عنه قال: « ما أنا ملتمِسُها لشيء سمعته من رسول اللَّه ﷺ إلا في العشر الأواخر، فإني سمعتُه يقول: التمسوها لتسع بقين، أو لسبع بقين، أو ثلاث، أو آخر ليلة ». قال الترمذي: حسن صحيح[٣]. =

---

(١) ذكر ابن الجوزي في «زاد المسير» [٩/١٨٧-١٨٨]: كان أبي يحلف لا يستثني أنها ليلة سبع وعشرين. وبه قال ابن عباس وعائشة ومعاوية. واختاره أحمد رضي اللَّه تعالى عنه.
وهي عن ابن عباس أنه استدل على ذلك بشيئين.
أحدهما: أنه قال: إن اللَّه تعالى خلق الإنسان على سبعة أصناف، مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢]. ثم جعل رزقه في سبعة أصناف، يشير إلى قوله تعالى: ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ ثم تصلى الجمعة على رأس سبعة أيام، وجعل السمٰوات سبعاً، والأرض سبعاً، والمثاني سبعاً. فلا أرى ليلة القدر إلا ليلة السابعة وعشرين.
الثاني: أنه قال: قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ هي الكلمة السابعة والعشرون، فدل على أنها كذلك.
واحتج بعضهم فقال: ليلة القدر وردت في هذه السورة ثلاث مرات وهي تسعة أحرف، والتسعة إذا كررت ثلاثاً فهي سبع وعشرون وهذا تنبيه على ذلك ا.هـ.

(٢) رواه أبو داود [١٣٧٩] وصححه الألباني في صحيح أبي داود [١٢٣٠].

(٣) رواه الترمذي [٧٩٤]، وصححه الألباني في صحيح الترمذي [٦٣٦].

....

= وفي صحيح البخاري عن عبادة بن الصامت قال: خرج رسول اللَّه ﷺ ليُخْبِرَ بليلة القدر، فَتَلَاحَى رجُلان من المسلمين. فقال النبي ﷺ: « إني خرجت لأُخبركم بليلة القدر، فتلاحى رجلان، فُلَانٌ وفُلان، فرُفِعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسُوها في التاسعة والسابعة والخامسة »[١].

وفي سنن أبي داود عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: « التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، ليلة القدر في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى »[٢].

وفي مسند أحمد عن معاذ بن جبل، أن رسول اللَّه ﷺ سُئل عن ليلة القدر فقال: « هي في العشر الأواخر، قُمْ في الثالثة أو الخامسة »[٣].

وفي مسند أحمد أيضاً بإسناد جيد عن أبي هريرة: أن رسول اللَّه ﷺ قال في ليلة القدر: « إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين، إن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد النجوم »[٤].

وفي معجم الطبراني الأوسط عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: « التمسوا ليلة القدر في سبع عشرة أو تسع عشرة أو إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين أو سبع وعشرين أو تسع وعشرين » وفيه أبو المهزم ضعيف.

وقد تضمنت هذه الأحاديث أقوالًا في ليلة القدر لم أر أحداً من العلماء صرح بالقول فيها، فإن عددناها فيكون في المسألة اثنان وعشرون قولًا، تقدم بيان ستَّة عشر منها.

السابع عشر: ليلة اثنين وعشرين أو ثلاث وعشرين[٥].

الثامن عشر: ليلة إحدى أو ثلاث أو خمس أو سبع وعشرين أو آخر ليلة.

التاسع عشر: ليلة إحدى أو ثلاث أو خمس وعشرين دليله حديث عبادة المتقدم، فإن الظَّاهر أن المراد تبقى بالتاسعة على السابعة وهي الخامسة.

العشرون: ليلة ثلاث أو خمس وعشرين، دليله: حديث مُعاذ المتقدم إذ الظاهر أن المراد: قُمْ في الثالثة بمعنى لتقديمه على الخامسة.

الحادي والعشرون: ليلة السابع أو التاسع والعشرين.

الثاني والعشرون: إنها في أوتار العشر الأخيرة، أو في ليلة سبع عشرة أو تسع عشرة، هذا كله تفريع على القول بأنها تلزم ليلة بعينها كما هو مذهب الشافعي، والصحيح من =

---

(١) أخرجه البخاري [٢٠١٨]، ومسلم [١١٦٧/ ٢١٧].

(٢) رواه أبو داود [١٣٨١] وصححه الألباني في صحيح أبي داود [١٢٣٢].

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع [٣/ ١٧٥] وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع [٣/ ١٧٦] بلفظ: «أكثر من عدد الحصى» وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط ورجاله ثقات.

(٥) سبق تخريجه [ص: ٨٥٣].

....

= مذهبه: أنها تختص بالعشر الأخيرة، وأنها في الأوتار أرجاها في الشفاع، وأرجاها ليلة الحادي والعشرين.

الثالث والعشرون: وهذا أيضاً يحسن أن يكون قولًا في المسألة فيكمل به الأقوال ثلاثة وعشرين قولًا، وتقدم قول من يرى أنها رُفعت فيكون أربعة وعشرين قولًا.

وذهب جماعة من العلماء إلى أنها تنتقل فتكون سَنَة في ليلة وسنة في ليلة أخرى وهكذا.

وهذا قول مالك وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبي ثور وغيرهم، وعزاه ابن عبد البر في الاستذكار للشافعي، ولا نعرفه عنه، ولكن قال به من أصحابه المزني وابن خُزَيمة، وهو المختار عند النووي وغيره للجمع بين الأحاديث الواردة في ذلك، فإنها اختلفت اختلافاً لا يمكن معه الجمع بينها إلا بما ذكرنا.

وبه يصير في المسألة خمسة وعشرون قولًا.

وذهب ابن حزم الظاهري[1] إلى انحصارها في أوتار العشر الأخيرة، لكن أول العشرين ليلة العشرين إن كان ناقصاً وليلة الحادي والعشرين إن كان تامًّا فهي مترددة بين ليلة الحادي والعشرين وما بعدها من الأوتار إن تم الشهر، وبين ليلة العشرين وما بعدها من الأشفاع إن نقص الشهر وهذا قول سادس وعشرون.

واعلم أن ليلة القدر موجودة، ويُريها اللَّه تعالى لمن شاء من بني آدم، بحيث يتحققها، وإخبار الصالحين برؤيتهم لها كثيرة ولا يلتفت إلى قول المهلثة أي صغيرة لا يمكن رؤيتها حقيقة، فإنه غلط فاحش كما قاله النووي رحمه اللَّه.

وقال بعض العلماء: أخفى اللَّه هذه الليلة عن عباده كيلا يتكلموا على فضلها، ويُقصّروا في غيرها، فأراد الجد في أبدانهم، فإنهم لذلك خلقوا، كما قال اللَّه تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وبهذا يصير في المسألة سبعة وعشرون قولًا. =

---

(١) قال الإمام ابن حزم الظاهري في المحلى [٧/ ٣٣]: ليلة القدر واحدةفي العام في كل عام، في شهر رمضان خاصة، في ليلة واحدة بعينها لا تنتقل أبداً، إلا أنه لا يدري أحد من الناس أي ليلة هي من العشر المذكور؟

إلا أنها في وتر منه ولا بد: فإن كان الشهر تسعاً وعشرين فأول العشر الأواخر بلا شك، ليلة عشرين منه، فهي إما ليلة عشرين، وإما ليلة اثنين وعشرين، وإما ليلة أربع وعشرين، وإما ليلة ست وعشرين، وإما ليلة ثمان وعشرين، لأن هذه هي الأوتار من العشر الأواخر. وإن كان الشهر ثلاثين فأول العشر الأواخر بلا شك ليلة إحدى وعشرين، فهي إما ليلة إحدى وعشرين وإما ليلة ثلاث وعشرين، وإما ليلة خمس وعشرين. لأن هذه هي أوتار العشر بلا شك.

وقال بعض السلف: «من يقم العام يدركها» ا.هـ.

....

❁ ❁ ❁

= ويدل هذا القول ما في معجم الطبراني الكبير بإسناد حسن عن عبد اللّه بن أنيس أنه قال: يا رسول اللّه أخبرني أي ليلة تُبْتَغى فيها ليلة القدر ؟ فقال ﷺ : « لولا أن يَتْرُكَ الناس الصلاة إلا تلك الليلة لأخبرتك ».

وفي مسند البزار عن الأوزاعي حدثني مرثد أو أبو مرثد، عن أبيه قال: قابلت أبا ذر عند الجمرة الوسطى فسألته عن ليلة القدر فقال: ما كان أحدٌ أسأل لهذا مني، قلت: يا رسول اللّه أنزلت على الأنبياء بوحي إليهم ثم رُفِعَت: قال: « بل هي إلى يوم القيامة »، قلت: يا رسول اللّه أيتُها هي ؟ قال: « لو أُذِن لي لأنبأتُكَ بها، ولكن التمِسْهَا في التسعين أو السبعين، ولا تسألني بعدها »، قال ثم أقبل رسول اللّه ﷺ فجعل يتحدث، قلت: يا رسول اللّه أيُّ السبعين ؟ فغضبَ عليّ غضبَة لم يغضب عليّ قبلها ولا بعدها مثلها، ثم قال: « ألم أنهك عنها ؟ لو أُذِنَ لي لأنبأتك بها » وذكر كلمة أن تكون في السبع الأواخر.

ليلة القدر للعراقي [٥٤ : ٨٤].

التكافل الاجتماعي في الإسلام

السؤال: كيف وضع الإسلام أسس التكافل الاجتماعي؟ ولماذا؟

الجواب: من رحمة اللّه سبحانه أن جعل المعيار الإيماني مرتبط بالعمل الصالح، وأن العمل الصالح لا يستظل بنعمته في قوانين الإسلام، فرد فقط، ولكن الأمة الإسلامية بنص القرآن، عليها أن تتكافل فيما بينها؛ ليستظل الضعيف بعمل القوي، ولا يستأثر القوي بنعم اللّه ويحرم منها الضعيف. إن اللّه علَّم محمداً ﷺ وأمته من بعده: أن معيار الإيمان هو التكافل والتآزر والأخوة الإيمانية؛ لذلك علمنا اللّه ألا نكون قصار النظر في الاستمتاع الفردي بالنعم، إنما أن تستطرق نعمه التي وهبها لنا على عباده.

إن اللّه قد علَّم محمداً ﷺ وأمته أن يكونوا غير ماديين، بمعنى ألا تستغرقهم حياة النعمة، فتستأثر بها قلة وتجوع كثرة، ومن فضل اللّه تعالى أن جعل التفاضل بين الناس بالتقوى. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] الآية، وقال رسول اللّه ﷺ: « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » ولا تقوى إلا بالعمل الصالح على هدي النبي ﷺ [١].

❁ ❁ ❁

(١) ومن هديه صلوات اللّه عليه وسلامه:
١ - المسلمون سواسية كأسنان المشط.
٢ - يسعى بذمتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم.
٣ - كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

حكم المُكْرَهِ على الصلاة والمُكْرَهِ على فعل منكر

السؤال: هل إذا أُكْرِهَ إنسان على الصلاة يأخذ ثواب صلاته ؟ وهل إذا أُكْرِهَ على فعل منكر يعاقب على ذلك ؟

الجواب: إنك إذا أمسكت عصاً غليظة، وأجبرت إنساناً على الصلاة، وقلبه لا يريد الصلاة، يرفضها، فلا صلاة له.

واللّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤].

أي: أنه سبحانه يقول: أنا لا أريد أعناقاً تخضع بالقهر؛ لأنني لو أردت ذلك فما أيسره، أنا لا أريد إكراهاً، إنما أريد عبادة عن طواعية وحب، لا عن إكراه وقهر.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فاللّه سبحانه وتعالى يريد عبادة عن محبوبية وخضوع، إذا عبدوا فعبادتهم عن حب، وإذا حكموا فحكمهم عن حب، وإذا باعوا أو اشتروا، كل ذلك في إطار حب ابتغاء مرضاة اللّه تعالى، وفي كل أمر من أمور الدنيا لا يشغلهم إلا ذلك الحب.

وإذا أكرهت إنساناً على فعل منكر، وقلبه يرفضه؛ فلا حساب عليه، فاللّه يُسقِط عنه الحساب[١].

❁ ❁ ❁

---

(١) عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: « إن اللّه وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ». رواه ابن ماجه [٢٠٤٥]، وقال الألباني في صحيح ابن ماجه [١٦٦٤]: صحيح.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

السؤال: يرى بعض الشباب أن استخدام القوة هو الطريق لتطهير المجتمع من المتناقضات، فما رأي فضيلتكم ؟

الجواب: إن هداية اللَّه فيها رحمة، وفيها لطف، وفيها لين، وإذا أردت أن تعالج داء فإنك تعطي الدواء للمريض بالتدريج، وشركات تصنيع الدواء تضع الدواء المر مغلفاً في كبسولة حتى لا يحس المريض بمرارته، ثم إنك قد تتحايل عليه حتى تعطيه الدواء، ولا يوجد مريض يشرب زجاجة الدواء مرة واحدة، وإلا فماذا يحدث له ؟ إنه بدل أن يشفى يموت.

ولذلك اسمع إلى قول الحق سبحانه وتعالى، إذ يقول لنبيه ﷺ : ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

إذن.. فاللَّه سبحانه وتعالى يطلب من رسوله الكريم أن يعالج أمور الدين باللطف واللين، وليس بالفظاظة والقسوة.

ويقول اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] ومن لطف اللَّه تعالى أنه يهدينا باللطف واللين، ويعالجنا بالحكمة والموعظة الحسنة، وهو القادر على أن يعاملنا بالغلظة والشدة، ولكنه الرحمن الرحيم، وهؤلاء الشباب الذين يستخدمون القوة لفرض رأيهم، أو لتطهير المجتمع من المساوئ بزعمهم يجهلون فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنهم بعملهم هذا يفتنون الناس في دين اللَّه، ويبشعون الدين في نفوس الناس ويصدون عن سبيل اللَّه.

❁ ❁ ❁

رعاية الأيتام

السؤال: كيف حدد اللّه لنا رعاية الأيتام ؟

الجواب: في شأن رعاية الأيتام أنزل اللّه تعالى قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1] [البقرة: ٢٢٠].

---

(١) قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، والإصلاح جعل الشيء صالحاً، أي: ذا صلاح، والصلاح ضد الفساد، وهو كون شيء بحيث يحصل به منتهى ما يطلب لأجله، فصلاح الرجل؛ صدور الأفعال والأقوال الحسنة منه، وصلاح الثمرة؛ كونها بحيث ينتفع بأكلها دون ضر، وصلاح المال؛ نماؤه المقصود منه، وصلاح الحال؛ كونها بحيث تترتب عليها الآثار الحسنة.

﴿ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ ﴾ مبتدأ ووصفه، واللام للتعليل أو الاختصاص. ووصف الإصلاح بـ ﴿لَّهُمْ﴾ دون الإضافة إذ لم يقل إصلاحهم؛ لئلا يتوهم قصره على إصلاح ذواتهم؛ لأن أصل إضافة المصدر أن تكون لذات الفاعل أو ذات المفعول فلا تكون على معنى الحرف؛ ولأن الإضافة لما كانت من طرق التعريف كانت ظاهرة في عهد المضاف فعدل عنها؛ لئلا يتوهم أن المراد إصلاح معين كما عدل عنها في قوله: ﴿ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ [يوسف: ٥٩] ولم يقل بأخيكم؛ ليوهمهم أنه لم يُرد أخاً معهوداً عنده، والمقصود هنا جميع الإصلاح لا خصوص إصلاح ذواتهم فيشمل إصلاح ذواتهم وهو في الدرجة الأولى ويتضمن ذلك إصلاح عقائدهم وأخلاقهم بالتعليم الصحيح والآداب الإسلامية ومعرفة أحوال العالم، ويتضمن إصلاح أمزجتهم بالمحافظة عليهم من المهلكات والأخطار والأمراض وبمداواتهم، ودفع الأضرار عنهم بكفاية مؤنهم من الطعام واللباس والمسكن بحسب معتاد أمثالهم دون تقتير ولا سرف، ويشمل إصلاح أموالهم بتنميتها وتعهدها وحفظها.

ولقد أبدع هذا التعبير، فإنه لو قيل: إصلاحهم؛ لتوهم قصره على ذواتهم فيحتاج في دلالة الآية على إصلاح الأموال إلى القياس ولو قيل: قل تدبيرهم خير؛ لتبادر إلى تدبير المال فاحتيج في دلالتها على إصلاح ذواتهم إلى فحوى الخطاب.

و « خَيْرٌ » في الآية يحتمل أن يكون أفعل تفضيل إن كان خطاباً للذين حملهم الخوف =

إن اللّه سبحانه يحدد للمؤمن أسلوب رعاية اليتامى بأن يعمل المؤمن لصالح

= من أكل أموال اليتامى على اعتزال أمورهم، وترك التصرف في أموالهم بعلة الخوف من سوء التصرف فيها كما يقال:

إن السلامة من سلمى وجارتها أن لا تحل على حال بواديها

فالمعنى: إصلاح أمورهم خير من إهمالهم، أي: أفضل ثواباً وأبعد عن العقاب، أي: خير في حصول غرضكم المقصود من إهمالهم، فإنه ينجر منه إثم الإضاعة ولا يحصل فيه ثواب السعي والنصيحة، ويحتمل أن يكون صفة مقابل الشر إن كان خطاباً لتغيير الأحوال التي كانوا عليها قبل الإسلام، فالمعنى: إصلاحهم في أموالهم وأبدانهم وترك إضاعتهم في الأمرين كما تقدم خير، وهو تعريض بأن ما كانوا عليه في معاملتهم ليس بخير بل هو شر، فيكون المرادُ من الآية على هذا: التشريع والتعريض؛ إذ التعريض بجامع المعنى الأصلي؛ لأنه من باب الكناية والكناية تقع مع إرادة المعنى الأصلي.

وجملة ﴿ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ عطف على جملة ﴿ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ والمخالطة مفاعلة من الخلط وهو جمع الأشياء جمعاً يتعذر معه تمييز بعضها عن بعض فيما تراد له، فمنع خلط الماء بالماء والقمح بالشعير، وخلط الناس، ومنه اختلط الحابل بالنابل، وهو هنا مجاز في شدة الملابسة والمصاحبة، والمراد بذلك ما زاد على إصلاح المال والتربية عن بعد، فيشمل المصاحبة والمشاركة والكفالة والمصاهرة إذ الكل من أنواع المخالطة.

وقوله: ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ جواب الشرط ولذلك قرن بالفاء؛ لأن الجملة الإسمية غير صالحة لمباشرة أداة الشرط ولذلك ف ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره فهم إخوانكم، وهو على معنى التشبيه البليغ، والمراد بالأخوة أخوة الإسلام التي تقتضي المشاورة والرفق والنصح. ونقل الفخر عن الفراء: « لو نصبته كان صواباً بتقدير فإخوانكم تخالطون » وهو تقدير سمج، ووجود الفاء في الجواب ينادي على أن الجواب جملة اسمية محضة، وبعد، فمجمل كلام الفراء على إرادة جواز تركيب مثله في الكلام العربي، لا على أن يقرأ به، ولعل الفراء كان جريئاً على إساغة قراءة القرآن بما يسوغ في الكلام العربي دون اشتراط صحة الرواية. والمقصود من هذه الجملة: الحث على مخالطتهم؛ لأنه لما جعلهم إخواناً كان من المتأكد مخالطتهم والوصاية بهم في هذه المخالطة؛ لأنهم لما كانوا إخواناً وجب بذل النصح لهم كما يبذل للأخ، وفي الحديث، « حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] ويتضمن ذلك التعريض بإبطال ما كانوا عليه من احتقار اليتامى والترفع عن مخالطتهم ومصاهرتهم. قال تعالى: =

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري [١٣]، ومسلم [٤٥/ ٧١] عن أنس بن مالك رضي اللّه تعالى عنه بلفظ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

اليتيم، فإن ضمه إلى منزله وأولاده فهذا عين الرضا، أما إذا ضمه لأهله؛ ليفسده أو يرهقه أو يستذله فليحذر اللَّه تعالى وغضبه.

ولو شاء اللَّه لفرض عليكم رعاية اليتيم دون مخالطة له لكن اللَّه لا يريد أن ينشأ اليتيم كارهاً للمجتمع المؤمن؛ إذ إن قهر اليتيم يجعله يكره المجتمع أو يفسد فيه، واللَّه لا يشرع إلا ما فيه مصلحة الإنسان والمجتمع معاً[1].

۞ ۞ ۞

= ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ [النساء: ١٢٧]. أي: عن أن تنكحوهن، لأن الأخوة تتضمن معنى المساواة فيبطل الترفع.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ [البقرة: ٢٢٠] وعد ووعيد؛ لأن المقصود من الإخبار بعلم اللَّه الإخبار بترتب آثار العلم عليه، وفي هذا إشارة إلى أن ما فعله بعض المسلمين من تجنب التصرف في أموال اليتامى تنزه لا طائل تحته؛ لأن اللَّه يعلم المتصرف بصلاح والمتصرف بغير صلاح، وفيه أيضاً ترضية لولاة الأيتام فيما ينالهم من كراهية بعض محاجيرهم وضربهم على أيديهم في التصرف المالي وما يلاقون في ذلك من الخصاصة، فإن المقصد الأعظم هو إرضاء اللَّه تعالى لا إرضاء المخلوقات، وكان المسلمون يومئذ لا يهتمون إلا بمرضاة اللَّه تعالى وكانوا يحاسبون أنفسهم على مقاصدهم، وفي هذه إشارة إلى أنه ليس من المصلحة أن يعرض الناس عن النظر في أموال اليتامى؛ اتقاء لألسنة السوء وتهمة الظن بالإثم، فلو تمالأ الناس على ذلك وقاية لأعراضهم لضاعت اليتامى، وليس هذا من شأن المسلمين؛ فإن على الصلاح والفساد دلائل ووراء المتصرفين عدالة القضاة. وولاة الأمور يجازون المصلح بالثناء والحمد العلن، ويجازون المفسد بالبعد بينه وبين اليتامى وبالتغريم لما أفاته بدون نظر.

التحرير والتنوير [٢/ ٣٥٥-٣٥٨].

(١) عن ابن عباس قال: لما أنزل اللَّه عز وجل: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام: ١٥٢] و ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا ﴾ [النساء: ١٠] انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضُلُ من طعامه فيحبس له، حتى يأكله، أو يفسد. فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول اللَّه ﷺ، فأنزل اللَّه عز وجل: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. فخلطوا طعامهم بطعامه وشرابهم بشرابه. رواه أبو داود [٢٨٧١]، وقال الألباني في صحيح أبي داود [٢٤٩٥]: حسن.

كيف نتقي الوقوع في المحارم ؟

السؤال: الإنسان مُعَرَّض طوال حياته للوقوع في محارم اللَّه، فما الوسائل التي شرعها اللَّه ؛ ليحفظ الإنسان من الوقوع فيها ؟

الجواب: لو نظر رجلٌ إلى امرأة مثلًا، فالنظر إدراك، ثم استقر إعجابه بها، فالإعجاب وجدان، والخطأ أننا تركنا النظر يستشري حتى انقلب إلى الوجدان وأصبح العلاج صعباً، ولكن لو أن الرجل نظر إلى امرأة جميلة لا تحل له، والنظر كما قلنا إدراك، ثم بعد ذلك تذكر أمر اللَّه بغض النظر[١] ، وغضَّ بصره، هل يكون هنا أي نوع من أنواع الشقاء البشري أو عدم الاحتمال أو عدم القدرة ؟ لا، قبل أن يبدأ كل هذا أراد اللَّه أن يحصن المؤمنين، وأن يوقف أي مجال لعمل الشيطان؛ فأمرنا بغض البصر، فإذا نحن غضضنا البصر انتهى كل شيء، ولذلك كان أمر اللَّه سبحانه وتعالى لنا بغض البصر، وأمره لنا بعدم الاقتراب من المحارم، أو من الأشياء التي حرَّمها اللَّه سبحانه وتعالى، هو رحمة من اللَّه؛ لأن هذه المسألة بالذات، إذا أدركت الوجدان، فلا بد من العودة إلى الطريق، وأن ننتزعها منه انتزاعاً؛ ولذلك أقول: ابتعد، ابتعد من أول لحظة، حتى لا تقع فيما حرمه اللَّه، فمثلًا إذا رأيت أناساً يشربون الخمر، فلا تجلس معهم، لماذا ؟ لأن الإغراء في هذه الحالة سيكون أقوى، فإنك إن انصرفت عنهم في اللحظة التي رأيتهم فيها؛ فلا إغراء في نفسك، ولكنك إن بقيت معهم؛ كان الإغراء أشد، وكان الوقوع في المعصية أسهل، والهروب منها أصعب، واللَّه يريد أن يرحم كل مؤمن، ولذلك طلب منه الابتعاد عن المعاصي تماماً[٢] ، منذ اللحظة الأولى، منذ النظرة الأولى، لا تقل إنني قوي، وسأقاوم؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى يعلم أن

---

(١) يقول اللَّه تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا . . . ﴿٣١﴾ ﴾ [النور].

(٢) يقول اللَّه عزّ وجل: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

الإنسان ضعيف، لماذا تفتعل معركة لم يَدْعُكَ أحد إليها ؟! وتبدد طاقة ليس مطلوباً منك أن تبددها، وتعرض نفسك للوقوع في محارم اللَّه، اجعل هذه الطاقة للخير، استخدمها فيما ينفع الناس، بدلًا من أن تذهب بقدميك إلى أماكن المعصية، ثم تدّعي بعد ذلك أنك قوي، وبدلًا من أن تفتح باب الشيطان، ثم لا تستطيع أن تغلقه.



الحكمة في جعل ولي الأمر يجمع الزكاة

السؤال: ما هي الحكمة وراء أمر اللَّه لولي الأمر بأن يجمع الزكاة من الأغنياء ويعطيها الفقراء، ولماذا لم يترك للأغنياء القيام بهذا الأمر ؟

الجواب: عندما يقرر الإسلام أن على ولي الأمر أن يأخذ الزكاة من الأغنياء القادرين؛ ليوزعها على الفقراء والمحتاجين، فإن تقرير الإسلام لهذا المبدأ هو حماية لمن يعطي من غرور الإعطاء.

وقيام ولي الأمر بهذا العمل يرفع الذلة عن الفقير؛ لأن الذي يأخذ ويعطي هو المكلف بإدارة أمور مجتمع المسلمين.

وقديماً كان يسود القول الملوك، لا يستحي أحد من سؤالهم؛ لأن الناس يجب ألا تخجل من أن تطلب من الحاكم ما تريده؛ لأن الحاكم مسئول أمام اللَّه عن العدل في رعيته.

كما أنه عندما يتصدق إنسان أعطاه اللَّه بعض الرزق على جاره الفقير؛ فقد يرى أولاد الغني والدهم وهو يعطي الفقير، أو قد يرى أولاد الفقير والدهم وهو يأخذ من الغني، وقد يثير ذلك بعض القلق الاجتماعي؛ لذلك أوصانا اللَّه أن تكون زكاتنا سراً، وفي حدود احترام كرامة الفقير؛ ولذلك أوصي اللَّه الحاكم أن يتولى جمع الزكاة بنفسه؛ ليقيم بين المسلمين المجتمع الإيماني الذي لا استعلاء ولا كبرياء فيه لمن يعطي، ولا ذلة ولا استجداء فيه من الآخذ.

فإيمان ولي الأمر بإقامة عدالة الإسلام يرفع الحرج في أمور كثيرة، ولعل أهم ما في إيمانية ولي الأمر هو القدوة الحسنة، فعندما يقوم الحاكم المسلم برعاية حق اللَّه في مال اللَّه، وفي أحوال المسلمين وغير المسلمين من الخاضعين لولايته، هذه الرعاية تستر المجتمع كله؛ لأنها تقيم القدوة الصالحة في المجتمع.

وعندما يقيم ولي الأمر عدالة الإسلام في المجتمع، فإنه ينقذ كرامة الناس، ويصبح أقرب إلى محبة اللَّه؛ لأنه الموكل في أمور خلق اللَّه [(١)].

---

(١) قالَ القاسمي: يقول اللَّه تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ =

....

= صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣]. ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ أي بعضها ﴿ صَدَقَةً ﴾ قال المهايمي: لتصدق توبتهم إذ ﴿ تُطَهِّرُهُمْ ﴾ أي: عما تلطخوا به من أوضار التخلف، وعن حب المال الذي كان التخلف بسببه، ﴿ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ أي: عن سائر الأخلاق الذميمة التي حصلت عن المال.

قال الزمخشري: التزكية مبالغة في التطهير وزيادة فيه، أو بمعنى الإنماء والبركة في المال. ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: واعطف عليهم بالدعاء لهم وتَرَحَّم. ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ أي: تسكن نفوسهم إليها، وتطمئن قلوبهم بها، ويثقون بأنه سبحانه قبل توبتهم.

وقال قتادة: ﴿ سَكَنٌ ﴾ أي: وقار. وقال ابن عباس: رحمة لهم.

وقد روى الإمام أحمد عن حذيفة أن النبي ﷺ كان إذا دعا للرجل، أصابته وأصابت ولده وولد ولده. وفي رواية: إن صلاة النبي ﷺ لتدرك الرجل وولده وولد ولده.

والجملة تعليل للأمر بالصلاة عليهم، ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعاءهم، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أي: بما في ضمائرهم من الندم والغم، لما فرط منهم.

تنبيهات:

الأول: «تطهرهم» قرئ مجزوماً على أنه جواب للأمر. وأما بالرفع، فعلى أنه حال من ضمير المخاطب في « خذ ». أو صفة لـ « صدقة » والتاء للخطاب أو للصدقة. والعائد على الأول محذوف ثقة بما بعده، أي: بها. وقرئ « تُطْهِرهم » من أطهره بمعنى طهّره ولم يقرأ « وتزكيهم » إلا بإثبات الياء، وهو خبر المحذوف، والجملة حال من الضمير في الأمر أو في جوابه، أي: وأنت تزكيهم بها، هذا على قراءة « تطهرهم » بالجزم. وأما على قراءة الرفع فـ«تزكيهم » عطف على « تطهرهم » حالًا أو صفة.

الثاني: قرئ « صلاتك » بالتوحيد، و «صلواتك» بالجمع، مراعاة لتعدد المدعو لهم، وقال الشهاب: جمع « صلاة » لأنها اسم جنس، والتوحيد لذلك، أو لأنها مصدر في الأصل.

الثالث: قال الشهاب: السكن: السكون، وما يسكن إليه من الأهل والوطن، فإن كان المراد الأول، فجعلها نفس السكن والاطمئنان مبالغة، وهو الظاهر. وإن كان الثاني فهو مجاز بتشبيه دعائه، في الالتجاء إليه بالسكن. انتهى.

قال أبو البقاء: سكن بمعنى مسكون إليها، فلذلك لم يؤنثه، وهو مثل القبض بمعنى المقبوض.

الرابع: قيل: المأمور به في الآية الزكاة و « من » تبعيضية، وكانوا أرادوا التصدق بجميع ما لهم، فأمره الله أن يأخذ بعضها لتوبتهم؛ لأن الزكاة لم تقبل من بعض المنافقين، فترتبط الآية بما قبلها وقيل: ليست هذه الصدقة المفروضة، بل هم لما =

(١) رواه أحمد في المسند [٥/ ٣٨٥].

....

= تابوا، بذلوا جميع ما لهم كفارة للذنب الصادر منهم، فأمره اللّه تعالى بأخذ بعضها وهو الثلث، وهذا مرويّ عن الحسن، وهو المختار عندهم.

ونقل الرازي أن أكثر الفقهاء على أن هذه الآية كلام مبتدأ قصد به إيجاب أخذ الزكوات من الأغنياء، إذ هي حجتهم في إيجاب الزكاة، ثم نظر فيه بأن حملها على ما ذكروه يوجب ألا تنتظم الآية مع سابقها ولاحقها.

وأقول: لا ريب في ارتباط الآية بما قبلها، كما أفصحت عنه الرواية السابقة. وخصوصُ سببها لا يمنع عموم لفظها، كما هي القاعدة في مثل ذلك. ولذا رد الصدّيق رضي اللّه عنه على من تأول من بعض العرب هذه الآية؛ أن دفع الزكاة لا يكون إلا للرسول صلوات اللّه عليه، لأنه المأمور بالأخذ، وبالصلاة على المتصدقين، فغيره لا يقوم مقامه؛ وأمر بقتالهم، فوافقته الصحابة، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يؤدونها إلى رسول اللّه ﷺ؛ فاستدل من ذلك على وجوب دفع الزكاة إلى الإمام، ومثله نائبه. وهؤلاء المتأولون المرتدون غاب عنهم أن الزكاة إنما أوجبها اللّه تعالى سدًّا لحاجة المعدم، وتفريجاً لكربة الغارم، وتحريراً لرقاب المستعبدين، وتيسيراً لأبناء السبيل، فاستلّ بذلك ضغائن أهل الفاقة، على من فضلوا عليهم في الرزق، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء، وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك البائسين. فالإمام لا خصوصية لذاته فيها؛ بل لأنه يجمع ما يرد منها لديه، فينفقها في سبلها المذكورة.

الخامس: استدل بقوله تعالى: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ على ندب الدعاء للمتصدق.

قال الشافعي رحمه اللّه: السنة للإمام، إذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق، ويقول: آجرك اللّه فيما أعطيت وجعله طهوراً، وبارك لك فيما أبقيت.

وقال آخرون: يقول: اللهم صلّ على فلان. ويدل عليه ما روي عن عبد اللّه بن أبي أوفى، وكان من أصحاب الشجرة قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال: « اللهم صلّ عليهم »، فأتاه أبي بصدقته فقال: « اللهم صلّ على آل أبي أوفى ». أخرجاه في الصحيحين[1].

قال ابن كثير: وفي الحديث الآخر أن امرأة قالت: يا رسول اللّه، صلّ عليّ وعلى زوجي، فقال: « صلى اللّه عليك وعلى زوجك ».

أقول: وبهذين الحديثين يردّ على من زعم أن المراد بـ ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ الصلاة على الموتى حكاه السيوطي في « الإكليل ».

السادس: دلت الآية، كالحديثين، على جواز الصلاة على غير الأنبياء استقلالاً. قال =

---

(١) أخرجه البخاري [٦٣٣٢].

....

۞ ۞ ۞

= الرازي: روى الكعبي في تفسيره: أن عليًا رضي اللّه عنه قال لعمر رضي اللّه تعالى عنه وهو مسجّى: عليك الصلاة والسلام. ومن الناس من أنكر ذلك.

ونقل عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه قال: لا تنبغي الصلاة من أحد على أحد، إلا في حق النبي ﷺ. ثم قال الرازي: إن أصحابنا يمنعون من ذكر « صلوات اللّه عليه »، و « عليه الصلاة والسلام »، إلا في حق الرسول ﷺ والشيعة يذكرونه في عليّ وأولاده، واحتجوا بأن نص القرآن دل على جوازه فيمن يؤدي الزكاة، فكيف يمنع في حق عليّ والحسن والحسين عليهم رضوان اللّه ؟ قال: ورأيت بعضهم قال: أليس أن الرجل إذا قال: سلام عليكم، يقال له: وعليكم السلام، فدل هذا على أن ذكر هذا اللفظ جائز في حق جمهور المسلمين، فأَوْلَى آل البيت. انتهى.

وأقول: إن المنع من ذلك أدبيّ لا شرعي، لأنه صار، في العرف، دعاءً خاصاً به ﷺ، وشعاراً له، كالعلَم بالغلبة، فغيره لا يطلق عليه، إلا تبعية له، أدباً لفظياً.

السابع: قال الرازيّ: في سر كون صلاته عليه السلام سكناً لهم: أن روح محمد عليه السلام كانت روحاً قوية مشرقة صافية باهرة، فإذا دعا لهم وذكرهم بالخير، فاضت آثار من قوته الروحانية على أرواحهم، فأشرقت بهذا السبب أرواحهم، وصفت أسرارهم[1].

تفسير القاسمي: [٨/ ٣٢٥١].

(١) أخرجه مسلم [١٠٧٨].

عادة التبنّي . . وكيف أبطلها الإسلام ؟!

السؤال: متى أبطل الإسلام عادة التبني، ولماذا ؟

الجواب: كان عند رسول اللَّه ﷺ مولى اسمه زيد بن حارثة وهبته له زوجته خديجة رضي اللَّه عنها ولما علم أهل زيد - وكان قد خُطف منهم - جاؤوا في طلبه، وعندما علم رسول اللَّه ﷺ بمقدم أهل زيد في طلبه ترك لزيد الاختيار فإما أن يبقى معه، وإما أن يعود مع أبويه. فقال زيد: ما كنت لأختار على رسول اللَّه ﷺ أحداً، وهنا أراد الرسول ﷺ أن يكرم الإنسان الذي اختاره، فتبناه، فكان له أباً وسُمِّي زيدَ بنَ محمد وكانت عادة التبني عادة قديمة موجودة عند العرب.

ولما أراد اللَّه سبحانه وتعالى أن يبطل عادة التبني نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾(١) [الأحزاب: ٥].

---

(١) قال محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾: نزلت هذه الآية في إبطال التبني، أي إبطال ترتيب آثار البنوة الحقيقة من الإرث، وتحريم القرابة، وتحريم الصهر، وكانوا في الجاهلية يجعلون للمتبنى أحكام البنوة كلها، وكان من أشهر المتبَنَّيْنَ في عهد الجاهلية زيدُ بن حارثة تبناه النبي ﷺ، وعامر بن ربيعة تبناه الخطاب أبو عمر بن الخطاب، وسالم تبناه أبو حذيفة، والمقدادُ ابن عمرو تبناه الأسودُ بن عبد يغوث، فكان كل واحد من هؤلاء الأربعة يدعى ابناً للذي تبنّاه.

وزيد بن حارثة الذي نزلت الآية في شأنه كان غريباً من بني كَلْب من وبرة من أهل الشام، وكان أبوه حارثة توفي وترك ابنيه جبلة وزيداً فبقيا في حجر جدهما، ثم جاء عماهما فطلبا من الجد كفالتهما فأعطاهما جبلة وبقي زيد عنده فأغارت على الحي خيل من تهامة فأصابت زيداً فأخذ جده يبحث عن مصيره، وقال أبياتاً منها:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعلْ ... أحيٌّ فيرجى أم أتى دونه الأجل

وأنه علم أن زيداً بمكة وأن الذين سبوه باعوه بمكة فابتاعه حكيم بن حزام بن خويلد فوهبه لعمته خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ فوهبته خديجة للنبي ﷺ فأقام عنده زمناً، ثم جاء جده وعمه يرغبان في فدائه فأبي الفداء واختار البقاء على الرق عند النبي ﷺ =

وأعاد اللّه سبحانه الحق إلى أهله والأمور إلى نصابها، وعاد لزيد اسمه

= فحينئذ أشهد النبي ﷺ قريشاً أن زيداً ابنه يرث أحدهما الآخر فرضي جده وعمه وانصرفا فأصبح يُدعى: زيد بن محمد، وذلك قبل البعثة. وقتل زيد في غزوة مؤتة من أرض الشام سنة ثمان من الهجرة.

﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: ٤].

استئناف اعتراضي بين التمهيد والمقصود من التشريع وهو فذلكة كما تقدم من الجمل الثلاث التي نفت جعلهم ما ليس بواقع واقعاً، ولذلك فصلت الجملة لأنها تتنزل منزلة البيان بالتحصيل لما قبلها.

والإشارة إلى مذكور ضمناً من الكلام المتقدم، وهو ما نفى أن يكون الله جعله من وجود قلبين لرجل، ومن كون الزوجة المظاهَر منها أمًّا لمن ظاهر منها، ومن كون الأدعياء أبناء للذين تبنوهم. وإذ قد كانت تلك المنفيات الثلاثة ناشئة عن أقوال قالوها صح الإخبار عن الأمور المشار إليها بأنها أقوال باعتبار أن المراد أنها أقوال فحسب ليس لمدلولاتها حقائق خارجية تطابقها كما تطابق النسب الكلامية الصادقة النسب الخارجية، وإلا فلا جدوى في الإخبار عن تلك المقالات بأنها قول بالأفواه.

ولإفادة هذا المعنى قيد بقوله: ﴿ بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ فإنه من المعلوم أن القول إنما هو بالأفواه فكان ﴿ بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ مع العلم به مشيراً إلى أنه قول لا تتجاوز دلالته الأفواه إلى الواقع ونفس الأمر فليس له من أنواع الوجود إلا الوجود في اللسان والوجود في الأذهان دون الوجود في العيان، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] أي لا تتجاوز ذلك الحد، أي لا يتحقق مضمونها في الخارج وهو الإرجاع إلى الدنيا في قول الكافر: ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، فعلم من تقييده ﴿ بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ أنه قول كاذب لا يطابق الواقع وزاده تصريحاً بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ ﴾ [الأحزاب: ٤] فأومأ إلى أن قولهم ذلك قول كاذب. ولهذا عطفت عليه جملة: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ ﴾ لأنه داخل في الفذلكة لما تقدم من قوله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ ﴾ إلخ. فمعنى كونها أقوالًا أن ناساً يقولون: جميل له قلبان، وناساً يقولون لأزواجهم: أنت كظهر أمي، وناساً: يقولون للدعيّ فلان ابن فلان، يريدون من تبناه.

وانتصب ﴿ ٱلْحَقَّ ﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف مفعول به لـ ﴿ يَقُولُ ﴾. تقديره: الكلام الحق، لأن فعل القول لا ينصب إلا الجمل أو ما هو في معنى الجملة نحو ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، فالهاء المضاف إليها « قائل » عادت إلى كلمة ﴿ كَلِمَةٌ ﴾ وهي مفعول أضيف إليها.

وفي الإخبار عن اسم الجلالة وضميره بالمسندين الفعليين إفادة قصر القلب، أي هو يقول الحق لا الذين وضعوا لكم تلك المزاعم، وهو يهدي السبيل لا الذين أضلوا الناس بالأوهام. ولما كان الفعلان متعديين استفيد من قصرهما قصرُ معموليهما بالقرينة =

الحقيقي، وأبطل اللّٰه تعالى عادة التبني وجعل الأسوة في رسول اللّٰه ﷺ والمعنى:

= ثم لما كان قول اللّٰه في المواضع الثلاثة هو الحق والسبيل كان كناية عن كون ضده باطلًا ومجهلة. فالمعنى: وهم لا يقولون الحق ولا يهدون السبيل.
والسبيل: الطريق السابلة الواضحة، أي الواضح أنها مطروقة فهي مأمونة الإبلاغ إلى غاية السائر فيها.
وإذا تقرر أن تلك المزاعم الثلاثة لا تعدو أن تكون ألفاظاً ساذجة لا تحقق لمدلولاتها في الخارج اقتضى ذلك انتفاء الأمرين اللذين جعلا توطئة وتمهيداً للمقصود وانتفاء الأمر الثالث المقصود وهو التبني، فاشترك التمهيد والمقصود في انتفاء الحقية، وهو أتم في التسوية بين المقصود والتمهيد.
وهذا كله زيادة تحريض على تلقي أمر اللّٰه بالقبول والامتثال ونبذ ما خالفه.
﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٥].
استئناف بالشروع في المقصود من التشريع لإبطال التبني وتفصيل لما يحق أن يجريه المسلمون في شأنه.
وهذا الأمر إيجاب أبطل به ادعاء المتبني متبناه ابناً له. والمراد بالدعاء النسب.
والمراد من دعوتهم بآبائهم ترتب آثار ذلك، وهي أنهم أبناء آبائهم لا أبناء من تبناهم.
واللام في ﴿ لِآبَآئِهِمْ ﴾ لام الانتساب، وأصلها لام الاستحقاق. يقال: فلان لفلان، أي هو ابنه، أي ينتسب له، ومنه قولهم: فلان لرشدة وفلان لغية، أي: نسبه لها، أي من نكاح أو من زنى، وقال النابغة:

لئن كان للقبرين قبر بجلق وقبر بصيداء الذي عند حارب

أي من أبناء صاحبي القبرين. وقال علقمة بن عبد يمدح الملك الحارث:

فلست لأنسيّ ولكن لِمَلاك تنزل من جو السماء يصوب

وفي حديث أبي قتادة: « صلى رسول اللّٰه ﷺ حاملًا أمامة ابنة بنته زينب ولأبي العاص ابن ربيعة » فكانت اللام مغنية عن أن يقول وابنة أبي العاص.
وضمير ﴿ هُوَ أَقْسَطُ ﴾ عائد إلى المصدر المفهوم من فعل ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ﴾ أي الدعاء للآباء.
وجملة ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ استئناف بياني كأن سائلًا قال: لماذا لا ندعوهم للذين تبنوهم؟ فأجيب ببيان أن ذلك القسط، فاسم التفضيل مسلوب المفاضلة، أي: هو قسط كامل وغيره جورٌ على الآباء الحق والأدعياء، لأن فيه إضاعة أنسابهم الحق.
والغرض من هذا الاستئناف تقرير ما دل عليه قوله: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: ٤] لتعلم عناية اللّٰه تعالى بإبطال أحكام الجاهلية في التبني، ولتطمئن نفوس المسلمين من المتبنين والأدعياء ومن يتعلق بهم بقبول هذا التشريع الذي يشق عليهم إذ ينزع منهم إلفاً ألفوه. =

أن ما فعله رسول اللّه ﷺ من مكافأة زيد بن حارثة لاختياره لرسول اللّه ﷺ على

= ولهذا المعنى الدقيق فرّع عليه قوله: ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ فجمع فيه تأكيد للتشريع بعدم التساهل في بقاء ما كانوا عليه بعذر أنهم لا يعلمون آباء بعض الأدعياء، وتأنيساً للناس أن يعتاضوا عن ذلك الانتساب المكذوب اتصالاً حقاً لا يفوت به ما في الانتساب القديم من الصلة، ويتجافى به عما فيه من المفسدة فصاروا يدعون سالماً متبني أبي حذيفة: سالماً مولى أبي حذيفة، وغيره ولم يشذ عن ذلك إلا قول الناس للمقداد بن عمرو: المقداد بن الأسود، نسبة للأسود بن عبد يغوث الذي كان قد تبناه في الجاهلية كما تقدم.

قال القرطبي: لما نزلت هذه الآية قال المقدادُ: أنا المقداد بن عمرو، ومع ذلك بقي الإطلاق عليه ولم يسمع فيمن مضى من عصى مُطْلِق ذلك عليه ولو كان متعمداً. اهـ.

وفي قول القرطبي: ولو كان متعمداً، نظر، إذ لا تمكن معرفة تعمد من يُطلق ذلك عليه. ولعله جرى على ألسنة الناس المقدادُ بن الأسود فكان داخلًا في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٥] لأن ما جرى على الألسنة مظنة النسيان، والمؤاخذة بالنسيان مرفوعة.

وارتفاع ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ على الإخبار عن مبتدأ محذوف هو ضمير الأدعياء، أي: فهم لا يعدون أن يوصفوا بالإخوان في الإسلام إن لم يكونوا موالي أو يوصفوا بالموالي إن كانوا موالي بالحلف أو بولاية العتاقة وهذا استقراء تام. والإخبار بأنهم إخوان وموال كناية عن الإرشاد إلى دعوتهم بأحد هذين الوجهين.

والواو للتقسيم وهي بمعنى « أو » فتصلح لمعنى التخيير، أي فإن لم تعلموا آباءهم فادعوهم إن شئتم بإخوان وإن شئتم ادعوهم موالي إن كانوا كذلك. وهذا توسعة على الناس.

و « في » للظرفية المجازية، أي إخوانكم أخوة حاصلة بسبب الدين كما يجمع الظرف محتوياته، أو تجعل « في » للتعليل والتسبب، أي إخوانكم بسبب الإسلام مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠] أي لأجل اللّه لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾.

وليس في دعوتهم بوصف الأخوة ريبة أو التباس مثل الدعوة بالبنوة لأن الدعوة بالأخوة في أمثالهم ظاهرة لأن لوصف الأخوة فيهم تأويلًا بإرادة الاتصال الديني بخلاف وصف البنوة فإنما هو ولاء وتحالف فالحق أن يدعوا بذلك الوصل، وفي ذلك جبر لخواطر الأدعياء ومن تبنوهم.

والمراد بالولاء في قوله: ﴿ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ ولاء المحالفة لا ولاء العتق، فالمحالفة مثل الأخوة. وهذه الآية ناسخة لما كان جارياً بين المسلمين ومن النبي ﷺ من دعوة المتبنين إلى الذين تبنوهم فهو من نسخ السنة الفعلية والتقريرية بالقرآن. وذلك مراد من =

أن يعود لأبويه بأن ألحقه ﷺ باسمه وسماه زيد بن محمد هو عدل منه ﷺ وهو لا يتعارض مع عادة العرب ولكن ما قاله رب العالمين وأمر به هو أعدل.

ولذلك نقول للمستشرقين وأذنابهم من المستغربين لما وقعت الواقعة لم يكن هناك حكم من اللّٰه خولف، ولكن التصرف كان يتمشى مع الأحداث ثم جاء حكم اللّٰه الذي نزل عليه الجميع ولنتأمل دقة الأداء القرآني في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْسَطُ﴾ أي: أنه أعدل.

❁ ❁ ❁

= قال: إن هذه الآية نسخت حكم التبني.

قال في الكشاف: «وفي فصل هذه الجمل ووصلها من الحسن والفصاحة ما لا يغبي عن عالم بطرق النظم».

وبينه الطيبي فقال: يعني في إخلاء العاطف وإثباته من الجمل من مفتتح السورة إلى هنا. وبيانه: أن الأوامر والنهي في «اتق - ولا تطع - واتبع - وتوكل»، فإن الاستهلال بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] دال على أن الخطاب مشتمل على أمر معنى شأنه لائح منه الإلهاب، ومن ثم عطف عليه: ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ كما يعطف الخاص على العام، وأردف به النهي، ثم أمر بالتوكل تشجيعاً على مخالفة أعداء الدين، ثم عقَّب كلًا من تلك الأوامر بما يطابقه على سبيل التتميم وعلل ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تتميماً للارتداع، وعلل قوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٢] بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تتميماً، وذيل قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٢] بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ تقريراً وتوكيداً على منوال: فلان ينطق بالحق والحق أبلج، وفصل قوله: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤] على سبيل الاستئناف تنبيهاً على بعض من أباطيلهم. وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ فذلكة لتلك الأحوال آذنت بأنها من البطلان وحقيق بأن يذم قائله. ووصل قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ على هذه الفذلكة بجامع التضاد على منوال ما سبق في المحمل في ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ و ﴿وَٱتَّبِعْ﴾ وفصل قوله: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهلم جرا إلى آخر السورة تفصيلًا لقول الحق والاهتداء إلى السبيل القويم. اهـ.

التحرير والتنوير: [١٠/٢٥٨-٢٦٤]

الحساب على الاختيار بالإرادة الحرة

السؤال: هل يحاسب الإنسان على الأعمال التي يجبر على فعلها ؟

الجواب: هناك أفعال تأتيها وأنت مكره، يجبرك أحد على الاعتراف بشيء لم يحدث، أو يجبرك على فعل شيء أنت كاره له، مادمت تأتي هذا العمل مكرهاً، فقد أسقط اللّه عنك الحساب، حتى في الإيمان، مصداقاً لقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾[1] ، إذن الإكراه يسقط الحساب.

---

(١) قال اللّه تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [النحل].

قال ابن كثير: أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر وشرح صدره بالكفر واطمأن به أنه غضب عليه؛ لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فأقدموا على ما أقدموا عليه من الرّدة لأجل الدنيا ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق فطبع على قلوبهم فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يراد بهم ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ أي لا بد ولا عجب أن من هذه صفته ﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ أي الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة. وأما قوله: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى وقلبه يأبي ما يقول وهو مطمئن بالإيمان باللّه ورسوله.

وقد روى العوفي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ فوافقهم على ذلك مكرهاً وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية.

وهكذا قال الشعبي وقتادة وأبو مالك. =

تبقى بعد ذلك الإرادة الحرة، لقد شاء اللَّه سبحانه وتعالى أن يضع هذه

= وقال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن عبد الكريم الجزري عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : «كيف تجد قلبك ؟ » قال: مطمئناً بالإيمان، قال النبي ﷺ : « إن عادوا فعد » ورواه البيهقي بأبسط من ذلك وفيه: أنه سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله ما تركت حتى سببتك وذكرت آلهتهم بخير، قال: « كيف تجد قلبك ؟ » قال: مطمئناً بالإيمان، فقال : « إن عادوا فعد »[1] وفي ذلك أنزل اللَّه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته ويجوز له أن يأبي، كما كان بلال رضي الله عنه يأبي عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل حتى أنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ويأمرونه بالشرك باللَّه فيأبي عليهم وهو يقول: أَحد أَحد. ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها قلتها. رضي الله عنه وأرضاه. وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسليمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول اللَّه ؟ فيقول: نعم، فيقول: أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول لا أسمع، فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن عكرمة أن علياً رضي الله عنه حرق ناساً ارتدّوا عن الإسلام فبلغ ذلك ابن عباس فقال: لم أكن لأحرقهم بالنار، إن رسول الله ﷺ قال : « لا تعذبوا بعذاب اللَّه » وكنت أقاتلهم بقول رسول اللَّه ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه » فبلغ ذلك علياً؛ فقال: ويح أم ابن عباس[2]. رواه البخاري.

وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أيوب عن حميد بن هلال العدوي عن أبي بردة قال: قدم على أبي موسى معاذ بن جبل باليمن فإذا رجل عنده قال: ما هذا ؟ قال رجل كان يهودياً فأسلم ثم تهود ونحن نزيده على الإسلام منذ قال أحسبه شهرين فقال: واللَّه لا أقعد حتى تضربوا عنقه فضربت عنقه، فقال: قضى اللَّه ورسوله أن من رجع عن دينه فاقتلوه، أو قال : « من بدل دينه فاقتلوه »[3] وهذه القصة في الصحيحين بلفظ آخر. والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله، كما ذكر الحافظ بن عساكر في ترجمة عبد اللَّه بن حذافة السهمي أحد الصحابة: أنه أسرته الروم فجاؤوا به إلى ملكهم فقال له تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي، فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت، فقال: إذاً أقتلك، فقال: أنت وذاك، قال: فأمر به =

---

(١) رواه البيهقي [٨/ ٣٦٢].
(٢) أخرجه البخاري [٣٠١٧].
(٢) رواه أحمد في المسند [٥/ ٢٣١].

الإرادة الحرة في مكان لا يستطيع أن يسيطر عليها أحد في العالم، إنها في القلب، وما هو داخل القلب أو النية، لا تستطيع الدنيا كلها أن تصل إليه، فأنت قد تكره إنساناً، وربما تحت التعذيب، أو التهديد، أو الخوف، تتظاهر بالحب، ولكن الحقيقة أنك تكرهه من داخل قلبك، وتبقى هذه الحقيقة لا تستطيع أن تمسها الدنيا كلها، أنت لا تريد أن تفعل شيئاً قد يكرهك الناس على فعله، ولكنك فى قلبك تكرهه وتنكره، واللَّه يعلم ما تخفي الصدور.

إذن.. الحساب هنا على الإرادة الحرة، التي لا يستطيع بشر ولا قوة في الأرض أن تجبرك على شيء فيها، ولكنها متروكة لك وحدك، وهي لا تتغير ولا تتبدل إذا كنت غنياً أو فقيراً، مريضاً أو صحيحاً، كبيراً أو صغيراً، قوياً أو ضعيفاً.

❁ ❁ ❁

= فصلب وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقدر وفي رواية ببقرة من نحاس فأحميت وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر فإذا هو عظام يلوح وعرض عليه فأبى فأمر به أن يلقى فيها فرفع في البكرة ليلقى فيها فبكى وطمع فيه ودعاه فقال: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في اللَّه. وفي بعض الروايات أنه سجنه ومنع منه الطعام والشراب أياماً ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟

فقال: أما إنه قد حل لي ولكن لم أكن لأشمتك فيَّ.

فقال له الملك: فقبّل رأسي وأنا أطلقك وتطلق معك جميع أسارى المسلمين؟

قال: نعم.

فقبل رأسه فأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة وأنا أبدأ فقام فقبل رأسه رضي الله عنهما.

تفسير ابن كثير: [٢/ ٥٦٨].

أبواب الحظ في الصحف
أو محاولة معرفة الغيب

السؤال: تنشر كل الصحف والمجلات أبواباً تتنبأ بالغيب، وكثير من الناس يحاولون معرفة حظوظهم؛ فيتابعون ما ينشر باهتمام، وكأنه حقيقة لا ينسحب عليها الشك. فما حكم ذلك ؟

الجواب: إنني أتعجب من أمر القوم المنتسبين للإسلام، ويحاولون قراءة أبواب الحظ في الصحف؛ أو استطلاع النجوم، أو معرفة الغيب بأي وسيلة من الوسائل.

إن الإيمان باللَّه يجعل الإنسان قوياً ومتقبلًا لكل ما يأتي به اللَّه، راضياً بقضاء اللَّه وقدره.

إن من نعم اللَّه العظيمة علينا نعمة ستر الغيب.

فالإنسان إذا ما اطلع على مستقبله ووجد فيه شيئاً غير سار حتى ولو كان هيناً سيعيش حياته في جزع وخوف حتى يأتي أمر اللَّه له وينسى الإنسان أن اللَّه الذي قدر ذلك قادر على أن يعوضه خيراً منه ، أو يلطف به في مصيبته.

فإن عاش الإنسان كارثة علمها مقدماً قبل أن تحدث؛ فإنه يتألم أضعاف أضعاف وقت حدوثها؛ لأنه يعيشها معزولة عن اللطف الذي نزل معها.

مثال ذلك: المرأة التي لها ابن وحيد، ويقول لها هذا الرجل الذي يزعم قراءة الغيب: إن ابنك سوف تفقدينه في كذا وكذا.

ماذا تفعل هذه المرأة ؟ إنها ستحيا في عذاب ولا تعرف طعم النوم والراحة من الهلع والخوف على وحيدها.

ولنفترض جدلًا أن امرأة أخرى لها ابن وحيد وفقدته دون أن تعلم مقدماً كيفية أو ميعاد ذلك الأمر، من المؤكد أن لطف اللَّه بها سوف يجعلها تصبر، ويعوضها اللَّه خيراً منه وعوضاً عنه.

لذلك فإنني أقول للباحثين عن معرفة الغيب بالوسائل التي يلجأ إليها الدجالون: ليتأدب الواحد منكم وألا يزج بنفسه في رياح الشياطين.

إن الإنسان لو علم ألف حدث سار وحدثاً واحداً مؤلماً، فإن الغم سيتغلب عليه، إن اللّه لا يبعث الأمر المؤلم إلا ومعه اللطف.

ثم الأهم من ذلك كله أن الإيمان بالغيب هو الركيزة الأولى في الإيمان باللّه تعالى، قال ربنا سبحانه: ﴿ الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ③ ﴾[1] [البقرة].

---

(١) قال فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي بعد أن بين اللّه سبحانه وتعالى لنا أن القرآن الكريم ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾، أي: إنَّ فيه المنهج والطريق لكل من يريد أن يجعل بينه وبين غضب اللّه وقاية، أخبرنا سبحانه: صفات هؤلاء المتقين ومن هم.
وأول صفة هي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾.
ما هو الغيب الذي جعله اللّه أول مرتبة في الهدى، وفي الوقاية من النار ومن غضب الجبار؟
الغيب: هو كل ما غاب عن مدركات الحس، فالأشياء المحسوسة التي نراها ونلمسها لا يختلف فيها أحد، ولذلك يقال: ليس مع العين أين؛ لأن ما تراه لا تريد عليه دليلًا، ولكن الغيب لا تدركه الحواس، إنما يدرك بغيرها.
ومن الدلالة على دقة التعريف أنهم قالوا: إن هناك خمس حواس ظاهرة هي: السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس؛ ولكن هناك أشياء تدرك بغير هذه الحواس.
لنفرض أن أمامنا حقيبتين. الشكل: هو هو، والحجم: هو هو، هل تستطيع بحواسك الظاهرة أن تدرك أيهما أثقل من الأخرى؟ هل تستطيع الحواس الخمس أن تقول لك أي الحقيبتين أثقل؟ لا؛ لا بد أن تحمل واحدة منهما، ثم تحمل الأخرى لتعرف أيهما أثقل.
بأي شيء أدركت هذا الثقل؟ بحاسة العضل؛ لأن عضلاتك أُجهدت عندما حملت إحدى الحقيبتين، ولم تجهد عندما حملت الثانية، فعرفت بالدقة أيهما أثقل، لا تقل باللمس؛ لأنك لو لمست إحداهما ثم لمست الأخرى لا تعرف أيهما أثقل، إذن.. فهناك حاسة العضل التي تقيس بها ثقل الأشياء.
ولنفرض أنك دخلت محلًا لبيع القماش، وأمامك نوعان من قماش واحد، ولكن أحدهما أرق من الآخر، بمجرد أن تضع القماشين بين أنامِلك تدرك أن أحدهما رقيق والآخر أكثر سمكاً، بأية حاسة أدركت هذا؟ ليس بحاسة اللمس ولكن بحاسة البينة وحكمها لا يخطئ.
وعندما تشعر بالجوع، بأية حاسة أدركت أنك جوعان؟ ليس بالحواس الظاهرة، وكذلك =

....

= عندما تظمأ، ما هي الحاسة التي أدركت بها أنك محتاج إلى الماء ؟ وعندما تكون نائما؛ أي حاسة تلك التي توقظك من النوم ؟ لا أحد يعرف.
إذن . . هناك ملكات في النفس وهي الحواس الظاهرة. وهناك إدراكات في النفس، وهي حواس لا يعلمها إلا خالقها، لذلك عندما يأتي العلماء ليضعوا تعريفاً للنفس البشرية نقول لهم: ماذا تعرفون عن هذه النفس ؟! إنكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا، ولكن هناك أشياء داخل النفس لا تعرفونها، هناك إدراكات لا يعلم عنها الإنسان شيئاً، وهي إدراكات كثيرة ومتعددة؛ لذلك يخطئ من يقول: إن ما لا يدرك بالحواس البشرية الظاهرة هو غيب؛ لأن هناك ملكات وإدراكات متعددة تعمل بغير علم منا.
لو أعطى لطالب تمرين هندسي فأجاب عليه؛ هل نقول أنه عَلِمَ غيباً ؟ لأن حل التمرين كان غيباً عنه ثم وصل إليه، لا؛ لأن هناك مقدمات وقوانين أوصلته إلى هذا الحل.
والغيب: بلا مقدمات ولا قوانين تؤدي إليه، وهل عندما تعلن الأرصاد الجوية أن غدا يوم مطير شديد الرياح. . أتكون قد عَلمتْ غيبا ؟ لا؛ لأنها أخذت المقدمات ووصلت بها إلى نتائج، وهذا ليس غيباً؛ بل كثير من حساباتها تخطئ أحياناً.
وإذا جاء أحد من الدجالين وقال لك: إن ما سرق منك عند فلان، أيكون قد علم الغيب ؟ لا؛ لأنه يشترط في الغيب ألا يكون معلوماً لمثلك، وما سرق منك معلوم لمثلك، فالسارق والذي بيعت له المسروقات يعرفان من الذي سرق، وما الذي حدث. . والشرطة تستطيع بالمقدمات والبصمات والبحث أن تصل إلى السارق ومن اشترى المسروقات؛ وإذا جاءك دجال من الذين يُسَخّرون الجن، من المعلوم أن الجن مستور عنا يمتاز بخفة الحركة وسرعتها. . واللّه سبحانه وتعالى يقول عنه: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧].
فقد يكون هذا المستعان به من الجن قد رأى شيئاً، أو انتقل من مكان إلى آخر فيعرف شيئاً لا تعرفه أنت، هذا لا يكون غيباً لأنك جهلته، ولكن غيرك يعلمه بقوانينه التي خلقها اللّه له، والعلماء الذين يكتشفون أسرار الكون، أيقال إنهم اطلعوا على الغيب ؟ لا؛ لأن هؤلاء العلماء اكتشفوا موجوداً له مقدمات فوصلوا بها إلى النتائج. إذن. . فهو ليس غيباً.
فالغيب: هو الشيء الذي ليس له مقدمات ولا يمكن أن يصل إليه علم خَلْق من خلق اللّه، حتى الملائكة. حينما عَلَّمَ اللّه آدمَ الأسماء كلها، وطلب من الملائكة أن يخبروا بها فعجزوا واعتذروا؛ لأن اللّه لم يعرفها لهم، وذلك قول اللّه تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة].
والجن أيضاً لا يعلم الغيب، فعندما مات سليمان عليه السلام، لم تعلم الجن بموته =

....

۞ ۞ ۞

= وهي المسخرة لخدمته بأمر اللّه إلا عندما أكلت دابة الأرض عصاه.

يقول تبارك وتعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾. [سبأ: ١٤].

إذن.. فالغيب هو ما لا يعلمه إلا اللّه سبحانه وتعالى، واقرأ قول الحق جل جلاله:

﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن].

وهكذا فإن الرسل لا يعلمون الغيب.. ولكن اللّه سبحانه وتعالى يعلمهم بما يشاء من الغيب ويكون هذا معجزة لهم من اللّه تعالى، ولخدمة دعوتهم وقضيتهم الإيمانية.

ولا بد أن نعرف أن وجود الشيء مختلف تماما عن إدراك هذا الشيء؛ فأنت لك روح في جسدك تهبك الحياة، أرأيتها ؟ أسمعتها ؟ أذقتها ؟ أشممتها ؟ ألمستها ؟ الجواب بالطبع لا.. فبأية وسيلة من وسائل الإدراك تدرك أن لك روحاً في جسدك. بالطبع بأثرها في إحياء الجسد.

إذن.. فقد عرفت الروح بأثرها، والروح مخلوق لله، فكيف تريد وأنت العاجز عن أن تدرك مخلوقاً في جسدك وذاتك وهو الروح، أن تدرك اللّه سبحانه وتعالى بحواسك !!

إن عدم قدرتنا على رؤية أي شيء لا يعني أنه غير موجود.. ولكن آلة الإدراك التي هي البصر عند الإنسان عاجزة عن أن تراه؛ لأنه ربما كان غاية في الصغر، فإذا جئت بالمجهركبر لك هذا الشيء ليدخل في نطاق وسيلة رؤيتك وهي العين؛ ورؤيتنا للجراثيم والميكروبات مثلًا ليست دليلًا على أنها خلقت ساعة رأيناها، بل هي موجودة تؤدي مهمتها، سواء رأيناها أو لم نرها.

منهاج الصالحين [١١١-١١٧].

الحكمة في عدم إيمان قريش في بدء الدعوة

السؤال: ما الحكمة في عدم إيمان قريش في بدء الدعوة؟. . ولماذا لجوا في العناد؟

الجواب: الحكمة من وراء عدم إيمان سادة قريش بالإسلام فور الدعوة إليه؛ ذلك حتى لا يقال عن دين اللّٰه: إنه جاء في قوم أقوياء استغلوا الضعفاء وأجبروهم على الإيمان.

كانت هناك حكمة أخرى من أن تكون أُذن سادة قريش هي أول أُذن تسمع بالدعوة للإسلام، ذلك لأن سيادة مكة على الجزيرة العربية إنما مصدرها أن هذه السيادة ذات أصل إيماني. فلماذا لا تعود سيادة مكة إلى منبعها الأصيل، منبع الإيمان؟

شاء الحق سبحانه ألا يؤمن السادة أولًا، بل آمن الضعفاء، برسالة الرسول ﷺ، وشاء الله أن يُعذَّب الضعفاء لأنهم آمنوا برسالة رسول الله ﷺ، ومع ذلك خاضوا وابتلوا بلاء شديداً، حتى أن منهم من مات تحت التعذيب، وذلك حتى يتربى المؤمنون برسالة رسول الله ﷺ التربية الإيمانية القوية، وأن يتحملوا كل ما يلاقوه من أذى وعنت في سبيل الدعوة.

ولقد صبر المؤمنون الأوائل وصمدوا، وبذلك أصبحوا هم الأوائل في الإسلام وهم الأوائل في شرف الدعوة إلى منهج الله وهم الذين قال الرسول فيهم: «لو أنفق أحدكم مثل جبل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم أو نصيفه»(١)، وهم الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

ولكن لماذا لم يُمكَّن للإسلام في مكة في بداية الدعوة، ولماذا كانت الانطلاقة الإيمانية في المدينة؟

إن لذلك الأمر حكمة أيضاً، فلو أن الانطلاقة الإيمانية بدأت من مكة، ولو أن دولة الإسلام أُسست في مكة، قد يقول قائل:

---

(١) أخرجه البخاري [٣٦٧٣] ومسلم [٢٥٤١/ ٢٢٢] من حديث أبي سعيد الخدري.

إن قريشاً قوم من السادة، وهم ألفوا السيادة، فتعصبوا لواحد منهم ليسودوا به الدنيا، كما سادوا الجزيرة العربية. وما دام الرسول قد أرسله الله لكل العالمين فلماذا لا تسود به قريش كل العالمين؟

لذلك شاء الله تعالى ألا يكون قيام دولة الإسلام من مكة؛ حتى لا يقال إن قوماً تعصبوا لواحد منهم ليسودوا العالم، لأنهم ألفوا السيادة في الجزيرة.

لقد شاءت إرادة الرحمن ألا يكون الإيمان برسالة رسول الله ﷺ مؤسساً أو قائماً على عصبية قبلية أو عرقية، إنما كان الإيمان برسالة الله قائماً على الإقناع والهدى، ولا فرق بين عربي وأعجمي ولا أبيض إلا بالتقوى، وعندما يسأل رسول الله ﷺ عن مركز التقوى في جسم الإنسان، يشير إلى قلبه قائلًا ومكرراً «التقوى ها هنا، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا»(١)، القلب هو مركز التقوى، والعقل بيت الإيمان، والسلوك هو دليل الهداية إلى طريق الرحمن.

إذن: فكرامة أتباع دين الإسلام لا تنبع من تمايز عرقي، إنما تنبع من إتقان الفهم الإيماني بالقول والمنطق والعمل هذا هو المنهج الإسلامي.

إن الرسول ﷺ حين عالج أمر الكفار وجدهم غاية في الشراسة، ووجدهم يصرون على التمييز والسيادة، وكان رسول الله ﷺ يطمح أن يؤمن هؤلاء السادة؛ حتى تأخذ الدعوة الإسلامية طريقها من أقصر السبل.

لكن الحق جل وعلا شاء أن يعلمه أن هؤلاء لا يؤمنون أبداً.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة].

إن الخالق سبحانه أعلم بخلقه من أنفسهم، ورغم أن الإيمان بالله أمر اختياري، إلا أن هؤلاء القادة من قريش لا يؤمنون أبداً، لأنهم نأوا بأنفسهم عن سماع منهج الله تعالى ورفضوه وحاربوه لا عن حق أو اقتناع منهم بأن ما هم عليه حق، ولكن بغياً وحسداً من أن ينزل الله على رسوله ﷺ هذا المنهج ويصطفيه من دونهم، فالقضية عندهم ليست قضية حق أو باطل، صح أو خطأ.

لقد شاء الحق أن تنتصر دعوة محمد ﷺ بالمستضعفين في الأرض أولًا، أما

---

(١) رواه أحمد في المسند [٣/ ١٣٤-١٣٥] وأبو يعلى في مسنده [٢٩٢٣] من حديث أنس رضي الله تعالى عنه وقال رسول الله ﷺ « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله » أخرجه البخاري [٢٤٩٣] .

السادة: أبو لهب، أبو جهل، الوليد بن عتبة بن ربيعة، الوليد بن المغيرة، هؤلاء لم يؤمنوا بالرسالة.

وإن الخواطر البشرية لسيد البشر محمد رسول الله ﷺ كانت تراوده في أن هؤلاء السادة لو آمنوا وتوقف عنادهم لآمن بإيمانهم خلق كثير، ثم إنه بإيمانهم سيرفع أذى كثير كانوا يقومون به وأتباعهم على المسلمين ولكن شاء الله سبحانه وتعالى ألا يؤمنوا وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠].



يوم الدين . . في علم الله

السؤال: هناك من يتساءل عن حقيقة يوم الدين، وماذا سوف يجري فيه من حساب وعقاب؟

الجواب: يوم الدين معلوم له سبحانه وتعالى، بأحداثه كلها، بجنته وناره، وكل الخلق سيحاسبون فيه، وعندما يريد الله سبحانه وتعالى لهذا اليوم أن يكون، فإنه يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] أما عما سيحدث فيه -نسأل الله تعالى السلامة- فإنه يبدأ بالنفخ في الصور ثم يبعث الله كل من مات ثم يحشر الجميع إلى أرض المحشر ثم يوقفون للسؤال بين يدي الله تعالى وتتطاير الكتب فمنهم من يأخذ كتابه بيمينه، ومنهم من يأخذه بشماله. . إلخ ما ذكر في القرآن الكريم عن أهوال ذلك اليوم وما يكون فيه.



من أهم صفات الرسل

السؤال: لا شك أن كل رسول له صفات تميزه عن البشر. فما أهم هذه الصفات.

الجواب: إن الحق لا يخطاب كل الناس إلا من خلال رسول، ولهذا اصطفى الله محمداً ليتلقى عنه الوحي بالأسلوب الذي تعرضنا له من قبل، وقد جاء محمد بمعجزة لا يقدر عليها إلا الخالق سبحانه، وهي معجزة تدلهم على صدق الرسالة.

ولا بد أن يكون الرسول من نفس جنس البشر؛ لأنه سيحمل إلى البشر منهجاً نظرياً، ثم هو بعد ذلك أسوة في تطبيق المنهج المسلوك.

إن الأمر يحتاج إلى صفتين:

الأولى: أمانة في البلاغ.

الثانية: أسوة حسنة يتبعها الناس.

فإن لم تكن الأسوة من جنس الإنسان فلا يمكن الاقتداء بها.

وعلى سبيل المثال: إن الإنسان يرى الأسد في حديقة الحيوانات أو الغابة، ولكنه لا يقلد السبع أو الأسد.

بينما الإنسان يرى فارساً يمتطي صهوة جواد؛ فيتمني أن يفعل مثله.

كذلك الأسوة في الأعمال الجمالية أو الكمالية.

ولهذا نجد أن الله لم يرسل إلى البشر إلا رسولًا من البشر، إبراهيم أبو الأنبياء وأول المسلمين بشر.

يوسف الصديق عليه السلام بشر.

موسى عليه السلام بشر.

عيسى ابن مريم عليه السلام بشر.. إلخ موكب الأنبياء والمرسلين.

وكانت حكمة الخالق سبحانه في اختيار الرسل من البشر، ليكونوا لهم قدوة وأسوة حسنة.

لذلك فالذين يحاولون أن يرفعوا أي رسول فوق مرتبة البشر إنما يهدمون من

حيث لا يدرون مكانة هذا الرسول كرسول مبلغ عن الله تعالى.

لأن الإنسان قد يقول: «إن الرسول مميز عني فلا أستطيع أن أفعل مثله».

والله تعالى أراده أسوة للمؤمنين به فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

لذلك كان اختيار الرسول محمد ﷺ اصطفاء، لرجل من أهل مكة، اتصف بالصدق قبل الرسالة ولم يتصف بصفات قومه من بلاغة أو فصاحة، وجاء بالقرآن معجزة فوق قدرة كل بيان أو بلاغة؛ ليكون القرآن منهجاً له في دعوته ومعجزة شاهدة على صدق بلاغه عن ربه تعالى.

هكذا كان اختيار الله للرسول طفلًا يتيماً أميناً فقيراً وإن انتمي لأعرق القبائل مكانة يؤمن به المستضعفون أولًا، ثم يتبعهم الأقوياء ينشر دعوته بالأسوة الحسنة، والمنهج الحق، يحب المؤمنين فيدعو لهم، ويحبه المؤمنون لأنه أسوة لهم.



أبو بكر رضي الله تعالى عنه القدوة في التصديق

السؤال: كان أبو بكر يصدق كل ما يقوله الرسول ﷺ؛ ولذلك سمّي الصديق، فما أشهر مواقفه في تصديق رسول الله ﷺ؟

الجواب: من أشهر هذه المواقف أنه عندما حدث الرسول القوم بحادث الإسراء تزلزل بعضهم، وحاول بعض الكفار أن يزلزلوا إيمان أبي بكر الصديق بما جاء به محمد ﷺ.

قال الكفار لأبي بكر:

إن صاحبك محمداً يدّعي أن الله أسرى به الليلة إلى بيت المقدس؟

كان الكفار يظنون أن أبا بكر سينخلع ويتزلزل إيمانه بهذا الخبر، لكن أبا بكر قال:

إن كان قال ذلك فقد صدق.

إن إيمان أبي بكر بما يبلغ به الرسول، مسألة لا رجعة فيها، وصدق أبي بكر مع نفسه يؤكد أن تصديق محمد رسول الله بكل خبر يأتيه من السماء أمر مؤكد.

وهكذا ردَّ أبو بكر الصديق سهامَ الكيد إلى نحور أهل الكفر.

وهكذا ترك أبو بكر الصديق لنا قدوة حسنة، في تصديق كل ما جاء به رسول الله مبلغاً عن الله.

❁ ❁ ❁

العزيمة والرخصة

السؤال: إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه، هل من توضيح؟

الجواب: إن الحق أنزل القرآن جامعاً لحدود التشريع، وترك للإنسان في ضوء هذا التشريع، أن يسلك بما يرضي الدنيا والآخرة معاً في إطار الدين.

إن الحق يعفي الحائض من الصلاة؛ لأن جسدها في وقت الحيض لا يتحمل إلا أن يغسل الرحم نفسه بالدماء، وتتجدد فيها طاقة أرادها الله في مواعيد معلومة، ويعفيها الحق من الصوم، لأنها تفقد جزءاً من طاقتها في صراع جسدها مع الدم النازل.

والحق لا يعفي المسافر من الصلاة، بل يأمر المسافر- رغم المشقة- بأن يصلي، وإن رخص بقصر الصلاة.

والحق يأمر من لا يجد الماء بأن يتيمم.

هكذا نرى أن الحق قد أنزل التكليف، وأنزل الرخص التي يمكن أن تعفي من التكليف؛ لذلك فليس من حق أحد أن يقول ليس هذا التكليف الرباني في طاقتي.

إن الحق يقرر ما هو نافع للبشر بالفضل والرحمة.

۞ ۞ ۞

الفرق بين ارتكاب الفاحشة وظلم النفس

السؤال: بعض الناس حين يقرأون قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ [النساء: ١١٠] يتساءلون: أليست الفاحشة والسوء هما ظلم للنفس، فالذي يظلم نفسه يقودها إلى العذاب، بل إن بعض الناس يقولون: إن العطف هنا غير واجب.

الجواب: إنني أقول لهم إن دقة التعبير، ودقة الكلام من عظمة القائل، والله سبحانه وتعالى يبين لنا إعجاز القرآن، فكأنه يقول لنا: إن هناك فارقاً بين من يفعل سوءاً أو فاحشة، ومن يظلم نفسه، ما هو الفارق؟

الذي يفعل سوءاً أو فاحشة يفعلها ليحقق لذة عاجلة، كنفس ضعيفة يغلبها الهوى وتخضع لبريق الدنيا، أو إنسان شرب الخمر فحقق لنفسه لذة زائفة، أو إنسان زنا، فحقق لنفسه شهوة عاجلة وإن كانت في الحرام، إنسان سرق مال غيره، فحقق لنفسه شهوة عاجلة بالتمتع بهذا المال الحرام. كل هذه النماذج هي مثل للإنسان الذي يفعل السوء أو الفاحشة.

أما الإنسان الذي يظلم نفسه فهو إنسان آخر، إنه يرتكب إثماً ولا يستفيد منه، لا يحقق لنفسه شيئاً في الدنيا ولا في الآخرة، هذا الإنسان هو الذي قد ظلم نفسه بمعنى أنه لا أعطاها شيئاً عاجلًا ولا نجّاها من عذاب الآخرة.

ومن الناس من يبيع دينه بدنياه، ومنهم من يبيع دينه بدنيا غيره، الذي يبيع دينه بدنياه يطلب العاجلة، أما من باع دينه بدنيا غيره، خاب في الأولى والآخرة، ولكن كيف يظلم الإنسان نفسه؟ فالإنسان حين يشهد زوراً ليؤذي غيره لم يستفد شيئاً، بل ظلم نفسه، بأن ارتكب إثماً، دون أن يحقق نفعاً دنيوياً. وإذا قبض ثمن شهادة الزور، يكون قد حقق نفعاً دنيوياً، ولكن الذي يظلم نفسه، هو الذي يفعل ذلك ليرضي غيره، ونجد كثيرين في الدنيا مثل هؤلاء.

إنسان يتهم آخر بتهمة باطلة، لا يستفيد هو شيئاً، ولكنه يرتكب الإثم، إذن

هو ظلم نفسه، إنسان يكتب تقريراً كاذباً في إنسان ليمنع ترقيته، أو يتطوع بحديث يختلقه عن شخص ليمنع الخير عنه أو يؤذيه، أو يشي بشخص كذباً ليدخله السجن، أو يتجسس على إنسان ليلفق له تهمة لمجرد الانتقام التافه، كل هؤلاء يظلمون أنفسهم، إنهم يرتكبون الإثم في الدنيا، على الرغم من عدم استفادتهم منه في دنياهم، ولا في آخرتهم، فكأن الذي ظلم نفسه هو الذي أدخلها النار، هو الذي جعلها ترتكب الإثم، وفي نفس الوقت لم يعطها شيئاً على وجه الإطلاق، فهو ظالم لنفسه في الدنيا، ظالم لنفسه في الآخرة.

❁ ❁ ❁

معنى كلمة آمين

السؤال: إننا نقول في آخر سورة الفاتحة كلمة آمين فما معنى هذه الكلمة في رأي فضيلتكم؟

الجواب: «آمين» تعنى: اسم فعل، هو استجب ولنلاحظ ملاحظة أخرى.

إننا نقول: «آمين» بعد أن نقرأ الفاتحة.

ونقول: «آمين»، بعد أن نسمع الفاتحة.

فساعة أن يقرأ الإنسان الفاتحة، فإنه يقول: في آخرها «آمين» فإنه ومعناها: هنا إنني دعوت يا رب، وأنا لا أقتصر على الدعاء.

ولكني أدعو أيضاً حتى يستجاب الدعاء.

فساعة أن أقرأ الفاتحة فأنا أدعو: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

هنا أقول: «آمين» بمعنى أني أدعو الله؛ ليستجيب لدعائي.

إنني أتعلق بكل الحب، في أن أطلب منك يا رب السموات والأرض، الهداية إلى الصراط المستقيم، الذي أنعمت به على عبادك المتقين، ولا أكون أبداً من هؤلاء الذين عرفوا أنك حق وأنكروك، أو تجعلني يا رب ممن يتوهون عن فضل التعرف إليك وبك ولك.

هكذا يكون مطلب المؤمن بقوله: «آمين» مطلبين:

أولاً: إما أن يجيب الله دعاء المؤمن حين قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

والثاني: هو أن يكرر طلب استجابة الدعاء؛ لأن المطلوب وهو الهداية، وهو أمر يهتم به المؤمن كثيراً.

وهكذا كانت رحلتنا مع معنى الفعل الذي تختتم باسمه فاتحة الكتاب، «آمين».

الفعل هو: «يا رب استجب».

وكانت رحلتنا خلال اسم المجيب الرحمن القريب، رأينا فيها:

○ استجابة الله لدعوة المضطر.

○ استجابة المؤمن لدعوة الله والرسول.

○ استحالة استجابة أي كائن في الكون، لأي رغبة إنسانية إلا أن يكون المجيب هو الله.

فإذا كنا نطلب في فاتحة الكتاب التربية الإيمانية بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

ونطلب الهداية إلى الصراط المستقيم.

ونخصص نوع الصراط المستقيم بأنه صراط الذين أنعم الله عليهم بالإيمان، ولم تكن قلوبهم ضالة أو مغضوباً عليها.

إذا كان ذلك هو مرادنا من تلاوة الفاتحة سبع عشرة مرة في الصلوات الخمس كل يوم. فلا بد أن تكون الخاتمة لكل ما نطلب بصفاء وإيمان: أن نكون طامعين في استجابة الحق الكريم الرحمن الرحيم.



مسئولية ولي الأمر

السؤال: نريد من فضيلتكم أن تحدد لنا مسئولية ولي الأمر من وجهة نظر الإسلام وتضرب لنا مثالًا على ذلك من الخلفاء الراشدين؟

الجواب: رحم الله الفاروق عمر بن الخطاب حين تولى الخلافة بعد الصديق رضي الله تعالى عنهما، أتي بأقاربه وقال لهم:

- إن الله أمر بتطبيق منهج الإسلام، فوالذي نفسي بيده من خالف منكم أي شيء من ذلك لأجعلنه نكالًا للمسلمين.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعلم من أين تأتي الفتنة.

إنما تأتي من الأقارب الذين يظنون أنهم بقرابتهم لأولى الأمر، بمقدورهم أن يتمادوا في الخروج عن المنهج الإسلامي.

إن من ولي أمر المسلمين مسئول عن تطبيق أوامر الله تعالى على نفسه وعلى خاصته ويكون قدوة في ذلك للرعية كلها.

ولنتأمل كلمة طارق بن زياد وهو يغزو الأندلس حين قال للجنود: اعلموا حين يلتقي الفريقان، سوف أحمل على طاغية القوم لزريق وإني لقاتله إن شاء الله، فإن قتلته فقد كفيتم أمره، وإن قتلت أنا فلن يعوزكم واحد تسندون إليه أمركم، فأنا لم آمركم بأمر أنا عنه بمنجى منه.

هذا هو فن القيادة التي يتحدثون عنها الآن، إنها مطلب ديني قام بها المسلمون من قبل فسادوا الدنيا شرقاً وغرباً.

إذن. . . كل أمر بمعروف أو نهي عن منكر يبدأ بالتطبيق على القيادة أولًا.

وذلك الأمر مطلوب بشدة اليوم في الداعين إلى الإسلام والمبلغين منهجه.

ذلك أن خروج أي داعية للإسلام عن منهج الله لا يحيق السوء به وحده، ولكن السوء يلحق بالدعوة نفسها، عندئذ يتهم الناس الدعوة بأنها نفاق أو خداع، وحاشا لله أن يكون الإسلام نفاقاً أو خداعاً.

لذلك، المطالع لكتب التاريخ والسير يرى أن الإسلام انتشر بالأسوة السلوكية.

معنى الأغيار

السؤال: الأغيار كلمة تتردد كثيراً على ألسنة العلماء والفقهاء. فما معنى هذه الكلمة؟

الجواب: عندما يستحضر الإنسان عظمة الحق سبحانه، فإنه يتضاءل أمام نفسه، ولا يحس بقوة إلا على أساس أنها نعمة من الله تعالى عليه.

إن قوة الإنسان في أي مجال هي من الأغيار.

ما معنى الأغيار؟

معنى ذلك أن قوة الإنسان أو موهبته في مجال ما، قد تنتقل من إنسان إلى آخر.

قد أكون غنياً ثم أفقد ثروتي.

قد أكون موهوباً وقد يخرج واحد غيري يملك من الموهبة ما يفوق موهبتي.

إن كل المواهب والعبقريات والثروات هي من الأغيار التي تنتقل بإرادة الله من إنسان لآخر.

لذلك فلا بد من أن يخضع الإنسان لمن لا يتغير وهو الله سبحانه وتعالى.

وحين يخضع الإنسان لله تعالى فإن الحق سبحانه يهبه التواضع، أما الذين يغترون بالأسباب فهؤلاء نقول لهم اخضعوا لواهب الأسباب وخالقها سبحانه إنه الله الواحد لا يتغير، لذلك لا يصح أن يغتر الإنسان بالأسباب ولا يصح أن يستعلي الإنسان بالأسباب.

إنما الإنسان قد تسول له نفسه أنه وصل إلى مرتبة الكمال في شيء ما وقد يلتف حول هذا الإنسان من المادحين والمنافقين الذين يضخمون من صفات الإنسان فيظن المسكين أنه كامل.

لمثل ذلك الإنسان نقول:

- تذكر أنك من الأغيار وأنك مستخلف في أمور الدنيا ولو دامت لغيرك ما

وصلت إليك؛ لذلك يجب أن تخشع لله وتخضع له.

والخشوع والخضوع لله تعالى يمنح الإنسان ميزة الصبر والقدرة على تحمل المشاق، واستحضار عظمة الخالق وهو يصلي أمامه وإليه.

والخاضع لله ينزه جسمه عن أن يدخله الشيء الحرام.

الخاشع لله يحلو له الصبر والمصابرة.

الخاشع لله لا يفجع أحداً في ماله أو رزقه.



الإسلام والتنظيمات الاجتماعية المعاصرة

السؤال: كيف جاء الإسلام بكل أمر يحسن وضع الإنسان، وهل للتنظيمات الاجتماعية المعاصرة أصل في الإسلام؟

الجواب: علينا أن ننتبه إلى أن كل الأمور التي تحسن من وضع الإنسان في الدنيا لها أصل في الإسلام، بل هي مأخوذة من الإسلام، لا كدين ولكن كعادات اجتماعية ألجأتهم حياتهم إلى الاستعانة بها؛ لذلك يجب ألا ننسبها إلى غير الإسلام.

مثال ذلك:

التأمين الاجتماعي، البعض يقول عنه: إنه اشتراكي، والحقيقة أنه نظام إسلامي أخذه الاشتراكيون من الإسلام.

إن أي أمر جميل له أصل في الإسلام. لذلك يجب ألا ننسب أي جمال في الدنيا لغير الإسلام.

لماذا ننسب جمال مبادئ الإسلام إلى مذاهب أخرى؟!

وهذا شوقي أمير الشعراء يتحدث عن رسول الله ﷺ فيقول:

الاشتراكيون أنت إمامهم ... لولا دعاوى القوم والغلواءُ

داويت متئداً وداووا طفرة ... وأخف من بعض الدواء الداءُ

هذا قول أمير الشعراء في هؤلاء الذين أرادوا أن ينسبوا العدل الاجتماعي لغير الإسلام.

إن محمداً جاء بالعدل الاجتماعي سابقاً لأي منهج آخر يدّعي لنفسه العدل الاجتماعي.

بل إن منهج محمد ﷺ كان يداوي بالجرعات المناسبة؛ حتى يشفي الناس من داء الاستغلال، بينما المذاهب غير الإسلامية لا تعرف الجرعة المناسبة لذلك الداء.

إن الدواء الذي جاء به رسول الله قادم من عند الله الخالق الأعظم والشافي بمنهجه لكل أمراض المجتمعات.

إتقان اللغة العربية شرط للولاية

السؤال: هل يشترط في الوالي أن يكون متقناً للغة العربية؟

الجواب: نعم. وسأضرب لك مثلًا على ذلك: إنه حين ولي أبو جعفر المنصور الخلافة وصعد إلى المنبر ولحن في كلامه لحنة،

وكان هناك عربي يجلس بين المستمعين فصر أذنيه أي «طرطأ» أذنيه، هذه معناها أنه سمع كلمات لا تعجبه.

وأخطأ أبو جعفر المنصور خطأ آخر في اللغة وكسر الإعراب في جملة قالها:

فقال العربي: «أف لهذا الرجل» قالها استهجاناً.

وأخطأ أبو جعفر المنصور خطأ ثالثاً في اللغة، فوقف وقال له:

- يا أبا جعفر أشهد أنك قد وليت هذا الأمر بقضاء وقدر.

أي أن العربي يرى أن الخليفة لا يليق بمكانه والياً للمسلمين، لولا القضاء والقدر؛ لأن والي المسلمين عليه أن يتقن اللغة إتقاناً.

۞ ۞ ۞

المرأة بين البيت والعمل

السؤال: هل خروج المرأة للعمل يتعارض مع وظيفتها الأساسية وهي أن تكون ربة بيت. وما رأي فضيلتكم في ذلك؟

الجواب: إن قيام الرجل بأنواع مطلوبة لحركة الحياة لا يقلل من قيمة المرأة التي عليها مهام كبيرة في أن يكون البيت منسجماً هادئاً يسكن فيه الرجل وينشأ فيه الأبناء.

وليس قيام المرأة بتربية الأبناء، أو إدارة المنزل بما يجعله سكناً للزوج، ليس هذا العمل هيناً؛ لأن ذلك العمل تكريم للمرأة كوعاء للحياة، إنها تحمل الطفل وترضعه وتربيه وتغذيه بالحنان والطعام، وتدبر أمور البيت؛ ليكون مكاناً صالحاً لحياة الأسرة كلها.

وإذا كانت المرأة قد خرجت إلى العمل في العصر الحديث، فلنا أن نلحظ أن طاقتها على إدارة بيتها تقل، وأن رعايتها لأبنائها تقل وأن توترها يزداد وإحساسها بالذنب تجاه الأسرة يتغلب على مشاعرها، ثم متاعب العمل مع متاعب البيت في آن واحد، مما يجعلها تشكو من الإرهاق وتبدد سعادتها مع الانسجام المفروض أن تحققه مع أسرتها، فهي في العمل مشغولة بالأسرة، ومع الأسرة مشغولة بالعمل، مما يفقد المرأة استقرارها النفسي.

إن العلم المعاصر قد عاد مرة أخرى للحديث عن ضرورة أن تكون المرأة ربة بيت ومتعلمة، ولا يعني أن وظيفتها كربة بيت لا تحتاج إلى علم، لا، إنها تحتاج إلى علم كامل يشتمل الآن على تخصصات كثيرة في فروع العلم المعاصر، وتكفي مهمة واحدة تنقسم الآن إلى علوم عديدة وهي التربية.

وإذا كان خروج المرأة إلى العمل لحاجة في المجتمع، فعلينا أن نعرف أن مثل هذا الخروج للعمل يبدد الكثير من طاقة المرأة في إدارة أمور البيت، ويفقد البيت معنى السكن، ولنا أن نقدر تضحية المرأة بخروجها إلى العمل

لمساعدة الزوج في اجتياز أزماته، مع ضرورة الالتفات إلى أن المرأة التي حباها الله بزوج قادر على أن يجعلها تختص بمسئوليات تربية الأبناء، هذه المرأة عليها أن تقبل على ذلك الأمر براحة، وليس ذلك تقليلاً من شأن المرأة، ولكنه تكريم لمهمة أساسية في المجتمع وهي تنشئة الأبناء بعيداً عن ويلات افتقاد الأم في زحام العمل.



الآثار الإسلامية . . وماذا نستفيد منها

السؤال: ماذا يستفيد المسلم من آثارنا الإسلامية؟ وكيف تكون نظرتنا إلى هذه الآثار؟

الجواب: عندما نذهب إلى متحف ما ونرى المصحف الذي كان يقرأ فيه الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، فإننا نتذكر أيام جمع المصحف الشريف من الصحاف، إن هذا المصحف لا يختلف عن أي مصحف آخر من حيث الآيات أو الكلمات، ولكنه يثير في النفس الصلة الندية وصلة جهاد المسلمين الأوائل في الحفاظ على الكتاب الذي أنزله الله على رسوله ﷺ.

وعندما نذهب إلى متحف آخر فنرى السيف الذي كان يحارب به الإمام عليّ رضي الله تعالى عنه، ونرى أن وزنه ثقيل يفوق وزن عشرة سيوف، فعلينا أن نتساءل أي قوة إيمانية كانت تدفع عليًّا رضي الله تعالى عنه ليحمل كل هذا السيف؟ فنعلم أن الإيمان بالله يعين المؤمنين برسالة رسول الله ﷺ في أمور تشق على النفوس.

وعندما نرى في مكان آخر «شعرة» من شعر النبي ﷺ، أو نرى المكحلة التي كان النبي ﷺ يكتحل بها فنتذكر أيام الوحي وصلة السماء بالأرض وهدى رسول الله ﷺ في التطيب فنتأسى به صلوات الله وسلامه عليه.

إن هذه الرؤية لتلك الآثار تثير في النفس لوناً من السكينة والإشراق.

لكن لا بد أن نبتعد في نظرتنا إلى هذه الآثار عن الوثنيات، فهذه الآثار لا تشفع لنا إنما هي تذكرنا فقط بأمر يتصل بالنبي الكريم ﷺ وصحابته رضوان الله تعالى عليهم.

هكذا تكون النظرة إلى الآثار.

وهكذا تكون ضرورة العناية بتلك الآثار.

❁ ❁ ❁

وجعلنا من الماء كل شيء حي

السؤال: كيف خلق الله الماء؟ وكيف جعل منه كل شيء حي؟

الجواب: إن الحق تبارك وتعالى خلق الأرض وجعل ثلاثة أرباع مساحتها تقريباً من الماء، والربع من الكرة الأرضية تقريباً هو اليابس، إن الحق تبارك وتعالى حين يوسع سطح الماء في مخازنه وهي البحار والمحيطات، فإن هذه المسطحات العريضة تتعرض للبخر على قدر اتساع سطحها.

ولنا أن نلحظ أنه كلما اتسع سطح المساحة التي يوجد بها الماء، زادت أيضاً نسبة التبخر منها، إذا كان ضوء الشمس مسلطاً عليها.

فإذا أحضر واحد منا كوب ماء وسكبه في حجرة مساحتها عشرون متراً على سبيل المثال، فإن الماء يتبخر بعد دقائق، ولنا أن نعرف أنه على قدر اتساع البحار، وعلى نظام دوران الأرض وشروق الشمس، وغروبها، على هذه العوامل تكون عملية البخر التي تتكون منها السحب، ويصعد بخار الماء إلى السماء؛ ليحمله الريح، ثم يتم تلقيح البخار فيجتمع ويصير سحاباً ويمطر، فنأخذ من الماء ما نشربه ونسقي الأنعام ونروي الزرع، وما يتبقى يتسرب إلى جوف الأرض ليبقى فيها، إلى أن يقابل قاعاً صخرياً في باطن الأرض يحمله كمخزون للمياه الجوفية، وتمشي هذه المياه الجوفية إلى الأماكن التي لا توجد بها مياه مطر لترويها.

ويلفتنا الحق تبارك وتعالى إلى دورة المياه الطبيعية من السماء إلى الأرض حيث تسير في مسارات لم يعرفها البشر عمليًا إلا في القرن الثامن، وكيف يكون الماء هو الذي يساعد النبات على الحياة والنمو، فيكبر النبات وينضج ويجف، وكأن الماء له دورة في الحياة تعتمد عليها دورة حياة النبات، وفي ذلك عبرة لكل من يملك عقلًا يبصر الحقائق في ذلك الكون.

ولذلك نرى الناس ترفع أيديها إلى الله داعية لطلب السقيا؛ ولذلك شرع الإسلام الدعاء حين يأتي الجفاف، أن نخرج إلى الخلاء ونضرع إلى الله أن يمطر لنا الماء.

ونأخذ معنا ضعافنا من كبار السن والأطفال الرضع والبهائم.

لماذا نأخذ هؤلاء؟ لأننا نرجو من الله أن يرحمنا ويسقينا بسببهم(١).

❁ ❁ ❁

(١) عن عبد الله بن أبي نمر أنه سمع أنس بن مالك يذكر أن رجلًا دخل يوم الجمعة من باب كان وجاهَ المنبرِ ورسولُ الله ﷺ قائمٌ يخطبُ ، فاستقبلَ رسول الله ﷺ قائماً فقال : يا رسول الله هَلكَتِ المواشي ، وانقطعت السبل ، فادع الله يُغيثُنا . قال : فرفعَ رسولُ الله ﷺ يديه فقال : « اللّهم اسقنا ، اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا » . قال أنسٌ : ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيئاً ، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار . قال : فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس . فلما توسطت السماء انتشرت ، ثم أمطرت – قال : والله ما رأينا الشمس سبتًّا . ثم دخل رجلٌ من ذلك الباب في الجمعة المقبلة – ورسولُ الله ﷺ قائمٌ يخطبُ – فاستقبلَهُ قائماً فقال : يا رسول الله هلكت الأموالُ ، وانقطعت السبل ، فادعُ الله يُمْسِكُها . قال : فرفعَ رسولُ الله ﷺ يديه ثم قال : « اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الإكام والظراب والأوْدية ومنابت الشجر » . قال : فانقطعت ، وخرجنا نمشي في الشمس. قال شريكُ : فسألتُ أنساً : أهو الرجل الأول ؟ قال : لا أدري.

[أخرجه البخاري : ١٠١٣]

التواصي بالحق والصبر

السؤال: لماذا كان الأمر الإلهي بالتواصي بالحق والصبر، وما معنى التواصي؟

الجواب: إن الله يعلم أن النفس البشرية قد تضعف أمام التكاليف الإيمانية وتختلف ألوان الضعف من إنسان لآخر، فواحد يكون ضعفه هو الكسب الحرام على الرغم أنه في بقية سلوكه يلتزم بالإسلام.

وواحد آخر يكون ضعفه «المرأة» أي: يكون كثير العشق، ضعيف النفس، رغم أنه في بقية سلوكه ملتزم بالإسلام.

وثالث يكون ضعفه احتساء الخمر، رغم أنه في بقية سلوكه ملتزم بالإسلام.

وتطبيقاً عملياً في المثال الذي ضربناه لهؤلاء الثلاثة المسلمين، لكن كل واحد منهم به نقطة ضعف.

هنا يتدخل التواصي بينهم في تكافل ديني إيماني يحقق آثاره الحميدة.

بمعنى أن صاحب الخمر إذا قال لصاحب الكسب الحرام كلمة هي أن سلوكك كله سلوك مؤمن، فلماذا لا تكف عن الكسب الحرام؟

في هذا القول تشجيع وتواص؛ لأن يستكمل صاحب المكسب الحرام دينه بالابتعاد عن الكسب الحرام.

وقد يقول صاحب الكسب الحرام لصاحب الخمر: «إن عليك أن تستكمل إيمانك بأن تترك معصية شرب الخمر ليكتمل لك رشدك».

وبهذا التواصي قد يبتعد المسلم الذي وقع في نقطة ضعف الخمر عن احتساء ما يغضب الله.

وإذا قال الاثنان لمن نقطة ضعفه النساء: لقد اكتمل لك ما في الإسلام من عقيدة وسلوك، فلماذا تفسد إيمانك بأن تنظر إلى غير ما أحله الله لك؟

هنا قد يبتعد ضعيف القلب أمام النساء عن عصيان الرحمن في تلك النقطة.

هكذا يكون التواصي تربية، من خلال الصدق المهذب والصداقة، التي تقدر لأهلها تربية النفس لكل منهم.

إن الله يعلم ألوان الضعف الإنساني في عباده أمام التكاليف الإيمانية.

إن الخالق العليم، عليم بباطن أي أمر وظاهره؛ لذلك فهو يعلم أن أي إنسان مسلم غير معصوم من الزلل أو النقص أو الخطأ، فكيف يقاوم المسلم زلته وضعفه الإنساني؟

إن مقاومة هذا الضعف الإنساني تأتي من التواصي بالحق، والتواصي بالصبر بين الإخوة المؤمنين.

ما معنى «التواصي»؟ إنه ليس أبداً فرض وصاية من إنسان على آخر، ولكن أن يحاول كل إنسان مؤمن تذكير أخيه المسلم بالحق الإيماني والتكليف الرحماني، وأن نشترك معاً وجميعاً في التواصي؛ حتى لا يصيبنا الضعف في أي مسألة إيمانية.

إن التواصي في جوهره ليس تفرد واحد بالوصاية على الآخرين، ولكن يتواصي كل مسلم وكل مجتمع إيماني؛ حتى لا يقع الإنسان المؤمن في ضعف إنساني.

إن الله يريد من كل مسلم أن يتواصي مع أخيه حتى نكون جميعاً جنوداً في الإسلام، لا نضعف ولا تهن عزائمنا.

إن الله يريد من أهل الإيمان أن يكون عمل كل منهم صالحاً، وعندما تجتمع الأعمال الصالحة في تناسق وانسجام وترابط، حينئذ لا يستطيع أهل الباطل أن يهزموا أهل الإيمان؛ لأن كل مؤمن يقوي نفسه بتوصية أخيه له. وكل مسلم مستند على سند من تواصي المؤمنين بعضهم ببعض.

ولم يقتصر الأمر الإلهي بأن يأمر أهل الإيمان بالتواصي بالحق فقط، ولكن أرشدهم إلى التواصي بالصبر أيضاً.

لماذا؟

لأن الله يعلم أن المؤمنين به سيتعرضون دائماً لعدوان أهل الباطل؟

فإذا تواصي المؤمنون بالصبر على أي مكروه، ففي هذا الصبر عزيمة وقوة وتأكيد لحقيقة الإيمان بالله؛ حتى يزهق الباطل، وينتصر الحق.

وصدق[١] الله العظيم: إذ يقول: ﴿وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ : ٣].

---

(١) قال ابن القيم في بدائع التفسير: قوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾.

قال الشافعي رضي الله تعالى عنه: لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم، وبيان ذلك أن المراتب أربع باستكمالها يحصل للشخص غاية كماله.

إحداها: معرفة الحق.

الثانية: عمله به.

الثالثة: تعليمه من لا يحسنه.

الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى، وتواصوا بالحق ووصي بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات فهذه مرتبة رابعة، وهذا نهاية الكمال؛ فإن الكمال أن يكون الشخص كاملًا في نفسه مكملًا لغيره، وكماله بإصلاح قوتيه به العلمية والعملية؛ فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل. فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه شافياً من كل داء هادياً إلى كل خير.

وقال رحمه الله تعالى:

لم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه، حتى يوصي بعضهم بعضاً به ويرشده إليه ويحضه عليه، وإذا كان من عدا هؤلاء خاسراً فمعلوم أن المعاصي والذنوب تعمي بصيرة القلب، فلا يدرك الحق كما ينبغي، وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه بل قد يتورد على القلب حتى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره، فيدرك الباطل حقاً والحق باطلًا، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً، فينتكس في سيره ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة إلى سفره إلى مستقر النفوس المبطلة التي رضيت بالحياة الدنيا واطمأنت لها وغفلت عن الله وآياته وتركت الاستعداد للقائه. ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها لكانت داعية إلى تركها والبعد منها. والله المستعان.

وقال رحمه الله تعالى:

ولهذا قال الشافعي: لو فكر الناس كلهم في هذه الآية لوسعتهم. وذلك أن العبد كماله في تكميل قوتيه: قوة العلم وقوة العمل، وهما الإيمان والعمل الصالح. وكما هو محتاج إلى تكميل نفسه، فهو محتاج إلى تكميل غيره وهو التواصي بالحق =

....

= والتواصي بالصبر ، وأخية ذلك وقاعدته وساقه الذي يقوم عليه إنما هو الصبر .

وقال رحمه الله تعالى :

فأقسم سبحانه وتعالى بالدهر الذي هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة على أن كل واحد في خسر إلا من كمل غيره بوصيته له بذلك ، وأمره إياه به وبملاك ذلك وهو الصبر ، فكمل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وكمل غيره بتعليمه إياه ذلك ووصيته له بالصبر عليه ؛ ولهذا قال الشافعي رحمه الله : لو فكر الناس في سورة : والعصر لكفتهم .

وقال رحمه الله تعالى :

أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر ، إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان وقوته العملية بالعمل الصالح ، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه فالحق هو الإيمان والعمل ، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما والتواصي بهما ، كان حقيقاً بالإنسان أن ينفق ساعات عمره - بل أنفاسه - فيما ينال به المطالب العالية ، ويخلص به من الخسران المبين ، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره ، واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه ، وصرف العناية إليه والعكوف بالهمة عليه ، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد والموصل لهم إلى سبيل الرشاد ، فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد الصحيحة كلها لا تقتبس إلا من مشكاته ولا تستثمر إلا من شجراته .

وقال رحمه الله تعالى :

قال : لو أن الناس أخذوا كلهم بهذه السورة لوسعتهم أو كفتهم ، كما قال الشافعي رضي الله تعالى عنه : لو فكر الناس في سورة العصر لكفتهم . فإنه سبحانه قسم نوع الإنسان فيها قسمين خاسراً ورابحاً ؛ فالرابح من نصح نفسه بالإيمان والعمل الصالح ، ونصح الخلق بالوصية بالحق المتضمنة لتعليمه وإرشاده ، والوصية بالصبر المتضمنة لصبره هو أيضاً . فتضمنت السورة النصيحتين ، والتكميلتين ، وغاية كمال القوتين : بأخصر لفظ وأوجزه وأهذبه ، وأحسنه ديباجة وألطفه موقعاً .

أما النصيحتان : فنصيحة العبد نفسه ، ونصيحته أخاه بالوصية بالحق والصبر عليه . وأما التكميلان : فهو لتكميله نفسه ، وتكميله أخاه . وأما كمال القوتين : فإن النفس لها قوتان قوة العلم والنظر وكمالها بالإيمان ، وقوة الإرادة والحب والعلم وكمالها بالعمل الصالح ، ولا يتم ذلك لها إلا بالصبر . فصار ههنا ستة أمور : ثلاثة يفعلها في نفسه ، ويأمر بها غيره ؛ تكميل قوته العلمية بالإيمان ، والعملية بالأعمال الصالحة ، والدوام على ذل بالصبر عليه ، وأمره لغيره . بهذه الثلاثة فيكون مؤتمراً بها متصفاً بها معلماً لها داعياً إليها ، فهذا هو الرابح كل الربح ، وما فاته من الربح بحسبه وحصل له نوع مع الخسران . والله تعالى المستعان وعليه التكلان .

إقسامه سبحانه وتعالى (بالعصر) على حال الإنسان في الآخرة ، هذه السورة على غاية =

....

= اختصارها لها شأن عظيم ، حتى قال الشافعي رحمه الله: لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم.
والعصر المقسم به، قيل: هو أول الوقت الذي يلي المغرب من النهار. وقيل: هو آخر ساعة من ساعاته، وقيل : المراد صلاة العصر. وأكثر المفسرين على أنه الدهر، وهذا هو الراجح، وتسمية الدهر عصراً أمر معروف في لغتهم. قال:

ولن يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

ويوم وليلة بدل من العصران، فأقسم سبحانه بالعصر لمكان العبرة والآية فيه، فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام، وتعاقبهما واعتدالهما تارة، وأخذ أحدهما من صاحبه تارة، واختلافهما في الضوء، والظلام، والحر والبرد، وانتشار الحيوان، وسكونه، وانقسام العصر إلى القرون، والسنين، والأشهر، والأيام، والساعات وما دونها- آية من آيات الرب تعالى، وبرهان من براهين قدرته وحكمته.
فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان، والفاعلين، وأفعالهم على المعاد، وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد، وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين خيراً وشراً، تأبى أن يسوى بينهم، وأن لا يجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنساني خاسر، إلا من رحمه الله، فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به. وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين، واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين.
وتأمل حكمة القرآن لما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] فإنه ضيق الاستثناء وخصصه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]. ولما قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] وسع الاستثناء وعممه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [التين: ٦] ولم يقل ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد فعله. فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح، فصار في خسر، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين، فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة، وقد تكون فرضاً على الأعيان، وقد تكون فرضاً على الكفاية، وقد تكون مستحبة.
والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب، والحق الذي يستحب. والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب، والصبر الذي يستحب. فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ولم يأمروا =

....

= غيرهم به، وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء، وهو سبحانه إنما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قد يطلق عليه أنه في خسر وأنه ذو خسر، كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لقد فرطنا في قراريط كثيرة. فهذا نوع تفريط، و هو نوع خسر بالنسبة إلى من حصل ربح ذلك.

ولما قال في سورة والتين ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٦] فقسم الناس إلى هذين القسمين فقط، ولما كان الإنسان له قوتان: قوة العلم، وقوة العمل. وله حالتان: حالة يأتمر فيها بأمره غيره، وحالة يأمر فيها غيره، استثني سبحانه من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وانقاد لأمر غيره له بذلك، وأمر غيره به من الإنسان الذي هو في خسر، فإن العبد له حالتان: حالة كمال في نفسه، وحالة تكميل لغيره. وكماله وتكميله موقوف على أمرين: علم بالحق، وصبر عليه، فتضمنت الآية جميع مراتب الكمال الإنساني، من العلم النافع، والعمل الصالح. والإحسان إلى نفسه بذلك، وإلى أخيه به، وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

والصبر نوعان: نوع على المقدور، كالمصائب، ونوع على المشروع. وهذا النوع أيضاً نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي، فذاك صبر على الإرادة والفعل، وهذا صبر عن الإرادة والفعل. فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، لا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار، قال النبي ﷺ في حق ابنته «مرها فلتصبر ولتحتسب». وقال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٢٥] وقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٢٠] فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى، وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور. وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر، فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا، وما خفوا ولا استخفوا، فمن قل يقينه قل صبره، ومن قل صبره خف واستخف، فالموقن الصابر رزين، لأنه ذو لب وعقل، ومن لا يقين له، ولا صبر عنده خفيف طائش تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف. والله المستعان.

بدائع التفسير لابن القيم [٥/ ٣٢٥: ٣٣١].

كيف نقضي على الوشاية؟

السؤال: من الرذائل التي يعاني منها المجتمع رذيلة الوشاية، فكيف قضى بعض حكام المسلمين عليها؟

الجواب: تروي كتب التاريخ أن زياد بن أبيه كان حاكماً به قوة وله بطش فتاك، جاء إليه رجل يحمل وشاية بهمام بن عبد الله السالومي.

قال زياد للواشي: أأجمع بينك وبين عبد الله؟

وخاف الواشي أن يقول لا؛ فيناله بطش زياد.

وأرسل زياد إلى ابن همام، وجاء ابن همام.

وأدخل زياد الواشي وراء ستارة.

قال زياد لابن همام: بلغني أنك هجوتني.

قال ابن همام: كلا أصلحك الله ما فعلت ولا أنت لذلك بأهل.

فجذب زياد الستارة وقال: إن هذا الرجل قد أخبرني.

هنا نظر ابن همام إلى الرجل؛ فوجده صديقاً ممن يجلس معهم فذهب إليه وتفرس في وجهه وقال له:

- أنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً، وإما قلت قولًا بلا علمي فأنت من الأمر الذي بيننا بمنزلة بين الخيانة والإثم.

هكذا قال ابن همام متهماً صديقه بأنه إما قد نقل كلمة قالها أمامه ليريح نفسه، وإما قد دس له قولًا مكذوباً.

وهنا أنعم زياد على ابن همام وأقصى عنه الواشي.

هذه نادرة ولكنها تحكي كقضية يعاني منها الوجود وتعالج قضية هامة من قضايا المجتمع، إنها قضية الوشاية وترسم للحكام الطريق الذي يجب أن يتبعوه مع من يقدمون لهم الوشايات، إن عليهم أن يتحققوا من الصدق وذلك حتى لا يشي إنسان بآخر، وبذلك ينصلح حال الحاكم، فيسمع الرأي الواضح من صاحبه بلا

رجعة وبلا خوف، ولا يرتفع واش على كومة من الأكاذيب الملفقة[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

قال ابن القيم: فإن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط لما بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق بعد الوقعة مصدقاً وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية فلما سمع القوم بمقدمه تلقوه تعظيماً لأمر رسول الله ﷺ فحدثه الشيطان: أنهم يريدون قتله فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ فقال: إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم، وأرادوا قتلي، فغضب رسول الله ﷺ وهم أن يغزوهم، فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي إليه ما قبلناه من حق الله، فبدا له في الرجوع فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله، فاتهمهم رسول الله ﷺ، وبعث خالد ابن الوليد خفية في عسكر، وأمره أن يخفي عليهم قدومه وقال له: «انظر فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم؛ فخذ منهم زكاة أموالهم وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار» ففعل ذلك خالد، ووافاهم فسمع منهم أذان صلاتي المغرب والعشاء فأخذ منهم صدقاتهم ولم ير منهم إلا الطاعة والخير، فرجع إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر، فنزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

والنبأ هو الخبر الغائب عن المخبر إذا كان له شأن، و «التبين» طلب بيان حقيقته والإحاطة بها علماً، وههنا فائدة لطيفة، وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة، وإنما أمر بالتبين فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق، ولو أخبر به من أخبر فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته، وكثير من الفاسقين يصدقون في أخبارهم ورواياتهم وشهادتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري وفسقه من جهات أخر، فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته، ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة، ولا سيما من فسقه من جهة الاعتقاد والرأي، وهو متحر للصدق فهذا لا يرد خبره ولا شهادته، وأما من فسقه من جهة الكذب؛ فإن كثر منه وتكرر بحيث يغلب كذبه على صدقه فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته وإن ندر منه مرة ومرتين ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله.

بدائع التفسير لابن القيم [٤/ ١٧٩ : ١٨٠].

يوم الجمعة . . وترك البيع عند الصلاة

السؤال: إن الله أمرنا بترك البيع إذا أذن المؤذن لصلاة الجمعة، لماذا خص البيع بالذات مع أن الإنسان يؤدي أعمالًا كثيرة؟

الجواب: إن الله تعالى جعل لنا في يوم الجمعة موعداً فرضه علينا، ليذكرنا بعزه، فنحن أمام الله جميعاً متساوون في كل شيء، الحاكم عبد، والمحكوم عبد، أكثر الناس عزاً وجاهاً يدخل المسجد حافي القدمين، ويجلس على الأرض، وأقل الناس عزاً وجاهاً يدخل المسجد بنفس الطريقة، لماذا؟، حتى يذكرنا الله سبحانه وتعالى، أن مناصب الدنيا لا قيمة لها عنده، وأن منازل الدنيا ليس معناه رضي من الله، فنغتر وتأخذنا العزة بالإثم، نحسب أن عطاء الله في الدنيا هو عطاؤه في الآخرة، أبداً فهذا غير صحيح، يأتي الإنسان إلى الدنيا فيعطيه الله الجاه والمنصب والمال، فيغتر، ويعتز ويأمر وينهى، ويمضي يميناً ويساراً، يحسب أنه في منعة، ثم تأتي صلاة الجمعة فيذهب، وأقل الناس شأناً عنده، يجلسان معاً على الأرض متساويين، وربما كان أقل الناس في الصف الأول، وهو في الصف الأخير، ويركعان معاً، ويسجدان معاً، لا فرق ولا منازل دنيوية هنا، لماذا؟، حتى لا يُنسى الإنسانَ غرورُه وما هو فيه من عز، حتى لا ينسيه هذا أن الله سبحانه وتعالى يريد عباداً، وأن العباد هم الذين يأتونه طائعين مختارين، وأنه إذا كان الله قد أعطاه في الدنيا، فليس هذا استثناء بالدخول إلى الآخرة في منزلة أكبر أو أعلى، فإذا تذكر ذلك وخرج من المسجد، ووقف أمامه رجل فقير ضعيف، فلا تجعله عزة الدنيا يفتري على هذا الرجل، بل يتذكر أنه عندما كان في المسجد كان هذا الضعيف المسكين في الصف الأول، وهو في الصف الأخير، فإذا تذكر ذلك تذكر الله وقوته، وأحس أن هذا الشخص قد يكون أقرب منه إلى الله، فيخاف، فلا يظلم ولا يغتر.

والعجيب أن بعض الناس يأتي إلى المسجد قبل الصلاة بدقائق، ثم يتخطى الرقاب؛ حتى يصل إلى الصف الأول، ويظل يزاحم ويزاحم، ويضايق

في المصلين حين يجد مكاناً له رغبة منه في نيل ثواب الله الوارد في حديث رسول الله ﷺ «أن الرحمات تنزل على الصف الأول فالذي يليه والذي يليه»، نقول لهذا الشخص من تخدع؟ وليس معنى أن الرحمات تتنزل على الصف الأول، أنك تأتي في اللحظة الأخيرة، ثم تحشر نفسك في الصف الأول، معتقداً أنك تخدع الله سبحانه وتعالى، إن الملائكة يقفون على باب المسجد يوم الجمعة، فيقيدون في صحائفهم الداخلين الأول فالأول، حسب وصولهم إلى المسجد، حتى يصعد الخطيب إلى المنبر، فإذا وصلت قبل الصلاة بدقائق فالزم مكانك، ولا تحاول أن تخدع الله سبحانه وتعالى؛ لأنك لن تستطيع أن تخدعه، ولا تتخط الرقاب، واعلم أن هذا هو بيت الله، ولن ينال ثواب التبكير فيه إلا لمن دخله أولاً، وإياك أن تتحدث في أمور الدنيا داخل المسجد، فالله لا يبارك في حديث الدنيا داخل بيته.

لقد اختص الله ضرورة ترك جانب البيع في التجارة عند النداء للصلاة يوم الجمعة، لأنه سبحانه يعلم أن أحب جانب إلى الإنسان هو: أن يكسب بمنتهى السرعة.

لم يقل ذروا الشراء، لماذا؟

لأن المشتري قد يذهب للشراء وهو كاره.

ولم يقل ذروا الزراعة. لماذا؟

لأن الزارع يعلم أن في الوقت متسعاً، فهو لا يضن على رزقه بالتعبد.

ولم يقل الله ذروا الصناعة. لماذا؟

لأن الصانع يعلم أن التوفيق والمهارة إنما هما عطاء من الله.

أما التاجر فهو يحب البيع، وقد تلهيه تجارته عن ميعاد الصلاة.

قد يغفل التاجر عن ميعاد الصلاة بسبب حب البيع.

لذلك جاءت الآية بإيضاح وجوب ترك قمة النفعية في أقصر طرقها فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩].

إن الله يأخذ جزءاً من وقت الإنسان باختيار الإنسان؛ ليعطيه ما هو أوفر ربحاً، ربح الدنيا والآخرة معاً[١].

(١) قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ أي اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا =

....

❁ ❁ ❁

= نودي للصلاة ولهذا اتفق العلماء رضي الله تعالى عنهم على تحريم البيع بعد النداء الثاني، واختلفوا هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا؟ على قولين وظاهر الآية عدم الصحة ما هو مقرر في موضعه والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ترككم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خير لكم أي في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون.

[تفسير ابن كثير ٤/٣٦٦-٣٦٧]

الجزاء على إتقان العمل

السؤال: ما جزاء الذين يتقنون أعمالهم هل هذا الجزاء في الدنيا أو في الآخرة؟

الجواب: إن الإنسان عندما يرى صنعة متقنة من قبل إنسان آخر فالإنسان يقول إحساساً بالجمال «الله»!

ينطق الإنسان لفظ الجلالة تعبيراً عن عمل أتقنه صاحبه.

والإنسان عندما يرى عملًا غير متقن لصانع آخر فإنه يدعو على الصانع بدعاء قاس هو:

يجازيه الله على حسب عمله.

والله لا يجازي مهملًا إلا بعقاب.

إن المهمل أو المفسد إنما يحرم الكون من ترديد لفظ الجلالة اعترافاً بالشكر وبنعمة إتقان العمل، والمهمل والمفسد إنما يفسدان في الأرض.

ولكن الإنسان الذي يتقن عمله، هو الذي ينشر في الكون صيحة الإعجاب والتقدير عندما ينطق المعجب بكلمة «الله»!.

إنه جزاء البركة في الرزق، والبركة في الحركة وراحة الضمير والترابط مع المجتمع الإيماني الإنساني بأخوة الإيمان.

أما المفسد في عمله أو المهمل فهو يحيا حياة الضنك، لا يبارك الله له في رزقه، ويفتقد التواصل مع ضميره، كما يفتقد الإحساس بأخوة الإيمان.

وفي كل عمل عندما نجد مهملًا أو مفسداً، أو مغالياً في الثمن، نجد أنه قد انتشر في المجتمع روح من الفردية التي لا تعرف التآخي الإيماني، فيظهر الفساد في المجتمع.

فمن أراد الجزاء الحسن، فعليه أن يوجه الطاقة إلى ما يرضي الله سبحانه وتعالى.

❁ ❁ ❁



الفهـارس

- فهرس الآيات القرآنيـة
- فهرس الأحاديث والآثار
- فهرس الموضــوعات

فهرس الآيات القرآنية

«سورة النساء»

«سورة الأنفال»

«سورة التوبة»

«سورة يونس»

فهرس الأحاديث والآثار

«حرف اللام»

«حرف الميم»

فهرس المحتويات

الجزء الثاني

الفهــارس